يوسف القرضاوي

ابْن القريَة والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة

الجزء الرابع



دار الشروق

ابْن القريَة والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة

ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة

«الجزء الرابع»

تأليف الدكتور يوسف القرضاوي

الطبعة الأولى ٢٠١١

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٤٠٦٠/٢٠١٠
ISBN 978_977_09_2885_1

يوسف القرضاوى

ابْن القريَة والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة

الجزء الرابع

دار الشروق

المحتويات

من الدستور الإلهي
القرآن الكريم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران: ١٩٣، ١٩٤).

من مشكاة النبوة

«اللهمّ اجعل في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، ومن أمامي نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعل لي في نفسي نورًا، وأعظِمْ لي نورًا»

متفق عليه عن ابن عباس

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»

رواه مسلم عن أبي هريرة

«اللهمّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهمّ اغفر لي خطئي وعمدي، وهزلي وجدي، وكل ذلك عندي، اللهمّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدّم وأنت المؤخّر، وأنت على كل شيء قدير»

متفق عليه عن أبي موسى

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، وعلى آله وصحبه، ومن يبذل في نصرة الحق جهده.

(وبعد)

فهذا هو الجزء الرابع من ملامح سيرة ومسيرة «ابن القرية والكتّاب»، وهو يشمل بضعة عشر عاما (حوالي ١٨ عاما) من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي، والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي:

على المستوى الشخصي تخرّج كل أبنائي. وتزوج كل بناتي. وأمسيت جدًّا لعدد من الأحفاد والحفيدات كلهم من بناتي، وعينت عميدا لكلية الشريعة ومديرًا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجحت في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. وعملت رئيسًا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية. كما اخترت عضوًا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوًا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن(مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي) وعضو مجلس أمناء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها. كما حصلت في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

وعلى المستوى العربي والإسلامي، انتصرت ثورة الإمام الخميني في إيران، وقامت الحرب العراقية الإيرانية، ووقع غزو صدام حسين للكويت، وانتصرت ثورة الإنقاذ في السودان، وقام أول حزب سياسي إسلامي رسميًّا في الجزائر (حزب الجبهة الإسلامية

للإنقاذ)، وانتصر المجاهدون الأفغان على الاتحاد السوفييتي، وكان ذلك من أسباب انهيار هذا الكيان الكبير، ولكن الأفغان الذين انتصروا على السوفييت لم ينتصروا على أنفسهم، وكما قلت لهم: لقد أحسنتم أن تموتوا في سبيل الله، ولم تحسنوا أن تعيشوا معًا في سبيل الله!

وفيها بدأت مسيرة الدعوة إلى السلام أو الاستسلام مع إسرائيل، ابتداء بـ «كامب ديفيد» وانتهاء بأوسلو. وبدأ كثير من العرب يقتربون ـ سرًّا أو علنًا ـ مع إسرائيل.

وفيها انتشرت جماعات «الجهاد» التي ترى فرضية استخدام العنف في مقاومة الحكام، واغتيل الرئيس المصري أنور السادات على يد إحداها.

وفيها انطلقت شرارة الانتفاضة الأولى في فلسطين، وظهور أطفال الحجارة، الذين يقاومون دبابات العدو ومصفّحاته بقذف الحصا والأحجار.

وفيها أُسِّست حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في فلسطين، مولودة من رحم الإخوان المسلمين في فلسطين، كما أسست ذراعها العسكري (كتائب عز الدين القسام).

واشتدّ ساعد الصحوة الإسلامية في الجزائر، واتَّسع نطاقها، واكتسح الإسلاميون فيها الانتخابات التشريعية، وعُطِّلت نتائجها، وقبض العسكر على أزمّة الحكم، وكانت فتنة عارمة في البلاد بين الحكومة العسكرية والمسلحين الإسلاميين.

وتفوقت في تركيا الحركة الإسلامية التي يقودها الرجل الأكاديمي المصلح المناضل د. نجم الدين أربكان، لينقل المسيرة إلى مرحلة جديدة، بعقلية جديدة.

وفي باكستان ظهر الجنرال ضياء الحق، القائد الذي أعلن ولاءه للإسلام وشريعته وقيمه، فأبت الصليبية الغربية إلا أن تخطط لاغتياله.

وتوفي الإمام أبو الأعلى المودودي، وخَلَفه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، قادوا مسيرة الدعوة وسط التيارات الهائجة والأمواج المتلاطمة.

كما انتشرت دعوة الإخوان المسلمين في نحو سبعين قطرا في أنحاء العالم.

ونشطت الدعوة السلفية في أقطار شتى، يسندها النفوذ السعودي والمال السعودي، ونشاط الدعاة السعوديين، وغير السعوديين، وإن كانت في داخلها قد انقسمت إلى اتجاهات مختلفة من ناحية تبني العنف أو عدمه، ومن ناحية التعامل مع الآخر.

وعلى المستوى العالمي، انتهزت أمريكا فرصة غزو الكويت لتقود تحالفًا دوليًّا ضد العراق، لتضرب أقوى جيش في المنطقة يهدد إسرائيل، بعد أن أخرجت جيش مصر من المعركة نهائيا باتفاقية «كامب ديفيد». ودخلت أمريكا المنطقة عسكريًّا وسياسيًّا بطلب حكامها، لتستقر فيها ولا تخرج منها، إلا أن يشاء ربي شيئًا.

وقام الاتحاد الأوربي وأصبح حقيقة واقعة، على حين بقي العرب والمسلمون شراذم، وقد تفرقوا شيعًا وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون.

وقد تميزت هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياتي:

الأول: الانتشار الكبير لي في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأمريكا الجنوبية، حتى سمّاني بعض الزملاء في ذلك الوقت: الشيخ الطائر! والحقيقة أني كنت دائم الأسفار والتجوال من بلد إلى آخر، فلا أكاد يستقبلني أهلي إلا وهم يستعدون لوداعي.

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، وقد كنت أعتبر هذه الصحوة جزءًا مني، كأنها هي ولدي وفلذة كبدي، وكنت حريصًا أبلغ الحرص على حسن نمائها: إيمانيًّا وفكريًّا وخلقيًّا، وألا تُغذَّى بأغذية ضارة أو ملوثة، وأن يقود زمامها من يملكون الحكمة والبصيرة، إلى جانب التقوى والأمانة، وكنت أقول دائما: أخشى على الصحوة أن تتآكل من الداخل قبل أن تُضْرَب من الخارج.

ومن خلال هذه المذكرات سيمرّ القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أني أعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر لي في هذه المرحلة أن أتفاعل بها ومعها متأثرا ومؤثرا، ولذلك يصعب أن تفصل ما هو شخصي عما هو عام. فقد كنا نعيش هموم الأمة، وآلامها وآمالها، عليها نمسي ونصبح، وننام ونستيقظ، ونسكن ونتحرك.

وأريد أن أستسمح القارئ الكريم لهذا الجزء من المذكرات، إذا وجد خطأ في بعض التواريخ، فكل اعتمادي فيها على الذاكرة، ولم أكتب فيها صفحة واحدة إلا ما كان من رسائل أو نحو ذلك، والذاكرة تصيب وتخطئ، فكيف بها إذا شاخت؟

كانت الذاكرة بالنسبة لأيام الصبا والشباب والكهولة: حديدية، لا يكاد يتفلّت منها شيء، أو يلتبس عليها شيء، أما في عهد الشيخوخة، فمهما تكن الذاكرة قوية، فلا بد من أن يفوتها شيء، أو تختلط عليها بعض الأشياء، ولكن هذا في التفصيلات والجزئيات لا في القضايا الكلية، والأمور الجوهرية. والحمد لله رب العالمين.

هذا وكنت قد نشرت هذا الجزء من المذكرات في بعض الصحف في قطر والجزائر والمغرب في شهر رمضان ١٤٢٩هـ ثم اكتشفت أن هناك أحداثًا مهمة وقعت في تلك الفترة كنت نسيتها، فلم أسجّلها، ولم أعلّق عليها، كما حذفت بعض الأحداث كنت ذكرتها قبل أوانها، وإنما أوانها في الجزء الخامس إن شاء الله، كما عثرت على وثائق ذات قيمة كانت ضائعة مني، فكان لا بد لي من أن أضيفها.

* * *

هذا، وقد تحدثت بعض الصحف عن مذكراتي في الأجزاء الثلاثة التي نشرت وأثنت عليها، ولكنها أشارت إلى أني أهتم بالإيجابيات، ولا أذكر السلبيات.

ولا أدري: ماذا تعني تماما بـ «السلبيات»؟ أتعني: أن المرء إذا زلّت قدمه يوما، وارتكب معصية استتر بها، ولم يعرفها الناس: يكشف ستر الله عليه، ويقول للناس: لقد فعلت كذا وكذا على طريقة اعترافات الغربيين؟! وماذا يستفيد الناس من وراء ذلك إلا تهوين المعصية على الخلق!

على أن تربيتنا الإسلامية تمنعنا من ذلك، ففي الحديث النبوي المتفق عليه: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الجهار أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله تعالى فيقول: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله تعالى»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠)، عن أبي هريرة.

أما الخطأ في الآراء والمواقف الفكرية والسياسية، فنحن نؤمن بأن لا عصمة لبشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس في العلم كبير. وكل عالم يؤخذ منه ويرد عليه. وما اجتهد فيه فأصاب فله أجران، وما أخطأ فيه فله أجر واحد. وهذا من روائع الإسلام.

وأما السلبيات التي يجب كشفها ونقدها حقا أما الخطأ في الآراء والمواقف الفكرية والسياسية، فنحن نؤمن بأن لا عصمة لبشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس في العلم كبير، وكل عالم يؤخذ منه ويرد عليه، وما اجتهد فيه فأصاب فله أجران، وما أخطأ فيه كل أجر واحد. وهذا من روائع الإسلام حقا، حقا، فهي ما يتعلق بالجماعة والأمة، وهو ما أعتقد أني قمت به في حدود معلوماتي وقدراتي. وربما أصابني في ذلك ما أصابني، ولا سيما من المتعصبين للأشخاص والأفكار، سواء من الإسلاميين أم من القوميين.

ولا بد للمرء من أن يوطِّن نفسه على احتمال مثل هذه الانتقادات ـ أو الاتهامات ـ ما دام يؤمن بأنه يقول كلمة الحق كما يراها. وليس عليه أن يرضي جميع الاتجاهات، وجميع أصناف الناس، فهذه غاية لا تدرك، وأمنية لا تنال، وحسب المؤمن أن يرضي ربه، وإن سخط عليه الساخطون.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠).

يوسف القرضاوي

الدوحة في: المحرم ١٤٣١هـ

يناير ٢٠١٠م.

وفاة الشيخ مصباح محمد عبده

أبدأ هذا الجزء من ملامح السيرة والمسيرة بأمر كان ينبغي أن يكون في الجزء السابق (الثالث)، ولكن الذاكرة التي أصابتها الشيخوخة خانتني، فحسبت الحادث متأخرًا عن وقته. ولا غرو أن ينسى المرء بعض الأحداث، أو أن ينسى ميقاتها، فقد نسي آدم أبو البشر، كما ذكر القرآن، ومن شابه أباه فما ظلم، وقال في ذلك الشاعر:

فإن أولَ ناسٍ أولُ الناس!

وقال فتى موسى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ (الكهف:٦٣).

هذا الحدث هو: وفاة أخي وصديقي الشيخ مصباح محمد عبده رحمه الله رحمة واسعة. فقد عرفت بالسؤال وبالرجوع إلى التواريخ: أنه توفي في صيف سنة ١٩٧٥م.

وهذا هو الصديق الثاني الذي أفقده من أصدقائي المقربين، أصدقاء الشباب، بعد أن فقدت صديقي الأول محمد الدمرداش مراد رحمه الله.

وأنا رجل عاطفي، أحزن وأفرح، وأضحك وأبكي، وإن كانت عاطفة الحزن عندي أقوى، ومنها الحزن على الأصدقاء.

أزمة قلبية

أجل، لقد ودَّعنا الأخ الحبيب والصديق الصدوق، الشيخ مصباح محمد عبده، المدرس بالمعهد الديني الثانوي في قطر، والذي وافته المنية فجأة في أوائل العام الدراسي في ٢٦/ ٩/ ١٩٧٥م، بعد أزمة قلبية، لم يسعفه فيها الدواء المعتاد الذي كان يتناوله عند

ما تصيبه هذه الأزمة، إذ يبدو أن الدواء قد فرغ من عنده، ولم يسارع بإحضار البديل، لينفذ قضاء الله في وقته المقدّر له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (نوح:٤)، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون:١١).

وقد اتصل بي أهله، وقد بلغ الكتاب أجله، فذهبت إلى منزله، لأجد «المصباح» قد انطفأ، وقد فات أوان الإسعاف والإنقاذ، ولم يبق إلا التسليم لقدر الله الذي لا يرد، وإلا أن نقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦).

كان مصباح كأنما يتهيأ للخروج، فقد كنا في إجازة العيد، ولذا وجدته بكامل لباسه، وكل شيء فيه كأنه لا يزال حيًّا. لولا هذا الكائن الداخلي الذي يجحده الماديون، ويؤمن به كل ذي دين، وهو ما نسميه «الروح». الذي به يكتسب هذا الغلاف الطيني «الحياة».

وبدون هذه الروح ـ أو مايسمِّيه عامة الناس: السر الإلهي ـ يتحول الإنسان صاحب العلم والبيان، إلى جثة هامدة، بمجرد أن يختطف الموت هذا الكائن الداخلي، ولا يستطيع أحد له مقاومة. وهكذا دخلنا الحياة بغير إرادتنا، وخرجنا منها بغير إرادتنا. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (المؤمنون:٨٠).

نقل جثمانه إلى بلده

وأصرّت زوجته على أن يدفن في بلده «محلة أبو علي»، وأن ينقل جثمانه ـ كما هي العادة ـ على الطائرة إلى القاهرة، ثم تحمله سيارة إسعاف إلى حيث يقبر، وكنا نود لو ووري جثمانه في ثرى قطر، وهي أرض إسلامية، بدل السفر وما فيه من مشقة. ولكن أمام إصرار الزوجة، لم يكن بد من تسفيره على حساب حكومة قطر، وأن يسافر أحد الإخوة في رفقة أهله.

رفقاء الدرب

كان مصباح من أصدقائي القدامى، ومن رفقاء الدرب في الدراسة والسكن والدعوة والمحنة.

لقد تعارفنا حين كنا طلبة في المرحلة الثانوية في طنطا، وزرته في قريته، وزارني في قـريتي، ولكنني كنت الأكثر ترددًا على قريته (محلة أبو علي)، وهي تعتبر الجار ذا القربى للمحلة الكبرى. والآن تلاصقتا، وأصبحت كأنها جزء من المحلة الكبرى.

وكان مصباح قد تُوفي أبوه وهو صغير، وتربّى يتيمًا مثلي، وتولّت تربيته أمه، وكانت امرأة عاقلة ذات عزيمة قوية، ما زالت وراءه حتى دخل الأزهر وتخرّج فيه.

أصدقائي في «محلة أبو علي»

وكان لي كثرة من الأصدقاء في «محلة أبو علي»، منهم من لحق بربه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. منهم: السيد النفاض، ورمزي الدمنهوري، والسيد الغضبان، وعبد القادر عامر، حفظهم الله، ومنهم: حمدي شبند، وعلي خفاجة، وعبد المجيد بقلولة رحمهم الله. وكنت كثيرًا ما أبيت في محلة أبو علي ـ أيام العزوبة ـ مع أحد الأصدقاء.

وفي كلية أصول الدين سكن معي مصباح في «شقة شارع راتب باشا» الشهيرة، في شبرا، ولكنه نجا من الاعتقال في حين أن معظم سكانها اعتقلوا.

وعمل الشيخ مصباح مفتشًا للمساجد في وزارة الأوقاف مع الشيخ الغزالي، إلى أن جاء إلى قطر.

وقد تحدَّثت عن مصباح من قبل في هذه المذكرات بمناسبات شتَّى، وخصوصًا في الجزء الأول.

وقد اعتقل معنا في محنة ١٩٤٩م، ودخل معي معتقل هايكستب ورحلنا معًا إلى الطور، وأصابه ما أصابه من مرض الروماتيزم. وذكرت من فكاهاته وطرائفه، ما أضحكنا وأدخل علينا البهجة في أتون الاعتقال.

آلف مألوف

كان مصباح رجلاً طيب القلب، نقيَّ السريرة، ظاهره كباطنه، مُحببًا إلى الناس، لم أر أحدا يكرهه أو يعاديه. فقد كان سهل التعامل، هينًا لينًا متواضعًا خافض الجناح

لإخوانه، يَألف ويؤلف، بسيطًا في مظهره وفي مخبره وفي حياته كلها، كما كان فكهًا خفيف الروح، له لطائف وفكاهات تصدر عنه بلا تكلف ولا تصنع.

لطائف وفكاهات

كنا ونحن بالكلية إذا سئل: كم كان ترتيبك يا شيخ مصباح؟ فيقول: الشيخ يوسف هو الأول من ناحية، وأنا الأول من الناحية الأخرى! فنحن نحيط الكلية من جانبيها!

وكان يعمد إلى الألفاظ الغريبة والشائكة، إذا كانت صحيحة، مثل لفظة الدلالة، ينطقها بضم الدال (الدُّلالة) فإذا اعترض عليه معترض وسأله، قال: الدال يجوز فيها الفتح والكسر والضم، ثم يقول: أنا آتي بالغريب، ليُستشكَل عليّ فأجيب!

وله شعر مما يسميه بعضهم: الشعر الحلمنتيشي! لا أذكر منه الآن شيئًا أرويه.

رحم الله مصباحًا وغفر له وتقبَّله في عباده الصالحين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وجمعنا به في الفردوس الأعلى. آمين.

كتابي «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي»

ومما فاتني ذكره أيضًا في سياق ذكرياتي في الجزء الثالث، صدور كتابي «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» سنة ١٣٩٧هـ ـ الموافق ١٩٧٧م، وهو كتاب صغير الحجم، ولكنه في نظري له أهمية خاصة، لخطورة الموضوع الذي يعالجه، وهو ما يعرف باسم «الأقليات الدينية في المجتمعات الإسلامية». وهم الذين أطلق عليهم فقهاؤنا مصطلح «أهل الذمة». والذمة معناها: العهد، ومقتضى هذه الكلمة «الذمة» أن لهم ذمّة الله ورسوله وذمة جماعة المسلمين، أي: عهدهم وضمانهم. وهذه الكلمة ـ أعني الذمة أو العهد ـ لها مدلولها الذي لا يجوز أن يستخف به، كما يفعل أولئك الذين ذمّهم الله بقوله: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ (التوبة: ١٠).

ولقد أكّدت نصوص القرآن والسنة ضرورة احترام العهود والمواثيق، واعتبرت ذلك من خصال المؤمنين: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (الرعد: ٢٠)، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨).. كما اعتبرت النصوص القرآنية والنبوية الغدر ونكث العهد من خصال الكفار والمنافقين: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ (الرعد: ٢٥).

ومن خصال المنافق الأساسية: أنه «إذا عاهد غدر»[1].

وفقهاء المسلمين مجمعون على أن «عقد الذمة» عقد لازم دائم مؤبّد، لا يحلّ للمسلمين أن ينقضوه بحال، ما لم ينقضه الطرف الآخر.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) كلاهما في الإيمان عن ابن عمر.

تغيير عنوان «أهل الذمة»

ولكني لم أختر لكتابي عنوان «أهل الذمة» كما فعل الإمام أبو الأعلى المودودي رحمه الله، لما أصبحت كلمة «أهل الذمّة» غير مقبولة عند إخواننا من مواطنينا من أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهرانينا، وهم من بني جلدتنا، ويتكلمون بلساننا، ويشعرون بأن هذه الكلمة توحي بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ولهذا لم أر بأسا من حذف هذا العنوان الذي ينفر منه الأقباط في مصر والسودان، والمسيحيون في بلاد الشام وغيرها.

أجل، لم أر حرجا في حذف هذا العنوان، الذي يستنكف منه مواطنونا من غير المسلمين. فقد رأينا سيدنا عمر حذف ما هو أهم منه، وهو كلمة «جزية» حين طلب منه نصارى بني تغلب، وهم من قبائل العرب المعروفة: أن يأخذ ما يأخذه منهم باسم الصدقة والزكاة، وليس باسم الجزية، لأنهم قوم عرب، يأنفون من هذه الكلمة، وقد استجاب لهم سيدنا عمر ولبى طلبهم[1]، ما داموا يدفعون ما يدل على إذعانهم لسلطان الدولة. فالمدار على المسميات والمضامين، وليس على الأسماء والعناوين.

عبارة «الكفار» ومدلولاتها

كما لم أستخدم تعبيرًا آخر يستخدمه ـ للأسف ـ كثير من الدعاة، وهو تعبير «الكفار»؛ فهذا التعبير يصدم مشاعر كثيرين، حين تجابههم بوصف الكفر؛ ولا سيما أن للكفر معاني عدة، منها: الإلحاد والجحود بالله تعالى، ومنها: إنكار النبوة والوحي، ومنها: التكذيب بالآخرة والجزاء والجنة والنار، ومنها: الإيمان بدين لا عبادة فيه ولا تكليف ولا قيم ولا أخلاق، ومنها: عدم الإيمان برسالة نبيّ معين، مثل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبكل ما جاء به، وبكل ما جاء به، كما هو شأن اليهود والنصارى. وهذا هو المقصود بكفر اليهود والنصارى عند المسلمين: أنهم يكفرون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويكذّبون أنه رسول من عند الله، ويزعمون أن القرآن ليس وحيا منزلا عليه، وإنما هو من صنعه واختلاقه، ويؤمنون ببعض العقائد التي ينكرها المسلمون بشدة، مثل التشبيه عند اليهود، والتثليث عند النصارى.

---

(١) رواه البيهقي (٩/ ٢١٦).

استخدام عبارة «غير المسلمين»

لهذا آثرت أن أستخدم هذا التعبير «غير المسلمين» وهو تعبير لا يغضب أحدًا، ولا يؤذي مشاعر أحد. وقد استحسنه كثيرون بعد ذلك، واستعملوه، وهو يدخل فيما أمر الله به تعالى في قوله: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٥٣) وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

أهمية موضوع الأقليات الدينية

وموضوع الأقليات الدينية موضوع مهم، ويفتقر إلى كثير من التجلية والتأصيل، لما شابه في تراثنا من أحكام وقتية، ربما كانت قرارات إدارية أو سياسية مناسبة لزمانها ولبيئتها، فظنها بعض الناس أحكاما شرعية، يجب تعميمها على كل الناس، ودوامها في كل الأزمان. وهذا مما يشتبه على كثيرين، ولا يميّز بين بعضه وبعض إلا الراسخون.

محاضرتي في جامعة الخرطوم عن حقوق الأقليات

وأذكر أني كنت ألقيت في أواسط السبعينيات من القرن العشرين محاضرة في جامعة الخرطوم، عن «حقوق الأقليات الدينية في المجتمع الإسلامي» وبيّنت هذه الحقوق، استنباطًا من نصوص القرآن وصحيح السنة، وهدي الخلفاء الراشدين، وأقوال الأئمة المحققين، وتوجُّهات المصلحين المجددين.

اعتراض أحد الحاضرين

فقام أحد الحاضرين من المسيحيين، معترضًا، وقال: إن ما قلته مخالف لما هو منصوص في كتب الفقه الإسلامي من معاملة أهل الذمة، وبدأ يقرأ نصوصًا من بعض كتب المتأخرين من أهل المذاهب، وفيها: وجوب تمييز الذمي عن المسلمين في ملبسه،

وإهانته عند دفع الجزية، وذكر حديث: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في الطريق، فاضطروهم إلى أضيقه»[1].

وقال المعترض: يعني لو كنت مسيحيًّا أسير على حرف النيل، فأنت كمسلم مطلوب منك أن تُضيِّق عليّ الطريق، حتى تضْطرني إلى أن أسقط في النيل! إلى آخر ما قال ونقل من بعض الكتب والحواشي.

جوابي على المعترض

وكان جوابي على هذا كله واضحًا وحاسمًا. لقد قلت: إن ما ذكرته في محاضرتي من أحكام، وما قررته من مبادئ، وما سردته من وقائع، لم أخترعه من عندي. بل كل ما قلته مأخوذ من مصادره الموثقة: إما من كتاب ناطق، أو سنة نبوية هادية، أو سيرة صحابية راشدة، أو أقوال فقهية مدلَّلة، أو وقائع تاريخية ثابتة. وهو ما يقوله ويردده كل دعاة الإصلاح والتجديد منذ عهد محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا ومن بعدهم إلى اليوم. وهو الذي ندعو الناس إليه، لا ندعوهم إلى شيء غيره. وما عدا ذلك فهي آراء لا تلزمنا، ولا تلزم إلا أصحابها، وهي تعبِّر عن زمنها، وعن فكر يمثل فترة الانحطاط والتراجع في التاريخ الإسلامي.

والحديث المذكور «لاتبدءوا..»، محمول على اليهود والنصارى الذين يعادون المسلمين ويؤذونهم، لا في أهل الذمة منهم، وإلا كان معارضا للقرآن الذي يقول: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨). كما يعارض أحاديث أخرى، ومواقف عملية للصحابة رضي الله عنهم. وقد صحّ عن عدد من الصحابة أنهم كانوا يسلّمون على كل من لقيهم، مسلما أو غير مسلم، عملا بحديث رسول الله: «أفشوا السلام»[2].

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٦٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، عن أبي هريرة.

وظل هذا الأمر يجول في نفسي، وأرى لزوم الكتابة فيه، لتمييز الصواب من الخطأ، والثابت من المتغير، حتى وفقني الله تعالى لكتابة هذا الكتاب: (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي).

وأذكر أن أحد الدعاة الهنود لقيني بعد صدور هذا الكتاب، وقال لي: كتابك مهم جدًّا، ولكننا في حاجة إلى كتاب يكمله، قلت: وما هو؟ قال: «المسلمون في غير المجتمع الإسلامي»! وهو ما وفَّقني الله إليه بعد ذلك، من الكتابة في فقه الأقليات المسلمة، التي تعيش في وسط المجتمعات غير الإسلامية.

مع التنظيم العالمي للإخوان

كانت محنة الإخوان في مصر عام ١٩٦٥م، قد بدأت بإعلان الرئيس عبد الناصر في شهر أغسطس من موسكو، بأنه اكتشف تنظيما للإخوان معاديا للثورة، وأنه سيضرب بيد من حديد، ولن يرحم ولن يلين!!

رُبَّ ضارة نافعة

واقتيد عشرات الآلاف من الإخوان إلى المعتقلات والسجون في أيام معدودات حتى ضاقت السجون والمعتقلات بالأعداد الهائلة الذين جيء بهم من كل مدينة وقرية... كانت هذه المحنة ـ على ما فيها من شدة وقسوة ووحشية ـ تحمل منحة في طيها، والعرب يقولون: ربَّ ضارة نافعة. والصوفية يقولون: كل قدر معه لطف. ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠)، والله عز وجل يقول: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء:١٩).

روح الأخوة والغيرة على الدعوة

وكان من الخير الكثير الذي جاءت به هذه الشدّة: أن أكثر الإخوان الذين يعيشون خارج مصر لأسباب شتى، قد جمعتهم المحنة من تفرُّق، وأحيت فيهم روح الأخوّة بعد همود، وأيقظت فيهم الغيرة على العمل الإسلامي بعد رقود.

وقد قال جمال الدين الأفغاني: بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة!

كان أول ما جمعهم: التفكير في معونة الأسر المنكوبة من إخوانهم، ثم انتقلوا من هذا الواجب المؤقت، إلى التفكير في إيجاد لون من الترابط الدائم، يجمع بين أبناء الدعوة من المصريين أولا، ثم من إخوانهم في البلاد العربية المختلفة.

إحياء المكتب التنفيذي

وبدأ التفكير في إحياء المكتب التنفيذي القديم، الذي كان يمثِّل الدول العربية أو عددًا منها، إذ إن حركة الإخوان ليست مجرد جماعة مصرية، بل هي حركة إسلامية عالمية، وإن كانت مصرية النشأة.

وبدأت لقاءات كانت في أول الأمر يغلب عليها الجانب العلمي والبحثي في شؤون الدعوة وقضاياها الفكرية، ومعوقاتها العملية، كما تحدثت عن ذلك في لقاء إستنابول في صيف سنة ١٩٦٨م.

ثم بدأ الأمر يأخذ شكلاً تنظيميًّا، كما كان قبل ذلك. يُدعى من كل بلد واحد يمثل الدعوة فيها. وكنت أحضر ممثلاً للإخوان في قطر، وكنا في أول الأمر مشغولين بوضع خطة للعمل المستقبلي، ليناقشها الأعضاء، فإذا أقرّوها، وضعت موضع التنفيذ.

كتابتي خطة العمل المستقبلي للحركة

وكلفني الإخوة أن أقوم بتقديم تصور عام لهذه الخطة، ومحاورها الأساسية وخطوطها العريضة.. وأذكر أني قد عكفت على هذا الأمر، ووضعت تصورا لهذه الخطة، في الداخل والخارج: في المجال العلمي، وفي المجال التربوي، وفي المجال الاجتماعي، وفي المجال الاقتصادي، وفي المجال السياسي... وقسمتها إلى مراحل كل مرحلة تسلم إلى ما بعدها. ومن خصائص هذه الخطة:

١ـ أنها علمية، تعتمد على الإحصاء والأرقام، لا على العاطفية والارتجال.

٢ ـ وأنها واقعية، تتعامل مع الواقع كما هو، بلا تهوين ولا تهويل، ولا جريان مع الأحلام.

٣ ـ وأنها مرنة، تستطيع أن تستبدل شيئًا بشيء، ولا تقف جامدة عند تغير المواقف.

٤ ـ وأنها متوازنة، تتبنّى خط الوسطية والاعتدال في كل الأمور.

٥ ـ وأنها استشرافية، تنظر إلى المستقبل وتوقعاته، وتعدّ له ما يناسبه.

وقد عرضت هذه الخطة على المكتب أو المجلس، وأخذ يناقشها في جلسة من جلساته، أظنها كانت في المدينة المنورة، وأقرها المجتمعون بصفة عامة، بعد إدخال بعض التعديلات عليها، وتتمم استكمال بعض أشياء، رئي أنها تتم البناء.. ثم في الدورات التالية شغل المجتمعون بأمور إدارية أخرى، ونُسِيت الخطة، كما ينسى كثير من الأمور المهمة، التي يشرع فيها ثم لا تستكمل! ولا أدري ماذا حدث فيها بعد، ولم يكن عندي أي أصل غير المسودة التي قدمتها.

لائحة أساسية عالمية

كان من أهم ما شغل المكتب أو المجلس في ذلك الوقت، هو إعداد لائحة أساسية عالمية، فإن لائحة الإخوان التي وضعت في عهد الإمام الشهيد البنا، وأدخلت عليها بعض التعديلات في عهد خليفته الأستاذ الهضيبي، كانت موضوعة للإخوان في مصر.

والآن نريد لائحة تلائم هذا الوضع الجديد، الذي يمثل معظم الدول العربية، التي توجد فيها جماعة للإخوان، مثل: الأردن وسوريا ولبنان والعراق والسودان واليمن، وغيرها.

تحفُّظ السودان على عضويته في المكتب التنفيذي

وكان السودان له تحفّظ على عضويته في هذا المجلس أو المكتب، لأنه يرى أن هذا يقيد حركته وعمله السياسي، وذلك أن كل بلد له ظروفه الخاصة التي قد لا يشاركه

الآخرون فيها، وتحتاج أحيانًا إلى حرية التصرف السريع. والارتباط التنظيمي بمثل هذا المكتب قد يكون قيدا أحيانًا على الحركة.

كما أن السودان لا يريد أن يورط إخوانه فيما قد يراه من سياسات ربما تروق له، ولا تروق لهم.

ولم يكن عند ممثل السودان مانع أن يحضر الاجتماعات، ويشارك فيها، بوصفه مراقبًا لا عضوًا. بل طلب ذلك بالفعل، ووافق المكتب على ذلك، وشارك معنا الإخوة في كل الاجتماعات التي تمت في هذه الفترة، وكان ممثلهم باستمرار الأخ الحبيب، والصديق الكريم ياسين عمر الإمام حفظه الله.

اختيار المرشد العام لمدة محدودة

وكان من أهم ما اتجه إليه الإخوان في اللائحة الجديدة، هو اختيار المرشد العام للجماعة، والذي يختاره هو مجلس الشورى العام المختار من جميع الأقطار، ويجب أن يختار لمدة محدودة، وليس لمدى الحياة كما كان يرى بعض المشاركين معنا ممن يرون أن تحديد المدة ليس من الإسلام، وإنما جاءنا من الغرب.

وهذا ليس بصحيح، فلم يجئ في الإسلام نص يُوجب على الأمة أن تبايع إمامها مدى الحياة، ولا أي مدة محددة. فهو متروك لاجتهاد الأمة، تتخذ فيه من الآراء ما ترى فيه مصلحتها. واختيار الخلفاء الراشدين لمدى الحياة: كان للظروف العسكرية التي تعيشها الدولة الإسلامية في ذلك الوقت.

وهو ـ على كل حال ـ من باب «الأفعال» التي ليست ملزمة، حتى إن أفعال الرسول نفسها ليست ملزمة بذاتها، إنما تدل على مجرد المشروعية، ما لم يصاحبها دليل آخر.

وقد رأينا الخلفاء الراشدين خالفوا بعض «السنن الفعلية» للرسول صلى الله عليه وسلم، كما فعل عمر في عدم قسمة الأرض المفتوحة على المقاتلين، اقتداء بقسمة النبي لأرض خيبر، لأن الرسول ـ كما قال ابن قدامة ـ فعل ما هو الأصلح في زمنه، وعمر فعل ما هو الأصلح في زمنه، فقد اتبع سنة الرسول في فعل الأصلح.

اعتراضي على صيغة القَسَم

وكان من الأشياء التي اعترضت عليها وقبلها المشاركون «صيغة القَسَم» التي يقسم فيها العضو على الالتزام بمنهج الإخوان، والسمع والطاعة للقيادة في غير معصية. فاقترحت أن تكون «صيغة عهد» لا صيغة قسم، فالشخص يتعهد بدل أن يقسم.

وحتى من الناحية الفقهية: صيغة القسم إذا أخلّ بها المسلم وحنث فيها، فلها كفارة: إطعام عشرة مساكين أو صيام ثلاثة أيام إن لم يجد الإطعام. أما صيغة العهد فهي ثابتة لا كفارة لها.

وبدل أن كانت صيغة البيعة للمرشد العام، جعلناها بيعة مطلقة، على العمل بكتاب الله وسنة رسول الله، ونصرة الدعوة إلى الإسلام، ونحو ذلك..

التنظيم الدولي للإخوان

وما زال هذا المجلس يتقوَّى ويتوسَّع ويضم أعضاء جددًا، حتى اقترح بعض الإخوة ـ ولا أذكر في أي سنة ـ أن يطلق عليه اسم التنظيم الدولي أو العالمي للإخوان المسلمين، وأنا آثرت كلمة «العالمي» على كلمة «الدولي»؛ لأن كلمة «الدولي» أشبه بالمؤسسات الرسمية، و«العالمي» أشبه بالمؤسسات الشعبية. ولكن شاعت كلمة «الدولي».

اجتماعات المكتب التنفيذي في عدد من البلاد

ظل المكتب يعقد جلساته كل سنة مرة، في أي مدينة يتيسر اجتماعه فيها من مدن العالم العربي والإسلامي، لا يلتزم ببلد معين. وهناك بلاد يستحيل أن يجتمع فيها، وهي البلاد التي تحكمها الديكتاتوريات، ويتسلط عليها أمن الدولة تسلطا مباشرا، فلا يسمح بمثل هذا اللقاء إلا أن يكون وراء أسوار السجن! هذا إذا سمح لهم أصلا بدخول البلد، وهيهات هيهات.

من هذه البلاد: مصر وسورية والعراق وتونس وغيرها من البلاد المغلقة.

وكثيرًا ما تم الاجتماع في مكة أو المدينة في موسم الحج والعمرة. وقد التقينا مرة في إستانبول: مدينة الجلال والجمال، والبحار والجبال، والماضي العريق، والحاضر الأنيق، والتي جمعت بين الشرق والغرب، حين جمعت بين آسيا وأوربا.

وأكثر من مرة في بيروت، ولا سيما في أيام الحرب الداخلية، التي استمرت سنوات بين طوائفه المختلفة، وأهلكت الحرث والنسل، وجرَّت الخراب على لبنان، حتى انطفأت نيران هذه الفتنة المشؤومة، وعادت لبنان إلى الهدوء والسلم بعد هذه السنوات العجاف، واجتمع اللبنانيون المختلفون في الطائف، واتفقوا على أن يعيشوا في سلام ووئام، ووضعوا النقاط على الحروف.

كان مطار بيروت مفتوحًا في أكثر الأحيان، على رغم ما يجري في الداخل من معارك وصدامات. وهذا ما أتاح لنا أن ندخل بسهولة إلى لبنان، وأن نشاهد بأعيننا آثار الدمار الهائل الذي لحق بهذا البلد الجميل، الذي كان واحة ومنتجعًا للعرب، يجدون فيه جمال الطبيعة، وجمال الحياة والإنسان، وحرية الحركة، وحرية الفكر، وحرية النشر، لا قيود ولا أغلال.

والتقينا في عَمَّان، حيث إن للإخوان وجودا رسميا علنيا، وإن كانت أجهزة المخابرات بالمرصاد، وكل أجهزة المخابرات في كل البلاد التي نتقابل فيها، لا ترحِّب بنا، ولا ترغب كثيرًا في وجودنا. ونحن نجتمع يقظين حذرين أن يكون هناك من يراقبنا من بعيد، أو يتنصّت علينا من قريب، فقد بلغت تكنولوجيا التجسس والتلصُّص على الناس، بحيث لا يأمن الإنسان أن يراقب، وهو في غرفة نومه. حتى في حديثه مع أهله.. فالإنسان في الحضارة الحالية «عريان» مكشوف أمام آليات الحضارة الجبارة التي لا تدع أحدا في حاله.

استعفائي من العمل التنظيمي للجماعة

وبعد ذلك رأيت أن أستعفي من العمل التنظيمي في جماعة الإخوان، وأن أتحرر من الالتزام بأي عمل رسمي في تنظيم الإخوان، وأن أتفرغ للعمل الإسلامي العام،

فوضعي اليوم يقتضي مني أن أكون للمسلمين جميعا، على اختلاف اتجاهاتهم، واختلاف أقطارهم، واختلاف مذاهبهم. هذا مع أني لا أنكر انتمائي لدعوة الإخوان نشأة وفكرًا وولاء. وسأظل أعمل لترشيد مسيرة الإخوان، ضمن مسيرة الصحوة الإسلامية، العامة، وتسديد خطاها، وتحذيرها من المزالق والمضايق... وهذا لا ينافي أن أنقدها كما أنقد غيرها من الحركات والجماعات.

وقد رضي مني الإخوان هذا الموقف الذي يراه كل الراشدين أنفع للإسلام ولأمته، وإن كان بعض رجال الأمن يعتبرون ذلك من باب «توزيع الأدوار». وهؤلاء لو أقسمت لهم بالأيمان المغلظة، أو أتيتهم بكل آية وبينة، لم يصدقوك.

دخول التيار السلفي على الإخوان

لم يكن المجلس كله على خط فكري واحد تمامًا، فقد بدأت أفكار جديدة، تدخل على الإخوان بعضها من التيار السلفي الذي يغلب على كثير من المنتمين إليه: التشدد والحرفية، حتى أطلقت عليهم لقب: «الظاهرية الجدد». على عكس منهج شَيْخَي الإسلام ابن تيمية وابن القيم، اللذين يزعمون أنهما من أئمتهم الذين يأخذون عنهم.

وأكثر الذين تأثروا بالتيار السلفي: الذين يعيشون في السعودية والكويت، ويظهر ذلك في الموقف من قضايا المرأة والتعددية السياسية والأقليات ونحوها.

وبعض الأفكار الأخرى رشحات من أفكار الشهيد سيد قطب رحمه الله، في كتبه: معالم في الطريق، والظلال في أجزائه الأخيرة، وفي الطبعة الثانية من أجزائه الأولى، وفي كتبه التي ظهرت في أواخر حياته رحمه الله.

وهذه الأفكار تحمل بذور تكفير المجتمع، والعزلة الشعورية، والاستعلاء على الآخرين، ورفض الاجتهاد وتطوير الفقه، إلى آخر هذه الأفكار.

عيوب المنهج التربوي الرسمي للإخوان

وكان المنهج التربوي الذي يوضع للإخوان يتضمن بعض هذه الأفكار وتلك،

سلفية وقطبية، ولا سيما أن المكلَّفين بوضع المنهج كانوا في فترة من الفترات هم إخوان الأردن وكثير منهم متعلقون تعلقا شديدا بالأفكار القطبية.

ولذلك لم تكن كتبي، أو كتب الشيخ الغزالي،أو مصطفى السباعي، أو محمد فتحي عثمان، وأمثال هؤلاء مما يحسن أن يوضع في صلب المنهج، لأنهم يعتبروننا «عقلانيين» ويسمِّينا بعضهم «معتزلة العصر»!

وإن كانوا يدخلون في بعض الأحيان عددًا قليلا من كتبي، بعضها في المنهج الأساسي، وبعضها في منهج القراءة.

ولكن الذي كان يطمئنني حقًّا: أن جمهور الإخوان يقتنون كتبي، ويتلهفون عليها بمجرد ظهورها من المطبعة، فهم قرروها على أنفسهم، وإن لم تقررها السلطة المختصة، وهذا فرق بين الشعبي والرسمي.

ومن عيوب هذا المنهج التربوي الرسمي الملزم للإخوان: أنه يوقعهم في التناقض، المكشوف أحيانًا، والمُقنَّع أحيانًا أخرى. فبعض الكتب المقررة عليهم مثل كتبي ترى أنَّ الشورى واجبة، وأن الشورى ملزمة، وأن النزول على رأي أكثرية أهل الحل والعقد واجب... على حين يرى كتَاب آخر لبعض الدعاة: أن العمل برأي الأكثرية من الأمراض التي دخلت على الحركة الإسلامية، وأن الواجب هو العمل برأي الإمام، وإن خالف الأكثرية، بعد أن يستشيرهم. وبهذا شرّعنا للاستبداد، وأعطينا الحجّة للحكام الذين يقهرون الأمة، ويضربون برأيها عرض الحائط وإن كان الإخوان قد اعتمدوا بعد ذلك إلزامية الشورى، وأقروا مبدأ تعددية الأحزاب.

في بعض الجلسات دعي القيادي الإخواني القديم الأستاذ محمد فريد عبد الخالق، أحد قدامى الإخوان، ورئيس قسم الطلاب لسنين عديدة، وأحد المقرَّبين من المرشدَيْن الأول والثاني: البنا والهضيبي، وكان له ملاحظات على منهج الإخوان في التربية والتثقيف، وكان متفقًا معي تمامًا، وقد أوصينا بعمل مقترحات لتدخل على المنهج، إلى أن يوضع منهج جديد، يتفادى ما ذكر من السلبيات ويتضمَّن الإيجابيات المنشودة.

وأحب أن أعلن هنا بوضوح: أني حين انسحبت من التنظيم الرسمي للإخوان عالميا

وإقليميا، لا يعني هذا انسلاخي من الدعوة نفسها، أعني الدعوة إلى الإسلام: عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، ودينا ودنيا، وحقا وقوة، ودعوة ودولة. فهذا ما أحيا له، وأموت عليه، وأنذر عمري له. فأنا ابن الدعوة وأخوها وأبوها، وهي مني وأنا منها.

شرحي للأصول العشرين

وهذا ما يجعل كثيرًا من الإخوان يعتبرونني واحدًا منهم، وإن أعلنت استقلالي عنهم، بل ربما اعتبرني كثيرون: مفتيهم الأول الذي يأخذون عنه الأحكام، ويفتون بفتواه، وربما اعتبرني آخرون: مُنظِّر الدعوة، الذي يؤصِّل مفاهيمها، ويعمق أفكارها، ويرد فروعها إلى أصولها، ويدلل عليها بالأدلة الشرعية الموثقة، كما يتجلى ذلك واضحا في سلسلة: «نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام» وهي تدور حول «الأصول العشرين» للإمام حسن البنا، وتشرحها شرحًا أصوليًّا فقهيًّا يجمع بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر. وقد كنت من قديم شرحت هذه الأصول شرحًا شفهيًّا، مسجّلا على أشرطة «كاسيت» ونشرت ووزعت في أنحاء العالم، ولقيت قبولا عاما.

محاولة ترشيحي لمنصب المرشد العام للجماعة

وربما أيَّد هذا: ما يفكر فيه كثيرون داخل الإخوان، وخصوصًا الكبار والقدامى منهم، حين يلحق بربه أحد المرشدين العامين للإخوان، فيهرع إليّ من يهرع، يطلبون إلي أن أقبل منصب المرشد العام للجماعة، ولا يسعني إلا أن أشكر لهم، وأعتذر عن عدم قبولي لعرضهم، اقتناعا مني بأن ما أقوم به من عمل إسلامي عام: أنفع لي وللأمة من تولي منصب المرشد العام. وقد قال لي رفيق العمر الأخ أحمد العسال فعلا في موقف شهده من هذه المواقف: إني أوثر أن تكون مرشدًا للأمة، بدل أن تكون مرشدًا لجماعة بعينها.. قلت: وأنا مستريح إلى هذا، ومطمئن إليه.

حدث ذلك عند اشتداد مرض المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني، وحدث ذلك مرة أخرى بعد أن تولى الأستاذ مأمون الهضيبي منصب المرشد، وقد أرسل إليّ من يكلمني ويقنعني بقبول المنصب، وهو مستعد أن يتنازل عن منصبه راضيا، وكان الذي

حمل الرسالة مقتنعا تمام الاقتناع بذلك، وحاول جاهدا أن يزحزحني عن موقفي، حيث إن في هذا مصلحة الدعوة، ومصلحة الأمة.. وهو من رجال الفكر والدعوة القادرين على الإقناع، ولا مانع من أن أذكر اسمه الآن، وهو الأخ الصديق المفكر الإسلامي الكبير الدكتور محمد عمارة.

وقد قلت له: ولماذا لا تتولى أنت هذا المنصب يا دكتور؟

قال: أنا لا أصلح له، أنا غريب عن الجماعة. أما أنت فابن الدعوة ورجلها، قضيت فيها شبابك وكهولتك وشيخوختك، وأنت الشخصية الأولى لدى الإخوان، لا يتمتع أحد بالإجماع على حبه وتقديره غيرك، ومنزلتك العالمية اليوم ستساعد في نجاح الدعوة التي أصبح لها وجود عملي في أكثر من سبعين دولة في العالم.

وقد رأيت كثيرين من إخواني المقرَّبين يشاركونني الرأي في أن بقائي مرشدًا وموجهًا للأمة كلها: أكثر نفعًا وبركة من تولي منصب المرشد العام للجماعة، منهم ـ بعد د. أحمد العسال ـ د. عبد العظيم الديب، ود. عز الدين إبراهيم، ود. محمد سليم العوا، وأ. فهمي هويدي، ود. عز الدين إبراهيم، وكثيرون.

وضع التنظيم العالمي أو الدولي اليوم

ولقد علمت بعد ذلك، أن وضع هذا التنظيم (العالمي، أو الدولي) أصبح في حرج، فقد انتشرت دعوة الإخوان حتى أصبحت في سبعين دولة أو أكثر. ومن المتعذر أن يجتمع ممثلون لهؤلاء جميعًا، وكثير من البلاد لا تسمح بوجود رسمي للجماعة فيها، وبلاد أخرى لا تسمح بخروج ممثلين للدعوة منها، كما أن بعض البلاد يصعب عليهم أن يلتزموا برأي ربما لا يناسب ظروفهم، فلا غرو أن انفرط عقد التنظيم، ولم يعد له الوجود المنظم المتماسك القوي، كما كان من قبل. والحكيم من يطوّر نفسه وَفق الأوضاع دون تفريط في الأصول.

صلاة عيد الأضحى في ميدان عابدين

عيد الأضحى ١٣٩٧هـ

في سنة ١٣٩٧ هـ، ١٩٧٧م دُعيت من الدوحة إلى القاهرة لأؤمَّ الناس في صلاة عيد الأضحى في ميدان عابدين الشهير، حيث تتجمع عشرات الألوف من الشباب لأداء صلاة العيد حسب السُّنّة في الخلاء لا في المساجد، ليتجمع المسلمون في هذه المناسبة السعيدة، في صورة مهرجان إسلامي بهيج، يحتشد فيها الرجال والنساء والصبيان، فرحين مستبشرين، لا يهتفون باسم مخلوق، ولا يرفعون لافتة بلد أو جنس أو حزب. بل يهتفون باسم الله وحده: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد!

وكان الداعي لي هم شباب الصحوة الإسلامية، الذين أثبتوا وجودهم على كل صعيد، ورأوا أن يحيوا هذه السنة، واستجاب الشباب لهم، وصلى بهم في العيد الماضي شيخنا الشيخ الغزالي، وفي هذا العيد يتوقعون حضورًا أكثف، وعددًا أكبر، فاتصلوا بي، وألحوا عليّ أن أحضر لهذا الغرض، لتُوَجَّه هذه الوجوه النيِّرة إلى ما فيه خيرهم، وخير دينهم وأمتهم، وحتى لا يترك الأمر لبعض الخطباء المهيجين الذين لا يضبطون أنفسهم، فيُفلت الزمام، وينقلب الميدان إلى شعلة ملتهبة، ولا سيما أن الجوَّ السياسي يساعد على الاشتعال.

فقد كان الرئيس السادات في ذلك الوقت في القدس للقاء مناحم بيجين، وهو أول لقاء بين رئيس عربي ورئيس إسرائيلي، والعالم العربي كله ثائر، والجو مكهرب. لذا يلزم الخطيب في ظل هذا الحشد الكبير أن يدرك الموقف، وأن يتحكم في نفسه، وأن يستعمل

الحكمة ولا يركض وراء العواطف الجياشة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:٢٦٩).

والواقع أني اعتدت أن أؤم الناس في صلاة العيد في قطر في أحد مصليات العيد المهيأة خارج المساجد، ولا أحب أن أغادر الدوحة في الأعياد. ولكن هذه المناسبة التي ذكرها لي الشباب، وحرصي على ألا أخيب أمل هذا الشباب المؤمن الواعد الصاعد؛ جعلتني ألبي دعوتهم بصدر منشرح، ونفس مطمئنة، محتسبا هذه الرحلة عند الله سبحانه، وقد قال في شأن أهل الجهاد: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٢١).

أجل، لم يكن يسعني أن أتخلف عن دعوة شباب الصحوة، وأنا أعتبرهم أفلاذ كبدي، كما أعتبر الصحوة جزءًا مني، وأمانة في عنقي، وكأني المسؤول الأول عنها في العالم!

ولقد اتفقت مع الشباب المشرفين على هذا الموضوع: أن أبتعد عن السياسة، وأن أتحدث في القضايا العامة، حتى لا تحدث فتنة، ويخرج الأمر من أيدينا، ورحّبوا بذلك.

وهكذا كان اتجاه خطبتي بعد أن صليت بالناس ركعتي العيد.. وأذكر أني قلت في هذه الخطبة: من أراد أن يرى مصر على حقيقتها بدون تزويق ولا تشويه، فليرها هنا، في هذا الشباب، الذي آثر آخرته على دنياه، وآثر الخالق على الخلق.. شباب اختارهم الله لنصرة دينه، يحبهم ويحبونه، لا يخافون في الله لومة لائم، تائبون عابدون حامدون، راكعون ساجدون، آمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر، حافظون لحدود الله .. هذه هي مصر الحقيقية، من أراد أن يعرف حقيقة مصر وجوهرها، فلا يبحث عنها في شارع الهرم، ولا في ملاهي الليل، ولكن ليبحث عنها هنا. هذا الشباب هو أغلى ثروة لمصر. إنه أغلى من الذهب الأبيض (القطن)، وأغلى من الذهب الأسود (البترول)، وأغلى من الذهب الأصفر المعروف.

قلت هذا أو نحوه مما لا أذكر تفاصيله[1].. والعجيب أني منذ نحو عشر سنوات أو أكثر، كنت أتغدى عند أحد الأصدقاء في مدينة أبو ظبي، وهو الأخ الدكتور محمد

---

(١) انظر: خطب الشيخ القرضاوي (١/ ٢٧٢)، نشر مكتبة وهبة.

مرسي عبد الله مدير مركز الوثائق هناك، وقال لي بعد الغداء: تحب أن تعرف ماذا يقول الغربيون عنك؟ قلت: نعم، أحب من غير شك. فقال: هذا كتاب مؤلف بالفرنسية، حول الصحوة الإسلامية، وقد خصَّك فيه بالحديث، ونقل فقرة مطولة من خطبتك في صلاة العيد في ميدان عابدين.. وقرأ عليَّ الفقرة بعد أن ترجمها إلى العربية، وقد نقل نصها حرفيا.

قلت له: هذه أول خطبة عيد لي في عابدين، ومعناها: أن القوم كانوا يرصدون كل شيء، ولا يدعون الأمور للمصادفات، أو للأمزجة.

وكنت بعد الخطبة، قدَّمت أحد قادة شباب الصحوة، ليتحدث إلى جموع المصلين، وأظنه كان الأخ الكريم د.حلمي الجزار، أمير الجماعة الإسلامية بجامعة القاهرة في ذلك الوقت.

وكان من السنن الحميدة التي أرساها هؤلاء الشباب: دعوة المرأة للمشاركة في صلاة العيد، كما كانت في العهد النبوي، وإنما النساء شقائق الرجال، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. وقد خصَّصوا للنساء أماكن، تجمَّعن فيها بعضهن مع بعض، كما أغروا الصبيان والبنات بالهدايا الملائمة ليحرصوا ويحرصن على الحضور والمشاركة.. وبعد الصلاة والخطبة والمصافحة: انصرف الجميع بسلام وهدوء.

عيد الأضحى ١٣٩٨ هـ

وبعد عام دعاني الشباب إلى إلقاء خطبة عيد الأضحى في نفس المكان (عابدين)، وكان السادات في ذلك اليوم غائبًا عن مصر، حيث ذهب إلى أمريكا، لتوقيع اتفاقية «كامب ديفيد»، وكان الجو مكهربا كذلك، وأكثر قابلية للاشتعال من العيد الماضي. والعرب كلهم قد أعلنوا معارضتهم للصلح المنفرد، والذي تقوم به مصر مع إسرائيل.. والفلسطينيون أنفسهم ساخطون، وكثيرون من الشعب المصري نفسه غاضبون، وفي هذه الحال يصبح الخطيب في هذا الجمع الحاشد، كأنما يمشي على الشوك: وبخاصة أن العدد بدأ يزداد ويتضاعف عن السنة الماضية.

ولقد التزمت منذ أول خطبة: أن أهدئ ولا أثير، وأن أطفئ النار، ولا أضرمها..

ومن الخير أن يستمر هذا التجمّع الرباني الخير، ولا نتسبب في فقده بالحماقة والطيش.

وأحمد الله أن تمت الصلاة والخطبة بخير وسلام، ولم يحدث ما يعكر الصفو.

الصلاة الحاشدة سنة ١٤٠٠ هـ

واستمرت هذه الصلوات الحاشدة في هذا الميدان الكبير، يصلي الشيخ الغزالي عيد الفطر، وأصلي أنا عيد الأضحى، إلا في إحدى المرات، أذكر أني دعيت إلى عيد الفطر، وحضرت من الدوحة في أواخر رمضان، إلى أن جاءت سنة ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠م).

وفي هذا العيد تجمَّعت حشود هائلة ملأت الميدان، كما ملأت كل الطرق المؤدية إليه من جهاته الأربع، حتى إني اضطررت إلى أن أترك سيارتي بعيدًا عن الميدان، وأتخطى الرقاب في مسيرة طويلة إلى المنصة. وقبل ذلك كنت أصل بالسيارة التي تحملني إلى قرب المنصّة.

وكنت أمدّ بصري إلى الأمام وإلى اليمين وإلى اليسار، فلا أجد إلا بشرًا متلاحمين، متزاحمين، ولا أسمع إلا التكبير المأثور: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

ولقد علق الرئيس السادات رحمه الله على هذا التجمُّع، فقال: إنهم يقدرونه بربع مليون، وأنا أقول: إنه لا يزيد على مائة ألف! تهوينا من شأنه!!

والحق أنه يزيد في نظري عن نصف مليون. وإن كان أحد لا يستطيع أن يقدره تقديرًا صحيحًا، لأن الذي يقدر ينظر غالبا إلى من في الميدان، ولكن الحشود زحمت كل الطرقات المؤدية إلى الميدان من مشرق ومغرب وشمال وجنوب.

وكنت أنظر من حولي، فأجد كاميرات التصوير معلقة هنا وهناك، تصور الجموع وتصور الصلاة، والخطبة والخطيب، وتسجل كل شيء بدقة. وكنت أقول في نفسي: مَنْ هؤلاء المصورون؟ ولحساب مَنْ يصوِّرون؟ لا يمكن أن يكونوا مصريين؛ لأن الإعلام المصري لا يهتم بهذه الصلاة، ولا يذكر عنها حرفا واحدا في الصحف أو في التلفزيون، ثم عرفت بعد ذلك أنهم أوربيون وأمريكيون.

وفاة الأستاذ البهي الخولي

في يوم ٢٧/ ١٢/ ١٩٧٧م ودعت مصر في هدوء: الداعية الإسلامي الكبير أستاذنا البهي الخولي رحمه الله وغفر له، وقد سبق لي الحديث عنه في الأجزاء الماضية من هذه السيرة، ولا سيما في الجزء الأول.

كان الأستاذ البهي الخولي زميلا للإمام حسن البنا في دار العلوم، وكان معجبا به كل الإعجاب، فلما قام البنا بدعوته كان البهي من المسارعين للإجابة.

«تذكرة الدعاة» ومقدمة البنا له

وكان ممن تنبَّهُوا مبكرًا للكتابة في مفهوم الدعوة وغاياتها وأساليبها، وما يجب أن يكون عليه الداعية، فكتب كتابه الأول الذي لم يسبق أحد إلى مثله في التأصيل والتفصيل والتدليل، مع عمق الفكرة ووضوحها، كتبه بأسلوب أدبي رائع. ذلكم هو كتابه الشهير «تذكرة الدعاة» الذي كتب له الإمام الشهيد مقدمة موجزة مركزة، قال فيها:

الله أكبر والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، أفضل الداعين إليه على بصيرة، والمجاهدين فيه بإحسان، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد: فقد طالعت هذه التوجيهات بل المحاضرات في أساليب الدعوة وتكوين الدعاة، فأعجبت بها، وهششت لها، وشممت فيها بوارق الإخلاص والتوفيق إن شاء الله، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يجعلها نافعة لعباده، موجهة لقلوب الناطقين بكلمته والهاتفين بدعوته.

وليس ذلك غريبًا على كاتبها وملقيها الأخ الداعية المجاهد الأستاذ البهي الخولي، فهو بحمد الله صافي الذهن، دقيق الفهم، مشرق النفس، قوي الإيمان، عميق اليقين، أحسن الله مثوبته، وأجزل مكافأته، وبوأنا وإياه منازل من أحب من عباده، فرضي عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون. آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وهو الكتاب الوحيد ـ بعد رسائل الإمام الشهيد ـ الذي تفرد في تلك الفترة بأن يكتب عليه: من رسائل الإخوان المسلمين. أي: إن قيادة الحركة تبنته ضمن مناهجها المعتمدة.

تأملاته القرآنية العميقة

وكان الأستاذ البهي وثيق الصلة بالقرآن الكريم، له فيه تأملاته وتأويلاته الخاصة، وتفسيراته العميقة، بعضها ضمَّنه بعض كتبه المنشورة، وبعضها لعله لا يزال في أوراق منثورة في أضابيره. وكان مما أصدره من ذلك: كتابه «آدم عليه السلام».

وكان له اهتمام قديم بالجانب الاقتصادي في الإسلام، ونظرة الإسلام المتوازنة إليه، وقد تمثل ذلك في عدة كتب: «الثروة في ظل الإسلام»، و«الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية: العمل والعمال»، و«الاشتراكية بين النظرية والتطبيق».

اهتمامه بالجانب الروحي وتحريره باب «مع العارفين»

وكان له اهتمام بالجانب الرباني أو الجانب الروحي ـ أو ما سماه في تذكرة الدعاة «الروحانية الاجتماعية» ـ وله في هذا باع أي باع. ومن أجله اهتم بسير الصالحين، وكان يحرِّر في مجلة «المسلمون» التي أصدرها تلميذه د. سعيد رمضان: باب «مع العارفين» كتب فيه عن «الإمام الممتحن أحمد بن حنبل» كتابة متميزة، وكتب عن بعض الشخصيات الأخرى من السلف، ثم توقف واستمر الباب. ولم يكتب اسمه تحت هذا الباب، وقد نشر بعض ما كتبه ولم يُنْسب إليه. وهكذا كان منهج شيخنا البهي في الدعوة: منهجًا

متوازنًا، يقوم على القرآن، ولكنه لا يغفل السنة، ويعنى بالجانب الروحي أو الإيماني، ولكنه لا يسرف فيه حتى يصير رهبانية، بل يريدها كما قال الشيخ الندوي: ربانية لا رهبانية. وهي التي سماها «الروحانية الاجتماعية» ولا غرو أن انعقدت بينه وبين أبي الحسن الندوي مودة عميقة.

وكان له نظرات في الفقه وفي الاقتصاد، تنبئ عن فهم متميز، وأصالة في النظر، وعن شخصية مستقلة لها رؤيتها واجتهادها.

عمله في النظام الخاص

ولم يكتف بالعمل العام في الدعوة، حتى كان رئيسًا للمكتب الإداري للإخوان في مديرية (محافظة) الغربية، قبل أن ينقل إلى القاهرة، بل ضمَّ إلى ذلك العمل في «النظام الخاص» أو ما سموه بعد ذلك «الجهاز السري» للإخوان، فكان هو المسؤول عن هذا النظام في الغربية: يبايعه من يبايع من أفراد الجماعة ـ الذين يقبلون الانضمام إلى هذا النظام ـ على المصحف والمسدس، كما ذُكِر في التحقيقات بعد ذلك. وإن كانت المحكمة قد حكمت له بالبراءة.

كتيبة الذبيح

ولقد كنا تلاميذه المقرّبين في طنطا: أنا والعسال والدمرداش والصفطاوي والديب والحشاش وعبد المنعم البدراوي، وغيرهم، ولكنه لم يعرض علينا يوما الالتحاق بهذا النظام، وكأنه اكتفى بـ«كتيبة الذبيح» التي نتربى فيها على البذل والتضحية في سبيل الله، ولو قدم المؤمن رقبته طاعة لله، كما فعل الذبيح إسماعيل عليه السلام، حين قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وقد حلَّت حكومة النقراشي جماعة الإخوان، بدعاوى لا تبلغ أن تكون سببا لضرب هذه الجماعة وتمزيقها، والحكم عليها بالإعدام. وقد رد الأستاذ البنا بنفسه على دعاوى

الحكومة، كما أشرنا إلى ذلك في الجزء الأول. وقد تبيَّن أن هذا كان استجابة لطلبات سفراء إنجلترا وأمريكا وفرنسا، الذين اجتمعوا في «فايد» بمنطقة القناة، وقد تسبَّب هذا في اعتقال أعداد كبيرة من الإخوان تجمعوا في النهاية في معتقل الطور.

اختيار البهي أميرًا على الإخوان في معتقل الطور

وفي تربية الإخوان: أن يؤمِّروا في أي تجمع واحدًا منهم، كما هو أمر الحديث النبوي: «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمِّروا أحدكم»[1]. فوقع إجماعهم على اختيار الأستاذ البهي الخولي أميرًا عليهم في المعتقل، وذلك لما يرى الإخوان من علمه وفضله وسابقته في الدعوة، وقربه من الإمام الشهيد.

وظل هكذا، حتى طلب في قضية من قضايا التنظيم الخاص، حيث تردَّد اسمه في التحقيق، فاختار الإخوة من بعده الشيخ محمد الغزالي أميرًا عليهم.

كتاب «المرأة بين البيت والمجتمع»

وفي عهد المرشد الثاني الأستاذ حسن الهضيبي، كان موضع ثقته من الناحية العلمية، وكلفه كتابة كتاب عن «المرأة» يبين حقوقها وواجباتها، في ضوء الشريعة الإسلامية، ونهض بذلك، وكتب كتابه الموفق «المرأة بين البيت والمجتمع» الذي عكس نظرة وسطية بين الغلاة والمفرطين في قضية المرأة، ثم طوَّره بعد ذلك إلى كتاب «الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة».

وظلت العلاقات بينه وبين الأستاذ الهضيبي طيبة، حتى قامت ثورة يوليو، وكان التعاون بينها وبين الإخوان ملحوظًا، ثم حدث الخلاف، ودخل الباقوري الوزارة مع الثورة، على خلاف رأي الإخوان، فطلبوا إليه أن يستقيل من الجماعة، فاستقال، ليتحمَّل هو مسؤولية اختياره، واختار فريقًا من الإخوان للعمل معه، كان منهم الأستاذ البهي الخولي، والشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق. رحمهم الله جميعًا.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٨٥)، عن ابن مسعود.

اختلاف أعضاء الهيئة التأسيسية

وحين اشتد الخلاف، واحتدم النزاع بين الثورة والإخوان: اختلف أعضاء الهيئة التأسيسية فيما بينهم، فكان منهم فريق على رأسهم الأستاذ البهي، يَرَوْنَ ضرورة الصلح مع عبد الناصر، وتفادي جرّ الجماعة إلى معركة غير متكافئة مع الثورة، تُجرُّ فيها للتهلكة بغير مبرر، وهؤلاء يحسنون الظن بعبد الناصر، ويرون أنهم إذا عقدوا عهدًا معه نفذه.

وفريق آخر يمثل قيادة الإخوان، ويمثل الأكثرية منهم أيضًا: لا يثقون بعبد الناصر، ولا بتعهُّداته، وأنه لا يضمر خيرًا للجماعة، بل يتربَّص بها، ويريد أن يتخلص منها، ولهذا يريد ضرب بعضها ببعض فيكون بأسهم بينهم شديدا. ومن هنا يجب الوقوف ضد هذه الفتنة، ومساندة القيادة الشرعية فيما تؤمن به، وتحرص عليه.

ويبدو أن الأحداث بعد ذلك صدقت ما قاله هؤلاء، وأن رؤية الأستاذ الهضيبي كانت أصدق.. ولقد وقف الرجل ـ برغم كبر سنه ـ راسخ القدم، رافع الرأس، كأنه الطود الأشم.

ولقد حوكم الأستاذ البهي وإخوانه من أعضاء مكتب الإرشاد، مثل الشيخ عبد المعز عبد الستار، وأرادوا بهذه المحاكمة أن تكون شهادة ضد المرشد وإخوانه.

ولقد كتب مؤرخ الإخوان الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه: «الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ» عن هذه الخلافات والصراعات داخل الجماعة، وهو شاهد عيان، ومرضي عند الطرفين فليراجع، وقد نقلنا بعض كلامه في الجزء الثاني.

هذا الموقف من الأستاذ البهي الخولي، جعل كثيرين من الإخوان، يتخذون منه موقفًا سلبيًّا، وبخاصَّة الذين دخلوا السجن الحربي، ممن حوكموا، ومن لم يحاكموا، وهو موقف طبيعي بالنسبة للبشر، الذين لا يحبون من آذاهم، ولا من وقف مع من آذاهم.

إشاعة خلق العفو والصفح بين المؤمنين

ولكن من المفترض أن تهدأ النفوس بعد مدة من الزمن، ويعود الناس إلى جو التسامح وخلق العفو والصفح، كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف:٩٢).

وقد قال الله تعالى في شأن من شاركوا في حديث الإفك، وقد حلف أبو بكر أن يحرم أحدهم وهو قريبه، مما كان يصله به من قبل: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٢٢).

وقال تعالى في شأن أهل الكتاب: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٣).

فأولى أن يكون الصفح والعفو بين المؤمنين بعضهم وبعض.

لقد ساءني أن مجلة «الدعوة» لسان حال الإخوان في مصر، حين انتقل الأستاذ البهي الخولي إلى رحمة الله، لم تعره أي التفات، ولم تتحدث عنه بوصفه أحد رجال الدعوة الذين عاشوا عمرهم لها، وتركوا آثارا فيها.

وكان يمكن أن تشير إلى الخلاف الذي وقع، وتقول رأيها في تخطئة الأستاذ البهي ومجموعته، ثم تقول: ولكنه الآن أفضى إلى ما قدم، وهو موكول إلى نيته، وإنما لكل امرئ ما نوى.

كلمة منصفة عن الخلاف داخل الإخوان

وهنا لا بد لي من كلمة منصفة عن الخلاف داخل الإخوان، وأعتقد أنه ينطبق على كل الجماعات. والإخوان شأنهم شأن الجماهير دائمًا، تسرف في الحب، وتسرف في البغض... من أحبته ارتفعت به إلى أعلى عليين، ومن أبغضته نزلت به إلى أسفل سافلين. وفي هذه الحالة تنسى سوابقه، وتلغي مآثره، ولا يذكر عنه إلا الجانب المظلم.

هذا مع أن القرآن يعلمنا أن نعدل مع من نكره، كما نعدل مع من نحب، لا يمنعنا شنآن قوم (شدة بغضهم لنا أو بغضنا لهم) أن نعطيهم حقهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨).

ومن العدل أن تذكر للخصم حسناته، كما تذكر سيئاته.

كما يعلمنا الإسلام: أن نتعامل مع أهل الإيمان بحسن الظن، وأن يحمل حال المسلم على أحسن حال، ونلتمس له العذر ما استطعنا، فالمؤمن أبدا يلتمس المعاذير، والمنافق يتطلب العيوب والعثرات. وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات:١٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[١].

سوابق الخير

أضف إلى ذلك: أن من آداب الإسلام: ألا ينسى المسلمون لمن أخطأ في حقهم: سوابقه الخيرة، ومواقفه الطيبة، التي حفل بها سجله، فربما كانت السوابق شافعة له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب، وقد قال عن حاطب بن أبي بلتعة: دعني يا رسول الله، أضرب عنق هذا المنافق! وقد حاول أن يفشي سر رسول الله إلى أهل مكة، ويخبرهم بقدوم جيشه عليهم، والرسول حريص على أن يفاجئهم، فيجبرهم على التسليم بلا قتال أو بأقل الخسائر الممكنة، فعمله مما يمكن أن يعد اليوم في أعمال الخيانة العظمى، ومع هذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر: «ما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فإني قد غفرت لكم»[٢]!

كما أن من روائع هذا الدين: أنه يقدر ضعف الإنسان، وأن كل بني آدم خطاء، وأن من أخطاء الإنسان ما لا يعاقب عليه، بل يؤجر أجرًا واحدًا إذا صدر عن اجتهاد وتحرٍّ للحق، فإن أصاب الحق فله أجران، وإن أخطأ فله أجر.

هذه مبادئ مهمة في التربية الأخلاقية الإسلامية، ولكن الإخوة كثيرًا ما يغفلونها، نتيجةً لغلبة الغضب عليهم، أو إساءة الظن بمن يخاصمونه واتهامه في سريرته ونيته، ونحن لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس، بل لنا الظاهر، والله يتولى السرائر. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، عن علي.

مؤتمر تنصير المسلمين في كلورادو ١٩٧٨م

من الأحداث المهمة المعتبرة التي وقعت خارج العالم الإسلامي، وكان لها صدى كبير، وأثر خطير لدى المسلمين، وخصوصًا الدعاة والمهتمين بالشأن الإسلامي: المؤتمر الذي عقد في ولاية كلورادو بأمريكا، وفي مدينة «جْلِنْ أَيْري» لتنصير المسلمين في العالم، والذي استمر لمدة أسبوع كامل، وقد اجتمع نحو ١٥٠ مائة وخمسين منصّرًا. وهو تتمة للمؤتمر الذي عقد في لوزان بسويسرا عام ١٩٧٤م لتنصير العالم، أو قل: هو بداية لتنفيذ ما اتفق عليه هناك.

وقد أُعد للمؤتمر أربعون بحثًا، تعين على توضيح الرؤية، وتمهيد الطريق لتنصير المسلمين، الذين أحزن المنصرين إخفاقهم إلى اليوم في هدايتهم! وعدم استجابتهم لدعوتهم،وإيمانهم بالمسيح إلها ومخلّصا!!

لقد كانت أيام المؤتمر السبعة مشحونة بالعمل والإنجاز، جلسات متتالية في تسلسل صارم، وفيها قرروا إنشاء معهد للأبحاث والتدريب متخصص في تنصير المسلمين أطلقوا عليه اسم أحد عتاة التبشير، وكبراء التنصير، وهو صمويل زويمر، الذي رأس عددا من المؤتمرات التنصيرية في القاهرة وفي غيرها، منشئ مجلة «العالم الإسلامي» التبشيرية، فأرادوا إحياء ذكراه بهذا المعهد الذي اعتبروه بمثابة «جهاز مركزي» لتنفيذ قرارات المؤتمر، تم إنشاؤه بالفعل في جنوب كاليفورنيا، واختير «دون ماكري» رئيس مؤتمر كلورادو مديرًا له.

جاء في التعريف بهذا المعهد هذه الفقرة:

«إن الهدف الرئيسي لمعهد صمويل زويمر، هو مساعدة الرجل المسلم، والمرأة المسلمة، والطفل المسلم، في كل مكان، لتوفير الظروف التي تجعلهم يقبلون المسيح إلها ومخلصا لهم، وأن نرى الكنيسة مزروعة بين كل جماعة مسلمة»!!

وللمعهد شعار مكتوب على لوحة كبيرة خضراء اللون، وباللغتين العربية والإنكليزية، ونص هذا الشعار:

«لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله، فاذهبوا وتلمِذوا (اجعلوهم تلاميذ) كل المسلمين، من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة».

وقد رصدوا لهذه الغاية مليار دولار (ألف مليون دولار) جمعت بسهولة، ووضعت في أحد البنوك.

إن أخبار هذا المؤتمر تناقلتها وكالات الأنباء، ونقلت إلى العالم الإسلامي، وأقضت مضاجع الغيورين من المسلمين هنا وهناك، وأنا منهم، إن لم أكن في مقدمتهم، لما يبيت للإسلام من مكايد، وما يرصد من أموال، وما ينشأ من معاهد، وما يعد من رجال مدربين، لتحويل المسلمين عن دينهم إلى المسيحية التي لم تعد مسيحية عيسى بن مريم، بل مسيحية «سانت بولس»، والتي لا يذهب من أهلها إلى الكنائس في أيام الأحد إلا نحو ٥٪ خمسة في المائة منهم، كما قالت الإحصاءات في أوربا.

بزوغ فجر الصحوة الإسلامية

قد كنت أتوهم أن دعاة التنصير بدءوا حملتهم في الوقت الغلط، ففي هذا الوقت ١٩٧٨م كانت «الصحوة الإسلامية» الجديدة قد بزغ فجرها، وأشرقت شمسها، وبدأت أنوارها تمتد شرقا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، داخل العالم الإسلامي وخارجه.. وهي صحوة انبثقت من ضمير الشعوب، ومن قلب الجماهير. وهي صحوة عميقة وشاملة، شملت إيقاظ العقول والمشاعر، وإحياء العزائم والضمائر، فهي صحوة علم وعمل، وفكر وحركة، وغيرة ودعوة، وكفاح وجهاد، ظهر أثرها في معارك التحرير ضد أعداء الأمة، وفي ميادين المال والاقتصاد، وميادين الثقافة والفكر، وفي ميادين الخلق والسلوك.

وقد جاءني صحفيون وصحفيات من أمريكا وأوربا، يسألونني - كما سألوا غيري - عن سر هذه الصحوة، التي جعلت الشباب يتردَّدون إلى المساجد، ويرجعون إلى القرآن والسنة، ويتمسّكون بآداب الإسلام، الفتى يلتحي، والفتاة تختمر (أو تتحجب)، والجميع يؤدون الفرائض، ويتجنبون المحرمات، بل يتقون الشبهات، ويقرءون الكتب الإسلامية، ويسمعون ويشهدون العلماء والدعاة المسلمين. في حين نرى الشباب الغربي أعرضوا عن الدين، وغرقوا في الشهوات، ولم يعد الدين من مطالب حياتهم؟ ثم بدا لي أن القوم قد وعوا بما يجري في عالم الإسلام من حولهم، بل بما يجري في بلدانهم ذاتها من حركة غير عادية للشباب المسلم، حتى في قلب أمريكا نفسها، فقد بدأ اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا يثبت وجوده، ويعقد مؤتمراته، ويفتح فروعه، وينشئ مؤسساته المتنوعة، ومنها جمعية العلماء والمهندسين، والجمعية الطبية الإسلامية، وجمعية العلماء الاجتماعيين، ومؤسسة الوقف الإسلامي وغيرها، ترتبط بأهل الفكرة والدعوة والتربية في البلاد العربية والإسلامية، تأثر بهم، وتؤثر فيهم.

وبدأ الغرب بمؤسساته السياسية والثقافية والدينية، يرقب هذه التحركات عن كثب، ويخصص لها الدارسين، وتعد لها الحلقات، فلم يكن في عزلة ولا غفلة عن هذه الصحوة. وخصوصًا المسئولين عن «التنصير» فيه.

ومن هنا كانت حماستهم البالغة لعقد المؤتمر الأمريكي للمنصرين البروتستانت في ولاية كلورادو، بادرة منهم ليقطعوا الطريق على الصحوة الإسلامية الواعدة الصاعدة.

وفي أول كلمة لرئيس المؤتمر (دون ماكري) قال في مفتتح خطابه: بلغت الصحوة الإسلامية التي تجيش في أعماق ٧٢٠ مليون مسلم شأوا لم تبلغه لعدة قرون مضت. ثم يتحدث عن البترول الذي يملك المسلمون معظمه: وهو يشكل شريان الصناعة في الغرب. وعن بروز القضايا الإسلامية في العالم، من تمرد جبهة مورو لتحرير المسلمين في الفلبين، إلى الصراع بين العلمانيين والإسلاميين الذي كاد أن يفرض تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر، كما ستقوم باكستان بتطبيق الدستور الإسلامي، لأول مرة في تاريخها، ابتداء من آذار عام ١٩٧٨م[1]. إلى غير ذلك من مظاهر الصحوة الإسلامية،

(١) انظر كتاب «التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي» ص ١٣.

التي تجلت أكثر ما تجلت في سلوك الشباب، الذي عمر المساجد، والشابات اللاتي التزمن طوعًا بالحجاب.

في هذا الوقت الذي بدأ فيه رجال التنصير ينشطون، كانت الصحوة تشق طريقها بقوة، بغير مبشرين، وبغير مليارات ولا ملايين، وبغير معهد زويمر ولا غيره. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال:٣٦).

التحرُّك لمقاومة التيار التنصيري

على كل حال لقد أقلقتني أخبار مؤتمر كلورادو كما أقلقت غيري من العلماء والدعاة وأهل الغيرة على الإسلام وأمته، وكل الحراس الأيقاظ الذين عدُّوا أنفسهم مسؤولين عن هوية الأمة وعن الحفاظ على عقيدتها ورسالتها مرابطين على ثغورها.

وهذا ما حرَّكني لعمل شيء لمقاومة التيار التنصيري، الذي يستغل فقر المسلمين وجهلهم ومرضهم ومشكلاتهم، للتسلل منه إلى فتنتهم عن دينهم، بوسائل غير أخلاقية، وأساليب لا يرضاها الله ولا رسله، ومنهم المسيح عليه السلام.

وهو ما انتهى إلى تأسيس «الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» بالكويت.. وسأكمل بقية الحديث عن هذا الأمر الخطير عندما أتحدث عن إنشاء الهيئة الخيرية، في حينه من هذا الجزء من المذكرات إن شاء الله.

يذكِّرني هذا المؤتمر وطموحاته في تنصير أمة الإسلام الكبرى، ما كان قد قرَّره المنصِّرون في إندونيسيا أن يحوِّلوها إلى بلد نصراني في حدود خمسين عامًا، وضاعفوا لذلك الإرساليات، واستعدُّوا بمضاعفة الميزانيات، وأسَّسوا عشرات المطارات، ووفروا أعدادًا من الطائرات، ينتقلون بها بين الجزر. مستغلين فقر الفقراء، وضعف المرضى، وضياع اليتامى والأرامل، وجهل الأميين، وفراغ القبائل الهمجية، وعلمانية الحكام، الذين لم يعد يهمهم أمر الدين، ولا الحفاظ على هُويَّة الإسلام، فقرَّروا غزو هذا البلد، الذي أصبح بعد ذلك أكبر بلد إسلامي في العالم، وتحويل مساجده إلى كنائس،

وأبنائه من مؤمنين بالله الواحد الأحد إلى مؤمنين بالآلهة الثلاثة: الإله الأب والإله الابن، والإله الروح القدس.

ولكن الله خيَّب ظنونهم، وردَّ كيدهم في نحورهم، وأعاد سهامهم المسمومة إلى صدورهم، وقام رجال مخلصون من أبناء إندونيسيا على رأسهم د. محمد ناصر، فأنشئوا المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية، وقاوموا بإمكاناتهم المحدودة، القدرات الهائلة التي يملكها المنصرون. وكانت النتيجة ما قرَّره القرآن الكريم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢)، وسقطت الأنظمة الدكتاتورية في إندونيسيا، وقامت فيها صحوة إسلامية، لمس الناس آثارها في كلِّ مكان، حتى إنهم ترجموا من عدَّة سنين أكثر من مائة كتاب من كتبي.

وإن المرء ليعجب من غرور هؤلاء المنصِّرين، وكيف ختم الله على قلوبهم، وعلى أسماعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فباتوا يطمعون في أن يحوِّلوا المسلمين الموحِّدين إلى نصارى مثلثين، وكلُّ سنن الله تضادُّهم، وتنذر بإخفاقهم.

أولاً: لأن منطق الترقِّي أن ينتقل الإنسان من الشرك بمختلف مظاهره؛ ومنه الإيمان بآلهة ثلاثة إلى التوحيد الخالص، الذي هو جوهر الإسلام وتتمثل في قولة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وثانيًا: لأن من يدخل في الإسلام يضيف إلى إيمانه، ولا ينتقص منه. فكما أن اليهودي إذا تنصَّر، أضاف إلى إيمانه بموسى: الإيمان بالمسيح عيسى، وإلى إيمانه بالتوراة إيمانه بالإنجيل، فكذلك إذا دخل النصراني الإسلام أضاف إلى إيمانه المنقوص: إيمانه بمحمد وبالقرآن. وكما أعلن القرآن: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ثالثًا: لأن المسلم يؤمن بكتاب تكفَّل الله بحفظه، وهو القرآن، فلم تضع منه كلمة، ولم ينقص منه حرف، والمسلمون يقرءونه كما كان يقرؤه النبي وأصحابه، ويكتبونه كما كان يكتب في عهد الخليفة الثالث عثمان، فكيف ينتقلون من هذا إلى كتاب ثبت تحريفه

لفظيًّا ومعنويًّا، وكتبت في ذلك كتب ودراسات من الغربيين أنفسهم، ومن غيرهم، وهل يستبدل الإنسان الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ ورحم الله البوصيري حين قال:

الله أكــبر، إن ديــن محمد ... وكتابه أقــوى وأقــوم قيلا

لاتذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح، فأطفأ القنديلا!

رابعًا: أن التاريخ ينقل لنا بالوثائق والحقائق والأرقام: أن الناس ـ منذ أربعة عشر قرنًا ـ ينتقلون من النصرانية إلى الإسلام، وليس العكس. وقد كانت مصر وبلاد الشام وشمالي إفريقيا والأناضول وغيرها نصرانية ودخلت جميعًا ـ إلا أقليات محدودة ـ في الإسلام.

خامسًا: أن كثيرًا من البلاد النصرانية الأصل، لم تعد نصرانية في الحقيقة، بل هي لا دينية تمامًا، في تفكيرها، وفي وجدانها، وفي سلوكها. فأولى بالمنصِّرين أن يعودوا إلى أقوامهم ليردُّوهم إلى دينهم، بدل أن يذهبوا إلى أمة متمسِّكة بدينها، ولا تبيعه بملك المشرق والمغرب.

سادسًا: أن أي مسلم من عامة الناس، يعتقد أنه وحده يملك الحقيقة كاملة، وأنه يعلم عن حقيقة المسيح ما لا يعلمه المنصِّر عنه، وأن هذا المنصِّر ضال مضل، لأنه يعمل لحساب الغرب الاستعماري المادي الانحلالي، وليس لله وحده، فكيف يستجيب لمثله؟!

سابعًا: ثم العجب كيف يطمع هؤلاء في إضلال أمة عن دينها، بحيث تكفر بربها الواحد الأحد، وبقرآنها المعجز الخالد، وبنبيِّها خاتم النبيين، وهي أمة الخلود التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس، وقد بلغت مليارًا وستمائة مليون نسمة. من الأحمق المهووس الذي يحسب أن هذه الأمة قطيع يساق بسوط الترهيب، أو بزمام الترغيب عن طريق وجبة من الغذاء، أو حبات من الدواء؟! إننا نذكرهم بقول الشاعر:

يا ناطح الجبل العالي ليوهنه ... أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل![1]

---

(١) من شعر: الحسين بن حميد.

ثامنًا: كيف يَدَع المسلم دينا يقوم على العلم، واحترام العقل. حتى إن أول آية نزلت في قرآنه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، وقرَّر المحقِّقون من علمائه: أن إيمان المقلِّد غير مقبول، والقرآن يقول: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ (البقرة: ١١١)، إلى دين يقول لأتباعه: اعتقد وأنت أعمى! اغمض عينيك ثم اتبعني. وقد حفل تاريخه بمقاومة العلم، واضطهاد العلم، ومحاكم التفتيش. في حين أن علماءنا يقولون: الدين عندنا علم، والعلم عندنا دين!

تاسعًا: كيف يَدَع المسلم دينا عالميا خالدا بطبيعته، إلى دين محلِّي إقليمي مؤقَّت بحكم طبيعته، ورسالته الأصليه؟! فالمسيح ـ كما ذكر القرآن ـ رسول إلى بني إسرائيل، والإنجيل نفسه يقول على لسان المسيح: «إنما بعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة». بهذا الأسلوب الحصري. أما القرآن فقد نادى من أول يوم برسالة عالمية: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)، كما أعلن أنه ختم النبوات فلا نبي بعده[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٢)، عن أبي هريرة.

زيارتي الثانية للشرق الأقصى

تحدثت عن زيارتي الأولى للشرق الأقصى قبل ذلك، عندما زرتها في أواخر صيف سنة ١٩٧٤م، في رفقة طيبة، كانت تضم فضيلة الأخ الحبيب الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والأخ العزيز الأستاذ سيد أبو يوسف مفتش اللغة الإنجليزية في وزارة التربية والتعليم، وقد استمرت نحو ثلاثة أسابيع.

وبعد أربع سنوات أراد صديقنا الكبير الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم كاظم مدير جامعة قطر: أن ينظم لي رحلة أخرى إلى بلاد الشرق الأقصى، ألتقي فيها رجالات الإسلام، ورجال الجمعيات الدينية، والحركات الإسلامية، والجامعات المعتبرة، في كل من: ماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة والفلبين وهونج كونج وكوريا واليابان.

وقد كتبت الجامعة إلى هذه البلدان كلها، وإلى أهم الشخصيات التي سألقاها، محددة بتواريخها، فكانت رحلة منظَّمة غاية في التنظيم. وكان لسكرتيرة د. كاظم، السيدة «إيفون» دور أساسي في حُسن ترتيبها، بالبرقيات المتتابعة (لم تكن الفاكسات قد ظهرت بعد)، وبالاتصال الهاتفي عند اللزوم، حتى انتظمت الرحلة من بدايتها إلى نهايتها بحمد الله.

وكنت قد طلبت من وزارة التربية أن يرافقني صهري الأخ الأستاذ سامي عبد الجواد، الأمين المساعد لدار الكتب القطرية، لمعرفته باللغة الإنجليزية، ولئلا أكون وحدي في هذه الرحلة الطويلة، وقد قال العرب: الرفيق قبل الطريق. ووافقت الوزارة مشكورة على ذلك.

إلى ماليزيا

كانت المحطة الأولى في هذه السفرة إلى ماليزيا، وقد مكثنا فيها عدة أيام، وألقيت فيها عدة محاضرات، وزرنا فيها بعض الولايات، واشترينا بعض المشغولات المصنوعة من الفضة من حلي النساء.

ومما أذكره في هذه الزيارة: المحاضرة التي ألقيتها في جامعة الملايو، وقد وجه إليّ عقبها سؤال محرج، والذي وجهه هو رئيس الجامعة «إنْكو عزيز» وخلاصة السؤال: إن الشيوعيين يفحمون المسلمين بسؤال لا يجدون له جوابا حول الزكاة. يقولون: إن الإسلام ألقى عبء الزكاة على الفقراء، وأعفى منها الأغنياء، وذلك أن المجلس الملي أو الشرعي في الولاية يأخذ الزكاة (العشر) من زراع الأرز أو القمح أو الشعير مثلا، وربما كان الزارع مستأجرًا للأرض، وليس مالكا لها، ولكن المجلس لا يأخذ شيئًا ممن يملك حدائق جوز الهند أو التفاح، أو مزارع الشاي أو المطاط أو غيرها مما يجلب على صاحبه الملايين، ومع هذا لا يطالب من الزكاة بقليل ولا كثير، حيث يقول الفقهاء: هذه الفواكه وأمثالها، وكذلك الشاي والمطاط لا يجب فيها شيء من الزكاة!!

قلت لهم: إن المجالس التي تجمع الزكاة عندكم ملتزمون بمذهب الشافعي، الذي لا يوجب فيما أخرجت الأرض زكاة، إلا فيما يكال وييبس ويدخر، مثل الأقوات، وما عدا ذلك لا زكاة فيه.. ولكن الذي رجحته بالأدلة في كتابي «فقه الزكاة»: أن الزكاة واجبة في كل ما خرج من الأرض، مأكولا كان أم غير مأكول، حتى القطن والكتان والمطاط ونحوها. وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة وأصحابه، وداود الظاهري، وهو الذي تسنده الأدلة من القرآن والسنة.

حتى إن إمام المالكية في عصره، القاضي أبا بكر بن العربي: رجح مذهب أبي حنيفة في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسير آية ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ من سورة الأنعام (١٤١)، وعند شرحه لحديث: «فيما سقت السماء العشر»[1] في شرحه لجامع الترمذي، وضعَّف مذهبه ـ وهو مذهب مالك ـ في هذه المسألة، قائلا في الأحكام: أما

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٨٣) عن عبد الله بن عمر.

أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق، فأوجبها في كل ما أخرجت الأرض.. وكذا قال في «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي» مستندًا إلى عموم الآية ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ (البقرة: ٢٦٧)، وعموم الحديث: «ما سقت السماء» مؤيدًا بأن هذا القول، أليقها بشكر النعمة، وأحوطها للمساكين.

وأحسب أن الإمام الشافعي لو كان حيا اليوم، ورأى هذه المفارقات، لغيَّر رأيه، كما غيَّره في كثير من المسائل، والتي يقال فيها: قال الشافعي في «القديم»، وقال الشافعي في «الجديد»، وقديمه ما كان يراه قبل مجيئه إلى مصر، وجديده ما غيره بعد إقامته في مصر، حيث رأى ما لم يكن قد رأى، وسمع ما لم يكن قد سمع.. كما أنه قد ازداد نضجا وعمقا، واتَّسع علمه، فلا غرو أن يتغيَّر اجتهاده في بعض المسائل.

واستراح دكتور عزيز لجوابي، وقال: ليت المشايخ عندنا يفقهون مثل هذا الكلام، ويأخذون الزكاة من كل ذي مال نام. وبهذا يسوون بين المكلّفين جميعا، كما هو الأصل الشرعي أن الناس سواء أمام التكاليف.

وقد لقيت في هذه الرحلة الأخ أنور إبراهيم الذي قويت جمعيته وصلب عودها، وهي «جمعية الشباب المسلم» المسمَّاة بالماليزية «آبيم». وكان المترجم بيني وبينه أحد الإخوة الماليزيين الذين يجيدون العربية، وهم كثيرون بحمد الله، وفي الجمعية عدد منهم.

إلى إندونيسيا

وبعد ذلك سافرنا إلى إندونيسيا، حيث نزلنا في مطار جاكرتا، ووجدنا من ينتظرنا في المطار، وكان هذا من ثمرات حسن تنظيم الرحلة: أننا نجد في كل مطار من ينتظرنا ومن حجز لنا في الفندق، ويسَّر لنا أمورنا، وهذا من فضل الله، ومن بركات الترتيب والإعداد الجيد.

وكان أهم من لقيناه: الدكتور محمد ناصر رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، الذي تحدثت عنه فيما سبق، وقد أعدّ لي برنامجًا حافلاً لزيارة الجامعات والمدارس الإسلامية،

ومراكز النشاط الإسلامي المختلفة، فزرنا «جامعة ابن خلدون»، وزرنا «المدرسة الشافعية» والمدرسة الطاهرية، وزرنا مجلس العلماء.

وأذكر أني خطبت الجمعة في مسجد الجامعة بجاكرتا، وزرت مدينة بالقرب من جاكرتا نسيت اسمها، وبتنا فيها ليلة واحدة ذهبنا إليها بالطائرة.

وبعد أيام حافلة بالمحاضرات العامة، واللقاءات الخاصة، والأنشطة المتنوعة: غادرنا إندونيسيا إلى سنغافورة.

إلى سنغافورة

وفي سنغافورة بتنا ليلتين، وقد استقبلنا الإخوة من أعضاء الجمعية الإسلامية، التي تقوم على أمر المسلمين في سنغافورة، وهم يمثلون أقلية لها وزنها.

ومن المعروف: أن سنغافورة كانت جزءا من ماليزيا «أو من بلاد الملايو» وكانت تعتبر من «المضايق البحرية» التي يملكها المسلمون،[1] ثم كثر فيها العنصر الصيني في عهد الاحتلال البريطاني، الذي فتح الأبواب على مصاريعها للصينيين والهندوس، ولكن الصينيين ركزوا على سنغافورة لما يعرفون من أهميتها التجارية والإستراتيجية، وهم يسمون الصينيين: يهود الشرق الأقصى! ولذلك تكاثروا في سنغافورة، ونظموا أنفسهم، ثم طالبوا باستقلال هذه الجزيرة.. وقد تمكنوا من تحقيق مطلبهم في عهد رئيس الوزراء الماليزي المعروف: تنكو عبد الرحمن، الذي صدر في عهده قراران في غاية الخطورة، وهما: استقلال سنغافورة عن ماليزيا.. والثاني: إعطاء الجنسية الماليزية للصينيين والهندوس بعد عشرين سنة، وسرعان ما انقضت السنون العشرون، وحصل الفريقان على الجنسية الماليزية، وأصبحا يزاحمان أهل البلاد الأصليين من العنصر الملاوي.

والحق يقال: إن الصينيين قد ارتقوا بهذا البلد الصغير في مساحته وحجمه، وجعلوا منه مثالاً يُحتذى في رعاية النظام والنظافة، بحيث لا يجوز لأحد أن يرمي في الطريق

---

(١) مثل مضيق جبل طارق، ومضيق باب المندب، ومضيق هرمز، والدردنيل، والبسفور.

ورقة أو بقية سيجارة أو نحو ذلك، وحتى إنهم يستخدمون عقوبة الجلد لمن يتعمد ارتكاب مخالفة من هذا النوع.

كما جعلوا منها مركزا عالميًا للتجارة والتسوُّق وللسياحة والانتجاع، فضلا عن تفوقهم في مجال التصنيع الذي عرفوا به.

بقينا يومين في سنغافورة مع المسلمين، تحدثت إليهم، وتعرفت على أنشطتهم، وزرت بعض مدارسهم، وصليت في جامعهم الكبير، وتعرفت على أخوين من علماء الأزهر، الذين كانوا مبعوثين إلى سنغافورة، نسيت اسميهما، أحدهما شعلة من النشاط في الدعوة والحركة. والثاني: ليس له هذه الهمة في العمل. الأول يعمل بروح صاحب الرسالة، والثاني: يعمل بروح الموظف. زرت «الجمعية الإسلامية» التي لها نشاط معروف. ولقيت المسؤولين فيها، وألقيت فيها محاضرة.

ومما أذكره: أن بعض الإخوة السنغافوريين زارونا في الفندق، وأحسب أنهم كانوا سببًا في تأخُّرنا أن ندرك الطيارة التي كنا سنركبها إلى «مانيلا» عاصمة الفلبين، فتأخّرنا يومًا عن الوصول في موعدنا إلى جنوب الفلبين.

إلى الفلبين

ومن سنغافورة ركبنا الطائرة التي أقلتنا إلى «مانيلا» عاصمة الفلبين، وفي مانيلا يوجد مسلمون في مناطق شتى، ولهم تجمُّعات ومناطق يسكنون فيها، ولهم مدارسهم ومساجدهم وأنشطتهم. وقد زرت ـ ومعي صهري الأخ سامي عبد الجواد ـ هذه المناطق، وعقدت معهم لقاءات مختلفة، وألقيت فيهم كلمات مناسبة، بعضها قصير، وبعضها طويل، حسب مقتضى الحال، وقد هيئوا لي مترجما أو أكثر، ولا سيما أن بعضهم يتكلم بلهجة ـ أو لغة ـ لا يتكلم بها الآخرون.

وبعد بيات ليلة في مانيلا سافرنا بالطائرة إلى الجنوب، وكنا قد تأخرنا يوما عن موعد وصولنا المحدد، حين فاتتنا الطائرة قبل ذلك، وشاء الله أن يخرج أهل «مراوي ستي» أهم مدن المسلمين في الجنوب، وقد خرج منهم جم غفير ليستقبلونا في المطار ـ وهو

على بعد عشرات الكيلو مترات ـ حسب موعدنا القديم معهم، فلما لم يجدونا، عادوا متأسفين لتأخرنا، وأراد الله أن يحدث لواحد منهم حادث في الطريق، توفاه الله فيه، وغلب الحزن على مشاعر الناس بعد أن كانوا في المطار في شبه عرس!

وفي اليوم التالي وصلنا، ووجدنا عددا كبيرا في انتظارنا في المطار، ولكنه أقل من عدد الأمس، وأخبرونا بما حدث بالأمس، ولم يكن المتوفى قد دفن بعد، فعند حضورنا صليت عليه صلاة الجنازة، وشيعناه إلى قبره، وواسيناهم في فقيدهم، رحمه الله رحمة واسعة. وألقيت كلمة مناسبة في هذا المقام.

وبقيت ثلاثة أيام أو أربعة في «مراوي» زرت فيها جامعة مندناو، والجامعة الإسلامية التي يشرف عليها د. أحمد ألونتو، كما زرت عددا من المدارس العربية الإسلامية، المنتشرة هناك، وتضم البنين والبنات في صفوفها، وإن كانت البنات في العادة أكثر من البنين. وفي كل هذه الزيارات ألقي محاضرات، أو على الأقل كلمات.

وقد تحدثت في الزيارة الماضية، التي تمت منذ سنوات مع الشيخ الأنصاري، عن ضرورة تطوير هذه المدارس: مبانيها وأدواتها ومناهجها ومدرسيها ولغتها، فهي بعيدة كل البعد عن عصرها، وتدرس لأبنائها وبناتها بعض ما كان يدرسه الأزهر قديما من كتب يعجز العرب الخلص عن فهمها، فكيف بالأعاجم؟!

ومن المؤسف: أني وجدت هذه المدارس، كما تركتها في المرة الماضية، لم تتقدم خطوة إلى الأمام لا في الشكل ولا في المضمون.

والمشرفون عليها يعتذرون بأن تطويرها يحتاج إلى مال كثير، ومن أين لهم المال، وأكثرهم فقراء لا حول لهم ولا قوة؟ من أين لهم ما يبنون به مدرسة حديثة، أو مختبرًا مجهّزًا بلوازمه، أو يوظفون به مدرسًا للفيزياء أو الكيمياء، أو الرياضيات أو اللغة الإنجليزية؟!

قاتل الله الفقر، فكم أعجز الناس أن يجدوا الضرورات لحياتهم، وكاد الفقر أن يكون كفرًا. وقد قال علي رضي الله عنه: لو تمثَّل الفقر رجلاً لقتلته!

على أن في المسلمين من الأثرياء والتجار من يستطيع أن يقوم بحق هؤلاء الفقراء من أمتهم، كما نرى من النصارى وغيرهم من يبذلون المليارات لخدمة دينهم. ونحن أولى منهم!

أثر اتحاد المدارس العربية

وجزى الله خيرا: اتحاد المدارس العربية الذي يرأسه الأمير محمد الفيصل آل سعود، ويتولى أمانته العامة: الأستاذ الدكتور توفيق الشاوي، ثم أخوه الدكتور محمود الشاوي، الذي اهتم بهذه المدارس، واجتهد أن ينهض بها على قدر استطاعته، وأقام عندهم في إحدى الإجازات الصيفية دورة تدريبية، لرفع مستوى المدرسين تربويا ووظيفيا.. وقد استعانوا ببعض الجامعات العربية، لتمدهم ببعض المتخصصين في إجازات الصيف، مساهمة في هذا العمل العلمي التربوي الخير، شارك فيها بعض الأساتذة من جامعة قطر، كان منهم في إحدى السنوات أخونا الحبيب الدكتور عبد العظيم الديب، وبعض رفقائه الذين أدوا بعض الواجب لهؤلاء الإخوة المعزولين عن العالم الإسلامي.

أثر الأزهر

ومما شاهدته في هذه البلاد: أثر الأزهر البيّن فيهم، فقد وجدت خريجي الأزهر يعملون بكل جد على كل صعيد، في التعليم في المدارس، وفي الدعوة في المساجد، وحتى في الجهاد الذي كانت رحاه تدور بين المسلمين وبين الحكومة المركزية في مانيلا، كان للأزهريين دور غير منكور مع القائد الأزهري المعروف سلامات هاشم رحمه الله.

زرت في هذه الأيام عددًا كبيرا من المدارس، أتكلم في كل مدرسة منها، وأنتقل من مدرسة إلى أخرى، من الصباح إلى المساء، وفي المساجد، وفي الحفلات التي أقامها الناس في أماكن شتى احتفالا بنا، وكان معي مترجمان يصحبانني، يتبادلان الترجمة، وقد تعبا في النهاية، وشكوَا من كثرة الكلام، حتى بُحَّ صوتهما، وقالا لي: نحن اثنان، وقد شعرنا بالتعب، ونحن نترجم وأنت تنشئ! لا نقول إلا: ما شاء الله لا قوة إلا بالله!

وبعد أيامنا في الجنوب عدنا إلى مانيلا من حيث جئنا، وبتنا فيها ليلة، لنواصل مسيرتنا إلى اليابان، إلى طوكيو.

إلى طوكيو باليابان

ومن مانيلا، انتقلنا بالطائرة إلى «طوكيو» العاصمة اليابانية، وكان الجو باردا شديد البرودة، وزاد إحساسنا بالبرودة: أن المناطق التي زرناها كلها: ماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة، وحتى الفلبين، كلها ذات فصل واحد، لا تعرف الفصول الأربعة، فلا يختلف صيف عندها من شتاء، بل هي أقرب إلى الحرارة منها إلى البرودة، وإن كانت حرارتها ليست كحرارة بلاد الخليج ونحوها، كما أنها تتميز بكثرة الأمطار التي تنشر الخضرة في كل مكان.

ولكنا كنا نعرف طبيعة الجو في اليابان وكوريا، وقد أخذنا معنا من الملابس ما يدفئنا عند اللزوم، وقد قال الشاعر: «الْبس لكل حال لَبوسها»؛ فلا غرو أن لبسنا للبرد لبوسه المناسب.

وقد زرنا المركز الإسلامي، وألقيت به محاضرة، ولم يكن الأخ الدكتور صالح السامرائي مدير المركز موجودًا في تلك الفترة، وهو الذي عايش المركز من قديم، ونهض به بمعونات أهل الخير من العرب، وزرنا المسجد «التركي» الذي بناه الأتراك، الذين هاجروا من تركيا قديمًا، واستوطنوا اليابان، وقد خطبت الجمعة فيه، وزرت إحدى الجزر اليابانية، نسيت اسمها.

كما زرت جامعتين يابانيتين في طوكيو، ورتبت لي محاضرة في كل منهما، وزرت مكتبة إحداهما، وكانت مكتبة متطورة، تعمل بأحدث النظم العصرية.

وقد شكونا مر الشكوى من الغلاء في طوكيو، أحسب أنها أغلى بلاد العالم، كل ليلة في الفندق بمبلغ كبير يؤود الظهر، وكل أكلة في مطعم من المطاعم كذلك. وقد ذهبنا إلى أسواقها واشترينا بعض اللوازم منها، وكان مما زاد غلاءها: أن «الين» الياباني كان في القمة بالنسبة للدولار، وهذا زاد الطين بلة، كما يقولون. ولذا لم يطل المقام باليابان.

إلى كوريا

ومن اليابان اتجهنا إلى «كوريا» والمقصود: كوريا الجنوبية، فبلاد الخليج كلها لا تتعامل إلا مع كوريا الجنوبية، وقد حططنا الرحال في عاصمتها «سيول»، ونزلنا في فندق «حياه» أو «هياه» كما ينطقونه.. ولما سألناهم عن معنى هذا الاسم، قالوا: إنهم لا يعرفون معناه، لأنه منقول إليهم من لغة أخرى، فقلت لهم: إن أصله عربي، ومعنى حياة بالإنجليزية «لايف».

وكان في العاصمة مركز إسلامي ساهمت بعض البلاد الإسلامية ـ ومنها قطر ـ في إقامته، ووجدنا بعض الشباب الذين أخلصوا للإسلام، هم الذين يقوم عليهم النشاط كله، الدعوة والتعليم والنشاط الاجتماعي، وهم عدد محدود بارك الله فيهم، على حين قالوا لنا: إن المسلمين يبلغون عشرين ألفا أو يزيدون! فأين هم؟!

سألناهم عن هؤلاء المسلمين: أيحضرون بعض الصلوات أم يحضرون يوم الجمعة؟ فقالوا: لا يحضرون إلا القليل، بعضهم يحضر في صلاة العيدين: الفطر والأضحى، والأكثرون لا نراهم، حتى في العيدين! فليت شعري: ما الذي يربطهم بالإسلام إذن؟

إن الإسلام دين اجتماعي، لا يمكن للمسلم أن يثبت وجوده فيه إلا داخل جماعة، لهذا شرعت صلاة الجماعة، وجعلت أفضل من صلاة الفرد وحده بسبع وعشرين درجة، وأنشئت المساجد لصلاة الجمع والجماعات، لتوحد المسلمين، وتصلهم بالجماعة المسلمة، فيد الله مع الجماعة، والشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا. وللمسلم على المسلم جملة حقوق: يسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، ويسأل عنه إذا غاب، ويعينه إذا احتاج، ويعوده إذا مرض، ويهنئه إذا فرح، ويعزيه إذا حزن، ويصلي عليه إذا مات.

لهذا لا يستطيع مسلم أن يحتفظ بإسلامه قويًّا مؤثرًا إذا عاش وحده، بل بالتعاون مع إخوانه يحيا ويبقى ويقوى، وهذا ما نصحنا به الإخوة هناك: أن يعيشوا بالإسلام مترابطين متآخين، يتزاورون ويتضامنون فيما بينهم، وبذلك يشعرون بنعمة الأخوة تظلهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ

لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٢، ٦٣).

قرية صغيرة واحدة زرناها مع الإخوة هي التي أثلجت صدورنا، فأهل هذه القرية قد أسلموا، وأسسوا مدرسة صغيرة لأبنائهم وبناتهم، أشبه بالكتاب، يتعلمون فيها ما يتعلمه التلاميذ في مدارس الرياض والابتدائية، فهم بهذا يحيون حياة إسلامية مشتركة، وهي حياة عملية لا جدلية ولا صورية.

إن إعلان المرء دخول الإسلام: أمر يفرح له كل مسلم، ويحمد الله عليه، أن زاد المسلمون واحدًا، يعبد الله وحده لا شريك له، ويشهد أن محمدا عبده ورسوله، ويلتزم بالإسلام عقيدة وعملا، ولكن بدون متابعة هؤلاء المسلمين الجدد، وتعليمهم الإسلام الميسر بالتدريج، ووصلهم بجماعة المسلمين، ومساجد المسلمين: يظل إسلامهم صورة لا حقيقة لها، وشكلا لا مضمون له، ويوشك أن يضيع هذا الإسلام الجديد في زحمة الحياة إذا لم يجد له محضنا.

قد يهتم بعض دعاة الأديان بمجرد الإعلان عن الدخول في دينهم، للمباهاة بالأعداد، والمكاثرة في حرب الإحصاءات والتعداد، ولأن عندهم: إذا آمنت بالمُخَلِّص «يسوع المسيح» فقد نجوت وإن لم تعمل! أما نحن فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، كما تدل على ذلك العشرات ـ بل المئات ـ من آيات القرآن، وأحاديث الرسول. وحسبنا قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء: ١٢٣، ١٢٤). المدار إذن على العمل لا على الدعاوى والأماني.

إلى هونج كونج المحطة الأخيرة

ومن كوريا استقللنا الطائرة إلى «هونج كونج» تلك المدينة الصينية العجيبة، التي كانت تحكمها بريطانيا، وفق اتفاقية معروفة، وهي في نظامها السياسي: ديمقراطية، وفي نظامها الاقتصادي: رأسمالية، وقد استطاعت في ظل الحرية أن تصبح قلعة صناعية

وتجارية، وأن تغزو بمنتجاتها العالم، شرقا وغربا، وأن تكون فيها «بورصة» عالمية، رغم ضيق رقعتها، التي جعلت بعض أهلها لا يجدون لهم مكانا، إلا في زوارق صغيرة في بحيراتها، فهي منازلهم التي يبيتون فيها، ويأوون إليها. برغم الأبراج العالية، التي يعتبر بعضها من ناطحات السحاب، ففيها أعلى عمارة في قارة آسيا كلها في ذلك الوقت (بضع وخمسون طابقا).

وفي هونج كونج جامعان كبيران للمسلمين، وهم يحاولون أن يبنوا ثالثا في منطقة حية وعامرة من المدينة.

وقد زرت المسجدين، وألقيت فيهما بعض الدروس، بترتيب من الإخوة المعنيين هناك، كما زرت إحدى المدارس الخاصة بالمسلمين، مع الأخ الصيني المسلم المعروف «يوسف يو».

كما تجولنا في أسواقها على العادة، لنشتري منها بعض الهدايا للأولاد، ولا سيما أن الأسعار هناك معقولة جدا، إذا قورنت ببلاد الخليج، فهي في بلاد الخليج تأتينا محمّلة بأجور النقل والجمارك ـ وإن شئت قلت ـ وربح تجار التجزئة، وكثيرًا ما يبالغون فيه.

وأذكر مما اشتريته من «هونج كونج» مناظر طبيعية، وهي لوحات زيتية، يرسمها فنانون مبدعون بريشاتهم، تنطق بصنع الله الذي أتقن كل شيء، وقد كنت عرفت المنطقة التي تباع فيها هذه اللوحات، ويتنافس فيها الفنانون، والباعة، وكانت في منتهى الرخص، وأنا من المولعين بهذه اللوحات، وأنتقيها طبيعية محضة، ليس فيها صورة إنسان ولا حيوان، وإن كان رأيي أن صور الإنسان والحيوان لا تحرم إلا إذا كانت مجسمة، ولم تكن لعبا للأطفال.

ومن هونج كونج عدنا ـ على ما أذكر ـ إلى البحرين، على طائرة «كاتي باسفيك» ومن البحرين إلى قطر. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكـــل مســافـر سـيـعـود يوما إذا رُزق الـسـلامـة والإيـابـا

انتصار ثورة الخميني في إيران

في شباط (فبراير) ١٩٧٩م، انتصرت الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني في إيران، بعد أن وقف الجيش الإمبراطوري عاجزا أمام الزحوف الشعبية التي تجمعت بالملايين، وعلى رغم أن الشعب لم يكن يحمل سلاحا، والجيش يملك كل أنواع الأسلحة خفيفها وثقيلها، بريها وجويها، وعلى رغم أن معه أوامر بأن يضرب بقوة، ويقتل من يشاء، ولا يخشى عقابًا ولا حسابًا! إلا أن الجيش ـ مهما تكن قسوته وجبروته ـ هو جزء من الشعب، ولا يستطيع جيش ما: أن يظل يقتل أهله وإخوانه وأبناءه زمنًا طويلاً. فلا عجب أن توقف الجيش عن مقاتلة الشعب، ومقاومة الشعب.

أعلن عن سقوط نظام الشاه «رضا بهلوي»، وعن انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني، التي سماها بعضهم «ثورة الكاسيت». فقد كان «الخميني» منفيا في الخارج، ومقيما في «باريس»، ومن هناك يرسل رسائله إلى الشعب الإيراني في الداخل عن طريق الأشرطة تعمل عملها في تهيئة الأفكار، وإيقاظ الضمائر، وتحريك المشاعر، وإلهاب العواطف، حتى تهيأت الثورة الشعبية العارمة، التي تمضي في طريق التغيير، ولا يقف دونها شيء.

سؤال محرج لعلماء السنة

بعد انتصار ثورة الخميني في إيران، توجَّه الناس هنا وهناك بسؤال محرج إلى العلماء والدعاة من أهل السنة: لماذا نجح علماء الشيعة في قيادة ثورة ناجحة على نظام جاهلي، ولم ينجح علماء السنة في إقامة ثورة مماثلة في بلاد السنة على الأنظمة العلمانية الجاهلية؟

هل هذا عجز في طبيعة المذهب السني نفسه أو هو عجز في علماء السنة الذين ساروا في ركاب الحكام؟

وكنت ممن وجه إليهم هذا السؤال ـ أو قل هذا الاتهام ـ في كل مكان ذهبت إليه من بلاد المسلمين من أهل السنة.

عوامل داخلية وخارجية ساعدت على نجاح الثورة

وكان الجواب: أن العيب والعجز ليس في مذهب أهل السنة بلا ريب، ولا في علماء السنة الصادقين، ولكن هناك ظروفا وعوامل داخلية وخارجية أدت إلى نجاح ثورة الخميني في ذلك الوقت لم تتوافر لأهل السنة.

فقد كان مذهب الشيعة هو: انتظار «الإمام المهدي» حتى يظهر، ويملأ الأرض قسطًا وعدلًا، بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا. ومعنى هذا: أن طبيعة المذهب هي: الصبر على جور الأئمة في الأرض، حتى يأتي الفرج من السماء!

ولكن الخميني رفض هذه الفكرة: فكرة الانتظار إلى ظهور الإمام؛ فقد انتظر الشيعة اثنى عشر قرنا، ولم يظهر، فإلى متى ننتظر؟ وخرج الخميني بنظرية جديدة هي «ولاية الفقيه» نيابة عن الإمام. وقد وافقه كثير من «آيات الله» والمرجعيات الشيعية الدينية، وخالفه الأقلون. وكان الخميني هو الرجل المؤهل لقيادة القافلة الشيعية في هذه المرحلة بما أوتي من قوة العزيمة، وشجاعة المواجهة، والإصرار على المبدإ، والتأثير في الأتباع، وإن لم يكن أعلم المرجعيات المعروفة في ذلك الوقت.. ولكن قيادة الثورات الشعبية لا تحتاج إلى العلم وحده، بل تحتاج أيضًا إلى مجموعة من الصفات العقلية والنفسية والخلقية كانت متوافرة في الخميني الذي تصدى لمقاومة طغيان الشاه، وهو في أوج مجده وسلطانه.

وقد ساعد على نجاح الخميني في ثورته عدة أمور:

أولها: أن الشاه قد بلغ من الطغيان والفساد مبلغًا عظيمًا.. فمن الناحية الداخلية باتت إيران مظهرًا للانحلال والتفسُّخ، من الناحية الأخلاقية، وللتمايز والتفاوت

المستنكر من الناحية الاقتصادية، ما بين ثراء فاحش وفقر مدقع، على رغم ما يملك البلد من ثروات كبيرة: نفطية وزراعية وسياحية وغيرها، ومع هذا وجد فيها المعدمون الذين لا يجدون ما يأكلون. وفي الجانب السياسي غدا الشاه الدكتاتور الأعظم، وأمست الحريات العامة في إجازة، وجهاز السافاك (الاستخبارات) مطلق اليد، في انتهاك الحريات، واقتياد من شاء إلى السجون والمعتقلات بلا رقيب ولا حسيب. وباتت سيرة الشاه الشخصية وسيرة أسرته محلا للتندر والتعليق، وآية للبذخ والاستهتار.

ومن الناحية الخارجية: أصبح الشاه ودولته شرطي أمريكا في الشرق الأوسط، وأصبحت لإيران علاقات مكشوفة بدولة الكيان الصهيوني، فضلا عما نسب إليه من الولاء للبهائية وغيرها، مما يعني: أن ولاءه لم يعد للإسلام، ولا للمذهب الجعفري، مذهب الأكثرية في إيران.

وإذا بلغ بلد من الطغيان هذا المبلغ، فهذا مؤذن بنهايته، وفْقَ سنة الله التي لا تتخلف مع ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ (الفجر: ١١-١٤).

وثانيها: أن الشعب قد غلا مرجله، واشتد حنقه وسخطه على نظام الشاه، فقد بلغ السيل الزبى، ولم يكن يحتاج إلا إلى القائد الذي يلتف حوله، ويمضي تحت رايته بقوة وجسارة، وقد وجد ضالته في الخميني الذي استطاع بحق أن يجمع الشعب من ورائه، ويعبئه نفسيًّا وعاطفيًّا، لينطلق كالسيل العرم، لا يقف في سبيله شيء.. ولو كان الجيش بكل أسلحته، والسافاك بكل جبروته. وصدق الشاعر التونسي أبو القاسم الشابّي حين قال:

إذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر!

ولا بد لليل أن ينجلي ... ولا بد للقيد أن ينكسر!

و لا ريب أن مما أيد الشعب وأنجح إرادته: أنه وجد القائد المناسب للمرحلة، الذي أجمعت عليه كل القوى الشعبية. ومن النادر أن يتحقق مثل هذا.

وثالثها: أن الظروف الدولية كانت مهيأة لاستقبال الثورة في إيران، فقد أضحى

الشاه «ورقة محترقة» كما يعبرون اليوم، ليس هناك من يتشبَّث ببقائه، ولا من يبكي عليه إذا ذهب.. ومثل هذا المخلوق لا تحرص عليه القوى الكبرى، ولا تكلف نفسها الدفاع عنه. وقد عرف من سياسة هذه القوى ـ أو من فلسفتها السياسية ـ أنها ليس لها صديق دائم، ولا عدو دائم، فهي تصادق وتعادي، وتسالم وتحارب، تبعا لمصلحتها، فصديق الأمس قد يصبح عدو اليوم، وكذلك عدو اليوم قد يصبح صديق الغد. والدنيا دول، والدهر قُلَّب، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

فلا غرو أن تتخلى أمريكا صراحة عن الشاه صديقها القديم، وشرطيها القديم، فلم يعد ينفعها اليوم، وقد انتهى دوره، ولكل مقام مقال، ولكل زمان رجال.

أثر المذهب الشيعي

ومما لا ينبغي أن ينازع فيه: أن طبيعة المذهب الجعفري الشيعي: أن يمنح علماء الدين ـ وبخاصة «آيات الله» ـ فيه قوة مادية ومعنوية، لا يتوافر مثلها لأهل السنة، لا سيما في هذا العصر.

فالشيعي المتدين يجب أن يرتبط بمرجع ديني، يفتيه ويرشده في الملمات، ويعطيه «الخمس» الواجب على كل شيعي، وهو بمثابة «ضريبة على صافي الدخل» بنسبة ٢٠٪ بعد اقتطاع النفقات اللازمة للشخص ولمن يعوله. وهذه الضريبة يفترض أن تؤدَّى للإمام المعصوم. أما وهو غائب، فإنها تعطى لمن ينوب عن الإمام من العلماء والمراجع الدينية. فهذه قوة مادية مالية تشدُّ أزر مشايخ الشيعة، وتُغنيهم عن وظائف الدولة التي قد تتحكم فيهم، وتقيد حركتهم بسبب وظيفتهم. وهو ما وقع فيه أهل السنة، حيث صاروا موظفين في الدولة، ورزقهم بيد السلطة، حتى أكبر مناصبهم مثل شيخ الأزهر والمفتي ورئيس القضاء الشرعي وأمثالهم، كلهم موظفون عند الحكومة، هي التي توليهم، وهي التي تعزلهم إن شاءت، وهي التي توسِّع لهم أو تقتر عليهم.

وقد سأل أحد ولاة بني أمية عن سر قوة الإمام الحسن البصري في نقد الأمراء والولاة، فقال: إنه رجل احتاج الناس إلى دينه، واستغنى هو عن دنياهم!

والمشكلة الآن تتجلى وتتجسد، حين يكون العالم والفقيه الكبير محتاجًا إلى دنيا

الأمراء والحكام، على حين نجد الأمراء والحكام مستغنين عن دينه وعلمه، فلم يعد أمر الدين يعنيهم!

وقد كان أهل السنة من قبل يستعيضون عن خمس الشيعة بما لهم من أوقاف وفيرة، وقفها أهل الخير على العلماء والمؤسسات الدينية، ولكن حكومات أهل السنة في العصور الأخيرة استولت على الأوقاف كلها، ليبقى العلماء عالة على الدولة أوالحكومة!

فهذا هو الجانب المادي الذي يوفره المذهب الجعفري للملالي أو الآيات أوالمراجع الدينية. أما الجانب المعنوي فهو ما يتمتَّع به هؤلاء المراجع من سلطة روحية قوية على أتباعهم، وهي سلطة أساسها الالتزام الديني، ينصاع لها المرء طائعا مختارا، معتقدا أنه يتقرب بذلك إلى الله. فالمرجع الديني في نظره ممثل للإمام المعصوم الغائب، وطاعته طاعة لهذا الإمام، الذي تعد طاعته من طاعة الله ورسوله، فهي إذن طاعة مطلقة، فإذا أصدر إليه المرجع أمرًا، فكأنما أمر به من السماء!

وهذا النوع من الطاعة لا يتوافر لأهل السنة وفق أصول مذهبهم الذي يرى: أن لا عصمة لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعصمة الأمة في مجموعها، فهي لا تجتمع على ضلالة، ومن عدا ذلك، فكل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه، سواء كان من آل البيت أم من الصحابة، رضي الله عن الجميع.

وعلى هذا يكون لعلماء السنّة فضلهم ومكانتهم، وهم الذين يرجع إليهم في أمر الدين، وأحكام الشرع، وطاعتهم فيما يفتون به ويرشدون إليه واجبة إلا إذا اختلفوا، فيتخيرون من أقوالهم ما هو أرجح دليلا، وأهدى سبيلا. ولكن جماهير الناس تناقشهم وتردّ عليهم، فليسوا معصومين، ولا مُمثّلين لمعصومين!

وفاة الأستاذ المودودي والسفر إلى لاهور للصلاة عليه

في ١٩٧٩/٩/٢٢م، نشرت وكالات الأنباء العالمية والإقليمية، وعنها نقلت الصحف والإذاعات والتلفازات، نبأ وفاة الداعية الإسلامي المجدد الكبير: الشيخ الإمام أبي الأعلى المودودي، مؤسس الجماعة الإسلامية في الهند الكبرى، ثم في باكستان الغربية والشرقية التي انفصلت فيما بعد، وسميت جمهورية «بنجلاديش»، وأحد المصلحين الإسلاميين، والمؤلفين الكبار في القضايا الفكرية الإسلامية، والذي تشكل كتبه ورسائله مدرسة متميزة في الفكر الإسلامي، والدعوة الإسلامية المعاصرة.

فلا عجب أن تلقَّى العلماء والدعاة والمفكرون، وأبناء الحركة الإسلامية في العالم الإسلامي وخارجه: نبأ وفاته بالحزن والألم والاسترجاع، لفقد هذا العالم الفذ، الذي انتفع بعلمه المسلمون عربهم وعجمهم، فقد ترجمت مؤلفاته إلى لغات شتى إسلامية، وعالمية، وفي مقدمتها: اللغة العربية.

أثر فقد العلماء الأعلام

ولا ريب في أنَّ فقد العلماء الأعلام، يعدُّ من المصائب التي تنزل بالأمة، ولا سيما أولئك الأفذاذ الذين يجود بهم القدر بين الحين والآخر، ويتركون آثارهم في الحياة والأحياء، وقلما يعوضون.

وقد جاء في الحديث المتفق عليه: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور

الناس، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما: اتخذ الناس رؤوسًا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلو»[1].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رجاله.

ولذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: إذا مات العالم ثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه.

وفي الأثر: لموت قبيلة أيسر من موت عالم. وقال عمر رضي الله عنه: موت ألف عابد قائم الليل، صائم النهار: أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه.

وقع وفاة المودودي

ومن هنا كان وقع وفاة المودودي على كل مَن يعرفه من أبناء الأمة شديدا، وقد تنادى كثير من الإخوة من العلماء والدعاة، من مصر وبلاد الشام، وبلاد الخليج وغيرها للسفر إلى مدينة لاهور ـ محل إقامة المودودي ـ للمشاركة في صلاة الجنازة عليه. لم يبق في ذاكرتي منهم إلا الدكتور أحمد الملط من مصر، والشيخ سعيد حوى من سورية، والأستاذ عبد الله العقيل من السعودية.

وكان المودودي قد وافاه أجله في أمريكا، حيث كان يعالج هناك من مدة، وقد قدر لي أن أزوره هناك في مدينة «بفَلَو» حيث يقيم ابنه هناك، وذلك قبل وفاته بزمن غير بعيد.

وقد صُلِّي على جثمان المودودي في أكثر من بلد: صُلِّي عليه حيث تُوفي في «بفلو»، وصلي عليه في مطار نيويورك، وفي مطار لندن، وفي مطار كراتشي، وهي المحطات التي مرَّ عليها جثمان الأستاذ.

سفري إلى لاهور

وكانت الصلاة الأخيرة والأساسية عليه في مدينة لاهور، التي سافرت إليها مع مَن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) كلاهما في العلم، عن عبد الله عمرو.

سافر من بلاد العرب، وقد تجمَّع جمّ غفير، قُدِّروا بأكثر من مليون في أكبر نادٍ رياضي «إستاد» في لاهور.

وقد سُرَّ الإخوة من قادة «الجماعة الإسلامية» بحضوري، وقدَّموني لأقول كلمة في جموع الحاضرين، قبل الصلاة، ثم شرفوني بإمامة المصلين على الأستاذ، ولم أر في حياتي تجمعًا لصلاة أو لغيرها، مثل هذا التجمُّع، الذي كان على رأسه رئيس جمهورية باكستان الرئيس ضياء الحق رحمه الله.

وكان هذا التجمع الإسلامي الكبير دليلا على مكانة هذا الرجل في قومه، وإن كان هناك مَن يخالفونه في بعض المسائل، ولكن جمهور علماء باكستان ودعاتها ومثقفيها، يعرفون منزلة الرجل، ويقدرون فكره وفقهه وجهاده، ووقوفه في وجه الحضارة الغربية الغازية.

وقد قال الإمام أحمد لأهل البدع والمنحرفين: بيننا وبينكم الجنائز.

فالجنازة هي التي تعبر عن مكانة الفقيد عند الأمة. إذ لا يمكن أن يكون حرص الناس على الصلاة على الميت، ببواعث دنيوية من الخوف أو الطمع، وقد انتقل العالم إلى رحمة الله، وغادر الدنيا إلى الآخرة. ولذا كان حرص أبناء المجتمع على تشييع جنازة العالم، والصلاة عليه: نوعًا من الوفاء له، والتعبير عن مدى حبهم له، وحرصهم على المشاركة في الدعاء له مع الداعين.

ومن الجنائز التي يتحدَّث عنها المؤرِّخون: جنازة الإمام أحمد في بغداد سنة (٢٤١هـ).

ومنها: جنازة الإمام ابن الجوزي في بغداد سنة (٥٩٧هـ).

ومنها: جنازة شيخ الإسلام ابن تيمية في دمشق سنة (٧٢٨هـ).

طلب التوقيع

ومما أذكره في حفل الصلاة على الإمام المودودي: أن بعض الباكستانيين الحاضرين، طلب مني أن أوقع لهم على مفكرة معهم، كما يفعل الناس عادة مع المشاهير، وأنا في

العادة لا أستجيب لرغبات الجمهور في هذا الأمر، لما يدخله من اعتبارات لا أستريح إليها، مثل اعتقاد الناس التبرك بهذا التوقيع، وما قد يدخل على نفس الموقّع من حُبِّ الجاه والشهرة عند الناس، وهو آفة من آفات النفوس، ومرض من أمراض القلوب.

ولكن بعض الإخوة آثر أن أجبر خاطر بعضهم، إكرامًا للأستاذ المودودي، وللذين حضروا من كل حدب وصوب ليصلّوا عليه. وما إن وقعت لاثنين أو ثلاثة، حتى تزاحم عليَّ العشرات والمئات، بل قل: الآلاف، وحاصروني لأوقع لهم على ما تيسَّر لهم من مجلة أوصحيفة، أو أوقع لهم على أوراق البنكنوت «الروبيات»، وكل الناس معهم هذه الروبيات من فئات مختلفة، ومطلوب مني أن أوقع على أوراق كل هؤلاء المتجمعين حولي، وقد بدءوا يتكاثرون ويتزايدون بشكل مخيف، وبدأت أحس كأني أختنق. حتى رآني بعض الإخوة الباكستانيين على هذه الحالة، فأحاطوا بي إحاطة السوار بالمعصم، وباعدوا الناس عني بشيء من الشدة، وانتزعوني من بينهم انتزاعا، والحمد لله أني خرجت سليما.

وقد دفن الأستاذ المودودي في بيته حسب وصيته، وكنت أوثر أن يدفن في المقابر العامة كسائر المسلمين؛ لما للمقبرة الخاصة من إيحاءات قد لا يرضاها المودودي نفسه.

لقاء رجال الجماعة الإسلامية

وبقيت مع بعض الإخوة بعد صلاة الجنازة، للقاء رجال الجماعة الإسلامية: أمير الجماعة الشيخ العالم الفاضل القاضي حسين، ونائب أمير الجماعة المفكر الإسلامي المعروف الأستاذ خورشيد أحمد، وعدد من قيادات الجماعة، فهمومنا واحدة، وأهدافنا واحدة، ومصالحنا واحدة، وأعداؤنا مشتركون، والواجب أن نتبادل المعلومات والخبرات والمشورة فيما بيننا، ونتدارس الوسائل المختلفة للتغلب على مشكلاتنا، والانتصار على واقعنا. والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، ولا يجوز أن يكون اختلاف الأقاليم والألسنة بيننا حائلا دون التفاهم والتعاون المشترك، والاتفاق على الحد الأدنى في العمل الإسلامي.

وقد قلت للإخوة من أعضاء الجماعة الإسلامية منذ حوالي عشر سنوات حين زرتهم في لاهور في حياة الإمام المودودي: أنتم الإخوان المسلمون في شبه القارة الهندية، ونحن الجماعة الإسلامية في بلاد العرب. أردت بهذا: أن الجماعتين متوافقتان في الأصول الكلية، وفي الوجهة العامة، وإن كان بينهما اختلافات جزئية في بعض الأمور، بدأت تتلاشى شيئًا فشيئا.

وقد اقترح المجتمعون أن يوسع هذا التنسيق بين الجماعة الإسلامية والإخوان، فيشمل كل الجماعات والمنظّمات الإسلامية الأخرى التي تشترك في الأهداف والوجهة العامة، مثل جماعة نجم الدين أربكان في تركيا، وغيرها. وأن يتم ذلك في هدوء، فإن أيَّ تجمُّع ـ أو حتى تقارب ـ بين الجماعات الإسلامية الصادقة في العمل للإسلام، يثير القوى المعادية والكائدة لأمة الإسلام، ويؤلّبها ضدها، لهذا وجب العمل في صمت شأن الأتقياء الأخفياء، الذين جاء الثناء عليهم في الحديث النبوي[1].

---

(١) وهم الذين روى حديثهم ابن ماجه في الفتن (٣٩٨٩)، والحاكم في الإيمان (١/ ٤٤)، وغيرهما عن معاذ: «إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة».

احتلال المسجد الحرام
غزة محرم ١٤٠٠هـ ـ ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩م

من أعظم الأحداث خطرا، وأبعدها أثرا، التي وقعت في تلك الفترة وكان لها أثرها علينا وعلى المسلمين عامة: احتلال المسجد الحرام، أول مسجد وضع لعبادة الله في الأرض، وفيه الكعبة البيت الحرام، قبلة المسلمين في أنحاء الأرض، إليه يتجهون في صلواتهم كل يوم خمس مرات ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة:١٤٤).

وإليه يحج المسلمون في العمر مرة فريضة عليهم، ويحجّون متطوعين ويعتمرون ما يسَّر الله لهم. والصلاة في هذا المسجد بمائة ألف صلاة فيما عداه من المساجد، غير المسجد النبوي والمسجد الأقصى.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران:٩٦، ٩٧).

حدث هائل

لهذا كان احتلال هذا الحرم المكي بما فيه من مقدَّسات، وما يحوط به من اعتبارات: حدثا هائلا، هزَّ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وتساءل الناس هنا وهناك: ما الذي حدث؟ وماذا وراءه؟ ومن هم هؤلاء الذين احتلوا الحرم؟ ما أفكارهم؟ وما

أهدافهم؟ وما وسائلهم؟ وماذا يقصدون من وراء هذا الاحتلال؟ وهل هناك جهة داخلية أو خارجية تساندهم؟ أسئلة كنا نسألها، ويسألها معنا المسلمون والمهتمون في كل مكان، ليعرفوا حقيقة ما جرى، ويا لهول ما جرى!

ولقد وقع هذا الحدث الجلل، ونحن نستعد لاستقبال العلماء والدعاة والمفكرين الوافدين من أنحاء العالم الإسلامي إلى الدوحة بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي للسيرة والسنة النبوية، الذي كان بداية الاحتفالات بمقدم القرن الخامس عشر الهجري.

ثمرة زرع

وأذكر أننا استقبلنا شيخنا الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، وقد قدم من مكة المكرمة، ـ حيث كان أستاذًا بجامعة أم القرى ـ حزينًا أشد الحزن على ما حدث في المسجد الحرام، وكان يقول بصراحته المشهودة: هذا ثمرة زرع ظل يُغَذَّى ويُنَمَّى لعدّة عقود من المشايخ الغائبين عن العالم، حتى ظهرت نتائجه اليوم!

أما هؤلاء، فقد عُرِفوا بأنهم جماعة سلفية سعودية خالصة، من أقحاح السلفيين، ومِمَّن أخذوا سلفية ابن عبد الوهاب، كما هي وقد تصوروها بدوية لفظية ظاهرية واضحة، بلا تزويق، ولا تجميل، وربما أضافوا إليها من غلظتهم وخشونتهم، غير مراعين إطلاقًا، اختلاف عصرنا عن عصر الإمام ابن عبد الوهاب رحمه الله. إنها جماعة «جهيمان» العتيبي. وانظر اسم الزعيم. وهو رجل بدوي قح، حتى في اسمه، وإن كانت الأسماء لا حرج فيها، ولكن لها دلالتها وإيحاؤها.

في الليلة الأولى من غرة محرم سنة ١٤٠٠هـ قررت هذه المجموعة السلفية بقيادة زعيمها «جهيمان» احتلال المسجد الحرام. وكانت رتَّبت أمرها قبل ذلك، وأعدت العدة لهذا الأمر، وجنَّدت جنودها، وأدخلت كميات من الغذاء، وخصوصًا من التمر، لتخزنه في أماكن معينة من الحرم. وقد احتالوا على ذلك بوسيلة وأخرى. فقد يطول زمن الحصار، ولن يجدوا من يمدهم بالغذاء من الخارج.

وقد أعدوا مجموعات بعدد أبواب المسجد الكبيرة والصغيرة، لتقوم بإغلاقها في

ا وقت المحدد. وفي هذا الوقت غلقت الأبواب على كل من في المسجد، فلا يستطيع أحد الخروج ولا الدخول. وكان كثير من الحجاج لا يزالون في مكة لم يعودوا إلى أوطانهم، ومن هؤلاء من كان في المسجد لصلاة أو طواف أو اعتكاف، فبقوا في المسجد مع المجموعة التي احتلته، وهؤلاء ناس لا لهم في الثور ولا في الطحين كما يقول المثل العامي المصري، أو كما يقول المثل العربي: لا هم في العير ولا في النفير. وبعض هؤلاء قد أفرجوا عنه فيما بعد. وبعضهم بقي إلى ما شاء الله.

الحرم المخطوف

لقد «اختطف» هؤلاء المسجد، حيث لا يظن أحد أن المسجد يمكن أن يختطف، إنما تختطف الطائرات في الجو، بإجبار طياريها أن يُغيِّرُوا مسارهم، وأن يكونوا رهن إشارة الخاطفين.. أما أن يختطف مكان كبير كالحرم المكي، له مداخل وأبواب بالعشرات، ويسع عشرات الألوف، ومئات الألوف، فلم يعهد أن يخطف مثله!

ولكن المستبعد حدث، واختطف الحرم بالفعل، وأصبح كل من كان بداخله ساعة الإغلاق: تحت سلطان الخاطفين، ورهن إرادتهم.

إن المسجد الذي ظل مفتوحًا مئات السنين لـكلٍّ من يريد الصلاة أو الطواف أو الاعتكاف، من كل آت من أنحاء الأرض: قد أغلق الآن فلا يملك أحد أن يدخله طائفا أو عاكفا، أو مصليا.

هؤلاء الشبان المتحمسون الذين أصابهم ما سماه الكاتب الإسلامي محمد عبد الله السمان قديما: «الهوس الديني» اعتمدوا على أحاديث قرءوها في بعض الكتب، واعتقدوا صحتها، وبنوا عليها مواقف، وفرعوا عليها أحكاما وفروعا. وأسسوا عليها «إستراتيجيتهم» أو رؤيتهم الأصلية، وموقفهم الأساسي في المواجهة وتحقيق الأهداف.

١ـ آمنوا بأن قضية المهدي وظهوره: قضية مسلَّمة، بل هي ـ كما أدخلها بعضهم ـ من ضمن لواحق العقيدة التي يجب أن يؤمن المسلم بمفرداتها!

٢ـ آمنوا بما جاء في بعض الأحاديث أنه من نسل النبي، وأن اسمه كاسمه واسم أبيه

كاسم أبي النبي أي هو محمد بن عبد الله. وهو هاشمي حسيني. فبحثوا فيمن معهم ومن حولهم من الأتباع عن شخص تتوافر فيه هذه السمات: هاشمي حسيني اسمه محمد بن عبد الله. فوجدوا ذلك في أحد أتباعهم، واسمه محمد عبد الله القحطاني.

٣ـ صدقوا بما جاء في بعض الأحاديث أن ظهوره سيكون في غرة محرم في أول القرن، فوجدوها فرصة ذهبية لا تعوض: أنهم على أبواب القرن الهجري، فليعدوا العدة لذلك وليقوموا بحركتهم.

٤ـ قرءوا فيما قرءوا: أنه سيبايع بين الركن والمقام. فقالوا: من غيرنا يستطيع أن يحقِّق هذه النبوءة، ويبايع إمامه بين الركن والمقام، ونحن أهل المسجد الحرام، والبيت الحرام؟

٥ـ قرءوا فيما قرءوا: أن الجيش الذي سيهاجمهم سيخسف به، فباتوا مطمئنين، أنه لا خوف عليهم من هجوم من الأرض ولا من الجو، وأن كل من غزاهم أو هاجمهم سيردهم جند من السماء! والحقيقة أنه قد قضي عليهم تمامًا بجند من الأرض، أجبروا على أن يستبيحو المسجد الحرام، ويضربوه بالقنابل، ويفتحوا أبوابه، ويأسروا من فيه، ويحاكموهم، ويحكموا بالإعدام على المهدي المزعوم، وعلى من نصبه! وهو جهيمان!

نظرة تقويم وتحليل

كانت جماعة جهيمان تعيش في الماضي والتراث، غير ملتفتة كثيرًا إلى الحاضر، ناهيك باستشراف المستقبل، ولا تعيش في الماضي كله، ولا في التراث كله، ولكنها تعيش في إطار مدرسة مُعَيَّنة، غير مَعْنِيَّة بما سواها من المدارس. إنها تعيش ظواهر النصوص، وليتها تعيش مع نصوص القرآن، وتتخذه إمامها ومصدرها الأول، بل هي تُعوّل ـ أكثر ما تُعوِّل ـ على نصوص السنة. ومع هذا لا تدقق في ثبوت السنة، وتعتمد الصحيح الذي لا شبهة في سنده ولا متنه. بل كثيرًا ما تعتمد الضعيف ـ أو على الأقل المختلف في تصحيحه وتضعيفه ـ في أحكامها ومواقفها، ولا سيما في الأمور الكبيرة، والقضايا الخطيرة.

وهي في مواقفها وأحكامها هذه تُعوِّل على الظاهر أكثر مما تعول على المقصد، وعلى الحرفية أكثر مما تُعوِّل على الفحوى، مُغْفلة فقه المقاصد، وفقه المآلات، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، ناهيك بفقه السنن، وفقه الواقع، وفقه التغيير، وفقه الحضارة.

إن الموضوع الذي حرَّك هذه القضية كلها، ودفع إلى هذه الحركة الغريبة في مظهرها وفي جوهرها، هو: قضية «المهدي المنتظر»، وهي قضية أخذت مساحة كبيرة من تفكير المسلمين، ولاسيما المتأخرين، ومن مجادلاتهم، سواء في علم الحديث أم في علم الكلام: هل هناك مهدي ينتظر أو لا؟ وإذا كان فمن هو؟ ومتى يظهر؟ وما علامته؟ وما اسمه ونسبه؟ وما وظيفته؟ وهل الأمة في حاجة إلى مثله بعد أن أكمل الله الدين وأتم النعمة، وختم النبوة، وترك في الأمة ما إن تمسكت به لم تضل أبدا؟

قضية المهدي كلها، لا أصل لها في القرآن، ولم يتحدث عنها بالعبارة ولا بالإشارة، بل الذي أكده القرآن ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣). وهي من أواخر ما نزل من القرآن.

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (الأحزاب:٤٠).

وقد أودع الله في هذا الدين ـ عقيدته وشريعته وقيمه ـ من عناصر الخلود والتجدُّد: ما يضمن بقاءه محفوظا متجددا، قادرا على مواجهة كل تطور، وكل جديد.

وقد تكفَّل الله بحفظ مصادر هذا الدين، فقال في حفظ القرآن: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩). وقال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ (فصلت:٤٢).

وقرر الإمام الشاطبي: أن حفظ القرآن يستلزم حفظ السنة، لأنها مبينة للقرآن، وحفظ المبيَّن يستلزم حفظ بيانه.

كما تكفَّل الله بحفظ هذه الأمة ـ أمة الإسلام ـ ماديًّا: بحفظها من الاستئصال، ومعنويًّا: بإبقاء طائفة منها تحافظ على وجودها الأدبي، وتحرس حدودها أن تستباح، وهم الذين يُسمِّيهم العلماء: «الطائفة المنصورة» التي صحَّت بها الأحاديث واستفاضت عن عدد من الصحابة: أنها لا تزال قائمة بالحق داعية إليه، حتى يأتي أمر الله، وهي ظاهرة على ذلك.

ويدخل في هذه الطائفة «المجددون» الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة ليجددوا لها دينها، كما روى ذلك أبو داود والحاكم وغيرهما، وصححه عدد من الأئمة.

وقد يكون هذا المجدد فردًا، وقد يكون جماعة أو مدرسة، المهم هو تجديد الدين من داخله، وبآلياته الذاتية، وهذا هو التجديد الحقيقي[1].

وإذا كان القرآن لم يذكر المهدي المنتظر لا بالعبارة ولا بالإشارة، فكذلك الصحيحان (صحيح البخاري وصحيح مسلم): لم يذكرا المهدي هذا كذلك، إلا ما قيل في حديث: «يأتي في آخر الزمان خليفة يحثي المال حثيا، ولا يعده عدًا»[2].

وهذا ليس فيه ما يدلُّ على دعوى المهدي، كل ما فيه: أن خليفة سيأتي يتحقق في زمنه الرخاء والغنى، بحيث يدفع المال إلى الناس بغير عدٍّ.

وربما يقول بعض الناس: إن صاحبي الصحيحين: «البخاري ومسلم» لم يقصدا أن يستوعبا كل الصحيح في كتابيهما، كما هو معلوم لعلماء هذا الشأن.

ولكن يجب أن يضاف هنا: أنهما حرصا على ألاّ يدعا بابا مهمًّا من أبواب العلم إلا وذكرا فيه حديثًا، ولو واحدًا. فكيف بموضوع مثل هذا قامت على أساسه معتقدات، وحدثت مجادلات، كيف يكون عندهما حديث أو أكثر على شرطهما أو شرط أحدهما ولا يخرجانه أو واحد منهما؟!

ثم إن البحث في الأحاديث المروية في هذا الشأن ـ في ضوء موازين الجرح والتعديل، والتوثيق والتضعيف ـ يبين لنا أن هذه الأحاديث كلها لا تبلغ درجة الصحة التي يجب أن تتوافر ليحتج بها في قضية مهمة كهذه.

وقد تعرض العلامة ابن خلدون في مقدمته، لقضية المهدي، وما ورد فيها من أحاديث ضعفها كلها، ولم يجد دليلا معتبرا يستند إليه في الاعتقاد بظهور المهدي.

وقد رد العلامة الشيخ أحمد شاكر (رحمه الله) على ابن خلدون في تخريجه لمسند أحمد وقال: إنه ليس من أهل هذا الشأن.

---

(١) انظر كتابنا: «من أجل صحوة راشدة، تجدد الدين وتنهض بالدنيا» فصل: «تجديد الدين في ضوء السنة».

(٢) رواه مسلم في الفتن (١٩١٣)، عن جابر بن عبد الله.

وأقول: إن شيخنا أحمد شاكر لم ينصف ابن خلدون، فإنه حين نقد أحاديث المهدي: نقدها على طريقة المحدِّثين، مستخدمًا موازين الجرح والتعديل التي وضعها الأئمة، ولم يعتمد على مجرد المنطق العقلي.

بين ابن محمود والألباني

وفي المؤتمر العالمي الثالث الذي انعقد في قطر للسُّنة والسيرة: ألقى العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود، قاضي قضاة قطر، بحثًا قويًّا، افتتح به جلسات المؤتمر، عنوانه: «لا مهدي ينتظر بعد محمد خير البشر»، ردَّ فيها كل ما استند إليه القائلون بوجوب ظهور المهدي. وكان له ضجة في المؤتمر. وقد ذكرنا ذلك من قبل. وكان الشيخ رحمه الله ببحثه هذا، يرد على الذين احتلوا الحرم، بناء على هذه الفكرة عندهم.

وأذكر أن المحدّث المعروف الشيخ ناصر الدين الألباني، زار بعده دولة قطر، وطلب أن يلقى الشيخ ابن محمود، ليناقشه في قضية المهدي، كما طلب أن أحضر معه والشيخ الغزالي والشيخ الأنصاري رحمهم الله، وكان الألباني مقتنعًا في قرارة نفسه، أنه قادر على أن يرد ابن محمود عن مقالته. وقد حضرنا وسمعنا ما قاله الألباني، وما رد به ابن محمود، وانصرفنا، وكلاهما يتمسك برأيه. ولم نر فيما ذكره الألباني أدلة قاطعة تجبر ابن محمود على التسليم، بل كلها يتطرق إليها الاحتمال. وقد قال علماؤنا: إنَّ الدليل إذا تطرَّق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال.

ومن المعلوم: أن عقيدة «المهدي» من العقائد الأساسية عند الشيعة الإمامية. ولكن المهدي عندهم موجود بالفعل، وهو الإمام الثاني عشر من أئمتهم المعصومين، ولكنه محجوز، لم يؤذن له بالظهور، ولهذا يدعون له أن يعجل الله فرجه.

كتاب «الفريضة الغائبة»
وجماعات العنف

بداية نشأة جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية

ذلك ما حدث في السعودية، أما في مصر فإن أفكار العنف قد تبنَّتها جماعات.

ففي هذه الفترة نشأت جماعة الجهاد، والجماعة الإسلامية، وكانت بداية النشأة في الصعيد، حيث تساعد البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية على تقبُّل فكرة العنف.

وكثيرًا ما نشب الخلاف، بل احتدم الصراع بين شباب الإخوان وشباب الجهاد، وكان مسرح الاعتراك الجامعات والمعاهد. فهم يتّهمون الإخوان بأنهم خانوا مبدأهم الأول، وهو الجهاد، الذي كان أحد شعاراتهم الرئيسية: الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا!

فهم الآن يهادنون الحكومات، ولا يرفعون راية الجهاد لمقاومة الحكام الظلمة، ولا لقتال الكفار من اليهود والنصارى والوثنيين في العالم.

والإخوان يحاولون أن يبيّنوا لهم فكرتهم عن الجهاد، وأننا لا نقاتل إلا من قاتلنا، ولا ينهانا الله عن الذين لم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا أن نبرهم ونقسط إليهم.. وأن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء:٩٠). وأن الخروج المسلَّح على الحكام له شروطه وحدوده، وإلا كان فتنة، وجلب على الأمة شرورًا كثيرة. وأن الإخوان قبلكم جربوا شيئًا من ذلك، فلم يحققوا هدفًا، ولم يغيروا منكرًا، ولا أسقطوا حكومة، وإنما أصابهم

من المحن ما أصابهم. ويجب أن تستفيدوا من تجربة الإخوان قبلكم، ولا تبدءوا من الصفر، والسعيد من اتعظ بغيره.

ولكن شباب الجهاد وقادتهم قبلهم قد ركبوا رؤوسهم، وزُيِّن لهم هذا السلوك، فاستمرؤوه، وساروا في طريقهم إلى نهايته المعروفة.

وفي هذه الفترة (سنة ١٩٨٠م) ظهر كتاب «الفريضة الغائبة» لكاتبه محمد عبد السلام فرج، أحد رجال الجهاد، ويعنون بهذه الفريضة: الجهاد، وأن المسلمين عطّلوا «الجهاد» من ناحيتين: من ناحية قتال الأعداء، وغزو بلاد الكفار كل سنة مرة على الأقل، وهو الذي يسمِّيه الفقهاء: فرض كفاية، ومن ناحية قتال الحكام الكفرة، الذين عطلوا الشريعة وأحكامها، وحكموا بغير ما أنزل الله، وهو تعالى يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤). وبهذا حوّلوا دار الإسلام إلى دار حرب، حيث لم تعد أحكام الإسلام تعلو فيها، بل قوانين وضعها الكفار.

وهذا الكتاب ـ أو الكتيب ـ مبنيٌّ على فتوى ابن تيمية في مقاتلة التتار، وقتال كل فئة عطلت جهارًا فريضة متواترة ظاهرة من فرائض الإسلام، كالصلاة والزكاة.

وقد تصدَّى للرد على «الفريضة الغائبة» مفتي جمهورية مصر في ذلك الوقت الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله[1].

كما ردَّ عليه صديقنا المفكر الإسلامي المعروف الدكتور محمد عمارة في أحد كتبه[2].

---

(١) انظر: بيان للناس (١/ ٣٣١) نشر دار الفاروق.

(٢) انظر: الفريضة الغائبة، عرض وحوار وتقييم. وقد رددت على هذه الأفكار في كتابي «فقه الجهاد» الذي صدر قريبا بفضل الله وعونه ونشرته مكتبة وهبة.

المؤتمر العالمي للسنة والسيرة في قطر

كان من أهم وأبرز الأحداث التي ظهرت في تلك الآونة: استضافة دولة قطر للمؤتمر العالمي للسيرة النبوية، بفضل جهود صديقنا العالم الجليل الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري رحمه الله، وتجاوب المسؤولين في دولة قطر، وكان هذا المؤتمر قد عقد مرتين قبل ذلك: مرة في باكستان، ومرة في تركية.

وأرادت قطر باستضافة هذا المؤتمر: أن تكون بداية احتفالات الأمة الإسلامية بمقدم القرن الخامس عشر الهجري.

متى يبدأ القرن الخامس عشر؟

وقد جرى نقاش طويل امتد واتَّسع بين عدد من الإخوة حول سؤال بالغ الأهمية: متى يبدأ القرن الخامس عشر الهجري: أيبدأ بسنة ١٤٠٠هـ أم بسنة ١٤٠١هـ؟

وكان كثيرون يميلون إلى أن القرن يبدأ بسنة ١٤٠٠ التي يتغيَّر فيها الرقم من ٣ إلى ٤ أي من ١٣٩٩ إلى ١٤٠٠ .

وكان رأيي الذي تمسَّكت به، ورأيت أنه وحده الصواب، هو: أن القرن يبدأ بسنة ١٤٠١، لأن سنة ١٤٠٠ محسوبة من القرن الرابع عشر، وهذا لأن كل قرن مائة سنة: يبدأ بـ ١ وينتهي بـ ١٠٠، فالقرن الأول ينتهي بـ «١٠٠» ويبدأ القرن الثاني بـ ١٠١، وهكذا كل القرون، ينتهي القرن فيها بالمائة، ويبدأ ما بعد برقم «١» بعد المائة.

والعجيب أن هذه المناقشة تكررت بحذافيرها عند نهاية القرن العشرين، وبداية

القرن الحادي والعشرين، أو الألفية الثالثة في التاريخ الميلادي، فقد ظن كثيرون ـ ومنهم بعض أبنائي ـ أن القرن العشرين ينتهي بسنة ١٩٩٩، ويبدأ القرن عندما تتغير الأرقام، ويبدأ رقم ٢٠٠٠، مع أننا لو قسمنا الألفين «٢٠٠٠» على مائة «١٠٠» لكان الناتج عشرين. فالألفان: عشرون قرنا بالتمام والكمال، وبعدها يبدأ القرن الجديد.

المهم أننا اتفقنا على أن نحتفل بالقرن بعقد المؤتمر في أوائل شهر محرم سنة ١٤٠٠هـ. وكُوِّنت لجنة تحضيرية للإعداد للمؤتمر برئاسة الشيخ عبد الله الأنصاري، وعضوية الفقير إليه تعالى، والأخ أبي عمر محمد عبد الله الأنصاري، والشيخ علي جمّاز، والأستاذ محمد الشافعي صادق، وبعض العلماء والموظفين لا أذكرهم.

واقترحنا أن نستعين ببعض الشخصيات البارزة، منهم: الدكتور عبد العزيز كامل في الكويت، والشيخ أبو الحسن الندوي في الهند، والدكتور عز الدين إبراهيم في الإمارات، وغيرهم.

وفعلاً دُعُوا إلى قطر، وشاركوا في الإعداد، واختيار الموضوعات، واختيار أسماء المدعوين.. واعترض الشيخ الندوي على أسماء المدعوين من الهند وباكستان، وقال: إنهم كلهم تقريبًا من الجماعة الإسلامية، وهناك علماء آخرون لهم وزنهم وشهرتهم يجب دعوتهم، واستجابت اللجنة لاقتراحه في الحال.

وكان من أهم المقترحات: ما رآه الدكتور عبد العزيز كامل من إضافة كلمة في غاية الأهمية إلى عنوان المؤتمر، وهي كلمة «السنة» فبدل أن كان اسمه «المؤتمر العالمي للسيرة النبوية» يجب أن يكون اسمه «المؤتمر العالمي للسنة والسيرة النبوية» فالسنة أعم وأشمل من السيرة، وهي في حاجة إلى خدمة وعناية كبرى، والسيرة جزء منها. وينبغي على هذا المؤتمر أن يكون تركيزه على النهوض بالواجب نحو السنة وعلومها، نهوضا يليق بإمكانات العصر. واستجابت اللجنة لاقتراحه فورا، وغيَّرت عنوان المؤتمر.

كوتب الأعضاء المدعوون من أنحاء العالم، وكلفوا بالكتابة في الموضوعات المقترحة عليهم، وتفرّعت من اللجنة التحضيرية لجان عدّة تعمل لخدمة المؤتمر، وأبلى الأخ أبو عمر محمد الأنصاري بلاء حسنًا في ذلك.

كلمة أمير قطر

ولم يبخل أمير دولة قطر الشيخ خليفة بن حمد بمال يطلب منه لإنجاح المؤتمر، واتصل بي الدكتور حسن كامل مستشار الأمير، وطلب مني أن أعد كلمة مناسبة ليلقيها الأمير في هذا الحفل، وقال: إن الأمير نفسه وقع اختياره عليك خاصة، لما يعلم أنك أدرى بما يقال في مثل هذه المناسبة.

وفعلاً أعددت كلمة، وسلمتها للدكتور حسن، فقرأها وسرّ بها جدًّا، وقال لي: كنت أظنك رجل دين ممتازًا، والآن علمت أنك تفهم في السياسة أيضا! وإني قرأتها على الأمير فأعجب بها.

جلسة الافتتاح

وعندما انعقد المؤتمر كان الذي ألقى الكلمة نيابة عن الأمير، هو ولي عهده الشيخ حمد بن خليفة حفظه الله. (أمير قطر اليوم)

كما ألقى الشيخ عبد الله بن زيد المحمود قاضي القضاة، ورئيس المحاكم الشرعية في قطر: كلمة في حفل الافتتاح، كان موضوعها مثيرًا، وأحدث جدلاً، عنوانها: «لا مهدي ينتظر بعد محمد خير البشر». وهو هنا متفق مع حكيم المؤرخين ابن خَلدون، الذي ردَّ في مقدمته على مقولة ظهور المهدي، وضعف الأحاديث الواردة في الموضوع.

وظهر الشيخ ابن محمود على شاشة التليفزيون لأول مرة، وكان يتحرج من الظهور فيه قبل ذلك.

كما ألقى الشيخ الأنصاري كلمة المؤتمر، وألقى الشيخ الندوي كلمة الضيوف.

ثم انفضت جلسة الافتتاح، وانصرف الشيخ حمد بن خليفة ورفقاؤه.. وبعد استراحة قصيرة، عقد المؤتمر جلسة لاختيار رئيس المؤتمر ونوابه ومقرره.

واختار أعضاء المؤتمر فضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري الداعي إلى المؤتمر رئيسًا للمؤتمر، كما اختاروا له نائبين: أولهما: الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، والثاني: هو الفقير إليه تعالى يوسف القرضاوي. ولا ريب في أنها ثقة من الأعضاء أعتز بها، وقد أجمعوا عليها وإن كان الأولى أن يختاروا عالما يمثل إفريقيا.

كما اختار المؤتمر الدكتور عز الدين إبراهيم مقررًا عاما للمؤتمر، وكان اختيارا موفقًا.

وقُسّم المؤتمر إلى لجان، حسب الموضوعات. تقدّم إلى كل لجنة البحوث المعدة في موضوعها، لتناقش وتقترح التوصيات بشأنها، لتحال إلى لجنة الصياغة التي كنت أحد أعضائها.

الرسول والعلم

وقد كنت أعددت بحثا في أحد الموضوعات المطلوبة للمؤتمر، وهو موضوع «الرسول والعلم». وقد عرضته في المؤتمر، واستفدت بما أثير من مناقشات في إغناء البحث وتطويره، وقد نشر في كتاب بعد ذلك، وطبع مرات ومرات.

وقد نشرت «إدارة إحياء التراث الإسلامي» التي يشرف عليها الشيخ الأنصاري: مجموعة البحوث المقدَّمة للمؤتمر في سبعة مجلدات.

وصدر عن المؤتمر جملة توصيات جيدة، مما يتعلق بالسنة والسيرة، ومما يتعلق بالأمة عامة في مطلع قرنها الهجري الجديد.

وكان من أهم التوصيات: إنشاء موسوعة للسنة النبوية تضمُّ صحاح الحديث وحسانها محقَّقة ومبوَّبة ومفهرسة فهرسة عصرية، ومعلَّقًا عليها بما يوضح المفاهيم، ويدرأ الشبهات.

وكذلك تأسيس مركز للسنة والسيرة يخدم علومها في ضوء معارف العصر وإمكاناته.

ومما يذكر هنا: أنه بعد عدة أشهر أصدر أمير دولة قطر: مرسومًا بإنشاء مركز بحوث السنة والسيرة، الذي أوصى به المؤتمر، والذي تشرَّفت برئاسته وتأسيسه.

مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر

وكان من ثمرات المؤتمر العالمي الثالث للسنة والسيرة: أن تبنت دولة قطر وأميرها الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني: تأسيس «مركز بحوث السنة والسيرة» الذي أوصى المؤتمر بضرورة إنشائه لخدمة السنة وعلومها بمنطق العصر وآلياته، والقيام على عمل الموسوعة الحديثية التي أشرنا إليها من قبل.

وكان ممن ساعد في تسهيل ذلك: الدكتور حسن كامل الذي تعرف علي في أثناء التحضير للمؤتمر، وفهم مني ما يمكن أن يقدمه هذا المركز، وما يمكن أن تؤديه الموسوعة ـ لو تمت ـ من خدمة دينية ولغوية ودعوية وتربوية واجتماعية وثقافية للمسلمين.

وفي ١٣ـ٧ـ١٩٨٠م صدر القرار الأميري رقم (١٢).

نحو مشروع موسوعة للحديث النبوي

وقد بدأت هذا العمل بكتابة بحث علمي عنوانه: «نحو مشروع موسوعة للحديث النبوي» حدَّدت فيها معالم هذا المشروع، وكيف نبدأ السير فيه، ونشرت هذا البحث على أوسع نطاق ممكن، وكتبت في آخره: أسئلة لكل قارئ حول المشروع: ماذا يضيف إليه؟ وماذا يحذف منه؟ وماذا ينتقده فيه؟ وأسئلة عدة: يجيب عنها بـ«نعم» أو «لا».

مجلة المركز

وبدأنا إصدار «مجلة المركز» وهي مجلة علمية سنوية متخصصة، يكتب فيها كبار المتخصِّصين، وقد نشرت فيه هذا البحث مع كراسة الأسئلة الأخيرة.

وكتب أخي الدكتور عبد العظيم الديب بحثه القيم «حافظ عصرنا.. الكمبيوتر».

ولكن الأماني شيء والواقع شيء آخر. فهناك روتين صارم يقف حائلاً دون ما أريد. كان هناك أشخاص مناسبون تمامًا من المتخصصين في الحديث وعلومه، الموصولين بالعصر وتياراته وإمكاناته، حاولت أن أوظفهم في المركز، فلم أستطع، وسارعت جهات نظيرة فالتقطتهم.. وكان هناك أناس من الفنيين الحاسوبيين الذين اشتغلوا بخدمة الحديث في مواقع أخرى، وكانوا يرغبون في الانضمام إلينا والعمل معنا، ولكن الروتين لم يمكنّا من ضمِّهم إلينا، واختطفتهم جهات أخرى.

إمكانات محدودة

كل ما أُعطي للمركز ـ بعد مديره غير المتفرغ ـ سكرتير وطابع. وكنت في ذلك الوقت عميدًا لكلية الشـريعة. كما كنت أدرّس بعض المحاضرات للطلبة أو الطالبات، إلى جوار إدارة المركز.

كما انتدب إلى المركز واحد من أساتذة الكلية المتخصصين في الحديث ـ غير متفرغ ـ وهو الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين رحمه الله تعالى.

وبهذه الإمكانات المحدودة لم نستطع أن ننجز عملنا الكبير: الموسوعة المنشودة، وقمنا ببعض الأعمال التي تناسب قدراتنا، وهو إخراج المجلة التي تحتوي عددًا من البحوث العلمية المخدومة في موضوعها، والتي لقيت قبولا لدى الدارسين والمهتمين في العالم الإسلامي.

كما نشرنا عددا من الكتب حول السنة والسيرة، مثل: المنتقى من الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، في جزأين لمدير المركز.

السيرة النبوية الصحيحة للأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري.

السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة لمدير المركز.

كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ لمدير المركز.

التربية الروحية والاجتماعية للدكتور أكرم ضياء العمري.

كما قام المركز بتدريب بعض الخريجين القطريين والخريجات القطريات في كلية الشريعة على فن التخريج والتعامل مع المصادر.. وقد استطاع الشباب الباحثون تحقيق مخطوطة قديمة، وقد انتدبت لهم في بعض الفصول: صديقنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وهو علامة في الحديث، عالم بالفقه، عالم باللغة والنحو؛ فأفاد الباحثين والباحثات في المركز في هذه العلوم كلها، في فصلين دراسيين.

كما استطاعت الأخوات الباحثات: تجميع الأحاديث المتعلقة بشؤون المرأة في مختلف الجوانب: إنسانا وأنثى وبنتا وزوجة وأمًّا وعضوًا في المجتمع.

ندوة «نحو مشروع متكامل للسنة النبوية»

بعد إنشاء المركز بعدة سنوات: رأيت أن مراكز عدة أنشئت في داخل العالم الإسلامي وخارجه لخدمة السنة، بعضها تقوم عليه دول وجامعات أو مؤسسات رسمية، وشعبية وبعضها يقوم على جهود أفراد نذروا أنفسهم لخدمة الحديث، مثل أخينا العلامة الدكتور محمد مصطفى الأعظمي.

وقد دعونا: ثلاثة أصناف من الناس:

أولاً: علماء الحديث المشغولين بمثل ما نحن مشغولون به، سواء كانوا يمثلون دولا أم مؤسسات، أم يعملون فرادى لحساب أنفسهم.

ثانيا: العلماءَ الفنيين من رجال الحاسوب، المهتمين باستخدامه في خدمة السنة والعلوم الإسلامية.

ثالثا: المشرفين على إدارة هذه المؤسسات من مديري المراكز، أو من المموِّلين والمسؤولين عنها، مثل الشيخ صالح كامل، مؤسس مركز صالح كامل لخدمة الحديث في جامعة الأزهر، والدكتور محمد عبده يماني المشرف على مؤسسة «اقرأ».

وشارك في هذه الندوة نحو ٣٥ شخصا، وكان مقررها الأخ الأستاذ الدكتور عبد العظيم الديب. وقد افتتحها مدير الجامعة د. عبد الله جمعة الكبيسي، كما سعد

المدعوون بلقاء أمير البلاد السابق الرئيس الأعلى للجامعة، الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، الذي شجَّع كل ما يخدم السنة ويقرِّبها للمسلمين، ويفهمها لهم بلغة العصر.

اتحاد عام للعاملين في خدمة السنة

وقدم إلى هذه الندوة عدد من البحوث المتنوعة، نُوقشت مناقشة مستفيضة، وصدرت قرارات وتوصيات مهمة، أعتقد أن أهمها كان: ضرورة إنشاء اتحاد عام للعاملين في خدمة السنة، من مراكز أو مؤسسات أو أفراد. وكلف أخونا القانوني الكبير الأستاذ الدكتور جمال عطية ـ المشارك في الندوة ـ بوضع الخطوط العريضة للنظام الأساسي لهذا الاتحاد، وبلورة أهدافه ووسائله، وجهازه الإداري، وقد تم ذلك ونوقش وهُذِّب وأُقر.

ثم تباحث المجتمعون حول مقر هذا الاتحاد، وبعد نقاش حر: اتفق الجميع على أن أليق مكان لهذا الاتحاد هو القاهرة، لما لها من مكانة ثقافية ولوجود الأزهر فيها، ولوجود مركز صالح كامل بها، ولسهولة الوصول إليها من كل الجهات... إلخ.

مشكلة تسجيل الاتحاد بمصر

ولكن بقيت مشكلة، وهي تسجيل هذا الاتحاد بمصر، وما قد يعتريه من عقبات، وتعهَّد الشيخ صالح كامل ـ بما له من ود وقُرب لدى المسؤولين في القاهرة ـ أن يذلِّل العقبات، ويستصدر التصريح في أقرب وقت ممكن.

وانصرف الجميع، وهم يؤمِّلون في قيام هذا الاتحاد الذي ينسق العمل في هذا الميدان المهم، ويتفادى تكرار العمل الواحد، ويقسم العمل المطلوب، ويكلف كل مركز أو جماعة بالجزء الواجب عليه، كما ألفت لجنة أو لجان علمية لمراجعة ما يتم أولا بأول، ثم هناك لجنة عليا تشرف على العمل كله، ومن أخص مهماتها: أن تحكم في الأمور المختلف فيها، ولا سيما في التوثيق والتضعيف.

كان الجميع مستبشرين بهذا العمل الجماعي، مؤمنين ببركته وضرورته، ويد الله مع الجماعة، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا.

وذهب أخونا صالح كامل، ليقوم بدوره في القاهرة في الاتصال بالمسؤولين، وقد تبيَّن له أن الأمر ليس بالسهل، فعلى رغم معرفته بكبار القوم، ظلّوا يحيلونه من جهة إلى جهة، ومن وزارة إلى وزارة، فهل هذا الأمر يتبع وزارة الأوقاف أو الأزهر، أو وزارة الثقافة أو وزارة الشؤون الاجتماعية، أو رئاسة الوزراء أو جهة أخرى؟

وظل في هذا الركض نحو سنتين، ثم انتهى به المطاف إلى إحدى هذه الجهات ـ أظنها وزارة الشؤون الاجتماعية بوصفنا جمعية أهلية ـ ووعدوه خيرًا، وبدءوا في إجراءات التسجيل والتصريح. وبشَّرنا الشيخ صالح أخيرًا بأن التسجيل أوشك أن يتم.. ثم .. ثم تراجعوا وسحبوه بعد ذلك!!

وأنا أعجب من مثل هذا التصرف، كيف يرفض مثل هذا الاتحاد، وهو إضافة إلى مصر، وليس «خصما» عليها؟! إنه يقر لمصر بالزعامة الثقافية، ويتيح لها امتيازًا في أكثر من جهة، وفيها: الناحية الاقتصادية، فهذا سيكون له مركز، وسيحتاج إلى موظفين، وسيعقد اجتماعات، وكل هذا فيه مصلحة مصر.

ولكن هذه الاعتبارات كلها غائبة عن وعي الذين يمسكون بزمام الأمور، وهم لا يعقلون. وقد قال العرب: إن من البلية أن يكون الرأي في يد من يملكه لا في يد من يبصره!

وكان من نتائج هذا الموقف: أن ضاعت فكرة الاتحاد. ولم يتح لها العودة مرة أخرى.

أمنية لم تتحقق كما كنت أحب

ومما يؤسف له: أن هذا المركز الذي كنت قد رسمت له صورة في ذهني: تقوم على فريق عمل متكامل متفاهم من الشرعيين المتخصِّصين في علوم الحديث والدراسات الإسلامية، يساعدهم متخصصون في العلوم الإسلامية الأخرى كالقرآن وعلومه، والفقه وأصوله. ومن الفنيين المتخصِّصين في علوم الحاسوب، والتصنيفات الفنية، وأن تكون تحت أيديهم مكتبة متكاملة، وأجهزة على أحدث طراز، وموظفون علميون وفنيون مساعدون، يكونون «ورشة عمل» متميزة، لأن أفرادها يؤمنون بأن عملهم عبادة وجهاد في سبيل الله: لم يسر في واقع الأمر على ما كنت أتمنى، فقد وقف الروتين المالي والإداري عائقًا دون ذلك.

زيارة مهمة للهند إلى لكهنو وديوباند

في سنة ١٩٨٠م دعيت إلى زيارة الهند من جهتين: الأولى: من العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء بالهند لزيارة «دار العلوم» التابعة للندوة، وما يتبعها من كليات ومعاهد، وإلقاء عدد من المحاضرات العامة على الأساتذة والطلبة جميعا. وقد أرسل بذلك رسالة إلى أمير قطر السابق الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حفظه الله، فوافق عليها مشكورًا.

والثانية: من جامعة الهند العريقة، أزهر الهند: جامعة «ديوباند» الشهيرة التي خرَّجت ألوف العلماء في شبه القارة الهندية: الهند وباكستان وبنجلاديش وأفغانستان وغيرها من بلاد الأقليات الإسلامية حولها. وذلك بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوي للجامعة، وقد دعوا لهذه المناسبة كبار علماء الدين من أنحاء العالم العربي والإسلامي.

وجاءت رسالة الجامعة إلى الشيخ خليفة أيضًا، فلم يتردَّد في الموافقة عليها.

ولكني أحرص دائمًا على أن أجمع رحلاتي المتعددة ما أمكن، وأختصرها في سفرة واحدة، وهو ما فعلته هنا، فقد اتفقت مع أحبتي في ندوة العلماء: أن أربط زيارتهم باحتفال جامعة «ديوباند»، إما قبلها وإما بعدها، فرأوا الأنسب أن تكون قبلها.

تأشيرة زيارة الهند

فتأهَّبت للسفر إلى نيودلهي، ومنها آخذ الطائرة إلى لكهنو، ولكني في مطار نيودلهي فوجئت بشيء لم يكن في حسباني، وهو: أني لم آخذ تأشيرة لزيارة الهند.. ففي زحمة

المشاغل والأعباء المتراكمة نسيت هذا الأمر البديهي، لأن جوازي القطري أدخل به إلى بلاد كثيرة في العالم العربي دون الحاجة إلى تأشيرة، بل أظن أن بريطانيا في ذلك الوقت لم تكن تحتاج إلى تأشيرة، كنت أدخل لندن بدون شيء، كما يدخلون هم قطر بدون شيء، ولم يكن لدي أي سكرتارية تعنى بهذه الأمور الإدارية وتكفيني إياها.. فلما سألوني في المطار: أين الفيزا؟ أسقط في يدي، وتحيرت ماذا أقول؟ وماذا أفعل؟ ورأيت نفسي في كربة دعوت فيها بدعاء ذي النون عليه السلام في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧).

كشف الله الغمة

وقد لاحظ الموظفون حيرتي وارتباكي، فرقَّق الله قلوبهم لي، وأشفقوا علي، وكان جوازي جوازًا خاصًا، فنظر بعضهم إلى بعض، أن يمَشّوا الأمر، ويمنحوني تأشيرة من المطار، وأشار بعضهم: أليس معي «مَني»؟ وكان معي بعض الدولارات، فأعطيتهم إياها. وأعتقد أنه لا مانع شرعًا من مثل ذلك، للخروج من هذا المأزق، للضرورة أو للحاجة التي تنزل منزلة الضرورة. وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٣).

وقد تنفست الصعداء حين خرجت من دائرة الجوازات، وحمدت الله تعالى أن كشف هذه الغمة، وسهَّل هذه المهمة، وأنا أهوى الدعاء بتيسير كل عسير، وأحب دعاء سيدنا موسى: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ (طـه: ٢٥، ٢٦). وعلى لساني دائما: رب يسر وأعن. فالحمد لله الذي يسر أمري، وسهَّل طريقي.

وكم حدث لي في مطارات شتى مآزق مثل هذه، وأخرجني الله منها.

إلى لكهنو

وحين خرجت من مطار نيو دلهي، وجدت أحد الإخوة النَّدْويين ينتظرني، ليصحبني بالطائرة إلى مدينة «لكهنو» عاصمة الولاية الشمالية، والتي هي مقر ندوة العلماء.

وفي مطار لكنهو وجدت عددًا كبيرًا منهم ينتظرونني، وقد تجمعوا لاستقبالي، وعلى عادتهم معهم عقود الورد والأزهار، يطوقونني بها. وذهبت معهم إلى الفندق الذي أقيم فيه، قبل أن يصحبوني إلى مقر الندوة.

ندوة العلماء

وفي دار العلوم: التقيت علماءها الذين تميَّزوا على غيرهم بأنهم يجمعون بين العلم والعمل، وأن الجانب الرباني حي في نفوسهم، ورثوه من آباء الندوة ومؤسسيها الكبار: الشيخ شِبلي النعماني، والسيد سليمان الندوي، والسيد عبد الحي الحسني، وعلاَّمة الهند اليوم السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، فكلهم نجوم هادية، ومنارات إيمانية، يعلِّمون العلم يملئون به الرءوس، ويعلِّمون الإيمان يزكون به النفوس، ولذا نرى طلاب الندوة طرازا فريدا من المؤمنين الصادقين، الذين يتعلمون فَيَعْلَمون، ويَعْلَمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيقبلون، إن شاء الله.

ظللت نحو عشرة أيام في رحاب ندوة العلماء، ألقيت فيها عددًا من المحاضرات في مختلف مجالات العلوم الإسلامية: في التفسير والحديث والعقيدة وأصول الفقه والفقه، والدعوة والفكر الإسلامي، وفي التصوف الإسلامي. وخطبت الجمعة في مسجد الندوة، كما زرت بعض المؤسسات الإسلامية في المدينة، وحاضرت فيها، وفي بعض المدارس التابعة للندوة.

وأذكر أني ألقيت محاضرة عن الجانب الرباني في حياة المسلم، وقد حفلت المحاضرة بآيات القرآن وأحاديث الرسول، وآثار السلف، وأقوال الصوفية.. وقد دهش الإخوة في الندوة لهذه المحاضرة وتأثروا بها غاية التأثر، وقالوا: إننا اكتشفنا فيك ما كنا نجهله، وقد كنا نحسبك مجرَّد رجل علم وفكر، وليس رجل قلب وروح، ولكن ما سمعناه ولمسناه لم يكن مجرَّد كلمات يقولها اللسان، بل كانت من القلب إلى القلب.

وكان الشيخ أبو الحسن غائبا عن الهند، فلم أحظ بوجوده، وأستمد منه روح القوة، وقوة الروح، لم ألقه إلا في نيودلهي بعد أن أمضيت المدة المقررة لي في لكنهو. وعندما ودَّعت الإخوة في الندوة، وسافرت إلى نيودلهي متجها إلى ديوباند، لقيت الشيخ فيها،

وقد تعانقنا بحرارة، وقال: أخبرني الإخوان: أنك أسرت القلوب، وسحرت العقول! قلت: إنما أستمد القوة بعد الله منكم! وما أنا إلا كبائع التمر إلى هجر!

وكان الطلاب يحيطون بي ويسألونني أسئلة مختلفة، بعضها في الفقه وأصوله، وبعضها في القرآن وتفسيره، وبعضها في الحديث وعلومه، وبعضها حول العقيدة بين السلف والخلف، وبعضها حول الفلسفة الإسلامية، وبعضها حول التربية وأصولها، وبعضها في اللغة العربية «النحو والصرف»، وكانوا بحمد الله يجدون عندي الجواب، وهو ما جعل بعض أساتذة دار العلوم ينوِّه بهذه الثقافة «الموسوعية» كما سماها. والحمد لله على ما أعطى وأجزل.

إلى الاحتفال بالعيد المئوي لديوباند

من نيودلهي، انتقلنا بالسيارة مع بعض العلماء المدعوين إلى «ديوباند» للاحتفال بالعيد المئوي لهذه الجامعة العريقة، التي تخرج فيها ألوف العلماء في شبه القارة الهندية، فمعظم علماء الهند وباكستان وبنجلاديش وأفغانستان وسريلانكا ونيبال، والأقليات المختلفة حول الهند الكبرى من خريجي هذه الجامعة.

كانت هذه الجامعة في الهند أشبه شيء بالأزهر في مصر: كانت على مذهب الأشاعرة أو الماتريدية في العقيدة، وعلى مذهب أبي حنيفة في الفقه، ويشوبها نزعة صوفية سنية أقرب إلى الاعتدال، وأبعد عن الشركيات والمبتدعات التي عُرفت بها بعض الفصائل في الهند.

وسُمِّيت الجامعة باسم القرية التي نشأت فيها «ديوباند» على بعد ١٥٠ كيلو مترا من نيودلهي. وكانت الجامعة قد أسست منذ ١١٥ مائة وخمسة عشر عامًا، ووجد علماؤها الكبار: أن الجامعات تحتفل بمرور مائة سنة، للتعريف بإنجازاتها، وجذب الاهتمام إليها، فقرروا أن يحتفلوا بهذه المناسبة، وإن كان العيد المئوي قد مر منذ خمس عشرة سنة، فدعوا علماءها وخريجيها خلال السنوات الماضية، كما دعوا علماء من أنحاء العالم ليشاركوهم هذه المناسبة، كما دعوا أبناء الهند الذين استفادوا من علمائها: أن يشهدوا هذا التجمع الإسلامي العالمي الكبير.

ولقد شهدت بعيني هذا الزحف الكبير على ديوباند من نيودلهي: فهناك من يركبون الحافلات (الباصات)، ومن يركبون سيارات الأجرة الصغيرة (التاكسي)، ومن يركبون سيارات النقل يكدسون فيها تكديسًا، ومن يذهبون بالقطارات إلى أقرب مسافة من «ديوباند» ومن يركبون الدراجات، ومن يركبون أرجلهم، أعني: يمشون على أقدامهم هذه المسافة.

الطرقات كلها مشغولة ومزحومة: بالمواصلات وبالناس من كل حدَب وصوب.

ولكن كيف تسع هذه القرية الصغيرة الناس؟ وهي وسط المزارع والحقول؟

الواقع أن المسؤولين في الجامعة أحسنوا اختيار الوقت، حيث كان وقت حصاد، والأرض خالية من الزرع، وقد استأذنوا الأهالي أصحاب الأراضي من حولهم: أن يستخدموا أرضهم في الاحتفال، فأذنوا لهم، فنصبوا خيمة كبرى تسع نصف مليون أو أكثر، وخيامًا من حولها.. وجاء كثيرون بخيام معهم فنصبوها في المنطقة، وظل كثيرون بغير خيام، وإنما يفترشون ما تيسر لهم وينامون عليه.

ورأيت بعيني رأسي أكبر تجمع بشري في حياتي بعد الحج: حوالي مليونين من البشر، فإن أكبر تجمع رأيته قبل ذلك: تجمع المصلين على جنازة الإمام المودودي في لاهور، في أكبر ناد رياضي (إستاد) بها. وكان حوالي مليون شخص. وهذا التجمع حوالي الضعف من ذاك. وقد تجمع فيه من العرب والعجم، والشرق والغرب، ومن إفريقية وأوربا وأمريكا وأستراليا، ومن كل مكان في العالم.

وافتتحت هذا الحفل الكبير رئيسة وزراء الهند: أنديرا غاندي، بكلمة قوية، تحدثت فيها عن الإسلام والمسلمين بما يناسب المقام.

وتحدّث رئيس الجامعة سماحة العلامة الشيخ الطيب القاسمي رحمة الله عليه.

كما تحدث الداعية الكبير الشيخ أبو الحسن النَّدْوِيّ.

وتحدث كثيرون عن بلدانهم وأقطارهم.

وتحدثت كذلك بكلمة ذكَّرت فيها المسلمين في الهند بواجبهم نحو إسلامهم، ونحو جماعتهم. وأذكر مما قلت في هذه الكلمة التي ارتجلتها:

إن المسلمين في الهند أقلية بالنسبة للأكثرية الهندوسية، ولكن هذه الأقلية تمثل التجمع الثاني للمسلمين في العالم. بعد انقسام باكستان إلى دولتين: أصبح المسلمون في الهند التجمع الثاني للمسلمين بعد إندونيـــسيا.

ولكن هذه الأقلية الكبيرة للأسف الشديد غير متلاحمة ولا متماسكة، على عكس الأقليات في أنحاء العالم. كل الأقليات تتضام وتتلاحم وتتساند فيما بين بعضها وبعض، إلا الأقليات المسلمة كما نرى في الهند.

لماذا يجافي بعضنا بعضا؟ بل لماذا يعادي بعضنا بعضا؟

كن ديوبنديا، أو كن ندويا، أو كن إصلاحيا، أو كن من أهل الحديث، أو من الجماعة الإسلامية، أو من البريلويين، كن سلفيا أو صوفيا، كن مذهبيا أو لا مذهبيا. ألست مسلما؟ ألسنا نلتقي في المسجد على الصلاة؟ ألسنا نلتقي في الحج والعمرة عند الكعبة؟ ألسنا نصلي إلى قبلة واحدة؟ ألسنا نقرأ مصحفا واحدا؟ ألسنا نؤمن بنبي واحد؟ ألسنا نجتمع على الحد الأدنى مما يصير به المسلم مسلما؟ ألسنا نشهد جميعا: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؟!

فلماذا نتفرق شيعًا وأحزابًا وفرقًا؟ وكتاب ربنا ينادينا: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦).

وأحاديث نبينا تنادينا: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»،[1] «لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض»،[2] «يد الله مع الجماعة»،[3] «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[4].

قلت هذا أو ما يشبهه، وأنصت الجميع لكلمتي، وقال كثيرون: صدقت ونصحت، ما أضاعنا وأضعفنا إلا التخاذل والتفرق.

---

(١) رواه البخاري في الخصومات (٢٤١٠)، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله ليجلي.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٤٧)، عن ابن عمر.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى.

د. علي السالوس في قطر

في سنة ١٩٨٠م، ١٩٨١م الدراسية، وصل الأخ الكريم، والصديق العزيز الدكتور علي السالوس، إلى قطر متعاقدًا مع الجامعة، ليعمل مدرسًا في كلية الشريعة. ولم أكن أعرفه من قبل.

ومع هذا أوصيت اللجنة المسؤولة في الجامعة بالتعاقد معه، بعد أن رشَّحه لي اثنان أثق بهما، وأعتز بشهادتهما:

أولهما: الأخ الدكتور عبد العظيم الديب رحمه الله، الذي كان زميلاً له في كلية دار العلوم، وقال: عرفناه مجتهدًا وجيد التحصيل، حريصًا على طلب العلم، على رغم أنه لم يكن أزهريًّا في الأصل مثل عبد العظيم ونظرائه من حملة الثانوية الأزهرية، الذين حفظوا القرآن، وتكوّنوا في معاهد الأزهر الابتدائية والثانوية، ثم دخلوا دار العلوم، وهي تنتقي المتميِّزين منهم.

ولكن السالوس كان من حَمَلة الثانوية العامة، الذين لم يدرسوا ما درس الأزهريون، من القرآن وعلوم النحو والصرف والبلاغة والفقه والتفسير والحديث والمنطق والتوحيد وغيرها.. ولكن «دار العلوم» كانت تنتقي من هؤلاء من تراه أصلح لدراسة علومها العربية والإسلامية. وكان السالوس من هؤلاء الذين تميَّزوا بجدهم وحرصهم ومثابرتهم، حسبما زكاه زميله الديب.

وثانيهما: الأخ العزيز، والمربي الكبير الدكتور يوسف عبد المعطي، الذي كان مديرًا لمعهد المعلمين في الكويت، الذي يعمل السالوس مدرسًا فيه. فقد ذكر لي: أنه لمس فيه

عقلية فقهية واعدة، وخصوصًا في فقه المعاملات، فلديه استعداد طيب في هذه الناحية، كما أنه من الناحية السلوكية رجل ملتزم بدينه غير مفرط فيه، بل ربما كان أميل إلى التشدد.

فهذه شهادة من رئيس لمرؤوسه، والأولى شهادة من زميل لزميله، وكلتاهما مؤسسة على معرفة وخبرة ومعايشة، ومن أناس لا يتهمون، فهي جديرة بأن تحوز القبول.

ووصل الشيخ علي إلى الدوحة واستقبلته بحفاوة وتكريم، ونظرًا لأن تخصصه في الفقه، فقد طلبت منه أن يركز على «فقه المعاملات المعاصرة». وهذا ما نصَّت عليه مناهج كلية الشريعة. فقد كان عيب الفقه الذي درسناه في معاهد الأزهر تسع سنوات، وما درسه إخوان لنا ـ زيادة على ذلك ـ في كلية الشريعة أربع سنوات، لا علاقة له بالواقع الذي يعيشه الناس، فهو يدرس «البيوع» ولكن لا يعرف أحكام البيوع المعاصرة، ويدرس أنواع الشركات القديمة وأحكامها: من شركة المفاوضة، وشركة العنان، وشركة الوجوه.. إلخ. ولكنه لا يعرف شيئًا عن الشركات المعاصرة وأنواعها وأحكامها.. لا يعرف شيئًا عن الشركات المساهمة، وشركات التأمين، ولا عن البنوك وأعمال البنوك. ونحن نريد أن نربط طالب «كلية الشريعة» بما يدور في الحياة من حوله، بحيث يفهمه، ويعرف حكمه، ويفتي فيه إذا سئل.

وقد لاحظت أن الأخ الدكتور علي قد صار له نحو سبع سنوات، منذ حصل على الدكتوراه، وهو في درجة مدرس، ولا سيما أنه لم يأت إلينا من جامعة. وكنت حريصًا على أن يرتقي إلى درجة أستاذ مساعد، ولكن المشكلة أنه لم يكن لديه من البحوث ما يسنده في ذلك، فقد كان في أول الطريق، ومع هذا اتفقت معه على أن يقدم مقالة أو مقالتين له كتبهما في مجلة «الوعي الإسلامي» ردًّا على فضيلة الداعية المعروف: الشيخ حسن أيوب رحمه الله، كما قد شارك بكتابة فصل عن الجانب الاقتصادي في الإسلام في كتاب كان مقررًا في مادة الثقافة الإسلامية بالجامعة.. وقد تكونت لجنة التحكيم من الشيخ الغزالي، ومني، ومن ثالث نسيته، وحكمنا بترقية د. السالوس إلى درجة أستاذ مساعد.

وأصبح للدكتور السالوس مكان ومكانة في قطر جامعيًّا وشعبيًّا، كما أن اشتهاره

في فقه المعاملات جعل المصارف الإسلامية تحرص عليه في رقابتها الشرعية، ولا سيما في قطر، مثل مصرف قطر الإسلامي، والبنك الدولي الإسلامي. والحق أنه كان له دور ملموس في تسديدها ووضع الضوابط لسيرها، ولا سيما في التدقيق الداخلي لها. كما غدا خبيرًا في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ويدعى إلى مؤتمرات البنوك الإسلامية، والندوات التي تتعلق بالاقتصاد الإسلامي.

كما أن للدكتور علي دورًا آخر، وهو دراسته لفقه الشيعة الإمامية وأصولها، وقد كانت رسالته في الماجستير حول هذا الموضوع، وقد توسع في ذلك فيما بعد، وأمسى خبيرًا يرجع إليه فيه، وألف في هذا المجال عدة كتب.

وقد اصطدم مع مفتي مصر (وشيخ الأزهر بعد ذلك) الدكتور محمد سيد طنطاوي في قضية فوائد البنوك وما يتعلق بها. وردَّ عليه في أكثر من كتاب، حتى إن الشيخ رفع عليه دعوى قضائية.

مجلة «الأمة» ومجلة «الدوحة»

مجلة الأمة

كان من البشائر التي صاحبت مطلع فجر القرن الخامس عشر الهجري: مولد مجلة «الأمة» القطرية، التي صدرت عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر. بإشراف ابننا النابه: الشيخ عبد الرحمن المحمود وكيل رئاسة المحاكم والشؤون الدينية، ورئاسة تحرير ابننا الإعلامي: الشيخ يوسف المظفر، وإدارة تحرير أخينا وصديقنا الأستاذ عمر عبيد حسنة، وهو العنصر الفعّال في تحرير المجلة.

ولقد وفق الإخوة المسؤولون في تسمية المجلة «الأمة» فهي تسمية موفقة، فنحن في حاجة إلى تجاوز الأوطان الضيقة، والقوميات المحلية، لنوسع دائرة اهتمامنا إلى «الأمة».

ولكن ما المراد بـ «الأمة»؟

إن بعض المغالين في الوطنية كانوا يرون «الأمة» ممثلة في شعبهم ووطنهم وحده، كما كان لطفي السيد في مصر، لا يرى مفهومًا لكلمة الأمة إلا الأمة المصرية، ولا يرنو ببصره إلى أمة عربية، ناهيك بأمة إسلامية، بل كان يقاوم فكرة «الجامعة الإسلامية» ودعاتها من مثل جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وغيرهم.

وبعضهم قصروا مفهوم «الأمة» على الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، وقد تبنّى هذا المفهوم دعاة القومية العربية: ساطع الحصري الداعية الأشهر للقومية العربية، وصاحب المؤلفات المتعددة في ذلك. وقد رد على دعاة الوطنية المصرية الضيقة، الذين كانوا يقولون: مصر أولا، أي: مصالح مصر المحلية مقدمة على مصالح العرب إذا

تعارضت، فرد عليهم بمقالات قوية، ومنطق قوي، جمعت في كتاب، بعنوان «العروبة أولا».

ونحن وفق هذا المنطق نفسه نقول: الإسلام أولا. وخصوصًا أننا في عالم يتكلم بلغة التكتل والتلاحم، إذ لم يعد مكان للكيانات الصغيرة، التي لا تستطيع أن تعيش وحدها، إلا في حماية كيان كبير، تعيش في كنفه، ويدافع عنها إذا هُدّدت، وكثيرًا ما يكون هذا الكيان أجنبيا، وهذا هو الخطر الحقيقي: أن تظل أمتنا كيانات صغيرة تطلب الحماية ـ علنًا أو سرًّا ـ بالالتجاء إلى قوى من خارج الأمة، لا تتفق معها في الأهداف ولا في القيم ولا في المصالح.

لهذا كان المفهوم من كلمة «الأمة» بلا ريب ولا نزاع: هو الأمة المسلمة التي عناها القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢). ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: ٥٢).

وقد بقيت هذه الأمة أمة واحدة في مرجعيتها الواحدة، وهي: الشريعة، وفي دارها الواحدة، وهي: دار الإسلام. وفي قيادتها الواحدة، وهي: الخلافة، التي ظللتها ١٣ قرنا، حتى ألغاها كمال أتاتورك في سنة ١٩٢٤م.

صدرت مجلة «الأمة» من قطر، فَسَدَّت فراغًا فكريًّا قائمًا، وشعر الناس بأن المجلة تحوي فكرًا جديدًا غير الفكر التقليدي، الذي عرفت به المجلات الدينية أو الإسلامية، هو «الحركية».

إذ من المهم في مخاطبة العقل المسلم المعاصر: أن يربط العلم بالعمل، ويربط الفكر بالحركة، فليس الفكر شيئًا معلقا في الهواء، بل هو شيء يتعامل مع الواقع المعيش، ويتعامل معه بصورة إيجابية، يتأثر به ويؤثر فيه.

وكان من المقالات المبكرة التي كتبتها فيها: أمة لن تموت. صحوة الشباب الإسلامي: ظاهرة صحية يجب ترشيدها لا مقاومتها ـ نشرت في عددين. وقد تلقفها شباب الجماعات الإسلامية في مصر، فطبعوا منها عشرات الآلاف.

كما أن المجلة كانت تثير قضايا مهمة، توقظ الحاسة النقدية عند المتدينين عامة، ودعاة الإسلام خاصة. مثل سؤال: «أين الخلل؟» الذي عرضته على عدد من العلماء والمفكرين، ليجيبوا عنه إجابات متنوعة، كل حسب منظوره ورؤيته.

وقد وجَّهت إليَّ هذا السؤال فأجبت عنه في أربع مقالات، نشرت في أربعة أعداد، ثم جمعت في رسالة بعد ذلك تحمل نفس العنوان: أين الخلل؟

وقد تجاوب المسلمون معها في المشارق والمغارب، وكان الناس يترقبونها بحرارة ولهفة.

وكانت تحتوي لقاءات وحوارات مهمة، وتحقيقات صحفية حية، إلى جوار المقالات لكبار الكتاب الإسلاميين المعروفين في ساحة الدعوة والفكر.

وظلت المجلة تصدر تباعًا لمدة ست سنوات كاملة، ثم صدر قرار بتوقيفها مع مجلتين أخريين كان لهما في محيطهما نفس التأثير، ونفس الصدى، وهما مجلة «الدوحة» وهي مجلة ثقافية، وقد انتشرت وذاع صيتها في العالم العربي كله، ومجلة «الصقر» وهي مجلة رياضية، كان لها رواجها وقراؤها بين الرياضيين.

كتاب الأمة

وقد سنَّت المجلة سُنَّة حسنة: أن يصدر عنها كتاب لعالم أو مفكر إسلامي، كل ثلاثة أشهر، يعالج قضية من قضايا الفكر الإسلامي، تتَّسم بالحيوية والمعاصرة، وتكتب بأسلوب علمي موضوعي، بعيد عن الإثارة والتهييج.

وقد أحسنت «الأمة» حين جعلت كتابها الأول للداعية الأول: الشيخ محمد الغزالي، الذي كان عنوانه «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية»، وهو يعالج الخلل الذي أصاب الذهنية الإسلامية، وخصوصًا لدى بعض فصائل الصحوة الإسلامية، الذين حصروا

أنفسهم في وجهة واحدة، فلا يؤمنون إلا برأي واحد، يأخذونه عن شيخ واحد، ينتمي إلى مدرسة واحدة، ولا يقبلون أي تعدد في المدارس أو الآراء، فرأيهم صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي غيرهم خطأ لا يحتمل الصواب.

وقد ظل الشيخ في سنواته الأخيرة معنيًّا بتعقب هؤلاء، والرد على مبالغاتهم، ويراهم خطرًا على الدعوة الإسلامية، والأمة الإسلامية، إذا لم تطهر عقولهم من هذه الأفكار. ويبدو أن الزمن قد صدق ما كان الشيخ يخشاه.

وكان الكتاب الثاني من كتب الأمة، هو: كتابي «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» وهذا العنوان هو من اقتراح الشيخ الغزالي نفسه، فقد كنت سميت الكتاب «ظاهرة التطرف الديني: نظرات في الأسباب والعلاج». ورأى الشيخ هذا العنوان عنوانا علميًّا هادئًا، لا يلفت النظر إلى قيمة الكتاب، فاقترح عنوانه الذي نشر به، ووافقته، كما وافقه الأخ عمر عبيد حسنة المشرف على كتاب الأمة. فقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه: «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟» كلمات مضيئة قال فيها: إنما ضاع الإسلام بين جاحد وجامد. فالجامد يفتن الناس عن حقائق الإسلام بجموده، والجاحد يضلهم عنها بجحوده. وكلمة «التطرف» هي التي تقوم مقام «الجمود» في كلام الأمير رحمه الله.

وكان الكتاب الثالث للواء الركن محمود شيت خطاب رحمه الله. والرابع لعماد الدين خليل.

وهكذا استمرَّ كتاب الأمة إلى يومنا هذا. حتى بعد توقُّف المجلة.

مجلة الدوحة

كانت إحدى المجلات التي تصدر من الدوحة في قطر، ويستقبلها أبناء الوطن العربي كله من الخليج إلى المحيط: مجلة «الدوحة». وهي مجلة أدبية ثقافية عامة. تسدّ ثُغرة مهمة في هذا المجال، بعد أن اختفت المجلات الأدبية الكبرى، التي كانت لها سُوقها ونَفاقها في بلاد العرب، وربما خارج بلاد العرب، وأشهرها مجلة: «الرسالة» التي كان الأديب

الكبير أحمد حسن الزيات يرأس تحريرها، ومجلة «الثقافة» التي كان العالم الأديب الكبير أحمد أمين يرأسها. وهما اللتان تتلمذ عليهما كل الأدباء والمثقفين وأصحاب الأقلام. فقد كان يكتب فيها عمالقة الفكر والأدب والنقد، العقاد والرافعي والمازني وطه حسين والحكيم وزكي مبارك وأبو حديد والمعداوي، وخضر، وغيرهم.

ومجلة «الدوحة» مجلة ثقافية فكرية عامة، لا تلتزم بما تلتزم به مجلة الأمة، بل ربما غلب عليها الطابع العلماني، وهي على كل حال مفتوحة لكل الاتجاهات المعاصرة والحداثية، ومن كتابها علمانيون، وتغريبيون، وقوميون، ولا مانع أن يكون فيهم إسلاميون، إن وجدوا.

وقد كان رئيس تحرير مجلة الدوحة الأديب السوداني الدكتور محمد إبراهيم الشوش الذي دعاني أكثر من مرة إلى الانضمام إلى أسرة كتَّاب المجلة، وكنت في أول الأمر مترددًا، لأن المجلة قد تنشر أشياء لا أرضاها، ولا تتفق مع الخط الإسلامي، ولكني فكرت في الأمر جيدًا، واستخرت الله تعالى، وقررت أن أشارك بالكتابة في هذه المجلة؛ لأني فيها أستطيع أن أخاطب جمهورًا غير جمهور مجلة «الأمة»، وهم الجمهور الأعرض في الأمة، وتبليغُ هؤلاء كلمة الإسلام الوسطية المستنيرة: فرض كفاية على علماء الأمة ومفكريها ودعاتها. وهذه المجلة منبر قوي لإبلاغ هؤلاء دعوتنا. ولا ينبغي لنا أن نظل منغلقين على أنفسنا، يخاطب بعضنا بعضا، ولا نصل إلى الآخرين.

هذا ما اقتنعت به، وأقنعت به كثيرًا من إخواني الذين كانوا ولا يزالون يرون أن نقاطع هذه المجلات والمؤسسات المشتبهة. فالمبدأ عندهم: إما كل شيء أو لا شيء.

وقد وجدت صدى ذلك وأثره من أول مقال كتبته في المجلة، وكان عن الاجتهاد أو التجديد، وقد ختمته بهذه الكلمة: إن جمودنا ووقوفنا في مكاننا لا يمنع الفلك من السير، ولا الأرض عن الدوران! وقد جاءتني اتصالات شتى تثني على المقال، وتلح عليَّ أن أستمر في هذا الاتجاه، فوجود هذا اللون من الكتابة الإسلامية التي تراعي الأصول، وتخاطب العقول، ولا تناقض النقول: أمر مطلوب في مثل هذه المجلات المقروءة.

وأعتقد أن هذا هو الاتجاه السليم، والمنطق الحكيم في الموقف من مثل هذه المنابر

والأجهزة والمؤسسات المختلفة، محاولة الاستفادة منها، والتأثير فيها، بدل العزلة عنها.

وقد تبيَّن لي بالممارسة: أني كسبت أرضًا جديدة بالكتابة في هذه المجلة، وأني أوصلت أفكاري عن الوسطية الإسلامية التي أتبناها إلى جمهور جديد من القراء، لم يكن بإمكاني الوصول إليه عن طريق مجلة الأمة، وأمثالها من المجلات الإسلامية.

مجلة الصقر الرياضية

ومن المجلات التي كانت تصدر من قطر: مجلة «الصقر»، وهي مجلة «رياضية» كانت توزع على مستوى العالم العربي، ولها شهرة في عالم الرياضة والرياضيين، في عصر أصبح للرياضة فيه شأن أي شأن، فالصحافة اليومية تفرد لها كل يوم صفحات، والقنوات التلفزيونية تفرد لأخبارها مساحات ومساحات. بل هناك قنوات خاصة للرياضة وأخبارها وكل ما يتعلق بها.

احتجاب المجلات الثلاث

ظلت مجلة الأمة تصدر من قطر لمدة ست سنوات، ثم فجأة صدر قرار بإيقافها عن الظهور، هي وشقيقتاها القطريتان الأخريان: مجلة الدوحة، ومجلة الصقر.

قيل: إن الأسباب كانت مالية، وإن قطر في ذلك الوقت أرادت مراجعة نفقاتها، وتقليل مصاريفها، والاقتصاد في ميزانيتها.

ولكن ألم يكن هناك بند يمكن التقليل منه والتضييق فيه غير البند الثقافي؟

كم في الميزانيات العامة من أمور يمكن الاستغناء عنها، أو التقتير فيها، ولا يتضرر أحد ولا يشكو من وراء ذلك. أكانت الثقافة هي الجانب الضعيف الذي لا يجد محاميًا عنه إذا جير عليه أو انتقص من أطرافه؟ كما قال أبو العلاء للديك الذي ذبحوه وقدموه له: استضعفوك فذبحوك، هلا ذبحوا شبل الأسد؟!

لقد خسرت قطر باحتجاب هذه المجلة (الأمة): سفيرًا شعبيًّا متجوِّلاً، يشيد

بذكرها، وينشر فضلها في أنحاء العالم، ولن تعوضه بعشرات السفراء، التي يكلفونها عشرات ومئات الملايين.

وكم أتمنى أن يراجع المسؤولون أمير البلاد في هذه القضية، وهو رجل متفتح في فكره، وينظر في الأمور نظرة متوازنة، ولا سيما في عصر أصبح لها صوت مسموع ممثل في قناة الجزيرة، التي أمست غصَّة في حلوق كثير ممن لا يحبون أن يشاهدوا الحقيقة عارية، ولا أن يروا الرأي والرأي الآخر، بل يريدون الإعلان عما في صالحهم، والسكوت عما يكشف عوارهم، أو إلباسه لباسًا آخر يغير صورته، أو يغير حقيقته، ولعنة الله على الظالمين والمزورين.

إن قطر اليوم التي أصبح لها وزن عالمي ـ رغم صغر مساحتها وقلة سكانها ـ والتي أصبحت تستضيف المؤتمرات العالمية على كل المستويات، الفكرية والتربوية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية وغيرها: جديرة بأن تعيد النظر في وضعية مجلة «الأمة» إلى الظهور من جديد، ولاسيما أن رفيقتها (مجلة الدوحة) الثقافية قد عادت إلى الظهور، لتؤدي رسالتها من جديد.

أول زيارة لبنجلاديش

أمنية لم تتحقق لزيارة باكستان الشرقية

لم يقدر لي أن أزور «بنجلاديش» حينما كانت تمثل جزءًا من جمهورية باكستان الإسلامية الكبرى، وكان اسمها في ذلك الوقت «باكستان الشرقية». وباكستان القائمة اليوم، كان اسمها باكستان الغربية.

وحين زرت باكستان لأول مرة سنة ١٩٦٩م، أقمت نحو ثلاثة أسابيع في مدينة لاهور، التي يعدونها العاصمة الثقافية لباكستان، كما أن كراتشي العاصمة التجارية.

وكان الإمام المودودي لا يزال حيا ـ وإن كان قد ترك إمارة الجماعة الإسلامية لرفيقه الأستاذ طفيل محمد ـ يود لو زرت في ذلك الوقت مدينة «دكا» عاصمة باكستان الشرقية، فقد بدت بوادر الانشقاق، ونذر التذمر والرغبة في الانفصال لدى كثيرين من أبناء البنغال أهل باكستان الشرقية، واستغل ذلك الزعماء الطامعون في الرياسة، مثل مجيب الرحمن رئيس حزب الشعب وغيره.

وكانت حجة الانفصاليين: أن الذي يحكم باكستان هم أهل باكستان الغربية، وبخاصة العنصر البنجابي، وأن باكستان الشرقية مهمشة.

وكان بعض ما يقولونه حقًّا، ولا يمكن أن تستمر وحدة بين بلدين أو إقليمين، يشعر أحدهما بأنه مظلوم، وأن شريكه ظالمه، وأن للظالم التمر، وله النوى! إن إقامة العدل هي الكفيلة بمقاومة النَّزعات الإقليمية والانفصالية، التي عانت منها الدولة الإسلامية الكبرى ما عانت، وكانت سبب ضعفها، واستيلاء الآخرين من الصليبيين والتتار عليها.

كان بعض البنغاليين يقولون: إنه ليس بيننا وبين باكستان الغربية إلا أمران: شهادة أن لا إله إلا الله، وخطوط الطيران الباكستاني!

وكان بعض الظلم الذي وقع على أهل البنغال قديما من زمن الاستعمار البريطاني، وورثته باكستان في عهد الاستقلال، ولكن كان عليها أن تبذل جهدا أكبر في النهوض بالإقليم الشرقي من البلاد، وأن تتعهده بالتنمية والتطوير، حتى يتساوى مع الإقليم الآخر، أو على الأقل يقترب منه، ولا يظل في غاية التخلف.

على كل حال، لم تتحقق أمنية الأستاذ المودودي في زيارتي لباكستان الشرقية، ولكنه شوَّقني إليها حينما قال لي: إنها جنة الله في أرضه، وإن أنهارها كأنها بحار.

دعوة من الشيخ محمد يونس

ثم شاء الله أن يعقد المؤتمر العالمي الثالث للسنة والسيرة في قطر، ويحضره وفود وممثلون من العلماء من أقطار شتى، وكان من هؤلاء: الشيخ الفاضل محمد يونس عبد الجبار رئيس جامعة «فُتيا» الإسلامية، في شيتا غونغ بجمهورية بنجلاديش.

وقد تعرَّف الشيخ عليّ، وتعرفت عليه في المؤتمر، ورجاني أن أزور جامعتهم، وألتقي شيوخها وطلابها، ففيها أكثر من ألفي طالب، وهي جامعة دينية تدرس العلوم الشرعية، واللغة العربية، على طريقة علماء ديوبند، وستسرّ بزيارتها، كما ستسرّ أسرة الجامعة شيوخًا وتلاميذ بزيارتك.

قلت للشيخ يونس: إني ليسرّني زيارتكم في بنجلاديش، فهذا حقكم عليّ، وقد زرت بلادا كثيرة، ولكن لم يقدّر لي أن أزور بلدكم العزيز الشقيق، وعسى أن يتحقق ذلك في أقرب فرصة بتوفيق الله.

قال الشيخ: سنوجِّه لك دعوة، لتحضر احتفالنا السنوي بتخريج بعض الطلاب.

قلت: على بركة الله.

وبعد فترة قليلة من عودة الشيخ يونس إلى وطنه: جاءتني دعوة لزيارة جامعة فُتيا، في موعد الاحتفال السنوي بتخريج فوج جديد من أبناء الجامعة.

أذكر أن سفري كان عن طريق الهند، ومنها إلى «دكا» عاصمة بنجلاديش، وقد بقيت في دكا يومين، زرت فيها بعض المعاهد الإسلامية، وبعض المدارس الدينية التي تشبه الكتاتيب في بلادنا، وإن وجدتهم يجلسون على الحصير، وقد كنا في الكتاب نجلس على «دكك» خشبية، وقد قدموا إلي صبيا صغيرا لم يكد يتم التاسعة من عمره يحفظ القرآن كله حفظا جيدا، وقد امتحنته في عدد من المواضع في القرآن الكريم، فوجدته لا يسقط منه حرفا، وإن كان لا يعرف العربية، وهذا من معجزات هذا الكتاب.

وكان ممن عرف بزيارتي وهرع للقائي: الدكتور فؤاد عبد الحميد الخطيب سفير المملكة العربية السعودية، والحق أنه كان سفير الإسلام في تلك الدولة، وكان في خدمة كل عالم أو داعية يزور بنجلاديش، وقد ظلَّ معي في زياراتي المختلفة، وصحبني بعد ذلك إلى شيتا غونغ، ليسهم في تنظيم محاضرة عامة دعي إليها المثقفون ورجال الصحافة وكل الشخصيات المهمة في الدولة، ثم أقام حفلاً كبيرًا بعد عودتي إلى «دكا» في طريق رجوعي إلى الدوحة: دعا فيه عددًا كبيرًا من الشخصيات البنغالية، ومن السفراء العرب والمسلمين، ومن أساتذة الجامعات، وكبار العلماء، رحمه الله وجزاه خيرًا.

المهم أني بعد إقامتي السريعة في «دكا» حجز الأخوة مندوبو جامعة فُتيا لي للسفر إلى شيتا غونغ على الطيران الداخلي، وفي المطار كان الشيخ يونس وإخوانه مفتي عبد الرحمن وغيره في انتظاري.

كلمة عن بنجلاديش

كانت هذه أول زيارة لهذا البلد الإسلامي الذي يعدُّ ثالث بلد من ناحية كثرة السكان، بعد إندونيسيا وباكستان، والذي يتميز بكثافة سكانية تعد من أعلى الكثافات السكانية في العالم.

فالذي ينظر إلى الخريطة يجد رقعة بنجلاديش؛ رقعة صغيرة ضيقة المساحة، ولكن فيها نحو مائة وعشرين مليونا وأكثر في ذلك الوقت.

كما أن البلد يعيش أهله ـ أساسًا ـ على الزراعة، وكثيرًا ما تصيبهم الفيضانات الهائلة

والمتكررة فتتلف محصولاتهم، وكثيرًا ما تهدم عليهم مساكنهم الضعيفة، وهم في حاجة إلى إقامة سدود كبيرة تحجز المياه، وهذه تحتاج إلى مئات الملايين، وهم لا يملكونها، فالفقر يؤدي إلى مزيد من الفقر.

ولا يكاد يوجد فيها مصانع إلا مصانع «الجوت» التي زرتها، وهذا الإهمال للصناعة فيها من عهد الإنجليز.

وأهل البلد يبدو عليهم الفقر والأمية، وإن كانت بلادًا جميلة جدًّا، كما قال الأستاذ المودودي، فهي بساط من الخضرة نسجته يد القدرة الإلهية، وفيها أشجار جوز الهند «النرجيلة» وأشجار الباباي، وغيرها.

ولا تزال هذه البلاد في حاجة إلى مساندة من هيئة الأمم المتحدة، ومن مؤسساتها المتفرعة عنها، ومن الدول الغنية: دول الشمال، والدول الصناعية الكبرى، ومن منظمة المؤتمر الإسلامي والدول الإسلامية، وخصوصًا دول الخليج حتى تلتحق ـ بالتدريج ـ بركب العالم المتطور.

وقد استغلَّ دعاة التنصير ما يعانيه أهل البلاد من فقر وجهل ومرض، فأنشئوا مؤسَّساتهم التي تستغل وضعهم المأساوي، لتفتنهم عن دينهم، كما هو شأنهم أبدا. لذا كان من الواجب على الجمعيات والهيئات الخيرية والدعوية الإسلامية أن يهبوا ليقوموا بمهمتهم في الأخذ بيد إخوانهم في بنجلاديش، وإنقاذهم من براثن المنصِّرين.

جامعة فُتيا

وجامعة فُتيا تقع في قرية من قرى شيتا غونغ، تقع بين المزارع والأرض الخضراء، ولكن لا يوجد فيها فنادق، ولا أماكن صالحة لراحة الضيوف، ولذلك أنزلني الأخوة في فندق بعيد نسبيا عن مكان الجامعة، وهو فندق متواضع، ولكنه صالح لأن ينام الإنسان فيه في الليل، فأنا طوال النهار في الجامعة، وأنا في هذه الأسفار لا أطلب الرفاهية، بل أطلب الحد الأدنى من مطالب الحياة الأساسية، وهذا يكفيني. وأنا بحمد الله لست من الذين نشأوا وفي فمهم ملعقة من ذهب، بل نشأت في القرية وتعودت على حياتها

الخشنة نسبيا، كما دربت على حياة المعتقلات والسجون، فلا غرو أن أرضى بالفندق الذي أنزلوني فيه، فهو خير قطعا من السجن الحربي!

وجدت هذه الجامعة تعج بالطلاب الذين يعيش جلهم في مساكنها الداخلية، وهي توفر لهم الطعام والشراب والمسكن والكتب، ومواردها من تبرعات المسلمين، وأحسب أن ثمة أوقافًا وقفت عليها.

التقيت شيوخ الجامعة وحدثتهم عن واجبهم العلمي والتربوي، ولا سيما في هذا العصر، الذي وجدتهم في عزلة تامة عنه، فهم يعيشون في الكتب القديمة وحدها، لم تهب عليهم نسمة من نسمات زماننا هذا وما فيه من عجائب، وما أثار من مشكلات.

وكذلك حين التقيت الطلاب وجدتهم غائبين تمامًا عن دنيا الناس، لا يعرفون شيئًا عن علوم العصر، وثقافة العصر، وتيارات العصر، ومشكلات العصر.

ولذلك هم في عزلة كاملة عن المثقفين في أمتهم من خريجي المدارس والجامعات العصرية، وإنما يتعاملون مع العوام والأميين فحسب.

سألت أحد الطلاب: هل تعرفون شيئًا عن جمال الدين الأفغاني؟ فهزَّ رأسه بأنه لم يسمع عن هذا الاسم، ولم يقرأه في أي كتاب من كتب الفقه أوالحديث أوالتفسير.

ومثله الإمام محمد عبده، والعلامة رشيد رضا، والشيخ حسن البنا، والشهيد سيد قطب، والشيخ محمد الغزالي.

ولكن حين سألتهم عن المودودي، هاج هائجهم، وقالوا: منحرف محرف!!

هذا هو المناخ الذي يعيش فيه طلاب الجامعة.. إنهم لا يعرفون كثيرًا ولا قليلا عما سمِّي في الأزهر: العلوم الحديثة: الفيزياء والكيمياء والحيوان والنبات والرياضيات، والجغرافيا والتاريخ، ناهيك بعلم النفس، أو علوم التربية أو الاجتماع والفلسفة.

وجدت نفسي أمام ظاهرة تحتاج إلى التعامل بالرفق والحكمة والتدرج، ولم أرد أن أصدمهم، فيرفضوا نصيحتي بالكلية، ويسدوا آذانهم عني.

حضرت بعض دروسهم، وشاركت بالأسئلة أوجهها إلى الطلاب في العلوم الشرعية والعربية.

وطلبوا مني أن ألقي درسا في الحديث، فألقيت درسا في الحديث الأول في صحيح البخاري «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى[1]...».

رويته لهم بسنده من حفظي، وقلت لهم: إنه من أحاديث الآحاد، وإنه تواتر بعد ذلك من بعد يحيى بن سعيد الأنصاري، وشرط التواتر أن يبدأ من الصحابة.

وبيَّنت لهم أهمية الحديث عند العلماء، وأهمية النية في الإسلام، وما ورد فيها من أحاديث ذكرها الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب.. كما بيَّنت المواطن التي تؤثر فيها النيَّة والتي لا تؤثر فيها. وهذا الحديث قد قرأت شرحه في فتح الباري وغيره من شروح البخاري، كما قرأت شرحه في «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم» لابن رجب الحنبلي.

وكان المشايخ والطلاب مبهورين ـ وأنا أشرح الحديث ـ من غزارة المادة عندي، ومزجي الحديث بالتفسير والفقه والعقيدة واللغة.

وطلبوا أيضًا درسا في التفسير، فاستجبت لهم، وأظن أنه كان في تفسير سورة الفاتحة.

وحضرت بعض دروس الفقه وسألتهم في الدرس، وقلت لهم: أنا درست المذهب الحنفي في الأزهر، وهو مذهبي الرسمي، درست «نور الإيضاح» وشرحه «مراقي الفلاح»، ودرست كتاب «القدوري» وشرحه «اللباب على الكتاب» الشهير بشرح الميداني على القدوري. ودرست «الاختيار» في شرح المختار لابن مودود الحنفي، هذه الكتب درستها في المرحلتين الابتدائية والثانوية من معاهد الأزهر.

ثم قرأت كثيرًا ـ في اطلاعاتي الخاصة ـ في «الهداية» وشرحها للعلامة ابن الهمام، كما قرأت في «البدائع» للكاساني، و«البحر الرائق» لابن نجيم، و«رد المحتار على الدر المختار» المعروف بحاشية ابن عابدين.

ودخلت في بعض دروس النحو، وسألتهم أسئلة عرفوا بها تمكني في علوم العربية. كما قرأت عليهم بعض الأبيات في درسهم من ألفية ابن مالك الشهيرة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب.

وقال الشيخ محمد يونس رئيس الجامعة لإخوانه من شيوخ الجامعة: هذا الرجل آية من آيات الله، كنا نظنه داعية عصريًّا قليل البضاعة من العلوم الأصلية، فإذا هو بحر ثجاج جمع بين القديم والحديث، وما رأيت مثله!

ولم يكن هذا إلا فضلاً من الله تعالى عليَّ: أن زيَّنني في أعينهم، وستر عيوبي عنهم.. وقد قال ابن عطاء الله في حكمه: إذا أثنى عليك أحد فذلك من فضل الله عليك، فالفضل لمن أكرمك وسترك، لا لمن مدحك وشكرك.

ولقد أنس بي الشيوخ والطلاب في الجامعة، وكانوا يجلسون إليّ طويلا يستمعون عن الإسلام ودعوته وأمته وقضاياه: ما لم يكن يوما مما يفكرون فيه أو يدخل في دائرة اهتمامهم.

ولعل أهم ما استفادوا من زيارتي: أنهم علموا أن العلم ليس في الكتب وحدها، وأن هناك كتبًا غير الكتب التي يدرسونها، وهناك علماء ملئوا الدنيا علماً وفكرًا غير الشيوخ الذين درسوا عليهم، وأن العلم بحر لا ساحل له، وأن علينا أن نطلب من علم الدنيا ما يساعدنا على فهم الدين.

وقد طلبت منهم أن يدخلوا بعض الكتب إلى مكتبة الجامعة، مثل تفسير المنار، وتفسير الشيخ جمال الدين القاسمي، وبعض الكتب التي تيسر تعليم النحو والبلاغة، مثل كتاب «النحو الواضح» بأجزائه لعلي الجارم ومصطفى أمين، ومثله «البلاغة الواضحة».

وأن يسمحوا بدخول بعض المجلات الإسلامية، مثل مجلة «الأمة» القطرية، ومجلة «الوعي الإسلامي» الكويتية، ومجلة «منار الإسلام» الإماراتية.

وكان مجرد سماعهم مثل هذا الكلام في جوّهم المغلق: فتحًا مبينًا، ولعلهم لم ينفِّذوا منه حرفًا، ولكن كان من المهم أن يطرق هذا سمع طلابهم، وأن يدركوا أن هناك عالما غير جامعتهم، وأن هناك خصومًا يكيدون للإسلام كيدًا، على المستوى الديني من المنصّرين، الذين يرون بعضهم في بلدهم، وعلى المستوى الفكري من المستشرقين المغرضين، وأخطر منهم تلاميذهم من العلمانيين والمتغربين، ولا بد أن يعدوا أنفسهم لمواجهة هذا الكيد بالعلم النافع، والفكر الثاقب، والثقافة المتفتحة.

ولم يكن هذا الانغلاق من طابع جامعة «فتيا» وحدها، بل هو طابع الجامعات والمدارس الدينية في بنجلاديش بصفة عامة.

وقد زرت عددًا منها، مثل جامعة «حضاري» أو الحضارة، وغيرها، ووجدت الطابع نفسه، وإن اختلفت الدرجة بين جامعة وأخرى.

وقد كان الأزهر قديماً يشبه هذه الجامعات إلى حد كبير، ولكنه استجاب لدعوة الإصلاح، وأدخل العلوم الحديثة إلى مناهجه، من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية، وهي في حقيقة الأمر ليست حديثة، بل هي علومنا، كنا أساتذة العالم فيها لعدة قرون، وقد اقتبسها الغرب منا، ثم عدنا نأخذها منه، فهي بضاعتنا ترد إلينا.

وقد انتهز الإخوة في «فتيا» وجودي، فافتتحوا أكثر من مشروع، وضعت الحجر الأساسي فيها بيدي، ووضع اسمي عليها، وأتمنى أن تكون قد قامت وأدت رسالتها.

وفي فترة وجودي في شيتا غونغ زرت عددًا من المدارس الدينية الصغيرة الفقيرة، التي تحتاج إلى معونة مادية، لتقف على قدميها، وكان بعض الإخوة الخيّرون من أهل قطر، قد حملوني بعض المبالغ من زكواتهم أو صدقاتهم، وفوَّضوا إليَّ أن أدفعها حيث أرى، فرأيت أولى الناس بها أصحاب هذه المدارس، وكانوا يفرحون بأيِّ مبلغ يُعطى لهم، فهم بقناعتهم يكفيهم القليل، ويبارك الله في القليل، فينتج كثيرًا.

ثم ختمت أيامي في هذه المدينة الكبيرة التي تعدُّ المدينة الثانية في بنجلاديش بمحاضرة عامة، كما أشرت من قبل، ثم بمؤتمر صحفي أجبت فيه عن أسئلة الصحفيين حول الإسلام ورسالته وحضارته، ومشكلات أمته.

ثم ودَّعت الإخوة في «فُتيا» أو في «شيتا غونغ عموما» ممتطيًا الطائرة إلى «داكا»، ومعي بعض الرفقاء من الجامعة.

وقد هيأ الإخوة في دكا لي أن أخطب الجمعة في الجامع الكبير في وسط دكا، وقام بعض علمائهم بترجمة الخطبة بعد الصلاة.

كما أتيح لي أن أزور دار «الجماعة الإسلامية»، وألقيت فيها محاضرة، ثم التقيت بهم

لقاء خاصا، لأجيب عن استفساراتهم، وأطلعتهم على أهم أحوال إخوانهم في البلاد العربية.

وكان البروفيسور غلام أعظم: الرجل الأول في الجماعة، لم يؤذن له بعد بدخول البلاد؛ لأنه كان ضد انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية، فأسقطوا جنسيته وهو ابن البلد الأصيل!

وبعد هذه الإقامة الحافلة، كان لا بد من العودة إلى الدوحة عن طريق الطائرة البنغالية التي تصل من دكا إلى الدوحة مباشرة في نحو خمس ساعات. والحمد لله رب العالمين.

رحلة إلى لندن للعلاج

في منتصف شهر نوفمبر سنة ١٩٨٠م، قررت أن أسافر إلى مدينة لندن طلبا للعلاج مما أعانيه من مرض «الدوخة» الذي أعاني منه منذ بضعة عشر عاما ولم أجد له علاجا.

فمنذ سنة ١٩٦٨م تقريبا، وأنا أشكو من هذا الداء.. وأول ما أصبت به، كان بعد رمضان في إجازة العيد، حيث نهضت من فراشي في صباح يوم، فإذا بي أسقط، ثم نهضت مرة أخرى وإذا بي أسقط. وكان ذلك أمام أهلي الذين فوجئوا بهذا السقوط لأول مرة.

وكلّمنا صديقنا الدكتور عادل القوصي طبيب الصحة المدرسية ـ رحمه الله[1] ـ وكنا على مودة وتعارف من قديم، وقد حضر بسرعة، فلما رآني وسألني عرف أنها «الدوخة».. ولكن ما سببها، وصحتي العامة جيدة؟ وهنا قال: لا بد أن نعرض الأمر على الطبيب الباطني المختص، وهو الدكتور أحمد حقي، وهو استشاري بارع معروف في تخصصه.

وجاء الدكتور حقي إلى منزلي، وهو في إجازة العيد، وسألني جملة أسئلة تتعلق بالناحية الباطنية، فلم يجد عندي سببًا معروفا للدوخة من إمساك أو غير ذلك. فقال: أنصح أن تعرض نفسك على الدكتور شوقي الصيرفي طبيب الأنف والأذن والحنجرة. فإني لا أرى سببًا باطنيا لهذه الدوخة.

وبعد فحص د. الصيرفي لي، قرر أن هناك شيئًا يتعلق بالأذن، وليس له علاج، إلا

---

(١) كان هو وزوجته السيدة وفاء من ضحايا الطائرة المصرية التي سقطت أو أسقطت في المحيط قرب السواحل الأمريكية سنة ٢٠٠٠م رحمهما الله.

الراحة، ويمكن الاستعانة ببعض الفيتامينات ونحو ذلك، وظللت أتردد عليه بضع سنوات.

ثم قال لي: أنصحك إذا نزلت إلى مصر أن تكشف عند أستاذنا الدكتور علي المفتي الأستاذ الكبير، وعميد طب عين شمس، وكتب لي رسالة توصية إليه.

وفي الصيف ذهبت إلى د. المفتي، وقد اعتنى بي، وأجرى لي فحوصات على أجهزة متعددة، وانتهى إلى ما انتهى إليه تلميذه د. الصيرفي، النصيحة بالرفق والراحة عند الشعور بالإجهاد، وكتب لي نوعًا من الفيتامين، لا أظنه علاجًا، ولكن لمجرد التقوية، ولإشعار المريض بأن الطبيب كتب له دواء.

وظللت هكذا حتى سنة ١٩٨٠م كلما غرقت في العمل، وأجهدت ذهني بالكتابة، واضطرب عندي النوم: شعرت بهذه الدوخة، فرأى بعض المحبين: أن أذهب في رحلة علاجية إلى لندن، أفحص فيها كل ما له صلة أو قرابة بالدوخة. ووافق الديوان الأميري على السفر للعلاج على نفقة الدولة. وكانت زوجتي ترافقني.

ذهبت إلى لندن، واستقبلني مندوب السفارة، وحجزوا لي في فندق في وسط البلد يسمى «فندق بورتمان» هادئ إلى حد ما، ليس كالفنادق المطروقة من العرب مثل الهيلتون والشيراتون ونحوهما.

وخصّصت السفارة سيارة وسائقها في خدمتنا، وهو أخ مصري يجيد الإنجليزية، اسمه محمد عبد الرحمن، كما خصَّصت لي مترجمًا في بعض الأحيان، التي تحتاج إلى ترجمة متخصِّصة في لقاء الأطباء.

سلَّمت نفسي للقسم الطبي التابع للسفارة القطرية، فقاموا بالحجز اللازم مع الأطباء الذين يجب أن يروني:

طبيب الباطني العام.

وطبيب الأعصاب والدماغ.

وطبيب العيون.

وطبيب الأذن.

وكل هؤلاء، قرروا: أن لا شيء يسبِّب هذه الدوخة، لا في الباطني ولا في الدماغ، ولا في العين، إلا طبيب الأذن، فهو الذي قرر أن الخلل فيها، وهو ما قاله د. شوقي الصيرفي، وأكده د. علي المفتي من قبل. ورفض طبيب الأذن المختص أن يعطيني أي دواء، ولو كان شيئًا كالفيتامين ونحوه. وقال: أنت طبيب نفسك. انظر متى تأتيك هذه الدوخة، وما السبب وراءها؟ واجتهد أن تتجنَّب الأشياء التي تثيرها أو تحركها.

قلت له: الذي عرفته بالممارسة والتجربة: أنها تأتي بعد الإجهاد الذهني واضطراب النوم عندي. وأنا نومي غير سهل، وعندي مشكلة مزمنة معه.

قال: عندما تشعر بذلك حاول أن تتوقف قليلا، وتريح نفسك، والإنسان ـ مهما تكن قوته وحيويته ـ في حاجة إلى محطات للاستراحة. وحتى الأجهزة الميكانيكية في حاجة إلى أن تستريح وتتوقف بعض الوقت للتنظيف والصيانة وغيرها.

وعرض عليّ القسم الطبي أن أستكمل فحص بقية الجسم، من باب الاطمئنان، ما دمت قد جئت للعلاج، وكان قد بقي فحص الأسنان، والمسالك البولية، وقد فوجئت في كشف المسالك: بأن عندي بداية التهاب أو تضخم في «البروستاتا» وهو في أوله، وينبغي متابعته بعد ذلك.

حكم طلب العلاج عند النصارى

وقد داعبني بعض الإخوة قائلا: حتى المشايخ يطلبون العلاج عند الخواجات الأوربيين؟!

قلت له: وهل في ذلك من حرج؟ والله تعالى الذي خلق الداء، خلق الدواء، وأجرى سننه بنفع التداوي إذا أصاب محله. وقال رسوله: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله»[1]، ولم يستثن داء من ذلك إلا الموت والهرم، فعلم

(١) رواه أحمد في المسند (٤٣٣٤)، عن أبي هريرة.

أنه لا يوجد مرض عضال لا دواء له. وفي هذا فتح لباب الأمل لدى الأطباء والمرضى جميعا: أن لا يأس من الشفاء أبدا.

دفع قدر الله بقدر الله

وقد حلَّ الإسلام معضلة دينية وفكرية قديمة، وهي تعارض التداوي مع القدر السماوي، وذلك حين سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت أدوية نتداوى بها، وتقاة نتقيها؟ هل ترد من قدر الله شيئا؟! قال: «هي من قدر الله»[1].

ومعنى هذا: أن المرض من قدر الله، والدواء من قدر الله، والمؤمن يدفع قدر الله بقدر الله، كما يدفع قدر الجوع بقدر الغذاء، وقدر العطش بقدر شرب الماء: يدفع قدر وقوع الداء بقدر تناول الدواء، كلها بقدر الله.

ولقد روى أبو داود: أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو إليه: أنه مفؤود (أي مصاب في فؤاده أي: كبده) فأمره أن يذهب إلى الحارث بن كلدة (الطبيب الثقفي) يطلب العلاج عنده[2]. قالوا: ولم يكن الحارث أسلم بعد، فاستنبط الفقهاء منه مشروعية العلاج عند غير المسلم ما دام ثقة ومأمونا.

وقد كان للأطباء النصارى وغيرهم دور غير منكور في الحضارة الإسلامية.

حكم الاستشفاء بالرقى والقرآن والأدوية الروحية

قال صاحبي: وما قولك في الاستشفاء بالرقى والأدعية والعلاج بالقرآن وغير ذلك من الأدوية الروحية؟

قلت: إن كان المقصود بهذه الأدوية الروحية: أنها مكملة للأدوية المادية العضوية، فلا بأس باستعمالها، بل إنَّ الرسول رغَّب فيها، وحثَّ عليها. ولا ريب في أنها تـمدُّ

(١) رواه الترمذي (٢٠٦٥)، وقال: حديث حسن صحيح، عن أبي خزامة.

(٢) رواه أبو داود في الطب (٣٨٧٥) عن سعد بن أبي رافع.

المريض بمدد روحي، وقوة معنوية يحتاج إليها في رفع معنوياته التي لا غنى عنها في محاربة المرض وتحدياته، وهي سبب من الأسباب الروحانية في الشفاء.

وأما إن كان القصد: الاستغناء بها عن الطب القائم على الملاحظة والتجربة، والمبني على شبكة الأسباب والمسبَّبات، فهذا مرفوض شرعًا. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تداوى في نفسه، وأمر غيره بالتداوي، ووصف أشياء من البيئة للتداوي وفق خبرته، وكذلك أصحابه من بعده.

وما جاء في القرآن الكريم أنه ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٨٢)، لا يعني: أنه شفاء من كل الأمراض العضوية والمادية، بل هو كما قال تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (يونس:٥٧). شفاء لها من الشك والشرك والجهل والكبر وأمراض القلوب.

ولو أن المسلمين اكتفوا بالاستشفاء أو العلاج بالقرآن ـ كما يزعم بعض الناس في عصرنا ـ ما قامت للمسلمين قائمة في علم الطب، ولكنهم سبقوا الأمم في إقامة صرح طبي علمي عملي شامخ البنيان، قام عليه أطباء نوابغ لمعت أسماؤهم في سماء العالم، وتعلمت منهم أمم شتى.

والعجيب أن نجد من هؤلاء الأطباء العباقرة كثيرًا من النوابغ في علوم الدين، كما وجدنا العلامة ابن رشد (ت ٥٩٥هـ): يؤلف «الكليات» وغيرها في علم الطب، كما يؤلف «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في علم الفقه المقارن.

ورأينا الإمام المفسِّر المتكلم الأصولي: الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) يقول الذين ترجموا لسيرته: كانت شهرته في الطب لا تقل عن شهرته في علوم الدين.

ورأينا النابغة ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ) مكتشف الدورة الدموية الصغرى: يترجم له العلامة تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» بوصفه أحد فقهاء الشافعية.

الخطبة في المسجد المركزي بلندن

وبعد أن انتهينا من جولة الفحص الطبى، زرت بعض المؤسسات الإسلامية، ومنها: «دار الرعاية الإسلامية» وقد دعوني لإلقاء محاضرة فيها.

وكذلك زرت المسجد المركزي، وكنت قد زرته من قبل يوم كان يديره صديقنا الدكتور محمد الجيوشي رحمه الله.

ولا أذكر من كان مديره في ذلك الوقت، ولكنهم دعوني لإلقاء خطبة الجمعة في المسجد، على أن يترجمها واحد منهم، قبل الخطبة الثانية، كما هو المعتاد في مثل ذلك.

اختطاف حقيبة زوجتي

ومن الأحداث الغريبة التي وقعت لنا في تلك الفترة: اختطاف حقيبة زوجتي أم محمد حفظها الله، ثم عودتها إليها.

أذكر أنا كنا نشاهد التلفزيون البريطاني، وكان يعرض فيلمًا، وفيه: رأينا فتاة تمسك حقيبتها بيدها وتحركها يَمْنة ويَسْرة، من باب اللعب واللهو، فإذا شاب يثب إليها في خفة وسرعة، ويختطفها من يدها، ويركض سابقا الريح!

هنا قلت لزوجتي مازحًا: إياك أن يخطف أحد هؤلاء حقيبتك من يدك ويطير!

قالت: وماذا فيها؟!

قلت: صحيح أنها ليس فيها نقود كثيرة، ولكن فيها ما هو أهم من النقود: فيها جوازات السفر، وتذاكر السفر، وشيكات سياحية، وكذا وكذا.

ولم يكد يمر يومان أو ثلاثة على هذا المشهد والتعليق عليه، حتى وقعت هذه الواقعة.

كانت زوجتي، وقد أوشكنا أن نعود إلى قطر، تريد أن تمر على بعض المحلات التجارية الشهيرة، تتسوَّق منها ما تحتاج إليه، لنفسها ولأولادها، مستفيدة من التنزيلات التي عمَّت سائر المحلات في تلك الأيام بمناسبة أعياد الميلاد (الكريسماس).

وكان الأخ المرافق لي محمد عبد الرحمن يعرف هذه المحلات جيدًا، وكان يأتي بزوجته المصرية لترافق زوجتي، وهو يرافقني. وفي إحدى الليالي ذهبنا إلى متجر كبير ـ نسيت اسمه ـ لنتفرج على ما فيه، وأظن أننا لم نشتر منه شيئًا، وخرجنا من المحل، لنذهب

إلى السيارة التي ركنها السائق في بعض الشوارع الخلفية، وهي قليلة الإضاءة، وغير مزدحمة بالناس. سبقنا الأخ محمد ليأتي بالسيارة، ومشت زوجتي وزوجته معا، ومشيت أمامهما، وسرعان ما سمعت صرخة من زوجتي، فالتفتّ إليها، فوجدتها كادت تقع، ولم أجد الحقيبة في يدها، ووجدت رجلا أسود يمسك بالحقيبة في يده، ويركض في سرعة الحصان، وهنا استجمعت قوتي وركضت وراءه بكل قوة، وكانت ركبتي لا تزال سليمة والحمد لله، ودائما صاحب المتاع أقوى من اللص، وقد كنت منذ صباي أحسن العَدْو. وعلى الرغم من أن اللص أشبّ وأخفّ مني قطعًا، فإني كنت ملاحقًا له، ولما أوشك الشارع الخلفي هذا أن ينتهي ويدخل اللص في الشارع الكبير المضاء الحافل بالناس: أدركه الخوف، فرمى بالحقيبة، والتقطتها. ورجعت إلينا سالمةً والحمد لله.

وقد عدنا إلى الفندق: فرأينا أن نضع الأشياء التي معنا في صندوق الأمانات، حفاظًا عليها من مثل هذه المفاجآت، ولم نبق معنا إلا قليلا من النقود، التي يحتاج إليها للاستهلاك السريع.

كان طبيب المسالك قد طلب مني أن أراجعه، ولكن بعد إجازة الكريسماس، وهي عنده أسبوعان، ولم أجد ضرورة لذلك: فأبلغت السفارة بقرار سفري، وضرورة الحجز لي.

نفقات الفندق المتواضعة

وجاء مندوب السفارة ليحاسب الفندق، ففوجئ بالنفقات التي يطلبها الفندق. إنه رقم لا يصدق. الإقامة والأكل والتليفونات لا تبلغ ثلاثة آلاف جنيه!! فقال المندوب: ما هذا يا أستاذ؟ هل كنتم صائمين طوال هذه المدة؟ إن الرجل من الإخوة القطريين يأتي لمدة أسبوع، فيكلّفنا أضعاف هذا المبلغ! إنكم لم تتكلموا في الهاتف طوال هذا الشهر إلا خمس مرات، كل مرة نحو ثلاث دقائق. وإخوانكم يحسب عليهم التليفون بالساعات كل يوم!

قلت له: إن الفقهاء قدَّروا أنَّ المال العام ـ مال الدولة ـ كمال اليتيم، وشددوا في الأخذ منه. ولذلك آثرنا ألا نأخذ منه إلا بقدر الحاجة. كنا نأكل وجبتين في اليوم:

الإفطار، وأظنه تابعا للحجرة، والعشاء. وكنا نختار أرخص الأشياء لطعامنا: دجاج مع البطاطس «اتشكن إن ذا باسْكت»، وكنا نكلم الأولاد مرة واحدة كل أسبوع للاطمئنان عليهم. وهذا يكفينا.

وظل مندوب السفارة كلما لقي واحدا، يقول له: أتدري كم كلف الشيخ وأهله السفارة إقامة ومعيشة لمدة شهر كامل؟ إنه لم يكمل ثلاثة آلاف باوند!

سرقة حقيبة يدي

وفي يوم السفر من لندن إلى قطر؛ حدث لي حادث غريب، فقد كنت أقف في طابور أمام موظف الفندق الذي أوقع له التوقيع الأخير قبل المغادرة، وإعطائي مايسمح بترك الفندق.. ونظرًا لزحام المغادرين في ذلك الوقت، ظللت في الطابور عدة دقائق كنت أحمل في يدي حقيبة اليد (الهاند باج) في يدي، فلما طال الوقوف بعض الوقت، وضعتها على الأرض بجواري.. وما هي إلا ثوان، حتى نظرت فلم أجد الحقيبة. لقد أُخذت في لمح البصر! كانت زوجتي هي وزوجة السائق المرافق لي في انتظار فراغي من مهمتي. سألتهما: ألم تريا الحقيبة؟ قالتا: لقد كانت بجوارك منذ لحظات، وذهبت يمنة ويسرة، لأبحث عن أيِّ أثر للحقيبة، فلم أجد. أين ذهبت؟! ومن أخذها؟ لا جواب. كما يقول المصريون: «فص ملح وذاب».

يبدو أن هذا اللص كان يراقبني، وعرف من خبرته أني سأتعب بعد فترة، وأضع الحقيبة من يدي، وكان بالمرصاد، بمجرَّد أن وضعتها اختطفها وولّى الفرار، أو لعله يجلس في المكان بعد أخذها وقد أخفاها بطريقة أو أخرى. وقلت: الحمد لله، فلم يكن فيها شيء ذو بال، فقد كانت التذاكر وما بقي من نقود في حقيبة زوجتي، أما حقيبتي فلم يكن فيها إلا نقود قليلة، ونظارة قراءتي، وكشكول صغير، فيه بعض الكتابات القليلة، وهي أثمن ما ضاع مني. فلم يظفر اللص بصيد سمين كما كان يتوقع، من حقيبة رجل قادم من الخليج!

وهذا هو الأمن في لندن، اختطفت حقيبة زوجتي، ثم استردت بفضل الله، وسُرقت حقيبتي ولم تعد.

فالحمد لله على نعمة الأمان في بلادنا.

زواج بناتي الأربع

الحياة الشخصية للعلماء وموضع الأسوة فيها

لا أريد أن أشغل قارئ هذه السيرة والمسيرة بأموري الخاصَّة، فقد لا يهم القارئ العادي أن تتزوَّج بناتي أو لا يتزوجن.

ولكني أكتب في هذه المذكرات الأمور التي تهمني وتشغل عقلي وقلبي، باعتباري عالمًا، وباعتباري زوجًا، وباعتباري أبًا، وباعتباري إنسانًا.

وإنما أذكر من الأمور الشخصية والأمور الأسرية: ما أرى أن فيه عبرة قد يستفيد منها قارئها. فالحياة الشخصية للعلماء وأصحاب الدعوات، ليست ملكًا خاصًّا لهم. بل فيها جزء لا يجوز أن يقتحمه الناس، ولا أن يخترقوا أسواره، وهو بينهم وبين ربهم سبحانه، يحاسبهم عليه وحده.

وفيها جزء آخر كثيرًا ما يكون فيه أسوة للناس، يقتبسون منه، وينتفعون به، كما قال الله تعالى في شأن رسوله الكريم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

والعلماء ورثة الأنبياء، والأصل أن يكون فيهم من الأسوة، بقدر ما فيهم من وراثة النبوّة.

كل أحد يؤخذ من قوله وعمله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم

على ألا يُنسى الأصل الأصيل الذي قرَّره سلف الأمة، وهو: أن كل أحد يؤخذ من

كلامه - وكذلك من عمله - ويترك، إلا النبي صلى الله عليه وسلم. فهو وحده المعصوم من المعاصي، والمعصوم من خطأ الرأي، حتى لو أخطأ في اجتهاده، نزل الوحي، يُصَوِّب خطأه، حتى لا يصبح شرعًا يأخذ الناس به.

بناتي قطعة من قلبي وفلذة من كبدي

وعلى ضوء هذه الحقائق الناصعة: أتحدَّث عن زواج بناتي الأربع، وكل واحدة منهنَّ: قطعة من قلبي، وفلذة من كبدي، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إن فاطمة بضعة مني، يريبني ما يريبها..».

وكذلك بناتنا وأبناؤنا هم كما قال الشاعر العربي:

لَــوْلا بُـنـيَّـات كَـزُغْـب القطا	رُدِدْنَ مــن بعض إلى بعضِ
لـكــان لي مُـضْـطـرب واسـع	في الأرض ذات الطوّل والعرض
وإنــــما أولادنـــــا بـيـنـنـا	أكـبـادنـا تمـشي عـلى الأرض
لـو هَـبّـت الـريـحُ عـلى بعضهم	لامتنعت عيني مــن الغمْض

وهذا من ثمرات الإسلام، بعد أن كانت البنات يُوءدن في الجاهلية، وتعتبر ولادتهنَّ مصيبة على الأسرة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩).

وكثيرًا ما كان الخيار الثاني ينتصر، وهو الدسُّ في التراب. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير: ٨، ٩).

زواج ابنتي سهام

في أوائل شهر يونيو ١٩٨١م، اتَّصل بي الأخ الفاضل الأستاذ عبد العليم عبد الستار

المحاضر بمعهد الإدارة في الدوحة، وهو شقيق أخينا الكبير وشيخنا الجليل الشيخ عبد المعز عبد الستار، وقال لي: أريد أن أتشرَّف بزيارتكم الليلة، ومعي أم هشام زوجتي، فهل لديكم مانع؟

قلت: مرحبًا بكم في أيِّ وقت،فالدار داركم، ونحن أهلٌ وأخوة.

وأخبرت زوجتي، وقلت لها: يبدو أنَّ هذه الزيارة لهدف مُعيِّن، وهو خطبة إحدى البنات، وإلا ما ذكر أن أم هشام ستكون معه.

وفي الوقت المحدَّد، حضر الأستاذ عبد العليم ومعه زوجته السيدة صفيَّة موجهة الرياضيات، التي أصبحت بعد ذلك رئيسة تعليم البنات في قطر.

وبعد اللقاء والترحيب، وتقديم المرطِّبات ونحوها، قال الأستاذ: دون تطويل في المقدمات، نحن جئنا لنطلب يد ابنتكم ـ وهي ابنتنا أيضًا ـ سهام، لابننا ـ وابنكم ـ هشام، ابننا الأكبر، وهو قد تخرج في كلية الطب، ويقضي سنوات الجندية الإجبارية في الجيش في مصر، وسينهيها بعد عدة أشهر، وبعدها سيأتي للعمل في قطر إن شاء الله.

قلت: ولكنه لم ير البنت ولم تره، والرسول الكريم يأمر الخاطب بأن يرى مخطوبته قبل الإقدام على الزواج، ولم يعد الشاب في عصرنا يكتفي برؤية أهله ورأيهم فيمن يتقدم إليها.

قالوا: نحن نريد حجز «المقعد» قبل أن يأخذه غيرنا، نريد أن نتفق على المبدإ، وبعد ذلك يتم كل شيء في موعده.

وقبلنا ذلك: أن نتفق مجرَّد اتفاق مبدئي، وبعد الرؤية واللقاء بين الخاطب ومخطوبته، يتمُّ الاتفاق على التفاصيل.

موقفي من خطبة البنت الصغرى قبل الكبرى

وقال الأستاذ عبد العليم: كنت أخشى أن ترفض خطبة سهام قبل أختها الكبرى إلهام، كما يفعل بعضُ الناس.

قلت: ليس ذلك مبدئي، بل مَن يجيء لها كفؤها، أقبله إذا رضيَتْ به، ولا أُعطِّل

واحدة من أجل أخرى، وسيأتي لأختها نصيبها في وقته المقدَّر إن شاء الله، ولا سيما أن بين سهام وأختها الكبرى ـ إلهام ـ أحد عشر شهرًا، وقد دخلتا المدرسة في سنة واحدة، وأخذتا الثانوية معًا، والبكالوريوس معا، وعُيِّنتا معيدتين بالجامعة في قرار واحد.

وبعد أن انتهى العام الدراسي، وسافرنا إلى القاهرة، كان لا بدَّ أن يرى هشام «سهام» الرؤية الشرعية.. وفعلًا التقيا في بيتنا في مدينة نصر، وتحدَّث إليها وتحدَّثت إليه، واستراح كلٌّ منهما إلى صاحبه، وقال هشام بعد جلسته مع سهام: يا عمي أنا موافق بكل رضا وسرور على سهام، وأدعو الله أن يتمَّ زواجنا على خير، وأرجو أن تكون هي كذلك. وأعلنت سهام موافقتها كذلك.

اعتباري هدية الشبكة من المهر المطلوب

وبدأنا الإجراءات، وشراء الشبكة، وهي هدية معروفة عند المصريين قبل الزواج، كثيرًا ما تكون من الذهب أو الماس، وما يدفعه الخاطب في هذه الشبكة أعتبره أنا هو المهر المطلوب منه.

والحقيقة أني لا أطلب مهرًا محدَّدًا، ولا أشترط مبلغًا معيَّنًا، فما يدفعه الخاطب أو أهله، أقبله، وأكمل عليه إن لم يكن كافيًا.

وفعلًا دفع والد هشام مبلغًا، وذهبت زوجتي أم محمد ومعها سهام، ومعهما العريس ليشتروا الشبكة.. وقلت لزوجتي: ما تريده سهام، اشتروه لها، ولا تبخلوا عليها، ولا تكلِّفوا العريس فوق طاقته.. وتمَّ شراء الشبكة المطلوبة وَفْق رغبة العروس، بحمد الله.

ارتباطي بالواجبات الرمضانية

أما الاحتفال بالخطبة والشبكة، فأُجِّل إلى ما بعد رمضان، حيث كنت أعود إلى الدوحة في رمضان، وأدع الأهل والأولاد في مصر. إذ كنت مرتبطًا بواجبات رمضانية، لا يسعني أن أتخلَّف عنها، منها: درس العصر في مسجد الأمير، ومنها: صلاة التراويح

بجزء من القرآن في مسجد الشيوخ، وإلقاء درس التفسير بعد الركعات الأربع من التراويح.

الاحتفال بخطبة سهام

وبعد قضاء شهر رمضان في الدوحة، عدت، لأعيّد مع الأسرة في مصر، وقد حدَّدنا الاحتفال بخطبة سهام وشبكتها في ٤ شوال ١٤٠١هـ (٤/ ٨/ ١٩٨١م).

وكانت ليلة من أجمل الليالي، أقمناها في منزلنا بمدينة نصر، وكان الحفل في الطابق الأول، وهو فارغ تمامًا، قبل أن يتحوَّل معظمه إلى مكتبة، واقتصر على الأهل والأقارب من العائلتين.

تأخُّر عقد سهام

أما العقد فقد تأخَّر قليلا، حتى أنهى هشام بقية فترة تجنيده في الجيش، وهي ثلاث سنوات، فقد كان الجامعيُّون الذين يدخلون الجيش، إذا عملوا جنودًا تكون مدتهم سنة فقط، وإذا عملوا ضبَّاطًا تكون مدتهم ثلاث سنوات. وقد دخل هشام الخدمة ضابطًا، وبعدها قدم هشام إلى قطر ليعمل طبيبًا في مستشفى حمد بالدوحة. وكانت ابنتي إلهام قد خطبت، فتمَّ عقدهما في يوم واحد، كما سأحكي بعد.

زواج إلهام

في مساء يوم من أيام شهر مايو من سنة ١٩٨٢م، اتصل بي هاتفيا: الأخ الكريم الأستاذ عبد اللطيف مكي رحمه الله، وقال: أريد أن أتشرَّف بزيارتكم، ومعي الحاجة أم سيف، فهل يناسبكم أن نزوركم الليلة؟ الساعة الثامنة؟

قلت: على الرَّحْب والسَّعة، الدار داركم، والجميع منكم وإليكم.

وأدركت المقصود، وقلت لأم محمد: الحاج عبد اللطيف اتصل، وقال كذا وكذا، وأعتقد أنهم قادمون لخطبة إلهام لابنهم د. سيف.

قالت: هذا هو المفهوم، وربما كان هناك سبب آخر لا نعلمه.

قلت: قوله: سآتي أنا والحاجة أم سيف يُؤْذن بالمطلوب.

وفي الساعة الثامنة، حضر أخونا العزيز وزوجته، وهي امرأة فاضلة، لم يعرف عنها إلا كل خير، وهي من عائلة إسلامية معروفة بنصرة الدعوة الإسلامية، وشقيقها المهندس سيد أبو النور، الذي عُرف ببلائه في دعوة الإخوان، ويعرفه كثيرون.

بعد تبادل التحيات والمجاملات، قالوا: لا نريد أن نطيل في المقدِّمات، لقد جئنا لنطلب يد ابنتنا إلهام لابنكم أحمد سيف الإسلام.

قلت: لقد أحسنتم التعبير، إنَّ إلهام هي ابنتكم، وإنَّ أحمد هو ابننا، ولقد عرفته منذ سنوات مع الشباب المسلم في القاهرة، وسُررت به، وسمعت من إخوانه وزملائه ثناءً عاطرًا عليه وعلى أخلاقه وسلوكه.. ولن أجد لابنتي زوجًا أفضل منه أأْتمنه عليها، كما لن أجد أصهارًا خيرًا منكم دينًا وخلقًا وفضلاً، وأعتقد أن هذا هو رأي أم محمد، قالت: نعم بلا شك.

أخذ رأي البنت في الخطبة

قلت: ولكن الشرع يوجب علينا أن نأخذ رأي البنت، فلا يجوز شرعًا أن يزوِّج الأب ابنته من يشاء هو، لا من تشاء هي. وفي التعاليم النبوية المشهورة: «البكر تستأذن، وإذنها صماتها»[1]. واعتقادي أنَّ ابنتي لن تقول: لا، فإذا وافقت على المبدأ، يسّرنا لهما لقاء يرى فيه كلاهما الآخر، ويتحدث إليه ويسمع منه.

عادة أهل الخليج في منع الخاطب من رؤيته مخطوبته إلا ليلة الزفاف

فهذا ما جاء به الشرع، وما علَّمَناه رسول الإسلام، والخير كل الخير في اتباع هذه التعاليم. ولا نفعل ما يفعله أهل الخليج هنا، حيث لا يرى الخاطب مخطوبته إلا ليلة

---

(١) رواه البخاري في الحيل (٦٩٧١)، عن عائشة ومسلم في النكاح (١٤٢١) عن ابن عباس.

الزفاف، حتى بعد عقد العقد عليها، وأنها أصبحت زوجته شرعًا: لا يراها ولا تراه، مع أنها ترى كل الناس، ترى أساتذتها في الجامعة، وترى الرجال في السوق، إذا باعت أو اشترت، وتراهم في الطائرة إذا سافرت. رجل واحد ـ فقط ـ لا يراها، هو زوجها المسكين!

قالوا: ونحن موافقون كل الموافقة على هذا، ونحن أولى الناس بتطبيق أحكام الشرع.

وقد تغيرت عادة أهل الخليج الآن، وصاروا يصرحون للخاطب برؤية مخطوبته.

الأستاذ عبد اللطيف مكّي

وكان الأستاذ عبد اللطيف مكي من إخواننا المصريين الذين سبقونا إلى قطر في الخمسينيات من القرن العشرين مع الأساتذة: كمال ناجي، وعز الدين إبراهيم، وعلي شحاتة، وعبد الحليم أبو شقة، وحسن المعايرجي، ومحمد الشافعي، وغيرهم.. وقد عملوا جميعًا في وزارة المعارف، التي كان يعمل مديرًا للمعارف بها أخونا الداعية المعروف الأستاذ عبد البديع صقر، وكان مكّي قبل مجيئة إلى قطر، يعمل مع الدكتور سعيد رمضان في مجلة «المسلمون»، وكان قريبًا من الأستاذ البنا، وقد سمَّى ابنه الأول على اسم ابنه أحمد سيف الإسلام.

وقد عمل الأستاذ مكي رئيسًا لقسم التغذية بالوزارة، وكان محمود السيرة، مُحبَّبًا إلى الناس من القطريين وغيرهم، يألف ويؤلف.. وقد جاء إلى قطر وابنه أحمد سيف الإسلام عمره سنة واحدة، وأكمل تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في قطر، وحصل على الثانوية من قطر، وكان ترتيبه فيها الأول على القسم العلمي.

ثم دخل كلية الطب بجامعة القاهرة، وكان قريبًا من طلاب الجماعة الإسلامية فيها،وإن لم يندمج معهم تمامًا، ولكنهم كانوا يحبُّونه لاستقامته، وصفاء نفسه، ودماثة خُلُقِه، كما أخبرني بذلك أحد البارزين منهم، وهو الأخ عبد الرحمن سعودي (الدكتور عبد الرحمن بعد ذلك). فكَّ الله أسره[1].

---

(١) كان من المعتقلين على ذمَّة القضية التي حوكم فيها خيرت الشاطر، ود. محمد بشر، ود. ضياء فرحات،

من أعظم نعم الله على الأب أن يوفَّق في تزويج بناته

ولذلك لم يكن غريبًا أن أرحِّب بهذه الخطبة، وأن أهشَّ لهذه المصاهرة، فإنَّ من أعظم نعم الله على الأب أن يوفَّق في تزويج بناته، فيطمئن إلى الرجل الذي يسلم إليه فلذة كبده. وفي المثل: «اخطب لبنتك قبل أن تخطب لابنك» والخطبة هنا تعني تحرِّي الصالحين من الشباب والاقتراب منهم، وليس من الضروري أن تقول له: عندي بنت ملائمة لك. فربما لا يناسب هذا عصرنا.. وقد فعلها سيدنا عمر حين عرض حفصة على أبي بكر وعلى عثمان. أما اليوم فما أظنُّ ذلك يقبله منطق هذا الزمان، وفعلها أحد إخواننا، فعيّره من أصهر إليه بأنك أنت الذي عَرَضْتَ عليّ ابنتك!!

لقد وفَّقني الله في زواج سهام من شاب كفء كريم، والإصهار إلى عائلة كريمة عزيزة.. واليوم تلحق بها شقيقتها إلهام، والحمد لله الذي اختار لبناتي مَنْ أحب من الأخيار.

إلهام وسهام

كانت إلهام وسهام أشبه ما يكونان بالتوءمين. لقد كان بينهما في السنِّ أقل من اثني عشر شهرًا، ولكنهما دخلتا المدرسة الابتدائية معًا، وحصلتا على الشهادة الابتدائية ثم الإعدادية معًا، وكانتا دائما في مدرسة واحدة وفي صفّ واحد، وفي السنة الثانية الثانوية، وهي سنة التشعيب الدراسي ما بين أدبي وعلمي، اختارتا العلمي معًا، وحصلتا على الشهادة الثانوية معًا، ودخلتا جامعة قطر معًا، واختارتا كلية العلوم معًا، وإن كانت إلهام اختارت قسم الفيزياء، وسهام اختارت قسم الكيمياء. ونجحتا معًا بامتياز في قسميهما، وعُيِّنتا معيدتَيْن في قرار واحد، وشاء الله أن يعقد قرانهما في يوم واحد، وأن يتمَّ زفافهما في أسبوع واحد، وإن شئت قلت: بينهما أسبوع واحد.

حفل عقد قران إلهام وسهام

ففي بداية الشهر السادس تمَّ عقد قران ابنتي إلهام وسهام في منزلنا بالدوحة، وكنَّا

وعدد من الإخوة القياديين، وحكم على عدد منهم بمدد مختلفة، وحكم لعبد الرحمن بالبراءة.

نسكن بيتا فيه ساحة فسيحة تتَّسع لمثل هذه الأحفال، وقد دعونا عددًا لا بأس به من الأقارب والمحبين والشخصيات القطرية والمقيمة في قطر، كما هي السنة في الإعلان عن الزواج وشهره.. وعقد العقد صديقنا القاضي الفاضل، والكاتب الإسلامي المعروف: الشيخ عبد القادر العمّاري حفظه الله. وقلنا لأحمد ولهشام كما قال لهما الحضور: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»، وهي التهنئة التي علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، بدل تهنئة الجاهلية التي كانوا يقولون فيها: بالرّفاء والبنين، إذ كانوا لا يحبون البنات، فيتمنون أن ينجب العروسان بنين فقط، وهو خطأ جوهريٌّ من غير شك، فإنَّ الحياة لا تقوم إلا على الزوجين: الذكر والأنثى، ولو اقتصر الناس على إنجاب البنين، لفنيت البشرية بعد جيل واحد!

موقفي من المهر المؤخَّر

سألني الشيخ عبد القادر: ما قيمة المهر المؤخَّر؟ قلت: ولا درهم. قال: جرى عرف الناس: أن يكتبوا مهرًا مؤخَّرًا، وفي العادة يكون كبيرًا، حتى يكون قيْدًا يمنع الزوج من التفكير في الانفصال، أو في مضارَّة الزوجة، ونحو ذلك.

قلت له: أما أنا فقد اخترت لابنتي رجلًا أراه كفئًا لها وأمينًا عليها.. فإذا كان عند حُسْن الظنِّ به، فالحمد لله، وإذا ظهر على غير ما أحسنت الظن به، وتبيَّن أنه رجل سوء، فخيبة أملي فيه لا يعوِّضها شيء لا مؤخَّر ولا غير مؤخَّر، بل إني حينذاك سأحرص على تخليص ابنتي من سوئه، ولا أريد منه شيئًا غير تحرُّرها منه.

قال الشيخ عبد القادر: نِعْم الصهر أنت، وإنَّ موقفك لجدير أن يسجَّل!

وأحمد الله أني عاملت أزواج بناتي جميعًا بهذه الروح، وبهذه الطريقة، وكانوا جميعًا عند حُسْن الظنِّ بهم، وفوق حُسْن الظن، ولله الحمد والمنة.

زفاف سهام ثم إلهام

وفي ٦/ ١/ ١٩٨٣م تمَّ زفاف سهام في حفل بهيج.

---

(١) رواه أحمد (٨٩٥٦)، وقال مخرّجوه: إسناده قوي رجال الصحيح.

وبعد أسبوع من زفاف سهام، كان زفاف إلهام، في نفس المنزل وبنفس الطريقة، وكان كلاهما حفلاً بهيجًا، حضره الأقارب والأحباب. وتمَّ أمرهما على خير ما نُحب ويحب العروسان، كما نرجو أن يكون قد تم على ما يحب الله ويرضى.

رسالة فريدة إليّ من سهام بعد زواجها

بعد زواج سهام بأيام قليلة، فوجئت برسالة سطرتها إليّ سهام ابنتي بعد انتقالها من بيت أبيها، إلى بيت زوجها، وهي رسالة فريدة من نوعها، مهمة في موضوعها، بليغة في معانيها.. ولا أدري كيف خطرت لها فكرتها، ولعلها لا تذكرها الآن. فهي رسالة شكر وامتنان وعرفان بالجميل للبيت الذي قَضَت فيه طفولتها وصباها وبداية شبابها، وأنهت فيه مراحل تعليمها كلها، من الابتدائية إلى الجامعة، حتى عُيِّنت معيدة في كليتها، وحتى انتهت بزواجها من زوج كفء كريم.. إنها تعترف بالفضل لهذا البيت ولربِّ هذا البيت، الأب الذي أورثها كل المكارم والفضائل التي هي من أعظم النعم على عباد الله.

الحقيقة أني سُررت بالرسالة كل السرور، وأُعجبت بها كل الإعجاب، وظللت أقرؤها مرة ومرة، حتى حفظتها، أو كدت أحفظها، وظللت محتفظًا بها بين أوراقي، كلما صادفتني فتحتها وأعدت قراءتها، ثم ضاعت مني منذ سنوات فيما ضاع من أوراق، نظرًا لازدحام الأوراق وتراكمها عندي، وعدم ترتيبها، وعدم وجود أي «أرشَفَة» لها، فلم يكن معي أي مساعد أو سكرتير يساعدني، و لا سيما مع انتقالنا من منزل إلى آخر.

سرُّ اهتمامي برسالة ابنتي سهام

وسرُّ اهتمامي بهذه الرسالة: أنها نموذج يحتذى في العرفان بجميل الآباء والأمهات. فكثيرًا ما ينسى الأبناء والبنات بمجرَّد زواجهم وتسلُّم وظائفهم: دور الآباء والأمهات، ولا سيما دور الآباء، فدور الأم ظاهر عادة غير منسي، ومعروف غير منكور، ودور الأب هو الذي كثيرًا ما ينسى.

كما أن هذه الرسالة بيَّنت لي: أنَّ الإنسان مهما بلغت منزلته يظلُّ في حاجة إلى مَنَ يقول له: شكرًا، وتسره هذه الكلمة، وتقع من نفسه موقعًا.

ولهذا قال الرسول الكريم: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1]. ويقول الشاعر:

ولو كان يَسْتَغْني عن الشُّكر ماجدٌ لعـزَّة ملـك أو لـرفـعـة شـان

لما أمـر الله الـعـبـاد بشكره وقـال: اشـكـروا لي أيهـا الثقلان

قالت سهام في رسالتها البليغة المرتبة:

لقد انتقلت من بيت الأب إلى بيت الزوج، انتقلت من البيت الذي قضيت فيه أحلى طفولة، وأجمل صبا، وأروع شباب، لأنتقل إلى بيت جديد، أدعو الله أن يكون بيتًا سعيدًا موفّقًا، وأن يعوِّضني خيرًا بخير.

وهنا يا أبي الحبيب، أودُّ أن أقول كلمات أُعبِّر لك فيها عن عميق إحساسي ومشاعري، وهذه أول رسالة أكتبها إليك، أشكرك كل الشكر ـ بعد شكر الله تعالى ـ على كل ما قدمته إلينا ـ أنا وأخواتي ـ وأورثتنا إياه، مما يحتاج إليه كثيرون ولا يجدونه.

١ ـ لقد أورثتنا أول ما أورثتنا، الدين، فنشأنا على طاعة الله سبحانه، بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، وما زلت أذكر أنك عوَّدت أسرتنا: أن تحتفل بكلِّ طفل إذا بلغ السابعة، لأنها سنُّ الصلاة، وعند العاشرة، لأنها سنُّ الضرب على الصلاة، وعند الخامسة عشرة، لأنها سنُّ التكليف.. وكثيرًا ما كنا نصلِّي وراءك الصلوات في جماعة، وفي رمضان كثيرًا ما كنا نصلِّي خلفك التراويح.

٢ ـ وأورثتنا: العلم والتفوُّق فيه، فكنتَ المثلَ الأعلى لنا. وغرست فينا حبَّ التفوق والامتياز، ولا أنسى أنك كنت تقول لنا من الصغر: «النجاح ليس هو المطلوب، كل الناس ينجحون حتى البُلداء والأغبياء، المهم عندي هو التفوُّق، أن تكونوا أوائل صفوفكم دائمًا»، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

٣ ـ وأورثتنا: الأدب وحسن الخلق، فقد غرست فينا: أنَّ العلم إذا لم يثمر خُلقًا حسنًا،

---

(١) رواه أحمد في المسند وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم (٧٩٣٩)، وأبو داود في الأدب (٤٨١١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤) عن أبي هريرة.

وأدبًا في التعامل مع الناس، فهو علم غير نافع. ومما أذكره من قول أمي حفظها الله: إن أباكم الذي نشأ في القرية لم أسمع منه طوال حياتي كلمة «عيب» واحدة.

٤ ـ وأورثتنا كذلك المحبة فيما بيننا، لأنك عاملتنا جميعًا معاملة واحدة، تسوي فيها بين الجميع.. لم نرك يومًا فضَّلت ذكرا على أنثى، أو أنثى على ذكر، أو صغيرًا على كبير أو العكس، بل تعاملنا جميعًا بروح واحدة، وتُوصينا جميعًا بأن يحب بعضنا بعضًا.

٥ ـ وأورثتنا كذلك يا أبي: المجد، فحثيما ذهبت في مشرق أو مغرب، ورأى الناس اسمي قالوا: هل أنت بنت فلان؟ وأكرموني، وكادوا يحملونني على رؤوسهم، فقد أصبح اسمك عَلَمًا في كل مكان، وهو مفخرة لنا.

٦ ـ بل أقول أيضا: أورثتنا المال، فنحن بفضل الله تعالى، ثم بفضلك، عشنا في بحبوحة، ونعمُ الله علينا سابغة، لما أفاء الله عليك من مال، كوَّنته بعرق الجبين، وكد اليمين، وسهر الليل.

كل هذه المكارم والنِّعم يا أبي قد أورثتنا إيَّاها.. ولا يمكنني هنا أن أنسى فضل أمي التي أعطتنا من حبِّها وعطفها وسهرها وتعبها ويقظتها وحُسْن تربيتها لنا، وإشرافها علينا، حتى كانت تخيط لنا ملابسنا، ونظهر في أجمل صورة وأرقاها، ومع هذا أقول: أنت لك الفضل أيضًا: أنك أحسنت اختيار أمنا.

فشكرًا شكرًا لك يا أبي، وشكرًا شكرًا لأمي، ولا أستطيع أن أكافئك أو أكافئها، كل ما أستطيع أن أدعو لكما بطول العمر، ودوام الصحة والعافية، وراحة البال، ودوام التوفيق فيما تقوم به من مهمات لخدمة الدين والعلم والإسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هذه رسالة سهام، بكل محاورها ومعانيها، ربما أكون قد عبَّرت فيها أحيانًا بعبارات من عندي لطول الزمن، ولا أملك أنا أيضًا إلا أن أدعو الله لها ولأخواتها وإخوانها بالتوفيق والسَّداد، وتوفير أسباب الخير والسعادة لهم ولذريَّاتهم وأزواجهم في الدنيا والآخرة. ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤). كما أدعو لوالدتهم أم محمد أن يجزيها الله خيرا في الدنيا والآخرة عما قدمت.

زواج ابنتي عُلا

بعد زواج ابنتي البكر إلهام، وشقيقتها سهام من زوجين كريمين، والإصهار إلى أسرتين فاضلتين، والاطمئنان عليهما في حياتهما الزوجية، كان الدور على ابنتي الثالثة «علا»، وليس أسعد للأب ولا أقرَّ لعينه من أن يزوِّج بناته من رجال ثقات يرضى دينهم وخلقهم.

لقد تخرجت عُلا كما تخرجت أختاها في كلية العلوم جامعة قطر بدرجة امتياز، وكانت الأولى على كلية العلوم، والثانية على جامعة قطر، بكلياتها العلمية والأدبية، وإن لم تعيَّن في وظيفة معيدة، لأن الجامعة توسَّعت في تعيين المعيدات في السنوات الأولى، أكثر مما ينبغي، حتى عيَّنت بعض الحاصلات على درجة جيد جدًّا، بل درجة جيد في بعض الأحيان، حرصًا على ملء الخانات الفارغة، ومسابقة الزمن، وكنت ممن يعارض هذا التوسُّع، لأنه سيكون على حساب الأفواج القادمة.

وفعلًا كانت عُلا ودفعتها برغم حصولهنَّ على الامتياز، والامتياز المرتفع، لم يجدن مكانًا لهنَّ في الجامعة.

فسلكت علا طريقًا آخر خارج الجامعة، في مختبرات مستشفى حمد الطبي، ثم مركز البحوث العلمية والتطبيقية في الجامعة.

تقدَّم لخطبة علا، وهي في قطر، مهندس مدنيّ مقيم في القاهرة، والده أستاذ جامعي معروف، وكان يعمل وقتها رئيسًا لقسم الكيمياء في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وهو صديق قديم عزيز أعرفه من سنين، كما أنَّ زوجته والدة الشاب المهندس صديقة قديمة لزوجتي، كانتا زميلتين أيام الدراسة في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، وهي سمنوديَّة مثل زوجتي، والأب من مركز سمنود، وتعلم في مدارس سمنود، وكان زميلًا لسامي صهري.

ويبدو أنَّ هذه الروابط والعوامل كلها، كانت من المرجِّحات عند علا: أن تختار هذا المهندس على طبيب من أبناء الصحوة الإسلامية قد تقدَّم لها بعد أن صلَّت صلاة الاستخارة، كما هو المشروع في مثل هذه الأحوال، وقد وجدت صدرها منشرحًا لهذا الأمر، وكان الخير فيما اختاره الله.

الصهر الثالث: حسام الدين خلف

كان الشاب المهندس، وهو زوج علا الآن: المهندس حسام الدين علي علي خلف، الذي قضى صباه في أمريكا مع والده، حين كان يدرس هناك للحصول على الدكتوراه، ثم عاد إلى مصر وحصل على بكالوريوس الهندسة المدنية من جامعة أسيوط في مصر. وهو الآن يسعى للحصول على ماجستير من أمريكا.

الدكتور علي علي خلف

أما والده، فهو الأخ الحبيب، والصديق الكريم الأستاذ الدكتور علي علي خلف، الذي أعرفه منذ كان طالبًا في المدرسة الثانوية في سمنوُّد، حيث كان مع عدد من زملائه من شباب الدعوة الإسلامية، ثم شاء الله أن يتزوَّج من مجيدة، كريمة الفقيه المعروف الشيخ بدر المتولي عبد الباسط.. ثم قدِّر لي أن أتزوَّج من صديقتها إسعاد عبد الجواد، وأن نلتقي مرة أخرى في سمنود، ثم يتزوَّج كلانا ويندمج في حياته الوظيفية، ويذهب هو إلى الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراه، وأذهب إلى الأزهر، ثم إلى قطر، حتى قدَّر الله أن نلتقي مرة أخرى، ونتزاور، ولا سيما أنه وأسرته كانوا من سكان مدينة نصر، حيث يملكون شقة في شارع الطيران.

وبمجرد التزاور اكتشفوا أن عندنا عروسًا مناسبة لحسام، وكل أبوين يبحثان لابنهما عن بنت الحلال، التي تسرُّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، وتحفظه إذا غاب في نفسه وماله، وكأنما وجدت الأسرة ضالتها في عُلا. ويبدو أن حسامًا لم يكن قد رآها، كما ينبغي، فإذا هم يطلبون زيارتنا، ويلحُّون عليها، وكنا على سفر، ومشغولين بالتجهيز للسفر، ولكنهم كرروا الطلب، فلم يكن لنا بدٌّ من الاستجابة.

وقلت لزوجتي: كأنَّ هذه الزيارة زيارة خطبة، أو تعرُّف للخطبة.

قالت: كيف عرفت ذلك؟

قلت لها: عرفت بالإحساس الأبوي، وبالقرائن، وبالإلحاح في الزيارة، مع أننا زرناهم وزارونا قبل ذلك!

وكان ما توقَّعته في محله، وكان همس حول الموضوع، دون الدخول مباشرة فيه.

وظل الأمر مُعلَّقًا، حتى نهاية العام الدراسي، وقد تخرجت علا بامتياز، وعدنا إلى القاهرة في الإجازة الصيفية، وتقدَّم الشابان كلاهما خاطبين: الطبيب والمهندس، وتركنا لكلٍّ من الخاطبين الفرصة أن يلقى كلٌّ منهما البنت ويتحدث إليها وتتحدَّث إليه.

وظهر من كلام الطبيب: أنه لا يريد من عُلا أن تعمل، وأنه يرى أن العمل مضادٌّ لوظيفة المرأة، باعتبارها زوجة، وباعتبارها أمًّا، وأنه لم يشعر بحقيقة الأمومة من والدته، نظرًا لأنها طبيبة ناجحة، وعملها يشغل وقتها وجهدها، فلا يكاد يبقى شيء لأولادها. قال: ولذا كنت إذا تحيَّرت في شيء أو احتجت إلى رأي أو مساندة، لا ألجا إلى والديّ، ولكن ألجا إلى جدَّتي وجدِّي، فكانت جدَّتي هي أمي الواقعية،وجدِّي هو أبي، ولا أريد أن يكون حظ أولادي في الحياة مثل حظي.

وكانت هذه صدمة لابنتي، وقد قالت له: أنا لست مُصرَّة على العمل، ولا مستميتة من أجله، ولكن أرى أن يُترك لي الخيار في ذلك، فقد يوجد من العمل ما لا يستغرق كل الوقت وكل الجهد كالطب، وفي هذه الحال نتشاور فيما يمكن عمله. قال لها: ترك العمل شرطي الوحيد، ولا شرط لي غيره. قالت: هذا ما لا أستطيع أن أوافق عليه بسهولة.

وقد حسم هذا الموقف التردُّد الذي كان لدى علا بين الخاطبين، وقررت اختيار حسام على بصيرة. ولعل هذا وافق هوى في الأسرة، نظرًا لمودتنا القديمة لأبوي حسام، ومن الخير أن يُصهر المرء إلى أسرة يعرفها وتعرفه، ويألفها وتألفه، ويكون هذا مزيدًا من الضمان لنجاح الزواج. وهذا لا يعني طعنًا أو تنقصًا من أسرة الخاطب الآخر، فقد كانوا نِعْم الناس، ونعْمت الأسرة، ولكن على كلٍّ حال ليس بيننا وبينها أي صلة من قبل.

على أن ابننا الطبيب الذي لم يقدَّر له نصيب مع ابنتي، ظلَّ على مودَّة دائمة معي إلى اليوم، ولم يتغيَّر وده القديم، فقد بدأ لله، وما كان لله دام واتصل. والزواج ـ كما يقولون ـ قسمة ونصيب.

خطبة عُلا وحفلة العقد

وفي أوائل شهر أغسطس ١٩٨٣ تمَّت الخطبة، وقرأنا الفاتحة، وقدمت «الشبكة» التي اعتادها المصريون.

وكان لا بدَّ أن نعقد العقد، ونحتفل بذلك احتفالاً يليق بمنزلة الأسرتين، ويكون فرصة لاجتماع الأصدقاء والأحباب في هذه المناسبة الطيبة.

وحددنا موعد الاحتفال بعد قليل في فندق «سونستا» بمدينة نصر، بعد أن عقدنا العقد في منزلنا، بحضور عدد من أقرباء العائلتين، على رأسهم جد العريس العالم الجليل الفقيه الحنفي الشيخ بدر متولي عبد الباسط، الذي طلبت منه أن يتولى العقد بنفسه ولكنه ـ لفضله وعُلوّ قدره ـ أبى، ووكَل إليّ هذه المهمة، رحمه الله.

وفي المساء ذهبنا إلى الاحتفال العام في «سونستا»، وقد خصَّصنا مكانًا للنساء داخل الفندق، ومكانًا للرجال حول حمامات السباحة، وقد لبَّى دعوتنا عدد كبير من رجال العلم والفكر، ورجالات الدعوة، والأصدقاء، بجوار عدد من الأهل والأقارب لكل من العروسين جاءوا من الريف، فكانت ليلة طيبة قرَّت بها العيون، وشبعت فيها البطون، وابتسمت فيها الثغور، وانشرحت فيها الصدور، وإن لم يكن فيها شيء مما تعوَّده كثير من المصريين من الأغاني والموسيقى، وربما الرقص أيضًا، فمثل هذا لا يليق بالداعيين، كما لا يليق بالمدعويين.

مراعاة العرف في عدم اختلاء الزوج بزوجته قبل حفل الزفاف

وكان أمام العروسين شهر يمكنهما أن يلتقيا فيه، بعد أن أصبحا زوجين شرعيين، ولا مانع أن يذهبا للتنزه أو التفرج وغير ذلك، على أن يصحبهما أحد أشقاء العروس أو شقيقاتها، رعايةً لما يقره العرف العام: أن الزوج لا يجوز له أن يختلي خلوة كاملة بزوجته، إلا بعد أن تترك بيت أبيها، وتذهب إلى بيته. وما يقره عرف الناس في ذلك لا ينكره الشرع، وقد قال الناظم:

والعرف في الشرع له اعتبار ... لذا عليه الحكم قد يدار

وفي منتصف سبتمبر كانت العودة إلى قطر، حيث ابتدأ العام الدراسي، ووجب عليّ أن أعود إلى كليتي بالدوحة،وصهرنا الدكتور علي خلف إلى كليته بجدّة، وتذهب علا إلى عملها الجديد..

وقد اتفقنا على أن يكون الزفاف في بداية الصيف القادم ١٩٨٤م إن شاء الله.

وقد تمَّ ذلك بحمد الله، كما اتفقنا، وعادت علا إلى قطر فترة من الزمن، لتقوم بالإجراءات اللازمة لدراسة الماجستير في أمريكا، وقد يسَّر الله تعالى الأسباب، وسهَّل الصِّعاب، وتقرَّرت بعثتها إلى أمريكا من دولة قطر، وسافرت هي وزوجها إلى تكساس، لتدرس هي تخصص «البيولوجيا» حول هندسة الوراثة، ويدرس زوجها تخصص «إدارة المشاريع الهندسية».. ودعونا الله لهما بالتوفيق.

زواج ابنتي أسماء

أعجب من الآباء الذين لا يقلقون لزواج بناتهم، ولا يبالون أتأخَّر بهم القطار أم أسرع. وأعجب منه: أن يعوق بعض الآباء زواج ابنته لغير ضرورات شرعيَّة، وبعضهم لأهداف شخصية: كأن تظلَّ معه لتقوم بخدمته، والأسوأ من ذلك أن يعوق زواجها لأغراض مادية: كأن يستفيد من راتبها، لأنها موظفة.

ولو كانت الأبوة تُسحب لوجب أن تسحب من هؤلاء القساة. وفي برنامج «هدي الإسلام» الذي أقدِّمه في تليفزيون قطر منذ أول السبعينيَّات من القرن العشرين،، تأتيني باستمرار شكاوى من بنات يذرفن الدموع حزنًا وألمًا، من تصرُّفات آبائهن، وأحيانًا أمهاتهن، الذين يقفون في وجه زواجهنّ من رجال أكفاء تقدَّموا لهن، لا ينقصهم دين ولا خلق، ولا قدرة مالية، ولا منزلة اجتماعية.

مع أن الحديث النبوي يجابههم بقوله الصريح: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[1].

---

(١) رواه الترمذي في النكاح (١٠٨٤)، عن أبي هريرة.

تأخُّر زواج أسماء

أقول هذه بمناسبة زواج ابنتي الصغرى أسماء. لقد كانت هي أول من خطبها خاطب، وهي لا تزال في المرحلة الإعدادية، ثم شاء الله أن تتخرج، وأن تتأخر نسبيًا في زواجها. لقد تقدَّم إليها أكثر من واحد، ولكن لم أجد فيهم الرجل المناسب لها، ولا أحبُّ أن أتعجَّل زواج ابنتي مِمَّن لا أثق به وأطمئنّ إليه مائة في المائة.. هذه طريقتي، وكلٌّ شيخ له طريقته.

وحتى أكون صادقًا مع نفسي، لقد تقدَّم شاب مصري، من شباب الصحوة الإسلامية، تخرَّج حديثًا في كلية الطب، ووالده لواء في الجيش المصري، هو يريد أن يصاهرني، أن يتزوج إحدى بناتي، وإن لم يرها، وكانت ابنتي الثالثة «عُلا» قد خُطبت، ولم يبْق إلا ابنتي الصغرى الرابعة أسماء، وأمام تخرجها سنتان، فقال: أنا لست مستعجلًا، أنا مستعدّ أن أنتظر سنتين وأكثر.

ولم أعطه وعدًا صريحًا، ولكن الشاب الكريم ظلَّ ينتظر، حتى إذا عرف بتخرج أسماء، أرسل إليَّ يذكِّرني بطلبه أو أرسل أحد إخوانه بذلك، لا أذكر تمامًا، ولكن وجدت أن وجوده في مصر، ووجود ابنتي في قطر، وارتباطها بجامعة قطر، وانتظارها التعيين في كليتها معيدة أو أخصائية علمية، يعوق ارتباطها بشاب يعيش في مصر.

لهذا اعتذرت بلطف للشاب النبيل، الذي لم ير ابنتي، ولم يهتم بذلك كثيرًا، وكأنه مطمئن إلى أنها ستعجبه! وإني لا أزال ألومُ نفسي كلما تذكرت موقفي مع ذلك الشاب النبيل، الذي ظلَّ ينتظر ابنتي ولم يكن رآها، وأكرر اعتذاري إليه، وأدعو الله أن يكون قد عوَّضه بزوجة تكون خيرًا له من ابنتي.

ولأني أعتبر نفسي السبب في تأخيرها إلى حدٍّ ما، لذا كنت في غاية القلق، كلما مرَّت عليها سنة، ولم يهيئ الله لها الزوج الصالح.

ونحن نقول في المثل: «كلُّ تأخيرة وفيها خيرة، وكلُّ شيء بأوان. ويقول القرآن: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

الصهر الرابع الدكتور هشام علي المرسي

فعندما جاء الأوان، تقدم ابن الحلال الذي كنا ننتظره.. إنه الشاب الحركيُّ الصالح الدكتور هشام المرسي علي المرسي، الذي ارتبط منذ صباه بالحركة الإسلامية، وله فيها نشاط ملموس، ووالده أخونا وصديقنا الدكتور المرسي علي المرسي: رجل ملتزم محبوب من كلٍّ من يعرفه من أهل قطر والمقيمين فيها. وقد كان طبيبًا مثاليًّا بالصحة المدرسية، التابعة لوزارة التربية والتعليم، وكان يقوم بواجبه خير قيام.. ثم استقال، وأنشأ عيادة خاصّة، فأقبل عليه الناس من كل الفئات والمستويات، لأنه طبيبٌ بارع في تخصُّصه، وهو طبُّ الأطفال، ولأنه رجل صالح يعتقد الناس أنه رجل مبارك، يجري الله على يديه الشفاء، وزوجته صديقة لزوجتي، وبنته صديقة لبناتي.

ولذا رحَّبت بهشام، ورحَّبت الأسرة كلُّها به، وعلى طريقتنا كان لا بد أن يرى مخطوبته وتراه، ويحدثها وتحدثه، حتى يتعرف كلاهما على الآخر، حتى يُؤْدم بينهما، وتبذر بذور المودة بهذه الرؤية وهذا اللقاء.

والمهم أن ابننا هشامًا قد تكفّل أن يأتي إلى عروسه بالشبكة التي يراها تستحقها، وكان في ذلك نبيلا كريما.

وقد تمَّت الإجراءات بسرعة، وأعلنت الخطوبة.

عقد ابنتي أسماء وزفافها

وفي ثاني أيام عيد الفطر (٢ شوال ١٤١٠هـ) تم العقد، في منزلنا بالدفنة ـ كما تُسمَّى في قطر ـ ودعي الأحبة من طرفي العائلتين إلى وليمة العرس، كما هي السنة.

وقبل إجازة الصيف تمَّ الزفاف بحمد الله.

وبهذا تمَّ زواج بناتي الأربع جميعًا، من أزواج كلهم خيار من خيار.

أسأل الله لهنّ جميعًا: السعادة في حياتهن، وأن يقر أعينهن بالذرية الصالحة، إنه سميع الدعاء.

أحفادي من بناتي وأبنائي

والآن وأنا أكتب هذا الجزء الرابع من المذكّرات، لدى ابنتي إلهام من الذريَّة: محمد وإيناس وأميرة ويوسف.. وقد تزوَّج محمد، وندعو الله أن يرزقه بالذرية الطيبة.. ولدى سهام: سُها وعمر وضحى، وقد خطبت سُها، ونسأل الله أن يتمَّ عليها بخير[1]. ولدى عُلا: أحمد وآية وتُقى، وقد تزوَّجت آية، وأنجبت «جَنَى»، وبهذا أصبحت جدًّا ثانيًا، كما أصبحت زوجتي أم محمد جدة ثانية.

ولدى أسماء: ابنتها «يسر». أحد عشر من الأحفاد، وكلهم من بناتي.

وقد تزوَّج فيما بعد ابني الأكبر محمد، وأنجب طفلين هما: يوسف وفيصل.. وتزوج أسامة، وأنجب طفلة سماها جميلة، وهي فعلًا كاسمها، ثم أنجب أخرى سماها: ليلى. وتزوج عبد الرحمن، ونرجو الله أن يرزقه من الذرية ما تقر به عينه. وأن يحفظ جميع الأحفاد والحفيدات، ويكتب لهم التوفيق والسعادة.

وعندي كذلك سبع ماجستيرات، وأربع دكتوراهات: ثلاثة من إنجلترا، لإلهام وسهام وأسماء، كلها في العلوم، والرابعة من أمريكا لمحمد في الهندسة الميكانيكية، الماجستيرات لعلا وعبد الرحمن وأسامة. وفَّق الله الجميع، وبارك لهم في شهاداتهم ووظائفهم وحياتهم.

---

(١) قد تم زواجها بحمد الله، وسافرت مع زوجها، د. آدم خضر إلى أمريكا.

رحلة إلى أمريكا وأحداث سبتمبر في مصر ١٩٨١م

في شهر سبتمبر سنة ١٩٨١م كنت في رحلة إلى أمريكا، بدعوة من اتحاد الطلبة المسلمين «WSE» لحضور مؤتمرهم السنوي. وكان مؤتمرهم من قبل يعقد في أواخر مايو من كل عام، أي في أواخر العام الدراسي بالنسبة لي، فكان توقيته أنسب لأستاذ جامعي مثلي. ولكن الإخوة في أمريكا غيروا الموعد تبعًا لتغيير مواعيد الإجازات التي كانت تمكنهم من إقامة هذا اللقاء، حيث توجد عدة أيام إجازة متصلة.

وكنت على العادة أحضر المؤتمر ثم أقوم بجولة في بعض الولايات في طريق عودتي إلى المشرق. وفي أحد الأيام كنت مدعوًّا مع عدد من الإخوة للغداء عند أحد الإخوة من طلاب السعودية، لا أذكر اسمه الآن، وفوجئنا بأحد الإخوة يبلغنا بخبر شدَّ انتباهنا، وأفزع قلوبنا، قال: إنه سمع من الإذاعة أن الرئيس السادات أمر باعتقال عدد كبير من القيادات الإسلامية والوطنية من رجال الأحزاب والمعارضة السياسية، مثل فؤاد سراج الدين، وعمر التلمساني وكثيرين، في بداية مواجهة مع القوى المصرية المعارضة، وأن عهد الحرية والانفتاح قد ولى، وأن الجو أصبح مكهربًا، ولا يعلم إلا الله ماذا تكون العواقب.

أُصبنا جميعا بالوجوم، ووقع النبأ علينا كالصاعقة.. ولقد كنا نعلم أن الجو متوتر في مصر، ولكن لم نكن نتوقع أن السادات سيقدم على هذه الخطوة، ويعود بمصر إلى عهد المعتقلات المفتوحة لكل معارض، والتي كان يفاخر بأنه أغلقها إلى الأبد!

كنا في حاجة إلى معرفة المزيد من الأخبار والتفصيلات، حتى تتضح لنا الصورة، ونعرف ما يجري في ديارنا.. وقال أحد الإخوة: بعد أقل من ساعة ستأتي نشرة الأخبار

في التلفزيون الأمريكي، وأعتقد أنها ستبثُّ علينا تفصيلًا أكثر مما جاء في إذاعة الخبر لأول مرة.

وظللنا نتحدث إلى أن جاء وقت الغداء، ودعينا إلى المائدة، وفي أثناء تناولنا لطعامنا، تذكّر أحد الإخوة، وقال: نسينا موعد النشرة التي بدأت من دقائق، افتحوا التليفزيون. ودهش الجميع عندما فوجئوا بصورة شيخ في التلفزيون يخطب في جمع كبير، وجمّ غفير. وقالوا: انظروا! هذه صورة الشيخ «يوسف» يخطب في ميدان عابدين بالقاهرة. وفعلًا عرض التلفاز عدة لقطات لهذا المشهد: مشهد صلاة العيد الشهيرة في ميدان عابدين. لقطة للمصلين وهم سجود. ولقطة أخرى لي وأنا أخطب الجموع. ولقطة ثالثة للأخ الشاب الدكتور حلمي الجزار أمير طلاب الجماعة الإسلامية بجامعة القاهرة، وقد قدمته ليلقي كلمة الشباب.

ثم صورة أخرى للشيخ عبد الحميد كشك ـ رحمه الله ـ الخطيب المصري الأزهري الكفيف، الذي انتشرت أشرطة خطبه في مصر خاصة، وفي أنحاء العالم الإسلامي عامة، وكانت له طريقته الخاصة في التحريك والإثارة، كما له عشاقه الكثيرون.

كان التلفاز الأمريكي يتحدث عن الصحوة الإسلامية في مصر، والعناصر المؤثرة فيها. وكانوا يرصدون كل شيء عنها، ويعلمون علم اليقين أنها لو مضت في طريقها، وهُيِّئت لها السُّبل، ووجدت من الحكماء من يرشد مسيرتها، لأمكن لها أن تغيِّر المنطقة تغييرًا جذريًّا، تغييرًا ينبع من الداخل، ولا يفرض من الخارج، تغييرا يبدأ بإصلاح الأنفس أو إصلاح ما بالأنفس، وهو الأساس الحقيقي لكل تغيير، وفق السُّنَّة الثابتة التي قررها القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

يمكن أن يبدأ التغيير في مصر، لتكون النموذج المحتذى، ثم ينتقل إلى البلاد العربية الأخرى، ومنها إلى البلاد الإسلامية.

ومن المعروف: أن مصر رائدة في الخير، كما أنها رائدة في الشر، والقوم فيما وراء البحار يعلمون ذلك، ويدركون قدرة مصر على التأثير فيما حولها، وقدرة الإسلام على التغيير إذا أُحسن فهمه، وأُحسن تطبيقه. لهذا عُنُوا عناية بالغة ومكثفة بالصحوة الإسلامية التي فاجأتهم بظهورها وامتدادها وحيويتها، وتأثيرها في الشباب المثقف خاصة

في الجامعات المدنية والدينية، بل المدنية قبل الدينية، ولم يقتصر تأثيرها على الذكور، حتى أثرت في الفتيات، فبدأن يخلعن ـ باختيارهن ـ الثياب والأزياء التي استوردنها من الحضارة الغربية، التي سرن وراءها عقودا من الزمن، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، ويرتدين «الخمار» أو الطرحة أو «الإيشارب» وهو الذي أطلقوا عليه اسم «الحجاب».

إنها حركة نسائية طوعية اختيارية للمرأة المسلمة، بدأت في مصر، ثم انتقلت إلى غيرها، نتيجة طبيعية لتغيُّر وعي الفتاة المسلمة بدينها، وشعورها بذاتها، وواجبها نحو ربها ونفسها.

وكان القوم في أمريكا يدركون خطورة ما يجري في مصر، ويرصدونه ويدرسونه، وكم عقدوا عشرات الندوات، بل مئاتها، وكلفوا مراكز الأبحاث المختلفة بدراسة هذه الظاهرة الأصيلة والقوية والمثيرة ـ وربما المفزعة لديهم ـ ظاهرة الصحوة الإسلامية، ومعرفة أسبابها ودوافعها ومؤثراتها، ونقاط القوة، ونقاط الضعف فيها، وحاضرها ومستقبلها.

لهذا لم يكن عجبًا أن أرى صورتي في تليفزيون أمريكا، ضمن تقرير عن الصحوة في مصر، وأنشطتها المتميِّزة، ومنها: صلاة العيد في عابدين، التي كان ينظمها شباب الصحوة ويظهرون بها قوتهم، وقدرتهم على التجميع والتنظيم، وقد كان مئات الألوف يجتمعون وينصرفون في هدوء وسلام دون أن يحدث ما يعكر الصفو.

وقال لي الإخوة: الحمد لله، حيث لم تكن في القاهرة، وإلا فربما كنت الآن بين هؤلاء المعتقلين.

فقلت لهم: أحمد الله، لقد نجاني سبحانه من محنة ١٩٦٥م بفضل من عنده، حيث لم أنزل في ذلك الصيف من الدوحة إلى القاهرة، وقد نجاني هذه المرة أيضًا.. ونحن لا نتمنى البلاء، ونسأل الله العافية، فإذا وقع البلاء سألنا الله تعالى الصبر عليه. وفي الحديث المتفق عليه: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٤٤) ومسلم (٣٢٧٦) كلاهما في الجهاد والسير عن عبد الله بن أبي أوفى.

أحسب أني لم أطل المكث كثيرًا في أمريكا بعد هذه الأحداث، إذ كان لا بد لي من أن أعود إلى قطر، لأكون قريبًا من الأحداث، التي قد تتسع وتتطور، وقد تفرض علينا أعباء وواجبات. وإن كنت أدعو الله تعالى ألا يتورط السادات فيما تورط فيه عبد الناصر، وينتقل إلى «جلاد» للشعب وللأحرار والشرفاء فيه. وبهذا يخسر رصيده الذي كان له عند المصريين، الذين ساندوه في تصفية مراكز القوى، حين وجدوه متجهًا إلى إطلاق الحريات، وإنهاء الاعتقال، والمناداة بسيادة القانون.

هل كان تغيير السادات اتجاهه من نصير للحرية إلى سجَّان كبير أو مضيق على الحريات: انبثاقا من ذاته، وبدوافع من داخله، أو كان بتأثير من الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، أعني: الشيطان الأمريكي؟!

هل خوّفه الشيطان الوسواس الأمريكي من خطر المد الإسلامي والوطني والقومي الحر وتزايد بروزه وقوته، والأولى مفاجأته بضربة عاجلة قبل أن يستفحل ويتطاير شره، ويتضاعف خطره، ويصعب تداركه؟!

ليس هذا بمستبعد، بل هو المتوقع، وخصوصًا بعد توقيع اتفاقية «كامب ديفيد» والمصالحة المنفردة مع إسرائيل، وكأن القوم أرادوا أن يعزلوه عن الشعب المصري، بعد أن عزلوه عن الشعب العربي كله!

على أن السادات في السنوات الأخيرة من حكمه قد بدا عليه تغير كثير في حديثه وفي سلوكه وفي علاقاته، نتيجة الغرور والانتفاخ الذي أصابه بعد حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ أو السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، ونتيجة عمل الآلة الإعلامية الجبارة المجندة لتفخيم الرؤساء، بل لإضفاء لون من التأليه عليهم، بحيث لا يحاسبون على ما يخطئون، ولا يسألون عما يفعلون! وسنعود إلى الحديث عن هذا، عند تقييمنا لعهد السادات بعد مقتله.

الشيخ الغزالي في قطر

عدت إلى الدوحة، لأمارس عملي في عمادة كلية الشريعة، وكان من أهم ما شغلني في تلك الفترة هو: مصير شيخنا الشيخ محمد الغزالي، فقد كنت أعلم أن العلاقة بينه وبين السادات كانت رديئة، وقد اتهمه على الملأ بأنه مثير فتنة، وداعيةُ طائفيةٍ، وهي تهمة كاذبة تنادي على نفسها بالبطلان؛ فكل من يعرف الشيخ الغزالي قارئًا أو مستمعًا أو معايشًا، يوقن أنها عارية عن الصحة تمامًا.

وقد علمت أن الشيخ عندما وقع الاعتقال لم يكن في القاهرة، وأظنه كان في الجزائر وقتها، وقد أرسلت إليه من قطر: إن كلية الشريعة ترحِّب بك، وإن مكانك محفوظ بين إخوانك وتلاميذك، ولا ضرورة لأن تعود إلى مصر.

واتفقت مع أ. د. إبراهيم كاظم مدير الجامعة: أن نتعامل معه باعتباره أستاذًا زائرًا، ليظل في الفندق مقضي الحاجات، بخلاف ما لو كان متعاقدًا وأعطي له سكن كبقية الأساتذة، فهو في حاجة إلى من يطهو له طعامه، ويغسل له ثيابه، وينظف له فراشه... إلخ. والشيخ بعد أن توفِّيت زوجته أم أولاده، أصبح وحيدًا، ولم يتح له أن يجد رفيقة أخرى لحياته. فالأليق به أن يعامل معاملة الأساتذة الزائرين، الذين يعيشون في الفنادق على حساب الجامعة طوال مدة زيارتهم. كل ما في الأمر: أن هذه زيارة قد تطول، على خلاف العادة، ولا بأس بذلك؛ فهو داعية عصره، ووحيد دهره، الشيخ الغزالي.

وفعلاً قَدِم الشيخ الغزالي إلى قطر، وكان ذلك في بداية السنة الدراسية ١٩٨١م - ١٩٨٢م. واستقبله الجميع بفرح وترحاب، كما يستقبل الغيث المبارك بعد جدب.. فرح به أساتذة الجامعة، وفرح به الطلاب، وفرح به أهل قطر، وفرحت به شخصيًّا؛ فقد كنت

أحبُّ الغزالي من قديم، وأعتبره من ألسنة الصدق، وأقلام الحق، وسيوف الدعوة، التي يذود الله بها عن دينه، في مواجهة الكائدين للإسلام، والمفترين عليه، والمحرفين له، والمشوِّهين لوجهه الجميل، بسوء الفهم له، وسوء العرض له.. كان هو الداعية الأول للإسلام الحق في ذلك الوقت، فوجوده بيننا مغنم كبير، ومكسب عظيم.

في فندق الواحة

نزل الشيخ الغزالي في فندق الواحة، وخُصِّص له فيه جناح فسيح، ليستقبل فيه زوَّاره ومحبيه، وهم كُثر. والغزالي رجل مُحبَّب لكلٍّ من لقيه وعايشه، فهو رجل هين لين متواضع، موطأ الأكناف، حلو اللسان، طيب العشرة، باسم الثغر، طلق المحيا، فكه الحديث «ابن نكتة» على طريقة المصريين الظرفاء بالفطرة، لا تجده يومًا مقطب الجبين، أو عابس الوجه، إلا إذا كان ذلك لبلاء وقع بالمسلمين في أي مكان، أو شكا إليه مسلم من المشكلات والنوازل ما لا يملك له حلاًّ، فهو يألم لألم الناس، ويفرح لفرح الناس.

وكان صاحب فندق الواحة صديقنا وصديقه «الشيخ قاسم درويش فخرو رحمه الله» يوصي موظفي الفندق، بالحرص على خدمة الشيخ، والإسراع بتلبية كل ما يطلبه، وعدم التلكؤ أو التباطؤ في إجابة طلباته. وكان الموظفون والعمال يتنافسون في خدمة الشيخ، ويتقربون إلى الله بذلك. وإذا طلب شيئًا تسابقوا ليفوز أحدهم بذلك، وبذل جهده وهو قرير العين. إنها نعمة من الله تعالى: أن يحبك الناس لله وحده، لا لمال، ولا لجاه، ولا لدنيا، وما كان لله دام واتصل.

ظلَّ الشيخ الغزالي في قطر ثلاث سنوات دراسية كاملة: يدرّس في الجامعة، ويخطب في الجامع، ويحاضر في الأندية، ويلقى الناس في مجلسه اليومي، بعد العصر، فيجيب السائل، ويعلم الجاهل، ويردع المتعالم، ويثبّت المتحيِّر.

موقف من المتعالمين

وكان يزوره بعض الشباب من المتعالمين الذين قرءوا بعض الكتب في الحديث أو التفسير، ثم خُيِّل إليهم أنهم أمسوا أعلم الناس بالسنة، أو أعرف الناس بالإسلام،

وبات كل منهم يرى نفسه وكأنه «شيخ الإسلام»! والحقيقة أنهم لم يدرسوا العلم على شيوخه، ولم يعرفوه من جذوره.. لم يدرسوا الفقه وأصوله، لم يدرسوا النحو والصرف والبلاغة، لم يتعمقوا في فهم تراث الأمة بمدارسه المختلفة.. إنما هم أسرى الرأي الواحد، والمذهب الواحد، والشيخ الواحد. هم أسرى الألفاظ والظواهر، أو الحرْفية النصية.. لم يلتفتوا يومًا إلى فقه «المقاصد» أو فقه «المآلات» أو فقه «الموازنات» أو فقه «الأولويات».. وقد سميتهم في بعض ما كتبت «الظاهرية الجدد»، أخذوا من الظاهرية حرفيتهم وجمودهم، ولم يأخذوا منهم سعة علمهم.

هؤلاء كثيرًا ما أتعبوا الشيخ الغزالي بمجادلاتهم العقيمة، ومقولاتهم السطحية، وكثيرًا ما ضاق بهم ذرعًا، وأوسعهم نقدًا، وسلط عليهم قلمه البليغ، يسخر من غبائهم، وفقههم الأعرج، الذي عبر عنه في بعض كتبه بأنه فقه بدوي!!

أتعب هؤلاء الشيخ عندما كان في قطر، وأتعبوه قبل ذلك عندما كان في مكة المكرمة بجامعة أم القرى، وأتعبوه بعد ذلك عندما ذهب إلى الجزائر، ليرأس المجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بمدينة قسنطينة.

موقفه من التديُّن المغلوط

ولا عجب أن وجَّه الشيخ جلَّ جهده في سنواته الأخيرة لمطاردة هؤلاء، وكشف عوارهم، والتحذير من تدينهم المغلوط، ابتداء من شرح الأصول العشرين، بكتابه «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين»، ومرورًا بكتاب «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية» و«هموم داعية» و«علل وأدوية» و«الطريق من هنا» و«الحق المر» وغيرها.

وحدته بعد وفاة زوجته

كان الذي يقلق الشيخ، ويؤثر في نفسه، وإن لم يصرح بذلك: وحدته بعد وفاة زوجته وأم أبنائه وبناته. وكان يتمنى أن يوفق إلى امرأة مناسبة له، تؤنس وحشته، وتملأ عليه

حياته، وتكون سندًا له في أواخر عمره. ولكن القدر لم يحقق له ما يريد وقد مر بتجربة قصيرة لم يحالفها التوفيق.

ومن المعروف: أن المرأة ـ بعد وفاة زوجها ـ يمكن أن تعيش وحدها بلا رجل. ولكن من الصعب على الرجل بعد وفاة زوجته أن يعيش وحده؛ فحاجة الرجل إلى المرأة أكثر من حاجة المرأة إلى الرجل، ولا سيما في حالة الكبر.

الحج سنة ١٤٠١هـ (١٩٨١م) ومقتل السادات

وفي موسم حج سنة ١٤٠١هـ «١٩٨١م» دعيت لموسم الحج من رابطة العالم الإسلامي، فلبّيت الدعوة شاكرًا، واصطحبت معي زوجتي «أم محمد»، وابنتيّ «إلهام وسهام»، بعد أن حصلتا على البكالوريوس بامتياز، وعُيِّنتا معيدتين في كلية العلوم بجامعة قطر، رأيت أن أكافئهما على تفوقهما، بأن أتيح لهما أداء فريضة الحج هذا العام، فتنعما بالتيسيرات التي تقدمها لنا الرابطة بما لديها من إمكانات.

وهيأت لنا الرابطة: حجرتين في مبناها المعروف بمنى: حجرة لي ولزوجتي، وحجرة لابنتيّ.

وقد كنا نوينا العمرة، ونحن في الطائرة، وإن كنت أجيز أن نؤخر لبس ملابس الإحرام بعد نزول جدة، كما هو رأي العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية في قطر، الذي كتب رسالة بديعة في ذلك، أيدته فيها برسالة تقريظ بعثت بها إليه، ولكني لم أجد مشقة في الإحرام من الطائرة، كما أن زوجتي وابنتيّ لم يجدن أي مشقة في ذلك، كما هو شأن النساء في الإحرام، فليس عليهن أن يغيِّرن ثيابهن. فإحرامهنّ في الطائرة لا مشقة فيه؛ لأنه مجرد النية والتلبية.

كانت نيتنا: التمتع بالعمرة إلى الحج، فبعد أن أدينا مناسك العمرة تحللنا، وقصرنا، والسنة لمن تمتع أن يقصّر بعد العمرة، وإذا أراد حلق الرأس فليؤخره إلى الحج، أما المرأة فليس لها إلا التقصير، إذ الحلق ليس من شأنها، وهو يكره لها، وربما حرم.

بقينا بعد العمرة عدة أيام في مبنى الرابطة بمنى، نصلِّي فيها الصلوات الخمس، وهم

يؤدونها جماعة في الرابطة، ومعلوم أن منى من الحرم، فالصلاة فيها كالصلاة في الحرم، ومع هذا قد هيئوا لنا السيارات لمن يريد أن يصلي في الحرم.

وفي يوم التروية ـ الثامن من ذي الحجة ـ أحرمنا بالحج من حيث نقيم في منى، كما علمتنا السنة النبوية، وحين يحرم الإنسان بالحج يشعر بأنه قد انتقل من حالة إلى حالة. إن مجرَّد النية والتلبية «لبيك اللهم حجا» يدخل الإنسان في حالة روحانية، تجعله يحلِّق في أجواء عالية من الربانية، ذاكرًا الله بقلبه ولسانه، مستحضرًا الآخرة بين عينيه، مستغفرًا لربه من كل ذنب وقع فيه، مرطبًا لسانه بالدعاء إلى الله تعالى لنفسه ولأهله ولمن يحب وللمؤمنين والمؤمنات، بل هو يسأل الله الهداية والنور والسلام للناس جميعا.

مقتل السادات

وفي يوم التروية، وبعد صلاة الظهر على ما أذكر، نزلت مع العائلة، نمشي في طرقات منى، لا أذكر: إلى أيِّ مكان كنا ذاهبين؟ وفي أثناء سيرنا أحسسنا بهرج ومرج وحركة غير عادية، وكلام بين الناس بعضهم وبعض، مما يوحي بأن حدثًا غير عادي قد وقع، فسألنا: ماذا حدث؟! فقالوا: أطلق الرصاص على السادات وهو على المنصة، وقد نقل إلى المستشفى، ولا تعرف تفاصيل حتى الآن.

أسرعنا بالعودة إلى مبنى الرابطة، لنتابع الأمر من خلال التلفاز والمذياع. فالحدث خطير، ولا بد من تتبعه والإحاطة بتفاصيله، وما يجدّ فيه أولاً بأول.

ثم بدأت بعد ذلك إذاعة القاهرة، وصوت العرب، ومحطة تليفزيون القاهرة: تذيع النبأ على الناس، وخصوصًا بعد أن نقل السادات إلى المستشفى وعرف أنه فارق الحياة.

وعرف من التفاصيل ما حدث في العرض العسكري، وتوقف بعض السيارات المشاركة في العرض أمام المنصة، وقد نزل منها ضباط وجنود يحملون الرشاشات ويتَّجهون إلى المنصَّة، قاصدين الرئيس السادات بالذات، حتى قيل: إنهم وجدوا نائب الرئيس في ذلك الوقت حسني مبارك، فلم يمسوه بسوء، وقالوا: لا حاجة لنا فيك! وأنهوا مهمتهم بسرعة، ولم يُغْن الحراس شيئًا: لا حراس الجيش، ولا حراس

المخابرات، ولا حراس الداخلية، ولا الحرس الخاص. كل هؤلاء ارتبكوا وعجزوا. ونفَّذ الشاب المكلف بالمهمة ـ وقد عرف فيما بعد أن اسمه: «خالد الإسلامبولي» ـ ما هدف إليه. وكان يمكنه ومن معه أن يقتلوا عددًا أكبر ممن على المنصة، لو أرادوا، ولكنهم كانوا مكلفين بمهمة محددة، هي التخلص من الرئيس السادات، فقاموا بها، واقتصروا عليها.

في هذا اليوم الذي تلهج فيه ألسنة المحرمين بالحج بالإكثار من التلبية والتهليل والتكبير والتحميد والتسبيح والاستغفار: أمسى شغل الناس الشاغل: الحديث عن المقتل المرِّوع وما جرى فيه، وكيف انقلب العرس إلى مأتم، وتحولت ذكرى الانتصار إلى حداد؟!

يالله! كم بين الحياة والموت؟ إنَّ الناس يتخيَّلون بينهم وبين الموت مسافات ومسافات، تبعد وتقرب، وتطول وتقصر، بمقدار طول أملهم في الحياة وقصره. وكلما غرق الإنسان في لجج الحياة الدنيا وزخرفها، أو كلما غرَّته الأماني أو غرَّه بالله الغرور، أو أطغاه المال أو السلطان: رأى الموت بعيدًا عنه، ونظر إلى نفسه كأنه مخلَّد في الدنيا، حتى تفاجئه الحقيقة المذهلة: أن الموت أصدق غائب ينتظر، وأنه أقرب إلى الإنسان من لمح البصر، كما قال الشاعر:

كل امرئ مُصبَّح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله!

وكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ (النحل:٧٧).

روى البخاري، عن ابن عمر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، وعدّ نفسك من أهل القبور». وكان ابن عمر يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من دنياك لآخرتك، ومن حياتك لموتك[١].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٦) عن ابن عمر.

كلمة حول فقه العنف

لقد أثار مقتل الرئيس السادات على يد واحد من رجال إحدى «جماعات العنف» الإسلامية ورفقائه: جدلاً ونقاشًا واسعًا حول فكر هذه الجماعات الديني، وفقهها الذي تستند إليه في عملياتها ضد الحكومات، وضد السياح وغيرهم.

ومن الناس من رفض مناقشتهم، على اعتبار أنهم ليس لهم منطق إلا القوة، وليس لهم منطلق شرعي أو أخلاقي أو قانوني يعتمدون عليه.

والواقع أن هذا تبسيط مخل بحقيقة القضية، فالقوم ـ أيا كان انتماؤهم ـ لهم فقه مزعوم، يستندون إليه، ويدعمونه بالآيات من القرآن الكريم، وبالأحاديث من السنة النبوية، ومن أقوال العلماء من المذاهب المتبوعة ومن خارجها.

ولا بدَّ لكلٍّ من يريد إقناعهم، أو ردهم عن أفكارهم: أن يناقشهم في مفاهيمهم التي تبنوها، ومبادئهم التي آمنوا بها، وأدلتهم التي يسوقونها حُجَّة لهم في تبرير ما صنعوا.

وهم ليسوا جماعة واحدة، بل هم أكثر من جماعة، يختلفون في طرائقهم، وبعض أفكارهم، ولكنهم جميعًا يتخذون من العنف (أي: القوة العسكرية) طريقًا لتحقيق الأهداف.

فهناك «جماعة المسلمين»، وهي التي عرفت عند الناس بـ«جماعة التكفير والهجرة»، وهي تكفّر الناس بالجملة، تكفّر الأفراد، وتكفر المجتمعات.. تكفر الحكام، لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله، وتكفر المحكومين، لأنهم رضوا بهؤلاء الحكام ولم يكفروهم، وتكفّر العلماء، لأنهم لم يكفروا الفريقين.

وهم يبدؤون بالتكفير، وينتهون بالقتل والتفجير.. فما دام الشخص كافرا، فهو يستحق القتل ودمه مباح، إذ الكفر وحده عندهم يبيح الدم.

وهؤلاء هم الذين استباحوا دم الشيخ الذهبي رحمه الله، سواء كانوا هم الذين قتلوه، كما تقول الحكومة أم غيرهم هو الذي قتله، فهم أعلنوا سعادتهم بقتله!

وهناك الجماعات التي أطلقت على نفسها: اسم «جماعة الجهاد». وقد بدأت ـ على ما أعلم ـ في «مصر»، وانتقلت إلى غيرها من البلدان مثل «الجزائر» وغيرها.

وصنوهم «الجماعة الإسلامية» التي نشأت في مصر، بزعامة العالم الأزهري الضرير الشيخ عمر عبد الرحمن المسجون في أمريكا، فرَّج الله عنه.

وهناك: «السلفية الجهادية» التي ظهرت في عدد من الأقطار العربية والإسلامية، مثل: المغرب والجزائر، والسعودية، وغيرها.

ومن المعلوم: أن السلفية توصف بالتشدد في مجال العقيدة، ولاسيما ما يتعلق بالتوحيد والشرك، في مواجهة القبوريين ومقدِّسي الأولياء، وكذلك ما يتعلق بآيات الصفات وأحاديث الصفات، وموقفهم ضد الأشاعرة والماتريدية وغيرهم، وكثيرًا ما يغلب عليهم الحرفية والجمود في مجال الفقه والاستنباط.

فإذا أضيف إلى هذا التشدُّد والحرفية والجمود: الجانب العسكري، أو جانب القوة والعنف، أصبحت هذه السلفية تمثل خطرا مزدوجًا. خطرًا فكريًّا، وخطرًا عمليًّا.

وإذا أردنا أن نعيد الأمور إلى جذورها في شأن هذه الجماعات كلها: رددناها جميعا إلى فكر «الخوارج الغلاة» الذين عُرفوا بطول عبادتهم لله، وكثرة صيامهم وقيامهم وتلاوتهم، فهم صُوّام قوام عبّاد قرّاء للقرآن. ولكنهم يستحلون دماء من سواهم من المسلمين، اعتمادا على متشابهات من النصوص، تاركين المحكمات من كتاب الله وسنة رسوله. فآفتهم ليست في ضمائرهم أو قلوبهم، ولكن آفتهم في رؤوسهم وأفهامهم.

ومن هنا وصفتهم الأحاديث النبوية الصحاح بقولها: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقراءته إلى قراءتهم، وصيامه إلى صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم

من الرمية»[1]. حتى رأيناهم استباحوا دم ابن الإسلام البكر، زوج فاطمة البتول، وابن عم الرسول، وسيف الإسلام المسلول: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتقربوا إلى الله بقتله، ومدح شاعرهم قاتله بقوله:

يا ضربةً من تقيّ ما أراد بها … إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوما فأحسبه … أوفى البرية عند الله ميزانا!

وأخيرًا هناك «تنظيم القاعدة»، وهو يضم عناصر متنوعة الجذور، مستمدة من تلك الجماعات كلها، وانصهرت في بوتقة القاعدة، والتزمت بخططها، وبالعمل تحت قيادتها.

إن فقه جماعات العنف، يقوم على أن الحكومات المعاصرة: حكومات كافرة، لأنها لم تحكم بما أنزل الله، واستبدلت بشريعته المنزلة من الخالق: القوانين التي وضعها المخلوق، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤)، وبهذا: وجب الحكم عليهم بالكفر والردة، والخروج من الملة، ووجب قتالها حتى تدع السلطة لغيرها؛ إذ كفرت كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان.

ويؤكد فقه هذه الجماعات، كفر هذه الأنظمة الحاكمة، بأمر آخر، وهو: أنها توالي أعداء الله من الكفار، الذين يكيدون للمسلمين، وتعادي أولياء الله من دعاة الإسلام، الذين ينادون بتحكيم شرع الله تعالى، وتضطهدهم وتؤذيهم. والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (المائدة:٥١).

والحكومات المعاصرة: تعارض هذه التهم بدعاوى مختلفة، منها: أنها تعلن أن دينها الرسمي هو الإسلام، وأنهم ينشئون المساجد لإقامة الصلاة، ويعيّنون الأئمة والخطباء والمؤذّنين، ويؤسسون المعاهد الدينية، والكليات الشرعية، ويوظفون الوعاظ ومدرّسي الدين في المدارس وغيرها، ويحتفلون برمضان وعيدي الفطر والأضحى، ويذيعون تلاوة القرآن في الإذاعات والتلفازات، إلى غير ذلك: من المظاهر الدينية، التي تثبت إسلامية الدولة بوجه من الوجوه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل الأعمال (٥٠٥٨). ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، عن أبي سعيد.

كما أن بعض دساتير هذه البلاد يعلن: أن الشريعة مصدر أو المصدر الرئيسي للتقنين. وبعضها: يعتذر بضعفه أمام قوى الضغط الغربي، وبعضها... وبعضها..

فتوى ابن تيمية

كما تعتمد جماعات العنف: على فتوى الإمام ابن تيمية في قتال كل فئة تمتنع عن أداء شريعة ظاهرة متواترة من شرائع الإسلام ـ كالصلاة أو الزكاة ـ أو الحكم بما أنزل الله: في الدماء والأموال والأعراض، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى آخره. وهو ما اعتمد عليه كتاب «الفريضة الغائبة» لجماعة الجهاد، وجعل هذه الفتوى: الأساس النظري لقيام الجماعة، وتسويغ أعمالها كلها.

ويستدلون هنا: بقتال أبي بكر ومن معه من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لمانعي الزكاة.

فكيف بمن يمتنعون عن تطبيق أكثر أحكام الشريعة، برغم مطالبة جماهير الناس بها، وخصوصًا العلماء والدعاة، بل هم أشد الناس خصومة لهؤلاء، وتضييقًا عليهم، ومعاداة لهم؟!

ونسي هؤلاء أن الذي يقاتل هذه الفئة الممتنعة ولي الأمر، وليس عموم الناس، وإلا أصبح الأمر فوضى!

وتعتمد جماعات العنف أيضًا: على أن هذه الأنظمة غير شرعية، لأنها لم تقم على أساس شرعي من اختيار جماهير الناس لها، أو اختيار أهل الحل والعقد، وبيعة عموم الناس، فهي تفتقد الرضا العام، الذي هو أساس الشرعية، وإنما قامت على أسنة الرماح بالتغلب والسيف والعنف، وما قام بقوة السيف: يجب أن يقاوم بسيف القوة، ولا يمكن أن يقاوم السيف بالقلم!

ونسي هؤلاء ما قاله فقهاؤنا من قديم: أن التغلب هو إحدى طرائق الوصول إلى السلطة، إذا استقرّ له الوضع، ودان له الناس.

وهذا ما فعله عبد الملك بن مروان، بعد انتصاره على ابن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ

وقد أقره الناس، ومنهم بعض الصحابة: مثل ابن عمر وأنس وغيرهما، حقنًا للدماء، ومنعًا للفتنة، وقد قيل: سلطان غشوم، خير من فتنة تدوم.

وهذا من واقعية الفقه الإسلامي، ورعايته لتغير الظروف.

وترى جماعات العنف كذلك: أن هذه المنكرات الظاهرة السافـــرة التي تبيحها هذه الحكومات، من الخمر، والميسر، والزنى، والربا والخلاعة والمجون، في وسائل الإعلام، وسائر المحظورات الشرعية: يجب أن تغير بالقوة لمن يـملك القوة، وهي ترى أنها تملكها، فلا يسقط الوجوب عنها التغيير باللسان بدل اليد، كما في الحديث الشهير: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه»[1].

ويغفل هؤلاء: الضوابط والشروط اللازمة لتغيير المنكر بالقوة، التي قررها العلماء، ومنها: ألا يترتَّب على تغيير المنكر منكر أشد منه.

وبعض هذه الجماعات تنظر إلى المجتمع كله: أنه يأخذ حكم هذه الأنظمة التي والاها ورضي بها، وسكت عنها، ولم يحكم بكفرها، والقاعدة التي يزعمونها: أن من لم يكفر الكافر فهو كافر!

وبهذا توسَّعوا وغلوا في «التكفير»، وكفروا الناس بالجملة.

وعلى هذا: لا يبالون من يُقتل من هؤلاء المدنيين، الذين لا ناقة لهم في الحكومة ولا جمل: لأنهم كفروا فحلت دماؤهم وأموالهم.

كما يرون بالنظر إلى الأقليات غير المسلمة: أنهم نقضوا العهد، بعدم أدائهم للجزية، وبتأييدهم لأولئك الحكام المرتدين، وأنظمتهم الوضعية، ولرفضهم للشريعة الإسلامية. وبهذا لم يعد لهم في أعناق المسلمين عهد ولا ذمة، وحل دمهم ومالهم. وبهذا استحلوا سرقة محلات الذهب: من الأقباط في مصر، كما استحلوا سرقة بعض المسلمين أيضًا. وغفل هؤلاء عن اجتهادات فقهاء المسلمين في عصرنا، وأنهم أصبحوا «مواطنين» لهم حقوق المواطنة؛ لأنهم من أهل دار الإسلام بإجماع الفقهاء. وكلمة «من أهل الدار» تقابل كلمة «مواطن».

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٤٩)، عن أبي سعيد.

وهم يرون أن السياح وأمثالهم، الذين يدخلون بلاد المسلمين بتأشيرات رسمية، وترخيصات قانونية، والذين يعدّهم الفقهاء «مستأمَنين» ولو كانت دولهم محاربة للمسلمين، يرون هؤلاء مُسْتَباحي الدم، لأنـهم لم يأخـذوا الإذن من دولة شـرعية، ولأن بلادهم نفسها: محاربة للإسلام، فلا عهد بينهم وبين المسلمين. والواجب: أن يقاتل هؤلاء ويقتلوا، فلا عصمة لدمائهم وأموالهم!! وجهل هؤلاء أن أيَّ مسـلم ـ ولو كان امرأة ـ يعطيهم الأمان، فإن أمانه نافذ، والمدار على ما يعتبرونه هم أمانًا.

وكذلك يقول هؤلاء عن الدول الغربية ـ التي يقيم بعض هؤلاء فيها ـ وقد أعطتهم: حقّ الأمان، أو حقّ اللجوء السياسي: لمن طردوا من بلادهم الأصلية، فآوتهم هذه الدول من تشرُّد، وأطعمتهم من جوع، وآمنتهم من خوف.

يقول هؤلاء بكل جرأة وتبجُّح: إنَّ هذه الدول كلها كافرة، محاربة للإسلام وأمته، ويجب أن نقاتلهم جميعًا حتى يُسْلموا فَيَسْلَموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ولما سُئل بعضهم عن إقامته في هذه البلاد، قال: إنها كدورة المياه، نستخدمها للضرورة رغم نجاستها.

وهؤلاء الكفار: دماؤهم حلال للمسلمين، بنصوص الدين.

ويذكرون هنا آيات وأحاديث: يضعونها في غير موضعها، فإذا واجهتهم بغيرها: من الآيات والأحاديث، التي هي أكثر منها وأظهر وأصرح، قالوا لك: هذه نسختها آية السيف!

هذا هو فقه جماعات العنف باختصار، الذي على أساسه ارتكبوا ما ارتكبوا من مجازر تشيب لهولها الولدان، وتقشعر من بشاعتها الأبدان: ضد مواطنيهم من مسلمين وغير مسلمين، وضد السياح وغيرهم من الأجانب المسالمين.

وهو بلا ريب: فقه أعوج، وفهم أعرج، يعتوره الخلل والخطل، من كل جانب:

أ: خلل في فقه التكفير.

ب: وخلل في فقه الجهاد.

جـ: وخلل في فقه الخروج على الحكام.

د: وخلل في فقه تغيير المنكر بالقوة.

ويحتاج من فقهاء الأمة إلى وقفة علمية متأنية، لمناقشتهم في أفكارهم هذه، والرد عليهم فيما أخطأوا فيه، في ضوء الأدلة الشرعية من القرآن والسنة وإجماع الأمة، في إطار مقاصد الشريعة الكلية، ومبادئ الإسلام العامة.

وقد ناقشنا هذه الجماعات وفقهها في أكثر من كتاب لنا، وخصوصًا كتاب «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد» فصل «من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة».

كما أصَّلنا القضية وفصلناها وأعطيناها حقَّها من المناقشة والمقارنة في كتابنا الكبير «فقه الجهاد».

هل العنف إسلامي؟

ونريد أن نسأل هنا سؤالا، وهو: هل العنف ظاهرة إسلامية؟

ونقول: إن الإعلام الغربي عامة، والأمريكي خاصة، يوهم العالم أن العنف يحمل الجنسية الإسلامية، وأن الإسلام بعقيدته وشريعته يفرز «العنف»! وأن المسلمين بطبيعتهم الدينية أهل عنف.

وهذا ولا شك تحامل على الإسلام وأمته وقرآنه ونبيه وشريعته.

فالإسلام دين الرفق، وليس دين العنف، ودين الرحمة وليس دين النقمة، ودين اللين والرقّة، وليس دين الغلظة والقسوة.

وأشهر أسماء الله عند المسلمين: الرحمن الرحيم، وليس المنتقم الجبار، كما يروج أعداء الإسلام.

واسم «الجبار» ذكر في القرآن مرة واحدة، واسم الرحمن الرحيم افتتحت به ـ كما نرى في المصحف ـ ١١٣ مائة وثلاث عشرة سورة، غير ما ذكر داخل السور.

والمسلمون يبدؤون أكلهم وشربهم وسائر أعمالهم بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، والمسلمون يرحمون الناس ليرحمهم الرحمن، وبعبارة أخرى: يرحمون من في الأرض ليرحمهم من في السماء.

والعنف الذي وقع من بعض المسلمين، يرجع في كثير منه إلى الغرب ومظالمه المستمرة على أمة الإسلام. ويكفي خلقه إسرائيل من العدم، على أنقاض أهل فلسطين، ومساندته لها منذ قيامها إلى اليوم، وتشجيعها على الظلم والعدوان الدائم على أهل البلاد.

ومع هذا وجدنا العنف والإرهاب في كل بلاد الدنيا: في الشرق والغرب، في الشمال والجنوب، في اليابان وفي أمريكا، وفي إسرائيل نفسها، وفي بريطانيا، وفي الهند، وفي غيرها من أقطار العالم.

ولم تتهم البروتستانتية بأنها صانعة الإرهاب في أمريكا، ولا الكاثوليكية بأنها صانعة الإرهاب في بريطانيا، ولا اليهودية بأنها صانعة الإرهاب في إسرائيل، ولا الهندوسية أو السيخية بأنها صانعة الإرهاب في الهند، فلماذا يتهم الإسلام وحده بأنه صانع العنف والإرهاب فيما قام به بعض المسلمين من حوادث؟

ربما يكون ذلك صحيحًا لو أقرَّهم المسلمون على ما فعلوه، ولكن العكس هو الصحيح، فالمسلمون عامة، وعلماؤهم خاصة، أنكروا عليهم، ونددوا بما صنعوا وحمّلوهم وزر ما عملوا. ولا تزر وازرة وزر أخرى.

هل العنف يحقق هدفا؟

على أننا لو ناقشنا العنف من غير ناحية شرعيّته، بل من ناحية فائدته وجدواه، اعتمادًا على مذهب «المنفعة» أو «البراغماتية» هل نجد العنف أفاد أصحابه؟ هل حققوا به أهدافهم النهائية أو المرحلية؟ هل جُنيت من ورائه ثمرة للصحوة الإسلامية، أو للدعوة الإسلامية، أو للأمة الإسلامية؟ والجواب بالنفي قطعا.

فالواقع الذي عايشناه يقول: إن العنف لم يغيِّر حكومة، ولم يسقط نظامًا، كما أراد

أصحابه. ولم نر الاغتيال السياسي، أو القتل العشوائي، أوالعمل التخريبي: غيَّر شيئًا في الأنظمة القائمة، التي أراد دعاة العنف ومستخدموه أن يغيروها، بل زادت الأنظمة تجبرًا وتفرعُنًا وعتوًّا.

والاغتيال السياسي الذي نجحوا في بعض محاولاته، لم يغيِّر شيئًا في واقع الأمر، كل ما حدث أن ذهب حاكم، وجاء حاكم آخر، والوضع كما هو، بل ربما كان أشد وأقسى مما قبله، حتى أصبح البيت الذي يتغنَّى به كثيرون قول الشاعر:

رُبَّ يـوم بكيت مـنـه، فلما صِرْتُ في غـيره بكيت عليه!

أو كما قال الشاعر الآخر:

دعوتُ على عِمرو، فمات، فسرّني فلما بلوت الغير نُحت على عمرو!

ثم إن الذي يمارس العنف، لا يستطيع أن يستمر فيه أبد الدهر. إنه يمارسه مدة تقصر أو تطول، ثم يتعب وييئس ويلقي سلاحه، ولم يجن من عنفه إلا ما سفك من دماء، وما دمر من ممتلكات، وما أضاع من جهود وأوقات، كلها جزء من العمر النفيس.

ولذا رأينا جماعات العنف في العالم بعد مدة من الزمن تحيل نفسها على «التقاعد».

فقه التغيير

وأريد لهؤلاء المتسرعين السطحيين من هواة العنف ـ الذين يريدون تغيير المجتمعات بالقنبلة والرشاش ـ أن يعرفوا أن للتغيير «فقهًا» يجب أن يطَّلعوا عليه. وأن التغيير المنشود الذي تنتقل به الأمم من الفساد إلى الصلاح، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الضعف إلى القوة، لا يتم بالانقلاب ولا بالسلاح. إنَّ له سننًا ثابتة لا بد أن تُرعى، فهو لا يتمُّ إلا بتغيير الإنسان من داخله، أي من عقله وضميره، وهذا يحتاج إلى منهج بعيد المدى، طويل النفس، واضح الأهداف، محدد المراحل، بيّن الطريق. ومحوره تغيير الأنفس أو ـ على حد تعبير القرآن ـ تغيير ما بالأنفس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع العرب: غيَّر ما بأنفسهم، فغيّر الله ما بهم. غيّر معتقداتهم ومفاهيمهم وأفكارهم وقيمهم، واهتماماتهم، وأهداف حياتهم، فأنشأهم خلقًا آخر، وأصبح عربيُّ الإسلام غيرَ عربيّ الجاهلية، في أهدافه وأخلاقه وسلوكه وعلاقاته. وبهذا انتقلوا من رعاة للغنم إلى رعاة للأمم، وأخرجوا الناس من عبادة الأشياء والأشخاص، إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَوْر الأديان والفلسفات إلى عدل الإسلام، ووسطية الإسلام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣). وأخرج الله بهم الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، الصِّراط الذي هدى إليه رسول الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٢، ٥٣).

مقارنة بين عهدي عبد الناصر والسادات

وقد يحلو لكثير من الناس أن يسألوا: هل يختلف عهد السادات عن عهد عبد الناصر؟ وما الفرق بينهما؟

ونقول هنا: اشترك العهدان في أن كليهما من ثمرات ثورة ٢٣ يوليو، المتحكِّمة في رقاب الشعب المصري، وإن اختلفا بعد ذلك في بعض الأمور المهمة.

عهد عبد الناصر عهد المصادرات والتضييق

كان عهد عبد الناصر: عهد التأميم والمصادرات، وتحويل جمهور الناس إلى فقراء. فقد أمسى الناس في عهده يشكون: أصحاب الأملاك يشكون؛ لأن أرضهم صودرت وأخذت منهم، والفلاحون يشكون، لأن إنتاجهم يباع ـ أو يشترى منهم ـ بأرخص الأثمان.

والرأسماليون يشكون؛ لأنهم حوربوا بدعوى أنهم مستغلون، وصودرت مصانعهم وممتلكاتهم، وتسلمتها أيد عاجزة في إدارتها، متّهمة في أمانتها.

والعمال يشكون، لأنهم لا يأخذون الأجر الكافي، الذي يلبُّون به حاجاتهم التي تكاثرت، ومطالب أولادهم التي لا تتوقف.

والتجار يشكون؛ لأنَّ القوة الشرائية ضعفت عند الناس، ولأن الحكومة تفرض عليهم من الضرائب ما يرهقهم عُسْرًا.

والموظفون يشكون، لأنَّ الرواتب التي يتقاضونها لا تكفي للوفاء باحتياجاتهم، واحتياجات أسرهم، مع غلاء الأشياء باستمرار. لهذا يضطرون أبدا إلى الاستدانة، والدَّيْن همٌّ بالليل، ومذلّة بالنهار!

والمعارضون من إسلاميين ووطنيين وحتى يساريين يشكون، لما أصابهم في أنفسهم وأهليهم وذويهم من محن وابتلاءات، ومحاكمات عسكرية، وتعذيبات وحشية، أدخلتهم السجون والمعتقلات بالألوف، وخصوصا الإسلاميين.

لا تكاد تجد أحدًا راضيًا عن معيشته وعن عمله، فهناك سخط عام، وغضب مكنون في الصدور، ولا يستطيع الناس أن ينفسوا عنه، لا بقلم ولا بلسان، ومن حاول ذلك اختطفته كلاب الصيد، فذهبت به إلى حيث لا يحس به أحد.

إنها الشكوى العامة التي تسمعها من كل لسان، وتلمسها في كل إنسان، وتحس بأثرها وصداها في كل مكان. الشكوى من الضيق الاقتصادي، والضيق السياسي.

وفي هذا الجو الخانق يسرّي الناس عن أنفسهم بالنكت، وينفسون بها عن مكنون صدورهم، وهناك أناس ينشئون النكتة، وآخرون يروجونها. وقد أجاد المصريون فنّ النكت السياسية، التي تُعتبر نوعًا من الدفاع عن الذات في مقابل ما يؤخذ من الناس من حقوق، وما يداس من حرمات، وما يسلب من حريات.

ويقولون: إن عبد الناصر كان يسأل باستمرار عن النكت الجديدة التي تؤلف في حقه، وكان أحيانًا يضحك منها، وأحيانًا يتألم.

كلمة إنصاف

لستُ من الذين ينكرون أيَّ فضل أو أيَّ أثر إيجابي لثورة ٢٣ يوليو، فهذا ينافي المبدأ الإسلامي الذي يوجِّه المسلم أن يعدل مع البعيد عدله مع القريب، ولا يمنعه شنآن من يبغض أن يتعامل معه بالعدل، كما لا يدفعه حبُّ مَن يحبُّ أن يحكم عليه بالعدل، فالمؤمن من شأنه إذا رضي ألا يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب ألا يخرجه غضبه

عن الحقِّ، وإنما يكون قوَّاما بالقسط شاهدًا لله، ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين، وكذلك مع خصومه وأعدائه.

ولا شك في أن ثورة يوليو خلَّصت الناس من الملكية التي انحرفت وزاد فسادها في سنيها الأخيرة، ومن الإقطاع المتجبِّر الذي جعل معظم الأرض في أيدي حفنة قليلة من الكبار، وأصبح الفلاحون أشبه بالعبيد عند هؤلاء، وغدا عجبا أن الذين يعملون لا يملكون، والذين يملكون لا يعملون!

كان أكثر الرأسماليين لايعطون العاملين حقوقهم، ولا يوفُّونهم أجورهم العادلة، لهذا كانت الطبقات العاملة هي الطبقات المستضعفة والمسحوقة في المجتمع المصري، ولا سيما طبقات العمال والفلاحين.

فلما قامت الثورة، رفعت شأن هذه الطبقات، وأتاحت لهم من فرص التعليم والعمل ما لم يكن متاحا من قبل، حتى إنها خصَّصت لهم نصف مقاعد مجلس الشعب.

عصر السادات عصر الانفتاح بلا ضوابط

ولما جاء السادات تغيَّر الحال عما كان في عهد عبد الناصر.

فقد انتقلت مصر من المصادرات والتأميم والتضييق إلى «الانفتاح». ولكنه كان انفتاحًا بلا قيود ولا ضوابط، فظهر رأسماليون جدد أو «باشوات» جدد، هم الذين سموهم «القطط السمان». هؤلاء الباشوات الجدد أصبح لهم ثروات الباشوات القدامى، وربما أضعافها، ولكن لم يكن لهم أصالة «الباشوات» ولا أخلاقهم ولا أعرافهم. كان الباشوات لهم بيوت مفتوحة، وأيد مبسوطة، وفضائل مرعية، وتقاليد متوارثة، ينتفع من ورائهم كثيرون.. وهؤلاء لأنفسهم فقط، لا ينتفع من ورائهم أحد، ولا سيما أنهم أثروا بسرعة البرق، لم يرثوا الثروة أبًا عن جد، ولم يكسبوها بكد اليمين وعرق الجبين، بل بطرق مليئة بالكذب والغش والخداع، واستغلال النفوذ، واستغفال القانون، واستخدام الرشا، حتى أصبح هؤلاء «حيتانًا» في بحر التجارة، تلتهم كل الأسماك الصغيرة، ولا يجرؤ أحد على أن يسائلها، فضلاً عن أن يعاقبها. وكل «حوت»

من هؤلاء كوّن له مملكة أو إقطاعية مالية يرتع فيها كيف يشاء، بلا رقيب ولا حسيب، حتى الضرائب التي يجب دفعها للدولة، له طرائقه في التخلص منها! وكل واحد من هؤلاء مسنود بصورة أو أخرى من السلطة الحاكمة، فهو قريب أو نسيب أو شريك لفلان أو فلانة، ممن يملك أن يحمي الظهر، ويشد الأزر! والمصريون يقولون: من له «ظهر» لا يضرب على بطنه!

فهذا مما عيب على عصر السادات، والدول لا تصلح بالانفتاح المطلق، ولا بالتضييق المطلق، ولكن بنهج وسط، يثير الحوافز، ويدفع إلى الإبداع، ويحرك عجلات التنمية والإنتاج الحقيقي، ولكن مع القيود التي تمنع من السرقة والنهب والاستغلال، ومع العدل الذي يمنح الفرص المتكافئة، ويعطي كل ذي حق حقه، ولا يوجد فيه أحد يعلو على القانون، أو يستغفل القانون.

وأمر آخر ظهر في عهد السادات، وهو: أنه وقع في شَرك «الديون» الأجنبية، وهذا كان أيضًا من آثار الانفتاح وسلبياته، ويبدو مما كتبه صديقنا الأستاذ عادل حسين رحمه الله عن ديون مصر في ذلك العهد: أن هذا أمر خططت له جهات معينة، وشبكة جهنمية، بيتت أمرها بليل، ورسمت خطتها بإحكام، لتوقع الدولة في هذا الفخ، فتخرج من دين إلى دين، وكل دين له تبعاته مما يُسمَّى خدمة الدَّيْن، فهو يحتاج في كل سنة إلى دفع الأقساط المطلوبة، ودفع الفوائد الربوية عليه. وهنا تعجز الميزانية، فتحتاج إلى أن تعالج هذا العجز بدين آخر، وهكذا، فتعالج داء بداء. وقد أدرك هذا شاعرنا العربي من قديم، فقال:

إذا ما قضيت الدَّيْن بالدَّيْن لم يكن ... قضاء، ولكن كان غرما على غرم!

ولادة الصحوة الإسلامية من رحم الحرية

على أن الشعب في عهد السادات ـ ولا سيما في السنوات الأولى ـ أحس الناس بأن القبضة الحديدية التي كانت تمسك بخناقهم، خفت عنهم، وأن الحرية بدأت تجد طريقها قليلاً قليلاً إلى الناس، وأن العمل الإسلامي بدأ يتحرك، وخصوصًا بين الشباب في الجامعات. وبهذا طفقت الصحوة الإسلامية تولد من رحم الحرية. ولا شيء ينعش الدعوة الإسلامية مثل جو الحرية.

وفاة الأستاذ محمد المبارك

في هذه السنة في شهر ديسمبر ١٩٨١م، الموافق صفر ١٤٠٢هـ توفي الكاتب والمفكر والداعية والمربي والسياسي الإسلامي المعروف الأستاذ محمد المبارك في المدينة المنورة.

الأستاذ المبارك أحد كبار العلماء السوريين، المجدّدين المعتدلين، الذين تتجلَّى في إنتاجهم الأصالة التي تُعبِّر عن ذاتيَّة الأمة، ورسالتها الإسلامية، والمعاصرة التي تعرف الغرب وثقافته ومدارسه المختلفة، نظرًا لمعرفته بالفرنسية.

تعرُّفي على الأستاذ المبارك

عرفت الأستاذ محمد المبارك صورة واسْمًا (صورة شمسية طبعًا) في سنة ١٩٤٨م، في سجل التعارف الإسلامي، في صفحة من صفحات مجلةٍ عزيزة علينا، كانت تصدر في مصر اسمها «الشهاب»، صدر منها خمسة أعداد فقط، ثم ذهب صاحبها ومؤسِّسها بيد الغدر، مؤسسها هو الإمام الشهيد «حسن البنا»، مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة في هذا الشرق العربي.

في مجلة الشهاب كان سجل التعارف الإسلامي، وكانت صورة وكان اسم، بل كانت صور وأسماء لعدد من الرجال العاملين في الحقل الإسلامي، وفي الفكر الإسلامي، في العالم الإسلامي، كان منهم اسم محمد المبارك، ورسم محمد المبارك.

ثم ظهرت بعض مؤلفات وبحوث للأستاذ محمد المبارك، فازددنا تعرفًا عليه وإعجابًا به وحبًّا له، ثم جمعتنا به الظروف فيما بعد في مصر، فازددنا إعجابًا به وتقديرًا له، وعرفنا

أنه من خيرة الرجال.. نقول ذلك ولا نزكّي على الله أحدًا. هناك من الأشخاص من تسمع عنهم، فإذا لقيتهم زهدتَ فيهم، لكن الأستاذ المبارك كان معنا كما قال الشاعر قديمًا:

كانت مُحَادَثَةُ الرُّكْبان تُنْبئنا ... عن جابر بن ربَاح أطيبَ الخَبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ ... أُذني بأحسَنَ ممَّا قد رأى بَصَري

تقريره عن كتابي «الحلال والحرام»

ثم عرفته أكثر حين أحال إليه أستاذنا الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف مسودة كتابي «الحلال والحرام في الإسلام» ليكتب تقريرًا عنه يتضمن رأيه فيه: هل يصلح أن يتبنّاه الأزهر ليترجم إلى اللغة الإنجليزية أو لا؟ وإنما اختاره الدكتور البهي لمعرفته بالثقافة الغربية، والعقلية الغربية بجوار ثقافته الإسلامية، وبهذا يملك القدرة على معرفة صلاحيَّة الكتاب لمخاطبة الغرب أو لا.

وقد كتب تقريرًا متميّزًا عن الكتاب، قال فيه: إنَّ المؤلف توخَّى فيه الاعتدال في أحكامه.

وقال: إنَّ الكتاب جيد في بابه، ضروري في موضوعه، وإذا استدركت فيه بعض الملاحظات كان خير كتاب في هذا الموضوع فيما أعلم.

وقد كان له بعض أسئلة واستفسارات سألني عنها، وأجبته عنها، وبعض أشياء ناقشني فيها، سلَّمت له ببعضها وعدَّلته، وبعضه سلَّم لي بها.

اجتماعي به مع الدكتور السباعي

ثم شاء الله أن يزور مصر، وأن يجمعني به الدكتور البهي، ويعرِّفني عليه، ويعرِّفه عليَّ، وكان هو مع علَّامةِ سوريةَ الأستاذ الشيخ الدكتور مصطفى السباعي، وقد صنع لهما الدكتور البهي حفل شاي تكريمًا لهما، وأبى فضله إلا أن أحضر معهما، برغم حداثة سنِّي، ودنوِّ مرتبتي الوظيفيَّة، وقد أهداني السباعي كتابه «السنة ومكانتها في التشريع».

• حاضرته في قاعة محمد عبده «نحو وعي إسلامي رشيد»

وبعد ذلك توثَّقت علاقتي بالأستاذ المبارك، بمناسبات شتى، وأول ما لقيته بعد ذلك بمناسبة محاضرته التي ألقاها في قاعة الشيخ محمد عبده، وكانت بعنوان: «نحو وعي إسلامي رشيد».

كلمته في كتابي «فقه الزكاة»

ومما لا أنساه للأستاذ المبارك ما كتبه عن كتابي «فقه الزكاة» في تقديمه كتابه عن «نظام الاقتصاد» الذي قال في تقدير منه:

«ومن الكتب الحديثة ما هو خاص بموضوع مُعيَّن، ومن هذا النوع كتاب «فقه الزكاة» للأستاذ يوسُف القَرَضاوى، وهو موسوعة فقهيَّة في الزكاة، استوعبت مسائلها القديمة والحديثة، وأحكامها النصيَّة والاجتهاديَّة على جميع المذاهب المعروفة المدوَّنة، لم يقتصر فيها على المذاهب الأربعة، مع ذكر الأدلة ومناقشتها. وعرض لما حَدَث من قضايا ومسائل، ومع نظرات تحليليَّة عميقة.. وهو بالجملة عمل تنوء بمثله المجامع الفقهية، ويُعتبر حَدَثًا هامًّا في التأليف الفقهي.. جزى الله مؤلفه خيرًا».

استدعاؤه لجامعة قطر

وبعد انتقاله إلى المملكة العربية السعوديَّة، ثم بعد أن أُسِّست جامعة قطر، استدعاه الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم كاظم مدير جامعة قطر، ليلقي محاضرات في علم الاجتماع، من وجهة نظر إسلامية، فألقى محاضرات ضمَّها كتابه: «نحو مجتمع إسلامي معاصر».

تقديمي لمحاضرته عن الإسلام والتنمية الصناعيَّة

وفي هذه الفترة ألقى محاضرته عن «الإسلام والتنمية الصناعية» وقد وكّل إليَّ الدكتور كاظم أن أتولّى تقديمه. وكان تقديمي المرتجل هو الذي قامت أسرة الأستاذ المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ بتفريغه، وقدَّمت به كتابه: «الإسلام والتيَّارات الفكرية العالمية».

وفي هذا قلت:

فيسعدني في هذه الليلة الطيبة أن أقدِّم إليكم، بالنيابة عن هذه الكلية الفتية، وعن اللجنة الثقافية بها، عَلَمًا من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، ورجلًا من رجالات العلم والدعوة إلى الإسلام، ذلكم هو الأستاذ الكبير: محمد المبارك.

والأستاذ محمد المبارك غنيٌّ عن التعريف، ولكن جَرَت العادة أن يقدِّم المقدِّم كل محاضر بنبذة عن حياته.

جمعه بين الثقافين الدينية والمدنية

الأستاذ المبارك من الذين جمعوا بين الثقافتين، وهذا هو العنصر المفقود الذي نشكو من ندرته، بل من فقدانه في حياتنا.

هناك أناس درسوا دراسة مدنية، وهناك أناس درسوا دراسة دينية، وبين الطائفتين فَجْوة أو جَفْوة، ولكنْ قليل من الناس من جَمَعَ بين الدراسة الدينية وبين الدراسة المدنية، من جَمَع بين القديم والحديث، بين علم الشرق وثقافة الغرب.. أحد هؤلاء كان الأستاذ المبارك، فقد درس على الطريقة القديمة، درس تلقيًا على الشيوخ، على الحلقة، درس على والده اللغوي الكبير العلامة الشيخ عبد القادر مبارك رحمه الله، فهو والحمد لله من أسرة علمية دينية، حيث كان والده وكان جدّه من علماء دمشق المعدودين.

دراسته ووظائفه

ودرس على كبار الشيوخ في دمشق علوم الدين واللغة، ثم درس الدراسة النظامية في المدارس الابتدائية والثانوية، ثم درس في الجامعة، حيث تخرج في كلية العلوم ومدرسة الآداب العليا في سنة ١٩٣٥م، ثم ذهب إلى باريس حيث بقي هناك ثلاث سنوات، فعاد منها بعد أن تخرّج في جامعة السوربون في الأدب والاجتماع، وعاد من يومها يعمل في حقل التربية والتعليم في المدارس الثانوية، ومفتشًا وعضوًا في اللجان الفنيّة المختصّة بالمناهج الخاصة بتدريس الدين واللغة العربية.

ثم انتقل بعد ذلك سنة ١٩٤٨م إلى الجامعة، حيث عمل مدرسًا بها، وعمل في كلية الشريعة من يوم تأسيسها برتبة أستاذ، ورئيسًا لقسم الأديان ومقارنة المذاهب ثم عميدًا لكلية الشريعة.

ثم انتقل من سورية إلى بلاد عديدة، حيث عمل في جامعة أم درمان الإسلامية في الدراسات الإسلامية، كما عمل في جامعة الملك عبد العزيز أستاذًا ومستشارًا، وعمل في كلية الشريعة بمكة أيضًا رئيسًا لقسم الشريعة.

مشاركته في التخطيط التربوي

وأسهم بنصيب ملحوظ في التخطيط التربوي، وفي العمل في المناهج والخطط التربوية فيما يتعلق بالدين واللغة والأدب في الثانويات الشرعية في سورية، وفي الثانويات العامة، وفي كلية الشريعة، في الأزهر - في عهد التطوير -، وفي جامعة أم درمان الإسلامية، وفي كلية الشريعة بمكة، وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وفي المعهد العالي بالرياض، في كل هذه المواطِن كان الأستاذ مبارك أحد الذين شاركوا في التخطيط والتوجيه والتأثير.

وقد اختير عضوًا في المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ إنشائها، كما أنه عضو بالمجمع العلمي العربي بدمشق.

لا أريد أن أحدِّثكم عن الأستاذ المبارك نائبًا لدمشق أو وزيرًا تولَّى الوزارات المختلفة، فالجانب السياسي لا يهمّنا كثيرًا في هذه الأمسية، إنما يهمّنا الجانب العلمي، ويهمّنا جانب النشاط الإسلامي..

عمله في حقل الدعوة الإسلامية

الأستاذ المبارك منذ ريعان الشباب كان يعمل في حقل الدعوة الإسلامية، وحينما ذهب سنة ١٩٣٥م إلى باريس كان مهتمًّا بالدعوة إلى الإسلام، وبالتيارات المعادية للإسلام، وبخاصة الشيوعية. كان يحضر مؤتمرات الشيوعيين، ويندسُّ فيهم على

أنه واحد منهم، وقد يظهر الموافقة على مقرَّراتهم حتى يعرف ما لديهم، فالإنسان لا يستطيع أن يحارب عدوًّا حتى يعرف ماذا عنده.

اشترك بنشاطه في رابطة علماء دمشق، واشترك في تأسيس عدد من الجمعيات الإسلامية، وكان له دور ملحوظ في العمل الإسلامي وفي الدعوة الإسلامية في سورية.

هذا هو الأستاذ محمد المبارك كعالم وكداعية وسياسي. وأحب أن أتحدّث عن الأستاذ المبارك كمفكّر. الحقيقة أننا قد نجد كثيرًا من الناس وعّاظًا أو دعاة، لكننا قلّما نجد الداعية العالم المتمكِّن، وقد تجد الداعية العالم، ولكنك قلّما تجد العالم المفكر الذي يفكر للإسلام ويفكر بالإسلام، أي يفكر بمنطق الإسلام، وبمنطلق من أصوله ونصوصه وروحه العامة، لكنّنا نحمد الله تعالى أن كان الأستاذ المبارك أحدَ الذين يفكرون بالإسلام ويفكرون للإسلام، وهكذا عاش لهذا الدين وعاش بهذا الدين.

هو أحد العقول القلائل في هذا العالم الإسلامي التي تفكِّر بالإسلام وتفكر للإسلام، ولو أحببنا أن نعدَّ عشرة عقول في العالم الإسلامي تفكر للإسلام وبالإسلام لكان الأستاذ المبارك من ألمعها، ونحمد الله على ذلك.

نظرته الشمولية للإسلام

إنَّ من خصائص تفكيرِ الأستاذ المبارك النظرة الشمولية للإسلام. إنّ عيبَ كثيرين أنهم يأخذون الإسلام مُجَزّأً، يأخذون جانبًا وينْسون جانبًا أو جوانب، ولكن الذين وفّقهم الله هم الذين ينظرون إلى الإسلامِ من جميع جوانبه، لا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، إنما يؤمنون بالكتاب كلّه وبالإسلام كله، فالإسلام وحدة لا تتجزأ، الإسلام كلٌّ شامل.

اقتراحه تدريس مادة «نظام الإسلام» في الجامعات

وهذه هي نظرة الأستاذ المبارك، وعلى هذا الأساس كان يتبنّى في كل ما شارك فيه من مناهج التربية في الجامعات الإسلامية والعربية.. كان يتبنّى فكرة تدريس مادة اقترح

أن تُسمّى «نظام الإسلام»، مادة يدرَّسُ فيها الإسلام كله كوحدة لا تتجزأ، اقترح ذلك في جامعة الأزهر، وفي جامعة أم درمان، وفي الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وفي جامعة الملك عبد العزيز، واقترح ذلك في كل جامعة شارك فيها.

مادة نظام الإسلام: أن يُنظر إلى الإسلام كلِّه شاملاً، ويُدرس على هذا الأساس.

وهو قد شارك في هذا وألّف في هذا بالفعل، وقد نال تأليفه في هذا الموضوع إعجاب كثيرين من أهل الشرق والغرب، وحتى من المستشرقين أنفسهم على قلَّة المنصفين منهم.. هذه النظرة الشاملة يتميَّز بها تفكير الأستاذ المبارك، ومؤلفات الأستاذ المبارك.

اعتداله وتوازنه

كذلك يتميز الأستاذ المبارك بالاعتدال، والتوازن.. إنه يجتهد أن يحكم بين المختلفين بالقسط، ولا يقف مع طرف ضدَّ طرف آخر.. إنه يحاول أن يقف الموقف الذي وصف الله به أمة الإسلام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

إنه في المواقف التي يقف الناس فيها عادة كلٌّ منهم في طرف يحارب الآخر، كمعارك الصوفية والسلفية، أو المذهبية واللامذهبية أو غير ذلك، نجده يقف الموقف المعتدل الذي ينبع من روح الإسلام، ومن فلسفة الإسلام، فلسفة الوسطية في الإسلام، وفلسفة التوازن في الإسلام.

دعوته إلى تسليف الصوفيين وتصويف السلفيين

ومن كلماته اللطيفة التي سمعتها منه أخيرًا أن يقول مع جماعة الصوفيين وجماعة السلفيين: «إن منهجي هو تسليف الصوفيين وتصويف السلفيين»، أي: إن هناك بعض السلفيّين فيهم نوع من الجفاف الروحي، وهناك كثير من الصوفية أيضًا فيهم من التخريف والبعد عن العقائد الصحيحة، فلا بدَّ من قَدْر مشترك، لا بدّ من أن تطعّم الصوفية بالسلفية المعتدلة المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، ولا بدّ أن تطعّم السلفية بقَدْر من الروحانّية المُشرقة المعتدلة. وهكذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن

القيّم، فهؤلاء لم يكونوا مجرَّد أناس مجادلين في العقائد، بل كانوا ربّانيين، أهل روحانية وإشراق.

على هذا المنهج سار الأستاذ المبارك، وأصدر بضعة عشر مؤلفاً، وما زال والحمد لله مستمرًّا في تأليفه.

ونسأل الله تعالى أن يبارك في عمره، وأن يؤيده بروح من لدنه، حتى نرى منه الكثير الطيّب.

أيها الإخوة: إنها فرصة طيبة أن نستمتع ونسعد بالأستاذ المبارك أستاذًا زائرًا لهذه الكلية، ومحاضرًا في هذه الليلة الطيبة، ونافعًا دائمًا ومباركًا كاسمه.. نسأل الله أن ينفع به، وأن يعزّه ويعزّ به، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كانت هذه كلمتي التي ارتجلتها في تقديم الأستاذ المبارك في محاضرته بكلية التربية في قطر. رحمة الله.

رحلة إلى نيجيريا مع الأمير محمد الفيصل آل سعود

في ٢٩ ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ الموافق ١٢/ ٢/ ١٩٨٢م دعانا الأمير محمد الفيصل آل سعود، رئيس مجلس إدارة بنك فيصل الإسلامي المصري والسوداني، ورئيس مجلس مشرفي دار المال الإسلامي، إلى أن نصحبه في رحلة بطائرة خاصة إلى نيجيريا في إفريقيا السوداء، وكان بصحبته عدد غير قليل من أعضاء مجالس الإدارات والمشرفين، وأعضاء هيئة الرقابة الشرعية.

وقد أوصى الأمير بوجوب الاتصال بي، وإقناعي بضرورة الحضور والمشاركة في هذه الرحلة، والتغلب على كل المعوقات.

والحقيقة أني كنت حريصًا على المشاركة في هذه الرحلة، فعلى الرغم من أسفاري المتواصلة إلى أنحاء العالم لم تأخذ إفريقيا السوداء حقها مني، كما ينبغي، وليس ذلك عن قصد أو تعمُّد مني، لذلك حين وجدت هذه الفرصة لم يسعني أن أغيب عنها.

من جدة إلى أديس أبابا

وكان تجمعنا في مدينة جدة، لنأخذ منها الطائرة الخاصة، وهي طائرة كبيرة، لا أدري أكانت معارة أم مستأجرة. وكان معنا الأخ الإعلامي الكبير الأستاذ أحمد فراج، الأمين العام لاتحاد الإذاعات الإسلامية، والدكتور عمر عبد الرحمن عزام، والأستاذ محفوظ عزام، والشيخ محمد خاطر، والأخ نبيل عبد الإله نصيف، وكثيرون لم أعد أذكرهم.

وبعد عدة ساعات وصلت الطائرة إلى مطار أديس أبابا عاصمة إثيوبيا، أو كما نسميها نحن: الحبشة. وحطَّت بنا الطائرة لنبيت بها، وهي أول مرة أزور فيها إثيوبيا،

وكان يحكمها النظام الماركسي، ولذا كانت تماثيل لينين وماركس وغيرهما منصوبة في الشوارع.

وقد وجدنا في أديس أبابا مناطق يبدو عليها أنها تعيش إلى حد ما في هذا العصر، ومناطق أخرى لا ترى فيها غير الفقر والمرض والجهل والأمية وكل مظاهر التخلف. وكأنها هي من بقايا القرون القديمة. وقلت للإخوة: نريد أن نذهب إلى أحد المساجد الجامعة هنا لنصلي معهم العشاء، فدلونا على الجامع الكبير في إثيوبيا، وهو من أقدم الجوامع، وحين دخلنا، وجدنا الناس يقرءون القرآن في حلقات، عاكفين عليها. حتى جاء وقت العشاء، وأذن المؤذن، واصطف الناس للصلاة.. ولما رآني الناس أقبلوا عليَّ، وطلبوا مني أن ألقي عليهم كلمة بعد الصلاة، وهم لا يعرفون عني إلا أني من علماء الأزهر، وأني ضيف على المدينة. وبعضهم عرفني، فبدأ يقول لزملائه: هذا فلان، مؤلف كتاب «الحلال والحرام» و«فقه الزكاة»، وكذا وكذا.

وبعد الصلاة ألقيت فيهم كلمة توجيهية عامة، أذكر منها: أني قلت لهم: إن بلدكم هو أول بلد دخله الإسلام في إفريقيا، قبل مصر وغيرها، وهو المهجر الأول للمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة، وهو بلد النجاشي الذي شرَّفه الله بالإسلام، ومات عليه، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بالمدينة، وأخذ منه مشروعية الصلاة على الغائب.. وبعد كلمتي جاءني بعض الشباب، وقالوا: إن هنا جيلاً من الشباب تتلمذ على كتبك، ونحن منهم، وليت عندك فرصة للبقاء بعد هذه الليلة فنجمع عددًا منهم ليلتقوا بك غدًا. قلت: إني أتمنّى ذلك ويسعدني، ولكني مرتبط بمجموعة ولا أستطيع التأخر عنهم.

وبعد أن تناولنا الغداء في اليوم التالي في أديس أبابا، استقللنا طائرتنا لنكمل المشوار إلى جمهورية نيجيريا.

وكنا في فصل الشتاء، ولما رآني الإخوة في جدة متدرعًا بالصوف، قالوا: هل أحضرت معك بعض الملابس البيضاء؟ قلت: لا. قالوا: إن الجو في نيجيريا حار، ولا بد أن تصحب معك بعض الملابس الصيفية، وإلا فلن تطيق لبس شيء من ملابس الشتاء هناك. وأذكر أن بعض الإخوة أهداني جلبابين من عنده، إذ لم يكن هناك وقت لشراء القماش وتفصيله. وهاتان «الدشداشتان» هما اللتان نفعتاني طوال المدة التي أقمناها في نيجيريا.

في مدينة «كانو»

نزلنا في مدينة «كانو»، وهي أكبر مدينة من حيث عدد السكان، وتقع في شمال نيچيريا وكان نزولنا في فندق هو من أحسن فنادقها، ولكنه على قدر حاله: متواضع في كل شيء: في فراشه، وفي مأكله، في مشربه، وفي خدماته.

وكانوا يحذّروننا أن نأكل أي شيء دون غسله تمامًا، أو الاطمئنان إلى طهيه، حتى لا نصاب بالأمراض المنتشرة في تلك البلاد.. والواقع أني عشت تلك الأيام متقشفا، أقنع بالقليل، وآخذ بالمثل القائل: القناعة كنز لا يفنى.

وما كنا نشبع إلا إذا عزمنا بعضهم يومًا على طعام في بيته، ونادرًا ما حدث هذا مثل دعوة السيد إبراهيم الطيب الريح، وهو سوداني الأصل من التجار الكبار، الذين يقيمون في نيجيريا من مدة طويلة، وله فيها أعمال كثيرة وشبكة من العلاقات.

حاولت أن أتعرّف على نيجيريا من خلال لقائي ببعض الشباب الذي درس في الأزهر وغيره من البلاد العربية، أو الذي درس في المدارس العربية المحلية، ومنهم من وصلتهم كتبي وقرأها، على الرغم من أنَّ الصلة تكاد تكون منقطعة بين بلاد العرب وهذه البلاد، وهذه مشكلة تحتاج إلى حل. فحدثوني عن كثير من أوضاعهم الداخلية، وخصوصًا ما يتعلق بالدين.

حملات التنصير

ونيجيريا تعتبر أكبر دولة في إفريقيا من حيث عدد السكان، ومساحتها أصغر من مساحة مصر، وأغلبية سكانها مسلمون، ولذا ركزت الصليبية الغربية عليها، وتداعت عليها حملات التنصير المدعومة بالمال الغربي، والعلم الغربي، والمكر الغربي، وقد كان الاستعمار والتنصير على تفاهم تام وتعاون مطلق في الغزو الديني لبلاد المسلمين. حتى سمَّاه بعضهم: الاستعمار التنصيري، كما سمَّى التنصير: التنصير الاستعماري.

وقد رأيت التنصير في نيجيريا ـ كما وجدته في إندونيسيا من قبل ـ ينجح بالفعل في تنصير بعض المسلمين، فينتقل من محمد وأحمد وعلي وحسن، إلى جورج وجون وشارل،

ونحوها. وهو ما لا يطمع فيه التنصير في البلاد العربية. ولهذا يكتفي فيها بزعزعة ثقة المسلم بالإسلام، وإن لم يدخل في النصرانية.

رأينا بعض المحلات تحمل أسماء أولها نصراني وآخرها مسلم، حتى إن أحد الجنرالات النصارى الذين حكموا نيجيريا عسكريا في بعض الأوقات، كان من قبيلة مسلمة.

وقد وجدت أن إندونيسيا ونيجيريا تتشابهان في أمور كثيرة.

١ ـ فكل منهما أكبر بلد في قارته بلا نزاع: إندونيسيا في آسيا، ونيجيريا في إفريقيا.

٢ ـ وكل منهما أغلبيته مسلمة، فهو جزء من العالم الإسلامي.

٣ ـ وكلاهما بلد بترولي، وفيه ثروات مذخورة لم تستغل تماما.

٤ ـ وسكان البلدين يعانون الفقر والمرض والتخلف، مع وجود الثروة.

٥ ـ وكلا البلدين يركز عليه التنصير، ويكثف جهوده لتغيير هُويته، حتى يفقد طابعه الإسلامي، حتى إن المنصِّرين كانوا في وقت ما، وضعوا خطة لتنصير إندونيسيا في خمسين عاما!

٦ ـ وكلاهما نجح التنصير فيه إلى حدّ ما، حتى إن بعض الناس يكون اسمه شارل جون محمد أو أحمد، على معنى أن جده مسلم.

٧ ـ وكلا البلدين، شجَّعت الصليبية فيه: انتشار الشيوعية، وهي معادية للغرب، ولكن إذا خُيِّر الغرب بين الشيوعية والإسلام، فإنه سيقف في صف الشيوعية. ولذا كان في إندونيسيا أكبر حزب شيوعي في آسيا، وكان في نيجيريا حزب شيوعي من أكبر الأحزاب في إفريقيا.

وقد حاولت القوى الصليبية فصل شرقي نيجيريا عن بقيتها، في وقت من الأوقات، لتجزئة هذا البلد الكبير، كما هي سياسة الاستعمار الصليبي دائما: التجزئة والتفريق.

الأنشطة التي قمت بها في «كانو»

وفي أيامنا القليلة التي بقيناها في «كانو» قمنا ببعض الأنشطة على قدر ما سمح به الوقت والظرف الذي يحيط بنا.

فقد ألقيت محاضرة في جامعة «أحمدوبللو»، وهي تحمل اسم الزعيم المسلم الشهير،

الذي ربط نيجيريا بالعالم العربي والإسلامي، وكان رمزًا للإسلام الحي المتحرك، ولذلك قتلوه، كما قتلوا كل زعيم يتحرك باسم الإسلام: مثل حسن البنا، وعبد القادر عودة، وسيد قطب، ومالكولم إكس، وعدنان مندريس، وفيصل بن عبد العزيز وغيرهم.

كما ألقيت خطبة الجمعة في أحد مساجدهم، وترجم أحدهم خلاصتها، ولا أدري: أسجلت هذه الخطبة أم لا؟ أكبر ظنّي أنها سجلت، ولكن أين ذهب هذا التسجيل؟

وبعد الخطبة دعانا منشئ هذا المسجد إلى الغداء في منزله، واسمه على ما أذكر: محمد الخامس، فقد كان أبوه ـ واسمه إسحاق على ما أذكر ـ يسمي كل أبنائه محمدًا: محمد الأول، ومحمد الثاني، إلى هذا (محمد الخامس). وقد كان أمير المنطقة وسلطانها ـ وهو غير المحافظ والوالي الرسمي ـ وقد أقام احتفالاً شعبيًّا كبيرًا ـ على الطريقة الإفريقية ـ طاف بالمدينة، ابتهاجًا بالأمير محمد الفيصل ورفاقه من العلماء والدعاة والاقتصاديين.

وفي هذه الفترة، ذهب الأمير محمد، ومعه وفد من رفاقه للقاء رئيس الجمهورية، وذلك في مدينة «لاجوس»، وكانت لا تزال هي العاصمة، قبل أن تنقل إلى «أبوجا». وكنت ضمن الوفد، وكان لقاء وديًّا، رحَّب الرئيس النيجيري فيه بالأمير ورفاقه، وقدَّر له مسيرته في قيادة العمل المصرفي الإسلامي، وقد أهدى له الأمير محمد: سيفًا من السيوف العربية. وأهداه الرئيس: رأسًا ذا قرنين كبيرين، من حيوانات إفريقيا الشهيرة.

الإسهام في عمل خيري

وأراد الأمير أن يكون لنا إسهام في عمل خيري، يستفيد به أبناء نيجيريا، ففتح الباب للمتبرعين، وكان معنا بعض رجال البر الذين تبرعوا بمبالغ كبيرة، وقد قالوا لي: نعفيك أنت والشيخ خاطر من المساهمة في هذا المشروع. وقلت لهم: لا والله بل أشارك فيه بما أستطيع. وشاركت فيه بألفي دولار، سلَّمتها لهم بعد عودتي. ولا أعلم بعد ذلك: أنجح المشروع أم لا.

زيارة الهند مع د. عبد العظيم الديب ود. علي المحمدي

كان من أهم أهداف مركز بحوث السنة والسيرة الذي تبنته جامعة قطر: أن ننشئ مكتبة جامعة لمصادر السنة والسيرة، وأن تحتوي على ما يمكن من المخطوطات أو مصوراتها.

وقد قررت الجامعة: أن يذهب وفد يمثل المركز لزيارة مكتبات الهند الشهيرة، ويتعرَّف على ما فيها من كنوز علمية تفيد المركز في أداء رسالته.

وكان الوفد يتكون مني ومن الأخ الدكتور عبد العظيم الديب الأستاذ بكلية الشريعة، وعضو مجلس إدارة المركز، والابن الحبيب علي يوسف المحمدي، المدرس المساعد بالكلية، والذي يحضر رسالة الدكتوراه بكلية الشريعة بالأزهر، وكان السفر في أواخر شهر فبراير من سنة ١٩٨٢م.

في لكهنو

كانت محطتنا الأولى هي لكهنو، وفيها ندوة العلماء ورئيسها الداعية الإسلامي الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي، ودار علومها، وكلياتها المختلفة.. وقد وصلنا إلى دلهي أولا، ومنها استقللنا الطائرة الداخلية إلى لكهنو، ولكن عندما وصلنا إلى لكنهو، لم نجد فيها أحدًا نلقاه، لا السيد أبا الحسن، ولا الشيخ محمد الرابع ابن أخته، ولا الشيخ سعيد الأعظمي رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي، فكلهم قد ذهبوا إلى «أعظم كَرَه» التي فيها «دار المصنفين» الشهيرة، وهي منشأة علمية أسسها العلامة شبلي النعماني رحمه الله.

«أعظم كره»

و«أعظم كَرَه» هذه هي التي ينسب إليها كثير من علماء الهند، مثل المحدث الكبير المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، والصديق الجليل الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، الحاصل على جائزة الملك فيصل في خدمة السنة.

وهذه غير أعظمية بغداد، التي ينسب لها بعض من نعرفهم من العلماء والأدباء مثل الشاعر وليد الأعظمي.

فأعظمية بغداد نسبة إلى حي «الأعظمية» التي فيها مسجد وقبر الإمام الأعظم أبي حنيفة، وهي منطقة سنية.

وفي مقابلها «الكاظمية» وفيها قبر الإمام موسى الكاظم، وهي منطقة شيعية.

وفي «أعظم كره» أقام الشيخ أبو الحسن مؤتمر «الإسلام والمستشرقون» على رغم بعد هذه البلدة عن المطار ووعورة الوصول إليها، لكنه أراد أن يجعل منها فرصة للتنويه بدار المصنفين، ويحيي ذكرى العالم الكبير أحد مؤسِّسي ندوة العلماء: الشيخ شبلي النعماني عليه رحمة الله.

وقال الإخوة في «لكهنو»: إنَّ الشيخ علم بزيارتكم، وفرح بها جدًّا، وهو يدعوكم ويلح في الدعوة إلى المشاركة في المؤتمر الخاص بالاستشراق والمستشرقين. وقطعنا تذاكر الطائرة إلى مدينة «بنارس»، وفيها «الجامعة السلفية» الشهيرة، ومن «بنارس» أخذنا السيارات إلى «أعظم كره»، وهي مسافة طويلة تستغرق عددا من الساعات، والطرق في هذه الأماكن ليست على ما يرام، مع ما تتميَّز به من الزحام، إضافة إلى العجلات التي تجرها الثيران، وإلى الدواب من الحمير وغيرها.

دع عنك «الأبقار المقدسة» التي تمشي متبخترة في الشوارع، ولا يستطيع أحد أن يمد يده إليها، أو يحوّل سيرها، كيف وهي معبودة القوم؟ فليكن لها ما تريد أو ما تشتهي، وهل يجرؤ عابد أن يعترض طريق معبوده؟!!

والعجيب أن أختها أو بنت عمها «الجاموسة» وهي أغزر منها لبنًا، وأكثر منها نفعًا: ليس لها أي لون من القداسة، بل هي تجر الأثقال، وتعمل في خدمة الزراعة.

وكذلك ذَكَر البقر «الثور» فهو شقيق البقرة أو أبوها، أو ابنها، ولكنه لم تشمله بركة القداسة التي تختص بها الأنثى، فهو مثل الجاموسة يخصص للأشغال، وحمل الأثقال!

رئاسة مؤتمر «الإسلام والمستشرقون»

المهم أننا وصلنا بعد جهد ولأْي إلى أعظم كره، وكانت فرحة الشيخ أبي الحسن بنا لا توصف، وقال: كنا في حاجة إلى من يرأس المؤتمر، ووجودك قد حلَّ لنا هذه المشكلة، وشرفني الشيخ بذلك، وهو في الحقيقة أولى برئاسته.

وانعقد المؤتمر، وألقيتُ كلمة ضافية مرتجلة في افتتاحه عن الاستشراق والمستشرقين، وأن منهم المحرفين، ومنهم المخلصين في طلب الحقيقة.

ولكن حتى المنصفين منهم لا يستطيعون التحرُّر من جملة عقد تحكمهم، منها:

نظرتهم إلى الإسلام على أنه دين مصنوع، وأن قرآنه مُخْتلق مُفْترى على الله، وأن نبيَّه محمدًا كاذب في دعواه النبوة.. وهذه النظرة السوداء لا شك في أن لها تأثيرها فيما يكتبه صاحبها عن هذا الدين.

ومنها: نظرتهم إلى الغرب على أنه السيد، وأنَّ الجنس الأبيض هو سيد الأجناس، وأنَّ أوربا هي أم الدنيا، وأن تاريخها هو تاريخ العالم، فالقرون الوسطى هي قرون الظلام والتخلف والانقطاع، وإن كانت هي قرون الحضارة والنور وازدهار العلم في تاريخ الإسلام.

ومنها: عدم تذوُّقهم للغة العربية وضعف معرفتهم بخصائصها، وإن بلغوا من العلم بها مبلغًا كبيرًا، ولكن العلم شيء والتذوُّق شيء آخر.

لهذه الأسباب ولغيرها لم يكن حكم غالب المستشرقين على الإسلام وتراثه وعلومه ورجاله وتاريخه حكما منصفا.

وكان في المستشرقين من هو من ذوي الغرض والهوى والتحيُّز، الذي يخدم ببحوثه جهات معادية للإسلام، أو كان هو نفسه معاديا للإسلام وأهله.

وقد لقيت هذه الكلمة المرتجلة استحسان الحاضرين، وإن لم يقدر لي أن أكتبها بعد ذلك.فلم يبق لها آثر.

كلمة أبي الحسن الندوي في المؤتمر

وألقى العلامة أبو الحسن: كلمة رائعة في شأن المستشرقين، وخصوصًا المتحاملين منهم على الإسلام والمسلمين، وشبههم بـ«مفتشي القمامة» الذين لا يهتمون بكل ما هو حَسَن وجميل، إنما يبحثون عن الفضلات والقاذورات، ولا تقع أعينهم إلا على هذه الأشياء، التي تنبو عنها أعين جماهير الناس، ولا تلتفت إليها، وهي وحدها موضع اهتمامهم.

بحث الدكتور عبد العظيم الديب عن المستشرقين والتاريخ

وأعدَّ أخونا الدكتور عبد العظيم الديب بحثًا عن المستشرقين والتاريخ، عكف على إعداده، ونحن هناك بدون مراجع لديه، بل من المخزون الذي في ذاكرته عن المستشرقين وموقفهم من التاريخ، وقد ألقاه في المؤتمر، ولقي القبول والثناء من المشاركين، وأحسب أنه هو الذي طوَّره بعد ذلك ونشره في كتاب الأمة «المنهج في كتابة التاريخ الإسلامي عند المستشرقين».

وبقينا يومين في أعظم كره، ثم عقدنا العزم لنواصل رحلتنا إلى مكتبات الهند العامرة في بتنا وفي حيدر أباد، وغيرهما.

زيارة العلامة حبيب الرحمن الأعظمي

وفي طريق عودتنا: خطَّطنا لزيارة علامة الهند المحدِّث الكبير الشيخ محمد حبيب الرحمن الأعظمي، محقق الكتب الحديثية الشهيرة: المصنف لعبد الرزاق في ١١ مجلدًا كبيرا، والذي نشره المكتب الإسلامي في بيروت، والمطالب العالية في زوائد المسانيد

الثمانية لابن حجر، وقد نشرته وزارة الأوقاف الكويتية، كما حقق مسند الحميدي، وغيرها.

وكان للشيخ تعقيباته ومناقشاته العلمية والحديثية العميقة لمحدِّث مصر العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، في تخريج مسند أحمد، وإقرار الشيخ شاكر له على كثير من ملاحظاته.

كما عقَّب على الشيخ الألباني مستدركًا عليه، وإن لم ينشره باسمه الصريح.

وكنا قد كاتبنا العلامة الأعظمي، لنستضيفه أستاذًا زائرًا لمركز بحوث السنة والسيرة في قطر، لمدة سنة دراسية قابلة للتجديد، حسب ظروفه، وبعد أن أوشك أن يستجيب لنا اعتذر لظروفه الصحية.

ولهذا انتهزنا الفرصة لنزور الشيخ في بلده ومسقط رأسه (مئو)، وهي قرية صديقنا الدكتور مصطفى الأعظمي أيضا.

وقد احتفى الشيخ بمقدمنا، وأحسن استقبالنا، وأرانا بعض مناشطه والمدارس التي يشرف عليها، وأجلسنا مع بعض تلاميذه، وطلب مني أن ألقي كلمة عليهم، وكان الليل قد دخل علينا، والطريق طويل أمامنا، وهو مظلم، وفيه قدر من الخطورة وعدم الأمن، وقد طلبوا منا أن نبيت عندهم ونسافر في الصباح، ولكن وقتنا كان ضيقًا ولا يحتمل المبيت، فاستأذنا من الشيخ أن يسمح لنا بالمغادرة، وودَّعناه بكل حبّ وتقدير، طالبين منه أن يدعو لنا بظهر الغيب، وأن يعدنا بزيارة لمركزنا إذا تيسَّرت الأسباب.

ومما أسفت له: أني لم آخذ منه «إجازة» علمية برواية كل مروياته وما أجازه به شيوخه، وكانت فرصة لا تعوض، إلا أن وقتنا المحدود لم يتح لنا فرصة التفكير في ذلك.

تعطُّل السيارة في الطريق

ودعنا الشيخ وتلاميذه وقريته المتواضعة، وامتطينا سيارتنا الهندية الصنع، فقلما

يعرف الهنود ما نعرفه في بلاد الخليج من السيارات الألمانية والإنكليزية والفرنسية واليابانية والأمريكية وغيرها، بل نرى الجميع يركبون سياراتهم الهندية.

والواقع أن الهنود قد سبقونا في ذلك، وصمَّموا على أن يصنعوا سيارة بأيديهم، وموتورها من صنعهم، ولم يكن عملهم مجرد تجميع، كما عملنا نحن في مصر مع «سيارة نصر» التي استوردنا موتورها من شركة «فيات» الإيطالية.. ولا نكاد نجد هنديًّا مهْما بلغ مركزه لا يركب هذه السيارة الهندية، ونحن نحيي الهند على هذه العزيمة القوية والهمة العالية، ونعزّي أنفسنا أننا في بلاد العرب جميعا لم نصنع سيارة كاملة، ولا حتى موتوسيكلا حتى اليوم!

كانت سيارتنا الهندية التي استأجرناها قديمة نسبيًّا، وكنا نخاف أن تتعطل في الطريق، ونمسك قلوبنا بأيدينا، وعلى رغم أننا قرأنا عليها المعوذات، وآية الكرسيّ، ودعونا بأدعية السفر المأثورة «اللهم هوِّن علينا سفرنا، واطو عنا بعده»[1]: توقفت السيارة في مكان بين بلدين، وفي ظلام الليل الدامس، فلم تكن ليلتنا مقمرة، وكانوا يخوفوننا من قطاع الطريق، الذين قد يطمعون فينا، ومظهرنا يوحي بأننا عرب من بلاد الخليج التي تفيض أرضها بالذهب.. ولكن كان لا بد للسائق من أن يدعنا ويركب مع أحد السائقين ليأتي بميكانيكي من أقرب بلدة إلينا، وهو ما فعله، وجاء الميكانيكي، وأصلح الله على يده السيارة المتعطلة، فتنفسنا الصعداء، وحمدنا الله على أن عدنا سالمين، وفهمنا معنى قول الناس للعائد من السفر: الحمد لله على السلامة، فيبدو أن السلامة كانت هي أول ما يطلبه الأهل والأحبة من المسافر، أما الغنيمة والأرباح وما إلى ذلك، فتأتي في المراتب التالية.

زيارة «بنارس» والجامعة السلفية

وأكملنا مشوارنا إلى مدينة «بنارس»، وهي مدينة تشتهر بنهر مقدس يعبده الهندوس، كما تشتهر بالحرير الهندي، الذي اجتهدنا أن نشتري شيئًا منه، هدايا لأهلينا بعد عودتنا، نرشوهم بها بعد طول الغيبة!

(١) رواه مسلم في الحج (١٣٤٢)، عن ابن عمر.

وفي بنارس أقلية مسلمة نَشِطة، ومنهم: جماعة سلفية العقيدة تتبع مدرسة ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب، وهم الذين أقاموا «الجامعة السلفية» الشهيرة في بنارس.

وقد زرناهم، فرحَّبوا بنا، والتقينا رئيس الجامعة وعلماءها، وأهدونا بعض منشوراتهم، ومنها ـ على ما أذكر ـ كتاب «مرعاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح» وهو شرح مطوَّل على المشكاة[1]، غير شرح العلامة الهندي ملا علي القاري المسمى «مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح»، ولكن القاري حنفي المذهب، والشرح الآخر سلفي المذهب، كما أنه أوسع بكثير من شرح القاري.

(١) هو للعلامة المحدث الشيخ أبي الحسن عبيد الله بن محمد بن عبد السلام المباركفوري رحمه الله تعالى.

زيارة الأردن في شتاء سنة ١٩٨٢م

وفي شتاء سنة ١٩٨٢م جاءتني دعوة من صديقنا الأستاذ كامل الشريف وزير الأوقاف الأردني، لإلقاء بعض المحاضرات بمناسبة المولد النبوي.

وكنت قد انقطعت عن الأردن بعد آخر زيارة لها في صيف سنة ١٩٦٦م، حين كان مصيفي في مدينة «الخليل» العريقة ذات العبق الإسلامي، والنفس الإسلامي، وقد تحدَّثت عنها في الجزء الثالث من هذه المذكرات، وكانت النية أن أعود إليها في السنوات القادمة لولا ما قدَّره الله عليها وعلى فلسطين وعلى الأمة من انتصار إسرائيل السريع في سنة ١٩٦٧م، واستيلائها على الضفة والقدس والقطاع وسيناء والجولان، وكانت الهزيمة المخزية التي سموها «النكسة»!

كامل الشريف

لم أعد إلى الأردن من يومها، فكانت فرصة لتجديد الصلة بإخواننا هناك، وتجديد الصلة بأبي إسماعيل الأستاذ كامل الشريف، الذي بَعُدَ العهد به، فقد كان من الإخوان البارزين في مصر، الذين كان لهم دور في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، وقيادة كتائب المتطوِّعين من الإخوان، وقد سجَّل ذلك في كتابه «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين»، وهو من أهم الكتب التي سجلت هذه المرحلة من خلال المعايشة في الميدان والوقائع اليومية؛ فهو شاهد عيان، وليس مجرَّد راو يحكي عن غيره، فهو وإخوانه ممن يصنعون التاريخ، وليسوا مجرد رواة لأحداثه.

كما كتب كتابًا آخر عن «المقاومة السرية في قناة السويس» للإنجليز سجَّل فيه نضال الحركة الإسلامية والحركة الوطنية في مقاومتها للاحتلال البريطاني، وسقوط شهداء الجامعة من أمثال عمر شاهين والمنيسي وغانم والأعسر. رحمهم الله.

وقد أسقط عبد الناصر جنسية كامل الشريف المصرية مع أربعة آخرين من الإخوان «سعيد رمضان، وعبد الحكيم عابدين، وسعد الوليلي، ونجيب جويفل» مع أحمد أبو الفتح الوفدي المعروف، وكانوا وقتها في مهمة في سورية الشقيقة.

وكامل الشريف من عائلة «عريشية» تسكن مدينة العريش عاصمة سيناء، ومدخل مصر من الشمال الشرقي، وقد زرتها في شهر رمضان لسنتين متتاليتين في سنة ١٩٥٧م،١٩٥٨م مبعوثًا من وزارة الأوقاف، وعاشرت أهلها، فأحببتهم وأحبوني، وقد وجدتُ فيهم كرم العرب وشهامتهم، ولمست فيهم دماثة الخلق، وحبَّ الخير، وعرفت عددًا من آل الشريف وآل الرفاعي فيها، وأهل العريش يتميَّزون بأنهم همزة وصل بين أهل الوادي في مصر وأهل فلسطين والشام، فلهجتهم أشبه بلهجة رفح وخان يونس وغزة القريبة منهم.

لذلك لم يكن غريبًا: أن يلجأ الأستاذ كامل الشريف ـ وقد سحبت منه الجنسية المصرية ـ إلى الأردن، وأن يجد عند الملك حسين والمسؤولين فيها ترحيبًا وتكريمًا، وأن يعطوه الجنسية الأردنية بكل سهولة، دون تلكؤ، وأن يصبح مواطنا أردنيًا تفتح أمامه كل الأبواب دون عائق.

ورأيي أن إسقاط جنسية أي مواطن: جريمة منكرة، غير مبرّرة بحال، فالجنسية أمر يحمله الإنسان بمولده، كونك مصريًا أو سوريًا أو مغربيًا، لا يحتاج إلى إثبات، كونك مولودًا من آباء مصريين وأنك تعيش في مصر من عشرات أو مئات، وربما آلاف السنين، كيف يسحب هذا منك، لمجرَّد اختلافك مع الحاكم؟

ثم إني أرى أنَّ البلاد الإسلامية ـ فضلاً عن العربية ـ وطن واحد للمسلم، فإذا ضاق به بلد، ينبغي أن يتَّسع له آخر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء:٩٧).

كامل الشريف شخصية إسلامية واعية نشيطة متحركة، عمل سفيرًا للأردن في عدد من البلاد الإسلامية، ولم يكن مجرَّد سفير للأردن، بل كان سفيرًا للإسلام.

وهو لذلك قاسم مشترك في أكثر المنظمات الإسلامية العاملة في ساحة الدعوة والخير والإغاثة، فهو عضو في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي منذ تأسيس الرابطة، وعضو مجلس إدارة الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، وهو الأمين العام للمجلس العالمي للدعوة والإغاثة.. وعندما دعوت لتأسيس جمعية عالمية للإشراف على موقع إسلام أون لاين: كان هو من أبرز المدعوين، وكل عمل إسلامي عام لا يستغني عن الاستعانة بخبرة كامل الشريف وجهده.

استجبت لدعوة كامل الشريف لزيارة الأردن، وألقيت محاضرة في الاحتفال بالمولد النبوي عن واجبنا نحو محمد صلى الله عليه وسلم ونحو سيرته، كما ألقيت محاضرة في الكلية العلمية، وأجريت أكثر من حوار مع الصحف اليومية تحدثت فيها عن فكرة إنشاء صندوق عالمي للإغاثة والدعوة الإسلامية، ردًّا على دعاة التنصير الذين جمعوا ألف مليون دولار لتنصير مسلمي العالم.

حصار الثلج في طريق الجامعة

ثم دعيت إلى محاضرة في الجامعة الأردنية تحت إشراف كلية الشريعة بعنوان «الجيل المسلم الذي ننشده».

وقد صلينا الظهر، واتَّجهنا إلى القاعة التي تجمع فيها جمٌّ غفير من الطلاب والطالبات، وكان الجو ينذر بأن الثلج قد بدأ ينزل خفيفًا في أول الأمر، ولكن بعض الأخوة ـ من خلال تجاربهم ـ توقع أن يتفاقم ويسدّ الطرق ويحدث مشكلة، ويحبس الشيخ في الجامعة أو في الطريق.. وقال هؤلاء الأخوة: لا بأس بإلغاء المحاضرة، أو تأجيلها ليوم آخر لهذه الضرورة، وقال آخرون: إن آلاف الطلاب والطالبات ينتظرون في القاعة منذ أكثر من ساعتين، فإذا فاجأناهم بإلغاء المحاضرة كانت صدمة!

ثم قالوا: نترك الأمر للشيخ! فقلت لهم: ماذا تصنعون أنتم في مثل هذه الطوارئ؟ قالوا: نؤدي واجباتنا الجامعية، حتى تنكشف الغمة..

قلت: إذن يجري عليّ ما يجري عليكم.

وذهبت إلى المحاضرة، وانتهيت منها، وقد بدأ الثلج يشتد، وأسرعنا بركوب سياراتنا، وقد عبأها السائق بالبترول، وبادرنا بالخروج من الجامعة، وكان الطريق قد بدأ يتراكم عليه الثلج، ولا تستطيع السيارات أن تمشي فيه إلا ببطء شديد، وعلى مد البصر نرى السيارات، وقد صفّ بعضها وراء بعض، ولا تكاد تتحرك، ثم بعد مدة توقفت تمامًا.. وزاد الطين بلة: أن بعض السيارات التي تتوقف تعطل الطريق، ولا تجد وسيلة لتحريكها من الطريق، فمن الذي يمكنه الوصول إليها؟

والجو يزداد برودة، والليل يقترب، والسيارات لا بد أن تستخدم التدفئة، لأن الجو الطبيعي لا يحتمل، وطول استخدام التدفئة يعني أن تظل السيارة شغّالة، وهذا ما يستهلك بترولها، فيوشك أن ينفد بعد حين.

دخل الليل علينا، ونحن محبوسون في الطريق داخل السيارة، وليس من حولنا منازل أو مساكن يمكننا أن نلجأ إليها إذا نفد البترول.. نحن مهددون بالخطر، كما أن غيرنا مهدد. من فضل الله علينا أن سائقنا ملأ خزان سيارته بالبترول، وهو يستخدمه بحكمة، يشغل السيارة حينا، ويطفئها حينا، تحسُّبا لكل احتمال.

والإذاعة تذيع باستمرار، تقول: الطريق الفلاني قد أغلق، فلا داعي للسيارات أن تبدأ السير فيه، فتنقطع في الطريق.

والأهالي يريدون أن يطمئنوا على أبنائهم وبناتهم في الجامعات، والجهات المسؤولة تطمئن الأهالي: أنهم بخير.

ووزارة الداخلية، وإدارة الدفاع المدني، وقيادة القوات المسلحة: تذيع على الناس أنها ستعمل اللازم لإنقاذ الموقف.

ولم ينقذ الموقف بالفعل إلا دخول الجيش بإمكاناته وقواته المادية والفنية، ومعها قوات الشرطة والدفاع المدني، وبدأ العمل بإزاحة الثلج من الطريق، وفسح المجال للسيارات المتوقفة منذ ساعات، وتنفسنا الصعداء، وقلنا: الحمد لله الذي أخرجنا من هذا المأزق.

وكنا مدعوين على الغداء عند وزير الأوقاف، وقد ظل القوم ينتظروننا على الغداء حتى يئسوا، فتناولوا غداءهم، وقد فاتنا الغداء، ثم قلنا سنعوضه في العشاء، لكن لم نصل إلا قرب الساعة العاشرة مساء. ففاتنا الغداء والعشاء معا.

كنت أحسب أن نزول الثلج، وكأنه بلاء أنزله الله بالناس يستعاذ بالله منه، ولكني في صباح اليوم التالي رأيت الناس يحدِّثوننا عن نعمة الله عليهم بنزول الثلج، وأنه مطهر للأرض من الحشرات، وأنه سبب زيادة مخزون المياه، وأن من فوائده كذا وكذا.. ورأيت الأطفال يصنعون من الثلج عرائس وأشكالاً يلعبون بها، ويتخذون منه كرات صغيره يقذف بها بعضهم بعضًا، والفرحة على وجوه الجميع، وهنا قلت: مصائب قوم عند قوم فوائد، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

أول زيارة للجزائر: ملتقى الفكر الإسلامي في تلمسان ١٩٨٢م

في ربيع سنة ١٩٨٢م - ربما كان في شهر مارس أو إبريل - زارني في مكتبي في كلية الشريعة بجامعة قطر: أحد الإخوة الجزائريين - نسيت اسمه - وبعد الترحيب وتبادل الأحاديث الودية، وجَّه إليَّ سؤالا مباشرًا: لماذا تقاطع الجزائر، ولا تعطيها شيئًا من اهتمامك؟

قلت له: أنا لم أقاطع الجزائر، ولكن لم تتح لي الفرصة حتى اليوم لأزورها.

قال: ولكنك طوَّفت في العالم مشرِّقًا ومغَرِّبًا، ولم تجعل الجزائر ضمن اهتماماتك!

قلت: لم يكن هذا إهمالاً للجزائر أو قصدًا مني، وقد عرفت الجزائر عن طريق بعض أبنائها الذين حبَّبوها إليَّ، ثم عن طريق جهادها ضد الاستعمار الاستيطاني الفرنسي، الذي لفت إليها أنظار العالم، ولا سيما المسلمين.

الفضيل الورتلاني

قال الأخ الزائر الكريم: من عرفت من الجزائر؟

قلت: أول من عرفت هو: العالم المجاهد الكبير الشيخ الفضيل الورتلاني، العضو البارز في جمعية العلماء بالجزائر، الذي هاجر إلى مصر، واتصل بحركة الإخوان المسلمين،

وكان قريبًا من مؤسِّس الحركة الإمام حسن البنا، كما كان على صلة بحركة الإصلاح والتغيير في اليمن التي قادها ابن الوزير، وبعض أبناء الإمام يحيى. وقد جرى ما جرى له في اليمن أيام ثورة ابن الوزير ضد الإمام يحيى، وخرج أو أخرج من اليمن، وظل في البحر نحو شهرين لا يجد بلدًا يقبل نزوله فيه، حتى رتَّب له بعض الفضلاء النزول في لبنان، التي عاش فيها عدة سنوات، ينادى فيها باسم «أبو مصطفى». وقد لقيته حين زرت لبنان في أغسطس سنة ١٩٥٢م بعد قيام ثورة يوليو في مصر، وتحدثت إليه طويلاً. ثم لقيته مرات أخرى، بعد نزوله إلى مصر في عهد جمال عبد الناصر.

محمد البشير الإبراهيمي

وعرفت من علماء الجزائر خليفة ابن باديس العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أمير البيان العربي في المغرب الإفريقي، وقد استمعت إليه، وهو يتدفق في حديثه كالبحر الزاخر، ويفيض كالسحاب الهاطل.

صديقي محمد أكسوري (الأقصري)

وعرفت من الجزائر الشاب الأديب الطموح محمد بن الحاج الصغير الشهير باسم: محمد أكسوري، وكنا نطلق عليه: محمد الأقصري. وقد كان يسكن معي في شقة واحدة في حدائق شبرا، وقد انتسب إلى كلية أصول الدين، وبعد أن أكملها، التحق بمعهد الدراسات العربية العليا، التابع للجامعة العربية، بشعبة القانون فيه، وقد رحَّب به الدكتور السنهوري رئيس الشعبة، كما أشرت إلى ذلك فيما مضى من المذكرات.

وكان الذي عرفني به هو الفضيل الورتلاني نفسه، فقد كان من بلده، وقال: هو في عُهدتك. وكان نِعْمَ الأخ والصديق.

ولقد ألقيت خطبة سنة ١٩٥٧م[1] من جامع الزمالك، مؤيدًا ثورة الجزائر، أذيعت من إذاعة القاهرة في تلك الأيام.

(١) اقرأ نصها في الجزء السابع من خطب الشيخ القرضاوي ص ١٤٤ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة القاهرة.

فليس بيني وبين الجزائر ما يدعوني إلى مقاطعتها، بل إني لأتمنى أن أزورها عندما تتيسر لي أول فرصة، وأن ألقى شعبها المجاهد الذي أحببته قبل أن أراه.

قال الأخ الجزائري: ألم تُدْعَ يومًا إلى «ملتقى الفكر الإسلامي» الذي يعقد سنويًّا بالجزائر، ويشارك فيه العلماء والمفكرون من أنحاء العالم العربي؟

قلت: أحسب أنه وصلتني دعوة منذ مدة، واعتذرت عن عدم الاستجابة إليها.

قال: ولماذا؟

قلت: سمعت أن هذا الملتقى إنما أنشئ لخدمة أهداف الدولة الاشتراكية ذات النظام الشمولي، التي تحكم الشعب بالحديد والنار، عن طريق الحزب الواحد، ولا يسمح لأحد بنقد ولا معارضة، ومن اجترأ على ذلك فمصيره معروف.

كما قيل لي: إن رئيس المؤتمر ـ وهو وزير الشؤون الدينية ـ لا يحترم ضيوفه، ويعقب عليهم تعقيبات خشنة، ولا يستطيع أحد أن يرد عليه (كان المعني هو الأستاذ مولود قاسم رحمه الله).

عبد الرحمن شيبان وزير الشؤون الدينية

قال: على كل حال، لقد تولى الوزارة وزير جديد، من تلاميذ ابن باديس، ومن جمعية علماء الجزائر، وهو الشيخ عبد الرحمن شيبان، وأعتقد أنه يرحِّب بوجودك. كما أنَّ الرئيس الحالي له توجُّهات انفتاحية طيبة، وهو: الشاذلي بن جديد.

قلت: إذا كان الأمر كذلك، فأنا أُرحِّب بقَبول الدعوة إذا جاءتني.

قال: سأسعى بعد رجوعي لتصلك الدعوة المنشودة، ويسعد بك شعب الجزائر ضيفا على أرضه، بل كما قال الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا ... نحن الضيوف وأنت رب المنزل!

دعوة للمشاركة في الملتقى

وانصرف الأخ الكريم من عندي، ولم تمر إلا أيام قلائل، حتى وصلتني دعوة من

وزير الشؤون الدينية الجزائري، يدعوني فيها إلى المشاركة، في الملتقى الذي يعقد بمدينة تلمسان في الصيف القادم، ويدور موضوعه حول «السنة المطهرة»، وألحّ الوزير الداعي عليّ ألا أتخلف، قائلاً: إنَّ من حقِّ الجزائر عليك أن تزورها وتلتقي بشيوخها وشبابها، وتشارك في بناء نهضتها.

وفعلاً أرسلت إليهم في الحال بقَبولي للدعوة، وعزمي على الحضور في الوقت المطلوب.

من القاهرة إلى الجزائر

وعندما حانت إجازة الصيف، سافرت مع الأولاد إلى القاهرة، ومن القاهرة سافرت إلى الجزائر، على الخطوط الجوية الجزائرية، وعند وصولي إلى العاصمة، استقبلني الإخوة المسؤولون عن إدارة الملتقى من كبار الموظفين في وزارة الشؤون الدينية. وأحاطوني بهالة من الترحيب والتكريم، وقالوا: هذه زيارة طال انتظارها، وقد تأخَّرت كثيرًا، وسيكون وقعها على الشعب الجزائري وقع الغيث الهاطل على الأرض العطشى.

قلت: كل شيء له أوان وأجلٌ مُسمًّى عند الله. وأرجو أن نُعوِّض ما فات.

فندق الأوراسي

وصحبوني إلى الفندق، واختاروا لي جناحًا مجاورًا لجناح شيخنا الشيخ الغزالي، وهو ما أضاف إلى سعادتي بزيارة الجزائر سعادةً أخرى بمجاورة الغزالي.

كان هذا الفندق هو فندق «الأوراسي» ذا الموقع الرائع على البحر الأبيض، وذا المبنى الشامخ، الذي صمَّمه مهندس مصري، قيل لي: إنه مصطفى مؤمن زعيم طلاب الجامعة المصرية في وقته.

وكان هذا الفندق مع فخامته، في غاية من إهمال المرافق، كما هو شأن البلاد الاشتراكية دائمًا. ولكن كان يعوض هذا إقبال عمال الفندق علي، وحفاوتهم بي، بل إقبال الشعب الجزائري كله. وهذا من فضل الله.

كان أول من تعرفت عليه وزير الشؤون الدينية الشيخ عبد الرحمن شيبان، الذي هرع لمقابلتي والترحيب بي، والاعتذار عن عدم مقابلتي في المطار، وأنه قرأ عددًا من كتبي، ويعرفني جيدًا قبل أن يلقاني.. وقد رددت على تحيته بمثلها أو أحسن منها. وقال لي: معك دعوة دائمة لحضور الملتقيات التي نرجو ألا تتخلَّف عنها بعد اليوم.

قلت: إني حريص على المشاركة فيها، وأسأل الله العون والتسديد.

مدير الملتقيات عبد الوهاب حمودة

ثم عرفتُ مع الوزير، الشابَّ النابه المتوقِّد عبد الوهاب حمودة مدير الملتقيات ومنظمها، و«الدينامو» المحرِّك لها، والذي استرحت إليه بمجرد لقائه ورؤية وجهه.. فلما شاهدت تحركه، وسمعت كلامه بعد ذلك: ازددت حبًّا له وتقديرًا لما يبذله من جهد وإعداد وتنظيم، في سبيل إنجاح الملتقيات.

وعرفت من أعوانه كذلك من الشباب الواعين والمرجوين: الهادي الحسني من رجال وزارة الشؤون الدينية، ومن المعاونين من أساتذة الجامعات: الدكتور عبد الرزاق أبو جسّوم، والدكتور عمار الطالبي، والدكتور أحمد عروة، والدكتور سعيد شيبان طبيب العيون الذي أحبه كل من عرفه وعايشه.

كما لقيت العالم الجليل الشيخ أحمد سحنون، شيخ العلماء، الذي كنت تعرفت عليه من قبل في المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، الذي عقد بالمدينة المنورة.

وكانت فرصة لتأكيد التواصل مع الأخ الداعية الشيخ محفوظ نحناح الذي تعرَّفت عليه من عدة سنين، إذ كان ممثلاً لحركة الإخوان المسلمين بالجزائر.

ثم تعرفت على كثيرين بعد ذلك، بالتدريج.. والجزائريون قوم ـ على ما فيهم من شدة وصلابة ـ يتميَّزون بسلاسة الطبع، وصفاء النفوس، وعدم الالتواء، فلا غرو أن تحبهم ويحبوك.

صفوة من خيار علماء الأمة

كانت ملتقيات الفكر الإسلامي تجمع صفوة من خيار علماء الأمة في العادة من

أقطار عربية وإسلامية مختلفة، وكانت تطرح فيها موضوعات حية، تقدم فيها البحوث، تناقش من العلماء، وتصدر بعد ذلك التوصيات من الملتقى.

وقد قالوا: إنَّ الذي أشار بفكرة الملتقى الإسلامي السنوي هو المفكر الجزائري الشهير مالك بن نبي رحمه الله. رأى فيه فرصة يلتقي فيها رجال السياسة ـ أو بعضهم ـ ورجال الفكر على بساط واحد، ليفيد بعضهم من بعض.

وكان شعار الملتقى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١). وهو نفسه شعار جمعية العلماء الجزائريين.

في العادة يصل المدعوون إلى الجزائر قبل الملتقى بيوم أو يومين أو أكثر حسب ظروف الأشخاص والمواصلات، ثم ينتقلون مع الوزير والمسؤولين في طائرة خاصة، تنقلهم مرة واحدة إلى المدينة التي يقام بها الملتقى.

وفي اليوم المحدد نقلتنا الطائرة إلى مدينة تلمسان في غربي الجزائر، وإليها ينتسب جدود مرشد الإخوان الأسبق الأستاذ عمر التلمساني.

ولم يكن لديّ وقت لكتابة بحث حول أحد محاور الملتقى، وهو: موضوع «السنة النبوية» وهو من اهتماماتي الأصلية، واكتفيت بالمناقشة.

وكان للشيخ الغزالي بحث عنوانه: «لا سنة بغير فقه» يؤكد فيه نزعته الناقدة للاتجاه الظاهري في فهم الأحاديث، دون ربطها بالقرآن وبمقاصد الشريعة العامة.

وكان من المشاركين: د. محمد سعيد رمضان البوطي، ود. أحمد عمر هاشم، وغيرهما من أساتذة الحديث في كليات الشريعة وأصول الدين في الجامعات المختلفة.

احتجاج على زيارتي من الشباب المتحمس

ومما لا أنساه في ذلك الملتقى: تلك الزيارة لي في محل إقامتي بالفندق الذي أقيم فيه، والتي فاجأني بها عدد من شباب الجزائر الملتزمين المتحمِّسين. أذكر أني بعد أن استقبلتهم وحييتهم ورحَّبت بهم، قالوا لي بصراحة: ما كنا نود لمثلك أن يشارك في هذا الملتقى.. لقد فوجئنا بحضورك واستغربناه.. كيف تشارك في ملتقى كهذا، وهو إنما أقيم أول

ما أقيم، لتأييد الاتجاه الثوري اليساري الذي تتبناه حكومة هواري بو مدين؟! وهي حكومة الحزب الواحد الذي لا يسمح بوجود تيار آخر، وبخاصة التيار الإسلامي؟! ولقد شارك في هذا الملتقى كثيرون ممن يسيرون في ركاب الحكومات، ولكنا نعتقد أنك لست من هؤلاء.

قلت لهم مازحًا: أهذه تحية الاستقبال لضيفكم: أن تقولوا له: لا مرحبًا بك في بلدنا؟!

قالوا: لا والله، بل نحن نحملك على رؤوسنا، ونفتح لك دورنا وصدورنا، ولكنا لا نرضى لمثلك أن تشارك في هذه المهزلة.

قلت لهم: ولماذا ترون مشاركتي موالاة أو مداهنة للحكومات البغيضة إليكم؟

قالوا: هذا ملتقى تقيمه الحكومة، وتدعو إليه، وتشرف عليه إشرافا كاملا، وهو يدور حول أهدافها التي تسعى إليها.

قلت: ولكني أرى الملتقيات وخصوصًا هذه السنوات، تدور حول موضوعات إسلامية خالصة، مثل ملتقى القرآن الكريم السابق، وملتقى السنة اليوم.

وهل تظنون أن رجلاً مثل الشيخ الغزالي يبيع نفسه لحكومة من الحكومات؟

قالوا: اعتقادنا أنَّ الشيخ الغزالي لا يفعل ذلك، ولكنهم يخدعونه، حتى يستجيب لهم.

قلت: أصدقكم القول: إني دُعيت من قبل للمشاركة في هذا الملتقى، فاعتذرت، ولما قيل لي: إن الوزير الجديد من تلاميذ ابن باديس، استجبت لدعوته.

ومن أهم ما برَّر لي الاستجابة: أنهم قالوا لي: إن الجزائر فيها مدّ وصحوة إسلامية مبشّرة بين شبابها، فحفزني هذا أن آتي لألقاهم، وأشدّ من عزائمهم. فالحقيقة أني جئت من أجلكم، وليس لي أي مصلحة أو هدف من زيارتي للجزائر، ومشاركتي في هذا الملتقى.. فإن رأيتم أن وجودي لا يخدم الدعوة الإسلامية، والصحوة الإسلامية، فأنا مستعد أن أغادر الجزائر بأي عذر من اليوم.

قالوا: لا، ما دمت قد حضرت، فالخير فيما اختاره الله، ويكون القرار بعد ذلك على ضوء الواقع والنتائج.

إلقاء كلمة الضيوف

وفي اليوم التالي بدأ المؤتمر، وتفضَّل الوزير رئيس المؤتمر، فأسند إليّ أن أقول كلمة الضيوف، فألقيتُ كلمة ضافية مرتجلة عن الجزائر وأصالتها وجهادها، ودور جمعية العلماء فيها وابن باديس والبشير الإبراهيمي، والعربي التِّبسِّي، الذين حفظوا على الجزائر هُويتها: الممثلة في الدين واللغة، وعبَّر عن ذلك نشيد الجمعية الذي ألفه الشيخ ابن باديس:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال: حاد عن اصله أو قال: مات فقد كذب

نشاط مكثف في الملتقى

والحقيقة أني قمت في هذا الملتقى بنشاط موفور مكثف، في لقاءات مسائية بالطلاب في مدارسهم أو جامعاتهم، والطالبات في مدارسهن أو جامعاتهن اللاتي ينزلن بها.

وقد جرت سنة الملتقيات أن تدعو عددًا كبيرًا من الطلاب والطالبات من الجامعات المختلفة، يشاركون في أنشطتها، ويتوجَّهون بأسئلتهم المباشرة إلى العلماء المشاركين، ليتلقوا الإجابات عنها.

وزرتُ بعض القرى القريبة من تلمسان، وألقيت فيها محاضرات.

وفي الاستراحات المعتادة بين الجلسات، يلتفُّ حولي الطلاب والطالبات، ويمطرونني بأسئلتهم، ولا أضنّ عليهم بالإجابة ما استطعت.

كما أن ولعهم بالتصوير وحرصهم على التقاط الصور التذكارية أفرادًا وجماعات معي، قد فاق الحد، ومع إرهاق هذا لي، عاملتهم برفق ومودة، مقدرًا بواعثه الطيبة.

وقد نوّه الوزير بما قمتُ به من نشاط مكثَّف على كل المستويات، وشكرني على ذلك. وفي الملتقى تعرفت على عدد من الجزائريين، منهم الأستاذ مولود قاسم وزير الشؤون الدينية السابق، وقد وجدته رجلاً لطيفًا، أحسن استقبالي، ولم أجد فيه الخشونة التي قيل: إنه يعامل بها الناس.

والمهم أنه بعد انقضاء مدة المؤتمر الذي يستمر نحو ثمانية أيام، زارني الشباب الذين زاروني في أول وصولي إلى تلمسان، فقلت لهم: ماذا ترون اليوم على ضوء النتائج؟ القرار قراركم، فإن رأيتم أن لا فائدة من وجودي إلا تأييد الحكومة، فلن أشارك في هذا الملتقى بعد اليوم، وإن رأيتم غير ذلك فأخبروني.

قالوا: بل نُصرُّ على حضورك، وضرورة مشاركتك في كل ملتقى، ونرجوك، ونلح عليك في الرجاء: ألا تتخلَّف عن هذه الملتقيات أبدًا، فقد رأينا بأعيننا ولمسنا بأيدينا آثار مشاركتك، ولا سيما في جيل الشباب والشابات، الذين أحبوك وتعلقوا بك، وأعجبوا بأفكارك. وهذه نعمة كبيرة يجب أن تقابل بالشكر والعرفان.

قلت لهم: الحمد لله، وما توفيقي إلا بالله، وأدعو الله تعالى أن يجعلني عند حُسن ظنكم وظن أبناء الجزائر بي، وأن يغفر لي ما لا تعلمون، ولا يعلمون.

ورتَّبت عودتنا بالطائرة الخاصَّة إلى الجزائر العاصمة، وبقيت يومين أو ثلاثة في فندق الأوراسي، وفيها نظم الإخوة في وزارة الشؤون الدينية: محاضرة عامة لي في أحد المساجد، وعرضوا عليّ الأمر، فرحَّبت بذلك، وكان منطقهم: أن أهل العاصمة يجب أن ينالهم نصيب من حضوركم إلى الجزائر. ولا يستأثر أهل تلمسان ومن حولها بكل الغنيمة.

قلت: منذ وصلت إلى الجزائر غدوت جنديًّا في كتيبتكم، فحيثما وجَّهتموني توجَّهت، سائلاً الله أن يرزقنا التوفيق والإخلاص.

وبعد ذلك عزمت على السفر والعودة إلى القاهرة، وجاء الشيخ عبد الرحمن شيبان، ليودعني، ويؤكد عليّ أن أحرص على الحضور في الملتقى القادم، الذي سيكون في مدينة «قسنطينة» مدينة الشيخ ابن باديس، ومنطلق نشاطه، وقال لي: لقد رأيت كيف تعلق الشباب الجزائري بك، وهذا يوجب عليك ألا تتخلى عنهم.

قلت: وأنا أيضًا تعلَّقت بهم، ورأيت فيهم بشائر الخير، وبواكير البعث المنشود، وقد قال أبو تمام:

وإذا رأيـت مـن الهـلال نموه أيقنت أن سيصير بـدرا كاملا

وافترقنا على نية اللقاء في العام القادم في بلد ابن باديس. وعلى الله التيسير.

افتتاح مبنى جمعية الإصلاح بالبحرين
١٠ مايو ١٩٨٣ م

زيارتي البحرين وتعرّفي على عدد من علمائها

كانت البحرين من بين بلاد الخليج التي زرتها منذ سنة ١٩٦٢م، أي: بعد سنة من قدومي إلى قطر، وتعرفت على عدد من علمائها، ومنهم القاضي الجليل الشيخ عبد الله ابن عبد العزيز المبارك، ومنهم الشاب النابه في ذلك الوقت الشيخ يوسف الصدِّيقي.

كما عرفت من أبناء الدعوة الإسلامية الأخ الكريم والمربي الفاضل الشيخ عبد الرحمن الجودر، الذي كان يتميَّز بدماثة الخلق، وسلاسة الطبع، ورقة القلب، واستقامة السلوك، والغيرة على الدين، والرغبة في الخير والإصلاح، وحمل هم الدعوة الإسلامية، ونشرها بالحكمة والموعظة الحسنة.

كان الشيخ عبد الرحمن قد تعلم في مصر، ولقي الإمام الشهيد حسن البنا، وأخذ عنه الدعوة، وعاد إلى البحرين ـ بعد الفراغ من دراسته ـ ناشرًا لها، فأنشأ بعد عودته ـ مع بعض رفاقه وأصدقائه وكلهم خيار من خيار: قاسم الشيخ، وأحمد المولود، ومبارك الخاطر، وصالح عبد الرزاق وغيرهم ـ «نادي الإصلاح» الذي كان يُعَدّ أول دار للدعوة في الخليج.

الشيخ عيسى بن حمد آل خليفة

وقد انضمَّ إليه بعد عودته من مصر، وتخرجه في كلية الحقوق، عضو مهم من شباب

الأسرة الحاكمة، هو الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة الذي حباه الله من الفضائل ما جعله مُحبّبًا إلى كلٍّ مَنْ عرفه، وكأن الشاعر حافظ إبراهيم قصده حين قال:

والـنـاس هـذا حظه مـال، وذا   عـلـم، وذاك مـكـارم الأخـلاق

فـإذا رزقــت خليقة محـمـودة   فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

فقد رزقه الله مجموعة من الخلائق المحمودة: التواضع والسماحة والاستقامة، والرفق والسهولة، والغيرة على الحق، والتمسك بالدين.. وقد تولى منصب الوزارة أكثر من مرة، فما زاده ذلك إلا تواضعًا، وقربًا من الناس، وتفانيا في خدمتهم، وتقديم الخير لهم.

نادي الإصلاح

وكان النادي يقوم بخدمات جليلة للمواطنين، ولاسيما لجيل الشباب، الذي يمثل مستقبل الوطن والأمة، يعلمهم الإسلام الصحيح بعيدًا عن الغلو والتسيُّب، ويربطهم بتراث الأمة الثقافي والحضاري، في غير تعصب ولا إعراض، كما يصلهم بالعصر وحضارته وإنجازاته في مختلف الميادين، ويحميهم من التيارات الهدامة والغازية التي تريد أن تقتلعهم من جذورهم العقدية، ومن هويتهم الدينية والحضارية.

جمعية الإصلاح الاجتماعي

ولكن المبنى ضاق بأنشطته المتعددة والمتنوعة والمتطورة باستمرار، فقررت الدولة أن تمنح النادي أرضًا، وتقيم عليها مبنى حديثًا يتسع لمجالات النشاط والعمل الدعوي والفكري والخيري والاجتماعي، وأن تهبه للنادي الذي آثر أن يغير اسمه إلى «جمعية الإصلاح الاجتماعي» تأسيًا بإخوانه في دولة الكويت التي سبقت بتأسيس جمعية بهذا العنوان.

إمكانية التفاهم بين الدولة والجمعيات الإسلامية

وكان هذا نموذجًا يُحتذى في إمكانية التفاهم والتعاون بين الدولة والجمعيات

الإسلامية الشعبية، ما دامت الأهداف واضحة، والمناهج محددة، والنيات صادقة، والاتجاه إلى خدمة الدين والوطن وإصلاح المجتمع والرقي بالأمة بيّن المعالم، لا لبس فيه ولا غبش.

وهو أوْلى من حسبان الصدام بين الطرفين حتميًّا، يستحيل تجنُّبه، فهذا يمكن قوله في البلاد التي تقف موقفًا معاديًا للدين ودعاته، وللشريعة وعلمائها. ومعظم بلاد المسلمين ليست كذلك، وبخاصة دول الخليج.

لا يفهم من كلامي أني أدعو إلى أن يسير الدين في ركاب الدولة، وأن تكيّف الحركة الإسلامية أهدافها ومناهجها لخدمة السلطة، وأن يصبح علماء الشريعة أبواقًا للحكومات العلمانية، وأن يحرقوا البخور بين يدي أصحاب السلطان، وإن كانوا من الجبابرة المستكبرين في الأرض، المسلَّطين على رقاب العباد ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ (الفجر: ١١، ١٢). فالدين يجب أن يكون هو المخدوم لا الخادم، والعلماء يجب أن يكونوا ألسنة للحق، وهداة للخلق، ونَصَحَةً للحكام، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُو ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

تعايش دعاة الإسلام مع النظام الحاكم المعتدل

ولكن الذي أدعو إليه وأؤكده: أنه في كثير من البلاد التي يشيع فيها جو الحرية ومناخ الديمقراطية، ويتمكّن دعاة الإسلام من عرض دعوتهم بلا قيود ولا تضييق، يمكنهم أن يتعايشوا مع النظام الحاكم، دون افتعال للصراع أو سعي إليه بغير ضرورة. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية»[1]. وهذا في العدو الكافر المحارب، فكيف بالحكام وهم مسلمون أبناء مسلمين، يحكمون بلادا إسلامية وشعوبًا إسلامية؟

لقد دعُيت إلى الحضور والمشاركة في افتتاح الجمعية برعاية أمير دولة البحرين الشيخ

---

(١) سبق تخريجه.

عيسى بن سلمان آل خليفة ـ رحمه الله ـ وبحضوره شخصيًّا، وحضور أخيه رئيس وزرائه الشيخ خليفة بن سلمان، وولي عهده الشيخ حمد بن خليفة (ملك مملكة البحرين اليوم).
وكان الافتتاح عصر يوم الثلاثاء ٢٧ رجب ١٤٠٣هـ الموافق ١٠ مايو ١٩٨٣م.

ودُعي عددٌ كبيرٌ من الشخصيات الإسلامية والعامَّة من العالم العربي والإسلامي، ولاسيما من دول الخليج العربية: السعودية والكويت وقطر والإمارت وعمان.

وكان هذا اليوم عرسًا للبحرين حقًّا، وكان هذا مما يحسب لأمير البحرين وحكومة البحرين.

مع أمير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة

وأذكر أني سلَّمت على أمير البحرين وهنأته وشكرته على ما قام به نحو الجمعية ونحو تشجيع الدعوة الإسلامية، وباركت له هذا التوجه المحمود من الدولة.. وقد رد تحيتي بأحسن منها، وصافحني ـ بل عانقني بحرارة ـ وقال بتواضع: أنا من المتابعين لبرامجك في تلفزيون قطر، ولخطب الجمعة، والمعجبين بما تُقدِّمه للمسلمين، واعتبرني من تلاميذك هنا. واعتبر البحرين بلدك مثل قطر، ونحن أهلك فيها، وأرجوك أن تواصلنا ولا تنقطع عنا.

قلت له: يا طويل العمر، أنا منكم، وأنتم مني، وأنا أجد كثيرًا من الرسائل التي تأتي إلى برنامجي في التلفزيون من البحرين، فليس هناك حاجز بيني وبين أهلها.

وفعلاً كنت كلما حضرت إلى البحرين في اجتماع للمصارف الإسلامية أو في محاضرة لجمعية الإصلاح، أو إجابة لدعوة من وزارة الأوقاف، حرصت على زيارة الأمير الشيخ عيسى بن سلمان. وكثيرًا ما أكون في صحبة أخي وصديقي الشيخ عيسى بن محمد رئيس جمعية الإصلاح.

وكان الشيخ عيسى رحمه الله غاية في التواضع واحترام العلماء، فبمجرد أن يراني داخلاً من باب مجلسه ينهض من المجلس ويهرع إليّ في بهجة وسرور، ويصافحني ويعانقني، ويبالغ في الترحيب بي، من غير صنعة ولا تكلّف.. وما له يتصنع أو يتكلف

لي، وليست له مصلحة عندي؟! إنها الأخلاق العالية، والمكارم الأصيلة عند الرجل. وقد ظلَّ معي هكذا محبة واحترامًا، حتى انتقل إلى جوار ربه، رحمه الله رحمة واسعة.

رئيس وزراء البحرين وولي العهد

وبمثل هذه الروح، أو قريبا منها، لقيني رئيس وزراء البحرين الشيخ خليفة بن سلمان، وولي عهد البحرين الشيخ حمد بن عيسى، وكلاهما سلَّم عليَّ بإقبال وقوة، وأكَّد لي أنه يتابع برنامجي الذي يُبثُّ من قطر، وعَتَبا عليَّ: لماذا لا أزور البحرين، وكل أهلها محبون لك، متتلمذون عليك؟ ووعدتهم أن تستمر صلتي وزياراتي للبحرين في المستقبل إن شاء الله.

و قد تجوَّلنا في مبنى الجمعية، وهو مبنى واسع من عدة أدوار، وفيه ساحات للرياضة، وقاعة كبيرة للمحاضرات، وفيه مجال للنشاط النسائي والنشاط الشبابي. وبقيت بعد الافتتاح إلى أن ألقيت محاضرة في المبنى الجديد تحت عنوان: «الشباب عدة اليوم وأمل المستقبل»، ثم ودعت الإخوة وعدت إلى قطر بحمد الله.

وقد تعودت الجمعية بالبحرين أن تدعوني في مناسبات شتى إلى إلقاء محاضرات في قاعتها الفسيحة المجهزة، يحضرها الرجال والنساء، وهذا يحسب لهم: أن المرأة ليست غائبة ولا مغيبة عن نشاط الجمعية.

ندوات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت

من أنفع المؤسَّسات الإسلامية العلمية التي ظهرت في القرن العشرين: «المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية»، وهي مؤسسة كويتية المنشأ، عالمية الاتِّجاه، إسلامية المنطلق والمنهج.

وهي بلا مجاملة تعدّ من المنجزات والحسنات التي تضاف إلى الكويت ضمن المؤسسات التي أنشأتها واحتضنتها، مثل الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، وموسوعة الفقه الإسلامي، ولجنة مسلمي إفريقيا، وبيت الزكاة، واللجنة العليا لاستكمال تطبيق الشريعة، وغيرها.

وقد رأس هذه الهيئة منذ تأسيسها الأخ الكريم والصديق العزيز، صاحب الهمة العالية، والقلب الطموح، الدكتور عبد الرحمن عبد الله العوضي، وكان ساعده وعضده الأيمن من أول يوم الأخ الفاضل، الشعلة المتوهجة، الطبيب المصري المقيم في الكويت منذ أمد طويل، الدكتور أحمد رجائي الجندي، الذي يعمل أمينًا عامًّا مساعدًا للمنظمة، وهو المسؤول عن إدارتها وتنظيم شؤونها، واختيار موضوعاتها، وتنفيذ برامجها، وتحقيق أهدافها.

كان مما سنَّته المنظمة، وهي سنَّة حسنة لها أجرها وأجر من اتَّبعها فيها: الجمع بين علماء الفقه وعلماء الطب ومن يساعدهم من علماء البيولوجيا ونحوهم، يجتمعون في صعيد واحد لعدة أيام، يعرض فيها عليهم الموضوع الذي يراد بحثه لبيان حكمه شرعًا من ناحية الفقهاء، بعد أن يعرضه عليهم الأطباء ويشرحوه شرحًا تفصيليًّا، ويتم

فيه نقاش حرّ بين الفريقين، وبعد الأخذ والرد، والجذب والشد، يلتقي الجميع عادة على كلمة سواء، وعلى نقطة التقاء، يخرجون بها على الناس، يكون فيها النفع والخير للمسلمين، بل ولغير المسلمين.

حدث ذلك في قضية الإسلام والإنجاب، وقضية بداية الحياة ونهايتها، ومسألة موت الدماغ، وقضية زرع الأعضاء. وقضايا أخرى كثيرة.

بحثي في حكم «بنوك الحليب»

بدأتُ المشاركة في المنظمة منذ ندوتها الأولى: الإنجاب في ضوء الإسلام، وقد طلب مني أن أكتب عن «بنوك الحليب» التي تجمع كميات كبيرة من اللبن، من أمهات لا يعرف من هنّ، فهل يترتَّب على ذلك التناول للحليب ما يترتَّب من أحكام الرضاع من تحريم؟ وكيف وهو لا يعرف من أرضعته أو شاركت في إرضاعه من النساء؟ وهل يترتّب عليه أن يحرم عليه الزواج من بنات المرضعات كلهن؟ وفي ذلك من الحرج ما فيه؟

أفتى بذلك أكثر العلماء المشاركين في الندوة، أخذًا بالاحتياط، وعملاً بمقتضى الـورع، ولكني رجَّحت في بحثي رأيا آخـر، أجزت فيه ما تقوم به هذه البنوك، ولم أرتِّب عليه ما رتَّبه الآخرون من آثار من تحريم الزواج ونحوه.

وحُجَّتي أولا: أن الرضاعة الحقيقية في اللغة التي نزل بها القرآن، وجاء بها الحديث: هي امتصاص اللبن من الثدي عن طريق الفم، وهذا له إيحاؤه وأثره في تحقيق الأمومة، التي هي أساس التحريم في الرضاع ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ (النساء:٢٣).

أما ما كان عن طريق الشرب من كأس أو فنجان أو الحقن أو غير ذلك فلا يعتبر رضاعًا شرعيًّا ، تنشأ عنه الأمومة، وهذا مذهب الليث بن سعد، ومذهب الظاهرية، ورواية عن الإمام أحمد.

وحجتي ثانيا: أن الحديث الصحيح يقول: «خمس رضعات مشبعات معلومات يحرمن»[1]. ومعنى «معلومات»: أن تكون المرضعة معلومة، وسن الرضاع معلومًا، وهو ما دون الحولين، وعدد الرضعات معلومًا، وهو ما لا يقل عن خمس، إلخ.

وهنا لا تعلم من أرضعته، ولا كم أخذ من لبنها: أهو قطرة أم قطرات أم أكثر.

وثالثا: أن اختلاط اللبن بعضه ببعض لم يجعل له حكمًا مؤثرًا.

ورابعا: أن القول المحرِّم إذا أخذ بالأحوط، فإنَّ هذا الرأي يأخذ بالأيسر، وأعتقد أنه إذا تعارض الأحوط والأيسر في مثل هذه الأمور التي تتعلق بمطالب المجتمع، وحاجات الناس، ومصالح الخلق، فإن الترجيح يكون للأيسر، كما جاء في حق نبينا صلى الله عليه وسلم عن مسلم: أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا.

وهذا هو منهجي الذي اخترته في فقهي وفي فتاواي: ترجيح الأيسر على الأحوط، إذا تكافأ القولان أو تقاربا.

وهو ما أيدني فيه الطبيب العالم الباحث الأديب الأستاذ الدكتور حسان حتحوت، ومن أراد أن يراجع الموضوع، فليقرأ الجزء الثاني من كتابي «فتاوى معاصرة» فتوى «بنوك الحليب»، وليقرأ محاضر جلسات هذه الندوة.

---

(١) رواه مسلم في الرضاع (١٤٥٢) عن عائشة.

زيارة المغرب والمشاركة بدرس من الدروس الحسنية

في شهر رمضان سنة ١٤٠٣هـ الموافق ١٩٨٣م، دعيت من قِبل وزير الأوقاف المغربي الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري عن طريق سفير المملكة المغربية بالدوحة، للمشاركة في الدروس الحسنية الشهيرة، التي اعتاد ملك المغرب الحسن الثاني أن يقيمها كل رمضان، ويدعو إليها عددًا من العلماء من خارج المغرب، بالإضافة إلى علماء المغرب.

زيارة سابقة سنة ١٩٧٨م

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أدعى إليها لهذه الدروس، فقد دُعيت إليها من قبل عدّة مرات، ولكني كنت أعتذر عن عدم تلبية الدعوة بأعذار شتّى، فقد حذرني كثيرون: أن هذه الدروس تلزم العلماء بطقوس معينة لا تتفق مع طبيعتي، مثل الانحناء، والمبالغة في الثناء والتعظيم للملك الذي يدعونه عادة بأمير المؤمنين. وقلت: أنا في غنى أن أكلف نفسي ما لا تحبه ولا تحتمله، فالاعتذار أسلم طريق.

ولكن سفراء المملكة في قطر الذين خالطوني وعرفوني ظلوا يلحُّون عليّ أن أستجيب، وقالوا لي: إن أحدًا لا يلزمك بشيء من هذه الطقوس، وكل عالم حر في تصرفه.. وأخيرًا استجبت للدعوة في رمضان الموافق ١٩٧٨م، وسافرت إلى المغرب فعلاً، للمشاركة في هذه الدروس، ولكن قدَّر الله سبحانه وتعالى: أن يدخل الملك المستشفى لإجراء عملية جراحية، فلم تعقد هذه الدروس في ذلك الموسم. ومن هنا رتَّبوا لنا زيارة بعض المدن المغربية، وإلقاء بعض الدروس والمحاضرات في بعض المدن، منها مدينة الرباط

نفسها، ومنها الدار البيضاء، ومنها مدينة فاس، التي زرت فيها جامع القرويين الشهير، وألقيت محاضرة في جامعة محمد بن عبدالله، قدمني فيها صديقنا العالم الداعية الثبت المعروف: الدكتور عبد السلام الهراس.

كما زرتُ مدينة تازة، وألقيتُ فيها محاضرة في ذكرى غزوة بدر.

كما شاركتُ في ندوة عقدها التلفزيون المغربي حول «غزوة بدر» والدروس المستفادة منها، وكان معي فيها مؤرخ الفتوحات الإسلامية اللواء الركن محمود شيت خطاب، المعروف بمؤلفاته ودراساته في السيرة والتاريخ، والأخ العالم المعروف الدكتور عبد السلام الهراس.

ومن اللطائف: أن الأخ المذيع الذي كان يدير الندوة، ارتبك عند تقديمنا، فقال: يشترك في هذه الندوة: اللواء الركن يوسف القرضاوي وفضيلة الدكتور محمود شيت خطاب! وضحكنا من ذلك، وأُلغيت هذه المقدمة.

وقد علّق عليها اللواء شيت خطاب قائلاً: إنه ليشرفني أن يطلق علي الشيخ محمود خطاب، لا فضيلة الدكتور، فلقب «شيخ» عندي أفضل من دكتور، ومن لواء، ومن أيِّ لقب دنيوي يحرص عليه الناس. وأحب أن يخاطب الشيخ القرضاوي بلفظ الشيخ لا بلفظ الدكتور. وانتهى تسجيل الحلقة على ما يرام.

وبعد ذلك عدت إلى قطر، عن طريق باريس، بعد أن تعرفت على المغرب في أول زيارة لي إليه. وتعرفت على الأخ الكريم الداعية: عبد الإله بن كيران، الذي صحبني إلى الأسواق، لأشتري بعض الملبوسات المغربية للأولاد. وقلت في نفسي: الخير ما اختاره الله لي، فقد كنت متخوِّفا من هذه الدروس وما قد يكون فيها من إحراجات لا تناسبني. وكل شيء مرهون بوقته على ما قدر الله سبحانه. هذا ما كان في زيارة سنة ١٩٧٨م.

أما هذه المرة، فقد كانت سنة ١٩٨٣م، وفي شهر رمضان ١٤٠٣هـ. وقد سافرت من قطر على طائرة الخليج التي أقلّتني من الدوحة إلى باريس، والتي تقوم عادة من الدوحة بعد منتصف الليل، وتصل إلى باريس في الصباح. ثم آخذ الطائرة المغربية بعدها من

مطار «أورلي» على مسافة غير قليلة من مطار «شارل ديغول»، وقد رتَّب الإخوة من ينقلني ويصحبني.

إفطار في السفر

وأنا عادة إذا سافرت في رمضان إلى القاهرة أو السعودية أو نحوهما، لا أفطر، وأظل صائمًا، لا لأن الفطر ممنوع أو مكروه، ولكن المسافر أمير نفسه، إن شاء أفطر، وعليه عدة من أيام أخر، بعدد الأيام التي أفطرها، وإن شاء صام ولا حرج عليه. خلافًا للظاهرية الذين أوجبوا على المسافر في رمضان أن يفطر. وهو مروي عن أبي هريرة. وفي السفر إلى هذه البلاد العربية، لا أجد مشقة تدعوني إلى الفطر.

والذي دعاني إلى الأخذ برخصة الفطر في هذه المرة: أني وجدت أني لن أصل إلى الرباط إلا الساعة الثانية عشرة منتصف الليل بتوقيت قطر، وكان الوقت صيفًا، مع التنقل من مطار إلى آخر، فرأيت أن الفطر أحب إليّ، وطالما ذكرت للناس الحديث النبوي: «إن الله يحبُّ أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»[1].

وفعلاً عندما وصلت إلى مدينة الرباط، ونزلت الفندق ـ فندق حسان ـ وهو الذي نزلت فيه المرة الماضية، كنا في منتصف الليل تمامًا، بتوقيت قطر، إذ الفرق بين قطر والمغرب ثلاث ساعات.

وبقيت أياما أنتظر دوري في إلقاء درسي، وقد دعانا بعض وجهاء الرباط على الإفطار، على الطريقة المغربية، حيث نتناول شُربة «الحريرة» ثم نصلي المغرب: فريضته وسنته، ثم نعود لاستكمال الإفطار.

مشادة مع د. علي عبد الواحد وافي

ومما أذكره: أني وقعت في مشادة مع أستاذنا الدكتور علي عبد الواحد وافي رحمه الله، الذي عرفته منذ أن كنت في وزارة الأوقاف بالقاهرة، وكنت أشرف على معهد تثقيف

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥٨٦٦) وقال مخرّجوه: صحيح، عن ابن عمر.

الأئمة، وكان هو أحد المحاضرين المرموقين فيه، وكان بيني وبينه مودة، ثم انقطعت الصلة المادية بيني وبينه، بسبب سفري إلى قطر، إلى أن التقينا في الرباط.

كان سبب المشادَّة، هو استخدام اليد اليمنى في الأكل والشرب، وهل هي سنة تتبع أو عادة يفعلها مَن شاء ويتركها مَن شاء؟

وكان رأي الدكتور علي رحمه الله: أن الأكل باليمين والشرب باليمين ليس أكثر من عادة، مثل الأكل باليد أو بالملعقة والشوكة، والأكل على الأرض أو على المائدة.

وهنا قلت له بكل أدب: اسمح لي يا فضيلة الأستاذ أن أخالفك في بعض ما قلت، وأوافقك في بعضه. فأما الذي أوافقك فيه: فهو الأكل باليد أو بالملعقة، والأكل على الأرض أو على المائدة (الطاولة)، فهذه من الأفعال التي ليس فيها أمر ولا نهي من النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا بخلاف ما جاء في شأن الأكل باليمين والشرب باليمين، فقد جاءت فيهما أحاديث صحيحة صريحة، مثل حديث: «لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله»،[1] فجعل الأكل بالشمال من عمل الشيطان، وهو يؤذن بحُرمة هذا العمل.

ولو كان الوارد هنا مجرَّد الأمر كقوله: «سمِّ الله، وكُل بيمينك، وكُل مما يليك»،[2] لقلنا: الأمر هنا يفيد الاستحباب، ولكن النهي في الحديث المقترن بالتشبيه بالشيطان، دلَّ على شيء آخر.

ثم قلت: إن الإسلام يريد بمثل هذا الأدب: أن يغرس في الأمة عادات مشتركة تميزها بين الأمم، فإذا كان الأوربيون يأكلون بالشمال، فإن الأمريكيين يأكلون باليمين.

وهنا قال الدكتور وافي: الأمريكيون لا يأكلون باليمين، بل بالشمال. قلت: يا سيادة الأستاذ، أنا كنت في أمريكا من قريب، وقد زرتها أكثر من مرة، ورأيتهم يأكلون باليمين. قال: أنا أعلم بالغربيين منك.

---

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢٠)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، عن عمر بن أبي سلمى.

قلت: هذا صحيح ومُسلَّم، ولا أدعي أني أعلم منك في هذا، ولكن سيادتك عشت في فرنسا، ولم تعش في أمريكا..

وحاول بعض الحاضرين أن يفض اشتباكنا. وكنت حريصًا على ألا أستمر في هذا الجدل، بل أسفت له، ولكني سمعت خطأ، فلم يسعني إلا أن أصوِّبه، وليس في العلم كبير، وفوق كل ذي علم عليم. برغم أني أعترف أن الدكتور وافي كان من العلماء الموسوعيين، وقد جمع بين الثقافة الشرعية العربية، التي استقاها من الأزهر، والثقافة الغربية، التي استقاها من فرنسا، فكان من كبار أساتذة علم الاجتماع، وأساتذة علم التربية، وأساتذة علم اللغة، وأساتذة الدراسات الإسلامية. ومع ذلك، فلكلِّ عالم هفوة، ولكلِّ جواد كبوة، وهذا لا يسقط اعتباره، ولا ينزل من قيمته.

وكان علماء المغرب أحفياء بي، وقد أحاطوني بتقديرهم وعنايتهم وترحيبهم، طوال الأيام التي أقمتها في الفندق، منتظرًا ليلة درسي، حتى أعلموني بالموعد المرسوم.

درسي عن حديث تجديد الدين

وكانت الدروس عادة تنطلق من آية كريمة، أو من حديث شريف، وقد سألوني عن منطلق الدرس، وهل هو مكتوب أو مُرتجل، فأخبرتهم أنه مرتجل، وأنه ينطلق من الحديث النبوي الذي رواه أبو داود والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: مَن يجدد لها دينها»[1].

والذي رجَّح اختياري لهذا الحديث: أننا في أوائل القرن الخامس عشر الهجري، فلم يمض منه إلا سنتان وبعض الثالثة.

وفي الليلة المعهودة، ذهبت إلى قصر الملك، وحيَّيته وسلَّمت عليه من وقوف، ولم أضطر إلى أن أنحني، أو أخرج عن طبيعتي قيد أنملة، كما قد قيل لي من قبل. بل كان الرجل ودودًا بشوشًا مُرحِّبًا بي أكثر من غيري، ممن ألقوا دروسا قبلي.

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٧٤)، عن أبي هريرة.

وقد استمعت إلى بعضهم، فوجدتُ منهم مَن يسرف في الثناء والإطراء نثرًا وشعرًا، ولكن لم يلزمهم أحد بذلك، وإنما هم الذين التزموا به طَوْعًا.

جلست على الكرسي وجلس الجميع ـ ومنهم الملك نفسه ـ على الأرض، وقد حضر ولي العهد ـ وهو الآن الملك محمد السادس ـ وحضر الوزير الأول والوزراء وكبار رجال الدولة، وقادة الجيش، وسفراء الدول الإسلامية، وكبار العلماء ووجهاء البلد. وكان سفير قطر في ذلك الوقت هو عميد السلك الدبلوماسي، لعراقته في وظيفته هناك، وهو الأستاذ عبد الله الجيدة حفظه الله.

وابتدأت درسي بقولي: مولانا الملك المُعظم... ثم استرسلت في درسي. وجدت الخطاب بهذا الوصف هو أكثر ما يكون ملاءمة لموقفي، وهو تعبير صادق عن الواقع، وليس فيه ما يؤخذ عليَّ.

فأما كلمة «مولانا» فكل المسلمين موالي بعضهم لبعض، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة: ٧١)، وأما كلمة «الملك» فهذه حقيقة، فهو ملك مبايع من شعبه، وأما كلمة «المُعظم» فهي حقيقة كذلك، بل هو معظَّم جدًّا، ولا سيما من ناحية نسبه الشريف، إذ هو يفخر بأنه ينتمي إلى الحسن السبط أحد سيدي شباب أهل الجنة. فلم أكذب ولم أنافق فيما قلت.

ثم أوردت الحديث كما هو في سنن أبي داود، وأخذتُ أشرحه وأربطه بالواقع، مُبيِّنا معنى التجديد وجوانبه المختلفة، وهل المجدِّد فرد أو جماعة أو مدرسة؟ واخترت الاتجاه الثاني، وكلمة «من» في الحديث، تصلح للجَمْع، كما تصلح للمفرد[1]، وعرجت على قضايا واقعية حية، في الخمسين دقيقة التي استغرقها حديثي، وقد كان الملك يصغي إليَّ باهتمام: بوجهه وعينيه وأذنيه، وكذلك الحاضرون جميعًا، وكان حديثي يحمل نقدًا للواقع، الذي نعيشه في ديار العرب والإسلام، وهو حديث عالم مشغول بالدعوة والإصلاح والتجديد، فلا يُتصور أن ينفصل عن واقع الأمة وأدوائها وآمالها.

---

(١) انظر إلى شرح هذا الحديث، ومعنى التجديد فيه وجوانبه في كتابنا «من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا» فصل: تجديد الدين الذي ننشده.

مناقشة مع الملك

وفي آخر الدرس، أو قل: بعد أن ختمته، سألني الملك سؤالاً مهمًّا على عادته في مناقشة العلماء، وذلك حين قال: إنَّ الذي نحفظه في رواية هذا الحديث: أنه بلفظ: «يجدِّد لها أمر دينها». قلت: هذا هو المشهور على الألسنة، ولكن الذي رواه أبو داود في كتاب الملاحم من سننه، ورواه الحاكم في مستدركه، ورواه البيهقي في معرفة السنن والآثار، كلهم متفقون على هذه الصيغة: «يجدد لها دينها»، والتجديد بالمعنى الذي شرحته لا حرج فيه.

وقد كان هذا السؤال من الملك والرد عليه مني بصراحة، موضع حديث المغرب كله: أني رددت على الملك، ولم أُسلِّم له، كما يفعل كثيرون، ولا أرى في ذلك بطولةً ولا فضلاً، فقد سأل الملك سؤالاً، وبيَّنت له الإجابة حسب علمي. ولن أحرّف العلم من أجل الملك، ولا أحسبه هو يرضى ذلك مني، ويبدو أن الذي تعوده الناس من العلماء: ألا يعقبوا على ما يقوله الملك.

ولانشغالي بالدرس أكثر من انشغالي بالملك، لم أفكر في الدعاء له في ختام حديثي. فقد تركت نفسي على سجيَّتها، وكأنما أنا في درس في أحد جوامع الدوحة.

وفي ختام المجلس: صافحني الملك بحرارة، وقال لي: نريدك أن تكون معنا في الموسم القادم. وطلب مني أن أبلغ سلامه إلى سمو أمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، وقد فعلت. كما سلَّم عليّ وليّ العهد وكبار رجال الدولة، وسفير قطر، الأستاذ عبد الله الجيدة، عميد السلك الدبلوماسي في المغرب، وسفير عُمَان، وقد كان ممن يحضرون دروسي في الدوحة، وقد حصل على الثانوية من قطر، وهو من آل الحارثي.

صدى الدرس في المغرب

كان لهذا الدرس ـ الذي أعُدّه عاديا بالنسبة لي ـ صدى واسع عند الناس كافة في المغرب، حتى قابلت بعض أساتذة الجامعات بعد ذلك، ووجدتهم مسرورين من حديثي، معجبين به، ولا سيما أني لم أراع فيه إلا وجه الله تعالى، ولم ألو فيه عنق الحقائق،

ولم أحرِّف الكلم عن مواضعه، ولم أنْحن ولم أنْثن. ونوَّهت مجلة العدل والإحسان، على لسان مؤسِّس الجماعة الشيخ عبد السلام ياسين بموقفي في هذا الدرس.

وكان عندي لقاء مع الشباب الإسلامي في تلك الليلة، التي سأسافر إن شاء الله في صباحها.

والتقيت الشباب، أظنُّ ذلك في منزل الأخ الفاضل عبد الإله بن كيران، وعددًا كبيرًا من إخوانه، وكانوا في غاية السرور والانشراح من الدرس وصداه في المجتمع المغربي، الذي لمسه الجميع بمجرد إلقائه.

وكان مما قالوه لي: إنك لا تعرف أثر هذا الدرس في هذه المملكة كلها، إن الناس في المغرب كله ـ على اختلاف مستوياتهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية والدينية- كانوا ينتظرون ماذا سيقول القرضاوي في درسه أمام الملك: الإسلاميون، والليبراليون، والماركسيون، والقوميون، وكل الأحزاب والفئات.

قلت لهم: حتى الإسلاميون كانوا ينتظرون هذا الدرس؟

قالوا: نعم، كان الإسلاميون وربما نحن منهم، يقولون: إما أن نمزق كتبه بعد هذا الدرس، إذا لم يوفّ بحقها، ولم يحترم ما قاله فيها، وإما أن نزداد احترامًا واحتضانًا لها!

قلت لهم: لعل كتبي سلمت من التمزيق!

قالوا: الحمد لله، بل ازددنا لها حبًّا، وبصاحبها تعلُّقًا، وهذا هو الموقف في المغرب من أقصاه إلى أقصاه.

قلت: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وألقيتُ فيهم كلمة دعوية توجيهية، وأجبتُ عن عدد من أسئلتهم التي أعدوها لتُطرح عليّ قبل أن نتناول السحور، ونصلي الفجر، وننصرف.

الإجابة عن سؤال يتعلق بإثبات بداية الصيام ونهايته

وأذكر من هذه الأسئلة سؤالاً مهما يتعلق بإثبات بداية الصيام ونهايته، قال الإخوة:

إن عندنا مشكلة تظهر في بداية كل رمضان ونهايته، فلدَيْنا فئات ثلاث من أهل المغرب:

١ ـ فئة تصوم وتفطر مع «المملكة العربية السعودية»، وهم عادة من الإخوة السلفيين أو ممَّن يسميهم الناس: الوهابيين.

٢ ـ وفئة ثانية تصوم وتفطر مع «تونس» التي تعتمد الحساب الفلكي في صيامها وفطرها. وغالبًا ما يتفق هذا مع مصر والجزائر وغيرهما.

٣ ـ وفئة ثالثة، تصوم وتفطر مع ما تقرره السلطات الشرعية المسؤولة في المغرب. وهي في العادة تتأخر عن هؤلاء وأولئك. فما رأيك في هذه الفئات الثلاث، وأيها ترجح لنا أن نتبعه؟

قلت: الكلام في هذا يطول، ورأيي الذي أفتي به من سنين طويلة: أن نعتمد الحساب الفلكي في النفي لا في الإثبات، بمعنى: أنّ الحساب إذا نفى إمكانية الرؤية من الناحية العلمية القطعية، فلا نقبل شهادة الشهود، لأن شهادة الشهود ظنية، والحساب الفلكي العلمي قطعي، والظنّي لا يقاوم القطعي، فَضْلاً عن أن يقدَّم عليه. كما قال الإمام تقي الدين السبكي في رسالة له. وإذا قال الحساب بإمكان الرؤية، فإن وجود الرؤية في أي مكان يمكن أن يثبت به الهلال في البلاد الأخرى، وخصوصًا ما كان قريبا منه، بناءً على عدم اعتبار اختلاف المطالع.

ولكن ما أراه شيء، وما هو واقع شيء آخر. فأحيانًا يثبت الهلال في السعودية، مع أن الحساب القطعي يقول: إن الهلال لم يولد بعد. فالمشكلة هنا في وجود الخطأ في إثبات الرؤية، إذا كان الهلال لم يولد: كان الشاهد مخطئًا أو واهمًا أو كاذبًا.

على أن الذي أقره هنا باطمئنان: أننا إذا لم نصل إلى وحدة المسلمين في شعائرهم الدينية في أقطار الأرض كلها، كما يحلم كثيرون، فلا أقل من أن نحرص على وحدتهم في كل قطر، بحيث يصومون معًا، ويُعيِّدون معًا. إذ ليس مقبولاً بحال أن يصوم جماعة منهم وسائر أهل البلد مفطرون، أو تعلن العيد فئة منهم فيصلون ويكبرون وسائر أهل البلد صائمون.

ولذا أرى أنَّ أسلم المواقف في المغرب هو موقف الفئة الثالثة التي تصوم وتفطر مع أهل المغرب، بناء على تعليمات السلطات الشرعية المُخوَّلة بإثبات الهلال، كالمحاكم الشرعية، أو الإفتاء، أو وزارة الأوقاف، أو غيرها.

قلت للأخوة: إن الملك قال: نريد أن نراك معنا في رمضان القادم.

قالوا: ثق بأنهم لن يدعوك مرة أخرى. ستُعرِّفه المخابرات: من أنت؟ وما أفكارك؟ وما دعوتك؟ وما تاريخك؟

قلت لهم: لست حريصًا على الحضور، إذا دعوني فأهلاً وسهلاً، وإلاّ، فحسبي أني قلت كلمتي، وأديت واجبي. وما أريد للمغرب إلا الخير.

وتسحَّرنا، وصلَّينا الفجر، وذهبت إلى الفندق، لأستعدّ للسفر في أول طائرة إلى باريس. وفي المطار أقبل عليّ الناس يعانقونني ويقبّلون يدي، ويمطرونني بعبارات الثناء والشكر والدعاء.

وحين ركبت الطائرة أقبل عليّ قائدها، والمضيّفون والمضيّفات، كلهم قد شاهدوا درسي وتأثّروا به. فأتوا يصافحونني أو يعانقونني.

وفي مطار باريس، وجدتُ كثيرين ممن شاهدوا الدرس في التلفاز يحيطون بي، وفي أعينهم بريق الفرح، وعلى ثغورهم ابتسامة الرضا، وعلى ألسنتهم الدعوات الخالصة لشخصي.

وهذا من فضل الله عليّ، فما قدمت شيئا، غير أني قلت ما أومن به، وأرجو أن يكون في ميزاني في الآخرة ثوابًا وجزاء، كما كان لي في الدنيا ثناء وإطراء.

ولقد بقيت يومًا في باريس، وصلَّيت المغرب في إحدى المصلّيات، وأفطرت سريعًا مع الإخوة، وبتّ في الفندق، لآخذ طائرة الخليج في اليوم التالي إلى الدوحة.

زجاجة ويسكي

وأذكر حادثة طريفة وقعت لي في تلك الليلة، فقد كان في حجرتي ثلاجة فيها مشروبات

تعمل إلكترونيًّا، وأنا أُمّيّ في استخدام الإلكترونيات، فقد ضغطت على زر في الثلاجة، لأحصل على مشروب، فإذا بالزر الذي لمسته، ينزل لي «زجاجة ويسكي»!!

يا للهول! وماذا أفعل بهذه المصيبة؟! المهم أني لا أستطيع أن أردها إلى موضعها من الثلاجة. وقد سجلت عليَّ في حسابي: ثمن زجاجة ويسكي معتّق! وحين نزلت في الصباح لأغادر الفندق، أخذت الزجاجة معي مضطرًّا لحملها، مع ما ورد في لعن حامل الخمر، ولكني أريد أن تحذف من سجلي في الفندق. واستعنت بأحد الإخوة من الجزائريين، الذين يعرفون الفرنسية، ليُفهم رجال الفندق بالقضية، أني مصر على حذفها من سجلي، وبعد أخذ وردّ، وجذْب وشدّ، استجابوا لي، ولله الحمد.

ولقد تركت المغرب، وليس للناس حديث إلا درس القرضاوي أمام الملك، ورد القرضاوي الشجاع على سؤال الملك، وليس في الأمر شجاعة إلا بيان الحق بصراحة دون التواء.

ولقد قال لي ابننا الحبيب وتلميذنا النجيب فريد شكري، الذي يلقبه إخوانه بالمغرب: القرضاوي الصغير، قال لي: لقد سجَّلت الدرس على شريط كاسيت، وأعدته مرارًا حتى حفظته، ولقد كنت أكرره لنفسي، وأكرره لمَن يطلب سماعه، حتى أزعم أني سمعته حواليْ ثلاثمائة مرة!!

في مدينة جنيف

وفي الصيف سافرت إلى مدينة جنيف في سويسرا، لأشارك في اجتماع هيئة الرقابة الشرعية لدار المال الإسلامي، وكنت عضوا فيها، وقد اصطحبت معي ابني الأكبر «محمدًا»، وأردت أن أتيح له فرصة ليتفرَّج على جنيف، ويرى بعينيه أوربا. وأهم ما في جنيف هو «البحيرة» التي تطلّ عليها المدينة، والتي يتمتّع المصيفون بالجلوس على مقاعدها، أو التجول حولها، أو ركوب إحدى البواخر التي تطوف بها مُشرِّقة ومُغرِّبة. وقد وجدت هذه أمثل الطرق للاستمتاع بالبحيرة الجميلة، التي لا أكاد أستمتع بها، على رغم حضوري إلى جنيف مرات ومرات. وقطعت تذكرتين لي ولابني. وكان من المصادفات الطيبة: أن وجدت الأخ الداعية الكبير الأديب الشاعر الأستاذ عصام العطار،

الذي لم أره منذ سنوات. وبعد أن تصافحنا وتعانقنا، ذكر لي أبو أيمن قائلا: إن درسك أمام الملك الحسن، قد طبع منه الإخوة المغاربة الألوف المؤلفة من الأشرطة، ونشروه على نطاق واسع في أوربا، وكان له أثر بالغ في أنفس كثيرين، فجزاك الله خيرًا.

الصدى الهائل والتأثير الكبير

وفي ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر التقيت الأستاذ الدكتور محمد عزيز لحبابي أستاذ الفلسفة في المغرب، وزوجته الدكتورة عائشة، فكان أول ما قالاه لي: كان درسك أمام الملك بالغ الروعة، وقد أثَّر في أبناء المغرب، وشاهده الناس جميعا. قلت لهما: مثل هذه الدروس يهتم بها الناس، فيرونها في التلفزيون، أو يسمعونها في الإذاعة.

قالا: مثل هذه الدروس تلقى باستمرار، ولا يهتم الناس بها، ولا يلتفتون إليها، وخصوصًا المثقفين. ولكن لأن هذا درس القرضاوي كان موضع اهتمام الجميع.

قلت في نفسي: ما أعظم ما يملك أصحاب الرسالات الربانية من قوى لا يقدِّر الخصوم قدرها! كلمة حق قلتها في درس كان لها هذا الصَّدى الهائل، وهذا التأثير الكبير، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٤، ٢٥).

ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر عن الاجتهاد في قسنطينة صيف ١٩٨٣م

مشاركة مثمرة وإقبال كبير

كانت مشاركتي الأولى في ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر في تلمسان: مشاركة مثمرة، وكان إقبال الناس عليّ كبيرًا، مما أخجلني وحمَّلني بمشاعر أعجز عن التعبير عنها، وبنعم أحمد الله عليها، وأسأله أن يزيدني منها ويثبتها، ويُوزعني أن أشكرها.

وكان الجميع، وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن شيبان: يؤكدون على ضرورة وجودي في الملتقيات القادمة، وألا أغيب عنها، ما لم يقهرني قاهر لا أقدر عليه.

ولذلك رتَّبت أموري على حضور ملتقى قسنطينة في شوال ١٤٠٣هـ يوليو ١٩٨٣م،، وقد أعلن عن موضوعه، وهو «الاجتهاد» وأعددت بحثًا في الموضوع.

وشيء آخر ألزمني بحضور ملتقيات الجزائر، وهو: ما لمسته من أثر غير عادي، وتجاوب غير عادي من شباب الجزائر، ومن إقبالهم عليّ إقبالا أخجلني وسرّني في الوقت نفسه. وليس هناك شعور بالسعادة يحسّه المرء مثل أن تشعر بحبّ الناس لك، وأنهم لا يحبُّونك لمصلحة خاصة، فهذه نعمة جليلة من الله على عبده. ومن شكر هذه النعمة أن نقابل الحب بمثله. والمصريون يرددون في ذلك زجلا لشاعر شعبي معروف، اسمه ابن عروس، يقول فيه:

من حبنا حبناه	وصار متاعْنا متاعه
ومن كرهنا كرهناه	يحرمْ علينا اجتماعُه

فلا غرو أن أعددت العدّة للسفر إلى الجزائر، ولا سيما أن الدعوة قد بلغتني مجدَّدًا، والتذكرة قد وصلت، وقد أعددت البحث المطلوب للملتقى بحمد الله وتوفيقه.

وفي الموعد المحدَّد سافرت من القاهرة إلى الجزائر، حيث كنت مع الأسرة نقضي الإجازة ـ كالعادة ـ في مصر.

وصلت إلى مطار الجزائر، فوجدت الإخوة كالعادة في استقبالي، وقد أوصلوني إلى فندق الأوراسي، وفي الجناح المجاور للشيخ الغزالي، كما في المرة السابقة، وأنْعِم به من جوار، والمثل يقول: من جاور السعيد يسعد. وأنا أحب الغزالي من قديم، وأسعد بالقرب منه دائمًا، فالقرب منه قربة إلى الله تعالى.

إلى قسنطينة بلد ابن باديس ومكان ملتقى الاجتهاد

وصلت إلى الجزائر العاصمة قبل موعد الملتقى بيومين أو ثلاثة، وانتهز الإخوة وجود فسحة في الوقت قبل الذهاب إلى مكان الملتقى، فرتبوا لي محاضرة في أحد المساجد الكبرى، وقد ذهبت إلى المسجد في الموعد المحدد، فوجدت بحرا زاخرا من الشباب والشابات امتلأ بهم المسجد وساحاته، وقد قدر العدد بأكثر من عشرين ألفا. وكانت استجابتهم رائعة، وحماستهم دافقة، وهتافاتهم بالتكبير والتهليل تكاد تبلغ عنان السماء.

وقبل يوم الافتتاح أقلّتنا طائرة خاصّة ـ نحن المدعوين إلى الملتقى ـ مع وزير الشؤون الدينية الشيخ عبد الرحمن شيبان تلميذ ابن باديس الوفي، ورجاله إلى مقر الملتقى في قسنطينة.

وقسنطينة نسبة إلى قسطنطين إمبراطور الروم الشهير الذي انتقل من الوثنية إلى النصرانية، وإن لم يتنازل عن كل وثنيته، التي طعَّم بها النصرانية. ولذا علق بعض علمائنا قديما فقال: إن روما لم تتنصَر، ولكن النصرانية تروّمت!

وإلى هذا الملك تنسب أيضًا مدينة القسطنطينية الشهيرة، عاصمة الدولة الرومانية البيزنطية، لعدة قرون، والتي افتتحها العثمانيون عام ١٤٥٣م، وسميت إسلامبول أو إستنابول.

هذه المدينة هي التي شهدت انطلاقة المصلح الجليل، والمجدِّد الكبير، الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠م) مؤسس جمعية العلماء، ومحيي النهضة الجزائرية، ومؤسّس مجلة «الشهاب»، التي عرفناها من خلال العدد الأول من مجلة «الشهاب» التي أسسها الإمام حسن البنا سنة ١٩٤٧م، وقال: أرجو أن تكون خلفًا لشهاب ابن باديس.

كانت جمعية العلماء هي حاملة لواء الإحياء والبعث للشعب الجزائري، بإحياء إيمانه بدينه ولغته العربية، وهما أساس وجوده الديني والقومي، وألَّف في ذلك ابن باديس نشيده الذي كان يحفظه الشباب الجزائري ويرددونه:

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال: حاد عنَ اصله	أو قال: مات فقد كذب

وكان مع ابن باديس صفوة من علماء الجزائر الذين تعاهدوا على أن ينهضوا ببلدهم، برغم وجود الاستعمار الاستيطاني المتسلط المتجبر «الاستعمار الفرنسي»، الذي آلى على نفسه أن يذوِّب «هُويَّة» الجزائر، بإنسانها ودينها ولغتها، فأبى هؤلاء العلماء إلا أن يفسدوا عليه خطته، ويحبطوا مكره الكبير، بإمكاناتهم القليلة. ولكن معهم إيمانهم بالله، وثقتهم بالشعب، وأملهم في الغد.

على رأس هؤلاء العلماء أمير البيان ببلاد المغرب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، رفيق الشيخ ابن باديس في حياته، وخليفته من بعده، ومنشئ مجلة «البصائر» الشهيرة، والشيخ العربي التبسيّ، وغيرهما.

في قسنطينة كان النشاط الأساسي للشيخ ابن باديس، وفيها مسجده الأخضر، الذي ألقى فيه تفسيره للقرآن الكريم حتى ختمه.

ولا تزال هذه المدينة تغلب عليها نزعة المحافظة على الدين والتراث، من آثار المدرسة الباديسية وتلاميذها حتى اليوم.

كان موعدنا إذن مع ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر في قسنطينة شرقي الجزائر، وموضوعه «الاجتهاد».

كان المسؤولون في وزارة الشؤون الدينية، قد دعوا إلى ملتقى للقرآن الكريم في عام ١٩٨١م، ولم أشهده، وإلى ملتقى للسنة الثانية في مدينة تلمسان ١٩٨٢م وقد سعدت بشهوده والمشاركة فيه.

واليوم نستكمل هذا التوجُّه بالدعوة إلى «ملتقى الاجتهاد» فالقرآن والسنة مصدران يمثّلان الوحي الإلهي: الوحي المتلو «القرآن»، والوحي غير المتلو «السنة»، أو الوحي الجلي والوحي الخفي، ولكن الاستفادة من الوحيين لا تتم إلا بالاجتهاد.

وقد زعم زاعمون أن باب الاجتهاد قد أغلق منذ قرون بعد الأئمة المتبوعين، وبخاصة الاجتهاد المطلق، ولكن الاجتهاد باب فتحه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يملك أحد أن يغلقه.

وفي كل عصر قد وجدنا علماء كبارًا قد بلغوا مرتبة الاجتهاد المطلق، وامتلكوا شروطه وأدواته، وإن لم يعلنوا أنهم مجتهدون.

وفي أواخر القرن التاسع الهجري، وأوائل القرن العاشر: ادعى الإمام المصري الحافظ الكبير، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) الاجتهاد المطلق، وأنكر عليه ذلك كثير من علماء عصره، الذين حصروا أنفسهم في دائرة التقليد، فتحداهم بكتابه المركّز القيم، الذي سمّاه «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»!

وقد ذكر في هذا الكتاب جملةً وافرة من العلماء الذين ارتقوا إلى درجة الاجتهاد، وأُثرت عنهم اجتهادات خالفوا فيها مذاهبهم التي ينتسبون إليها.

ومن هنا: نرى أن الإخوة في الجزائر قد وفّقوا في اختيار هذا الموضوع الحيوي، وقد دعوا إليه نخبة من العلماء المهتمين بقضايا الفكر والاجتهاد، وعلاج مشكلات العصر

في ضوء الشريعة الإسلامية، التي يعلن الجميع أنها صالحة لكل زمان ومكان. وإنما تصلح الشريعة بإحياء الاجتهاد. أما الجمود والتقليد والتعصب فلا تحيا بها شريعة، ولا تنهض على أساسها أمة.

شرح الاجتهاد: أن يكون من أهله في محله

الاجتهاد كما أرى: فريضة وضرورة. فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع. وبغير الاجتهاد سنظل في مكاننا لا نتحرَك ولا نتقدم، ولكن جمودنا ووقوفنا في مكاننا: لن يمنع الفلك من التحرُّك، ولا الأرض من الدوران.. سيتطوَّر العالم من حولنا، ونبقى جامدين. والعيب ليس في شريعتنا، ولكن العيب فينا نحن: في عقولنا المتحجّرة، أو في عزائمنا الواهية.

ولكن المهم كل المهم: أنَّ الشرط الأساسي في الاجتهاد الذي نسعى إليه: أن يكون صادرًا من أهله في محله، حتى يحوز القبول، ويمكن العمل به.

ومعنى «من أهله»: أن يكون المجتهد مستوفيًا لشروط الاجتهاد، التي فصّلها علماء أصول الفقه في كتبهم. وهي ليست مستحيلة على من نذر نفسه للعلم، وكان ممن آتاه الله الفطنة والبصيرة. فربط نصوص الشرع الجزئية بمقاصده الكلية، وجعل التراث الفقهي منارًا يهديه، لا قيدًا يعوقه، واستفاد من تراث الماضي لعلاج مشكلات الحاضر، وذلك بعد تضلّعه من علوم الشرع ومن علوم اللغة التي هي آلة لفهم الشرع. كما استنار بمعرفة العصر وثقافته وتياراته، فجمع بين ثوابت الشرع ومتغيِّرات العصر. وعلم أنَّ للضرورات أحكامها، وأنَّ الله يُحبُّ أن تُؤْتى رخصه، وأنه يريد بعباده اليُسْرَ، ولا يريد بهم العُسْر، وأنه ما جعل عليهم في الدين من حرج.

ومعنى: أن الاجتهاد «في محله»: أنه في الدائرة التي يجوز فيها الاجتهاد، وهي دائرة «الظنيات» من النصوص، أو الدوائر التي لم يرد فيها نص ملزم، وهي ما سميناه «منطقة العفو» أخذًا من حديث: «ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما

سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا. ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: ٦٤)»[1].

أما دائرة «القطعيات» التي فصلت فيها نصوص قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، فقد حُسم فيها الأمر، ولا مجال للاجتهاد فيها، وهي التي أجمعت عليها الأمة، وتوارثتها الأجيال، وأصبحت تُجسِّد وحدة الأمة العملية والسلوكية، بجوار وحدتها العقدية.

وهذه القطعيّات هي التي تمثِّل «الثوابت» التي تحدد هوية الأمة وشخصيتها العقدية والفكرية والأخلاقية، فلا يجوز لمدّع ـ باسم الاجتهاد ـ أن يخترقها أو يجور عليها.

اقتراح بعضهم صلاة الجمعة في يوم الأحد

ولهذا رفض المشاركون كافّة: ما انتهى إليه اجتهاد أحدهم ـ وهو الأستاذ ظافر القاسمي من سورية وهو مؤرخ وباحث وابن العلامة جمال الدين القاسمي الشهير ـ وهو خاص بصلاة الجمعة في يوم الأحد.

ذكر الأستاذ القاسمي: أنه كان في سفرة إلى أمريكا، ووجد هناك أحد المسلمين الأخيار من الأثرياء، وقد وفقه الله لبناء مسجد يصلي فيه المسلمون مايسَّر الله لهم من الصلوات الخمس، ومن صلاة الجمعة.

ولكن يوم الجمعة يوم عمل في أمريكا، فلذا كان الاجتهاد الذي طرحه الأستاذ: أن يصلي المسلمون الجمعة في يوم الأحد، يوم إجازتهم.

ورأى الإصرار على صلاة الجمعة في يوم الجمعة من «الجمود» الذي يجب أن نتجاوزه في عصرنا، لنقدر على حلِّ مشكلاتنا.

كما رأى أننا لو أخذنا برأي العلامة الطوفي الحنبلي (٧٢٢هـ) في تقديم المصلحة على النص، لحللنا هذه المشكلة، وغيرها من مشاكلنا العصرية!!

اعترض العلماء الحاضرون جميعا على الأستاذ القاسمي، ولم يشفع له: أنه ابن الشيخ

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٢/ ٤٠٦)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن أبي الدرداء.

جمال الدين علاّمة الشام، وصاحب «محاسن التأويل في تفسير القرآن، وقواعد التحديث في علوم الحديث» وغيرها.

وكنت ممن اعترض على الأستاذ القاسمي في عدة نقاط أساسية:

أولها: أن هذا اجتهاد في غير محله، لأنه اجتهاد في أمر قطعيّ، ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الأمة بكل طوائفها ومذاهبها. فقد حدّدت جميعا لصلاة الجمعة يومًا ووقتًا، فمن لم يستطع الصلاة في اليوم المحدَّد، والموعد المحدَّد: سقطت عنه الفريضة، للعذر. ومن لم يمكنه أن يصلي الجمعة صلاها ظهرًا بالاتفاق.

وقد قلت للأستاذ: ماذا تسمي هذه الصلاة المقترحة: أنسميها «صلاة الأحد» أم «صلاة الجمعة»؟

وماذا تقول في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الجمعة:٩)؟ أنغير كلمة «الجمعة» إلى كلمة «الأحد»، وهل نسمِّي السورة «سورة الجمعة» أو «سورة الأحد»؟!

ثانيا: ما ذكره الأستاذ عن الطوفي لا يمثِّل حقيقة مذهبه في المصلحة:

أ ـ فهو أولاً: لا يعتدّ بالمصلحة في أمور العبادات، لما فيها من اعتبار التعبُّد والتقرُّب إلى الله، بغض النظر عن المصالح وغيرها، وسواء أدركنا العلة فيها أم لم ندركها وكذلك المقدَّرات.

ب ـ وهو ثانيًا: لا يقدِّم المصلحة على النص القطعي الثبوت والدلالة، كما توهم بعضهم ممن لم يجمع كلامه كله، ويربط بعضه ببعض. (وقد أثبتنا بطلان هذا القول بالدليل القاطع من كلامه في كتابنا «السياسة الشرعية بين نصوص الشريعة ومقاصدها»).

فهذا اجتهاد مردود، وآفة كثير من الاجتهادات المردودة: أنها تصدر من غير متخصِّصين، بل من أناس مثقفين أقحموا أنفسهم على الشريعة، وهم لم يتفقهوا في

علومها، بعضهم أساتذة تاريخ، وبعضهم أساتذة أدب، وبعضهم أساتذة فلسفة أو تصوف أو غير ذلك[1].

والمشكلة التي ذكرها الأستاذ القاسمي في أمريكا قد حلَّها المسلمون هناك: أن من استطاع صلاة الجمعة صلاها، ومن لم يستطع اجتمع مع إخوانه يوم الأحد في محاضرات ونشاط ثقافي ودعويّ وتربويّ يستغرق اليوم كله.

كلمة من بعض العلماء اعتذر عنها

وكان من المدعوين للملتقى فضيلة الشيخ الدكتور عبد المنعم النمر العالم المصري المعروف، والذي رأس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي» بالكويت لعدة سنوات ونهض بها، والذي أصبح وكيلاً للأزهر بعد ذلك، وكان له رأي في بعض القضايا أيدته فيه، نسيت في أيّ شيء كان، ولكن فوجئت بأن بعض إخواننا من العلماء المشاركين من بلاد الشام، يقول لي: أن كان ابن بلدك تؤيده وتسانده! فقلت له: سامحك الله يا دكتور، إنَّ بلدي هو الإسلام، فحيثما ارتفعت المآذن تعلن أن لا إله إلا الله محمد رسول الله كان هناك بلدي. ولكني أؤيد ما أرى أنه الصواب أو الأصوب، ولو كان من بلاد واق الواق!

وكان للشيخ النمر اجتهادات في أمور أخرى حول السنّة، وحول الفوائد الربوية، وغيرها، عارضته فيها بقوة وصراحة، ورددت عليه بما لم يستطع الآخرون أن يردوا عليه. فجاء أخونا، وقال: اسمح لي يا فلان، أنا آسف على الكلمة التي قلتها من قبل. فوالله لقد رأيتك تقول الحق دون اعتبار لبلد أو نسب. وكان هذا من إنصافه ورجوعه إلى الحق، واعترافه بالخطأ، غفر الله له وهي شجاعة أدبية يُحمد عليها.

بحثي في الملتقى

شاركت في الملتقى بإلقاء بحثي، وبالتعقيب على بحوث المشاركين، والردود على

---

(١) وقد أوردت نماذج من هذه الفتاوى الشاذة في كتابي: «الفتاوى الشاذة»، نشر دار الشروق، القاهرة.

أسئلة الطلاب والطالبات في الجلسات المخصصة لهم. وقد حضر هذه المرة منهم أعداد أكبر ممّن حضر في الملتقى السابق، وقد خصوني بعدد أكبر من الأسئلة.

النشاطات المصاحبة للملتقى

كما شاركت في الأنشطة المصاحبة للملتقى من لقاء الطلاب والطالبات في المساء حيث يقيمون في مواقعهم أو مواقعهن، وفي إلقاء بعض المحاضرات الجانبية، وفي إلقاء كلمة قبل الجمعة في المسجد الذي تذاع فيه الخطبة، حيث يمنع المذهب المالكي السائد في الجزائر: أن يكون المسافر إمامًا للمقيمين في الجمعة.

وكان إقبال الطلبة عليّ في هذا الملتقى أكثف من قبل، وخصوصًا في الاستراحات، فيجتمع الشباب من حولي لتوجيه أسئلة، أو أخذ صورة معي. وكان رجال الأمن هذه المرة قد تنبَّهوا لوجودي، فكلما وجدوا الشباب من حولي يتحدثون إليّ أو يستمعون إليّ: حاولوا أن يفرقوهم عني برفق، بحجة الإشفاق عليّ، قائلين: ارفقوا بالشيخ، لا تزعجوا الشيخ.

كما كان بعضهم يزورني في حجرتي كلما تيسَّر لهم ذلك، وقلما كنت أمكث في الحجرة.

الإذن بنشر كتبي في الجزائر

وجاء الناشرون يطلبون مني الإذن بنشر كتبي في الجزائر، قلت لهم: ولماذا لا تأخذونها من ناشريها في المشرق؟

قالوا: هناك قيود مشدَّدة على تحويل العملة تجعلنا لا نستطيع الوفاء بحقوق الناشرين المالية. وفي معارض الكتب تأتي من كل كتاب عشرات، أو حتى مئات، فيهجم طالبو الكتب الإسلامية عليها فتنفد بعد ساعات. حتى كان بعض الشباب يبيت أمام المعرض، لتكون له الفرصة الأولى، لأن المعروض قليل، والمطلوب أضعاف ما هو معروض.

ولذلك لم أجد بدًّا من الإذن لهم بنشر بعض كتبي، واشترطت عليهم ألا ينشروها خارج الجزائر، حفاظا على حقوق الناشرين الأصليين في مصر وبيروت.

وفي كل سنة يزداد الإقبال على نشر الكتب، وقال لي بعض الناشرين: إن نشر الكتب الإسلامية هو الشيء الوحيد المسموح لنا به. أما ما عدا ذلك فهو ممنوع، لا أحزاب، لا جمعيات، لا نقابات.

قلت: إن نشر الكتب الأصيلة وإرخاص سعرها، وتعميمها على القراء: جدير أن يحدث ثورة ثقافية! وقد فعلوا مع الشيخ الغزالي والشيخ البوطي مثل ما فعلوا معي.

تعريب التعليم

وأريد أن أشير هنا إلى حقيقة مهمة قد تخفى على كثيرين، وهي: أن الصحوة الإسلامية التي نبتت في الجزائر، ثم اشتدّت وامتدّت، إنما هي ثمرة طيبة لبذرة طيبة، هذه البذرة هي التي أنبتت شجرَةً باسقة الفروع، وارفة الظلال، هي: تعريب التعليم العام، أعني: تحويله من الفرنسية إلى العربية، في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية. وهذا يحسب لهواري بو مَدْين الذي أصر على تعريب التعليم ونفذه، مستعينا بالمصريين في ذلك.

ولولا تعريب التعليم ما استطاع شباب الجزائر أن يقرءوا الكتب الإسلامية، وأن تُحدث فيهم أثرها، وما استطاعوا أن يفهموا العلماء والدعاة الإسلاميين في الملتقيات وغيرها، ولا أن يستمعوا إلى أشرطة الخطباء والمحاضرين المشهورين.

فالصحوة الإسلامية مدينةٌ لتعريب التعليم، وقد كانت أول دفعة تدخل الجامعة ـ بعد تعريب التعليم ـ عندما بدأت زيارتي للجزائر. ولذا قلت: إن الصحوة بنت التعريب. ولا سيما أن معظم الشعب الجزائري ـ حوالي ٧٠٪ ـ منه من الشباب.

ملتقى الصحوة الإسلامية بالجزائر سنة ١٩٨٤

كانت وزارة الشؤون الدينية المنظمة لملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر، قد اختارت موضوع «الصحوة الإسلامية» ليكون محور الملتقى في هذا العام ١٩٨٤ . وكانت الوزارة وجهازها المعني بالملتقيات، وعلى رأسه الشاب النابه المثقف المتوقد، عبد الوهاب حمودة وإخوانه، ومعهم الوزير العالم الشيخ عبد الرحمن شيبان، يحسنون اختيار الموضوعات، فقد عقدوا مؤتمرا عن القرآن، ثم عن السنة، ثم عن الاجتهاد، ثم هذا عن الصحوة.

وكانت الصحوة قد فرضت نفسها على الواقع العربي والإسلامي ،والواقع العالمي، حتى إن أمريكا قد رصدت عشرات الملايين ـ إن لم تكن مئاتها ـ من الدولارات لرصد هذه الصحوة ودراسة نواحي قوتها وضعفها. وعقدت لذلك عشرات الندوات وأصدرت كثيرًا من الدراسات.

فلا غرو أن تكون الصحوة محور ملتقانا هذا العام في الجزائر الشقيقة. وقد أصبح حضوري في هذه الملتقيات فرضًا عليّ، بعدما حضرت أول مؤتمر في تلمسان، والثاني في قسنطينة، وعرفت مدى أهمية مشاركتي، وأن غيابي عن هذه الملتقيات بغير عذر قاهر يُعَدّ فرارًا من الميدان. وخصوصًا بعدما شاهدته من استقبال الشعب الجزائري لي، ولا سيما شبابه، واحتفاء وزارة الشؤون الدينية بي وحرصها على حضوري، وتأكيدها لذلك بكل وسيلة، ولا سيما وزيرها ابن جمعية العلماء، وتلميذ الشيخ ابن باديس رحمه الله: الشيخ عبد الرحمن شيبان، الذي كان يعاملني وشيخنا الغزالي، معاملة متميزة.

ويزداد حرصي على هذا الملتقى أكثر من غيره؛ لأن موضوعه من الموضوعات التي تهمني، وتشغل فكري وقلبي، فأنا أنظر لهذه الصحوة كما أنظر لولدي وفلذة كبدي. أحنو عليها وأحرسها من كل ما يسوءها أو يسيء إليها، من خصومها أو من أنصارها. وقد نذرت نفسي لإمدادها بالوقود حتى لا تخمد شعلتها، وإمدادها بالغذاء حتى لا تضعف قوتها، وإضاءة المصابيح في طريقها حتى لا تتعثّر مسيرتها.

وقد كتبت في ذلك بعض الكتب إسهاما مني في إنارة الطريق لأبناء الصحوة، منها كتابي «الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف»، وهو الذي نشرته مجلة «الأمة» في كتابها الثاني بعد كتابها الأول «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية» للشيخ الغزالي. كما نشرت مقالات «أين الخلل؟» في مجلة الأمة، التي جُمعت في كتاب بعد ذلك، مُنبِّهًا فيها على «الخلل» في مسيرة «الأمة الإسلامية»، والخلل في مسيرة «الحركة الإسلامية».

وقائع أو مواقف مهمة في هذا الملتقى

وقد وقعت لي في هذا الملتقى جملة وقائع أو مواقف جديرة بأن أسجلها هنا، لما كان لها من صدى في نفسي، وتأثير في حياتي، أو في موقف الدعوة الإسلامية، والحركة الإسلامية.

التعرف على د. محمد أركون

كان أول موقف: أني تعرفت في طريقي من مطار الجزائر إلى فندق الأوراسي على الدكتور محمد أركون. فقد ركب معي السيارة التي أقلّتنا معًا.

وقد سألته: من الأخ الكريم ؟ ومن أيِّ البلاد قدمتم ؟

قال: أنا د. محمد أركون، جزائري الأصل، أعمل في جامعة السوربون في باريس، في قسم الدراسات الإسلامية.

قلت: لابد أن لك إنتاجًا علميًا يتحدث عن الإسلام، مادام هذا تخصصك؟

قال: نعم، ولكني أكتب بالفرنسية .

قلت: مع أني أراك تتحدث العربية بوضوح.

قال: ولكنا نريد أن نخاطب الفرنسيين بلسانهم حتى يفهمونا.

قلت: في هذا معك حق. ولكن مثلي ممن لا يعرف إلا العربية، لن يكون له حظ منها.

ثم استطردت قائلاً: كان بعض شيوخنا من علماء الأزهر الكبار، يجيدون الفرنسية، وكتبوا بها، مثل الدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ الدكتور عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر، والشيخ الدكتور محمد يوسف موسى، والشيخ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر أيضًا وغيرهم. ومع هذا ظلوا أوفياء لدينهم ولهويتهم ولحضارتهم وأمتهم.

وكان بعض زملائنا قد تعلم الفرنسية بجهده الشخصي حتى أتقنها وأصبح يترجم منها إلى العربية، مثل صديقنا الدكتور عبد الصبور شاهين، الذي ترجم عددًا من كتب الأستاذ مالك بن نبي إلى العربية، وهو جزائري مثلك أيضًا، وأعتقد أنك تعرفه.

قال: نعم، هو مهندس يهتم بأمر الدين.

قلت: أعتقد أنه أكبر من ذلك، إنه معدود من المفكرين الإسلاميين، وله رؤية في النهضة والإصلاح والتجديد الحضاري.

وكأنما لم يرد أن يعقب على كلامي، ولكنه قال: سألتني فضيلتك عن اسمي ولم أسألك عن اسمك.

قلت:اسمي: يوسف القرضاوي، عالم أزهري لا يعرف غير العربية، ويعمل أستاذًا في جامعة قطر!

قال: عرفنا اسمك قبل أن نراك.

كانت هذه أول مرة ألقى فيها أركون، ولم أكن أعرف عنه شيئًا من قبل، ولكن تعليقه على مالك بن نبي، أعطاني مؤشِّرا على اتجاهه.

محاضرة حاشدة في أحد المساجد

وكان الموقف الثاني في هذا الملتقى، هو: أن الأخوة في الشؤون الدينية، قد فكروا أن

يكون لي بعض النشاط الخاص قبل الملتقى وفي أثنائه، لهذا دعوا لإلقاء محاضرة حاشدة في أحد المساجد الكبرى في العاصمة، قبل أن يبدأ المؤتمر، فقد حضرت قبله بعدة أيام، كما فعلوا في السنة الماضية. وقد تسامع الشباب بهذه المحاضرة، فجاءوا من كل حدب وصوب، وامتلأ بهم المسجد، وما حوله من الميادين والطرقات، فكان هذا دليلاً على قوة الصحوة في الجزائر، وأنها طفقت تستقطب الشباب والشابات، وتصهرهم في بوتقتها، وتنمِّيهم في تربتها، ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ (الفتح: ٢٩).

وأذكر أن موضوع محاضرتي كان عن «الجيل المسلم الذي ننشده» لنصرة الإسلام، وما يجب أن يكون عليه من الصفات الإيمانية، والخلقية والفكرية، وأننا لا نريد جيلاً منغلقًا على نفسه، أو معزولاً عن مجتمعه، أو متعاليًا على أهله ومن حوله. بل نريده عضوًا حيًّا في جسم الأمة، تمدّه بالغذاء، ويمدها بالدم في عروقها.

مشادّة مع أركون في الملتقى

وكان من المواقف المهمة في «الملتقى»: أن أركون الذي التقيته بمحض المصادفة في طريقي إلى الفندق، قد كشف اللثام عن هُويته، وعن اتِّجاهه الفكري، وأن أستاذ الدراسات الإسلامية المشارك في ملتقى الصحوة الإسلامية لا يؤمن بالصحوة الإسلامية، ولا بالدعوة الإسلامية، ولا بالأمة الإسلامية، ولا بالثقافة الإسلامية، ولا بالشريعة الإسلامية، وأنَّ له رؤيته الخاصة في ذلك كله، المخالفة لرؤانا جميعا: الغزالي والبوطي وأنا وكل العلماء والدعاة والمفكرين، الحاضرين منهم والغائبين.

وهو يرى أننا نعتمد على «خطابات» غير علمية ولا موضوعية، لأننا لا نستخدم مصطلحاته ومصطلحات زملائه.. فنحن نقول: الإسلام والإسلامية، وهم يقولون: الإسلاموية، ونقول: التاريخية، ويقولون: التاريخوية، والتاريخانية. ولا أدري ما المعايير التي يعتمدونها في زيادة الواو في النسب «تاريخوية» أو زيادة الألف والنون «تاريخانية». وعلى أيِّ قاعدة من قواعد النحو أو الصرف أو البلاغة يقيمون أبنيتهم المحدثة؟!

كانت محاور الصحوة كلها تدور حول ترشيد الصحوة، وتسديد مسيرتها، وعلاج أمراضها، ووقايتها من الانحراف، وحمايتها من أن تتآكل من الداخل، أو تضرب من الخارج، وتوفير أسباب الصحة لها، والرقي بها فكرًا وأداء.

وكانت ورقتي حول تطوير الصحوة، والانتقال بها من طور إلى طور، وتمثل ذلك في عشرين نقطة حدّدتها، وعرضتها على المشاركين في الملتقى، وشرحت كل نقطة منها شرحًا مركزًا مختصرًا يلقي شعاعًا عليها، ويكشف عنها الغموض والإجمال، وإن لم يستوفِ شرحها.

ويكفيني هنا أن أشير إلى عناوين هذه النقاط العشرين، التي تمثّل الخطوط العريضة لمستقبل الصحوة المنشود، في فهم الإسلام، والدعوة إليه، والعلاقة بالآخرين من العاملين له، والقاعدين عنه من أبناء أمته، ومن الجاهلين به، والخائفين منه، والطامعين فيه، والحاقدين عليه، من غير أمته.

لا بد أن تنتقل دائرة الاهتمام والتركيز:

١ ـ من الفروع والجزئيات إلى الأصول والكليات.

٢ ـ من النوافل إلى الفرائض.

٣ ـ من المختلف فيه إلى المتفق عليه.

٤ ـ من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب.

٥ ـ من طرفي الغلو والتفريط إلى الوسطية والاعتدال.

٦ ـ من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير.

٧ ـ من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد.

٨ ـ من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل.

٩ ـ من العاطفية والارتجال إلى العلمية والتخطيط.

١٠ ـ من التعصب على المخالفين في الرأي إلى التسامح معهم.

١١ ـ من الإثارة إلى التفقيه (أو من أسلوب الوعاظ إلى أسلوب الفقهاء، أو من حماسة المنبر إلى هدوء الحلقة).

١٢ ـ من الكم إلى الكيف (أو من الاهتمام بتزايد الأعداد ولو على حساب التربية إلى العناية بالتربية ولو على حساب العدد).
١٣ ـ من سماء الأحلام إلى أرض الواقع (أو من المثالي المنشود إلى الممكن الموجود).
١٤ ـ من الاستعلاء على المجتمع إلى المعايشة له (أو من موقف ممثل الاتهام إلى موقف الأب أو الطبيب).
١٥ ـ من الانكفاء على الماضي إلى معايشة الحاضر، والإعداد للمستقبل.
١٦ ـ من الاستغراق في العمل السياسي إلى الاهتمام بالعمل الاجتماعي.
١٧ ـ من اختلاف التضادّ والتشاحن إلى اختلاف التنوع والتعاون.
١٨ ـ ومن إهمال شؤون الحياة إلى التعبد بإتقانها.
١٩ ـ من الإقليمية الضيقة إلى العالمية الواسعة.
٢٠ ـ من الإعجاب بالنفس إلى محاسبة النفس (أو من الغلو في إثبات الذات إلى نقد الذات).

هذه هي المنطلقات العشرون والتي اعتبرها الكثيرون بمثابة «ورقة عمل» لتوجيه الصحوة الإسلامية. وقد ضممت بعضها إلى بعض، فأصبحت عشر نقاط قام عليها كتابي «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد».

وقد استقبل المشاركون في المؤتمر كلمتي بالترحيب والقبول والثناء، إلا واحدًا، زعم أن الإسلاميين يستخدمون لغة العاطفة والإثارة، وليست اللغة العلمية، التي تحلل وتفكك وتركّب، وتعتمد على علوم اللسانيات والإبستمولوجيا والأنطولوجيا وما شابه ذلك، من ألوان (اللوجيا).

لقد رد كثيرون على أركون: ردّ عليه الشيخ الغزالي، وردّ عليه الدكتور البوطي، الذي قال: إنَّ كلام الأستاذ القرضاوي كلام علمي مائة في المائة، وإن كان صوته مرتفعًا فهذه طبيعته.. ورد عليه كثيرون لم أعد أذكرهم لطول المدة، لأن نقده كان منصبًّا على الجميع، وليس عليّ وحدي. وهو ينظر بتعالٍ وانتفاخ منكور، إلى هؤلاء العلماء الذين لا يتكلمون غير العربية، ولا يعرفون «اللوجيا».

وقد عرفت بعد ذلك أن هذه لم تكن المرة الوحيدة لأركون، فقد شارك في الملتقيات مرة بعد ذلك (١٩٨٦م)، وثار عليه كثيرون، وبخاصة شيخنا الغزالي.

وكان من المواقف المهمة التي شهدها كل المشاركين معي في «الملتقى»: ما جرى من حديث اشتدّ، ونقاش احتدّ، حتى التهب وامتدّ، حول قضية «الحجاب».

والحجاب مصطلح اشتهر بين الناس يعنون به «الخِمَار» أو غطاء الرأس المذكور في القرآن في سورة النور، في قوله في توجيه المؤمنات: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور: ٣١).

ولا ينازع مراقب أو دارس: أنَّ من أبرز آثار الصحوة المعاصرة في جانب المرأة، هو: ارتداؤها الحجاب، طوعًا واختيارًا، لا قسرًا ولا إجبارًا، فهي حركة نسائية خالصة دافعها الإيمان وتقوى الله تعالى، والحرص على رضاه.

وقد تجلَّت في كل بلادنا العربية والإسلامية، كما تجلَّت في الجزائر بصفة خاصة، ولم تفلح محاولات «الفرنسة» التي حاولها الاستعمار الاستيطاني الفرنسي المتجبِّر، أن تقتلع هُوية المسلمة من جذورها، فسرعان ما عادت إلى حظيرتها، والتحقت بركبها، واصطلحت على ربها. وقد حاول كثيرون وكثيرات من الكُتّاب: أن يُهوّنوا من أمر الحجاب، الذي غدا يعد من أكبر إنجازات الصحوة في ميدان السلوك الاجتماعي، قائلين: إن المهم هو ما في داخل الرأس من أفكار، وليس ما يغطيها من حجاب أو خِمَار.

والحق أن هذا نوع من المغالطة، فنحن لا نوازن، ولا نعارض بين الخمار على الرأس، والأفكار في داخلها. وما يمنع المسلمة أن تملأ رأسها من الداخل بفكر نيّر صحيح، وتغطيه من الخارج بخمار محتشم سابغ؟!

والواقع أن الحجاب ليس من أركان الإسلام، ولا من فرائضه الأساسية، ولكنه في الوقت نفسه فريضة دينية بإجماع الأمة بكل مذاهبها ومدارسها، وهو أيضًا رمز للتحدي الثقافي والحضاري، والصمود أمام خصوم الصحوة، وخصوم هذه الحضارة، وهو يعدّ انتصارًا هائلاً بالنسبة للمرأة التي كانت في عدة عقود مضت قد فقدت فيها استقلالها، وسارت وراء المرأة الغربية، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع.

ولقد تحدثت إحدى المشاركات، فقالت: لماذا التركيز على الحجاب؟ وهل الصحوة الإسلامية صحوة لباب أو صحوة حجاب؟

ونقول: إنها صحوة لباب وحجاب؛ لأنها صحوة التزام وآداب.

وقامت أستاذة جامعية معروفة من المشاركين في الملتقى، وقالت كلمة ترد فيها على الذين يعظمون أمر الحجاب، قائلة: إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم.. واسترسلت في حديثها مندِّدة بالداعين إلى الحجاب، والداعيات إليه.

الطالبة: أسماء بن قادة تخطف الأضواء وتشدّ الانتباه

وهنا انبرت للرد على هذا التيار فتاة جزائرية لم تزل طالبة في الجامعة، طلبت من رئاسة الجلسة: أن تعتلي المنصّة لتقول كلمتها، فأذنت لها، ففاجأت الجميع بمنطق رصين، ولسان مبين، وحجة دامغة، وأفكار عميقة، ورؤية بصيرة؛ فبهرت الأبصار، وشدت الأسماع والأنظار، وأقنعت العقول والأفكار. وكان مما قالته: إن الفتاة المحجبة أثبتت وجودها في كل مكان: طالبة وموظفة وباحثة. وقد رأينا الطالبة الأولى في البكالوريا، وهي ـ بفضل الله تعالى ـ محجبة، وقد تسلمت جائزتها من يد رئيس الجمهورية!

قالت الفتاة: ماذا يضيركم أن تجمع المحجبة بين دينها ودنياها؟ أن تُرضي ربها، وتعمل لرقيِّ نفسها وقومها؟

كانت كلمات الطالبة مندفعة كالسيل، واضحة كالشمس؛ فقابل المشاركون كلماتها بالهتاف والتكبير. لقد أُعْجِبَ المستمعون بفصاحة لسانها، ونصاعة بيانها، ورباطة جأشها، وثقتها بنفسها، وشجاعتها في إبداء رأيها، وقدرتها على التعبير عن نفسها.

وما كادت تنزل من فوق المنصة حتى هرول إليها الصحفيون والإعلاميون من داخل الجزائر ومن خارجها، يلتقطون لها صورًا، ويجرون معها أحاديث.. وكان من أسبقهم إلى ذلك مدير تحرير مجلة «الأمة» القطرية التي اشتهرت في ذلك الحين، الأستاذ: عمر عبيد حسنة، وقد أجرى معها حوارًا، نشره في العدد اللاحق للأمة، معه صورة لها.

كانت هذه الفتاة هي أسماء بن قادة، الطالبة بقسم الرياضيات بكلية العلوم.

وقد بادرت إليها لأُحيّيها وأشجعها، وأعبِّر لها عن إعجابي بكلمتها، ولكني وجدت كثيرين قد التفّوا حولها، فأجّلت ذلك إلى حين.

لقاء مع الطالبات في مسكن «بو زَرّيعة»

وكان من المواقف المهمة في ذلك الملتقى: لقائي مع الطالبات في المسكن الجامعي المعروف في منطقة «بو زَرّيعة».

وكان مع كل ملتقى نشاط مصاحب، يشتمل على محاضرات ودروس، ودرس جمعة، ولقاءات بالطلاب والطالبات، وزيارة لبعض القرى والبلدان القريبة من مدينة الملتقى، ونحو ذلك. وكنت حريصًا كل الحرص على القيام بهذا النشاط، فقد كنت أَعُدّه جزءا من الواجب عليّ لأهل الجزائر في هذه المرحلة.

ولهذا كنت أكلف في كل ملتقى بلقاء الطلاب والطالبات، في المدارس أوالجامعات التي يقيمون فيها، أو يقمن فيها، وغالبا ما يكون هذا اللقاء في الليل بعد انتهاء العمل اليومي للمؤتمر.

من ذلك: اللقاء المشهود في مسكن بو زرّيعة، في إحدى ليالي الملتقى، وكانت عادتي أن ألقي محاضرتي، ثم أفتح الباب لتلقِّي الأسئلة مكتوبة في العادة، ولا مانع أن تكون مشافهة، وإن كانت أغلبية الفتيات تفضل المكاتبة على المشافهة، لما فطرهنّ الله عليه من الحياء الذي هو زينة المرأة المسلمة وحليتها.

هل يمكن أن تحب المرأةُ الرجل في الله عز وجل؟

ومما أذكره من الأسئلة التي وُجِّهت إليَّ في تلك الليلة: سؤال غير عادي، ولا يتعلق بمشكلة علمية، ولا بمشكلة فردية أو أسرية، ولكنه سؤال له معنى خاص، ومغزى خاص، ولهذا ما زال حيًّا شاخصًا في ذاكرتي.

قال لي الطالبات، أو قالت إحداهنّ متحدِّثة عنهن: نريد أن نسألك يا أستاذ سؤالاً

خاصًا وصريحًا، ونريد أن تجيبنا عنه أيضًا جوابًا حرًّا صريحًا، وهو: هل يمكن أن تحب المرأةُ الرجلَ في الله عز وجل؟ وتثاب على ذلك ثواب المتحابين في الله تعالى؟

كان السؤال مفاجئًا لي؛ ولكني لم أهرب من الإجابة عنه، وقلت: نعم يمكن أن تحبَّ المرأةُ الرجلَ في الله، كما يمكن أن يحبَّ الرجلُ المرأةَ في الله.

المهم أن يتحقق معنى الحب في الله، وهو أن يتأكد المرء أن حبه لله حقًّا، أي: لا لدنيا ولا لشهوة خفية، ولا لغرض مادي، وإنما يحب من يحبه، لدينه وإخلاصه لله وبذله لدينه ونصره له.

يكون هذا من المرأة للرجل، ومن الرجل للمرأة.. أنا مثلاً أستطيع أن أقول: إني أحب الأخت المؤمنة الحاجة زينب الغزالي في الله؛ لما قدمته لدينها ودعوتها من جهد وتضحية وصبر على البلاء والأذى في سبيل الله.

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧).. ومن هؤلاء المتقين رجال ونساء متحابون في الله، ومتحابات في الله.

وكذلك الأحاديث الكثيرة التي جاءت تحثُّ على الحب في الله، وأن المتحابين في الله يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأنهم على منابر من نور يوم القيامة. وهذه النصوص العامة تشمل الرجال والنساء جميعا إذا أحب بعضهم بعضا في ذات الله تعالى.

وهنا قال عدد من الطالبات المشاركات في نَفَس واحد: نشهد يا أستاذ أننا نحبك في الله!!

وهنا لم أملك عيني من الدموع. وأنا رجل قريب الدمعة، إذا تأثرت بموقف إيماني أو إنساني، سرعان ما تغرورق عيناي! وأثر ذلك في الطالبات، فبكى كثير منهن.

وهنا قلت للطالبات: أما وقد قلتن ما قلتن، فلا بد لي من أن أخبركن بالسنة الإسلامية المطلوبة في هذا الموقف: وهما سنتان:

الأولى: إذا أحب الإنسان إنسانًا في الله، فليبادر بإخباره، كما في الحديث: «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره»؛[1] وفي الحديث الآخر: «إذا أحب أحدكم صاحبه، فليأته في منزله، فليخبره أنه يحبه لله»[2]. وفي حديث ثالث: «إذا أحب أحدكم أخاه في الله فليعلمه، فإنه أبقى في الألفة، وأثبت في المودة»[3]. وذلك لما في الإخبار من سروره وتبشيره بالخير، وتوثيق الرابطة بينهما.

الثانية: أن يدعو المحبوب لمن يخبره بأنه يحبه في الله قائلا: أحبَّك الذي أحببتني من أجله. أيْ أحبك الله.

حديث عفوي بيني وبين أسماء بن قادة

وكانت ليلة حافلة جياشة بالعواطف والمواقف. وقد ودعتني الطالبات بمثل ما استقبلنني به من المودة والابتهاج، وكان في وداعي عدد منهن صحبني إلى الباب. وقد استرعى انتباهي إحداهن، وزميلاتها ينادينها باسمها: أسماء. فقلت لها: هل أنت أسماء صاحبة الكلمة على المنصة؟ قالت: نعم، أنا هي. فقلت لها: جزاك الله خيرًا على كلمتك، وبارك الله لك يا ابنتي فيما منحك من مواهب، وبارك لك في فصاحتك، وبارك لك في شجاعتك، وبارك لك في ثقافتك. لقد أثلجت صدورنا بردك القوي البليغ.

فقالت: لعل كلمتي حازت رضاك يا أستاذ!

قلت: أكثر من الرضا، ولست وحدي، ولكن كل المدعوين من العلماء والدعاة عبروا عن رضاهم وإعجابهم. زادك الله توفيقا.

قالت: ما أنا إلا تلميذة من تلميذاتك وتلامذتك الكثيرين هنا. لقد تتلمذنا على كتبك من بعيد، ونتتلمذ عليك اليوم مباشرة من قريب. وقد رأيت وسمعت كيف يحبك الجميع.

---

(١) رواه أحمد (١٧١٧١)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، عن المقداد بن معد يكرب.

(٢) رواه أحمد (٢١٢٩٤) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف وصححه الألباني في الجامع الصغير (٢٨١).

(٣) رواه بن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان»(٦٩)، عن مجاهد مرسلا، وحسنه في صحيح الجامع (٢٨٠).

قلت: إذا كان تلاميذي على هذه الدرجة من نضج التفكير، وبلاغة التعبير، فقد يغرّني هذا كأستاذ!

قالت: كتبك العلمية والفكرية ساعدتنا على أن نستكمل ثقافتنا الإسلامية، وأسلوبك الأدبي والشعري ساعدنا على أن نقوِّم تعبيرنا العربي، وقد كنا نتدارس كتبك في حلقاتنا التربوية.

قلت: وهل عرفتم شيئا عن شعري؟

قالت: نحفظ نشيد «مسلمون»، وكنا نتغنى به في لقاءاتنا الإسلامية، وننشده بصورة جماعية، فيثير فينا الحماس والاعتزاز.

كما نحفظ بعض الأبيات من قصيدتك «النوبية».

قلت: في أي الكليات تدرسين؟ وفي أي التخصصات؟

قالت: في كلية العلوم والتكنولوجيا، وفي قسم الرياضيات.

قلت: يا سبحان الله! كنت أحسب أنك في كلية شرعية أو أدبية. أنت مثل بناتي الأربع، كلهن في تخصصات علمية. وبالمناسبة، ابنتي الصغرى أسمها أيضا أسماء، وأظنها في مثل سنك.

قالت: أرجو أن تبلغها تحياتي[1].

---

(١) تطورت علاقتي بأسماء بن قادة، فمن أسماء الطالبة إلى أسماء الزوجة الحبيبة، فقد أصبحت زوجتي الثانية، وبقينا زوجين حوالي ثنتي عشرة سنة، كان فيها أيام ما أطيبها، وذكريات ما أعذبها! ثم قدّر الله لنا أن ننفصل. وسأتحدث عن هذا في حينه في الجزء الخامس إن شاء الله. ولكن أودّ أن أبادر، لأسجّل هنا: أنّ أسماء فيها من الصفات والمحامد كل ما يحبّب المرأة إلى الرجل. فهي امرأة وافرة الحظ من الذكاء الحاد، والثقافة الواسعة، والجمال الجاذب، واللسان الحلو، وقوة الشخصية، مع شرف الأصل.. بالإضافة إلى أنّي كنت أحبّها، وكانت تحبّني، ومع هذا كان هناك أسباب عميقة للخلاف والصدام ـ مع أننا متوافقان فكريًّا ـ جعلتنا نعيش في نكد وشجار شبه مستمر، أعتقد أن أهمّها هو اختلاف الطبع، واختلاف البيئة، واختلاف الثقافة، فانتهى إلى ما انتهى إليه، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، ولا أستطيع أن أنكر أني كنت أكبرها بنحو ٣٧ عامًا. ولكنها لم تكن تنظر إلى هذا الفرق، وتحذرني من الإشارة إليه.

المسيرة المليونية في السودان تأييدًا لتطبيق الشريعة الإسلامية

في سنة ١٩٨٤م دعيت إلى السفر إلى الخرطوم للمشاركة في «المسيرة المليونية» التي دعا إليها الرئيس السوداني جعفر نميري، وشارك فيها بقوة: الإسلاميون، وكل فئات الشعب، وحضر عدد كبير من العلماء من بلاد عربية وإسلامية شتى، أذكر منهم: شيخنا الشيخ محمد الغزالي، وأخانا الداعية الكبير الشيخ صلاح أبو إسماعيل، وكثيرون من علماء العالم الإسلامي لم أعد أذكرهم.

وكان النميري في أواخر عهده قد اختار طريق الشريعة الإسلامية، حين رأى أن هذا الطريق هو الذي يحل المشكلات من جذورها، ويقطع الجريمة من دابرها، ويؤسس لتكافل اجتماعي حقيقي بين فئات الشعب، ويدعم مسيرة الطهر والاستقامة في المجتمع، ويقاوم الانحراف والرذيلة فيه، ولاسيما بين القادة والمسؤولين.

ثم إن هذا هو «حكم الله» الذي أمر به عباده، وليس «حكم الجاهلية» المستورد، من الغرب أو الشرق، وقد قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

وقد أقيم للمدعوين سرادق في مكان متميز في الخرطوم، بحيث يشرفون من موقعهم على المسيرة وهي تمر أمامهم، ممثلة لفئات المجتمع المختلفة، ومهنه المتنوعة، من الجمعيات الخيرية، ومن الطرق الصوفية، ومن النقابات المهنية، ومن التجمعات القبلية، ومن الجماعات السياسية، ومن غير ذلك من الفئات والجهات، التي شملت

الشعب كله، وكلها تهتف من أعماقها للشريعة الإسلامية، وللدعوة الإسلامية، وعلى وجوه الناس الفرحة والثقة، وهذا استفتاء صادق للشعب.. وقد كان الجو حارا، والمسافة طويلة من بداية المسيرة في الخرطوم إلى منتهاها في أم درمان، ولكن الناس كانوا أقوى من الحر، وأقوى من طول المسافة.

وفي الحقيقة كان يومًا حافلاً، ويومًا رائعًا، ويومًا من أيام الله، وكان كثير من المدعوين ـ وأنا منهم ـ تغرورق عينه بالدموع، كلما رأى هذه المناظر الشعبية التلقائية، المؤيدة لشرع الله، وأحكام الله.

وكان أخونا الشيخ صلاح أبو إسماعيل يقول في حرقة وحرارة: متى أرى مثل هذه المسيرة في القاهرة؟ أسأل الله ألا يميتنا حتى يقرّ أعيننا برؤية مثل هذه المسيرة. ولكنه انتقل إلى رحمة الله قبل أن يرى هذه المسيرة.

مشكلة الحرية

والحقيقة أن المسيرة في القاهرة موجودة وكامنة، ولا تحتاج إلا إلى الحرية، لتنطلق بأضعاف مسيرة الخرطوم. إنَّ المشكلة هي مشكلة الحرية. ولهذا ناديت مرارًا: يجب أن نادي بتحقيق الحرية، قبل أن ننادي بتطبيق الشريعة الإسلامية.

علام تدلّ هذه المسيرة؟ إنها تدلّ على أن شعوبنا مع الشريعة. فما السودان إلا نموذج لسائر الشعوب العربية والإسلامية، فلماذا لا تستجيب حكوماتنا لشعوبها لتحقيق إرادتها وطموحاتها؟ أليست هذه هي حقيقة الديمقراطية: النزول على رأي الشعب، وإرادة الشعب؟

ولقد سألني بعض الصحفيين في الخرطوم عن رأيي في هذه المسيرة ودلالتها؟ وهل أنت مؤيد لها؟

وقلت في إجابتي: لو لم أكن مؤيدًا لها ما جئت من الدوحة إلى الخرطوم، وهل يتصور أن أكون إلا مع الشريعة؟! إني مع الشريعة لأمرين:

الأول: أنها إرادة الله، **والثاني**: أنها إرادة الشعب.

كل ما لي من تعليق هنا هو: ما المراد بـ «الشريعة»؟

المراد بالشريعة

للأسف أكثر الناس يفهمون من الشريعة: تطبيق العقوبات والحدود الإسلامية، وهذا جزء من الشريعة، وليس كل الشريعة، ولهذا نزلت أحكامها في أواخر العهد النبوي، وفي أواخر ما نزل من القرآن في سورة المائدة.

إن الشريعة تعني: العبادات والمعاملات والقيم والأخلاق والآداب، وليس مجرد الجانب القانوني، وخصوصًا الجزء الجزائي والعقابي فيه.

على أن القوانين وحدها لا تصنع المجتمعات، ولكن تصنعها التربية والثقافة والتوجيه، والدعوة والإعلام، وهي التي تنشئ العقول المستنيرة والضمائر الحية، والإرادات الحافزة إلى الخير، الرادعة عن الشر.

من أخطاء التطبيق السوداني للشريعة في عهد النميري

وأود أن أقول:إن مسيرة الشريعة في عهد النميري، لم يقدر لها أن تستمر في خطها الصحيح، لأن التصور للشريعة لم يكن واضحًا تمام الوضوح للسلطة التنفيذية، فظنت أنها بمجرَّد الجلد والقطع والقتل، تنفذ الشريعة حقًّا. وليس هذا هو كل شيء، فقبل أن نقطع يد السارق، لا بد أن نوفر الخبز للجائع، والعمل للعاطل، والسكن للمشرَّد، والكفالة لليتيم، والرعاية للمحتاج، ونقيم التكافل الاجتماعي في الشعب. فقبل أن ينزل الله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (المائدة:٣٨) أنزل قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (البقرة: ٤٣) ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (فصلت: ٦، ٧) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ (آل عمران:١٨٠) ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (الماعون:١، ٢، ٣).

لابد إذن أن نكفل حاجات الناس، ونسدّ الثغرات في حياتهم، وأن نعلّمهم ونكفيهم، ثم نطبق عليهم العقوبات التي شرعها الله.

ثم إنَّ العقوبات إنما هي لغير الأسوياء، أي لمن شذُّوا عن القاعدة العامة. والشريعة إنما جاءت لتجعل الناس أسوياء مستقيمين.

وكان من أخطاء التطبيق السوداني للشريعة: أن الدولة في عهد نميري، أفرجت عن المساجين الذين حكم عليهم القضاء السوداني في جرائم السرقة ونحوها، وهم ألوف مؤلفة، فلما أفرج عنهم دفعة واحدة، عادوا إلى مزاولة مهنتهم، وعاثوا في الأرض فسادًا، ولم يصدّقوا أن أيديهم ستقطع، فقطعت أيد كثيرة في زمن قصير، على غير المعهود في البلاد التي تطبق الشريعة كالسعودية.

وكان الإفراج الجماعي والفوري عن هذه الأعداد الكبيرة التي تمرست بالإجرام، خطأً بينًا، ولاسيما في أول عهد التطبيق الشرعي، إذ كانوا يحتاجون إلى أن يوضعوا تحت رعاية إسلامية فترة من الزمن، وألا يخرجوا إلا بعد أن يصلوا مرحلة معينة تظهر معها علامات التوبة عليهم، وأن تهيأ لهم أعمال مناسبة يزاولونها، وأن يؤخذ عليهم تعهّد بالاستقامة والبعد عن الرفقة المنحرفة، وأن يوضعوا تحت المراقبة فترة من الزمن، حتى نعينهم على أهواء أنفسهم. ولكن ذلك لم يحصل.

لا إسلام بغير إسلاميين

ومن ناحية أخرى، أثبتت التجربة: أن الإسلام لا يحسن تطبيقه بحق إلا الملتزمون به إيمانًا وفكرًا وسلوكًا، وكما يقول الماركسيون: لا اشتراكية بغير اشتراكيين، نقول نحن: لا إسلام بغير إسلاميين!

ولا غرو أن هذه المسيرة لم يكتب لها النجاح تماما. ومن المؤسف أن نرى العلمانيين والماركسيين وأشباههم يحسبون ذلك على الإسلام، والحق أن الإسلام لا ذنب له إنما الذنب على الذين أساءوا فهمه، وأساءوا تطبيقه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

زيارة ماليزيا بدعوة من أنور إبراهيم

وفي شتاء سنة ١٩٨٥م اتصل بي من سويسرا: الأخوان الكريمان يوسف ندا وغالب همت، وقالا لي: إن الأخ أنور إبراهيم مؤسس جمعية «أبيم» - الشبيبة الإسلامية - في ماليزيا، والوزير الآن في الحزب الحاكم، وأنت تعرفه، يلح في ضرورة زيارتك لماليزيا، لإطفاء فتنة بين الماليزيين المسلمين بعضهم وبعض، فقد انتشرت بين جماعة منهم: بدعة التكفير لإخوانهم المسلمين، وخصوصًا شباب «الحزب الإسلامي» المتحمسين، فهم يكفرون حزب «أمنو» الحاكم لماليزيا، ويطالبونهم بتحكيم الشريعة فورًا، وإلا حكموا عليهم بالكفر البواح، واستدلوا بالآيات الكريمة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ﴿هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧).

قلت للأخوين: نعم، أنا أعرف أنور إبراهيم، ولقيته أكثر من مرة في ماليزيا، أعرف حُسن فهمه وحماسته للإسلام، كما أني ضد بدعة التكفير والغلو فيه، وقد كتبت فيه رسالتي المركزة المعروفة: «ظاهرة الغلو في التكفير».

ولكني أتخوف دائمًا من دخول مثل هذه المعتركات، خشية أن تستغل سياسيًّا في تأييد طرف ضد طرف آخر، وأكون أنا أداة في يد أحد الفريقين لضرب الفريق الآخر، وأنا لا أدري.

قالوا: إنَّ مهمتك هي الإصلاح، وتجميع القوى الإسلامية، ولا سيما أن لماليزيا وضعًا خاصًّا لا يخفى عليك، ولا بد لإخوتنا في الحزب الإسلامي أن يدركوا هذا الوضع، ويراعوا هذه الظروف. وليس مهمتك أن تهاجم الحزب الإسلامي أو تنال منه

بكلمة واحدة، وأنت حر تمام الحرية فيما تقول، وليس من حق أحد أن يفرض عليك، أو حتى يقترح عليك ما تقول.

قلت: دعوني أصلي صلاة استخارة، فما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ثم أجيبكم بموقفي بعدها.

قالوا: لك ذلك، والله يختار لك الخير، ويهديك إلى أرشد الأمرين.

وبعد يومين أو ثلاثة اتصلا بي، وسألاني عن رأيي، فقلت: على بركة الله. ولكن اطلبوا من الأخ أنور أن يرسل إلى أمير دولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني الرئيس الأعلى لجامعة قطر، يطلب منه الموافقة على سفري إلى ماليزيا، فأنا أستاذ في الجامعة ولا أستطيع أن أتغيب هذه المدة بلا إذن. وبخاصة أنه يطلب زيارة طويلة تمتد أسبوعين.

الوصول إلى ماليزيا

وما أسرع ما جاء الكتاب إلى الأمير، وما أسرع ما وافق الأمير على سفري، وما أسرع ما حجزت وسافرت. ووجدت الأخ الأستاذ أنور في انتظاري عند باب الطائرة، وأظنه كان في ذلك الوقت وزيرًا للتربية، فقد تنقل أخونا أنور بين عدة وزارات: الشباب والزراعة والتربية والمالية أخيرًا مع نيابة رئيس الوزراء.

وقد أقام أخونا الحبيب أنور مأدبة كبيرة في بيته دعا إليها عددًا من الوجهاء والعلماء، وبعض إخوانه القدامى في جمعيته التي أنشأها للشبيبة المسلمة الماليزية (أبيم).

وكان المقصود أن أتعرَّف على بعض هذه الوجوه، ويتعرفوا علي، فهذا التعارف مهم، بل ضروري للدعاة الذين يتعاملون مع الناس.

نشاط مكثف

بدأت ـ أول ما بدأت ـ نشاطي في العاصمة كوالا لامبور، وقد جمع الأستاذ أنور: كبار المسؤولين في الوزارات المختلفة ـ مستوى وكيل وزارة ومدير عام، وأمثالهم ـ لألتقي بهم، وأوجِّههم الوجهة التي أحب، وأستمع إلى أسئلتهم وأجيب عنها.

وقد اجتمعت بهؤلاء الموظفين الكبار، وألقيت عليهم كلمة توجيهية مناسبة، تتضمن ما يطلبه الإسلام من المسلم في أداء عمله، حتى يكون الشخص القوي الأمين، والحفيظ العليم، وأن إتقان العمل في الإسلام عبادة وفريضة، فإن الله كتب الإحسان ـ الإتقان ـ على كل شيء، والله تعالى يحب من أحدنا إذا عمل عملا أن يحسنه ويتقنه، فإن الله يحب المحسنين.

وتتضاعف مسؤولية العامل إذا كان على رأس العمل، وكان مسؤولا عن غيره، فإن الله تعالى سائل كل راع عمن استرعاه، حفظ أم ضيَّع، وكل راع مسؤول عن رعيته.

ولا يكفي في حسن الإدارة القوانين واللوائح المنظمة للعمل، بل لا بد ـ وراء ذلك كله ـ من الوازع الذاتي، والضمير الحي، الذي هو رقيب على صاحبه، وإن غاب الرقباء. وهو الذي جعل الفتاة تقول لأمها: إذا كان أمير المؤمنين لا يرانا، فإن رب أمير المؤمنين يرانا.

وهو الذي جعل العبد المملوك راعي الغنم، حين سأله عمر أن يبيعه شاة من غنمه، فقال له: إنها ليست له، بل هي لسيده، فأراد عمر أن يختبره، وقال له: خذ ثمنها، وقل لسيدك: أكلها الذئب! فقال له: يا هذا، فأين الله؟! وكان لا يعرف أن محدثه أمير المؤمنين.

إن رقابة الله سبحانه أهم من رقابة القانون، فإن القانون يمكن الاحتيال عليه، والله جل جلاله لا يمكن أن يُحتال عليه، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم السرَّ وأخفى.

وكان هناك من يترجم كلامي إلى الماليزية، فنحو تسعين في المائة أو أكثر من هؤلاء لا يعرفون العربية.

وبعد كلمتي تلقيت سيلاً من الأسئلة من الحضور حول أمور إسلامية شتى، أجبت عنها كلها بما وفقني الله إليه، وكان الجميع مستريحين لإجابتي، حتى قال بعض كبارهم: إذا كان هذا هو الإسلام، فكلنا دعاة للإسلام.

قلت لهم: أنا لم أقل شيئًا من عندي أو من بنات أفكاري، كل ما قلته لكم، قد دللت

عليه، ورددته إلى أصله من الكتاب والسنة. فنحن لا ننشئ إسلامًا، فإن الإسلام قد أنشأه الله تعالى وأكمله من قديم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة:٣)، ولكن مهمتنا أن نبين حقائق الإسلام، ونشرحها للناس، ونبلغها لهم بلسانهم الذي يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم:٤).

وقال بعضهم: ليتنا نلتقيك مرة أخرى، لنستزيد معرفة بديننا وواجباتنا، ولا أذكر هل تحقق لقاء آخر مع هذه النخبة أو لا؟

لقاء مع العلماء

كما هيأ أخونا الحبيب الأستاذ أنور إبراهيم لقاء مع مجموعة من العلماء الشرعيين في ماليزيا، وكان اللقاء بالعلماء مريحا، فهم جميعا يعرفون العربية، ومعظمهم درسوا علوم الشرع واللغة العربية بالأزهر الشريف، وصلة هذه البلاد الإسلامية ـ ماليزيا وإندونيسيا ـ بالأزهر الشريف صلة قديمة وثيقة، ولا تزال[1].

وقد ذكرت إخواني العلماء بواجبهم في تعليم الإسلام والدعوة إليه بلغة عصرهم، فلغة الكتب القديمة لم تعد تصلح لخطاب أهل هذا الزمن. وقد رأينا القرآن الكريم يتغير خطابه ما بين العهد المكي والعهد المدني، ورأينا الرسول الكريم يجيب كل سائل بما يليق بحاله.

ولا يجوز بحال أن نعيش وحدنا في صوامع منعزلة عما يجري في المجتمع من حولنا، وخصوصًا مجتمع النخبة المثقفة، التي أصبح جلها غربي الفكر والثقافة، وإن كان شرقي الجنس والزي.

وقلت لهم: إن المكتبة الإسلامية الآن غدت عامرة بالكتب المهمة في جوانب متعددة من الفكر الإسلامي، بعضها في العقيدة، وبعضها في العبادة، وبعضها في الفقه والمعاملات، وبعضها في الأخلاق، وبعضها في قضايا متعددة في الدين والدولة والإنسان والحياة والعالم. ولا بد لنا أن ننهل منها، وألاّ نعزل عما حولنا.

---

(١) علمت من المسئولين في الأزهر، ومن سفارة ماليزيا في القاهرة، في ذلك الوقت أن نحو ستة آلاف طالب من ماليزيا يدرسون في الأزهر، في معاهده وكلياته المختلفة.

كما يجب عليكم ـ معشر العلماء ـ أن تنقلوا إلى الماليزية: خير ما تنتقونه من هذه المؤلفات الجديدة، حتى تؤدوا حقَّ مجتمعكم عليكم، وتسهموا في تنويره وتطويره، وإلا خطفه منكم العلمانيون والتغريبيون. فهم يعملون ليل نهار، محاولين أن يسبقوكم ويستولوا على الأرض الخضراء قبلكم، ومن سبق أكل النبَق، كما يقول المثل المصري.

أنا أعلم أنكم شافعية، ولكن إمامكم الشافعي لم يكن جامدًا، فقد عرفتم أن له مذهبين قديما وحديثًا، الأول حين كان في العراق، والثاني حين استقر في مصر، وأصبح يقال في كتب المذهب: قال الشافعي في القديم، وقال الشافعي في الجديد. فلماذا لا تقلدون إمامكم في التغيير والتطوير والتجديد، كما تقلدونه في المسائل الفرعية الجزئية؟!

وعلى العادة سألني المشايخ الحضور عددًا من الأسئلة حول موضوعات شتى: في العبادات والمعاملات، أجبتهم عنها بما فتح الله به علي.

ثم ختمنا اللقاء بالذكر والدعاء: «سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك»[1] ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات: ١٨٠ـ١٨٢).

لقاء الإخوة في الحزب الإسلامي

كما سعدت بلقاء بعض الإخوة في الحزب الإسلامي، نسيت أسماءهم، لا أذكر إلا الأخ يحيى عثمان، وتحدثت معهم حديثًا صريحًا، حول تطبيق الشريعة في ماليزيا، وقلت لهم: إن تطبيق الشريعة فورًا في ظروفنا الحالية أمر صعب، ولا بد من تمهيد الأرض بالحرث قبل بذر البذور.

وإذا كنا نحن في بلادنا العربية العريقة في الإسلام، والناطقة بلغة القرآن والخالصة ـ تقريبًا ـ للمسلمين: لم نوفق إلى اليوم في التطبيق الفوري للشريعة كلها، حتى في بلاد الخليج الملحقة بجزيرة العرب، لم تفعل ذلك للأسف، فكيف ببلاد لها ظروفها الخاصة المعروفة مثل ماليزيا؟

---

(١) رواه أحمد (١٩٧٦٩) ، وقال مخرّجوه: إسناد صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين عن أبي برزة الأسلمي.

ومن المعلوم: أن حوالي ٤٥٪ من سكانها غير مسلمين، من الصينيين والهندوس، الذين جلبهم الاستعمار البريطاني للعمل في هذه البلاد، ثم استقروا فيها، وأمسوا يملكون نحو ٨٠٪ من ثروة ماليزيا، البنوك والمؤسَّسات المالية، والفنادق والمصانع والمتاجر الكبرى والعمارات الشاهقة في كوالا لامبور: كلها ملك أيديهم. والعنصر الملاوي المسلم ـ وهم أهل البلاد الأصليون ـ يعيش معظمهم على الزراعة، وحتى المحصولات الزراعية، يبيعونها للصينيين، ليكسبوا من ورائها أرباحًا طائلة.

المهم الآن: أن نقوِّي العنصر الملاوي المسلم في ماليزيا، ونهيئ له الفرص، ليأخذ وضعه، ويحتل مكانته في بلده، ويملك نصيبه العادل من ثروتها، ولا بد من تكثير عدد المسلمين، حتى لا يزاحمهم الصينيون والهندوس. وهذا يحتاج إلى إعداد وتخطيط من المسلمين، ليكثر عدد المتعلمين منهم، ولا سيما الذين يستمرون في الدراسات العليا، ولا بد من إعادة النظر في تأهيل المسلمين اقتصاديا، ليشاركوا في تنمية بلادهم، وامتلاك ثروتها بقدر عددهم.

جولات في ولايات ماليزيا

ثم عقدت العزم على أن أزور ما أمكنني من ولايات ماليزيا.. ومن الطرائف: أن ولايات ماليزيا تتسمَّى بأسماء إسلامية لم أرها في غيرها من الأقطار. وكل ولاية منها تسمى «دارا».

فهناك دار الإيمان، ودار الإحسان، ودار الرضوان، ودار النعيم، إلى آخره، إلا كوالا لامبور، فقد سألناهم عن اسمها، فقالوا: هذه ليست دارا.

وبعض هذه الدور أو الولايات، انتقلنا إليها بالسيارة، ونركبها حوالي أربع ساعات أو أكثر، وبعضها وصلنا إليها بطائرة خاصة وفرتها لنا الدولة، وهي في الغالب طائرة عسكرية، تأخذ مع الطيار راكبين أو ثلاثة.

وفي كل هذه الزيارات: تنظم محاضرة عامة ألقيها في قاعة كبيرة، أو في أحد المساجد، وتلقى عليَّ بعدها الأسئلة، ثم تهيأ زيارات خاصة لبعض الشخصيات، أو بعض الكليات أو المدارس، أو الجمعيات، وفي كل منها يكون اللقاء والحديث وترجمة حديثي

إلى الماليزية، وفي العادة أن الترجمة تضاعف الوقت، ولا يستثنى من ذلك إلا في بعض الكليات الإسلامية، التي تدرس مقرراتها بالعربية، ويفهم طلابها العربية، وإن كانوا قد لا يحسن أكثرهم النطق بها.

وكثيرًا ما كنا ننتقل في الليل من مدينة إلى مدينة، حرصا على الوقت، الذي يوشك أن ينفد، ولم نذهب إلى كل الولايات.

وأذكر أن الذي كان يترجم في أكثر الأحيان هو الأخ دحلان، الذي كلفه الأستاذ أنور بمرافقتي، وهو يجيد العربية إجادة تامة، دون لكنة أعجمية، كما عند غيره، كما أنه مدرب على الترجمة تدريبًا جيدًا جدًّا، ولا سيما ما يتعلق بالفكر الإسلامي، والدعوة الإسلامية.

زيارة الجامعات الماليزية

وبعد جولتي الطويلة في الولايات المتعددة، عدت إلى العاصمة، لأستكمل نشاطي فيها، ومن ذلك: زيارتي إلى الجامعات: جامعة الملايو، والجامعة الوطنية، حيث هيئت لي محاضرات فيها للطلاب أساسًا ولمن استطاع الحضور من الأساتذة.

ولم تكن الجامعة الإسلامية العالمية قد أنشئت بعد.

ثم كان لا بد أن أودع الإخوة ـ وخصوصًا الأستاذ أنور إبراهيم ـ الذي جاء مع بعض رفقائه، ليزجي الشكر إلي باسم الشعب، وباسم الحزب، وباسم الحكومة، على هذه الوجبة الدسمة من التوعية والتنوير والتفقيه في الدين، وقال: إننا لا نستطيع أن نكافئك، ولكن الله هو الذي يكافئك.

قلت له: أنا لم أفعل شيئًا أكثر من أداء بعض ما هو واجب علي، وأنا أنظر إلى المسلمين في كل مكان: أنهم أهلي وإخوتي، وإلى أوطانهم: أنها داري.

قال: ولنا طلب عندك. قلت: مُرْ. قال: نرجو ألا تنسى ماليزيا، وأن تدخلها في برنامجك دائمًا، لما لها من ظرف خاص. قلت: أعدك إن شاء الله. وأساله تعالى العون ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥).

والحمد لله. قد تكررت زياراتي لماليزيا. سددها الله.

أسئلة مهمة من أساتذة ماليزيا

الجامعة الإسلامية بكوالا لامبور

زرت ماليزيا عدة مرات، وفي كل مرة كنت أُدعى إلى جامعاتها المختلفة لإلقاء بعض المحاضرات على طلابها، وغالبًا ما يحضر معهم الأساتذة، ومن هذه الجامعات: الجامعة الإسلامية العالمية بكوالا لامبور، والتي كان رئيسها الأعلى صديقنا أنور إبراهيم نائب رئيس الوزراء، وكان مديرها لعدد من السنين صديقنا الدكتور عبد الحميد أبو سليمان.

ومما اعتدته في زيارة الجامعات: أن أحرص بعد لقائي بالطلاب، على لقاء أعضاء هيئة التدريس، فأسمع منهم، ويسمعون مني، وأنصح لهم بما أراه، ولا سيما في حقل الدراسات الإسلامية.

ومما أذكره ولا أنساه في أحد هذه اللقاءات: سؤال مهم وجَّهه إليَّ بعض الإخوة الناشطين من أساتذة الجامعة.

١. كيف تؤلف؟ وما سر غزارة الإنتاج مع انشغال الوقت؟

قال الأستاذ (وقد نسيت اسمه): إنَّ لدينا أسئلة تُحيِّرنا أنا وعدد من إخواني، ولا نعرف لها جوابًا، وخلاصة السؤال الأول: أننا نراك رجلًا متعدد النشاط، كثير الأسفار، ولا نكاد نرى مؤتمرًا إسلاميًّا أو عالميًّا يتصل بالإسلام وثقافته ودعوته وأمته، إلا ونراك حاضرًا ومؤثرًا فيه، ولا تكاد تعقد ندوة فكرية ولا حلقة علمية إلا شاركت فيها، عدا الأنشطة الخيرية والإنسانية والاجتماعية التي تتحمّل مسؤليتها، ومع هذا نرى

لك هذا الإنتاج العلمي الغزير، الذي يتميَّز بالأصالة والشمول والتنوع والمعاصرة والعلمية، في شتى جوانب الثقافة الإسلامية: في الفقه وأصوله، في العقيدة والدعوة في القرآن والسنة، في الاقتصاد الإسلامي، في ترشيد الصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية، في الإسلاميات العامة وقضايا الفكر المعاصر، في الرد على خصوم الإسلام من كل لون... ونحن أكاديميون مثلك، وليس لنا مثل مشغولياتك ومسؤوليتك، وإذا ألف الواحد منا أربعة كتب أو خمسة، يعتبر نفسه قد أنجز شيئًا مهمًا، وأنت أصدرت العشرات من الكتب، بعضها موسوعات!!

وسؤالنا: من أين لك الوقت الذي يتَّسع لكل هذا الإنتاج؟ كلنا يحتاج إلى معرفة الجواب.

توفيق الله وعونه

قلت للسائل وإخوانه: أول ما يجيب به المسلم في مثل هذا المقام هو رد الفضل إلى صاحب الفضل الأول، وهو الله عز وجل، فهو الذي يمد الإنسان بتوفيقه، ويؤيده بروح منه، ويشرح له صدره، وييسر له أمره، ولهذا قال سيدنا شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨)، ولهذا أيضًا دعا سيدنا موسى ربه حينما وجهه إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ (طه: ٢٥ ـ ٢٨)، فطلب من ربه هذه الأمور التي تعينه على أداء مهمته الصعبة.

وشاعرنا العربي يقول:

إذا لم يكن عَـوْن من الله للفتى ... فــأوَّلُ مـا يَجْـنـي عليه اجتهاده

فهذا هو سبب الأسباب، وهو توفيق الله تعالى.

البركة في الوقت والاستخدام الأمثل للنعم والمواهب والقدرات

وهناك أسباب أخرى متفرعة من هذا السبب، وهو ما سميته «البركة»؛ فإن الله تعالى

قد يبارك في القليل، فيصبح كثيرًا، ويبارك في الضعيف فيصبح قويًّا.. قد يعيش بعضهم مائة عام، ولكن لا بركة فيها، ولا أثر له في هذا العمر ينفع الناس، وقد يعيش بعضهم عمرًا أقصر، فيبارك الله فيه، وينتفع الناس منه بما لا ينتفعون من المعمَّرين. انظر إلى عمر ابن عبد العزيز، وقد ولي الخلافة ثلاثين شهرًا، فبارك الله فيها، ونفع المسلمين بها، وما مات حتى قالوا: أغنى عمر بن عبد العزيز الناس.

وانظر إلى الإمام النووي، وقد عاش نحو خمسة وأربعين عاما ترك فيها من الآثار في الفقه والحديث والتاريخ ما نفع الناس من بعده قرونا إلى اليوم، من الأربعين النووية إلى المنهاج، إلى المجموع.

والبركة إذا عبرنا عنها بمفاهيم عصرنا، قلنا: إنها الاستخدام الأمثل للنعم والمواهب والقدرات، بحيث تعطي أفضل إنتاج في أخصر زمن ممكن.

المثابرة والاستمرار في العمل

ثم هناك سبب آخر، وهو المثابرة والاستمرار في العمل، فأنا في الحقيقة لا آخذ إجازة، أنا أعمل صيفًا وشتاء، وأعمل صباحًا ومساء، أعمل أيام الجمع والإجازات الأسبوعية، وكذلك الإجازات السنوية، وأحيانًا تؤرّقني الفكرة وتسيطر عليّ، فتطير النوم من أجفاني، فأجدني مضطرا للقيام من سريري، لأذهب إلى مكتبي.

الكتابة في الأسفار

وفي أسفاري، أكتب في المطارات حين أنتقل من طائرة إلى أخرى، ويكون هناك فرق زمني قد يكون عدة ساعات، فأنتهز الفرصة وأكتب، وأكتب في الطائرة، وخصوصًا في المسافات الطويلة، كالسفر إلى أوربا وأمريكا والشرق الأقصى، وإفريقيا، وغيرها.

وأذكر مرة أني كنت مسافرًا من القاهرة إلى لندن، وكان معي على الطائرة في الدرجة الأولى صديقي العالم الباحث الداعية المربّي المعروف: الدكتور عز الدين إبراهيم. وكان كلما مرّ بي ذاهبًا إلى الحمام: وجدني أكتب، وأخيرا سألني: ماذا تكتب يا شيخ يوسف؟ قلت له: أكتب علما، أؤلف يا دكتور!

قال: تكتب علمًا وتؤلف بلا مراجع؟!

قلت: نعم، من المخزون، ومن التأمّلات. ثم بعد الرجوع، أوثِّق ما يحتاج إلى توثيق.

قال: وتفعل ذلك في كل أسفارك؟

قلت: نعم، أفعل ذلك في كل أسفاري، وخصوصًا في الذهاب، فكثيرًا ما أكون في حالة الإياب منهكًا مهدودًا.

قال: الآن أدركت سر هذا العطاء الثر: أنك لا تضيع وقتًا، وأنك في عمل متصل.

قال الإخوة الماليزيون: ونحن أيضًا أدركنا سر هذا الإنتاج المبارك. وندعو لك بدوام التوفيق والبركة، والمثابرة.

٢ـ لماذا تؤلف؟ أو ما دوافعك إلى التأليف؟

والسؤال الثاني: لماذا تؤلف؟ أو ما الذي يدفعك إلى التأليف؟

يدفعني إلى التأليف عدّة أمور:

أولها: أن يطلب مني ذلك، وأجد في نفسي الرغبة في تلبية الطلب، والقدرة على الوفاء به، كما في كتب كثيرة من كتبي، أولها: «الحلال والحرام في الإسلام»، فقد طلبته مني مشيخة الأزهر، بواسطة الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر، ليترجم إلى الأقليات الإسلامية في الغرب. وفي الحقيقة لولا هذا الطلب، ما فكرت في الكتابة في هذا الموضوع في ذلك الوقت.

ومثل كتاب: «شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان»، فقد طلب مني لأشارك به في ندوة التشريع الإسلامي في ليبيا.

ومثل كتابي: «ثقافة الداعية»، فقد طُلب مني، لأشارك به في المؤتمر العالمي الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، الذي عقد بالمدينة المنورة.

ومثل كتابي: «تاريخنا المفترى عليه»، فقد كان الذي حرّكني للكتابة فيه سؤال من بعض المثقفين في نقابة الأطباء في مصر.

وعدد غيرها من الكتب، التي يكون أصلها بحوثًا شاركت بها في المؤتمرات.

وثانيها: أن يكون ردًّا على موقف من خصوم الإسلام، أو حتى من أبنائه الذين يسيئون فهمه، مثل كتابي «الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه»، و«التطرف العلماني في مواجهة الإسلام»، و«البابا والإسلام»، و«فوائد البنوك هي الربا الحرام».

وثالثها: أن يكون عندي شيء أقوله في تجلية جانب من جوانب، الثقافة الإسلامية أو الرسالة الإسلامية، يصحِّح مفاهيمها، أو ينفض الغبار عنها، أو يجلو غوامضها، أو يحل إشكالات فيها، أو يجيب عن أسئلة لم تجد لها إجابة صحيحة، أو يعمق أفكارها بما يتناسب مع أهميتها، أو كتابتها بلغة العصر، وبروح العصر... إلى آخر تلك المعاني والاعتبارات التي أجدها في نفسي، ولا أستطيع أن أكتمها عن الناس، بل لا بد لى من أن أسعى إلى إخراجها من صدري. بل إنها لتلح عليَّ إلحاحًا، حتى تولد وتبرز إلى الحياة، بل إنها لتطير النوم من عيني حتى أكتبها.

وإذا لم يكن عندي جديد أقوله، فلا ينشرح صدري للكتابة، ولا يتماسك القلم في يدي... هكذا في «الإيمان والحياة»، و«مشكلة الفقر»، و«الخصائص العامة للإسلام»، و«ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده»، و«الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف»، و«الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» ...

هكذا أكتب وأؤلف، لا لمجرّد تسويد الأوراق، ولا أحب يومًا أن أكرِّر غيري، أو حتى أكرِّر نفسي، إلا أن يكون وراء ذلك هدف، كما اقترح علي بعض الإخوان: أن آخذ بعض البحوث في بعض الكتب الكبيرة نسبيًّا لأصدرها في رسائل صغيرة، ونحو ذلك.

٣ـ ما سر هذا التنوع أو الموسوعية الثقافية؟

والسؤال الثالث: المفروض أنك عالم أزهري، وأن ثقافتك منحصرة في الثقافة

الشرعية واللغوية، ولكن من يقرأ مؤلفاتك، أو يسمع محاضراتك، تتجلى له موسوعية قلما تتوافر إلا للنوادر من الشخصيات، ولهذا، وجدنا في كتبك الدين واللغة والأدب والتاريخ والاقتصاد والفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتربية وغيرها، فمن أين لك هذه الموسوعية؟

جـ: بعض هذه الثقافة، حصلتها في دراستي الرسمية في الأزهر، فقد كنت طالبًا مجتهدًا أو متفوقًا في دراستي، وحصلت علوم الأزهر وتمكّنت منها، وخصوصًا علوم العربية من النحو والصرف والبلاغة، وكنت أتوسع في قراءة الأدب قديمه وحديثه خارج الدراسة الرسمية.

وحين التحقت بكلية أصول الدين: أعطتني ثقافة متنوعة: درست التاريخ الإسلامي لمدة أربع سنوات، ودرست الفلسفة على اختلاف مراحلها لمدة أربع سنوات، إلى جوار المنطق والتصوف وعلم الكلام، كما درست علوم التفسير والحديث وأصول الفقه ودرست أيضًا علم النفس.

ثم أكملت ثقافة الكلية بثقافة أخرى في تخصص التدريس، لمدة سنتين، وفيه درست علوم النفس والتربية. فدرست علم نفس الدوافع (الغرائز)، وعلم نفس النمو، وعلم نفس التعلم، أو علم النفس التربوي، والصحة النفسية، ثم درست أصول التربية، والتربية المقارنة، وتاريخ التربية، وطرق التدريس العامة والخاصة، والتربية العملية.

ثم قرأت في علم الاجتماع وعلم الاقتصاد، ثم توسّعت في دراسة الاقتصاد بمناسبة كتابي في «فقه الزكاة».

ثم إني توسَّعت في دراسة الفقه وأصوله، وخصوصًا الفقه العام أو الفقه المقارن، أو فقه الحديث، وقلما اشتغل بهذا خريجو كلية أصول الدين.

وبهذا تجمَّعت لي هذه الحصيلة من المعارف، وذلك بتوفيق الله وفضله، وإن كان ينقصني شيء مهم: لم أزل أشعر بالحاجة إليه، وهو اللغة الأجنبية.

٤. كتب تتمنى أن تنجزها

والسؤال الرابع: هل هناك كتب كنت تتمنى أن تنجزها، ولم تستطع حتى الآن؟

جـ: نعم، هناك كتب أتمنى أن أنجزها، وأسأل الله أن يعينني عليها، مثل: أن أتم كتابة تيسير الفقه على منهجي الخاص في العرض والأسلوب والتدليل، وكذلك تيسير فقه السلوك «الطريق إلى الله»، وغيرها من السلاسل، وأتمنى أن أكتب كتابًا في السيرة النبوية، وكتابًا في أصول الفقه، وكتابًا في أصول الحديث، وتفسيرًا مختصرًا للقرآن الكريم. فإذا رزقنا ربنا الأجل والصحة والبركة والتوفيق، أتممناها بحمد الله، أو أتممنا بعضها وبقي بعض آخر. كما هو شأن البشر، لا يمكن أن يتمم الإنسان في حياته كل ما يريد. وفي هذه الحالة أرجو أن يكتبها بعض تلاميذي على نهجي. وأتمنى أن يكون خيرا مني. وما ذلك على الله بعزيز. كل ما أطلبه منه أن يدعو لي بالمغفرة والرحمة والقبول عند الله.

زيارة باكستان من بعد ماليزيا

وبعد هذه الأيام المليئة والحافلة في ماليزيا الشقيقة (حوالي أسبوعين): ودعت الأستاذ أنور والإخوة في ماليزيا، لأبدأ رحلة العودة إلى قطر.

وكان الترتيب: أن أمر بباكستان، بمدينة لاهور خاصة، لألتقي بالجماعة الإسلامية، لأسلم لهم شيكا بمبلغ محترم حمّله لي بعض الإخوة الغيورين في قطر، لأعطيه من أطمئن إليه من جماعات الجهاد.

وكنت أريد بقدومي إلى لاهور: أن أتفاهم مع الجماعة كيف نقسم هذا المبلغ بين المجاهدين بالعدل. والعدل لا يعني المساواة دائما. فالتسوية بين المختلفين ظلم، كما أن التفريق بين المتماثلين ظلم، ولكن العدل: أن تعطي كل فئة بقدر بلائها في الجهاد، وبقدر حاجتها أيضًا.

لم أجد وسيلة للوصول إلى باكستان غير «الطائرة الروسية» التي تقوم من كوالا لامبور إلى كراتشي، وهي طائرة ليس فيها درجة أولى، بل كلها درجة واحـدة سياحية.

وقد ركبت هذه الطائرة التي كانت كراسيها صغيرة ومتضامّة، ولا يكاد الراكب يقدر على مد رجله كما يشاء، كما كانت مليئة بالركاب، فهي ذاهبة إلى موسكو مرورًا بكراتشي، وهي أول مرة وربَّما آخر مرة، أركب فيها طائرة روسية.

قضيتُ في هذه الطائرة المتعبة نحو سبع ساعات، مرت بطيئة ثقيلة، فلم يكن فيهـا شيء، تستريح له النفس، لا مقاعدها، ولا طعامها، ولا شرابها، ولم يكن حولي أحد أستطيع أن أتحدث معه، فيخفِّف عني بعض ما أعـانيه، فلم يبق إلا الصبر والدعاء إلى

الله تعالى أن يوصلنا إلى محطتنا بكراتشي في سلام، مردِّدًا، الدعاء المأثور: «اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطْو عنا بُعده».

الوصول إلى كراتشي والإصابة بوجع الظهر

وحوالي الساعة الحادية عشرة مساء: وصلنا إلى مطار كراتشي، بحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ووجدت الإخوة من أعضاء الجماعة الإسلامية في انتظاري، وقد أخذوني إلى فندق المطار، مشيًا على الأقدام، فهو قريب.

وأنا ليس لي حاجة للإقامة في كراتشي، فإن غايتي هي لاهور، ولكن الطائرة التي تذهب إلى لاهور هي في السادسة صباحا على ما أذكر.

وصّلني الإخوة أكرمهم الله إلى الفندق، وودعوني، وقالوا: نأتيك في الصباح؟ قلت لهم: لا ضرورة لذلك، جزاكم الله خيرًا، فالمطار على بعد خطوات، وأستطيع أن أدبر أمر نفسي. ولكن الإخوة أكرمهم الله أصروا على أن يأتوني في الصباح، وكان في إصرارهم الخير.

وبعد أن تركني الإخوة بحوالي نصف ساعة، شعرت بوجع شديد ومفاجئ في ظهري، بدون مقدمات: أمسى ظهري متخشبًا، وأحس فيه بألم شديد، ولا أستطيع أن أتحرَّك! لا يريحني الوقوف، ولا القعود، ولاالنوم، لا أملك إلا أن أقول: يارب، يا رحمن يا رحيم. يا أرحم الراحمين. يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث.

ما أصعب وما أقسى أن تصاب بمثل هذا المرض المؤلم، وأنت في السفر، في المنطقة المعلقة بين من ودعتهم ومن تريد الوصول إليهم!

رباه ماذا أفعل؟ وقد ذهب الإخوة الذين استقبلوني للتو، وليس معي تليفون لهم، ولا أعرف من اللغة الأوردية أو الإنجليزية ما أتفاهم به مع من حولي. ما كان أغباني حين لم أستمر في تعلم الإنجليزية!

ليس أمامي إلا التضرُّع إلى الله: أن ينزل عليَّ الصبر والسكينة، ويخفِّف عني ما أشكوه.

كنت أدعو بما دعا به أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣).

لم يسأل الله شيئًا إلا أنه ذكر ما مسه من ضر، ولم يبالغ في قوله، فيضخم ما أصابه، بل عبر عنه بهذه الكلمة اللطيفة ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ واكتفى بأن يثني على ربه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. عرض الحالة، وتركها لله. فما أسرع ما استجاب الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء:٨٤).

كما كنت أردد قول سيدنا يعقوب عليه السلام بعد أن فقد ابنيه الحبيبين: يوسف وأخاه: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف:٨٦). شكا إلى الطبيب الذي يعلم داءه، ويعلم دواءه، وهو أبر به من نفسه، وأرحم به من الوالدة بولدها.

كنت أردِّد دعوة المكروب، وهي دعوة ذي النون في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧) لينجيني الله من الغم كما نجاه.

وكنت أرقي نفسي بالمعوذات، وبآية الكرسي، وبالفاتحة، وبالرقى المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما علمنا أن نقول بعد وضع اليد على مكان الألم: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[1] سبع مرات. كما أقول: «اللهم رب الناس، أذهب الباس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما»[2].

حكم رفض الشكوى إلى أحد

ولست مع بعض المتصوفة الذين يرفضون الشكوى إلى أحد، ولو كانت إلى الله! ويقول بعضهم: علمه بحالي يغني عن سؤالي!

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٢)، عن عثمان بن أبي العاص.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٤٣)، ومسلم في السلام (٢١٩١)، عن عائشة.

ويقول شاعرهم:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي قد أصابني من طبيبي؟

وقيل لبعضهم: ألا نأتي لك بطبيب؟ قال: الطبيب هو الذي أمرضني!

ورأيي: أن تلك حالات خاصة يغلب على أصحابها وجدان معيَّن يقع تحت تأثيره، ويفقد بذلك السيطرة على نفسه، فهو أشبه بالمكره في هذه الحالة، ومثله لا يقتدى به، ولا يؤخذ من تصرفه حكم شرعي. إنما العمدة هنا: القرآن والسنة.

وقد رأينا يعقوب وأيوب يشكوان إلى الله تعالى، وهما من هما في أنبياء الله، قال تعالى عن يعقوب: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٥ ـ ٤٧).

وقال عن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤).

على كل حال، قضيت ليلتي أو ما بقي منها، وقد تركت سريري وجلست على الأرض، راكنًا ظهري إلى الحائط، ثم راقدًا على الأرض بعد أن وضعت عليها فراشًا، كل ذلك وأنا أعاني ما أعاني، وأستعين بدعاء ربي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥). ولم يكن عندي ما أستعينه سواه: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩).

وعندما انكشف نقاب الليل عن وجه الفجر: تحاملت على نفسي لأدخل المرحاض، وأعتقد أني تيمَّمت لأؤدي صلاة الفجر، فلم يكن الوضوء ممكنًا بالنسبة لي. كما أذكر أني صليتُ بالإيماء، فهو ما أقدر عليه، وقد قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦). وقال رسوله الكريم: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[1].

وجاء الإخوة من أعضاء الجماعة الإسلامية الذين ودَّعوني بالأمس، ليوصلوني إلى المطار، فوجدوني على حال غير الحال التي تركوني عليها، وكان قد ظهر عليَّ الإعياء

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم، في الحج (١٣٣٧) عن أبي هريرة.

والتعب، من المرض والمعاناة، ومن عدم النوم طول الليل تقريبًا. وسألوني عما جرى، وشرحت لهم ما وقع، فعرضوا عليّ أن أؤخر سفري، فأبيت، وقلت: نتوكَّل على الله، ونسافر إلى إخواننا في لاهور، وهم يتولون أمر علاجي.

وحملوا حقيبتي، وقاموا بالإجراءات اللازمة، ثم تركوني لأدخل إلى مكان الانتظار في الداخل، ومنه أصعد إلى الطائرة على الخطوط الباكستانية الداخلية، فلم يكن بإمكانهم توصيلي إلى باب الطائرة.

وعندما جاء الموعد، تحاملت على نفسي مرة أخرى، وطلبت المدد من الله، وارتقيت سلَّم الطائرة، وكان يخيَّل إليَّ أني أصعد جبلاً شاهقًا، وصعود كل درجة فيه يحتاج إلى مشقة بالغة، ولاسيما أني أحمل نفسي، وأحمل في يدي حقيبة السفر.

وصولي إلى لاهور

ووصلت بحمد الله إلى لاهور، وكان عليَّ أن أجتاز مشقة أخرى في النزول من الطائرة، وأنا أحمل حقيبة في يدي، ويسَّر الله الأمر ونزلت، ووجدت عددًا من كبار الإخوة في الجماعة الإسلامية في انتظاري، لا أذكر منهم إلا الأخ الحبيب الشيخ خليل الحامدي رحمه الله.

لاحظ الإخوة عليّ مظاهر الإعياء، فقلت لهم: إني أعاني ألمًا شديدًا في ظهري، وإن أول ما أطلبه منكم الآن: أن تأتوني بطبيب مختص في العظام من إخوانكم أو من غيرهم، أو تنقلوني إلى مستشفى فورًا، فالأمر لا يحتمل التأخير.

في دار الجماعة

وبمجرَّد وصولي إلى دار الجماعة الجديدة في «المنصورة» ـ وهو اسم الحي الذي أقامت الجماعة فيه منشآتها الحديثة: الإدارية والتعليمية والدينية والطبية وغيرها ـ أحضروا لي طبيبًا في الحال، وقال لهم: أحضروا ألواحًا من الخشب وافرشوها ببعض البطاطين، لينام

الشيخ عليها، ولا ينام على الأسِرَّة والفرش الوثيرة، فهي تزيد عليه التعب، وأعطاني إبرة مسكنة، ووصف لي بعض الحبوب لأتناولها. وأوصاني بالراحة التامة.

لم أمارس أي نشاط، برغم البرنامج الذي كان الإخوة قد أعدوه، فالعبدُ يدبِّر، والله يقدِّر. وليس على المريض حرج، ولذا استسلموا لقدر الله، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

ومع هذا لم أحرم من بعض الإخوة يأتون ليعودوني، ويسألوا عني، ثم يسألوني بعض الأسئلة في موضوعات ربما أشكلت عليهم، فأجيبهم، وأنا نائم على ظهري، وقد قال تعالى في وصف أولي الألباب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

وبعد نحو ثلاثة أيام: تحسَّن حالي قليلاً، وهنا انتهزها الإخوة فرصة، لألقي درسًا أو محاضرة بمعهد الإمام المودودي بجوارنا على بعد خطوات.. ولم أملك الاعتذار، وأنا إنسان يغلبني الحياء، فقبلت على مضض، ولكن هذا زاد عليّ التعب، وارتد عليّ الألم.

الزنداني والدعوة إلى بشاور للإصلاح بين المجاهدين

وفي هذه الأثناء، قدم أخونا الداعية المعروف الشيخ عبد المجيد الزنداني من بشاور، فوجدني، فانفرجت أساريره وقال: الحمد لله، إذ وجدتك ههنا!

قلت: خير، ما الخبر؟

قال: إن الله ساقك في هذا الوقت لتنجز أمرًا لا ينجزه غيرك.

قلت: خير يا شيخ عبد المجيد.

قال: إنَّ إخوانك المجاهدين في أفغانستان على خلاف فيما بينهم في بعض الأمور والجزئيات، وخصوصًا مجاهدي الجماعات الأربع الذين ينتمون إلى الحركة الإسلامية: جماعة رباني، وجماعة حكمتيار، وجماعة سياف، وجماعة يونس خالص.

وهناك الآن مؤامرة: تحاك لهم، ولا ينقذهم منها إلا تضامنهم فيما بينهم، وهذه تحتاج إلى شخصية تقدر على أن تجمعهم، وتفرض عليهم أن يتفاهموا ويتعاونوا. وأنت الآن هذه الشخصية، التي بعثها القدر الإلهي في هذه الآونة لحل هذه المشكلة.

قلت له: يا شيخ عبد المجيد، ولكني الآن لا أصلح لهذه المهمة، فأنا ـ كما ترى ـ لا أستطيع أن أتحرك، فمن الذي ينقلني الآن إلى بشاور؟

قال: ألا تنوي العودة إلى قطر، وإن كان بك ما بك؟

قلت: لا بد من ذلك، على ما فيه من مشقة.

قال: فليكن هذا جزءًا من رحلة عودتك.

قلت: أنا في وضعي الصحي الحالي في حاجة إلى اختصار الرحلة لا إلى زيادتها.

قال: ولكن إذا كانت زيادة الرحلة في سبيل الإسلام فمثلك يتحمَّلها، والله يعينه، والمسافة بيننا وبين مدينة بشاور التي نقصدها: ساعة واحدة.

والشيخ الزنداني سوَّاق حُطَم، لا تستطيع أن تفلت منه، وهو صاحب عزيمة وهمَّة، وقد عزم على أن يقوم بدور في تجميع كلمة الإخوة في أفغانستان، ورأى في وجودي فرصة لتحقيق هذا الحلم، ولم أملك أمام إصراره، وأمام سمو الهدف الذي يسعى إليه إلا أن أجيبه، برغم ما أعانيه، مستمدًّا من الله العون والقوة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

السفر إلى بيشاور

وحزمت أمتعتي، وأعددت حقيبتي للسفر، أو قل: أعدها الإخوة في لاهور، جزاهم الله خيرًا، وحجزوا لي أنا والشيخ الزنداني مقعدين في الطائرة التي تغادر ليلاً إلى بشاور، وودعونا في المطار، وركبنا الطائرة المتجهة إلى بشاور.. وبعد طيران الطائرة ما يقرب من ساعة، وقد اقتربنا من المطار، فإذا بنا نفاجأ بإبلاغنا: الأحوال الجوية في مطار بشاور سيئة جدًّا، ولا تسمح بنزول الطائرة! واضطرت الطائرة إلى أن تذهب إلى مطار إسلام آباد، لنبيت هناك، وتزداد رحلتي رحلة أخرى!

قال الشيخ الزنداني مواسيًا: يريد الله أن يضاعف أجرك.

قلت: قدَّر الله، وما شاء فعل. الخير ما يختاره الله لنا: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ (البقرة:٢١٦).

وإيمان المسلم بالقدر، ورضاه بما يقدر الله له، وأنه أبرّ به من نفسه: يريح ضميره، ويطمئن به قلبه، ويمنحه لونًا من السكينة لا يتذوّقه الماديون والملحدون والشّاكّون، إذ في المأثور: «إن الله عز وجل بقسطه: جعل الفرح والروح في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في السخط والشك»[1].

بتنا ليلتنا في إسلام آباد، وفي الصباح نقلتنا طائرتنا ـ التي باتت معنا ـ إلى بشاور. وبمجرَّد وصولنا بدأنا الاتصال بالإخوة، لنلتقي بهم، ونتفاهم على النقاط التي يجب أن نتفق عليها.

لقائي مع قادة الجهاد الأفغاني

وقد حضر الإخوة الكبار: برهان الدين رباني رئيس الجمعية الإسلامية، وقلب الدين حكمتيار رئيس الحزب الإسلامي، وعبد رب الرسول سياف رئيس اتحاد المجاهدين، وكان الشيخ يونس خالص ـ رئيس الحزب الإسلامي الذي انفصل عن حزب حكمتيار ـ غائبا عن بشاور، فلم يحضر، ولا أذكر: هل مثَّله بعض رجاله أو لا؟

كان لا بد من تمهيد لتصفية النفوس، وترطيب القلوب، وتذكير الجميع بأخوة الإيمان، ووحدة الإسلام، وضرورة التضامن في مواجهة العدو، ولا سيما في الوقت الذي تحاك فيه المؤامرات ضد الجهاد الإسلامي، وضربه من الداخل، فالتساند والتعاضد والتضامن بين المجاهدين: فريضة وضرورة، ولو لم يوجبه الدين، ويشدد فيه كل التشديد، لأوجبه الواقع وألزمنا به إلزاما.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٥)، ولم يذكر «الشك»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير وفيه خالد بن يزيد العمري واتهم بالوضع (٤/ ١٢٤). ونحن أوردناه على أنه مجرد قول مأثور لا حديث.

إن القرآن حذّرنا من التفرق إذ الأعداء يجتمعون، والتخاذل إذ هم يتناصرون، والتباعد إذ هم يتقاربون، فقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال:٧٣).

أنصت الإخوة إلى حديثي، وتفهَّموه، وتجاوبوا معه، وقلت لهم: إن الناس يمكن أن يختلفوا في أحوال الرخاء والعافية والسلم. أما في حالة البلاء والحرب والخوف، فلا مجال للخلاف. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف: ٤). والمفروض في المختلفين في هذه الحالة أن يتحدوا، فإن المصائب يجمعن المصابين. فكيف يختلف المتَّحدون الذين يؤمنون بفكرة واحدة، وبأهداف واحدة، وبمنهج واحد؟ هذا لا معنى له إطلاقا.

وكان المقصود أن نُحدِّد الأولويات، ونبدأ بها، ونبحث عن نقاط الاتفاق الأساسية، وعن الخطوات العملية التي يجب أن تُتَّخذ لمواجهة المرحلة القادمة، والتي يدبر فيها الآخرون تدبيرات ماكرة، لتفريق الصف، وإبراز قوى لا تستحق الإبراز.

وانتهينا إلى أن ما نتفق عليه: يجب أن نكتبه ونسجله في وثيقة بينة، يوقِّع عليها الإخوة، ويعاهدون الله تعالى على العمل بها.

كنت أحدث الإخوة وأخاطبهم، وأتعامل معهم، وأنا راقد على ظهري، وكان الإخوة مشفقين عليّ، وقلت لهم: إنني سأشعر بالعافية إذا اتفقتم، وإذا نفذتم ما اتفقتم عليه.

كتابة وثيقة الاتفاق

وتوليت أنا كتابة وثيقة الاتفاق بيدي، وكان المفروض أن أبقى معهم يومًا كاملاً، وأبيت معهم، ونصف اليوم الثاني، ثم أغادر بشاور إلى كراتشي، لأستقل الطائرة الخليجية الذاهبة إلى الدوحة.

وقد كتبت معظم بنود الوثيقة بيدي، وبقي منها سطور، لم أستطع أن أكملها، وإلا فاتتني الطائرة، فقلت للشيخ الزنداني: عليك أن تكمل بقية الاتفاقية، وتؤكدها بتوقيع

الإخوة، والله يوفقكم، وأستخلف الله عليكم، وأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

وودَّعت الإخوة، لأذهب إلى المطار، وأدرك الطائرة في الدقائق الأخيرة، متحملا من التعب والمعاناة ما يعلمه الله! ووصلت إلى كراتشي، ليستقبلني الإخوة من أعضاء الجماعة الإسلامية هناك، ويبقوا معي، حتى ركبت الطائرة المتجهة إلى الدوحة.

وقد وصلت إلى الدوحة، وفوجئ أهلي وأولادي وإخواني جميعًا بحالتي. وقد ودعوني عند السفر إلى ماليزيا وأنا بحالة جيدة، فما الذي جرى؟ وقد أثر هذا السفر فيما أصابني فاشتد علي ألم الظهر، ولكن الدوحة فيها من إمكانات العلاج والرعاية ما لا يوجد في غيرها، وهو ما نتحدث عنه في الصفحات التالية إن شاء الله.

ماذا صنع إخواننا الأفغان باتفاقنا؟

وقد يسأل القارئ هنا سؤالاً طبيعيًّا، وهو: ماذا صنع الإخوة الأفغان بالوثيقة التي كتبتها بيدك، وتركتها أمانة عندهم ليعملوا بموجبها؟ هل وفوا بالعهد أو غلبت عليهم طبيعتهم في التنازع الذي حذّر الله منه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ (الأنفال:٤٦).

وأقول للإخوة السائلين بصراحة: لقد خيبوا ظني وظنكم.

فقد قابلت أخانا الشيخ الزنداني بعد ذلك - وقد بقي مدة بعد الاتفاقية التي كتبناها - وسألته: هل نفذ الإخوة ما اتفقنا عليه؟ فابتسم وقال: سامحهم الله. إنهم لم يكادوا يشرعون في التنفيذ حتى انتكسوا، وغلبت عليهم سجيتهم في الاختلاف والتفرق.

قلت له: وضاع الجهد الذي بذلناه؟

قال: بكل أسف نعم، وقد كان على حساب صحتك، ولكنه لن يضيع عند الله.

قلت: وهذا عزاؤنا: أن الله لا يضيع عنده عمل عامل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (النساء: ٤٠).

وكانت هذه المشكلة الكبرى لدى إخواننا المجاهدين الأفغان، الذين قاوموا الروس

بقلوب الأسود، ولم تَحْنِ رؤوسَهم ولم تُلِن قناتَهم: دباباتُهم على الأرض، ولا طائراتهم في السماء. مشكلتهم هي الاختلاف. وليست هذه هي المرة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى أفغانستان لإصلاح ذات بين الإخوة، فقد ذهبت بعد ذلك عدة مرات، شاركت فيها عددًا من الإخوة منهم: الأستاذ مصطفى مشهور نائب المرشد العام للإخوان في ذلك الوقت، والأستاذ محمد قطب، والشيخ محمد محمود الصواف، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة وغيرهم. وكلها لم تثمر ثمرتها المنشودة من توحيد كلمة المجاهدين، وجمع صفهم أمام عدوهم، ليكونوا كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ (الصف: ٤).

محاولة المجاهد الصابر كمال الدين السنانيري

وقبل هذه المحاولة: كان هناك أخونا المجاهد الصابر الشهيد كمال الدين السنانيري، الذي كان من أوائل من ذهب إلى بشاور، ممثلاً لمكتب الإرشاد في الإخوان، وكان هو شخصيًّا مشغوًّلا بالقضية، مهمومًا بها، وبإمدادها بكل ما يشد أزرها، ويجمع أمرها، ويجنِّبها الزلل والفتن، وخصوصًا فتنة التفرق والتشرذم والاختلاف، فإن شرَّ ما يصيب الجماعات: أن يكون بأسها بينها.. كان رحمه الله آية في الصبر والمصابرة وحسن الخلق والأناة والحكمة. ومع هذا لم تفلح جهوده المستمرة في التجميع والتقريب، كما كان يحب ويأمل في إخوانه. غفر الله لنا ولهم.

العودة إلى الدوحة ومعاناة آلام الظهر

كنت أعتبر نفسي ممن آتاه الله قوة البنيان، وسلامة العظام، ولم أر في أسرتي من أعمامي ولا أبناء أعمامي من شكا من آلام العظام، ولهذا تعاملت مع جسمي وعظامي وأجهزته المختلفة بغير اكتراث. ولم أكن أحترس في السفر ولا في الحضر عند حمل الأشياء الثقيلة، وأن لها أصولاً وآدابا، ونسيت الأدب النبوي القائل: «وخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك»[1].

حقيقة مهمة في الكون والإنسان

كما أني نسيت حقيقة مهمة في هذا العالم، وهي حقيقة طبيعية، وحقيقة إنسانية، وهي: أن الزمن يغيِّر الإنسان، كما يغيِّر الأشياء.

لقد درسنا في الجغرافيا الطبيعية: ما يسمونه «عوامل التحاتّ والتعرية»، وهي عوامل تؤثر في الجبال وفي البر والبحر والطبيعة كلها. فالصحراء قد تزحف على المساحة الخضراء، وهو ما يسمَّى الآن: خطر التصحر، والصحراء قد تُخضّر، وتزحف الخضرة على الصحراء، والبحر كثيرًا ما ينحر من البر، والناس كثيرًا ما تردم أجزاء من البحر.. وهناك جزر قد تنشأ جديدًا في البحر، وجزر تزول.

والإنسان يجري عليه ما يجري على الكون من حوله من تغيرات، ولكننا ننسى هذا.. ننسى أن كرّ الغداة، ومرّ العشى، واختلاف الليل والنهار: يُشِيب الصبي، ويضعف

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤١٧) عن ابن عمر.

القوي، ويُمرِض السليم، ويوهن العظم، وإن تفاوت الناس في ذلك تفاوتًا بعيدًا، ولكن الجميع محكوم بقول الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٢٨).

نصيحة شيخنا عبد المعز عبد الستار

وقد كان شيخنا الداعية الكبير عبد المعز عبد الستار ـ وهو معنا في قطر ـ ينصح لي كلما لقيني، ويقول: أنت تقوم عنا وعن جلِّ علماء الأمة، بالدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه على مستوى العالم، والتصدِّي لأعدائه في الخارج، وخصومه في الداخل، جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأمته.. ولكن أحب أن أذكرك حكمة قالها لي بعض شيوخنا (ذكر اسمه)، وهي: مَنْ جار على شبابه جارت عليه شيخوخته، فلا تجر على شبابك وحيويتك، لتسلم لك شيخوختك، وهي ليست لك وحدك، ولكنها لأمة الإسلام.

دورة العلاج ولزوم الراحة التامة

على أيِّ حال، لقد عدت إلى الدوحة، وبدأت دورة العلاج، ونقلت إلى المستشفى لإجراء ما لا بد منه من فحوص، وما يحتاج إليه الأطباء في مثل هذه الحال من أشعة وتحليلات مختلفة للدم وللبول وغيرهما.

وكانت نصيحة أطباء العظام: أن ألزم الراحة التامة على الفراش، على ألاّ يكون ليّنًا، وأن أنام على ظهري ما استطعت، مع تناول بعض الحبوب والمسكنات، وأن أقوم ببعض التمرينات الخفيفة بوصفها نوعًا من العلاج الطبيعي، وكان الأطباء المختصُّون يمرون علي ما بين حين وآخر في منزلي ليرقبوا الحالة، ويصفوها، ويروا رأيهم فيها.

وقد ذكروا أنها حالة من الانزلاق الغضروفي، التي تصيب فقرات الظهر بسبب أو آخر، وقد يمكن أن تزول أو تخف بالراحة زمنًا، وبالعلاج الطبيعي، وقد تكون الإصابة شديدة فتحتاج إلى الجراحة، ولكن هذه لا يلجأ إليها إلا عند اليأس من العلاجات الأخرى، وآخر الدواء الكي كما يقول العرب.

لزمتُ بيتي، بل لزمتُ فراشي، كما قرَّر أطبائي المعالجون، والمريض ليس له إلا طاعة

طبيبه، وانقطعت عن الجامعة، فلم أعد أحاضر، وعن الجامع، فلم أعد أخطب، وطال بي القعود، والآلام لا تزال تهز كياني، وتزلزل بنياني، وهذا ما حرَّك وجداني، وأنطق لساني، فبدأت أنشئ أكثر من قصيدة وأنا على فراشي.

تحرُّك شاعريتي في المحن والمعتقلات

وقد كنت هجرت الشعر أو هو هجرني زمنًا، فقلما يجتمع العلم والشعر، ولكن المحن عادة تحرك شاعريتي، وقد ظهر ذلك، في المعتقلات والمحن التي نزلت بالإخوان المسلمين، وكنت واحدًا من الممتحَنين، فأنطقتني المحن بعدد من القصائد أشهرها: النونية التي يحفظها ويتغنَّى بها كثيرون.

قصيدة «مناجاة»

كانت القصيدة الأولى التي أنشأتها في هذه المحنة المرضيَّة، هي قصيدتي الضادية، التي نشرت تحت عنوان «مناجاة»: وفيها أقول:

يارب! ها جسمي يشيخ ويمرض	والوهن وافاني سريعا يوفض
ولَّت سنُو عُمري كرؤيا نائم	ومَضَى شبابي مثل برق يومض
ودنا الرحيل ولم أهيئ زاده	وخيام أيامي تكاد تُقَوَّض
كل النفائس قد تعوض إن تَضِعْ!	والعمر ـ إن ضيِّعت ـ ليس يُعوّض
ما بعد نضج الزرع غير حصاده	هي سنَّة لله، ليست تنقض
وإذا أتى الأجل المقدر وقته	لم يغن عنك مطبب وممرض

إلى آخر القصيدة المنشورة في ديواني «نفحات ولفحات».

قصيدة «يا أمتي وجب الكفاح»

القصيدة الثانية: قصيدتي الحائية التي عنوانها: «يا أمتي وجب الكفاح».

وقد أخذت عنوانها من مطلعها:

يا أمتي وجب الكفاحْ فدعي التشدق والصياحْ

ودعي التقاعس ليس ينصر من تقاعس واستراح

ودعـي الرياء فقد تكلمت المذابح والجـراح

كذب الدعاة إلى السلام فلا سلامُ ولا سماح

ما عاد يُجْدينا البكاء على الطلول ولا النواح

لغة الـكـلام تعطَّلت إلا التكلم بالرماح

إنــا نـتـوق لألـســنٍ بُـكْــمٍ عـلى أيـد فصاح

يا قـوم.. إن الأمـر جـدٌّ قد مضى زمـن المـزاح

سموا الحقائق باسمها فالقوم أمرهمو صراح

سقط القناع عن الوجوه، وفعلهم بالسر.. باح

عـاد الصليبيون ثانيةً.. وجالوا في البطاح

عــاثــوا فــســادًا في الــديــار كـأنهـا كـلأ مباح

عـادوا يريقون الدماء، ولا حياء من افتضاح

والباطنية مثَّلوا الــدور المـقـرر في نجاح

دور الخيانة وهـو معلوم الختام والافتتاح

عادوا وما في الشرق «نور الدين» يحكم أو «صلاح»

كنا نسينا مـا مـضى لكنهم نكئوا الجـراح

لم يخجلوا من ذبح شيخ، لو مشى في الريح طاح

أو صبية كالزهر لم ينبت لهم ريـش الجناح

لم يشف حقدهمو دم سفحوه في صلف وقاح

عبثوا بأجساد الضحايا في انتشاء وانـشراح

وعدوا على الأعراض لم يخشوا قصاصًا أو جُناح

ما ثمَّ «معتصم» يغيث من استغاث به وصاح

أرأيت كيف يكاد للإسلام في وضح الصباح؟

أرأيـت أرض الأنبياء، وما تعاني من جراح؟

أرأيت كيف بغى اليهود، وكيف أحسنا الصياح؟

غصبوا فلسطينا وقـالـوا: مالنا عنها براح

لم يعبئوا بـقـرار «أمــن»، دانهــم أو باقتراح

عاد التتار يقودهم جنكيز ذو الوجه الوقاح

عـادت جيوشهمو تُهـدِّد بالخراب والاجتياح

عـادوا ولا «قطز» ينادي المسلمين إلى الكفاح

لـولا صـلابـة فتية غُــرّ، بدينهمُو شحاح

بذلوا الدماء، وما على من يبذل الدم من جناح

وهي تعبر عن محنة الأمة: التي زحف عليها الصليبيون ولا صلاح الدين لها، وزحف عليها التتار ولا قطز لها، وانتشرت فيها الردة ولا أبا بكر لها.

وكان ذلك بعد مذابح صبرا وشاتيلا في لبنان، وبعد مجازر السوفيت في أفغانستان، وبعد تطاول العلمانيين واللادينيين في بقاع شتى.

وكانت هذه القصيدة استصراخًا للأمة، وقد تغنَّى بها الشباب في كل مكان، وخصوصا الأبيات الأخيرة منها.

يا أمة الإســلام هبوا وانهضوا فالوقت راحْ

يا ألف مليون، وأيـن هم إذا داعـت الجـراحْ

هاتوا من المليار مليونا صحاحا من صحاح

من كل ألـف واحــدا أغـزو بهم في كل ساح

من كل صافي الروح يوشك أن يطير بلا جناح

قرار السفر إلى ألمانيا

ولما لم تُجْدِ العلاجات المخفِّفة والمسكنة والعلاج الطبيعي: رأى الأطباء المعالجون (الدكتور نبيل خليفة وزملاؤه شكر الله لهم): أن الحل الحاسم هو العملية الجراحية، وأن الأولى أن يجريها الشيخ في بلد أوربي، ونحن نرشح ألمانيا. وسرعان ما جاء الإذن من الديوان الأميري بسفري للعلاج في ألمانيا، وقد اتصل الديوان بسفارة قطر في ألمانيا في مدينة «بون»، وهي عاصمة ألمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد تقسيم برلين إلى شرقية وغربية، وكان السفير هناك الأستاذ أحمد الخال، وقد قام بعمل المطلوب قبل وصولي.

تقرر سفري، ومعي زوج ابنتي الدكتور أحمد سيف الإسلام مكي، وهو طبيب في المستشفى في قسم العظام، وكنا في أواخر السنة الدراسية، والأولاد ينتظرون امتحانات آخر العام، وأمهم مشغولة بهم، ولا تستطيع أن تسافر معي.

الوصول إلى ألمانيا بصحبة د. أحمد زوج ابنتي

ولقد سافرت عن طريق لندن، وعملت الترتيبات اللازمة لتنقلاتي عن طريق «الكرسي المتحرك» وركوبي الطائرة ونزولي منها، وانتقالي من ترمنال إلى آخر في مطار لندن، ونزولي من مطار بون، وغير ذلك، حتى وصلت إلى الفندق الذي أنزل فيه بسلام والحمد لله، حتى تتم إجراءات دخول المستشفى، وكان مندوبو السفارة في استقبالنا بالمطار، ولم يفارقونا حتى رتَّبوا كل ما هو مطلوب.

وقد حجزوا لنا في المستشفى الجامعي، وهو مستشفى معروف على مستوى رفيع من ناحية أطبائه، ومن ناحية أجهزته، ومن ناحية تمريضه.

ومما فوجئت به: أنهم لم يحجزوا لي في قسم «العظام» وهو القسم الذي كان يتولى رعايتي في مستشفى حمد بالدوحة، بل كان الحجز في قسم «الأعصاب». وذلك لأن الانزلاق الغضروفي وعملياته الجراحية تتبع قسم الأعصاب لا قسم العظام.

وكان يرأس قسم الأعصاب طبيب عالمي معروف يدعى للمؤتمرات العالمية في تخصُّصه.. ولم يكن موجودًا حين ذهبت، ولكن كان نائبه هو الموجود، وقد قيل لي: إن نائبه من الناحية العملية أمهر منه، وإن كان الرئيس أبرز في الناحية النظرية والأكاديمية.

وقد أثبتت الكشوف والتحليلات بالأشعة والأشعة الملونة: أن هناك خللاً في الفقرة الخامسة ـ على ما أذكر ـ وتحتاج إلى عملية، ولم تعد بالأمر الصعب، فهم يجرونها كل يوم ـ تقريبًا ـ لعدد من الأشخاص، وقد أخذوا مني توقيعي ـ كما هو المعتاد ـ بالموافقة على إجراء العملية.

وفي اليوم المحدَّد قام الطبيب المختص ـ وهو نائب رئيس القسم ـ بإجراء العملية، وقد تمت بسلام والحمد لله. ولكن المهم ليس العملية، بل ما بعد العملية، إذ لا يستطيع المرء أن يتحرَّك إلا بمحرِّك.. لا يستطيع أن يقضي حاجته، بل لا يستطيع أن يتقلب في فراشه..

كثرة النعم ومعرفتها عند فقدها

كنت في الأيام الأولى أقول: متى أستطيع أن أنام على الجنب الذي يريحني؟! لأني لا يمكنني وحدي أن أحرك جنبي، أو أغيِّر نومتي، وحين أمكنني ذلك، اعتبرت أني انتقلت نقلة عظيمة، وعدَدْتُها نعمة كبيرة تستحق شكر الله تعالى عليها، وكم لله علينا من نعم جليلة لا تُحصى، ولا نحسُّ بها، لأننا ألفناها وتعوَّدناها، ففقدت قيمتها عندنا، ولا نعرفها إلا بفقدها.

بعد أن استطعت التقلُّب على جَنْبي وحدي أصبحت أتمنى شيئًا آخر أن أرفع رأسي من فوق الوسادة وحدي، ثم أن أقعد على السرير وحدي.

وبعد ذلك، كنت أقول: متى أستطيع أن أجلس على الكرسي وحدي؟ وعندما تمكنت من ذلك، وكنت أنتقل بالكرسي المتحرك، وأذهب به إلى دورة المياه، وأقضي حاجتي بنفسي: شعرت بنعمة جديدة من الله تعالى علي أجَلْ، إن الإنسان يتمتع بنعم لا تُعد ولا تُحصى من نعم الله عليه، ولكنه لا يحسُّ بها إلا عند فقدها.

الصلاة بالإيماء ووجوب المحافظة عليها

كنت بعد أن أفقت من العملية: أصلي بالإيماء، مشيرًا بحاجبيّ، فلم أكن أستطيع تحريك رأسي. وأحسبني في أول الأمر كنت أصلي صلاة فاقد الطهورين، الماء والتراب، فلا أقدر على استعمال أحدهما، كما أصلي بدون توجُّه إلى القبلة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥).

إنَّ الصلاة فريضة مقدَّسة، أوجبها الله في الصحة والمرض، والحضر والسفر، والأمن والخوف، ولم يعذر أحدًا على تركها إلا من فقد الوعي. أما من بقي معه عقل يفهم الخطاب، فلا عذر له في ترك الصلاة عمود الإسلام.

إنَّ شروط الصلاة وأركانها تسقط بالعجز عنها، ولا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها: أما الصلاة نفسها فلا بدّ منها، من لم يستطع الوضوء أو الغسل صلى بالتيمم، ومن لم يستطع التيمم صلى فاقد الطهورين، ومن لم يقدر على التوجه إلى القبلة، صلى إلى أيِّ جهة قدر عليها، ومن لم يقدر أن يصلي قائمًا صلَّى قاعدًا، ومن لم يستطع الصلاة قاعدًا، صلى مُضْطجعًا على جَنْبه، أو مستلقيًا على ظهره، موميًا برأسه، أو مشيرًا بحاجبيه، قارئًا بلسانه إن قدر، أو مستحضرا القراءة والأذكار بقلبه.

في حالة الحرب، أمرنا الله بالصلاة مشاة أو راكبين، ولا تؤخَّر الصلاة، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ (البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩) ومعنى: رجالا، أي: راجلين، مشاة على

أرجلكم، ومعنى: ركبانا، أي: راكبين فوق خيولكم أو دباباتكم في البر، أو غواصاتكم في البحر، أو طائراتكم في الجو.. صلوا حيثما كنتم، وكيفما استطعتم.

وقد بدأوا في المستشفى يجرون لي بعض تمرينات العلاج الطبيعي، شيئًا فشيئا، حتى يعود الجسم إلى حالته الطبيعية، وفق سنة الله في التدرج.

زيارة الجالية الإسلامية لي في بون

وسرعان ما علمت الجالية الإسلامية ـ في بون خاصة، وفي ألمانيا عامة ـ بدخولي المستشفى، وإجرائي العملية، وأسرعوا بزيارتي.. وبعضهم جاءني، ولم أكن أفقت بعد من أثر التخدير، منهم أبو أيمن الأخ الأديب الشاعر الداعية الكبير الأستاذ عصام العطار، وبعض إخوانه جاءوا من مدينة آخن، ومن المركز الإسلامي بها. ومنهم الأخ الكبير: الأستاذ مصطفى مشهور نائب المرشد العام، وقد كان وقتها في أوربا، فهرع لعيادتي ومعه الأخ المجاهد الحبيب الحاج عباس السيسي، الذي كان يقيم في ألمانيا في ذلك الوقت راعيًا للمركز الإسلامي في فرانكفورت، ومعهما ثالث، نسيته، ربما كان الأستاذ محمد المهدي عاكف ـ مرشد الإخوان ـ الذي كان يعمل مديرًا للمركز الإسلامي في ميونخ، كما اتَّصل بي أحبّاء كثيرون من قطر، من كل الفئات، وكذلك من مصر، ومن الكويت والسعودية والإمارات وبلاد الخليج، ومن أوربا وأمريكا، يصعب أن أذكرهم، فهم عدد لا يُحصى، ولا يسعني إلا أن أدعو الله لهم أن يجزيهم عني خيرا.

أذكر فقط هنا الذين كرّروا السؤال والاتصال، وعرض الخدمات، منهم الأخَوان: يوسف ندا، وغالب همّت من سويسرا.

وهكذا رأيت الإخوة في ألمانيا عامة، وفي بون خاصة، يحيطون بي إحاطة السوار بالمعصم، ويغمرونني بعواطفهم الجيّاشة بالحب، الفيّاضة بالحنان، وقد وضعوا أنفسهم في خدمتي، وكأنما أردوا أن ينقلوا الدنيا كلها إلي، فقلت لهم: ليس لي إلا طلب واحد قالوا: ما هو؟ قلت: قارورة من الماء الطبيعي، فإن كل الماء الذي في المستشفى ماء غازي، وأنا لا أتذوّقه ولا أستطعمه، فأشربه للضرورة. والفقهاء يقولون: الضرورة تقدر بقدرها، وأعتقد أننا أعطينا الضرورة قدرها المناسب، وآن لنا أن نخرج منها.

وسرعان ما حملوا إليّ بدل القارورة قوارير، كما أمسوا بعد ذلك يتحفوننا ببعض الأطعمة العربية التي طال شوقنا إليها، مما يسمح به عادة في مثل هذا الوضع.

وكان الإخوة من كل الجنسيات العربية والإسلامية في خدمتي، وخصوصًا الإخوة السوريين، فقد كان منهم عدد كبير ولا سيما من الأطباء، فروا من دكتاتورية حكم البعث النصيري وطغيانه، وجاءني إخوة من فرانكفورت وميونخ وستوتجارت، وغيرها.

فؤاد قنديل وسعد سلامة

ومن هؤلاء إخوة مصريون لم أرهم منذ سنين طويلة، منذ خرجنا من السجن الحربي سنة ١٩٥٦م، مثل الأخ الدكتور فؤاد قنديل ابن طنطا، النابغة الذي حفظ القرآن في السجن، وكان من رواة قصيدتي «النونية»، هو وزميله ابن طنطا أيضًا سعد زين العابدين سلامة، الذي سعدت بزيارته أيضا.

وقد عرفت من الأخ فؤاد: أنه تزوج بعد وصوله إلى ألمانيا، بزمن قصير، ليحصن نفسه، تزوج بألمانية أسلمت، ورزق منها بثلاث بنات، مسلمات بالطبع، ولكنه كان يتمنى أن يكون إسلامهن أقوى مما هن عليه، فهمًا وشعورًا وسلوكًا، وهذا قلَّما يتأتى إلا في ظل مجتمع مسلم.

الدكتور سيد يونس العطافي

وممن قابلتهم أيضا: الأخ الصديق ابن المحلة، د. سيد يونس العطّافي، الذي يعمل طبيبًا ناجحًا للأسنان، وقد كوَّن منزلةً وثروة، وتزوج من ألمانية بعد قصة حب متبادل، وقد أسلمت وأنجبت منه ثلاثة أولاد: ولدين وبنتًا، أو ولدًا وبنتين، لا أذكر، ثم سلطت عليها بعض قريباتها فأفسدنها عليه، وخلقن بينهما مشكلات، انتهت إلى المحاكم لطلب الطلاق، وما زالت معلَّقة منذ سنوات، وقد عاد إلى البيت يوما، فلم يجدها، لا هي ولا أولادها، ولا أثاث البيت.

مشكلة الطلاق في أوربا

والطلاق في ألمانيا وفي أوربا بصفة عامة: يعطي المرأة نصف ثروة الرجل، وهذا كان من أسباب ترك الزواج أو تأجيله، أو الاستعاضة عنه بالصداقة والمرافقة بين الرجل والمرأة، فهما يتعايشان ويتعاشران معًا بلا عقد؟!!

وقد كنت أسأل الممرضات اللاتي يقمن على خدمتي في المستشفى: آنسة أم سيدة (مِسْ أور مسز؟) فوجدتهن كلهن آنسات (مس). ومع هذا لكل واحدة ـ في الغالب ـ صديقها الذي تعاشره معاشرة الأزواج، بلا عقد زواج، تحرُّرًا من تبعات الزواج، وما قد يترتب عليه أحيانًا من طلاق.

رباط الحب في الله

أحاطني الإخوة أكرمهم الله في ألمانيا بحبهم ورعايتهم، لا لغرض دنيوي ولا لمصلحة مادية، ولا لذة عاجلة، إنما هو الحب في الله الذي ربط بيني وبينهم، برباط وثيق لا تنفصم عراه، ولا ينقض حبله، وهو الذي يبقى مع صاحبه إلى يوم القيامة، فيُظل الله أصحابه في ظله يوم لا ظل إلا ظله.. وفي يوم القيامة نرى أصدقاء الدنيا أعداء في الآخرة، حيث يكذب بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من بعض، إلا أهل الإيمان والتقوى، الذين كان ترابطهم لله وفي الله، فهم يدخلون بهذا الحب الجنة، إخوانا على سرر متقابلين، يقول تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٧).

كان وجود زوج ابنتي ـ د. أحمد سيف الإسلام ـ معي خيرًا وبركة، فقد كان الواسطة بيني وبين الأطباء الذين يعالجونني، فهو الذي يترجم لي عنهم، ويترجم لهم عني، ولأنه طبيب جراح من ناحية، ويتقن الإنجليزية من ناحية أخرى، كان نعم الرفيق في تلك المرحلة.

ترخصي في الإفطار في رمضان

وقد أجريت العملية في النصف الثاني من شهر شعبان، وأقبل علينا رمضان، وأنا لا

أزال في المستشفى، وقد بدأت أتعافى شيئًا فشيئا، وأجري بعض التمرينات الملائمة التي يتطلبها العلاج الطبيعي، ولكن لا أستطيع أن أصوم رمضان، لأسباب عدة، منها: أني آخذ بعض الأدوية كل عدة ساعات، وأني في حاجة إلى غذاء منتظم، وأن اليوم في صيف أوربا طويل جدًّا، أكثر من ثماني عشرة ساعة، وليس في إفطاري أدنى حرج، وأنا أفتي الناس في مثل حالتي أن يفطروا، أخذًا بالرخصة التي رخص الله لهم: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥).

حنيني إلى رمضان الدوحة

لم يكن في إفطاري مشكلة، ولكن المشكلة بدأت تظهر في حنيني الدافق إلى «رمضان الدوحة» وما فيه من حيوية وروحانية، ينعش القلوب بالإيمان، ويغمر الأفئدة بالسكينة.. أين ما أنا فيه مما يعيشه إخواني في الدوحة، وما كنت أعيشه معهم من قبل: من دروس العصر، والإفطار مع العائلة، وصلاة التراويح، ودرس التفسير كل ليلة، وتلاوة جزء من القرآن كل يوم، وختم القرآن في نهاية رمضان، ودعاء ليلة القدر ليلة ٢٧ من رمضان، ودعاء ختم القرآن؟!

كانت هذه المشاعر الدافقة من الشوق إلى رمضان في الدوحة، بكل ما يحمله من نفحات وبركات، وما فيه من دروس وصلوات، جعلت من هذا الشهر الكريم «ربيع الحياة الإسلامية» فيه تتجدد القلوب بالإيمان، وتتجدَّد العقول بالمعرفة، وتتجدَّد روابط الأسرة بالتلاقي في الفطور والسحور، وتتجدد أواصر المجتمع بالتواصل والتزاور واستباق الخيرات.

رسالة شوق وحنين إلى الإخوة في الدوحة

ولا يمر يوم ولا ليلة إلا أزداد فيها شوقًا وحنينًا إلى ذكريات رمضان، ولم تزل كذلك حتى أفرغت هذه العواطف الملتهبة في قصيدة أنشأتها، وأرسلتها مع صهري د. أحمد

سيف، لتنشر في صحف الدوحة، بعنوان «رسالة شوق وحنين إلى الإخوة في الدوحة».

ولا بأس أن نذكر منها شيئا:

هلا بعثتم شعاعًا من مساجدكم تلوح منه لنا في (بونَ) أضواه؟!

فلا أذانَ ولا قرآنَ نسمعه ولا تراويحنا، وَاحرَّ قلباه!!

إنِّي لأذكركم في كل أمسية ذكرَ الغريب بعيد الدارِ مأواه

كم التقينا على ذكر وموعظة وأفضلُ الذكر قرآنٌ تلوناه

في موسم الطهر في رمضان الخير، تجمعنا محبَّةُ الله لا مالٌ ولا جاه

من كل ذي خشيةٍ لله ذي ولع بالخير تعرفُه دَوْمًا بسيماه

سفر د. أحمد، ووصول أم محمد

وقد كان لا بد لزوج ابنتي الدكتور أحمد ـ الذي هو بمثابة ابني حقا ـ أن يعود إلى الدوحة، فقد انتهت المدة المصرَّح له بها، وقد كان نِعْم الرفيق، ونِعْم العون، ونِعْم الأنيس لي، في أشدّ الأيام عليّ، ولا سيما بعد إجراء العملية.

وفي اليوم الذي سافر فيه أو اليوم التالي ـ لا أذكر ـ وصلت أم محمد زوجتي من الدوحة، بعد أن أنجز الأولاد امتحانات آخر العام، فملأت الفراغ، وكانت لي نعم الجليس والأنيس، وسمح لها أن تبيت بجواري في المستشفى، وهي تصوم، وأنا مفطر.

الانتقال إلى باذْنُوين آر

ولم يطل مقامي في المستشفى بعد ذلك، فقد قرر الأطباء المعالجون: أن أنقل إلى مصحة متخصِّصة في العلاج الطبيعي، في بلدة قريبة من مدينة «بون» على بعد نحو أربعين كيلو مترا. تسمى «باذْنُوين آر» .

وجاءت سيارة إسعاف مجهَّزة، لتنقلني إلى تلك المصحة بطريقة سليمة، ولا تحدث

لي مضاعفات أو أي آثار سلبية، وصحبتني زوجتي ومندوب من السفارة القطرية في بون.

ودخلت هذه المصحة الكبيرة، التي يشرف عليها أطباء مختصُّون في العلاج الطبيعي بألوانه ومستوياته المختلفة.

وهذه المصحة أشبه بفندق راق من ناحية، وبمستشفى علاجي من ناحية أخرى، وبحمامات متنوعة من ناحية ثالثة.

وأعطيت حجرة في أول الأمر، ثم نقلت إلى جناح بعد ذلك ـ بموافقة السفارة القطرية ـ لأستقبل فيه زواري الكثيرين.

وكانت هذه المصحة مجهَّزة بكل ألوان العلاج الطبيعي، وبالمتخصِّصين والمتخصِّصات فيه، على كل صعيد.

ففيه الحمامات المختلفة الساخنة، المعدّة بالمياه العادية، والمياه المعدنية، والتي تمكن الإنسان من أن يسبح فيها كما يريد، حتى أنا الذي لا أحسن السباحة للأسف، كنت أسبح فيها بطريقتي الخاصّة، عن طريق الإمساك بالحديد الموجود بجدران الحمامات، والمهيأ ليعين من لا يجيد السباحة.

وكان فيها «الطين» الذي يصبغ به جسم المريض، ويترك فترة من الزمن، ثم يزال عن طريق الاستحمام.

وكان فيها التدليك أو المساج، الذي يعمَّم على الجسم كله.. وكان من النظام المتبع في هذه المصحة: أن يدلك الرجال الرجال، والنساء النساء.

وكان هناك استخدام لبعض الأعشاب، تدفأ وتوضع تحت الظهر، وألوان أخرى من العلاج، يقوم بها إخصائيون مهرة، كلها تعد المريض ليستكمل عافيته، ويستطيع بعدها أن يعود إلى حياته العادية من جديد، مؤديًا رسالته، ومستمرًّا فيما أمكنه من هذه العلاجات.

تجاوبت كل التجاوب مع ما تُقدِّمه هذه المصحَّة من علاجات مختلفة، وسرعان ما ظهر أثر ذلك في صحتي، وأصبحت بعد قليل قادرًا على أن أمشي مسافة غير قليلة

بلا معاناة، وإن حذروني من المشي في الأماكن غير المستوية، والتي فيه صعود وهبوط، وخصوصًا في الأيام الأولى.

صوم النصف الثاني من رمضان

مضى نصف رمضان، وأنا أعمل برخصة الإفطار للمريض، ثم عزمت على أن أصوم النصف الثاني، مستعينا بالله تعالى، ولا سيما أنني لم أعد أتناول أدوية في النهار تقتضيني أن أفطر.

وقلت لزوجتي: سأصوم معك غدا إن شاء الله، ونتسحر معا.

قالت: أخشى أن يؤثر الصوم على مسيرة العلاج الطبيعي، وأنت تفتي الناس بالفطر إذا احتاجوا إليه.

قلت: ولكني أشعر بأني لم أعد في حاجة إليه.

وتسحّرنا وصمنا، وجاء المغرب فأفطرنا، وقد جعت حقًّا لطول اليوم، ولكن هذه هي حكمة الصوم: أن يحس الصائم بلذعة الجوع، وحرارة العطش، فيدرك نعمة الله عليه عند الشبع والري، ويقول: الحمد لله، من كل قلبه، كما يشعر بآلام الجائعين والبائسين الذين لا يكادون يجدون القوت، فيعطف عليهم ويمد إليهم يده بالعون.

وقلت في نفسي: إنها فرصة ثمينة لإنقاص الوزن (الذي يسمُّونه: الريجيم) فنحن نكتفي بالطعام الذي يقدِّمونه لنا، وهو طعام صحي قليل، ولكنه كاف، ليس فيه ما على موائدنا في رمضان مما لذّ وطاب من المسلوق والمشوي والمحمّر، ناهيك بالمعجنات والحلويات المقرونة برمضان، كأنما أصبح رمضان شهر الطعام لا شهر الصيام، وأصبح المسلمون ينفقون على بطونهم في هذا الشهر أكثر مما ينفقون في غيره من شهور العام!

وأذكر أني صمت أربعة عشر يوما على هذه الحال، فقد كان الشهر تسعة وعشرين يوما، وقضيت نصف الشهر الذي أفطرته حينما عدت إلى الدوحة، كما قال تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة:١٨٤).

اتصالات من مختلف القارات

وطوال شهر رمضان غمرني إخوتي المسلمون بالاتصال والسؤال من أنحاء العالم، ولا أدري كيف عرف الناس، حتى اتصلوا بي من قارات الدنيا الخمس، سائلين وداعين لي بالشفاء. ولا سيما من قطر التي لم يكد الهاتف ينقطع ساعة عن سؤال يأتي من أحد الإخوة من أهل قطر أو المقيمين فيها. وخصوصًا بعد أن قرأوا قصيدتي في الحنين إلى الدوحة وأهلها في شهر رمضان، كما زارني كثير من أحبابي، وأنا أقضي فترة العلاج الطبيعي، على رغم بعد هذه البلدة عن بون، فجزاهم الله خيرا.

وكانت هذه الاتصالات المختلفة تملؤني ثقة وأملاً بأن الأمة إلى خير، ما دامت هذه المشاعر القائمة على الحب في الله: حية ومتصاعدة، كما تزيدني شعورًا بمسئوليتي تجاه هذه الأمة التي منحتني حبها وثقتها وولاءها في الله عز وجل، وأني مهما أبذل في سبيل إحيائها وإعلائها، فلن أوفيها حقها.

وصول الأولاد إلى بادنوين آر

وبعد انقضاء رمضان، وانتهاء امتحانات آخر العام: أصبح في إمكان الأولاد أن يلحقوا بنا، وأن يأتوا من الدوحة إلى ألمانيا، ولا بد أن يتهيئوا لذلك.. كانت إلهام وسهام وعلا قد تزوَّجن، وبقيت أسماء ابنتي الصغرى، وإخوتها الذكور: محمد وعبد الرحمن وأسامة، وقد انضمَّت إليهم علا وزوجها المهندس حسام خلف، بعد عودتهما من أمريكا.

وقطع الجميع تذاكرهم، وحجزوا للسفر من الدوحة إلى فرانكفورت، وهناك استقبلهم الإخوة في المركز الإسلامي هناك، وعلى رأسهم الأخ الحبيب الداعية المربي الحاج عباس السيسي، رحمه الله تعالى.

وقد ركبوا القطار إلى بون، ومنها إلى بادنوين آر.

وكان بعض الإخوة الذين يزورونني، قد بحثوا لهم عن سكن مناسب في هذه البلدة، فجاءوا إليه، وهي شقة مناسبة فيها عدة حجرات، وعدد من الأسرّة، بعضها يستعمل في الليل ويُطوى في النهار، ويكون في صورة خزانة في الحائط.

وكانوا أحيانًا يأتوننا ليزورونا في الجناح الذي نسكنه في المصحة «أو الفندق» وكنا نذهب نحن أحيانًا، لنبقى عندهم ونتغدى أو نتعشى معهم.

كما كنا نتجوَّل في حدائق البلدة، وهي كثيرة وجميلة، وهي فرصة للمشي الذي أنا في حاجة إليه.

بلدة «بادنوين آر»

كانت «بادنوين آر» بلدة جميلة مريحة، فيها من خصائص القرية وخصائص المدينة معا، ومعنى «باد» كما عرفت من الإخوة: حمام، و«آر»: اسم لنهر يشق البلدة، و«نوين»: بمعنى الجديد، فكان المعنى: حمام النهر الجديد.

فهذه البلدة تتميز بحماماتها ومياهها المعدنية التي يستشفى بها، كما تتميز بنهرها الذي يمر وسط القرية، ويمشي الناس والسيارات على جانبيه، ونرى فيه السمك ظاهرا، نكاد نمسكه بالأيدي.

وفيها المزارع والغابات من حولها، وبخاصة: زراعة العنب الذي يغطي الهضاب والجبال، في مشهد يبهج النفس، ويشرح الصدر، وإن كنا علمنا أنه يتخذ ليعصر خمرًا، ويتَّخذ منه ما يسمى «الويسكي»، وهكذا يحوّل الإنسان ـ بإرادته وهواه ـ الطيبات التي خلقها الله وامتنَّ بها، إلى خبائث، بل إلى أم الخبائث.

وكان الأولاد يذهبون إلى الغابات يتجوَّلون فيها، وخصوصًا عبد الرحمن، الذي جابها مرات عدة صعودًا ونزولاً.

وكان في هذه القرية شوارع تجارية، فيها فروع للمحلات التجارية الكبرى المعروفة في المدن، فكانت أم محمد وعُلا وأسماء يذهبن إلى هذه الأسواق ليشترين منها ما يحتجن إليه، أو قل: ما يشتهين، أما الأبناء: محمد وعبد الرحمن وأسامة، فلا حاجة لهم في هذه الأسواق، فالتسوق ظاهرة نسائية غالبًا، وما يحتاج إليه الذكور والرجال يطلبون غالبًا من النساء أن يشترينه لهم.

بقي الأولاد معي في هذه البلدة نحو أربعة أسابيع، كانت أيامنا فيها طيبة وممتعة، ولا سيما أنهم رأوني في صحة وعافية، بعد ما ودَّعتهم في الدوحة، وأنا أشكو شدّة الألم والعجز عن الحركة، فأمسيت اليوم، وقد منَّ الله علي بالشفاء والعافية، وغدوت قادرا على الحركة والمشي، وقد خفَّ جسمي ونقص وزني إلى حد كبير، فقد كان وزني حول التسعين كيلو جراما، فنزلت إلى نحو اثنين وثمانين، وكان هذا مكسبا عظيما، ظللت محافظا عليه عدة سنوات، حتى قطعة الحلوى أو «الشيكولاته» التي يعزم الناس بها في الزيارات، كنت أرفضها معتذرا.

ولكن من أخطر الأمور: أن يبدأ الإنسان في التساهل شيئًا فشيئا، حتى يفلت الزمام منه، وقد قال الشاعر بحق:

هـي الـنـفـس مـا عـوَّدتهـا تـتـعـوَّدا!

وقال آخر:

والـنـفـسُ راغـبـةٌ إذا رغّبتها وإذا تُـردُّ إلى قليل تقنعُ!

إن عافية الجسم وصحته من أعظم نعم الله على الإنسان، ولهذا علمنا رسول الإسلام: أن نسأل الله العافية دائما، فنقول في دعاء القنوت: «وعافني فيمن عافيت»[1]، ونقول بين السجدتين: «اللهم ارزقني واجْبرني وعافني»[2]، ونقول دائما: «اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة»[3].

ولا يحسُّ بنعمة العافية إلا من حُرمها، وابتُلي بالمرض، فالنعم عادة لا يهتم بها إلا عند فقدها، وقديما قالوا: الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى!

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٧١٨)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات عن الحسن بن علي.

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٨٩٥)، وقال مخرّجوه: حسن وهذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين غير كامل وهو ابن العلاء التميمي السعدي عن ابن عباس.

(٣) رواه أحمد في المسند (٤٣٨٥)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات عن ابن عباس.

مأدبة تكريمية

وبعد أن انقضت المدة المحددة للعلاج الطبيعي، وعزمنا على الرحيل من «بون» أقام السفير القطري السيد أحمد الخال: مأدبة لتكريمي وتوديعي، ودعا فيها عددًا من السفراء والوجهاء والأحبة.. وقد شكرته على ما قامت به السفارة وقسمها الطبي، فقد علّمنا الإسلام أن نشكر لكلٍّ من أسدى إلينا معروفًا، أو سهَّل لنا أمرًا، حتى وإن كان واجبًا عليه، أما قولهم: لا شكر على واجب، فهو من باب المجاملة.

فلا ريب في أن مَنْ أدّى الواجب عليه، ينبغي أن يُشكر، ولهذا يشكر الله عباده على ما يؤدونه نحوه من واجب العبادة له والطاعة لأمره، وهو الواحد المعبود، الذي يستحق كل أنواع العبادة والتعظيم.

وقال السفير: إننا لم نقم إلا ببعض الواجب علينا نحوك، وحقك علينا وعلى الأمة لا ينكر، ومهما فعلنا فنحن مقصِّرون. وهذا من حُسن أدبه. جزاه الله خيرا.

ومما آسف عليه: أني في هذه الرحلة نسيت أسماء كثيرة من الإخوة الذين أكرموني، وأحاطوني بحبهم ورعايتهم، لأني لم أكن أكتب شيئًا في هذه الرحلة، ولا في غيرها، وأرجو أن يسامحوني إذا لم أذكر أسماءهم. وأدعو الله لهم من كل قلبي: أن يجزيهم عني أحسن الجزاء، ويحقق لهم الأمل من كل خير يرتجونه.

إلى مدينة ميونخ لتفتيت حصى الكلية

وكان قد بقي أمامي مشوار آخر، إلى مدينة ميونخ، لعلاج أمر آخر أشكو منه منذ مدة، وهو : «الحصاة في الكُلْية».

فقد اكتشفت منذ زمن عن طريق الأشعة بمستشفى حَمَد بالدوحة: أن في إحدى كليتي حصاة ساكنة في ركن من أركان الكلية، لا أحسُّ بها لسكونها، ولكن الأطباء قالوا: إنها يمكن أن تتحرَّك لسبب أو آخر، وتُسبِّب لك ألمًا، وألم الكُلَى إذا تحركت فظيع، نسأل الله العافية منه، ومن كل ألم وداء.

وقد عرفت أن في «ميونخ» طبيبًا يهوديًّا بارعًا ذائع الصيت، يفتِّت حصى الكلية

بالأشعة، دون حاجة إلى فتح بطن وعملية جراحية، وما دمنا دخلنا في مشوار العلاج، فلنكمله إلى نهايته.

ومن هنا راسل القسم الطبي هذا الطبيب، وحَجَز لي عنده، وسافرنا إليه، ودخلت المستشفى الذي يجري فيه عملياته، وبقيت يومين أو أكثر لإجراء بعض الفحوص اللازمة، التي تتطلَّبها هذه العمليات، من تحليل الدم والبول وقياس الضغط ومعرفة التاريخ المَرَضي أو الصحي للمريض، بل ولعائلته أحيانًا، حتى جاء اليوم المحدد للقيام بالعملية، فيفتت الحصاة بهذه الطريقة الجديدة التي أراحت الناس من فتح البطون، وذلك من فضل الله تعالى الذي علّم الإنسان ما لم يعلم.

وكنت أظن أنه سيجري عملية التفتيت بدون تخدير، كما قيل لي من قبل، ولكن الطبيب قال: إنه يؤثر أن يجريها تحت التخدير الكامل، فربما يحدث أي طارئ مفاجئ، فيقتضي إجراء جراحة، فنكون مستعدّين في الحال لإجرائها.

وقد تمَّ إجراء التفتيت بسلام، وبعد الإفاقة من التخدير، أعطوني أوعية أتبوّل فيها، يتجمَّع في قعرها الحصى المفتَّت، ويشاهده المريض بعينيه، ويطمئن على حالته بنفسه، كما يشاهدها الممرضون، ويجمعونها ليرصدوا حالة المريض من خلالها.

وكان الطبيب قد ركَّب لي بعد العملية: «قسطرة» موصولة بقربة يجتمع فيها البول، ويحملها المريض معه إذا نام على السرير، أو قام منه، أو تحرك في طرقات المستشفى ذاهبًا وآيبًا، وكنت ترى عامة المرضى يتجوَّلون ويتريَّضون في المستشفى، وهم يحملون هذه القرب، وترى المسلمين منهم يؤدون صلواتهم الخمس، وهم حاملوها..

سبق الفقهاء لزمانهم

وقد ذكّرني هذا بما نُقل عن بعض المتأخرين من الفقهاء، لما قالوه افتراضا، وهو: ما إذا حمل رجل «قربة فساء» في صلاته: هل تفسد صلاته أو لا تفسدها؟ وكنا نعيب على هؤلاء الفقهاء هذه الافتراضات والتخيُّلات التي لا تمتُّ إلى الواقع بصلة، وكثيرًا ما تندَّر بها الكتَّاب الذين يحملون على الفقهاء ويجرّحونهم بالحق وبالباطل، وقد عشنا

فرأينا المسلم يصلي وهو يحمل قربة بول، لا يملك أن ينزعها، فرحم الله فقهاءنا فقد سبقوا زمنهم.

مع الأستاذ محمد المهدي عاكف

وقد صحبتني أسرتي، إلى مدينة «ميونخ»، وسعوا لاستئجار شقة مناسبة، بمساعدة الإخوة في المركز الإسلامي، الذي يديره الأخ الحبيب، والصديق القديم الأستاذ محمد المهدي عاكف ـ المرشد العام للإخوان اليوم ـ فقد كنا تعارفنا من قديم في معتقل الطور سنة ١٩٤٩م في عهد الملك فاروق، ووزارة إبراهيم عبد الهادي رئيس حكومة السعديين، وهو الذي كان يقوم بتدريبنا رياضيًّا صباح كل يوم.

رحَّب الأخ عاكف بي وبأسرتي، وقال: أنا والمركز في خدمتكم مدة بقائكم هنا، وهذا بعض حقكم علينا وعلى الأمة.

قلت: شكر الله لكم، وجزاكم الله خيرًا، كل ما نريده هو شقة ملائمة تسكن فيها الأسرة، أما أنا فستكون إقامتي في المستشفى.

قال: ولماذا لا تنزلون في المركز، وفيه بعض الحجرات المناسبة؟ ولا سيما أن العثور على شقة مناسبة في هذا الوقت قد يتعسر.

قلت: نفضِّل أن تسكن الأسرة خارج المركز، ليكون لها حرية الحركة كما تريد، ولا نحب أن نضيق على المركز فيما قد يحتاج إليه.

أهمية العامل النفسي

وفعلا وُجِدتْ شقة في مكان مناسب، ولكنها لم تكن بالسعة المناسبة.. وقد كان الأولاد يشغلونها كلها حجرات وصالات وطرقات، حتى كان منهم من ينام خلف الباب، وهم يتضاحكون، ويتبادلون النكات والفكاهات، مسرورين منشرحين، وهذا يدلُّ على أن العامل النفسي هنا مهم جدًّا، وهو ما جعل الناس في مصر يقولون: جُحْر

ديب، يسع مائة حبيب! وفي بلاد الشام يقولون: بيت ضيق، يسع ألف صُدَيِّق، وقال الشاعر العربي:

سمُّ الخياط مع الأحباب ميْدان!

وقال آخر:

لَعَمْرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكنّ أخلاق الرجال تضيق!

وكانت صاحبة الشقة تونسية، فرحت بأسرتي فرحًا كبيرًا، وقد صنعت لهم أكلة من «الكسكسي» التونسي الشهير.

ومنذ سنوات جاءت إلى الدوحة، تستشفع بي لتذهب إلى الحج من طريق الدوحة، وتذكّرني بالأيام التي أمضتها الأسرة في شقتها الضيِّقة، واستعدنا الذكريات وأكرمناها، وكلمت السفير السعودي بالدوحة أن يساعدها في تحقيق أملها، وقد كان. والحمد لله.

محاضرة عامة في المركز الإسلامي بميونخ

بعد أن استعدت عافيتي بحمد الله تعالى، ومرت أيام بعد العملية، دعاني الإخوة في المركز الإسلامي لإلقاء محاضرة عامة في المركز، فاستجبت لهم، فهذا حقهم علي، وهذه زكاة عن نعمة العافية، وفي الإسلام كل نعمة لها زكاة. ولهذا تجد عوام الناس يقولون: زك عن عافيتك، زك عن عينيك...

وقد احتشد لهذه المحاضرة جمٌّ غفير، وبعد المحاضرة، قُدِّمت لي على العادة، أسئلة عدة من الحاضرين أجبت عنها ما استطعت.

دعوة لزيارة لوجانو بسويسرا

دعوة من الأخوين يوسف ندا وغالب همت

وبعد أن قضيت وَطَري من العلاج الطبيعي المتميِّز في «بادنوين آر» وتجلت آثاره ـ بحمد الله ـ في استعادة صحّتي ونشاطي وبعد أن قضت الأسرة والأولاد، ومعهم علا وزوجها: أيامًا أو أسابيع طيبة بجواري في تلك القرية الكبيرة أو المدينة الصغيرة الهادئة، وبعد أن قضينا أيامًا في مدينة ميونخ فتّتنا فيها الحصاة، وألقيت فيها بعض المحاضرات في المركز الإسلامي ـ جاءتنا دعوة من الأخوين والصديقين العزيزين: يوسف ندا وغالب همت: أن أزورهم أنا والأسرة والأولاد، لنقضي عندهم فترة النقاهة أو بعضها، وعندهم شقة كبيرة تطل على بحيرة لوجانو الشهيرة، وهي فارغة لا يسكنها أحد، وهي مخصَّصة للضيوف الذين يزورون مدينتهم، ولا سيما من العلماء والدعاة.

ولم يسعنا إلا أن نستجيب لدعوة أصدقائنا، وأن نرحل إليهم من ميونخ. أما أنا وأم محمد فقد رحلنا بالطائرة إلى زيورخ، ومن زيورخ أخذنا الطائرة الصغيرة إلى لوجانو.. وكان مطار لوجانو لا يزال صغيرًا محدودًا، لا يستقبل إلا الطائرات الصغيرة، وكانت هذه الطائرة تسع ثمانية ركاب، ويكاد الراكب ينحني عند دخوله أو خروجه من بابها، ولكنها وصلتنا بالسلامة، والحمد لله.

مشاهد رائعة

وأما الأولاد فقد ذهبوا بالقطار، مارّين بالنمسا، وكانت رحلة ممتعة، ففي القطار

ينعم الإنسان فيه بمشاهد رائعة: من بحيرات زاخرة بالمياه، وجبال شاهقة تمثِّل الجمال الشامخ، والشموخ الجميل، وأرض مبسوطة، وقد كستها يد القدرة الإلهية بساطًا سندسيًّا أخضر، تسر العين رؤيتها، ويبهج القلب تأمّلها، وتقوي الإيمان بمن أبدع هذه الطبيعة وأحكم خلقها: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٨٨).

وما أجمل ما قال شوقي:

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري ... حتى أريك بديع صنع الباري

الأرض حولك والسماء اهتزتا ... لروائع الآيات والآثار

من كلِّ ناطقة الجلال كأنها ... أم الكتاب على لسان القاري

دلَّت على ملك الملوك فلم تدع ... لأدلة الفقهاء والأحبار

من شك فيه فنظرة في صنعه ... تمحو أثيم الشك والإنكار

وقال أبو نواس:

تأمَّل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيونٌ من لُجين شاخصات ... بأبصار هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك!

وفي مطار لوجانو وجدنا الأخوين الحبيبين: يوسف وغالبًا ينتظراننا، وكان لقاء حار، تصافحت فيه الأيدي، وتعانقت المناكب، والتقت الوجوه والقلوب، وقد أوصلانا إلى الشقة التي سنقيم فيها، لنحطّ فيها رحالنا، ونضع حقائبنا، ثم دعانا الأخ يوسف (أبو حمزة) للعشاء عنده، وسرعان ما وصل أولادنا بالقطار، يقودهم المهندس حسام زوج ابنتي علا.

لقاء محبة وصفاء

واجتمعت أسرة الأخ يوسف، وأسرة الأخ غالب وأسرتي، وكان لقاء على المحبة

والصفاء، وكأنّ الجميع كانوا متعارفين من زمن طويل، والحقيقة أن أحدًا فيما عدانا نحن الثلاثة: يوسف وغالب وأنا ـ لم يلتق صاحبه قبل ذلك ولم يره. ولكن هذه مزية الحب في الله، الذي يؤكد ما جاء في الحديث الصحيح: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[1].

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٦)، عن عائشة، ومسلم في البر والصلة، (٢٦٣٨)، عن أبي هريرة.

عضوية أمناء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية

أبلغني شيخنا وحبيبنا الداعية الإسلامي الكبير، رجل الإسلام الأول في الهند، العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي: أن مجلس أمناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية، قد اختارني بالإجماع لعضويته، وهو يرجوني أن أحرص على حضور جلساته، وأن أتعاون مع الأخ الذي اختير من قبل المجلس لإدارة المركز، وهو الدكتور فرحان نظامي. وهو أستاذ من أصل هندي يعمل في جامعة أوكسفورد.

وبالطبع، قبلت العضوية، وشكرت الشيخ على حُسن ثقته بي، ووعدته بأني سأبذل الجهد في معاونة المركز حتى يقف على قدميه.. قلت للشيخ: وإن كان لديّ مشكلة أود أن أصارحك بها. قال: وما هي؟ قلت: مشكلة اللغة، وطبعًا لغة المركز هي الإنجليزية. قال: هذه تحلُّ ببساطة عن طريق الترجمة.

وكان الشيخ الندوي قد حدَّثني من قبل: أن هناك في بريطانيا مجموعة من علماء المسلمين ومفكريهم وأهل الرأي فيهم، يفكرون جديًا في تأسيس مركز علمي لخدمة الثقافة الإسلامية، وتجلية الفكر الإسلامي الصحيح، وإعطاء صورة مضيئة عن الإسلام وحضارته وأمته للغرب، بعد أن تقارب العالم واتصل بعضه ببعضه.. وقد وجد أن بريطانيا هي أنسب البلاد لذلك، لأن اللغة الإنجليزية هي أشهر اللغات في العالم، ويتكلم بها مئات الملايين من المسلمين، ولأن في بريطانيا عدة ملايين من المسلمين.

ورأى الإخوة الذين فكروا في هذا المركز: أن يرتبط بجامعة عريقة من الجامعات المعروفة في العالم، فوقع الاختيار على جامعة «أوكسفورد» العريقة، وجسوا النبض لدى المسؤولين فيها، فوجدوا قَبولًا لديهم... وبعد شوط من المفاوضات: جاءت الموافقة

على إقامة هذا المركز، ليكون إحدى مؤسسات الجامعة، على أن يكون له استقلاليته وشخصيته المتميزة، ويرسم سياسته مجلس أمناء، بعضه من أساتذة جامعة أوكسفورد، تعينهم الجامعة ممثلين لها، وبعضهم شخصيات علمية واجتماعية وسياسية من أنحاء العالم الإسلامي، وهم الأكثرية.

بدء نشاط المركز ودور مديره د. فرحان نظامي

وقام المركز وبدأ نشاطه في مبنى متواضع مستأجر من مباني الجامعة، وبدأنا نجمع له بعض التبرعات، وكان أي مبلغ ولو جاء قليلًا، له نفعه في ذلك الوقت. ولم أدَّخر وسعًا في معونة المركز، الذي كان مديره الدكتور فرحان شعلة متوقدة من النشاط والحركة والسعي في كل مكان لجلب التبرع المادي، والتأييد المعنويّ للمركز.

كانت الفترة الأولى حرجة حقًّا، ولكن المركز استطاع أن يجتازها بفضل الله تعالى، ثم بفضل ثقة الناس بالشيخ الندوي، ثم بمعاونة مجلس الأمناء، ثم بنشاط مدير المركز.

ثم اشترى المركز مقرًّا أوسع وأكبر، ولكنه مؤقَّت.. ثم بعد أن رسخت دعائمه، سعى لبناء مركز كبير يضم في رحابه مسجدًا ومكتبة وغرفًا للإدارة وغيرها، وهو الآن يوشك أن يتم ويفتتح.

وقد دعا إليه شخصيات كبيرة لتحاضر فيه.. وأبرز من حاضر فيه، هو الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا الذي ألقى فيه محاضرة كان لها صداها في إنجلترا وخارجها، عن «الإسلام والغرب» أنصف فيها الإسلام إلى حدّ كبير.

من مشروعات المركز

وقد تبنّى المركز عدّة مشروعات، منها: مشروع كتابة كتاب عن التاريخ الإسلامي.

ومنها: جائزة سلطان بروناي في مجال الدراسات الإسلامية، وقد حصل عليها في الحديث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وفي التفسير ثلاثة، أحدهم: الدكتور عدنان

زرزور، والآخر: الدكتور أحمد خراط، وفي التاريخ العلامة أبو الحسن الندوي، وفي الفقه يوسف القرضاوي، ولا تزال الجائزة مستمرة.

وبعد وفاة العلامة الندوي رحمه الله، تولَّى رئاسة مجلس الأمناء من بعده: نائبه الرجل الإسلامي الواعي النشيط الأستاذ الدكتور عبد الله عمر نصيف، وفّقه الله. وما زال يحمل الأمانة إلى اليوم.

مناظرة دار الحكمة في القاهرة بين الإسلاميين والعلمانيين

توتر الأجواء بين الإسلاميين والعلمانيين

في صيف سنة ١٩٨٥م، بعد عودتي من ألمانيا، حيث أجريت عملية الانزلاق الغضروفي بنجاح والحمد لله، ومررت مع الأولاد بمدينة لوجانو في سويسرا: عدت إلى القاهرة، لأقضي بها بقية الصيف، قبل الرجعة إلى قطر في بداية العام الدراسي.

وكان الجو في القاهرة متوترًا بين الإسلاميين والعلمانيين، ولا سيما بعد المقالات التي كتبها د. فؤاد زكريا أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة في صحيفة الأهرام، يهاجم فيها الصحوة الإسلامية ودعاتها ومؤيديها.

وقد تنادى الفريقان: الإسلامي والعلماني، إلى مناظرة تعقد بين الفريقين في إحدى القاعات الكبيرة، يعرض كلٌّ منهما ما عنده، ويردّ عليه الآخر، ويحتكم الجميع إلى جمهور الحضور.

وقد عرضت نقابة الأطباء أن تستضيف الفريقين في قاعتها الشهيرة «دار الحكمة» ودعت عددًا من دعاة الإسلام ومن دعاة العلمانية.. كان أبرز الإسلاميين هو الداعية الكبير شيخنا الشيخ محمد الغزالي، وأبرز العلمانيين هو الدكتور فؤاد زكريا، الذي لم يحضر في النهاية من العلمانيين غيره.

وقد وُجِّهت الدعوة إليّ، وقد حضرت للتو من أوربا، وقال لي الإخوة في نقابة الأطباء: إن حضورك ضروري، لنشدَّ عضد الشيخ الغزالي، كما قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (القصص:٣٥).. واستجبت للدعوة، مستعينا بالله، سائلا أن

يمدني بروح من لدنه، وأن يُسدِّد لساني، ويقوِّي حُجتي، وتوجَّهت إلى الله تعالى بدعاء موسى حين أمره ربه أن يذهب إلى فرعون: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ (طـه: ٢٥ ـ ٢٨).

وفي الموعد المقرر وصلت إلى قاعة دار الحكمة، فوجدتها مزدحمة بالجماهير الغفيرة من كل حدب وصوب، ومن كل اتجاه ولون، ووجدت عددًا من قادة الرأي والفكر، مثل: المستشار طارق البشري، والأستاذ فهمي هويدي، والأستاذ عادل حسين، ود. أحمد العسال، فضلًا عن المناظرين الأساسيين الثلاثة: الغزالي والقرضاوي وزكريا.

الدعوة إلى تحديد المفاهيم والمعايير والمواقف

وقد افتتح المناظرة الدكتور زكريا، وثنّى الشيخ الغزالي، وثلّثت بعده. وقد بدأت أناقش ما طرحه د. زكريا بالمنطق والحجة، وقلّ أن أناقشه بنصوص الشرع. ودعوت قبل المناظرة إلى تحديد المفاهيم، ثم إلى تحديد المعايير التي يحتكم الفريقان إليها. ثم تحديد المواقف.

وكانت الجماهير متجاوبة معي كل التجاوب، لسلامة منطقي، وقوة حجّتي، ووضوح عبارتي، لا لأيٍّ اعتبار آخر. وهو ما جعل د. زكريا يقول بعد ذلك: إني خاطبت مشاعر الجمهور العاطفي، ووالله ما خاطبت إلا العقول، وما استخدمت غير الحجَّة والبرهان. وقد شهد أهل الرأي والفكر الحاضرون بذلك.

كتابي «الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه»

وقد سجلت هذه الندوة في أشرطة فيديو وكاسيت، وأذيعت على نطاق واسع. ثم رأيت أن الكتابة في هذا الموضوع أصبحت فريضة عليّ، فكتبت في ذلك: كتابي «الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه». ناقشت فيه القضية من جذورها، وكان هذا الكتاب سلاحًا في المعركة المحتدمة من قديم وإلى اليوم بين الإسلاميين الذين يريدون الإبقاء على هُوية الأمة وذاتيتها، وبين الذين يريدون أن يذوّبوها في غيرها.

د. علي القرداغي في قطر

في السنة الدراسية ١٩٨٥، ١٩٨٦م انضمَّ أخونا د. علي محيي الدين القرداغي إلى أسرة كلية الشريعة في جامعة قطر.

وكنت قد تعرفت عليه في القاهرة في إحدى إجازاتي الصيفية، حين كان يحضّر أطروحته للدكتوراه في كلية الشريعة بجامعة الأزهر في الفقه المقارن. وكان يقيم هو وأسرته في مدينة نصر، حيث أسكن أنا وأسرتي.

وقد سُررت بمعرفته، حين وجدته حافظًا للقرآن الكريم، كما وجدته على صلة جيدة بتراثنا الفقهي، ولا سيما فقه الشافعية. ومن المعروف أن إخواننا الأكراد في كل مكان لا يدينون إلا بمذهب الشافعي رضي الله عنه. ولهم في الأزهر رواق معروف باسمهم.

وقد درس العلوم الشرعية على أهلها من علماء الأكراد منذ نعومة أظفاره في منطقته كردستان في العراق، وأكمل الدراسة في بغداد. ثم أراد أن يتمِّم مشواره بالحصول على الدكتوراه من الأزهر، الذي ينتمي إليه أبناء العرب والمسلمين في المشارق والمغارب، وخصوصًا عرب المشرق.

فقه المعاملات المعاصرة

وقد لحظت حين لقيته وتحدثت معه، اهتمامه بفقه المعاملات المعاصرة، ولا سيما فقه الشركات الذي كان يعدّ فيه رسالته، فقلت في نفسي: هذا مطلوب لكلية الشريعة في قطر، حيث نحتاج إلى التركيز على هذا الجانب من فقهنا الإسلامي، الذي لا يأخذ حقّه

في كثير من جامعاتنا الدينية، مثل الأزهر، فقد كنا ندرس كتب الفقه القديمة كما ألفت في عصورها. ندرس فقه شركة العنان، وشركة المعاوضة، وشركة الوجوه، وغيرها من الشركات، ولا نعرف شيئًا عن الشركات المساهمة والتوصية، وشركات التأمين، وشركات المقاولات، وغيرها من أنواع الشركات الحديثة التي يتعامل معها الناس كل يوم.

وندرس كتاب «البيوع» وكتاب «الإجـارة» وكتاب «الحوالة» وكل ما يتعلق بالمعاملات، في كل مذهب من كتبه المعتمدة للدراسة، وهي معزولة عن الحياة عزلًا تاما، تشرح لنا الألفاظ، وتفهم المصطلحات، وتناقش التعريفات، وتحفظ الأحكام كما وردت. أما صلتها بالواقع فهي مبتوتة تمامًا. هكذا درست في الفقه الحنفي في المرحلة الابتدائية: اللباب على الكتاب أو «شرح الميداني على القدوري». وفي المرحلة الثانوية، درست: الاختيار شرح المختار لابن مودود الموصلي، وكنت أحصل على أعلى الدرجات، ٤٠ من ٤٠؛ ولكن لم أكن وقتها أفقه في المعاملات المعاصرة شيئًا، كما لا يفهم شيوخي الذين درَّسوا لي.

ولهذا يكون المدرس الذي فقه الكتب واتصل بواقع الحياة: مكسبًا كبيرًا، يجب أن نعض عليه بالنواجذ. وهو ما اقتنعت به حين تعرفت على القرداغي حفظه الله.

السالوس والقرداغي والتوازن المنشود

وقد سبق أن التحق بالكلية د. علي السالوس، وله عناية أيضًا بهذا الفقه. وبهذا يكون القرداغي إضافة إلى هذا المجال المهم، ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (القصص:٣٥)، ولا سيما أن السالوس أميل إلى التشديد، والقرداغي أميل إلى التسهيل، فيتخفف حر ذاك ببرد هذا، وبذلك يتحقق التوازن المنشود.

زيارة سريلانكا والجامعة النظيمية

حثُّ شيخنا الندوي على زيارة الجامعة النظيمية

وفي شتاء سنة ١٩٨٦م زرت جمهورية سريلانكا، نزلت في العاصمة «كولومبو» ومنها اتجهت إلى زيارة الجامعة النظيمية، وهي جامعة إسلامية أنشأها التاجر المسلم المعروف، الحاج نظيم في إحدى نواحي سريلانكا.

وكان الذي حثَّني على زيارة هذه الجامعة وكرَّر حثَّه لي هو شيخنا العلامة «أبو الحسن الندْوي» رحمه الله. فقد زارها من قبل وسُرَّ بها وبما تقدِّمه لأبنائها وبناتها، ورأى أن زيارة كبار علماء المسلمين ودعاتهم لها، تشدُّ أزرها، وتسند ظهرها، وتقوِّي أمرها. فلهذا أصرَّ عليَّ أن أضع ذلك في برنامجي.

أبو الحسن الندوي بقية السلف الصالح

والحقيقة أنني لا أستطيع أن أتأخر عن شيء يطلبه مني الشيخ الندوي، لأني أعتقد أنه رجل مبارك، وأنه ليس من أهل عصرنا المشغولين بالدنيا وزخرفها، بل هو من بقية السلف الصالح رضي الله عنهم، كأنما هو رجل جاء من القرون الإسلامية الأولى التي هي خير القرون، ليعيش في عصرنا هذا، عصر المادة والمنفعة. وأنا أتقرَّب إلى الله تعالى بحبه، كما قال القائل:

أحبُّ الصالحين ولستُ منهم ... لعلِّي أن أنال شفاعة!

زيارة الجامعة النظيمية

ولهذا لم أتردد في الإسراع بزيارة الجامعة النظيمية، وقد ظللت في رحابها نحو أسبوع نائمًا في إحدى حجرها، فلم يكن هناك فندق قريب منها، وهي في قرية من القرى. وأنا بحمد الله لست من المترفين الذين نُشِّئوا في الحلية، أو ولدوا وفي فمهم ملعقة من ذهب كما يقال، بل أنا ابن القرية والكتاب. كم نمت على المصطبة والحصير، لا على الديباج والحرير!

لذا لم أشعر بمعاناة، ولم أشْكُ من تعب بسكناي داخل الجامعة، أو قريبًا منها. بل كانت المنطقة منطقة ريفية رائعة الجمال، مكسوة بالخضرة والنّضرة، حافلة بأشجار جوز الهند (النرجيلة) والباباي، وغيرها من فواكه تلك البلاد اللذيذة والطيبة. وهي أشبه ما تكون بمنطقة «كيرالا» في الهند، أو «بنجلاديش».

لقاءاتي وزياراتي في نواحي سريلانكا

وقد التقيت أساتذة الجامعة، لقاءات خاصة، سألوني فيها جملة أسئلة تتعلق بالمناهج والكتب والتدريس، وأجبتهم بما تعلمته وما فتح الله علي به.

والتقيت الطلاب في محاضرات خاصّة ببعضهم، في العلوم الشرعية المعروفة: الفقه والأصول والتفسير والحديث والعقيدة والدعوة. كما ألقيت عليهم عددًا من المحاضرات العامة، حضرها كل مَنْ في الجامعة، من أساتذة وطلاب وطالبات، وكنت ألمح في وجوههم مدى تأثرهم بما يلقى عليهم، فهم يتلقونه بعقولهم وقلوبهم.

وبعد ما يقرب من أسبوع، ودعت الأساتذة والطلاب، وقد أنسوا بي وأنست بهم، واستراحوا إليَّ، واسترحت إليهم، وكم تمَنَّوْا ـ كما كنت أتمنى ـ أن تطول المدة أكثر، ولكني لست ملك نفسي. فودعتهم وفي عيني عبرة، وفي أعينهم عبرات، واعدًا إياهم، أن أجتهد في زيارتهم مرة أخرى، ولم يقدر لي ذلك إلى اليوم، كان الله لهم.

وقد زرتُ العاصمة «كولومبو» وبعض المدارس الإسلامية التي وجدت فيها بعض مدرسين بعثهم الأزهر إليها.

وزرت بعض كبار الشخصيات الإسلامية التي نسيت أسماءهم جميعًا، ولكن كان فيهم وزير في الحكومة يمثل الأقلية الإسلامية.

فهناك أقلية إسلامية موجودة من قديم، حيث تعتبر هذه البلاد امتدادًا للهند، وإن كانت الديانة السائدة فيها هي البوذية، السائدة في الصين، وليست الهندوسية السائدة في الهند.

وقد كنت أجد تماثيل «بوذا» في الميادين المختلفة، ومنها: تمثال ضخم كان في طريقنا إلى القرية التي فيها الجامعة. وكلها مقدَّسة عندهم.

زيارة مؤسس الجامعة الحاج نظيم

كما زرت رجل البر والخير، الذي أسّس هذه الجامعة، الحاج نظيم في العاصمة، وهو تاجر جواهر مشهور، وأذكر أنه دعاني إلى بيته على غداء، ودعا بعض المسلمين المعروفين، ليسلّموا عليّ وأسلِّم عليهم. وقد شكرني على الزيارة، وطلب مني أن أكررها، فهم معزولون عن العالم الإسلامي، وقد لمس أثر هذه الزيارة في الأساتذة والطلاب جميعًا، ووعدتهم أن أزورهم إذا يسَّر الله ذلك، ولم ييسر الله ذلك إلى اليوم، وإن كانوا في الواقع يستحقون الزيارة والتشجيع.

دعوة لزيارة الجامعة ومسلمي سريلانكا

وأوصي إخواني من العلماء والدعاة ـ كما أوصاني الشيخ الندوي ـ أن يزوروا هذه الجامعة التي أرجو من ورائها الخير لمسلمي سريلانكا. سدَّد الله خطاهم، وثبَّت على الحق أقدامهم.

وأذكر أنَّ الإخوة هناك عرضوا عليّ أن أزور البلدة التي كان قد نُفي فيها البطل المصري أحمد عرابي قائد الثورة الوطنية الشهيرة، التي انتهت بهزيمته، ونفاه الإنجليز إلى تلك البلاد (سرانديب). ولكني اعتذرت لهم، إذ لم يكن عندي الوقت الكافي لذلك، فالواجبات عندي ـ دائمًا أكثر من الأوقات، والمعين هو الله.

تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية

النشاط التنصيري في العالم الإسلامي

كان النشاط التنصيري في أوج قوته في السبعينيات من القرن العشرين، وقد عقد دعاة التنصير مؤتمرًا عالميًا لهم في «لوزان» بسويسرا سنة ١٩٧٤م بهدف تنصير العالم!

وفي سنة ١٩٧٨م عقدوا مؤتمرًا في ولاية كلورادو في الولايات المتحدة بهدف أعلنوا عنه، وهو: تنصير المسلمين في العالم!! وكان هؤلاء المنصّرون من البروتستانت الأمريكيين.

وكأنَّ المسلمين هم أول من يحتاج إلى الهداية التي يملكونها!! كنا نظن أنهم يتوجهون ـ أول ما يتوجهون ـ بجهود تنصيرهم إلى البلاد التي تعلن الإلحاد صراحة، ويقولون بصراحة وجلاء: لا إله، والحياة مادة فحسب! ولا تؤمن بالله، ولا برسالات السماء، ولا بالآخرة، فهم أول من يحتاج إلى أن يوصلوا بالسماء، ويذكّروا بالله وبالحياة الباقية الأخرى.. فإن وقفت في طريقهم العقبات: اتجهوا إلى البلدان التي لم تصل إليها النبوات، وما تزال تعيش تحت سلطان الديانات البدائية، والوثنيات الهمجية.

فهؤلاء وأولئك كانوا أولى بالتبشير والتنصير من المسلمين: أتباع ملة إبراهيم، وأصحاب الديانة التوحيدية، التي تميّز توحيدها بالخلوص والصفاء، فليس فيه تشبيه اليهود، ولا تثليث النصارى، فاليهود يشبِّهون الخالق بالمخلوق، والنصارى يشبِّهون المخلوق بالخالق. بل كان عليهم أن يبدءوا بإعادة النصارى في الغرب إلى المسيحية، ولا سيما في أوربا التي لم يعد يذهب إلى الكنيسة منهم في يوم الأحد إلا خمسة في المائة ٥٪!

المنصّرون الأمريكان

ولكننا فوجئنا بهذا التوجُّه الغربي من المبشِّرين الأمريكان خاصة لتنصير المسلمين في العالم.

والأمريكان مولعون بأن يكونوا هم «الأعلين» في العالم في كل شيء، بحيث تكون مأكولاتهم تغزو العالم كله «بيتزا وماكدونالد وكنتاكي وغيرها»، وأن تكون مشروباتهم تغزو العالم كله «كوكاكولا وبيبسي كولا وغيرهما»، وأن تكون أفلامهم تغزو العالم، فلماذا لا يغزون بدينهم العالم كله أيضا؟! مع أن دينهم في الحقيقة إنما جاءهم من أرضنا!

اجتمع مائة وخمسون من عُتاة المنصّرين البروتستانت من الأمريكان ومن يدور في فلكهم في كلورادو لتنصير المسلمين في العالم، وقدموا أربعين بحثا أو دراسة عن الإسلام وأمته وكتابه ونبيه وتاريخه وحاضره ومستقبله، برؤية مسيحية تنصيرية.. وكيف يمكن التأثير في المسلمين؟ واقتلاعهم من دينهم؟ وإقناعهم بالنصرانية، وأنّ المسيح هو ابن الله المخلص للبشر من الذنب الذي ورثوه عن أبيهم آدم، أو هو «أقنوم» من الأقانيم الثلاثة التي تتكوَّن منها الألوهية عند النصارى: «الإله الأب، والإله الابن، والروح القدس».

تجارب المنصّرين الفاشلة

والمشكل هنا: أن المسلمين يؤمنون كل الإيمان بأن دينهم هو الدين الخاتم، الذي ختم الله به النبوات، وأنّ كتابهم هو المهيمن على الكتب كلها، وأنه الكتاب المعجز، والكتاب المحفوظ، الذي لا يعتريه تحريف ولا تبديل. وأن دينهم جاء متمماً لما جاءت به الرسالات السابقة، ومصحِّحًا لما وقع فيها من أوهام وأخطاء وتحريفات على مر الزمان.

ومن الصعب إخراج المسلم من دينه ليعتنق دينًا آخر، ويتحوَّل محمد وأحمد وعلي وحسن وحسين إلى جورج وحنّا وبطرس، هذا أمر يكاد يكون مستحيلا في العادة.

ولقد جرَّب المنصورن ذلك في أول القرن العشرين في عدد من الأقطار، ومنها مصر، بلد الأزهر، وبلد القرآن والعلم الديني.

وكانوا يبعثون الحملات إلى القرى، ممن جهّزوهم بمعرفة العربية، وحفظ القصص عن المسيح والعذراء، إلى غير ذلك. ويظل المنصر يحكي للناس هذه القصص والناس سكوت، فيحسب المنصر أنهم قد قبلوا كلامه، أو فتحوا له قلوبهم، فلا يلبث أن يسمع أحد الحاضرين يقول: وحدوه! فيرد الجميع بصوت جهير: لا إله إلا الله! فيقول: كمان صلوا على النبي، فيقولون: عليه الصلاة والسلام! وهنا يشعر المنصّر أنه لم يصنع شيئا!

وانتهت هذه الحملة التبشيرية أو التنصيرية على مصر، بتقرير كتبه رئيس الحملة قال في نهايته: سيظل الإسلام صخرة عاتية، تتحطم عليها محاولات التبشير المسيحي، ما دام للإسلام في مصر هذه الدعائم الأربع: القرآن، والأزهر، واجتماع الجمعة الأسبوعي، ومؤتمر الحج السنوي!!

مخططات جديدة

والآن قد غيّر القوم خططهم وأساليبهم، وجاءوا ـ فيما زعموا ـ بمخططات جديدة، وأساليب جديدة، منها طباعة الإنجيل على طريقة القرآن، وعلى شكل القرآن، وتسمية الإصحاحات في الإنجيل «سورا» وتسمية الفقرات آيات، والفصل بين كل إصحاح وآخر، بما يفصل به بين سور القرآن بعضها وبعض، وأهم من ذلك: قبول بعض المسلمين المتمسّكين ببعض تعاليم دينهم، وتسميتهم: العيسويين، بوصف ذلك مرحلة في التحول الكامل إلى النصرانية.

ودراسات شتّى تضمَّنها هذا الكتاب الذي ترجم إلى العربية تحت عنوان «التنصير»: خطة لغزو العالم الإسلامي.

وهو ما دفع شيخنا الشيخ الغزالي بعد ذلك إلى أن يكتب كتابه «صيحة تحذير من دعاة التنصير»، وأن يحذر منه كذلك أخونا المفكر المسلم الكبير، محمد عمارة.

وقابل العلماء والدعاة والمهتمون في العالم الإسلامي، هذه الحملة، بالتوجُّس، أو الصراخ، والتحذير للأمة مما يحاك لها.

وقد عرفنا: أن التنصير قد بدأ بغزو البلاد الإسلامية بالفعل، وبخاصة البلاد الكبرى، مثل: نيجيريا أكبر بلد إسلامي في إفريقيا، ومثل إندونيسيا أكبر بلد إسلامي في آسيا، بل في العالم الإسلامي كله.

ورأينا التنصير يغيِّر هدفه وفق المكان والزمان والحال، فهو في المنطقة العربية لا يطمع في تحويل المسلم إلى نصراني بصراحة، ويكتفي بتشكيكه في الإسلام شريعة ونظاما، إن لم يتمكن من تشكيكه فيه عقيدة وتوحيدا، ولهذا يعمل على نشر الفكر العلماني الذي يتفق مع اللاهوت المسيحي في الجملة، في ترك ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!

أما في غير المنطقة العربية، فهو يعمل على تحويله إلى مسيحي بالفعل، ولا سيما عن طريق المدارس التي تلتقط الطفل في صغره، وتأخذه خامة بيضاء، فتغرس فيه ما تشاء من عقائد ومفاهيم وقيم، وتنقله من دين إلى دين، وأهله وذووه لا يشعرون!

دعوى عدم نجاح المنصّرين في المنطقة العربية والإسلامية

ولقد نجح التنصير إلى حد كبير في هدفه في المنطقة العربية، والمنطقة الإسلامية غير العربية.

ومع هذا يشيع دعاة التنصير الغربيون دائماً ويكررون: أنهم لم ينجحوا في البلاد الإسلامية، وأن جهودهم لم تحقق أهدافها.

وأعتقد أنهم في ذلك كاذبون ومضلِّلون.

فقد رعوا الفكر العلماني ونشروه في ديار الإسلام وروَّجوه بضاعة بين المسلمين.

ورعوا كل كاتب من أبناء المسلمين يتمرَّد على الإسلام، ويطعن في شريعته أو ثقافته أو قرآنه وسنته، وإن كان هؤلاء قلة، ولكنهم ينفخون فيهم، ويجعلون من كل حبة قبة، ومن كل قط جملا.

ووقفوا ـ من وراء ستار ـ وراء كل حاكم يتنكّر لشريعة الإسلام، أو لدعوة الإسلام، يشدّون أزره، ويحمون ظهره، ويوصون «الكبار» به خيرا.

ونجحوا بالفعل في تحويل بعض المسلمين ـ في غير المنطقة العربية ـ إلى المسيحية، فلا غرو أن تجد اسم الشخص مسيحيا، واسم أبيه أو جده مسلما، أو تجده من قبيلة إسلامية خالصة، معناه أنهم حولوه منذ صباه إلى المسيحية. حيث أدخلوه مدارسهم وصنعوه كما يريدون.

المكاسب التي يحققونها بدعوى إخفاقهم مع المسلمين

أعتقد أن هذا الإعلان بأنهم أخفقوا مع المسلمين: أمر مقصود لهم، يحقق لهم مكاسب يرجونها:

أولها: أن تتدفق عليهم الأموال والتبرعات التي تبلغ المليارات، لتمكّنهم من التغلب على صلابة المسلمين «الناشزين» والتأثير فيهم.

وثانيها: أن يخدّروا «الفريسة» التي يريدون اصطيادها، وهي: المسلمون، حيث يقولون: الإسلام بخير، والأمة بخير، والمنصرون قد فشلوا في مهمتهم معهم، فلا يجتهدون في المقاومة، ولا يفكرون في عمل إيجابيّ مضاد.

وثالثها: أن يظل القوم يشعرون بأنهم مقصِّرون في أداء واجبهم في غزو المسلمين، وأنَّ عليهم أن يتداركوا ذلك بالمزيد من بذل الجهد والتخطيط والتنسيق والعمل الدءوب، ومن سار على الدرب وصل.

وربما كان سبب إعلان فشلهم: أنهم لم يحقِّقوا كل ما كانوا يطمحون إليه من أهداف في تنصير المسلمين الذين استعصوا بعقيدتهم عليهم وخيبوا فألهم، فاعتبروا أنفسهم قد فشلوا!

غارة جديدة على العالم الإسلامي

على كل حال قد ابتدأ التنصير غارة جديدة على العالم الإسلامي، باجتماع كلورادو،

الذي صمَّم فيه على تنصير المسلمين في أنحاء العالم، ورصد لذلك «ألف مليون» دولار، وأنشأ لذلك معهدا لتخريج منصّرين مسلمين، سموه «معهد زويمر» إحياء لذكرى ذلك المنصر العتيد الذي رأس المؤتمر التبشيري الكبير في القاهرة سنة ١٩٠٦م.

القوم إذن جادُّون في مهمتهم، مصرون على غايتهم، ووراءهم إمكانات مالية هائلة، ودول تؤيدهم بسلطانها وقوتها، وجيوش من المبشرين والمبشرات.

بلغت منذ عدّة سنين ٤,٧٥٠٠٠٠ أربعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف مبشر ومبشرة في أنحاء العالم.

وقد كنت أحسب أن «المليار دولار»، الذي رصدوه لتنصير المسلمين: مبلغ كبير، حتى عرفت بعد ذلك أنهم يجمعون في بعض الأحيان مليارات لا مليارا واحدا، وأن المال ليس مشكلة لديهم على الإطلاق.

ومن المعلوم: أن الفاتيكان كان يعتبر ـ من ناحية الغنى ـ الدولة الثالثة في العالم بعد أمريكا والاتحاد السوفيتي.

التنصير غزو غربي للشرق الإسلامي

إن المسلمين ينظرون إلى التنصير على أنه ليس مجرد عمل ديني، أو دعوة دينية خالصة، بل يرونه نوعا من الغزو الغربي للشرق الإسلامي.

فقد غزانا الغرب عسكريا، وغزانا سياسيا، وغزانا ثقافيا، وغزانا كذلك دينيا.

وكانت أداته الأولى في غزونا دينيا هو هذا الذي سموه «التبشير» وسميناه «التنصير» والذي كان دائماً خادما للاستعمار وممهدا له، ومساعدا له على استذلال الشعوب، وامتصاص خيراتها، ونهب ثرواتها، وإبقائها في حضيض الفقر والتخلّف، كما بين ذلك الذين أرّخوا لهذا التبشير وعمله في بلادنا، مثل الدكتور عمر فروخ، والأستاذ مصطفى الخالدي في كتابهما «التبشير والاستعمار»، ومثل كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» الذي ترجمه السيد محب الدين الخطيب إلى العربية من قديم.

كنت ممن قرأ ما صنعه المنصِّرون في «كلورادو» وما قرَّروه من أمر خطير، فأخذت على عاتقي أن أنبه المسلمين على هذا المكر الكُبّار، وأدق ناقوس الخطر، لتنبيه الأمة على ما يحاك لها، وهي في غفلة عن هذا. وليس لها قيادة توقظها وتحركها، لا سياسية ولا دينية.

دعوتي لإنشاء صندوق إسلامي

وفي محاضرة لي في مدينة «جدة» بدعوة من مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي التابع لجامعة الملك عبد العزيز، تكلمت عن هذا الموضوع بإفاضة، وقلت: لو كان الأمر بيدي لدعوت في الحال لإنشاء صندوق إسلامي نجمع فيه ألف مليون دولار، لا لأسلمة العالم، وهذا من حقنا، ولكن لحماية الوجود الإسلامي من هذا الغزو المخطط الحاقد الماكر.

وبعد المحاضرة اجتمع عدد من الإخوة الدعاة، منهم الشيخ الزنداني، ود. محمد عمر زبير، ود. أنس الزرقا، وعدد من الشيوخ والأساتذة الفضلاء، وقالوا: لماذا لا تنادي أنت بإنشاء هذا الصندوق، ولماذا تنتظر غيرك أن يقوم بهذه المهمة؟

قلت: بأي صفة أقوم بذلك؟

قالوا: بصفتك أحد علماء المسلمين، الذين تثق بهم الأمة، وتستمع إليهم، وتقرأ لهم، وتحملك المسؤولية عنهم. وأعتقد أن ثقة الأمة بك تجعل من فرض العين عليك أن تقوم بهذا الأمر، وتتبنّاه، ونحن أول المؤيدين لك، والسائرين وراءك، فعاهدنا على ذلك..

ولم يدعوني حتى عاهدتهم على أن أتبنّى مواجهة هذا الغزو.

وأصبحت حين أحاضر في أيِّ بلد أدعو لإنشاء هذا الصندوق الإسلامي العالمي، أو المؤسسة العالمية ذكرت ذلك في قطر، وفي الإمارات، وفي الأردن، وفي كل بلد دعيت إليه.

كلمتي في مؤتمر المصارف الإسلامية بالكويت

ثم هيأ الله لي فرصة في الكويت في اجتماع مؤتمر المصارف الإسلامية، وكان هو المؤتمر

الثاني للمصارف، بعد مؤتمر دبي الذي عقد منذ سنوات. وفي الجلسة الختامية للمؤتمر، طلبت الكلمة، وقلت للإخوة: اسمحوا لي أن أنقلكم من جوِّ المصارف والمعاملات المالية الإسلامية إلى جو آخر. هو أشد سخونة، وأعظم خطرا، إنه يتعلق بالحفاظ على دين الأمة وعقيدتها وهويتها.. وذكرت لهم ما رصد المنصِّرون لذلك (ألف مليون دولار) لنرتد عن ديننا! وأن على الأمة أن ترصد مثلها لحماية المسلمين من خطر الغزو المرتقب. وأمتنا أكثر من ألف مليون، فلو دفع كل فرد ـ في المتوسط ـ دولارًا، لجمعنا الألف مليون بسهولة، ومن هنا نرفع شعار «ادفع دولارا تنقذ مسلما».

مهمة المؤسسة الخيرية

وعلينا أن ننشئ لذلك مؤسسة خيرية مهمتها: أن تجمع ألف مليون دولار من المسلمين، وأن تستثمرها في الحلال، لننفق من عوائدها، ونبقي الأصل سالما، وأنا أقترح الكويت مقرا لهذه المؤسسة، كما أقترح أمينا عاما لهذه المؤسسة أخانا الفاضل الشيخ يوسف الحجّي، (وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية سابقًا، وأحد رجالات الكويت المحبوبين والمحترمين).. وتجاوب الحضور معي، وأثنوا على قولي وكان منهم أخونا الفاضل المعطاء في كل عمل خير؛ أبو بدر «عبد الله المطوع» رحمه الله وأثابه، فجاء وهمس في أذني، وقال: لقد أصبت وأحسنت في اختيار يوسف الحجي لهذه المهمة، فهو موضع ثقة وقبول من الجميع، وأنا أقول لك: إني متبرع لهذا المشروع بمليون دولار أضعها لحسابه من الغد. في بيت التمويل الكويتي، ولكن أرجو أن لا تذكر اسمي. وأعلنت ذلك على الحضور، فامتلأت القاعة بالتكبير، ولم أعلن عن اسمه حسب رغبته، وإن كان الأمر قد عرف بعد ذلك، وإنما لكل امرئ ما نوى.

الحث على المشروع في خطبة الجمعة بالكويت

بعد هذا الإعلان وجدت حماسة بالغة من الناس على كل مستوياتهم، وكنا في يوم الخميس، وقد انتهى المؤتمر وسأسافر في المساء، ولكن أخانا السيد محمد ناصر الحمضان وكيل وزارة الأوقاف في حينها، قال: أقترح أن تؤجِّل سفرك، وتبقى إلى الغد، وتخطب

خطبة الجمعة، وتذاع في التلفزيون والإذاعة، وتحث الناس على هذا المشروع، وبذلك يكون له أرضية قوية. وقد استجبت لهذه الدعوة، وتم الأمر على ما يرام.

ولم يكن الشيخ يوسف الحجي موجودًا حين أعلنت عن اختياره، ليكون أمين هذه المؤسسة المنشودة، فلما حضر وأبلغ بما قلته، رحَّب بتحمُّل المسؤولية، وقال: ما دعا إليه القرضاوي، فنحن له جنود.

خطبة الجمعة التالية في قطر

وعدت إلى قطر، وخطبت الجمعة التالية في قطر، ونوَّهت بالموضوع، فلقيت من القبول والتشجيع ما شرح صدري، وكان من ذلك برقية من الشيخ محمد بن حمد شقيق الأمير، ووزير التربية والتعليم، يثني فيها على المشروع، ويعلن وقوفه بجانبي بقوة وبكل ما يستطيع، ويدعو لي وللمشروع بالنجاح والتوفيق.

تشجيع أمير قطر الشيخ خليفة

كما لقيت أمير دولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حفظه الله، وحدّثته عن فكرة المؤسسة ومقاصدها، فرحَّب بها، وشجَّعني على المضيِّ في المشروع، وقال: ثق بأني مستعد للمساعدة في ذلك، على المستوى الشخصي، وعلى مستوى الدولة، وسُررت بذلك سُرورا كبيرًا.. وكان مما يشجع على ذلك في تلك الأيام: ارتفاع أثمان البترول، وازدياد دخل دول الخليج، وهذا من حُسن حظ المشروع، ولله الحمد.

وضع التصوُّر العام للمشروع

وكان عليَّ: أن أضع تصورًا عامًّا للمشروع، وأهدافه ووسائله، وأن يكون في صورة مؤسسة عالمية، لها أعضاء مؤسِّسون من كلِّ أنحاء العالم، يمثِّلون رجال الأمة من أهل العلم والرأي، ومن أهل المال والثروة، ومن أهل الكفاية والخبرة.

وبعثت بهذه التصوُّرات إلى الإخوة في الكويت، ليعطوا هذه التصورات إلى أحد

القانونيين ليصوغها في صورة قانونية، على شكل نظام أساسي، ثم نبحث بعد ذلك كيف نستخرج القانون الذي يقرها ويعطيها الوجود القانوني.

وكنت اخترت تسميتها: «المؤسسة الخيرية الإسلامية العالمية» ولكن أخانا الكريم الأستاذ خليل حمد المدرس في قطر ـ وهو من الأعضاء المؤسِّسين ـ اقترح اسم «الهيئة» بدل اسم «المؤسسة» لاعتبارات تتعلق بالترجمة إلى الإنجليزية.

وبعد الصياغة القانونية المبدئية لنظام الهيئة: أرسل إلى الأعضاء الذين اختيروا من شتى البلدان ليبدوا ملاحظاتهم على مواد النظام مادة مادة، وفقرة فقرة، ويقترحوا تعديل ما يريدون تعديله، وحذف ما يرون حذفه، وإضافة ما يرون إضافته.

اختيار الأشخاص المؤسّسين واللجنة التحضيرية

نسيت أن أذكر أنا قد اجتمعنا في الكويت عدّة مرات لاختيار الأشخاص المؤسِّسين، وحرصنا كل الحرص على أن يكونوا ممثلين بقدر الإمكان للأقطار والأجناس والتيارات المختلفة.

كما اخترنا لجنة تحضيرية للنظر في كل ما يلزم للإعداد لهذه الهيئة وظهورها بالصورة الملائمة لإسلاميتها وعالميتها، وكانت اللجنة مكّونة من ستة أشخاص:

١ـ الشيخ يوسف الحجي.
٢ـ الشيخ يوسف القرضاوي.
٣ـ الشيخ سليمان الراجحي.
٤ـ الشيخ عبد الله العقيل.
٥ـ الشيخ عبد الله المطوع.
٦ـ الشيخ أحمد بزيع الياسين.

كانت اللجنة تنظر في الترشيحات التي تقدَّم لها ليكونوا من المؤسسين، وتراعي موازنات مختلفة في الاختيارات، منها: تمثيل الأقطار والاتجاهات، وأهل العلم وأهل البذل، والشخصيات المقبولة في مجتمعاتها، ثم تخطر الذين وقع عليهم الاختيار،

وتعرض عليهم فكرة الهيئة كما تصورتها، ثم مشروع النظام الأساسي المقترح، وتطلب الرأي فيه.

تذليل العقبات لاستصدار قانون الهيئة العالمية

كما كانت مهمة اللجنة التفاهم مع الجهات المسؤولة في الكويت، لتذليل العقبات لاستصدار القانون بالهيئة المنشودة.

ولم يكن الأمر سهلًا، فالهيئة ـ وإن كان مقرها الكويت ـ ليست هيئة كويتية محلية، بل هي هيئة عالمية بحكم تكوينها من مؤسّسين يمثّلون المسلمين في العالم، وبحكم أهدافها، فهي لخير المسلمين في العالم، وإمدادهم بما يحتاجون إليه ليعيشوا مسلمين ملتزمين بدينهم، غير متخلّفين عن عصرهم، وهي عالمية بحكم تمويلها، فهي تقبل التبرعات ـ غير المشروطة ـ من أيّ جهة أو فرد يساعدها في مهمتها، وهي عالمية بحكم مصارفها ومواقع نشاطها، فهي تعمل في كل مكان يوجد فيه مسلمون محتاجون، ولا سيما في إفريقيا وآسيا، حيث ينشط التنصير بين المسلمين، مستغلا فقرهم ومرضهم وأميتهم، فيقدم المساعدات الغذائية، وينشئ المستشفيات والمستوصفات الطبية، ويؤسّس المدارس التعليمية، التي قاطعها المسلمون، لصبغتها الكنسية، فمن دخلها نال الشهادة، وفقد الدين! ولهذا بقي المسلمون في معظم دول إفريقيا ـ جنوبي الصحراء ـ معزولين عن التعليم العصري، قاصرين تعليمهم على القرآن واللغة العربية وشيء من العلوم الشرعية، وبعض مبادئ الحساب، كل ذلك يعلم على الطريقة التقليدية القديمة.. فقد تطور الأزهر، وتطورت المعاهد العلمية الدينية في العالم العربي، وكثير من البلاد الإسلامية ولم يتطور التعليم عند هؤلاء.

المهم أن الهيئة المنشودة هيئة عالمية بلا نزاع، ونريد من القانون الذي يصدر بإنشائها في الكويت أن يحافظ على عالميتها واستقلالها.

كان هذا العمل يقوم به إخواننا الكويتيون من الأعضاء المؤسسين في الهيئة، وكان هناك عمل آخر تقوم به اللجنة التحضيرية مع المؤسِّسين لإنضاج النظام الأساسي، والاتفاق المبدئي على صيغته النهائية بعد التعديلات المقترحة.

وقد صدر قانون الهيئة (قانون رقم ٦٤ لسنة ١٩٨٦م) بأمر أميري من الشيخ جابر الصباح أمير دولة الكويت رحمه الله، وأحيل إلى مجلس الأمة، لمناقشته وإقراره أو تعديله، وبعد أخذ ورد، وافق مجلس الأمة على القانون.

الاجتماع التأسيسي لإقرار النظام

وكان المؤسِّسون دعوا للاجتماع في الكويت عام ١٩٨٦م لمناقشة النظام الأساسي ثم إقراره بعد تعديل ما يتطلب التعديل، وكان الحضور مكثّفا، لم يكد يعتذر إلا من قهرته الظروف أو أقعده المرض، وكانوا صفوة من رجالات الأمة المعنيين بأمرها، المشغولين بهمومها، حتى قال لي شيخنا الغزالي وعينه تذرف الدموع: جزاك الله خيرًا، لقد جمعت حكماء الأمة في هذا المكان، وقلما يجتمعون، وحمَّلتهم الآن المسؤولية الدينية والتاريخية، لينهضوا بواجبهم، ويقوموا بدورهم.

وكذلك قال شيخنا الشيخ عبد المعز عبد الستار: كنا نسمع عن حكماء صهيون، أو مشيخة بني إسرائيل، الذين اجتمعوا يومًا لينظروا في مصير قومهم، ويقرروا ما يجب عليهم لمستقبلهم، ويحدِّدوا علاقتهم بغيرهم. وها نحن أولاء اليوم نرى مشيخة المسلمين أو صفوتهم يجتمعون، لينظروا في مصير أمتهم.

قلت للشيخين: لا داعي لأن نُسرف في التفاؤل، وعلى كل حال، فإن لقاء المؤمنين لا يثمر إلا خيرًا، وخصوصًا إذا اجتمعوا لهدف واضح، ومنهج بيِّن، ولم تكن لهم أغراض دنيوية، أو مصالح شخصية، إنما جمعهم حب الله ورسوله، والانتصار لهذا الدين الذي يشكو إلى الله أبناء عقّوه، وأنصارًا خذلوه.

محاولة تأجيل الاجتماع التأسيسي

وكان بعض الإخوة الحضور ـ لأغراض خاصة ـ يريدون تأجيل هذا الاجتماع الحاسم، وقال لي أحدهم: ما وجه الاستعجال ـ يا شيخ يوسف ـ في أمر خطير كهذا؟ وما الضرر لو أخَّرناه بضعة أشهر حتى يزداد نضجا؟

وكنت رئيس الجلسة، فرفضت الاقتراح بحزم وحسم، وقلت: لقد مضت عدّة سنوات منذ اقترحت إنشاء هذه الهيئة في الكويت، حتى تغيرت الأحوال عما كانت، وانخفض سعر البترول بعد ما كان مرتفعا، وهذا ليس في صالحنا، ولقد ناقشنا النظام الأساسي حتى مللنا، ولا بد لنا من أن نحسم أمرنا، وقد قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وقد عزمنا وتوكلنا على الله، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق:٣).

إقرار النظام الأساسي

وانتهى الاجتماع بإقرار النظام الأساسي، بعد تعديلات طفيفة عليه.

وقد حرصنا في نظامنا الأساسي على: أن تكون هيئتنا هيئة خيرية محضة، كل همّها عمل الخير، وليست هيئة تبشيرية أو دعوية في أساسها، وإن كان الدافع الأول من إنشائها هو الحملة التنصيرية الكبرى على المسلمين.

كما حرصنا على أن نُبعد الصبغة السياسية والجهادية عن الهيئة، ضمانًا لحُسْن أدائها لعملها بعيدا عن المؤثرات السياسية وتياراتها المتناقضة. وهو ما يعرضها لخصومات وصراعات تضرها ولا تنفعها.

اعتراض الدكتور أحمد الملط

وأذكر أن بعض الإخوة، ومنهم الأخ الكبير الدكتور أحمد الملط نائب المرشد العام للإخوان في مصر رحمه الله، وقف يعترض بشدّة، ويقول لي بوصفي رئيس الجلسة، وصاحب الفكرة: كيف تحذف السياسة من الإسلام يا شيخ يوسف؟ أتريدون إسلام الأضرحة والموالد، الذي يبارك الأنظمة الفاجرة، ويسير في ركاب الطغاة من الحكام؟ ألست أنت الذي كنت تعلّمنا: أن الإسلام عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، ودين وسياسة، وصلاة وجهاد؟

قلت: يا دكتور أحمد، نحن لا نؤمن بتجزئة الإسلام، ولا بحذف السياسة أو

الاقتصاد أو الجهاد منه، ولكنا نؤمن بالتخصص، ونحن متخصصون في عمل الخير على كل المستويات، وعن طريق هذا الخير نرقى بالناس، حتى نمكنهم من العمل في السياسة والاقتصاد والدعوة والجهاد، بعد أن نهيئ الخبز للجائع، والكساء للعريان، والدواء للمريض، والكفالة لليتيم، والمسكن للمشرد، والعمل للعاطل، والتدريب للعامل، والمدرسة للأمي، والكفاية للأسرة.. وهذه أمور تحتاج منا إلى جهود وأوقات وأموال وعقول، وطاقات بشرية مدربة، وكل هذه لا نملك منها إلا القليل، أو الأقل من القليل.

هذا هو عمل الهيئة الذي ينبغي أن تتفرغ له.. أما السياسة والجهاد وغيرها، فلها رجالها، ولها مجالها، وقد حضّنا القرآن على رعاية التخصُّصات، وسدّ الثغرات المختلفة، وعدم توجيه الطاقات كلها في اتجاه واحد وإغفال ما عداه، وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢).

اختيار رئيس الهيئة ونائبه والأمين العام

وكان على المجتمعين أن ينتخبوا بالاقتراع الحر: مجلسا للإدارة من ٢١ شخصا، وقد اجتمع المجلس عقب اختياره في جلسة إدارية، ليختاروا الرئيس ونائبه وأمينًا عامًّا وأمين الصندوق، وقد اختار المجلس بالإجماع الشيخ يوسف الحجي رئيسًا عاما للهيئة، واختار نائبا له: أخانا الفاضل الشيخ صالح الحصين، وهو شخصية سعودية معروفة، واختار أمينًا عاما: الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة، واختار أمينا للمال: الشيخ أحمد البزيع ياسين من الكويت.

اللجنة التنفيذية

كما اختار لجنة تنفيذية من الأعضاء تكون أقدر على الاجتماع في مدة أقرب من مدة المجلس. وكنت ممن اختيروا لمجلس الإدارة، وللجنة التنفيذية. كما اختير للمجلس من قطر: فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري رحمه الله.

وانصرف المجتمعون، وهم يحمدون الله على أن يسَّر أمرهم، كما يدعونه عزّ وجل أن يعينهم على العمل لتحقيق أهداف الهيئة كل في بلده.

وفد الهيئة إلى أمراء دول الخليج

وقد اتفقنا على أن يمر وفد يمثل الهيئة بأمراء دول الخليج وملوكها، ويشرح لهم أهدافها وفكرتها، ويطلب منهم المعونة والتأييد المادي والمعنوي لها.

وكان الوفد يتكوَّن من رئيس الهيئة الشيخ يوسف الحجي، ومن الشيخ عبد الله الأنصاري رحمه الله، ومن الشيخ عبد الله المطوع (أبي بدر) رحمه الله، ومن الفقير إلى الله تعالى.

وقد مررنا بأمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، (وقد كنت قد حدَّثته من قبل عن الهيئة، كما ذكرت من قبل)، فأحسن استقبالنا، وتجاوب معنا، وأمر بفتح حساب في مصرف قطر الإسلامي للهيئة.

كما مرَّ الوفد بدولة البحرين، ولقي أميرها الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، الذي رحب بنا كل الترحيب، وقال: البلد بلدكم، ونحن معكم.

وقدم الوفد طلبًا لزيارة دولة الإمارات العربية المتحدة، ففوجئنا باعتذارهم عن عدم استقبالنا في الظروف الراهنة.

أما عُمان، فلم ترد علينا، لا بالإيجاب، ولا بالسلب.

وكذلك المملكة العربية السعودية لم تردّ علينا.

تشويه صورة الهيئة عند المسئولين

وكان بعضهم قد شوَّه في تقريره صورة الهيئة عند المسؤولين وقال لهم: إذا أردتم أن تدعموا الإخوان المسلمين فادعموا الهيئة الخيرية!!

وهو تشويهٌ ظالم، فعلى الرغم من أن الداعي لفكرة الهيئة كان من الإخوان، وأن عددًا من أعضائها من الإخوان، فإن الهيئة تتميَّز بتمثيل متوازن لكل فئات الأمة، خصوصًا

على مستوى أهل السنة، ولم يكن يسعها أن تتجاهل الإخوان المسلمين، وهم جماعة حيّة كبيرة لها وجود ملموس في كل أقطار المسلمين.

ومن نظر إلى مجموع المؤسسين وجد فيهم عددًا كبيرًا من السعوديين.

نظرة رياضية

وهذا الموقف من الأنظمة الحاكمة جعلني أستشعر أن الأمر ليس كما كنت أتوقعه، حين قلت: إن الألف مليون دولار يمكن أن تجمع من أكثر من ألف مليون شخص، على أساس: متوسط دولار لكل فرد.

وقد نظرت في الأمر يومًا نظرة رياضية، فقلت: يمكننا أن نجمع الألف مليون بواحدة من هذه الطرق:

(١٠٠٠) ألف فرد، يدفع كل واحد (١٠٠٠٠٠٠) مليون دولار، فتكون النتيجة = ٠٠٠٠٠٠ , ١٠٠٠ ألف مليون.

أو(٠٠٠ , ١٠) عشرة آلاف فرد، يدفع كل واحد (٠٠٠ , ١٠٠) مائة ألف دولار، فتكون النتيجة = ٠٠٠٠٠٠ , ١٠٠٠ ألف مليون.

أو(٠٠٠ , ١٠٠) مائة ألف فرد، يدفع كل واحد (١٠٠٠٠) عشرة آلاف دولار، فتكون النتيجة = ٠٠٠٠٠٠ , ١٠٠٠ ألف مليون.

أو(١٠٠٠٠٠٠) مليون فرد، يدفع كل واحد (١٠٠٠) ألف دولار، فتكون النتيجة = ٠٠٠٠٠٠ , ١٠٠٠ ألف مليون.

أو (٠٠٠٠٠٠ , ١٠) عشرة ملايين فرد، يدفع كل واحد (١٠٠) مائة دولار، فتكون النتيجة = ٠٠٠٠٠٠ , ١٠٠٠ ألف مليون.

أو(٠٠٠٠٠٠ , ١٠٠) مائة مليون فرد، يدفع كل واحد (١٠) عشرة دولارت، فتكون النتيجة = ٠٠٠٠٠٠ , ١٠٠٠ ألف مليون.

أو «١٠٠٠,٠٠٠٠٠٠» ألف مليون فرد، يدفع كل واحد (١) دولارًا، واحدًا، فتكون النتيجة= ١٠٠٠,٠٠٠٠٠٠ ألف مليون.

عَقَبات وحواجز

ولكن تبيَّن لي أن هناك عقبات وعقبات، وحواجز وحواجز، تحول بيننا وبين الوصول إلى الفرد المسلم العادي، وأن هناك مئات الملايين من المسلمين لا يمكن الوصول إليهم، بعضهم وراء الستار الحديدي، وبعضهم محبوس في أقفاص الأنظمة الشمولية، وبعضهم تحكمه أنظمة علمانية إذا سمعت كلمة «إسلام» أصابها ما يشبه الصَّرَع، وبعضهم مشغول بلقمة عيشه التي لا يكاد يجدها.

وتمخّضت جهودنا في جمع الأموال التي أردناها في بلدين اثنين: الكويت بلد المقر، والذي كنا نطمع أن تمدنا دولته بمبلغ محترم يوقف الهيئة على قدميها في أول مسيرتها، وانتهت المقابلات والوعود إلى مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ مائتي ألف دينار كويتي! غير المليون الأول من أخينا أبي بدر، ثم عمارتان أوقفهما للهيئة، وتبرعات بعض أهل الخير، أخلف الله عليهم وجزاهم خيرًا.

والبلد الثاني، هو: قطر، الذي كان حساب الهيئة فيه عامرًا دائمًا بتبرعات أهل الخير، ولا سيما قبل أن تنشأ جمعية قطر الخيرية، وتستقطب معظم تبرعات المحسنين فيها.

ولقد زرنا الشيخ الأنصاري وأنا: عددًا من الشيوخ والتجار في قطر نعرّفهم بالهيئة وأغراضها، ونلتمس منهم دعمها بما أفاء الله عليهم، فكان معظمهم يسألنا: هل يجوز أن ندفع لها من الزكاة؟ وكان الجواب: يجوز دفع الزكاة للهيئة، ولكنها ستُصرف في مصارف الزكاة، ولن تدخل في رأس مال الهيئة المنشود الذي يعد صدقة جارية لصاحبه، وهو بمثابة الوقف الخيري، الذي يدوم ثوابه مادام الانتفاع بريعه مستمرًّا، حيث يحبس أصله، وتسبّل ثمرته.

والآن وقد مرّ على تأسيس الهيئة رسميًّا خمس وعشرون سنة: لم نجمع من رأس المال المطلوب (وهو ألف مليون دولار) إلا مائة وخمسة وثلاثون (١٣٥) مليون دولار، وهو عار على أمة الإسلام.

أنشطة الهيئة المختلفة

ومع هذا أثبتت الهيئة وجودها بأنشطتها المختلفة عن طريق ما يدفع إليها من الزكوات والصَّدقات والتبرعات المخصَّصة لبناء مساجد، أو مدارس، أو دور أيتام، أو طبع مصاحف، أو حفر آبار، أو نشر كتب، أو إنشاء مراكز للدعوة، وكلها أنشطة مهمة تبرّع بها أهل الخير، ممن وثقوا بإدارة الهيئة وأجهزتها في إنفاق هذه الأموال بأمانة وكفاءة.

وقد كان أخونا الشيخ يوسف الحجّي يأبى أن يأخذ من المتبرعين أي مبلغ مقابل الإدارة، ويرى أن هذا هو واجب الهيئة، لولا أن ضغطنا عليه، وقلنا: إن هذا يقوّي الهيئة، وهو من حقِّها، وهو لا يأخذ شيئًا لنفسه، بل يعمل محتسبًا في خدمة الهيئة من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر جزاه الله خيرًا.

وقد أجاز الشرع الحكيم للعاملين على الزكاة أن يأخذوا أجرهم منها. فلماذا تتورّع الهيئة عن أخذ أجرها، وهو في النهاية مصروف للخير وللدعوة، وللفقراء والمحتاجين؟

حكم استثمار أموال الزكاة

كما كان أخونا الحبيب الشيخ الحجي يرفض أن يستثمر شيئًا من أموال الزكاة، حتى لا تتعرض للمخاطر، والمفروض أنه أمانة لدى الهيئة حتى يصل إلى مصارفه، وقد استفتتني الهيئة في ذلك، فأفتيتها بجواز استثمار ما يجمع من أموال الزكاة في استثمارات قصيرة الأجل، حتى تصل إلى مستحقّيها، في خلال السنة لا تزيد عن ذلك، على أن يكون ذلك في معاملات مأمونة المخاطر، وما يأتي من أرباح يضاف إلى الزكاة لحساب المستحقّين. واستجاب الشيخ يوسف الحجّي لذلك، واستمر الأمر عليه إلى اليوم. والحمد لله رب العالمين.

وفاة الأستاذ عمر التلمساني
المرشد الثالث للإخوان سنة ١٩٨٦

تشييع الأستاذ التلمساني

في ١٣ من شهر رمضان ١٤٠٦هـ الموافق ٢٢ مايو ١٩٨٦م، وفي يوم الأربعاء، انتقل إلى جوار ربِّه الأستاذ عمر التلمساني، المرشد الثالث للإخوان المسلمين، وقد صُلي عليه في مسجد عمر مكرم، ودُفن في مقابر مدينة نصر، وشيّعته جماهير غفيرة تقدر بالألوف، من إخوان مصر وأحبائهم،على رغم حرارة جو القاهرة، ومع صيام شهر رمضان. ولم يقدَّر لي أن أشهد جنازته، فقد كنت في قطر، وإن شاركت بالدعاء له والترحُّم عليه، والحديث عنه بما يستحق.

وقد ودعته الجموع بأعين باكية، وقلوب آسية، وألسن داعية.. كلها تبتهل إلى الله عزّ وجل أن يسكنه الفردوس الأعلى، وأن يجزيه عن الإسلام ودعوته وأمته خير ما يجزي الدعاة الصادقين، والعلماء العاملين.

خصال الخير

فقد كان الأستاذ التلمساني رجلًا مُحبَّبًا إلى خلق الله، لما وهبه الله من خصال الخير، وفضائل الإيمان، ومكارم الأخلاق..

كان سهلًا سمحا باسم الثغر، حييًّا متواضعًا، لين الجانب، رفيقًا رقيقًا مع القريب والبعيد، والكبير والصغير، والمسلم وغير المسلم، كأنما اقتبس ذلك من أخلاق النبوة

التي أثنى الله على صاحبها بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

يقول المصريون في مثله: يوضع على الجرح فيبرد! كأنما هو مرهم أو ترياق. ومع هذا لم يكن يفرّط في حق، أو يداهن في باطل؛ بل كان متمسكًا بالعروة الوثقى لا انفصام لها، علمًا وعملًا، وإيمانًا وسلوكًا، وغيرة وجهادًا.

في معتقل الطور سنة ١٩٤٩

كان معنا في معتقل الطور سنة ١٩٤٩م، واتفق الإخوان المعتقلون على أن يولوه قيادتهم في المعتقل، بعد استدعاء الأستاذ البهي الخولي للتحقيق معه، امتثالًا للحديث النبوي: «إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم»،[1] ولكنه سرعان ما استدعي هو الآخر، واختار المعتقلون بعدها الشيخ الغزالي وهو في ريعان شبابه.

في سجون عبد الناصر

عمل مع المرشد الأول حسن البنا، ثم عمل مع المرشد الثاني حسن الهضيبي، فلما اصطدمت الثورة بالإخوان أو اصطدم الإخوان بالثورة، كان عضوًا بمكتب الإرشاد العام للجماعة، فقُدّم للمحاكمة مع من قُدّموا من قيادات الإخوان، وقد حكم عليه بخمسة عشر عاما سجنًا مع الأشغال الشاقة، هو والعالم الأزهري الكبير الشيخ أحمد شريت رحمهما الله تعالى.

قيادة التلمساني للجماعة في عهد السادات

وبعد أن قضى مدة سجنه، خرج ليتولى قيادة الجماعة في عهد السادات، بحكمته ورفقه وأناته وحِلمه، وحُسن سياسته، وتأتيه للأمور، في غير عنف ولا إحراج. وأصدر «مجلة الدعوة» الشهرية من جديد، ليرأس تحريرها، ويكتب فيها مقالا أو أكثر كل شهر.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٨٥) عن ابن مسعود. ورواه أبو داود والطبراني عن أبي هريرة بصيغة مقاربة.

وكان بحلمه وسماحته ورقته يحلُّ كثيرًا من المشكلات المعقَّدة التي تصعب على كثيرين، أن يحلوها بطريق الشدة والقوة، وعرض العضلات.

بين التلمساني والسادات

وقد اجتمع مرة مع الرئيس السادات ممثلًا لدعوة الإخوان، التي اعترف بها واقعًا وفعلًا، وإن لم يعترف بها رسميًّا وقانونًا، وقد ذكر السادات عنه شيئًا، فقال له: ليس لي إلا أن أشكوك إلى الله.. فإن الإنسان إذا ظلمه شخص عادي، شكاه إلى الحاكم، فإذا ظلمه الحاكم نفسه لم يكن له إلا أن يشكو إلى الله!

وهنا قال له السادات: لا تشكني إليه، فإني أخافه سبحانه، وأعرف قدره، ولا قِبَل لي به جلَّ جلاله!

قال التلمساني: ولكني أشكوك إلى ربٍّ عادل، لا يظلم مثقال ذرة، ولا يخاف أحد عنده ظلما ولا هضما!

قال السادات: ومع ذلك أنا أخافه ولا أدعي العصمة.

زيارة التلمساني لي في قطر

وقد سعدت بزيارته لنا في قطر، واستقباله في منزلي، أول ما تولَّى منصبه، وقد التقى عددًا من الإخوان الذين يعملون في قطر، وإن كان منهم من لم يعد له صلة بالتنظيم الإخواني، بل هو من الإخوان بحكم النشأة والولاء، وأذكر من الموجودين: عبد البديع صقر، وعز الدين إبراهيم، وكمال ناجي، وعلي جمّاز، وعبد اللطيف زايد، وآخرين.

وكان الأستاذ عمر الأميري بالدوحة، فالتقى العُمران رحمهما الله.

لقاءاتي المتكررة بالتلمساني

ولقيته أكثر من مرة في اجتماعات مجلس الشورى العالمي، أيام البحبحة، والسماح لقادة الإخوان بالسفر إلى الخارج، كما التقيته في القاهرة في دار الإخوان بالتوفيقية، وفي

أحفال كبيرة يقيمها الإخوان بمناسبات شتى كالمولد النبوي، والهجرة النبوية، وغيرها. وحين قرر إعادة إصدار «مجلة الدعوة» الشهرية، رأس تحريرها، ودعاني إلى الكتابة فيها، فكتبت فيها عدّة مقالات عن شمول الإسلام، وعن الجهاد، وعن شرح بعض الأصول العشرين، كما نشرت فيها كتابي «ثقافة الداعية» على حلقات..

وقد انتشرت الدعوة في عهده في مصر وفي خارج مصر، فقد أثبت الواقع الذي تعيشه الأمة أنه لا خلاص لها إلا بالعودة إلى الإسلام الحقيقي، بتوازنه وتكامله وتسامحه، وأن دعوة الإخوان هي أقرب الدعوات المعروضة في الساحة إلى الإسلام الحق، وإلى المنهج الوسط الذي لا ينحاز إلى اليمين أو اليسار، ولا يميل إلى الإفراط أو التفريط.

وكان معتدًّا بقيادة الإمام حسن البنا مؤسّس الجماعة ويسميه «الملهَم الموهوب».

إيثاره السهولة والسماحة

كما كان يؤثر السهولة والسماحة في كل شيء، ولا يميل إلى التفلسف والتنظير وما إلى ذلك من تعقيدات أهل الفكر، ومُجادلي التيارات المخالفة.

قيل له يومًا: لا بدّ لنا من خطة إستراتيجية، تستلهم الماضي، وتعايش الحاضر، وتستشرف المستقبل.

فقال: لا أرى أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى هذا كله. هل يحتاج قولك للناس: اتقوا الله واعملوا بإسلامكم إلى إستراتيجية وخطة مستقبلية... إلخ؟!

قلت له: يا فضيلة الأستاذ نحن لسنا مجرَّد وعَّاظ نذكر الناس بالله، والدار الآخرة، نحن مع ذلك دعاة إصلاح للأمة، وتجديد للدين، ولنا أهداف كبيرة، نريد الوصول إليها، وهذه الأهداف تحتاج إلى وسائل متنوِّعة وإلى مراحل محددة، تسلم كل مرحلة إلى الأخرى.. كما علينا أن نحدِّد المفاهيم التي تلتبس على الناس، ونرد الشبهات التي يثيرها خصوم الإسلام، ونضع المفاهيم العلمية والدعوية والتربوية وغيرها اللازمة للنهوض بالأمة، والسير بالجماعة إلى الطريق الأقوم، والسبيل الأوضح.

وهنا قال: أدعو الله يا شيخ يوسف أن يوفقكم فيما تصبون إليه.

محاولة إقناعي بتولّي منصب المرشد العام

ومما أذكره هنا: أن فئة من الإخوان القدامى ـ حين مرض الأستاذ التلمساني ودخل المستشفى ـ اجتمعوا في بيت أحدهم وأظنه بيت القيادي الإخواني الكبير الأستاذ فريد عبد الخالق حفظه الله، وقرروا أمرًا، ثم أرسلوا بعضهم ليعلموني به، وكنت في القاهرة يومئذ، ولا أذكر من هؤلاء الإخوة الذين زاروني في بيتي في مدينة نصر، إلا الأخ الكريم القديم الذي أصابه ما أصابه من بلاء في سبيل الدعوة، وهو الناشر الإسلامي المعروف الحاج وهبة حسن وهبة صاحب «مكتبة وهبة» الشهيرة، رحمه الله. وكان الذي قرَّروه أن أقبل تولي منصب المرشد العام بعد الأستاذ التلمساني، وأن عليهم هم أن يقنعوا الإخوان بذلك، وإن كانوا يعتقدون أن القواعد الإخوانية كلها ترحّب بذلك.

إشارتي بتولية هذا المنصب لشيخنا الغزالي

ولكنّي فاجأت الإخوة برأي آخر، لم يخطر على بال أحدهم، وهو أني قلت لهم: هل لكم فيمن هو خير مني فضلًا وسَبْقًا في الدعوة وبلاء في خدمة الإسلام، وهو الآن لسان الإسلام الصادق، وقلم القرآن الناطق، وحارس الدعوة السابق؟

قالوا: من تعني؟

قلت: أعني شيخنا محمد الغزالي، فهو ـ والله ـ أحق مني، وهو لها وأهلها، وأنا مستعدّ أن أكون عونًا له، أشدّ عضده، وأسند ظهره.

وقلت لهم: أنا مستعد أن أكلِّمَ أستاذنا الكبير فريد عبد الخالق، وأقنعه بهذه الفكرة..

وفعلت، واتصلت بالأستاذ فريد هاتفيًّا، وأخبرته برأيي، واقتناعي به، وإصراري عليه، فوافقني على رأيي، وقال:

نِعْمَ الرأي ما أشرت به، وهذا يزيد قدْرك في نظر إخوانك، فكم من الناس يركض ركضًا وراء هذا المنصب، ومن يلهث لهثًا للحصول عليه، وأنت تؤثر غيرك به.

قلت له: والله لا أفعل ذلك تواضعًا، بل أراه في صالح الدعوة، وفي مصلحة الإسلام العليا.

وقال: علينا أن نروِّج لهذه الفكرة وسط الإخوان، وننادي بها، وندلِّل على صوابها، وبالله التوفيق.

وتركتهم وسافرت إلى الدوحة، واستمرَّ مرض الأستاذ التلمساني فترة..

عدم قبول قيادات الإخوان ترشيح الغزالي

ويبدو أن ترشيح الشيخ الغزالي لم يلق القبول، وخصوصًا من قيادات الإخوان، لما حدث أيام الخلاف مع عبد الناصر، ولما تركه خلافه مع الأستاذ الهضيبي من رشحات على أنفس الإخوان وعقولها، مع أن الأستاذ فريد كان أوْلى الناس أن يتأثَّر بها، لما بينه وبين الأستاذ الهضيبي من وشائج قويّة، ولكنه جعل مصلحة الدعوة فوق كل اعتبار.

رحم الله الأستاذ التلمساني، ورحم الله الشيخ الغزالي، وشكر الله للإخوة أصحاب الاقتراح، وجزى الله الجميع خيرًا.

ملتقى الفكر الإسلامي العشرون ١٩٨٦م في مدينة «سطيف» عن الإسلام والعلوم الإنسانية

زيارة جامعة الأمير عبد القادر

لم أحضر ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر الذي عقد في بجاية سنة ١٩٨٥م بسبب رحلتي العلاجية إلى ألمانيا، ولكني عوّضت ذلك بالاستجابة لدعوة في أثناء العام الدراسي، في فصل الشتاء لزيارة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في مدينة قسنطينة، والتي كان شيخنا الغزالي يعمل مستشارًا علميًّا لها، ويرأس مجلسها العلمي، وكان مديرها صديقنا الأستاذ الدكتور عمار الطالبي أستاذ الفلسفة الإسلامية الذي عرفناه في ملتقيات الفكر السابقة، وقد بلغني أن الجوَّ بينه وبين الشيخ الغزالي ليس على ما يرام، وأنا أكره هذه الأجواء التي يسود فيها الخلاف، وتكثر فيها الدسائس والوشايات، ولا سيما في الجوِّ الإسلامي.

ولكن من حُسن حظي، حين استجبت للدعوة، وذهبت إلى الجزائر العاصمة، ومنها إلى مدينة قسنطينة التي تحتضن الجامعة، كان الدكتور الطالبي قد نُقل منها، وانتدب لإدارتها أحد الأساتذة، هو الدكتور نور الدين.

ومن المصادفات الغريبة: أني وجدت الدراسة في الجامعة شبه معطلة، لأن الطلاب مضربون عن الدراسة، لأن لهم مطالب من الجامعة، أو من الدولة لم تتحقق، ومع هذا ألقيت عددًا من المحاضرات تَدَاعى إليها الطلاب وحرصوا على حضورها، على رغم إضرابهم.

القناعة بالقليل

كان الشيخ الغزالي موجودًا في قسنطينة في ذلك الوقت، وقد أنزلوني في منزل قريب من منزله من بيوت الجامعة، وتعهّدوا بأن يقوموا بكل ما أحتاج إليه من طعام وشراب، وأنا ـ ولله الحمد ـ رجل قليل الحاجات، قليل الطلبات، لا أكلّف مُضيّفي ما يرهقه أو يزعجه، وقد نشأت في بيئة ريفية تقنع بالقليل، وتعودت على التقشف في السجون والمعتقلات. ولا غرو أن أصحابي هنا لم يضيقوا بي ذرعًا، بل كانوا يُلحُّون عليَّ: ألا تحتاج شيئا؟ ألا تريد مزيدًا من الطعام؟ ألا تريد؟... ألا تريد؟... وأنا حقيقة لا أريد شيئًا. وقد قالوا قديما: القناعة كنز لا يفنى. وفي الحديث الشريف: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[1].

ويقول أبو فراس الحمداني:

إن الغني هو الغني بنفسه ... ولوَ انّه عاري المناكب حافي

ما كل ما فوق البسيطة كافيا ... وإذا قنعت فبعض شيء كافي

بقيت أيامًا في قسنطينة التقيت فيها الطلاب في محاضرات عامة، والتقيت بعضهم في لقاءات خاصة، والتقيت إدارة الجامعة وعددًا من أساتذتها. وسعدت سعادة خاصة بلقاء الشيخ الغزالي، الذي أتقرَّب إلى الله تعالى بحبه والقرب منه، وما لقيته قط إلا استفدت منه.

وبعد أيامي في قسنطينة: عدت إلى العاصمة الجزائر بالطائرة، ولقيت إخواننا في وزارة الشؤون الدينية، وسلّمت عليهم، وودَّعتهم، مؤكِّدين على أن أكون معهم في ملتقى الفكر القادم في الصيف إن شاء الله.

السفر لحضور الملتقى وما حدث فيه من مفاجآت

حرصت على حضور ملتقى الفكر الإسلامي العشرين المقرَّر عقده في مدينة سطيف بالجزائر، وكان موعده في الصيف كما هو المعتاد.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، عن أبي هريرة.

ولا أدري: لماذا لم أحجز لنفسي مبكرًا من القاهرة ـ التي أقيم فيها في الصيف عادة ـ على الطائرة الجزائرية، فقد تسبَّب تأخّري في الحجز: أني لم أجد لي مقعدا في الطائرة الجزائرية في الوقت المطلوب.

ومما يؤسف له أن المواصلات ـ في ذلك الوقت ـ بين المشرق العربي والمغرب العربي بصفة عامة، لم تكن كافية، ولا مؤدية للغرض، فكل ما بين القاهرة والجزائر: رحلات أسبوعية قليلة، ليست في كل الأيام، وإذا أردنا الوصول إلى الجزائر في غير ذلك، فلا بد أن يكون عن طريق أوربا. هذا ما بين القاهرة والجزائر، أما ما بين قطر والجزائر، أو بلاد الخليج والجزائر، فلا يوجد طريق مباشر قط، على خلاف ما عليه الحال اليوم.

محاولة الوصول إلى الجزائر عن طريق جنيف بسويسرا

وعلى هذا، بدأت أفكر في الوصول إلى الجزائر عن طريق أوربا، وقد وجدت رحلة عن طريق جنيف بسويسرا. أمتطي الطائرة المصرية التي تقوم في الصباح، لتصل إلى جنيف، ومن جنيف أركب الطائرة السويسرية إلى الجزائر، فأصل الجزائر قبل المغرب بساعتين أو أكثر.

وقد أرسلت إلى الإخوة المسؤولين عن الملتقى في الجزائر بموعد وصولي والطائرة التي سأصل عليها ورقم الرحلة، وما إلى ذلك، وهيَّئوا أنفسهم لاستقبالي.

وفي اليوم المحدّد، ذهبت إلى مطار القاهرة متوكلًا على الله، وركبت الطائرة المصرية المتجهة إلى جنيف، وقالوا لنا: اربطوا الأحزمة، وتهيئوا لإقلاع الطائرة، ودعونا بأدعية السفر المأثورة، واستعددنا للإقلاع. ولكن الطائرة لم تقلع. حدثت فترة من الصمت، ثم تأسفوا وطلبوا منا النزول، لخلل فني بالطائرة، سيتم إصلاحه عن قريب، ونزلت مع من نزل، وأنا في قلق يتزايد لحظة بعد أخرى، وبدأ «قلبي يأكلني»، كما يعبّر المصريون عن حالة القلق. ولا أدري كيف يأكل القلب صاحبه!

إذا تأخرت الطائرة ساعة أو ساعتين فلا حرج، يمكنني أن أدرك الطائرة بجنيف، أما أكثر من ذلك، فقد ضاعت الرحلة، وهيهات أن أعوضها.

قلت ذلك لمدير المحطة المصرية بالمطار، وقلت له: إذا تأخّرت الطائرة سأقع في مشكلة لا حل لها. قال: سنجتهد في إصلاح الطائرة بأقصى سرعة.

ومرت ساعتان وأكثر، ولم تصلح الطائرة، وهنا ثرت على مسؤولي الطائرة المصرية، قلت لهم: ماذا أفعل الآن، وأنا ذاهب إلى الجزائر؟ إذا فاتتني الطائرة السويسرية الذاهبة إلى الجزائر، فقد فقدت أي ضمان لوصولي إلى الجزائر، ونحن في فصل الصيف والطائرات مليئة بركابها، ومن المتعسِّر ـ بل من المتعذر ـ أن تجد مكانًا في طائرة. وأُسقِط في يدي الرجل، وعجز عن عمل أي شيء.. ولما علا صوتي واشتدّ احتجاجي، أوصلني إلى رئيسه الذي اعتذر إليّ بلطف، وحاول أن يهدئ من ثائرتي، ويقول: سنفعل كل ما في وسعنا لراحتك. وللأسف لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا، كل الطائرات المسافرة إلى أوربا قد أقلعت، وحتى لو وجدنا طائرة متجهة إلى أوربا، كيف أصل من أوربا إلى الجزائر؟

التسليم للأمر الواقع والرضا بقضاء الله

ولم أجد بدًّا من التسليم للأمر الواقع، والرضا بقضاء الله وقدره. فما يغني الغضب ولا الضجر ولا القلق شيئًا، لا يسعفنا في هذه الحالة إلا أن نقول: قدَّر الله وما شاء فعل. إنَّ التسليم لقدر الله والرضا به في هذا المقام يريح المؤمنين الذين يقولون: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ (التوبة:٥١).

وبدون ذلك يتعب الإنسان كثيرًا، ويغلي من داخله، وكل ذلك على حساب صحته الجسمية والنفسية، وإن لم يغيِّر من الواقع كثيرًا أو قليلًا.

قال الرئيس المسؤول عن الطائرة المصرية: سنوفِّر لك أقصى ما يكون من الراحة والطعام والشراب حتى تصلح الطائرة، ونحن نأسف كل الأسف لما حدث، وهو ليس بأيدينا.

قلت له: لا بد أن تكون لديكم بدائل في مثل هذا الموقف، وإلا عرّضتم مصالح الناس للضياع. قال: هذا صحيح، ولكن دون ذلك عقبات وعقبات لا تخفى على مثلك. ونرجو أن تقدّر موقفنا وضعف إمكاناتنا.

وظللت على أحرّ من الجمر طول النهار، حتى جاء المسؤول في المساء: يقول لي: إن الطائرة ستقلع إلى سويسرا في الساعة الثامنة مساء، ولكنها ستذهب إلى «زيورخ» وليس إلى «جنيف». قلت: ولكن تذكرتي إلى جنيف، ومنها سأبدأ المحاولات غير المضمونة للوصول إلى الجزائر. قال: علينا أن نوصلك إلى جنيف، إن شئت بالباص فورًا، وإن شئت بالطائرة صباحًا.

قلت: أبعد هذا الانتظار، أركب الباص من زيورخ إلى جنيف لعدة ساعات؟ أَكُتِب عليّ الشقاء لأعاني هذا كله؟

قال: نحن آسفون، سنوفّر لك فندقا قريبًا من المطار، وفي الصباح الباكر، تذهب إلى جنيف، وسيكون مندوبنا في انتظارك في مطار زيورخ ليساعدك، ويسهِّل عليك ما تريد، وآسفون مرة أخرى.

وهنا لا نملك إلا أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. والمسلمون يقولون في مثل هذا المقام: لعله خير. كل تأخيرة وفيها خيرة! ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ (البقرة:٢١٦). كل هذا ليُرضِّي الإنسان نفسه بالواقع، وإن كان مرًّا. وقد قال العرب: من غضب على الدهر طال غضبه! لأن وقائع الدهر ومفاجآته لا تنتهي.

الوصول إلى مطار زيورخ

وركبت الطائرة، وانتهت بنا إلى زيورخ، وصلت في منتصف الليل حوالي الثانية عشرة ليلاً. وفي المطار لم أجد مندوب المصرية ولا أي أحد ينتظرني، كما قيل. وهذا مما نحزن له أبلغ الحزن في بلادنا: أن نقول فلا نصدق، ونعد فلا نفي.

ولكن مندوب السويسرية أخذني إلى فندق قريب من المطار، وأنزلني فيه لأستعدّ من الفجر لأخذ الطائرة التي تذهب إلى جنيف. وكانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل.

حرارة شديدة وقشعريرة تهزُّ جسدي

وتركني الرجل وقد بلغ بي الإرهاق والإعياء أشده، وشعرت بحرارة شديدة تنتابني، وبقشعريرة تهزّ جسدي، ولم أحتط لنفسي، فأحمل بعض حبات «البنَدول» أو «الأسبرين» أو نحوها، أو بعض فيتامين سي الفوار أو غيرها. ولا أعرف كيف أتصل بالفندق وأشرح له ما عندي. وهذه مشكلة لامني عليها كثيرون: أني أسافر وحدي بلا رفيق، مع شدّة حاجتي أحيانًا إليه ليساعدني في الملمّات، ويكون ترجمانًا بيني وبين الآخرين.

الوصول إلى جنيف

فصبرت على ما أصابني، وفوَّضت لله أمري حتى الصباح، ولم يبق إلا ساعات قلائل، لا أدري: لعلي نمت قليلا. وعند الفجر قمت فصلّيت، وأديت فرض ربي. وما هي إلا دقائق حتى دقّ الباب، وجاءوا ليأخذوني إلى الطائرة المسافرة إلى جنيف، وفي أقل من ساعة استغرقتها الرحلة، وصلت الطائرة إلى جنيف حوالي السابعة صباحا.

في دار المال الإسلامي بجنيف

وكان معي تأشيرة إلى جنيف، حيث كنت أتردَّد عليها كثيرًا في اجتماعات هيئة الرقابة الشرعية لمؤسسة «دار المال الإسلامي» ومقر إدارتها جنيف. والعمارة التي تملكها الدار، وتقيم فيها إدارتها قريبة جدًّا من المطار، يراها المرء من المطار بلونها الأزرق. وقد عزمت على أن أذهب من المطار إليها، لأستعين بالإخوة المسؤولين هناك على تذليل العقبات في مسألة الحجز إلى الجزائر.

أخذت سيارة أجرة «تاكسي» من المطار إلى مبنى الدار، ونزلت هناك حوالي السابعة والنصف صباحًا، وبالطبع لم أجد أحدًا. فالدوام لم يبدأ بعد. ومضت مدة قليلة، ثم بدأ الموظفون يجيئون، وفوجئوا بي فرحَّبوا، وأبدوا استعدادهم للمعاونة بكل سبيل. وفرّغوا لي موظفًا، يبحث عن الخطوط التي تصل إلى الجزائر. ولكنهم للأسف لم يجدوا فيها مقعدًا واحدًا، وهذا شأن هذا الوقت من كل عام.

محاولة السفر إلى الجزائر

وكانت هناك طائرة تذهب إلى الجزائر مباشرة من جنيف، وهي مليئة، ولكن قالوا لي: اذهب إلى المطار، لعل راكبًا يتخلّف في آخر لحظة، فتكون فرصة. والغريق يتعلّق بقشة كما يقولون، فذهبت إلى المطار تعلقًا بهذا السراب، ولم يتخلَّف أحد.

كل هذا، والإخوة في الجزائر قد انتظروني بالمطار في الموعد المضروب، ولم يجدوني، ولم أعتذر، ولا يعرفون عني شيئًا، وأهلي في مصر يظنون أني قد وصلت إلى الجزائر. وأنا لم أتصل بأحد، لأني لا أعلم متى أصل، ولا كيف أصل. ليس عندي معلومة أعطيها لأحد.

الطريق إلى الجزائر

وما زال الإخوة في دار المال الإسلامي يبحثون، حتى وجدوا طريقًا من عدّة وصلات: أسافر إلى زيورخ، ومنها إلى نيس في فرنسا، وأبقى حوالي أربع ساعات، ومنها إلى الجزائر، ورغم المشقة في الرحلة، لم يكن لي بد من قبولها، والمضطر يركب الصعب كما يقول المثل. وكما يقول الشاعر:

إذا لم يكن إلا الأسنةَ مركب   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وبعد تغيير التذكرة أخذت الطائرة من جنيف إلى زيورخ، ومن زيورخ أخذت طائرة أخرى إلى نيس، وفي مطارها بقيت أربع ساعات مرت طويلة بطيئة، لا تكاد عقارب الساعة فيها تتحرك.

قراءة بعض سور القرآن من حفظي

وقد اعتدت في الساعات الطويلة التي أتوقف فيها في المطارات: أن أخرج قلمي وورقي وأكتب، فلا أكاد أحس بالوقت، ولكن من فرط الإعياء الذي حلّ بي من الناحية الجسمية والنفسية، لم يكن عندي قابلية للكتابة. كل ما أستطيع أن أفعله أن أشغل نفسي بقراءة بعض القرآن من حفظي.. والحمد لله، لم أزل قادرًا على أن أتلو سورًا

وأجزاء كاملة بدون الحاجة إلى مصحف، ومن غير أن يضيع مني حرف واحد، وهذا بفضل الله تعالى، ثم بفضل الحفظ في الصغر، فهو كالنقش على الحجر، كما قالوا.

في مطار العاصمة الجزائرية

وعندما جاءت الطائرة الذاهبة إلى الجزائر، ولا أذكر: أكانت جزائرية أم فرنسية، استقللتها حتى حطَّت بسلامة الله إلى العاصمة الجزائرية، قبل الفجر بنحو ساعتين. وبالطبع لم أجد أحدًا ينتظرني، إذ لا علم لأحد بحضوري. لكن المسؤولين عن المطار رحّبوا بي وأحسنوا استقبالي، وأجلسوني في حجرة عندهم وقدّموا لي الشاي والمشروبات المختلفة، حتى أذّن الفجر فصليت، وانتظرت حتى أشرقت الشمس، وبدأ الناس يذهبون إلى وزاراتهم ودوائرهم ليمارسوا أعمالهم اليومية.

وهناك اتصل مسؤولو المطار بالمسؤولين في وزارة الشؤون الدينية، يعلمونهم بوجودي، وسرعان ما أقبل الإخوة من الوزارة، وتأسفوا غاية الأسف أن لم يكن أحد في استقبالي، وعذرهم أنهم لم يكونوا يعرفون أي معلومات عني. ولا يعلمون: لماذا تخلّفت عن طائرتي الأولى؟ ولا على أيِّ طائرة سآتي بعدها. وقلت لهم: لا عَتْبَ عليكم، ولا عَتْب عليّ أيضًا، فهو أمر قدره الله، وما قدره لا بد أن ينفذ.

استراحة في فندق الأوراسي

قالوا: إن السيد الوزير، ومعه المدعوون والمشاركون في الملتقى، قد استقلّوا الطائرة الخاصة على ما هو معتاد مساء أمس، إلى مدينة سطيف لتبدأ أعمال الملتقى من صباح اليوم. والمطلوب الآن: أن تستريح في الفندق لبضع ساعات، حتى تُعوِّض معاناة الأمس، ثم نُهيئ لك سيارة مناسبة تأخذك إلى سطيف، لتلحق بإخوانك هناك.

قلت: على بركة الله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤).

واسترحت قليلا في فندق الأوراسي الذي اعتدت على النزول به، وإن كنت في

مثل هذه الأحوال لا أستطيع التعمق في النوم، ككثير من إخواني الذين أغبطهم على سهولة نومهم، فبمجرد أن يضعوا رؤوسهم على وسائدهم يغطّون في نوم عميق. أما أنا فحديثُ النوم معي ذو شجون، ولله في خلقه شؤون.

رحلة بالسيارة إلى سطيف مع رشيد بن عيسى

وبعد أن صلّيت الظهر والعصر جمع تقديم، وأظنُّ أني تغديت غداء خفيفا، جيء بالسيارة التي ستقلّني إلى مدينة الملتقى (سطيف).

وما إن ركبت السيارة حتى جيء برفيق لي سيصحبني في الطريق الطويل الذي يستغرق أربع ساعات. قلت: الرفيق عون على تقريب الطريق، ولا سيما إذا كان متوافقا مع صاحبه.

قالوا: إنه الدكتور رشيد بن عيسى، من تلاميذ مالك بن نبي، وأنت تعرفه، وهو يعرفك.

قلت لهم: نعم عرفته والتقيته أكثر من مرة في أمريكا.

وكان الذي حدثني عن رشيد بن عيسى قبل أن ألقاه صديقنا الحبيب الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله، الذي كان معنيًّا بالبحث عن كلِّ كفاية وكل شخصية تستطيع أن يكون لها دور في خدمة الإسلام، وخصوصًا الجانب الفكري والثقافي. وهو الذي عرَّفني بالأخوين الكريمين: الأستاذ طارق البشري حفظه الله، والأستاذ عادل حسين رحمه الله.

وحين لقيت رشيدًا في بعض مؤتمرات اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا: سررت به وبثقافته، وبعقله النقدي، وتفكيره الإيجابي.

ولكني فوجئت منه في هذه الرحلة بما لم يكن في الحسبان، ولم يخطر لي على بال. لقد كنت أعلم أن ابن عيسى كان مُعجبًا بالإمام الخميني وبثورته، وبما حقَّقه إخواننا في إيران من منجزات... وهذا ما لا ننكره عليه، بل هو ما نشاركه فيه. ولقد وقفنا مع

الثورة الإسلامية وأيّدناها من أول يوم، بل كنا معها من قبل أن تنجح، لأننا مع كل حركة تقاوم الطغيان، وتنادي بالحرية، فكيف إذا كانت تنادي بالحرية مع الإسلام؟!!

هجوم رشيد بن عيسى على المذاهب السنيّة ومعتقداتها

وجدت رشيد بن عيسى لا يقف عند حدٍّ الإعجاب بالثورة وإمامها ومنجزاتها، ولكنه تعدى ذلك إلى الإعجاب بالمذهب الشيعي، وليته وقف عند ذلك، بل شن هجوما قاسيا على المذاهب السنية ومعتقداتها وأئمتها. هذا ما سمعته بأذني، ولمسته بيدي في هذه الرحلة.

ولأبدأ القصة من أولها.

حين التقينا تصافحنا وتعانقنا، ورحَّب بي ورحَّبت به. وما أن انتهيت من أدعية السفر، واستعذنا بالله من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد، وسألنا الله أن يكتب لنا في سفرنا هذا البرَّ والتقوى ومن العمل ما يرضى: حتى بدأ الأخ ابن عيسى في تسويق فكره الجديد، أو الدعوة إلى مذهبه الجديد، وكأنما كان يحسبني صيدا سهلا، يلقي علي شباكه، فإذا أنا حبيس داخلها!

بدأ حديثه معي بقوله: أترى هذه «التعليقة» المعلقة أمام السائق؟ قلت: نعم أراها. قال: ما تعليقك عليها؟ قلت: إنها في اعتقاد العوام «تعويذة» تقيهم من «العين» عين الحاسدين، ويسمُّونها في مصر «خمسة وخميسة»، لأنها تشير إلى خمسة أصابع. وكأنهم يقولون هذه الأصابع الخمسة في عين الحسود!

قال: أما أنا فأرى أنها تشير إلى الخمسة «أصحاب الكساء»، وهم الرسول وعلي وفاطمة والحسن والحسين.

قلت: ما أظنّ هذا خطر ببال الذين وضعوا هذه التعاويذ وأمثالها مما يعلق في السيارات، فمنهم من يعلق مسبحة، ومنهم من يعلق آية قرآنية، كآية الكرسي، ومنهم من يعلق بعض الأذكار، مثل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهي الباقيات الصالحات.

قال: هؤلاء الخمسة هم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣).

سياق آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾

قلت: هؤلاء الخمسة على عيني ورأسي، وإنَّ حبهم من دلائل الإيمان، وبغضهم من دلائل النفاق، وإني أتقرَّب إلى الله بحبهم جميعا.. ولكن الآية لم تنزل فيهم، ومن قرأ الآية وتدبَّرها في ضَوْء سياقها وما لحقها: يستيقن أنها في نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فكل الآيات قبلها خطاب لنساء النبي: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٠ ـ ٣٣)، فهذا لا شك في أنه خطاب لنساء النبيّ، يؤكده بقية السياق، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٤). وقد كان عكرمة مولى ابن عباس يقول: من شاء باهلته: أنها في نساء النبي، وليس كما يقولون!

دعوى مخالفة عمر للنصوص

قال ـ منتقلًا من الموضوع إلى غيره ـ: إنك ذكرت في كتابك فتاوى معاصرة: أن عمر ابن الخطاب كان لا يعرف حكم التيمُّم، لولا أن عرَّفه بعض الصحابة بما ورد فيه مَن نصوص، والعجيب أنك قلت: إن هذا كان اجتهادًا منه أخطأ فيه، وهو مأجور على اجتهاده!

قلت: هو مأجور على اجتهاده أجر المجتهد إذا أخطأ، وهذه من روائع الإسلام: أن يثيب المجتهد المخطئ تشجيعًا للاجتهاد. ولكنه يعطيه نصف أجر المجتهد المصيب.

قال: ولكن هذا أمرٌ بَدَهيّ من أوَّليات الإسلام التي لا يجوز أن تُجهل، فكيف يُثاب من جهلها، ويأخذ أجرًا على جهله؟

قلت: لكي نكون منصفين في تقديرنا للأشخاص، وتقويمنا للوقائع: يجب أن نضعها في إطارها الزمني. ففي ذلك الوقت لم يكن الحكم بالوضوح البيِّن لنا اليوم.

قال: ليس هذا أول حكم خالف فيه عمر النصوص.

قلت: كان من الأوصاف التي مُدح بها عمر: أنه كان وقّافًا عند كتاب الله. ولقد ردّت عليه امرأة ـ وهو على المنبر ـ بآية من كتاب الله، فلم يسعه إلا أن يقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر. وكل ما ادَّعوه على الفاروق رضي الله عنه، من دعاوى تجاوز النصوص: مردود عليها من العلماء الراسخين.

قال: مثل مَن؟

قلت: مثل العلامة الشيخ محمد المدني الذي نشر جملة مقالات قيمة في «مجلة الأزهر» تحت عنوان «نظرات في فقه عمر» فنَّد فيها كل هذه المزاعم الباطلة. وكم أتمنى أن تنشر في كتاب يجمعها[1].

موقف أهل السنة من الصحابة

قال: أنتم ـ أهل السنة ـ تقدِّسون الصحابة، وإن كانت أخطاؤهم مكشوفة للعيان.

قلت: نحن أهل السنة لا نقدِّس الصحابة، ولا ندَّعي عصمتهم، ولكنا نحبهم ونُجلّهم ونكرِّمهم، لأنَّ الله في كتابه كرَّمهم وعظَّم منزلتهم في سورة التوبة، وفي أواخر سورة الأنفال، وفي أواسط سورة الفتح، وفي آخرها، وفي سورة الحشر، وفي غيرها... ويكفي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ (التوبة:١٠٠)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) وقد نشرت في دار القلم بالكويت.

ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (الأنفال:٧٤)، وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ (الفتح:١٨)، وقوله عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ (الفتح:٢٩). وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الحديد: ١٠). بالإضافة إلى قوله سبحانه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦).

الثناء على الصحابة في الأحاديث النبوية

أضف إلى هذه الآيات القرآنية: ما صحَّ في الثناء عليهم، والتنويه بفضلهم، من الأحاديث الشريفة النبوية، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[1]، وقد استفاض هذا عن عدد من الصحابة.

والحديث المتفق عليه: «لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[2].

ثم ما جاء في أحاديث صحاح تنوِّه بفضل جماعة منهم، مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر العشرة المبشَّرين بالجنة، ومنهم طلحة والزبير، وآخرون مثل: ابن مسعود وابن عباس وأبي ذر وعمار وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأسامة بن زيد، وغيرهم.

أدلة عقلية على فضل الصحابة

ولو لم تجئ النصوص بفضلهم لقضى العقلُ بذلك، فهم الذين حملوا راية الإسلام

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥) عن عمران بن حصين.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٧٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري.

من أول يوم، وتحمَّلوا الأذى في سبيله، وبذلوا من أجله الأنفس والأموال، وأخرجوا من ديارهم من أجله، ونصروا الله ورسوله، ودافعوا عنه بكل ما يملكون.

وهم الذين نقلوا إلينا القرآن الكريم، فعنهم تلقَّينا هذا القرآن، نقله عنهم أصحابهم من التابعين، وعنهم نقله الأتباع، حتى وصل إلينا عن طريق التواتر اليقيني جيلا بعد جيل.

وهم الذين رووا لنا الأحاديث النبوية، والسنة المحمدية: القولية والفعلية والتقريرية.

وهم الذين فتحوا الفتوح، ونشروا الإسلام في آفاق العالم، ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام.

ثم هم تلاميذ المدرسة المحمَّدية، الذين تربوا على مائدتها، واقتبسوا مباشرة من نورها، فهم أقرب الناس إلى رسول الله، وألصقهم به، وأكثرهم فهما لما جاء به، وعملا بأحكامه وتعاليمه، فمن طعن في هؤلاء التلاميذ الصادقين، فكأنما طعن في أستاذهم ومعلمهم.

وهكذا استطردت في الكلام عن الصحابة، لما أعرفه من حقد كثير من الشيعة عليهم، وأنهم يتعبَّدون لله بسبّهم، وقد بدا ذلك من رشيد بن عيسى، من أول الحديث، لم يستطع أن يكتمه. ونحن مع حبنا للصحابة: نحب آل البيت معهم ونكرمهم ونعظمهم؛ ونرى أن هذا فرع محبتنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إن كثيرًا منهم صحابة أيضا.

نشأة المذاهب الفقهية

قال ابن عيسى في نقلة أخرى لحديثه: كيف أنشأ أهل السنة مذاهب أربعة أئمتها من العرب والعجم، ولكن لا يوجد فيهم واحد من أئمة أهل البيت، أو ليس هذا غريبا؟

قلت: لا غرابة في ذلك، إذا عرفت كيف نشأت هذه المذاهب، إن أهل السنة لم يجتمعوا في مؤتمر حاشد، ليقولوا: نريد أن ننشئ عددًا من المذاهب: مذهب فلان، ومذهب علان.

الواقع أن أئمة المذاهب لم يريدوا أن يؤسِّسوا مدارس أو مذاهب فقهية يقلدها الناس، ويتّخذونها منهاجًا لحياتهم. إنما كانوا يُدْلون بآرائهم واجتهادهم، ويعلّمونها تلاميذهم، ولا يدَّعون أنها الحق وحدها.. فمنهم من وجد أصحابًا وتلاميذ أقوياء نشروا مذهبه، ووسعوا آفاقه، ومنهم من لم يرزق بذلك، فبقي في الكتب، كما قال الشافعي عن الليث ابن سعد: الليث أفقه من مالك، ولكن أصحابه لم يقوموا به! ومنهم من انتشر مذهبه فترة ثم انقرض، مثل: الأوزاعي، والثوري، والطبري، وغيرهم.

وفي ذلك الوقت ظهر من أئمة أهل البيت: الباقر والصادق وزيد بن علي زين العابدين، وغيرهم، فاتبعهم أناس وقلّدوهم، كما اتبع آخرون مالكًا وأبا حنيفة والشافعي وأحمد.

وتناولنا أمورًا أخرى لم أعد أذكرها... ثم قال الأخ ابن عيسى:

لقد كنت أنتظر لقاءك هذا منذ سنوات، ولكنك صدمتني وخيبت أملي!

قلت: ماذا كان أملك فيَّ: أن أنتقل من التسنُّن إلى التشيُّع، كما فعلت أنت، أو أوافقك على انتقاص الصحابة، وتكوين صورة مظلمة عنهم تخالف القرآن والسنة والتاريخ ومنطق العقل؟!

الحقيقة: أنني أنا الذي فوجئت بموقفك، فقد كنت أعلم أنك معجب بثورة الخميني، وهذا من حقّك، أما أن تنتقل من الإعجاب بالثورة إلى التزام المذهب، فهو الذي يحتاج إلى تساؤل.

التزامي المنهج السنّي عن بيّنة

أما أنا فقد آمنت بالإسلام عن بيّنة، والتزمت المنهج السنّي عن اقتناع.. وأنا لست متعصِّبا لمدرسة واحدة، أو لمذهب واحد في العقيدة أو في الفقه، فآخذ من الأشاعرة، وآخذ من الماتريدية، وآخذ من السلفية، بل لا مانع أن آخذ من المعتزلة: ما أكوِّن به تصورًا صحيحًا عن أصول الإيمان. كما لا أتعصّب لمذهب من مذاهب السنة في الفقه، بل أوازن بينها، وأتخيَّر منها وأدع، وأرجِّح ما أراه أقوى دليلًا، وأهدى سبيلًا، وأقرب إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق.

أخذ هذا النقاش أكثر من ساعة من ساعات الطريق الأربع، التي نحتاج إليها، لنصل إلى سطيف، ثم صمت رفيقي، وصمتّ، طوال الطريق، فلم نكد نتكلم، حتى وصلنا إلى مقصدنا بحمد الله.

كانت هذه السفرة الطويلة الثقيلة، بساعاتها الأربع، وبرفقتها المشاكسة، ومناقشاتها المثيرة: إضافة إلى متاعب الرحلة الغريبة التي كانت مليئة بالمفاجآت، وبرغم هذا كله، وصلنا إلى مدينة سطيف، حيث ينعقد الملتقى، وأنشدنا قول الشاعر:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى ... كما قرّ عينا بالإياب المسافر!

ولكنّا هنا لم نقرّ عينًا بالإياب، بل قررْنَا عينًا بالوصول...

إلى ملتقى الفكر في سطيف

وعند وصولنا إلى «سطيف» ذهبنا إلى الفندق الذي نقيم فيه، وحططنا رحالنا وتركنا حقائبنا في حُجراتنا، ثم انطلقنا إلى الملتقى، الذي كان يمارس نشاطه في جلسته المسائية، وقبل أن أصل إلى القاعة، حتى هرول إليّ الوزير الأستاذ «بو عْلاَم باقي»، وهو من قيادات ثورة التحرير. وكان رجلًا فاضلًا حكيمًا. ومعه كبار المسؤولين في وزارة الشؤون الدينية، وقالوا: كنا في قلق شديد على عدم وصولك في الموعد المحدّد، والأدهى من ذلك أننا لم نعلم عنك أي شيء، فقد انقطعت الأخبار بيننا وبينك.

قلت لهم: لقد حدثت أشياء كثيرة أخّرتني عن موعدي، والحمد لله أني وصلت بعد جهد شديد ومعاناة.

إعلان الفرحة بوصولي

وعندما دخلت القاعة: اشرأبت الأعناق، ورنت الأبصار، وتجاوبت القاعة بهتاف التكبير والتحميد. وفي الاستراحة أقبل الطلاب والطالبات في شوق ولهفة، وكلهم يتساءلون: ماذا جرى؟ ويعلنون فرحتهم بوصولي ومشاركتي. وشكرت الجميع على هذه العواطف الصادقة، وعلى حُسن ظنهم بي، وما أنا إلا جندي من جنود الإسلام،

جنَّده الله للدعوة إلى هذا الدين، وشرح حقائقه، وبيان عقائده وشرائعه، والذود عن حياضه وحرماته. فالحمد لله حمدًا كثيرًا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

الإسلام والعلوم الإنسانية

كان موضوع الملتقى هذه المرة، هو: «الإسلام والعلوم الإنسانية». وهو موضوع له اعتباره وأهميته في التكوين الفكري والثقافي للأمة، لأن العلوم الإنسانية والاجتماعية هي التي تصنع الأفكار والميول والأذواق والاتجاهات العقلية والنفسية والسلوكية، التي تختلف فيها الأمم، ويتمايز بعضها عن بعض.

إن العلوم الكونية المادية: عالمية بطبيعتها، فهي لكل الأمم، ولكل الأديان والثقافات، لا وطن لها، ولا دين خاص بها، بخلاف العلوم الإنسانية والاجتماعية، فهي التي تلوّن ثقافة الأمم، وتميّز فكر بعضها عن بعض.

فإذا كانت العلوم الطبيعية والرياضية، لها أثرها في عالم المادة، وهي التي غيّرت الحياة من حولنا، وقرّبت البعيد، وأنطقت الحديد، وجعلت العالم قرية واحدة، فإنّ العلوم الإنسانية والاجتماعية هي التي تغيّر الإنسان، أو تحاول أن تغيّره، لأن تغيير الجبال والصخور أسهل من تغيير الإنسان: تغيير عقيدته وفكره واتجاهه.

ولقد ألف أحد أقطاب العلم الغربي من الحاصلين على جائزة نوبل في العلوم - وهو الأستاذ ألكسس كاريل - كتابًا سماه: «الإنسان ذلك المجهول» بيَّن فيه: أن الإنسان عرف الكثير من أحوال المادة وخصائصها، من الذرّة إلى المجرة، واستطاع أن يوظّفها في تيسير ظروفه، وتحقيق أهدافه. ولكنه للأسف يجهل الكثير عن أحوال نفسه. وهذا هو سر المشكلة أو المأساة التي يعيشها الناس اليوم: أنهم لا يعرفون حقيقة أنفسهم.

لذا كان من المهم: أن يعقد هذا الملتقى لبيان الموقف الإسلامي من العلوم الإنسانية والاجتماعية: علم النفس، وعلم التربية، والفلسفة، وعلم الأخلاق، وعلم الاجتماع، وعلم التاريخ، وعلم الاقتصاد، وعلوم اللسانيات، وغيرها.

ولا سيما أن هذه العلوم قد وصلت إلينا، كما عرفها الغرب وأصَّلها وعرضها، فهي غربية المنبع والجذور والفكر والأسلوب.

ونحن فيها، عالة على الغرب، وجميع المثقفين وأساتذة الجامعات: تلاميذ تابعون للمدرسة الغربية، يحتكمون إلى فلسفتها، ويؤمنون بقيمها، ويدافعون عن توجهاتها، ولا يرون في الوجود بديلا عنها إلا من رحم ربك وقليل ماهم.

إن هذه العلوم تدرس في جامعات البلاد العربية والإسلامية بصفة عامة، كما جاءت من الغرب، دون نقدها، ولا تعقيب عليها، إلا ما كان من الغربيين أنفسهم، حين ينقد بعضهم بعضا. وإلا ما ندر من بعض علمائنا العرب والمسلمين، وقليل ما هم.

وما زلنا ننتظر من الأجيال الجديدة من العلماء: أن يغوصوا ويتعمّقوا في هذه العلوم، وألا يقفوا منها موقف التسليم المطلق، بل موقف الفاحص الناقد المتخيِّر، في ضوء الواقع المشهود، وفي ضوء تطور العلم والمعرفة، وفي ضوء تراثنا وتراث البشرية، ليستخرج منها ما هو أقوم قيلا، وأهدى سبيلا، وأثبت في ميزان الحق. لا نريد أن ننفي ما وصلت إليه البشرية من نتائج ومعارف في هذا المجال، فهذا ما لا يتصور، ولكننا نريد أن ندرسه دراسة الناقد المتأمل، لا دراسة المقلد المتلقّي. نأخذ منه وندع، وَفْق قراءاتنا ومعاييرنا.

وبهذا تظهر المدارس الإسلامية المختلفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية: المدرسة الإسلامية في علم النفس، والمدرسة الإسلامية في علم الاجتماع، والمدرسة الإسلامية في علم التربية، وهكذا، وأنا أوثر هذا المصطلح، على مصطلح «علم النفس الإسلامي»، و«علم الاجتماع الإسلامي» إلى آخره.

وبعض هذه العلوم خُدِم من الناحية الإسلامية خدمة كبيرة مثل «علم الاقتصاد» الذي قدمت فيه أطروحات إسلامية (ماجستير ودكتوراه) بالعشرات وربما بالمئات، وأنشئت له أقسام بالجامعات، ومراكز أبحاث، ومجلات متخصصة.. إلخ على حين لم تتح لعلوم أخرى مثل علم الاجتماع مثل هذه الخدمة والعناية.

وفاة الداعية عبد البديع صقر

استشهاده غريقًا

وفي هذه السنة في ١٣ ديسمبر ١٩٨٦م جاءنا ـ ونحن في قطر ـ خبر وفاة أخينا الحبيب الداعية المعروف الأستاذ عبد البديع صقر رحمه الله، غرقًا في إحدى الترع، وهو عائد في الليل من مدينة بلبيس من بعد زيارة لها لإلقاء محاضرة، فانحرفت به السيارة وهو يقودها، فسقطت في الترعة، ووافاه الأجل.. ولم يعرف الناس بالحادث إلا بعد وقت، فتعذَّر إسعافه، وكتب الله له الشهادة بموته غريقًا، لاسيما وهو راجع من عمل دعوي في سبيل الله. فنسأل الله أن يكتبه في الشهداء والصالحين، وأن يحشره مع النبيين والصديقين.

من الرعيل الأول

كان عبد البديع من الرعيل الأول من الإخوان، فقد عرف الدعوة منذ سنة ١٩٣٦م، وكان قريبًا من الإمام حسن البنا، ويحكي عنه وقائع معلّمة، ونوادر لطيفة، وقد كتب له مقدمة لكتابه «كيف ندعو الناس؟».. وقد عمل مدة معاونًا للمركز العام، أي مراقبًا للمبنى وأحواله.

تعرفي على عبد البديع

عرفت عبد البديع أول ما عرفته وأنا طالب في الثانوي، حين قرأت رسالته اللطيفة «كيف ندعو الناس؟».. فهذه الرسالة على وجازتها تتضمن نصائح داعية مجرب، قوي

الملاحظة، خفيف الروح، سهل العبارة، لا يميل إلى التعقيد أو التكلف، مخلص في دعوته، يدخل كلامه إلى القلوب بيسر، فأحببته قبل أن أعرفه.

في معتقل الطور

ثم قُدِّر لي أن ألتقيه في معتقل الطور، فوجدته كما توقعته، شخصية هادئة متواضعة، تراه دائما باسم الثغر، بشوش الوجه، فكها خفيف الدم كما يقول المصريون.

وكان الإخوة الدعاة يعقدون اجتماعات، لتدارس شؤون الدعوة، وكيف يمكن تطويرها والارتقاء بها، منهم: الشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق، وعبد البديع صقر، وعدد من الإخوان نسيتهم لطول الزمن، وكانوا يدعون بعض الشباب ليحضروا معهم، فحضرت معهم عدّة مرات.

إلى قطر

ثم لم يقدَّر لنا أن نلتقي بعد ذلك لقاء مباشرًا، إلا في قطر، حيث كانت قطر تريد مديرًا للمعارف التي كانت محدودة في ذلك الوقت، وكان المسؤول عنها الشيخ قاسم درويش فخرو رحمه الله، فطلب من الأستاذ محب الدين الخطيب، الكاتب والمحقِّق الإسلامي المعروف: أن يرشِّح له شابًّا نابهًا يقوم بتوجيه المعارف في قطر، فرشَّح له الشاب النابه الكاتب الإسلامي المتألّق محمد فتحي عثمان، الذي كان قد تخرج في كلية الآداب قسم التاريخ، من جامعة القاهرة.

ولكن لظروف معينة، اعتذر الأستاذ فتحي عثمان، فرشَّح الإخوان بدله الأستاذ عبد البديع صقر.

وسافر إلى قطر، التي كانت تخطو الخطوات الأولى في سبيل نهضتها، وأظن أنها لم تكن فيها مدرسة إعدادية، فضلًا عن الثانوية، في ذلك الوقت، سنة ١٩٥٤م.

ولم يكن هناك أي مدرسة للبنات، وكانت الحياة كلها بسيطة، أقرب إلى حياة القرية، أو البادية.

مع حاكم قطر الشيخ علي آل ثاني

وكان ذلك في عهد الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني رحمه الله حاكم قطر. وكان رجلًا يحبُّ العلم والأدب، ومجلسه دومًا يضمُّ عددًا من العلماء والأدباء والشعراء، يقرأ فيه ما تيسَّر من الكتب في هذه المجالات.

كما عُني الشيخ علي بطبع جملة وافرة من الكتب الشرعية والأدبية النافعة، وخصوصًا في الفقه الحنبلي، وفي التفسير والحديث والأدب والشعر.

وقد انضمَّ عبد البديع إلى مجلس الشيخ علي وأضحى قريبًا منه، وكان يذهب إلى بعض البلاد ليختار المدرسين منها، وخصوصًا سوريا والأردن وفلسطين، إذ لم يكن يستطيع دخول مصر في عهد عبد الناصر.

ثم انضمَّ إليه عدد من المصريين الذين نجوا من محنة الإخوان سنة ١٩٥٤م ـ ١٩٥٦م التي اشتهرت بما فيها من قسوة وتعذيب، إلى حد سقوط بعض الأفراد شهداء تحت السياط. وكان من هؤلاء الناجين: كمال ناجي، وعز الدين إبراهيم، وعلي شحاتة، وعبد الحليم أبو شقة، وحسن المعايرجي، ومحمد الشافعي، وكلهم عملوا مع عبد البديع في المعارف.

الإشراف على مكتبة حاكم قطر

ثم تغَّير الوضع في المعارف، بعد أن أصبح مسؤولًا عنها الشيخ خليفة بن حمد ولي العهد ونائب الحاكم، وأُعفي عبد البديع ومن كان يساعده من المصريين، وكلف الشيخ علي حاكم قطر عبد البديع بأن يشرف على مكتباته في القصر وفي خارجه.

وظلَّ كذلك حتى تنازل الشيخ علي عن منصبه إلى ابنه الشيخ أحمد بن علي، ليكون حاكم قطر. وقد قرَّب عبد البديع منه، وكان مشرفًا على مكتبته الخاصَّة، بجوار المكتبات العامة، وهو يجالسه تقريبًا في كل مساء.

وصولي إلى قطر وتجديد صلتي بعبد البديع

وقد وصلت إلى قطر، في السنة التالية لتولِّي الشيخ أحمد مقاليد الحكم، وجدَّدت الصلة بعبد البديع، بعد أن انقطعت منذ أيام الطور.

وكانت لنا لقاءات، أحيانًا في قصر الحاكم أو في مكتبته بدعوة منه، أو في بيت عبد البديع، أو في بيتنا، أو في بيت الشيخ عبد المعز عبد الستار، حيث وصلنا معًا إلى الدوحة في سنة واحدة. كما كانت هناك صلة مودة بين أسرتي وأسرته التي تتكوَّن من زوجته الفاضلة أم إبراهيم، وابنته الداعية الناشطة سناء، وابنيه النجيبين إبراهيم وأحمد.

مدير دار الكتب القطرية

وبعد ذلك ضمَّت مكتبات حاكم قطر إلى وزارة المعارف (التربية والتعليم بعد ذلك)، وأنشئت منها «دار الكتب القطرية» وعيِّن عبد البديع أول مدير لها. وقد ظلَّ في منصبه إلى أن غادر قطر سنة ١٩٧٢م بعد الحركة التصحيحية التي قام بها الشيخ خليفة بن حمد، وَوَلِي حكم البلاد بإقرار الأسرة الحاكمة، وتأييد الشعب القطرى. وانتقل منها إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، حيث بقي فيها إلى أن انتقل إلى رحمة الله.

تعاوننا في محنة عام ١٩٦٥

ومن أهم الفترات التي التقينا فيها وعملنا معًا في قطر: سنة ١٩٦٥م وما بعدها حين أصاب الإخوان في مصر ما أصابهم من محنة عاتية، هانت إلى جانبها محنة ١٩٥٤م على قسوتها.

وكان علينا نحن الإخوان في الخارج ـ وقد عافانا الله من البلاء ـ أن نعين أسر الألوف من المسجونين والمعتقلين، الذين فُصلوا من أعمالهم تعسُّفًا، وضُيِّق على أهليهم وعيالهم بكل سبيل، وقديما قالوا: قطع الأعناق، ولا قطع الأرزاق.

وكثيرًا ما كنا نجتمع في بيت عبد البديع: الشيخ عبد المعز، وكمال ناجي، وعز الدين إبراهيم، والفقير إليه تعالى، وبعض الإخوة، نجمع بعض التبرعات لتوصيلها إلى الأسرة المُمتحنة، ولنتعاون مع الإخوة في بلاد الخليج، فيما يجب عمله، من تكثيف

الدعاية المضادة لإعلام عبد الناصر الكاسح، ولاسيما في موسم الحج تلك السنة، وقد تحدثت عن ذلك فيما سبق.

على كلٍّ حال، كان عبد البديع رجلًا نشيطًا، يحمل الدعوة فكرة في رأسه، وعقيدة في قلبه، وسلوكًا في حياته. وكان مُحبًّا لإخوانه، بارًّا بهم.

لطف معشره وفكاهاته ونوادره

وكان لطيفًا في معاشرته، في فكاهاته ونوادره، وكان يزور بعض إخوانه، وبعد فترة قليلة يقول: أعتقد أننا قد شرَّفنا! وينصرف.

وكان بيته مفتوحا لإخوانه، وكان يدعو بعض الناس إلى الغداء عنده، ثم ينسى أن يخبّر أمَّ إبراهيم (زوجته) فيعود إلى المنزل ليجد الضيوف داخلين معه، ولم يهيئ أهل المنزل لهم الطعام.

فيقِّدم لهم الموجود، ويعتذر لهم، قائلا: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ (الكهف:٦٣).

وكان أحيانًا يؤخِّرهم حتى يصنع لهم ثريدًا، ويقول: الثريد هو الطعام الذي يقبل القسمة على أي عدد!

وكان يقول: على الداعية المسلم أن يفتح اعتمادًا دائمًا لتحمُّل البلاء في سبيل الله!

إنشاؤه «مدارس الإيمان» في الإمارات

وبعد انتقاله إلى الإمارات، التقيت معه كثيرًا ولاسيما في جمعية الإصلاح في دبي، حين أُدعى لإلقاء محاضرة هناك.

وقد أنشأ هناك «مدارس الإيمان» في دبي وفي الشارقة، وقد زرتها ولمست ما فيها من نشاط وروح إسلامية سارية في جنباتها.

وظلَّ الرجل عاملًا لدينه ودعوته، حتى لقي ربه راضيًا مرضيًّا إن شاء الله. رحمه الله وغفر له، وتقبّله في الشهداء الصالحين.

محاولات د. محمد المحجوب وزير الأوقاف المصري تقريبي من النظام الحاكم

كان وزير الأوقاف المصري د. محمد المحجوب عضوًا بالحزب الوطني الحاكم، وكان يحب أن يثبت وجوده، ويبرز نشاطه في خدمة الحزب وسياسته، وخدمة الرئيس وتوجهاته.

وكان قد التقاني في «مؤتمر ديوبند» بالهند، واستمع إلى كلمتي، ولاحظ أثرها في الناس، وذلك قبل أن يصبح وزيرًا، بل كان الوزير في ذلك الوقت أخانا العالم الباحث المتخصِّص في الحديث وعلومه الدكتور الأحمدي أبو النور، وكان أبو النور رجل علم أكثر منه رجل سياسة.

فلما جاء المحجوب أراد أن يثبت لمبارك أنه يستطيع أن يجنِّد له العلماء، ليكونوا سندًا لسياسته، يوجِّهون الشعب لنصرته، ويحاربون كل من يقول له: لا، بل من يقول له: لم؟ أو كيف؟

ويبدو من تصرفاته: أنه قد وضع في خطته أن يجنِّدني لغرضه هذا ضمن من يجنِّدهم، وغاب عنه قول أبي الطيب:

ومن يجعل الضرغام بازًا لصيده تصيده الضرغام فيما تصيدا!

وقول أبي العلاء:

أرى العنقاء تكبر أن تُصادا فعاند من تطيق له عنادا!

المحجوب يحاول تقريبي من الرئيس مبارك

قابلني مرة بالقاهرة، فقال: أنا أريد أن يتعرف الرئيس عليك، ويستفيد البلد منك، لذا أرجو أن تهدي إلى الرئيس مجموعة من كتبك، يتعرف من خلالها عليك.

قلت: ولكن معلوماتي أن الرئيس لا يقرأ، ولا يحب القراءة.

قال: إنَّ كتبك تمتاز بسلاستها وعذوبتها ووضوح فكرها، وجمال أسلوبها، فلعلها تجذبه يومًا إلى القراءة.

وحتى لو لم يقرأ هو، فقد يوجد في بيته من يقرؤها وينتفع بها. وعلى كل حال نعمل ما علينا، والباقي على الله.

وفعلا، أهديت له عددًا من الكتب، وقلت في نفسي: علينا البلاغ، وعلى الله الحساب.

أول لقاء لي بالرئيس مبارك

وبعدها بأشهر، جمعنا المحجوب، أنا ومجموعة من العلماء بالرئيس مبارك في قصره بمصر الجديدة.. ولقد نسيت في أيِّ مؤتمر كنت، ولا أذكر من كان معي من العلماء، إلا الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي رئيس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. وهي أول مرة ألتقي فيها الرئيس وجهًا لوجه[1]. وقد أجلسني قريبًا منه ولم يكن بيني وبينه غير الوزير. وأذكر أن الرئيس سلَّم عليَّ بحرارة غير معتادة، ورَبَت على كتفي. وكان المحجوب حاضرًا، فقال لي: أرأيت كيف عاملك الرئيس معاملة خاصّة؟ أريد أن تكون الصلة بينك وبينه حسنة!

قلت له: أنا أود أن تكون الصلة بيني وبين جميع الناس حسنة، ولكني يا دكتور لا أحب زيادة الاقتراب من الحكام! فلست راغبًا فيما عندهم ولا طامعًا في دنياهم. وقد أخشى أن يتَّخذ ذلك ذريعة لتشويه سمعتي.

---

(١) التقيته مرة أخرى مع جمهور العلماء المدعوين إلى مؤتمر السيرة والسنة الذي دعا إليه الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر، وكان في ذلك الوقت نائبا للرئيس السادات، الذي أنابه عنه في افتتاح هذا المؤتمر.

دعوتي من الوزير المحجوب لبرنامج تلفزيوني أسبوعي

وسافرت إلى قطر، وانقضت مدة من الزمن، حتى دعانا صديقنا الشيخ صالح كامل إلى عقد ندوة عن الزكاة، تعقد في مركز صالح كامل في جامعة الأزهر، في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين. أظنها كانت في عام ١٩٨٧م، وكان الوزير المحجوب من المدعوين في حفل الافتتاح. وقد رآني، فأرسل إلي ورقة يقول فيها: أريد أن ألقاك بعد الافتتاح لأمر ضروري.

وبعد أن انتهينا من الحفل الافتتاحي، أقبل عليّ بلهفة، وقال: أنا أبحث عنك من زمن، وأريد أن أخلو بك، لأتحدث إليك. قلت: لا بأس، وليكن ذلك الآن، فما أضمن وقتي بعد.

واجتمعنا في إحدى الحجرات، وبعد الترحيب والمقدمة، قال: أنت العالم الوحيد الذي يثق به المسلمون في كل مكان، ويستمعون إلى كلامه، ويأخذون بفتاواه، ولا مأخذ عليه في علمه أو دينه، ونهجك نهج وسطيّ معتدل، لا إفراط فيه ولا تفريط. وهو النهج الذي ترحّب به الدولة هنا في مصر، وتحرص على إشاعته وتعليمه للناس، وغرسه في نفوس الأجيال.

ولهذا نريد أن يكون لك مكانة في الإعلام ـ وفي التلفزيون خاصة ـ تتفق ومنزلتك في العلم والدين، وتتناسب مع نظرة الناس إليك.

نريد أن يكون لك برنامج أسبوعي ـ على الأقل ـ في وقت حيوي تظهر فيه على الشاشة وتقول ما عندك للناس، يشاهدك فيه ستون مليونا في مصر وحدها.

قلت له: هذا رأيك أم رأي الدولة ؟

قال: هو رأيي ورأي الدولة. ونستطيع أن نجعله برنامجًا حواريًّا، وتختار من يحاورك من كبار العلماء والمفكرين المعروفين: د. محمد عمارة، د. كمال أبو المجد، أو أحد علماء الأزهر.. أو من شئت.

قلت: وما المقصود من هذا البرنامج ؟

قال: لا شيء غير إشاعة الفكر الوسطي الذي تدعو إليه، وتثبيته، ومطاردة فكر الغلو والتشدد.

قلت: ولكني محسوب على الإخوان المسلمين، المحارَبين من الدولة، فكيف يفسر الناس ظهوري المفاجئ على التلفزيون؟ أخشى أن يقول الناس: إن الحكومة اشترت القرضاوي بهذه البرامج؟

قال: أنت فوق الشبهات، وتاريخك يردُّ عليهم. وما تقوله أيضًا يجيب عنك. فليس مطلوبًا منك أن تمدح أحدًا أو تذمه. إنما تقدم للناس الإسلام الصحيح.

وكان موعد الجلسة العلمية الأولى في ندوة الزكاة، قد حان، فاستأذنته أن أذهب إلى الجلسة، قال: على أن نلتقي مرة أخرى قبل سفرك، فلم ينته حديثنا بعد.

قلت: ربنا يُيسِّر.

وانتهت جلسات الندوة، وكانت لي فيها ورقة قدَّمتها، وعقبت على بعض البحوث المقدَّمة. وعدت إلى الدوحة، دون أن يتم اللقاء الذي رغب فيه الوزير.

ولكنه ظلَّ يلاحقني بهواتفه حينًا، وبرسله حينًا آخر، حتى عدت مرة إلى القاهرة، فطلب إليّ أن نجلس دقائق لنكمل الحديث الذي بدأناه. قلت له:

بصراحة أنا لست مستريحًا إلى هذا العرض، ولا أعرف ما الهدف منه حقيقة؟

قال: قد شرحت لك الغرض، ولا شيء إلا أنَّ الدولة تريد أن تقول: إنها ليست ضدّ الإسلام، وإن القرضاوي ـ وهو رمز الإسلام الأول ـ يعرض الإسلام كما يريد بكل حرية.

عدم ارتياحي لإلحاح الوزير

قلت له: **أولاً**: لست وحدي رمزًا للإسلام، فهناك ـ والحمد لله ـ رموز لعلّها أفضل مني عند الله، وعند الناس.

ثانيًا: إذا كانت الدولة تريد أن تُحسِّن صورتها عند الشعب، وأنها تُرحِّب بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، فلتَخْطُ بعض الخطوات التي تدل على ذلك.

قال: مثل ماذا؟

قلت: مثل السماح للمحجبات بالظهور على شاشة التلفزيون، مثل منع الصور الفاضحة أن تعرض على الشاشة، مثل إعلان العزم على تطبيق الشريعة، ولو بالتدريج، مثل إطلاق الحرية السياسية للجميع، ومنهم الإسلاميون..إلخ.

قال: هذا يحدث بالتدريج.

قلت: فلتكن خطوات في هذا السبيل، ثم ننتظر الباقي.

وكأن هذا الكلام لم يصادف هوى عند الوزير، وكأنه صُدم به.. ويبدو أنه كان يتوقع أن أطير فرحًا بهذه الفرصة؛ ففوجئ بهذا الموقف مني. فسكت عن طلبه هذا إلى حين.

طلب الوزير حضوري إلى القاهرة

ومضت مدَّة، ربما كانت سنتين أو أكثر، ثم إذا هو يتصل بي في مكتبي بعمادة كلية الشريعة بجامعة قطر، وقال: نريدك هنا في القاهرة لأمر ضروري ومهم.

قلت: وأي أمر ضروري ومهم يستدعي حضوري إلى القاهرة؟

قال: ستعرفه عندما تحضر.

قلت: والله أنا مشغول جدًّا في هذه الأيام، ولا أستطيع السفر.

قال: إنما نريدك ليوم أو يومين، ونتفق على المطلوب، ثم تعود في الحال.

قلت: وأيُّ أمر هذا الذي يقضى في يوم أو يومين؟

قال: يا شيخنا، ألا تريد أن تؤدِّي خدمة لوطنك؟

قلت: أنا دائما في خدمة وطني وخدمة أوطان المسلمين جميعا.

وسلَّط عليَّ فضيلة شيخنا الشيخ محمد الغزالي، وقال: الرجل يلحُّ على وجودك، لعلَّ وراء ذلك خيرًا للبلد وللأمة، ولعل الله ينفع بك!

وعلمت بعد ذلك أن الشيخ الغزالي بطيبته وصفاء نفسه، ظنَّ أن القوم يفكرون في

أن يسندوا إليَّ منصبًا كبيرًا، وقال في نفسه: إنَّ يوسف والله أهل له، ولن يجد الأزهر مثله يقود سفينته في لجة هذا العصر وأمواجه المتلاطمة، وذهب الشيخ بعيدًا بعيدًا. وهو في واد والقوم في واد آخر!

قال الشيخ الغزالي: لا مانع أن تحضر وترى ماذا هناك.

ولم يسترح ضميري لهذا الطلب والإلحاح فيه. ولكن المحجوب لم يدعني، ولم يزل يلاحقني، وهو رجل ملحاح. ثم فهمت منه أن هناك اجتماعا لعدد من كبار العلماء، وسيكون معهم المرشد العام للإخوان، ود. أحمد كمال أبو المجد، والشعراوي والغزالي والمشد، وغيرهم، ولا يكمل هذا الجمع إلا بحضورك. وسيبحثون بكل حرية فيما يهم الأمة.

ضعفي أمام الإلحاح المتكرر

وأنا رجل أضعف أمام الإلحاح، ولا سيما إذا تكرر، فلم أملك إلا أن أستجيب، ولا سيما أني اتصلت بمكتب المرشد العام للإخوان المسلمين بالقاهرة، وسألتهم عن حقيقة دعوة المرشد لهذا اللقاء، فأكدوا لي أنه حدث اتصال، ولكن المرشد في الصعيد، وسيحضر اليوم أو غدًا. وقد أرسلوا إليَّ التذكرة، وسافرت، وفي المطار لقيني مندوب من وزارة الأوقاف، ففوجئ بأنهم استوقفوني فترة، وأخذوا جوازي، ليعرضوه على الجهات المختصّة، قبل أن يؤذن لي بالدخول. واستغرب المندوب، وقال لي: أليس الوزير هو الذي دعاك وطلبك للحضور؟ قلت: بلى. قال: فكيف يوقفونك؟ قلت: لا تجزع. هذه إجراءات روتينية اعتدنا عليها.

اجتماع بعدد من كبار العلماء

وبعد برهة من الزمن، أعيد الجواز وخرجنا، وذهب بي مندوب الوزارة إلى فندق في الجيزة، يقيم فيه شيخنا الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله. وهو الذي سيلتقي فيه كبار المشايخ المدعوون، وبعد المغرب بقليل حضر العلماء في ضيافة الشيخ الشعراوي: الشيخ الغزالي، والشيخ عبد الله المشد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، والشيخ محمد الطيب النجار رئيس جامعة الأزهر، والشيخ محمد سيد طنطاوي مفتي مصر في ذلك الوقت،

والدكتور أحمد كمال أبو المجد، والفقير إليه تعالى. ولم يحضر المرشد العام للإخوان كما قيل. وكان هو الأستاذ محمد حامد أبو النصر.

لماذا اجتمع هؤلاء في هذا الوقت خاصة؟

تبيّن لي أنهم اجتمعوا ليصدروا بيانا للناس، يؤكدون فيه: أن مصر دولة إسلامية، وأن حكامها مسلمون، يطبقون شريعة الله، ومن يتهمهم بالكفر أو الفسوق يستحق العقوبة، إلى آخر ما هو من هذا القبيل.

القصد من البيان الرد على الشيخ صلاح أبو إسماعيل

وكنت في أول الأمر لا أعرف وجه الحاجة إلى مثل هذا البيان، الذي يلحُّ عليه الوزير، ثم عرفت بعد ذلك من سياق الأحداث: أن هذا البيان يقصد به الرد على ما جاء في شهادة العالم الداعية الشهير، والبرلماني المصري المعروف: الشيخ صلاح أبو إسماعيل رحمه الله، أعني: شهادته في المحكمة التي زلزلت الحكومة زلزالا، والتي اتَّهمها فيها بالكفر والفسق والظلم، وفقًا لما جاء به القرآن في سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ (المائدة:٤٥) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧).

وكان في هذا البيان أجزاء وصيغ متَّفق عليها، ولا مانع من تمريرها، وأجزاء أخرى تقف في الحلق، وفيها وقع الخلاف[1].

اعتذاري عن التوقيع على البيان

ولا أذكر تفاصيل ذلك، ولكن الذي أذكره: أنهم طلبوا مني أن أوقِّع، فلم أفعل، واعتذرت عن ذلك. وعجلت بسفري، قافلا إلى الدوحة.

---

(١) (انظر: الملحق رقم (١)).

ولكنهم حين أصدروا البيان ذكروا اسمي مع الموقعين، وأنا كنت مع الحاضرين والمناقشين، ولكن لم أكن من الموقعين. وهذا ما اضطرني إلى أن أحرِّر بيانًا نشرته صحيفة «الشعب» لسان حزب العمل، أبيِّن فيه حقيقة موقفي، كما وقع.

أما الذين وقَّعوا البيان، فقد ذهبوا ـ أو ذهب بهم ـ إلى الجامع الأزهر، ليعقدوا مؤتمرًا فيه، وتكلم فيه كل من الشيخ الشعراوي، والشيخ الغزالي، والشيخ محمد الطيب النجار. كلٌّ بما عنّ له في وقته، وإن تفاوتت مستويات كلماتهم في القرب والبعد مما أرادته الحكومة أو وزيرها.

ولكن الشيخ الغزالي استدرك على هذا المؤتمر ببيان نشره أيضًا في جريدة «الشعب» يوضِّح فيه موقفه، ويزيل ما في الموضوع من غبش وتلبيس. واستغلال كلامه أوموقفه لخدمة هدف لم يقصد إليه. وإنما لكل امرئ ما نوى.

مع منظمة الدعوة الإسلامية في الخرطوم

في سنة ١٩٨٠م أنشأ الإخوة العاملون للإسلام بالسودان الشقيق: مؤسسة تعنى بالدعوة والعمل الخيري في المجتمعات الإسلامية، ولا سيما إفريقيا، التي يغلب عليها الفقر والمرض والأمية، وتحاول أن تغزوها التيارات المختلفة من نصرانية وشيوعية.

اختياري عضوًا في مجلس أمناء منظمة الدعوة

وقد تلقَّيت رسالة من الأمانة العامة لمنظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم: أن المجلس قد اختارني عضوًا بمجلس أمناء المنظمة، وأنهم يهنئونني - أو كما قالوا - يهنئون أنفسهم بانضمامي إلى المجلس، راجين أن ينتفعوا بتجربتي الدعوية، وتجربتي العلمية والعملية، في المضيِّ بمسيرة المنظمة إلى الأمام.

ورددت عليهم شاكرًا، راجيًا أن أكون عند حُسن ظنهم، سائلًا الله تبارك وتعالى أن يبارك في وقتي، ويمدني بتوفيقه وتأييده، مؤكدًا لهم أني مؤمن بمهمة المنظمة الجليلة في العمل الخيري والعمل الدعوي.

أهداف المنظمة

وكان الإخوة في السودان قد أسَّسوا هذه المنظمة، لتسدّ بعض الثغرات في العمل الخيري والإنساني: في إطعام الجائع، وكسوة العاري، وإيواء المشرد، وتعليم الجاهل، ومداواة المريض، وغير ذلك من ألوان الخير، التي تفتقر إليها المجتمعات الإفريقية أكثر

من غيرها، والتي انفردت بها الإرساليات التنصيرية من كاثوليكية وبروتستانتية، والتي تمدها أوربا وأمريكا بالملايين، بل بالـمليارات. فكان لا بد أن يدخل المسلمون هذا الميدان ولا يدَعوه لغيرهم ممن لا يريدون بعملهم مجرد فعل الخير، ولكن يريدون أن يفتنوا الناس عن دينهم، مستغلين فقر الناس وجهلهم وحاجتهم إلى كل شيء.

السودان بوابة العرب الأولى للدعوة في إفريقيا

والسودان هو أولى الناس بتبنّي مثل هذا العمل الخيري الدعوي في إفريقيا، لأنه البوابة الأولى للعرب للدعوة في إفريقيا، بما فيه من خصوصية ليست لغيره، وهو أنه يجمع بين العروبة والإفريقية، فيصلح أن يكون حلقة الوصل بين الإسلام والقارة السوداء.

الأمين العام للمنظمة

وقد اختار المجلس أمينًا عاما للمنظمة معروفا بكفايته ونشاطه وإخلاصه ووعيه، هو الأخ الحبيب الدكتور التيجاني أبو غديري، الذي عرفته عضوًا حيًّا متحرِّكًا محرِّكا في العمل الإسلامي في أمريكا، وخصوصًا في اتحاد الطلبة المسلمين، فقد كان يمثّل إحدى القيادات المسئولة عن الجانب التعليمي والتربوي، والذي ترك أثرا واضحا في مجاله.

وشاء الله أن يتبوأ هذه المسئولية في هذه المنظمة المرجوّة، وقد استدعاه الإخوة للحضور من أمريكا ليتفرَّغ لهذا العمل الجديد، فلبّى النداء، وقد قضى فيه شوطًا مباركا، ثم شاء له القدر أن يتوفى في حادث مروري، في إحدى رحلاته الدعوية ويكتب الله له الشهادة. رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى.

المدير التنفيذي للمنظمة

وكان المدير التنفيذي للمنظمة هو الأخ الداعية المبارك النشيط المخلص، ولا أزكيه على الله: مبارك قسم الله، الذي كان شعلةً من الحركة والنشاط والتفاني في العمل لخدمة المنظمة ورسالتها. وقد تسلَّم الأمانة العامة بعد أخيه التيجاني، وكان خير خلف لخير سلف.

وكان مجلس أمناء المنظمة يضم عددًا من الإخوة من ذوي الوجاهة والشأن في بلاد الخليج، من السعودية والكويت وقطر والإمارات؛ لأن التمويل الأساسي لمشروعات المنظمة من الخليج.

حضوري مجالس المنظمة

دأبت على حضور مجالس المنظمة ما وجدت سبيلًا لذلك، ما لم أكن مرتبطًا بأمر آخر لا يمكنني الفكاك منه، وهذا هو الواجب على الإنسان أن يعمله حين تتعارض أمامه المصالح، أو الخيارات بعضها وبعض، وهو ما نسمِّيه «فقه الموازنات»، وله أصل في الفقه وأصوله في باب «التعارض والترجيح».

وكان المجلس يعقد جلساته أول الأمر في الخرطوم، ثم رأى أن يعقد جلساته ـ ما استطاع ـ في العواصم الإفريقية المختلفة، تعريفًا بالمنظمة من ناحية، وتعرفا على واقع البلد الذي يعقد فيه المجلس من ناحية أخرى.

وقد حضرت مجلسين مهمين في بلدين إفريقيين: أحدهما: في «كمبالا» عاصمة أوغندا. والثاني: في «دار السلام» عاصمة تنزانيا.

حضور مجلس المنظمة في كمبالا

فأما المجلس الأول فكان في شتاء سنة ١٩٨٧م في أثناء العام الدراسي، وكانت دولة قطر بصفة عامة، وجامعة قطر بصفة خاصة، تيسِّر لي حضور هذه الاجتماعات، والاستجابة للدعوات، لا تضع عليَّ أي قيد، وتدع لي حرية التصرُّف في القَبول أو الاعتذار لما يأتيني من دعوات، وما أكثرها.

وقد نسيت كيف وصلت إلى «كمبالا»، لا أدري: أكان عن طريق القاهرة أم عن أي طريق آخر. واختلاف النهار والليل ينسي، كما قال شوقي رحمه الله.

وعلى كل حال، ذهبنا إلى هذا البلد الذي فيه أحد منابع النيل[1]: البحيرات الكبرى

(١) لأن للنيل منبعًا آخر من هضبة الحبشة، وهو الأهم.

التي كنا ندرسها في الجغرافيا، بحيرة فيكتوريا، وبحيرة ألبرت إدوارد، وألبرت إنينزا. ورأيت بحيرة فيكتوريا على سَعَتها.

واطَّلعنا على بعض المعالم في المدينة، ومنها: المسجد الضخم الذي أراد «عيدي أمين» الحاكم العسكري السابق إقامته، وقام على الأعمدة، وبقي غير مكتمل، ولا أدري إلام انتهى أمره اليوم.

وكانت كمبالا كمعظم بلاد إفريقيا السوداء، ينقصها كثير من مظاهر المدنية والرقي المادي والتكنولوجي، الذي يجعلها تعيش في عصرنا، عصر الثورات العلمية.

وكان الفندق الذي نقيم فيه متواضعًا جدًّا، برغم أنه من أرقى الفنادق عندهم، حتى الطعام لا نجد فيه من التنوع ما نستطيع معه اختيار ما يلائمنا. كان معظم ما عندهم «الموز» يقدمونه في الوجبات الثلاث.

ومن اللطائف التي أذكرها: أني بحثت عن «الجبنة» فلم أجدهم يعرفون لها أثرًا، أو يسمعون لها خبرًا. وكان معنا وكيل وزارة الأوقاف الكويتي الأستاذ محمد بن ناصر الحمضان ـ وهو رجل فكه خفيف الروح ـ وقد اجتهد معي أن نجد مصدرًا نأتي منه بقطعة جبن فعجز وعجزنا، ورضينا بما قسم الله لنا. وظل بعد ذلك كلما لقيني يقول: تريد (جنبة)؟ فأمازحه قائلاً: لقد صار لدى الأمة اليوم مخزون هائل من «الجبن». مورِّيا بحالة التقاعس التي ابتليت بها الأمة، وخصوصًا في قضية فلسطين.

ترشيحُ المشير عبد الرحمن سوار الذهب لرئاسة المنظمة

وفي هذا المجلس كنا في حاجة إلى اختيار رئيس جديد للمنظمة، لا أدري: أستقال الرئيس السابق أم انتهت مهمته؟ لا أذكر، ولكني اتفقت مع بعض الإخوة على أن نرشح للرئاسة المشير عبد الرحمن سوار الذهب، وهو وجه مقبول ومحبوب في داخل السودان، وفي العالم العربي والإسلامي، ووجوده يعطي دفعة جديدة للمنظمة، وهو رجل غير منسوب إلى جماعة ولا إلى فئة. وهذا يفيد المنظمة التي كثيرًا ما تنسب إلى الجبهة القومية الإسلامية (جبهة الترابي في ذلك الوقت).

وكان الجميع موافقين ما عدا عضوًا واحدًا، (نسيت اسمه) كان لواءً متقاعدًا في الجيش السوداني، وقال: أنا لا أوافقكم على هذا، وأرى أن نترك المشير بعيدًا عن المنظمات كلها، فقد يأتي وقت يحتاج إليه الوطن كله لإنقاذه، كما فعل في المرة السابقة، ومثل هذا المنصب ينأى به عن ذلك.

وكان الرد: أن المنظمة ليست هيئة سياسية، والعمل فيها لا يحول دون الترشح لما يتطلبه الموقف الوطني في وقته. وعلى كلٍّ نحن نرشِّح الرجل، وهو الذي يقدر الموقف، ويحسن أن يقول: نعم أو لا.

وقد وافق الجميع على ذلك، وحمل الأمين العام إليه رأي المجلس، فكان الرجل عند حسن الظن به، ولم يتردّد في قَبول المنصب، وقال: إنه تكليف لا تشريف، وأنا أريد أن أختم حياتي بمثل هذا العمل الصالح، إسهامًا في النهوض بالأمة، والوقوف في وجه الذين يريدون بها الشر.

صلاة الجمعة في الجامع الكبير في «كمبالا»

ومما أذكره: أن يوم الجمعة صادفنا في الاجتماع، فأخذنا الإخوة من المجلس الإسلامي الأوغندي إلى الصلاة في الجامع الكبير في المدينة، وطلبوا مني أن ألقي كلمة على المصلين بعد الصلاة. وقدمني أحد علمائهم بكلمة، كان مما قاله فيها: إنه صاحب كتاب «الحلال والحرام» الذي ترجم إلى لغتكم السواحلية وقرأتموه. . ولم أكن أعرف قبلها: أن الكتاب ترجم إلى السواحلية.

وألقيت كلمة مناسبة، أقبل الناس بعدها عليَّ يصافحون ويعانقون، وهو ما تفعله الروح الإسلامية أبدًا في كل مكان.

في دار السلام

والمجلس الثاني: كان في صيف سنة ١٩٨٨م، وكان في مدينة «دار السلام» عاصمة تنزانيا، وهو اسم عربي خالص، كانت تسمَّى به مدينة «بغداد» عاصمة الدولة العباسية،

وهو يدل على مدى التغلغل العربي الإسلامي في إفريقيا من قديم. ولو كان المسلمون يحملون رسالة الإسلام بحق، كما يأمرهم دينهم، لتابعوا نشر الدعوة الإسلامية في هذه القارة التي دخلها الإسلام منذ عصر النبوة، ولكانت القارة الإفريقية «قارة إسلامية» بلا منازع.

انتشار الإسلام في إفريقيا

لقد انتشر الإسلام في معظم إفريقيا بالسلم لا بالحرب، وباللسان لا بالسنان، وبأخلاق المسلمين لا بسيوفهم، انتشر عن طريق الطرق الصوفية، وعن طريق التجار المسلمين الصادقين.

وحين دخل الاستعمار إلى إفريقيا في القرن الثامن عشر: وجد الإسلام فيها مستقرًّا، ليس للنصرانية فيها إلا أقليات في بعض البلدان، مثل: مصر والسودان والحبشة، ولكنه وضع خطته الماكرة لمطاردة الإسلام وإحلال النصرانية مكانه.

ومن المعلوم: أن أوربا المستعمِرة في ذلك الوقت كانت دولها علمانية، بعد أن تحررت من سلطان الكنيسة، وفصلت الدولة عن الدين. ومع هذا نرى هذه الدول علمانية في الداخل: نصرانية في الخارج، تلبِّي بكل قوة وحماسة مطالب التنصير أو «التبشير» كما يسمونه. وتقوم بحمايته ورعايته، وترى في هذا التنصير سندا لها ونصيرا لتحقيق أهدافها، يؤيدها ويدعمها باسم الدين باسم التوراة والإنجيل.

ولقد كانت تنزانيا قبل مدة قليلة، يحكمها الاشتراكيون الماركسيون، وما زلنا نذكر اسم الزعيم «نيريري» الذي طالما نوَّه به الزعيم المصري جمال عبد الناصر. ولقد عرف الناس في المشارق والمغارب كيف اضطهد هذا الرجل العرب والمسلمين، ونصب مذبحة كبرى لهم، سقط فيها ثلاثون ألفا، كما أذاعت وكالات الأنباء في ذلك الوقت.

وهذه الدولة تتكوَّن من جزأين: تنجانيقا وزنجبار. فأما تنجانيقا، فهي الجزء الأكبر والأغنى والأقوى والأكثر تحضُّرًا، وفيه العاصمة، وأما زنجبار، فيغلب عليها العنصر العربي. ومنهم شافعية، ومنهم إباضية.

وقد نزلنا في أحد الفنادق الكبرى في العاصمة، وقد اجتمع المجلس هذه المرة برئاسة رئيسه الجديد المشير سوار الذهب، وكان الجميع مسرورًا بوجوده، مستبشرين بالخير والتقدم لمستقبل المنظمة، بقيادة هذا الرجل الذي ضرب المثل بالتنازل عن كرسي الرئاسة مختارًا، مؤثرًا أن يكون مواطنًا عاديًّا يخدم وطنه، مع سائر المواطنين، في حين يستقتل آخرون مكروهون من شعوبهم في سبيل البقاء فوق الكرسي الساحر، ويسحقون كل من قاومهم أو تخيلوا أنه يمكن أن يقاومهم. ولا يكتفون بذلك، بل يحاولون توريث الكرسي إلى أبنائهم. ولأول مرة في العالم، يرى الناس في بلادنا وحدها نظام التوريث في الجمهوريات!!

اقتراحي إعداد الدعاة المؤهلين

وكان كثيرًا ما يدعى المشير لبعض الأمور، فينيبني لإدارة الجلسة. وأذكر أني اقترحت في هذه الدورة اقتراحًا مهمًا، وهو: أن المنظمة تحمل اسم «الدعوة» منظمة الدعوة الإسلامية، ومع هذا لا تباشر الدعوة بطريقة مباشرة، لكن بواسطة العمل الخيري الذي يمهِّد لانتشار الدعوة، وأرى أنه غدًا من المناسب أن تخوض المنظمة لـُجَّة الدعوة بإعداد الدعاة المؤهَّلين علميًّا وفنيًّا ولغويًّا، والمدرَّبين على التعامل مع الناس، وبيئتهم في مناطق شتى حسب الأولوية.

استمارة «كفالة داعية»

وأقترح هنا: أن ننشئ استمارة «كفالة داعية» كما عرف الناس «كفالة يتيم»، ووجد إقبالا من المسلمين، فينبغي أن يدخل هذا المصطلح الجديد «كفالة الداعية» ميدان العمل الخيري. ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ووقع هذا الاقتراح موقع القبول من الأعضاء جميعًا، ورحَّبوا به، وأظنه بعد ذلك بدأ يدخل ميدان التطبيق.

وجاء يوم الجمعة، فاتفق مسلمو دار السلام على أن أخطب الجمعة في مسجد

«الجنيد» وهو مسجد الجماعة اليمنية التي تقيم بالعاصمة، وهم مهاجرون قدامى، يزيد عددهم على ستين ألفا، ولهم أئمتهم ومدارسهم وتراثهم.

مزية اليمنيين بانتشارهم في العالم

واليمنيون يتميَّزون عن سائر إخوانهم من العرب: بأنك تجدهم في كل مكان في العالم، من الشرق أو من الغرب، فهم يؤمنون أنَّ الحركة بركة، وأنَّ الجمود هلكة، وأن العز في النُّقل، كما قال الطغرائي في لاميته:

إنَّ العلا حدثتني وهي صادقة ... فيما تحدث: إن العزَّ في النُّقل

ومثله قال الإمام الشافعي فيما كنا نحفظه في الصبا:

ما في المقام لذي عقل وذي أدبٍ ... من راحة فدع الأوطان واغترب

سافر تجد عوضًا عمّن تفارقه ... وانصب فإنَّ لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إنْ ساح طاب وإن لم يَجْرِ لم يطب

والأسد لولا فراق الغاب ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب

والشمس لو وقفت في الفلك دائمةً ... لملَّها الناس من عجم ومن عرب

والتِّبر كالترب ملقى في أماكنه ... والعود في أرضه نوع من الحطب

فإن تغرَّب هذا عزَّ مطلبه ... وإن تغرَّب ذاك اعتزَّ كالذهب

فلا غرو أن وجدت اليمنيين في أمريكا، في قرية لهم، يتكلمون فيها العربية، ويعيشون فيها محتفظين إلى حد كبير بتقاليدهم ومفاهيمهم الخاصة، وذلك في ولاية «دترويت».

ووجدتهم في إندونيسيا، ولهم منطقة خاصة في العاصمة: دعونا إليها، وأطعمونا الطعام اليمني «بنت الصحن» وغيرها.

ولا غرو فهم الذين فتحوا إندونيسيا، عن طريق تجارهم من حضرموت وما حولها، الذين قدموا إلى هذه البلاد ليشتروا فيها ويبيعوا، ولكنهم أخذوا منها التوابل وغيرها،

وقدموا لها: «الإسلام» الذي رضوه دينًا لهم، وعاشوا له وماتوا عليه. رأيت اليمنيين في إندونيسيا أكبر دولة مسلمة في العالم الإسلامي.

ورأيت اليمنيين أيضًا في سنغافورة، واطَّلعت على بعض أنشطتهم، وزرت مدرستهم المعروفة هناك بـ «مدرسة الجنيد». وقد سألت الإخوة في تنجانيقا، وقلت لهم: ما سر الاشتراك في الاسم بينكم وبينهم؟ هذا مسجد الجنيد، وتلك مدرسة الجنيد. فقالوا: نحن أبناء عمومة.

وكان من الأشياء التي سهَّلتها لنا الدولة: زيارتنا لزنجبار التي تجوَّلنا فيها لعدة ساعات، وصلينا الظهر والعصر جمعًا في أحد مساجدها، وتناولنا الغداء ضيوفا على أهلها. وإن كنت لم أعد أذكر شيئًا من تفاصيل هذه الرحلة، لطول المدة، ولأني لم أكتب سطرا واحدا عن هذه الرحلة ولا غيرها بعد عودتي منها.

رسائل تدعو إلى المذهب الجعفري

ومما أذكره من هذه الرحلة: أن الفندق الذي نزلنا به: كان به رسائل تدعو إلى المذهب الجعفري «الشيعي» بعضها مكتوب باللغة الإنجليزية، وبعضها باللغة المحلية «السواحلية». وكانت إيران في هذا الوقت مشغولة بالحرب مع العراق التي كلفتها كثيرًا من المال والرجال. ومع هذا لم تنس الدولة ـ وهي في هذه المعمعـة ـ أن تقوم بما تراه واجبًا في نشر الدعوة إلى مذهبها!

وقد قال لي بعض الأعضاء عاتبًا: أين أنتم يا علماء السنة مما يقوم به غيركم؟

قلت له: إن هذا مذهب وراءه دولة، ودولة غنية، وأكثر من ذلك: أنها دولة «رسالية» ونحن لا دولة لنا. بل نحن كل ما نطمع فيه: أن تتركنا الدولة في حالنا، وأن تكفَّ أذاها عنا، وألا تعوق حركتنا، وتسلط علينا زبانيتها يسوموننا سوء العذاب والهوان!

فانظر يا أخي كم يكون الفرق بين مَن وراءه دولة تؤيّده، ومن وراءه دولة تقيّده!

ندوة «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي» في عمّان

في شتاء سنة ١٩٨٧م جاءتني دعوة من «منتدى الفكر العربي» بعمّان، الذي يرأسه ويوجِّهه الأمير المثقف الحسن بن طلال، ويشغل الأمانة العامة له في ذلك الوقت: الدكتور سعد الدين إبراهيم أستاذ علم الاجتماع، ومؤسس مركز ابن خلدون في القاهرة.

وقد اتصل بي د. سعد الدين، وألحّ على ضرورة حضوري، إذ إن الأمير الحسن حريص على مشاركتي، وسيكون في الندوة عدد من المعنيين بالصحوة في العالم العربي والإسلامي، وعدد من قادة الحركات الإسلامية.

وأكدت له أني عازم على المشاركة، وقد أعددت ورقة مطولة حول الموضوع المطروح، كما طلبتم مني. فقال: أرجوك أرسلها لنا بسرعة، لنطبعها ونوزعها على الأعضاء.

وقد حضرت الندوة، وقدّمت فيها ورقتي، وناقشها الحضور، وهم صفوة من المهتمين بالصحوة في العالم العربي، منهم إسلاميون مثل د. حسن الترابي، ود. محمد عمارة، ود. إسحاق الفرحان، والأستاذ كامل الشريف، ومنهم قوميون مثل د. فهد الفانك، ومنهم مسيحيون مثل د. وليم سليمان قلادة، القبطي المصري. كما شاركت بقوة في مناقشة الأوراق المقدَّمة للندوة.

حديث خاص مع الأمير الحسن بن طلال

وفي خواتيم المؤتمر، شكرني الأمير الحسن بن طلال شكرًا خاصًا، وتحدَّث معي

حديثا خاصًّا، وكان مما قاله لي: لقد رأيت أن وجودك معنا كان مثمرًا ومتميّزًا، فأرجوك ألاَّ تبتعد كثيرًا عنا.

قلت له: تعلم سيادتكم أني عضو في مؤسسة آل البيت، وأحضر إلى عمان في مناسبات كثيرة.

قال: ولكني أريد أن تقترب منا في منتدانا هذا، فنحن لا نريد عروبة مجافية للإسلام، ولا متبرئة منه.

قلت: إن العروبة الحقيقية لا تستغني عن الإسلام ولا تنفصل عنه، والشاعر المعروف محمود غنيم يقول:

إن العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه!

والمصريون، ومثلهم المغاربة أهل الشمال الإفريقي، لا يفرقون بين عروبة وإسلام، ولا بين عربي ومسلم. فإذا قال أحدهم: اللهم انصر العرب. تعني تماما: اللهم انصر الإسلام والمسلمين.

قال: وهذا ما نريد أن نشيعه ونثبته، على أن يكون الإسلام الذي نتبنّاه هو الإسلام المستنير، الإسلام المتوازن، لا إسلام المتشدِّدين الغلاة، الذين صوّروا الإسلام وكأنه غول مخيف أو وحش مفترس.

قلت: بل إسلام الوسطية والاعتدال، الذي لا غلو فيه ولا تفريط، لا طغيان ولا إخسار، كما أشار القرآن إلى ذلك في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧-٩)، وهذا ما أؤمن به وأدعو إليه وأحرص عليه.

قال: ولهذا نريد قربك منا، لتفيدنا في بيان هذا المنهج وشرحه.

قلت للأمير: لن أتأخّر عنكم في كل ما أراه يخدم هذا المنهج، ويؤيد هذا التيار.

وشكرت للأمير موقفه وحسن اهتمامه وحفاوته بشخصي.

وكذلك قال لي د. سعد الدين إبراهيم: أشكرك على كل شيء. أشكرك على استجابتك

للدعوة، وأشكرك على بحثك الكبير الذي قدّمته للندوة، وأشكرك على مشاركتك الحية في أثناء الندوة. وأرجو أن يستمر تعاونك معنا، وقد رأيت حفاوة الأمير بك، واهتمام الجميع بحضورك.

وقد رددت التحية بمثلها أو بأحسن منها، ودعوت الله أن يعيننا جميعًا على خدمة الأمة، وحسن تثقيفها في دينها ودنياها.

حوار بيني وبين د. فهد الفانك

كان من أهم ما وقع لي في هذه الندوة: ما دار بيني وبين د. فهد الفانك من حوار، والدكتور الفانك من مثقفي الأردن المشهورين، وهو نصراني الديانة، قومي الاتجاه، تحرّري النزعة.

وقد خلا بي في إحدى الاستراحات مرحّبًا بي، ثم قال: لقد كان لهذه الندوة ثمرات كثيرة لمسناها.

قلت ضاحكًا: منها؟

قال: منها: أننا عرفناك على حقيقتك، وغيّرنا فكرتنا عنك تمامًا.

قلت: وماذا كانت فكرتكم عني؟

قال: بصراحة، كنا نعتقد أنك شيخ متشدّد متعصِّب، ضيِّق الأفق، غريق في التراث، لا تعرف العصر وتياراته، لا تقبل التعايش مع المخالفين من أصحاب الديانات أو المذاهب أو الاتجاهات الأخرى.

قلت: يا دكتور، هل قرأتم شيئًا من كتبي؟

قال: في الحقيقة، لا.

قلت: هل سمعتم شيئًا من محاضراتي أو خطبي؟

قال: في الحقيقة أيضًا، لا.

قلت: هل تابعتم بعض برامجي في الإذاعة أو التلفزيون؟

قال: في الحقيقة كذلك، لا.

قلت: فمن أين كونتم فكرتكم عني؟

قال: لا أكذب عليك، إنما كوناها بالتسامع والتناقل من بعض الناس لبعض. وهو منهج غير سليم بلا شك.

قلت: والآن؟

قال: أصدقك القول يا شيخ يوسف: أننا غيرنا فكرتنا عنك ١٨٠ درجة.

ولهذا أنصحك أن تحرص على حضور مثل هذه الندوات التي لا تقتصر على الإسلاميين وحدهم، والتي يراك فيها المخالفون من ذوي الاتجاهات المختلفة، ويعرفونك عن كثب، ويسمعون منك مباشرة، ويتحدثون معك وجهًا لوجه.

قلت: صدقت، والحديث الشريف يقول: «ليس الخبر كالعيان»[1]، والشاعر العربي يقول:

يا بن الكرام، ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك، فما راء كمن سمعا!

كتاب «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي»

وقد نشرت البحث الذي أعددته للندوة في كتاب تحت عنوان «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» أضفت كلمة «الإسلامي» إلى «العربي» بناءً على أن لا تناقض بين العروبة والإسلام، وعلى أن هموم الوطن العربي عموما هي في الواقع هموم الوطن الإسلامي في الجملة، وكما قال شوقي رحمه الله:

(١) رواه أحمد في المسند (١٨٤٢)، وقال مخرّجوه: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين عن ابن عباس.

لقاء أحمد بهاء الدين بالدوحة
١٩٨٧/٣/٢

دعوته لإلقاء محاضرة في قطر

ومما أذكره في تلك الفترة: التقائي الكاتب الصحفي الكبير أحمد بهاء الدين رحمه الله. وقد دُعي من قبل (نادي الجسرة الثقافي) لإلقاء محاضرة في قطر، حرصت على حضورها، وكان مسرورًا بحضوري، كما كان حريصًا على أن يلقاني، وكنت أيضًا أشد حرصًا على أن ألقاه.

مقالاته وإعجابي به

كان أحمد بهاء الدين كاتبًا متميزًا من أصحاب الأعمدة اليومية في صحيفة الأهرام، وهو وحده يمثل «مدرسة في الصحافة» وكان يكتب كل صباح تحت عنوان «يوميات» ويتناول قضايا جادَّة، تمسُّ الحياة المعاصرة: السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والدينية وغيرها. وكان له جمهوره الكبير من كل الطبقات المثقفة.

وكان يخاطب العقل المعاصر، ويقنعه بما يسوقه من أدلة واعتبارات، ولا يحاول أن يثير العواطف والانفعالات، وقد قال عنه الكاتب الإسلامي فهمي هويدي: إنه من أئمة مذاهب الصحافة! وقال الأستاذ محمد حسنين هيكل في مقدمة بعض كتبه: كنت أتمنى لو كان أحمد بهاء الدين حيا لأناقشه في بعض قضايا الكتاب.

وكنت في الحقيقة مُعجبًا بأحمد بهاء الدين، لقوته فيما يكتب، ولشجاعته فيما يتناول من موضوعات، ولتمسكه بحرية قلمه ونظافته، فلا يميل يَمْنة ولا يَسْرة، إرضاءً لزيد، أو إسخاطًا لعمرو. وكان أحيانًا يتناول موضوعات حسّاسة وخطيرة، لا يجرؤ قلم أن

يتناولها غير قلمه.. لثقته بنفسه، وإيمانه بصدق ما يكتب، وإخلاصه فيما يهدف إليه. ولهذا كان موضع احترام من الجميع، من وافقه ومن خالفه.

موقفي من أخطائه

وعلى الرغم من أني أخذت عليه بعض الهنات والأغلاط، في بعض ما كتبه عن الإسلاميات[1]: فإن ذلك لم يثنني عنه، ولم يسقط اعتباره عندي كما يفعل بعض الناس، الذين يحكمون بالإعدام على الشخص إذا ارتكب خطأً واحدًا.

وكان مما يخفف وقع أخطائه عندي: أنه لم يتح له أن يقرأ الإسلام قراءة جيدة، وأن يخالط بعض الإسلاميين الواعين القادرين على الإقناع والنصح[2]، وأن استقامته في عامة ما يكتب، ونقده للأوضاع العوج بصراحة: يشفع له.

كان لقائي معه في الدوحة لقاءً وديًّا، وكان مما قلت له: إنَّ أول ما أقرأ من صحيفة الأهرام هو: «اليوميات». وقال لي: أنا أعتز بهذا، فأنت لست مجرَّد عالم ديني محبوب ومحترم، بل أنت كذلك أحد المناضلين في سبيل الوطن والأمة. وما أحوج أمتنا إلى عقل ديني مستنير ومتوازن مثل عقلك.

محاضرته حول «العرب في عالم متغيّر»

وكانت محاضرة بهاء الدين حول موضوع «العرب في عالم متغيِّر»، وقال في بداية محاضرته: أنا لم أتعوَّد لقاء الجماهير، وإنما أكتب ما أكتب داخل غرفة مغلقة، فاعذروني إذا تهيَّبْت الموقف. ولكنه كان موفَّقًا في إلقاء ضوء كاشف على موضوعه، بما عنده من ثقافة، وما لديه من منطق.

وبعد عودته من قطر تحدث عنّي في يومياته أكثر من مرة مشيدًا، ومُعجبًا. ثم لم يلبث أن حل به المرض ووافاه الأجل المحتوم، رحمه الله وغفر له.

---

(١) مثل ما كتبه قديمًا في إحدى مقالاته عن «الزكاة» حيث لم يحسن فهمها ولم ينصفها، وهو من جملة ما دفعني إلى كتابة «فقه الزكاة» لتجلية حقيقة هذا الركن المالي الاجتماعي العظيم من أركان الإسلام، لدى المثقفين المسلمين.

(٢) لقي مرة أخانا الشيخ راشد الغنوشي، واستمع إليه، فأعجب بفكره، ونوه به في يومياته، وتبنّى أن يرفع الحظر عن دخوله إلى مصر.

زيارة أستراليا في صيف ١٩٨٧م

دعوة من الجمعية الإسلامية في أستراليا

في أثناء السنة الدراسية لسنة ١٩٨٧م: جاءتني دعوة من الجمعية الإسلامية في أستراليا، من الأخ المهندس النشيط أحمد توفيق وإخوانه في مدينة «ملبورن» لحضور مؤتمر إسلامي يعقد في هذه المدينة في شهر يوليو ـ على ما أذكر ـ ويشارك فيه عددٌ من العلماء والدعاة المرموقين، ويتناول قضايا معاصرة تهم المسلمين في أستراليا، وألحَّ الإخوة عليَّ ألاّ أتأخّر عن المشاركة، وأن من حق المسلمين في هذه القارة أن يكون لهم حظ منك، كما كان لسائر القارات.. إلى آخر ما قالوا، واتصلوا بي وكرروا الاتصال، حتى استجبت لدعوتهم.

والحقيقة أني كنت حريصًا على زيارة أستراليا، فهذه فرصة لي، ومن الواجب عليّ ألاّ أفوّتها. وإن كان عيب توقيتها: أنها تصطدم مع موعد ملتقى الفكر الإسلامي السنوي في الجزائر، الذي أصبحت ملتزمًا أدبيا بحضوره كل عام.

الترجيح عند تزاحم الواجبات

ولكن عندما تتزاحم الواجبات، لا بدّ من الترجيح وفق معايير كل إنسان، وأولوياته. وقد رجّحت زيارة أستراليا على ملتقى الجزائر، لأن ملتقى الجزائر يعوّض بغيره، وهذه قد لا تعوض، ولأن هذه هي المرة الأولى. وربما تكون الأولى والأخيرة لبُعد المسافة بيني وبين أستراليا.

عدم الرفيق وطول الطريق

وكانت أسفاري في جُل تلك السنين أقوم بها وحدي بلا رفيق معي، على الرغم من أن العرب قالوا في أمثالهم من قديم: الرفيق قبل الطريق. كما أن كثيرًا من إخواني ومشايخي قالوا: لا ينبغي أن تسافر، وليس معك مرافق.

ولكن الرفيق يحتاج إلى تذكرة، وهي باهظة الثمن، فمن يدفعها؟

لهذا كان مما يقلقني في مثل هذه الرحلة: طول الطريق، وعدم الرفيق! وأضف إليه أمرًا ثالثًا، وهو: فقدان الدليل!

ولقد قدر الله لي أن أذهب إلى أستراليا من مدينة «لندن» فقد كان عندي هناك اجتماع مجلس أمناء «مركز أوكسفورد» للدراسات الإسلامية، وبعد الاجتماع، عزمت على الرحيل إلى «هونج كونج» لأبيت هناك ليلة، وفي اليوم التالي، أمتطي طيارة «الكاتي باسفيك» إلى مدينة ملبورن بأستراليا.

رحلة ١٤ ساعة مليئة بالمتاعب

وأحسب أنني أخذت من لندن الطائرة «السنغافورية» إلى «هونج كونج»، ولكنها من مطار «جات ويك»، وكانت درجة واحدة، وكانت شديدة الزحام، وبرغم أني استعنت بأدعية السفر المأثورة، واستعذت بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد، وسألت الله أن يصحبني في سفري، ويخلفني في أهلي، كانت هذه الطائرة جلستها متعبة، ورحلتها مرهقة، ونام الناس من حولي، ولم أستطع أن أنام إلا خطفات، لا تريح المتعب، ولا تطمئن القلق. وأنا ممن لا يحسنون النوم في الطائرات مثل كثير من الأصدقاء، فكيف بمثل هذه الطائرة المزحومة المكظومة؟

المهم أنه بعد «١٤» أربع عشرة ساعة مليئة بالمتاعب، وصلت إلى «هونج كونج». وهنا وقعت في مطب لم يكن على البال.

مفاجأة في مطار هونج كونج

فقد رتَّب لي الإخوة من أستراليا من ينتظرني في مطار «هونج كونج» عند وصولي، وهو أخ يعرف العربية ويعرفني، وقد نسيت اسمه. وكان من المفترض أن أجده منتظرًا قدومي بمجرَّد وصولي.

ولكني نزلت من الطائرة، وتسلمت الحقيبة، وخرجت، لأتلفت يَمنة ويَسْرة، فلم أجد أحدًا، فوقفت مدة حتى تعبت، ثم رأيت أن هناك أكثر من طابق للانتظار، فسحبت عربتي التي تحمل حقيبتي، ونزلت إلى تحت وانتظرت قليلًا، ثم صعدت إلى فوق، وانتظرت قليلًا، حتى تعبت أو كدت. وقلت: قدر الله وما شاء فعل، لعل شيئًا ألمّ بالأخ المكلّف بالانتظار، فأخّره من حيث لا يحتسب. وقد قال الشاعر:

تـأنّ ولا تعجل بلومك صاحبا ... لـعـلّ لـه عـــذرًا وأنـــت تلوم!

وكان الذي يؤلمني ويحزّ في نفسي: أنني أشبه بالغريق، الذي لا يحسن العوم، ولا يجد السبّاح الذي ينقذه.

مشكلة اللغة

ومشكلتي هي اللغة! ما أضعف الإنسان الذي لا يعرف لغة يتفاهم بها مع الناس كالإنجليزية، وما أعجزه!!

ما كان أغباني حين لم أستمر في تعلم الإنجليزية، وقد كنت متفوقًا فيهــا! ها أنذا اليوم أقف حائرا تائهًا لا أستطيع أن أفعل شيئًا. وما عندي من بضاعة قليلة في الإنجليزية لا يسعفني لأتحادث مع الناس.

وأخيرًا قررت أن أستخدم ما عندي من كلمات إنكليزية محدودة، لأسأل عن أقرب فندق لأنام فيه هذه الليلة، ثم أعطيهم التذكرة الموصلة إلى «ملبورن»، ليهيئوا لي السفر بعد ذلك.

ظهور الأخ المكلف باستقبالي فجأة

وبينما أنا في هذا التفكير، إذا بالأخ المكلف باستقبالي يظهر فجأة، ويتأسف غاية التأسف على تأخيره، معتذرًا إليّ بكل أساليب الاعتذار، وبعد أن لمته وشدّدت عليه في أول الأمر، لم يسعني إلا أن أقبل منه. وأنا رجل هيِّن ليِّن، أعفو وأسامح وأقبل العذر، وقد وصف الله رسوله عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٩). وقد قال بعض السلف: المؤمن يلتمس المعاذير، والمنافق يطلب العثرات.

وأخذني الأخ إلى الفندق المقرّر النزول فيه، وظلَّ معي إلى أن ذهبنا في المساء إلى المسجد، لألتقي بالإخوة في «هونج كونج»، وألقي فيهم درسًا، ثم أعود إلى الفندق لأنام.

وفي صباح اليوم التالي، تجوَّلت جولة في المدينة، حتى يأتي موعد قيام الطائرة، الذاهبة إلى أستراليا. وقد حرصت على زيارة محل عرفته قبل ذلك، يبيع لوحات المناظر الطبيعية التي أهواها، واشتريتُ بعضها بالفعل، وهي صور زيتية رائعة ليس فيها صورٌ للإنسان ولا للحيوان.

طائرة الكاتي باسفيك إلى ملبورن

وفي الموعد المقرَّر ركبت الطائرة «الكاتي باسفيك» إلى ملبورن، ومدة الطيران «٩» تسع ساعات، مضافة إلى «١٤» السابقة، لتكون مدة هذه الرحلة «٢٣» ثلاثا وعشرين ساعة، وهي أطول رحلة شبه متصلة قمتُ بها في حياتي.

ولكن الطائرة في هذه المرة، كانت غاية في المتعة والروعة، وتوفير الراحة، ولاسيما لركاب الدرجة الأولى، الذين كانوا يدللونهم تدليلاً. فكانت الدرجة الأولى من طابقين، كنت في أعلاهما، وكانت كراسيها غاية في السعة من كل جانب، والإعانة على النوم لمن أراد، وعلى الكتابة لمن شاء، أما الطعام والشراب، فهما أنواع وألوان، فيها مجال للاختيار والانتقاء، ليطلب كل امرئ ما يشتهي.

فكانت هذه الرحلة المرتبة إلى أستراليا، تعويضًا عن تلك الرحلة القاسية من لندن. وكثيرًا ما تشَجِّعني هذه الرحلات الطويلة على إخراج ورقي وقلمي من حقيبتي، لأبدأ الكتابة. إذ كيف أقضي تسع ساعات، إن لم أستعن فيها بالقلم؟ سأحاول ما استطعت أن أنام بعض الليل، ولكن عندي وقت يمكنني أن أستفيد منه للكتابة. وخصوصًا أني لست من الذين يشاهدون الأفلام التي تعرض في الطائرات. فما لي رغبة فيها، ولا صبر عليها.

الوصول إلى ملبورن وانعقاد المؤتمر

وفي صباح اليوم التالي، وصلت إلى مدينة «ملبورن» في قارة أستراليا، التي أزورها لأول مرة. وكان الأخ أحمد توفيق ورفاقه في انتظاري، وقد حضر معظم المدعوين إلى المؤتمر، والباقون في طريق الوصول. وقد وجدت الجو في أستراليا على عكس الجو في بلادنا وفي أوربا، فقد كنا نحن في عزّ الصيف أو قل: في أواخره، وكانوا هم في عز الشتاء، أو قل في أواخره أيضًا، والجو بارد، والأمطار تهطل بغزارة. فنحن في الجانب الآخر من الأرض، صيفنا شتاؤهم، وشتاؤنا صيفهم. وفي هذا تبادل المصالح بين العباد. فكم تأتينا في قلب الشتاء فواكههم الصيفية، وكم تأتينا في وقت الصيف منتجاتهم الشتوية، ولله في خلقه شؤون.

وقد أقيم المؤتمر في ملبورن، ولم أعد أذكر موضوع المؤتمر، ولا الحضور فيه، وقد شارك فيه من مصر ومن أمريكا، ومن غيرهما. ولا أذكر إلا الأخ العالم القرآني اللغوي الداعية المعروف الدكتور عبد الصبور شاهين من مصر، والأخ العالم القرآني اللغوي الداعية الدكتور جمال بدوي من أمريكا. وكم سُررت بوجوده، لأني وجدته خير من يترجم عني إلى الإنجليزية، لقدرته الفائقة فيها، ولثقافته الإسلامية القوية، وتمرسه بالدعوة إلى الإسلام بين الأمريكان والكنديين. ولقد استمرّ المؤتمر ثلاثة أيام ثم انفض.

مساجد قديمة مهجورة

وبعد مؤتمر ملبورن، واللقاءات الخاصّة بالعاملين للدعوة الإسلامية فيها، زرت

بعض المدن الأخرى التي نسيت اسمها، وبعضها متميز بأغلبية تركية.. ومن الغرائب: أني وجدت في بعض المدن «مساجد قديمة» ليس حولها عمران، ولا يصلِّي فيها أحد.

ولما سألت عنها، قالوا لي: هذه مساجد بناها الجيل الأول من المسلمين، الذين حضروا إلى هذه البلاد، وكانوا من «الأفغان» الذين حرصوا على إنشاء مساجد يقيمون فيها شعائر دينهم، ويجتمعون فيها لصلوات جماعتهم وجمعهم.

بقيت المساجد أبنية وجدرانًا، وليس فيها مصلون. فقد جاء هذا الجيل من الأفغانيين المسلمين المتمسكين بدينهم، ولم يكن معهم من مقوِّمات البقاء على هذا الدين شيء، لا معهم عائلاتهم وزوجاتهم، ولا معهم علماؤهم وموجِّهوهم. فبقي الدين ما بقي هذا الجيل، ثم ذهب وذهب الدين معه.

كانوا في غالبهم شبانًا وعزابًا، فاضطروا إلى أن يتزوجوا من الأستراليات، وأنجبوا منهن بنين وبنات، ولم يكن لديهم من العلم والثقافة ما يلقنونه لذريتهم ويثقفونهم به، وهم مشغولون بأعمالهم وكسب رزقهم، فنشأ الأولاد على ما تلقنه لهم أمهاتهم، فما أسرع ما ذابوا في هذا المجتمع المسيحي، بحكم ديانة الدولة المكتشفة لأستراليا والفاتحة لها، وهي بريطانيا، حامية المسيحية البروتستانتية.

ومثل هذا الجيل الأول، الذي ذهب إلى أمريكا اللاتينية «الأرجنتين» وغيرها، فإن هذا الجيل ذاب في ذلك المجتمع، كما يذوب الملح في الماء، ولم يعد له وجود إسلامي، حتى جاءت أجيال أخرى.

إلى سيدني

وبعد تطواف في عدّة مدن، كان لا بد لنا من أن نذهب إلى «سيدْني» المدينة الأم، والعاصمة الكبرى، وفيها أكبر مجموعة إسلامية، وفيها المساجد والمدارس والمؤسسات الإسلامية.

وفيها خطبت الجمعة في جامعها الكبير، الذي يخطب فيه أشهر الدعاة هناك، الشيخ تاج الدين الهلالي، وألقيت عدّة محاضرات ودروس في أماكن مختلفة. كما حضرت عدّة لقاءات عامة وخاصة.

وقد وجدت المسلمين ـ كالعادة ـ مختلفين شيعًا وأحزابًا، على أن كل ما حولهم يوجب عليهم أن يجتمعوا ولا يتفرقوا، وأن يتوحّدوا ولا يختلفوا، وألاّ يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم.

ولقد رأيت بعيني ولمست بيدي: أنّ كل الأقليات في الدنيا تتقارب وتتضام وتتلاحم فيما بينها، لتحافظ على كيانها وحقوقها في مواجهة الأكثرية، إلا الأقليات الإسلامية للأسف الشديد، فهي دائمًا على خلاف، وأبدا في تطاحن، مع أن كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأحكام شريعتهم، ناهيك بضرورة وجودهم ومصيرهم المشترك كلها تناديهم أن يعملوا على توحيد الكلمة، كما يؤمنون بكلمة التوحيد.

إنَّ الاتحاد يقوِّي القلة، والاختلاف يضعف الكثرة. وقد قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

وقال رسولهم: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[1].

وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا». وشبك بين أصابعه[2].

حدثتهم في هذه المعاني، وركزت عليها، وخصوصًا مع العلماء الذين يقومون بالتوجيه والإرشاد للجماعة المسلمة هناك، ومنهم الشيخ تاج الدين الهلالي، وهو عالم أزهري مصري أمسى له شأن بينهم، ثم أمسى بعد ذلك مفتيا لهم.

إلى مدينة «بيرث»

وبعد أيام في سيدني، ذهبت إلى مدينة «بيرث»، وهي في الطرف الآخر من أستراليا، وقد استغرقت الرحلة ـ على ما أذكر ـ نحو خمس ساعات، وهي قريبة من حدود

(١) رواه البخاري في الخصومات (٢٤١٠)، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى.

إندونيسيا. وفيها الأخ المسلم النشيط عبد الله مجر، وهو مصري يعيش هناك من زمن، وقد أنشأ مؤسّسات ومدارس تعمل لحفظ أجيال المسلمين.

وقد بقيت فيها عدّة أيام، ألقيت فيها عددًا من المحاضرات والدروس، وعقدت فيها بعض الاجتماعات وزرت فيها بعض المؤسسات.

الانشغال بهموم المسلمين ومشكلاتهم

والمهم أني في خلال هذه الرحلة التي امتدت ما يقرب من أسبوعين، لم يتح لي فيها أن أزور حديقة من الحدائق، أو متحفًا من المتاحف، أو أشاهد مَعْلمًا من المعالم التي يذهب الناس إليها زائرين، فقد كان وقتي مشغولًا بهموم المسلمين، ومشكلاتهم المتراكبة التي تحتاج إلى حلول، وأسئلتهم المجتمعة التي تحتاج إلى أجوبة، وحسب وقتي أن يتَّسع ليسهم ببعض هذه الأجوبة والحلول. وربما أجد في ذلك ما يعوضني عن كل نزهة أو فسحة يتطلع إليها الناس هنا وهناك.

إلى إندونيسيا

كانت خطتي أن أعود من غير الطريق الذي ذهبت منه؛ لأمر على إندونيسيا، وخصوصًا أني قريب من حدودها. وإندونيسيا لها حقٌّ علينا، باعتبارها أكبر بلد إسلامي، بعد انقسام باكستان إلى دولتين (إحداهما بنجلاديش): وهي بلد مهدّد بالتنصير، من الإرساليات الغربية التي خططت لغزوه دينيا والسيطرة عليه في ظرف خمسين سنة كما زعموا.

ركبت الطائرة من مدينة «بيرث» وذهبنا إلى «جاكرتا» مرورًا بجزيرة سياحية أظنها «بالي» التي وقعت فيها التفجيرات منذ سنوات. وقد توقفت فيها الطائرة، ولم ننزل إلى البلدة، ومنها استقللنا طائرتنا إلى العاصمة الإندونيسية جاكرتا.

وكان الإخوة من أعوان الدكتور محمد ناصر وإخوانه في المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية في انتظاري، وكان الدكتور ناصر مريضًا، وقد بلغ من الكبر عتيًّا، وثقل حمله

من آثار الشيخوخة، ومن آثار المرض، ومن هموم الدعوة، وهموم الأمة، فلزم الفراش منذ مدة.

وكان من الموكلين بمرافقتي شاب أزهري اسمه «م» المازني، فقلت له: المازني.. نسبة إلى قبيلة «مازن» المشهورة التي قال فيها الشاعر:

لـو كـنـت مــن مـــازن لم تستبح إبـلي

بنو اللقيطة مــن ذُهـــل بـــن شيبان

قال: الحقيقة أن اسمي الأصلي «المُزَني» ولكن بعض الإخوة العرب ممن زارونا، اقترح علي أن أغير اسمي من المزني إلى المازني!

قلت له: عد إلى اسمك الأصلي، فإن والدك حين سماك بهذا الاسم، كان يقصد «المُزني» صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنهما. والناس هنا حريصون على إحياء أسماء أئمة الشافعية، فهناك: الغزالي والرافعي والنووي وغيرهم. وأصبحت لا أناديه إلا بهذا الاسم «المُزني».

السؤال عن صديقي الجزائري محمد أكسوري

وكان من أول ما حرصت عليه بعد وصولي إلى جاكرتا: أن أسأل عن صديقي القديم، ورفيقي في السكن في كلية أصول الدين، الجزائري العالم الأديب المناضل: محمد أكسوري (أوالأقصري كما كنا نناديه) والذي علمت أنه سفير الجزائر في إندونيسيا، ولكني ـ للأسف الشديد ـ لم أجده في إندونيسيا. فقد كان في إجازة في ذلك الوقت. أي أنه ذهب إلى الجزائر في الوقت الذي كان ينبغي أن أكون فيه في الجزائر لحضور ملتقى الفكر الإسلامي.

فلم يشأ الله تعالى أن ألتقي صديقي الأخ الجزائري في الجزائر من قبل، ولا في إندونيسيا من بعد، وإن كنت لقيته مرة بعد ذلك بنحو سنتين.

برنامج حافل

وقد رتَّب لي الإخوة برنامجًا حافلًا، زرت فيه عددًا من الجامعات في جاكارتا ومدارسها الإسلامية العريقة: الشافعية والطاهرية وغيرها، وفي بعض المدن القريبة في جزيرة «جاوة».

وكان من أهم ما رتَّبوه لي: التقاء الدعاة من الشباب، لأتحدَّث إليهم وأنورهم بما يجب عليهم في هذه المرحلة، من إعداد أنفسهم للحفاظ على المسلمين، ولمواجهة المنصِّرين، وهو إعداد متكامل، يجب أن يكون إعدادًا ثقافيا، وإيمانيًّا، وأخلاقيًّا، وذكرتهم بما كتبته من قبل في كتابي «ثقافة الداعية».

ومما أذكره أني التقيت بعض الشباب من الدعاة القادمين من المملكة السعودية، وكان من بينهم الشاب الشيخ سلمان فهد العودة حفظه الله، وقد أمسى اليوم من مشاهير الدعاة.

زيارة جزيرة «سومطرة»

وكان من المهم جدًّا في هذا البرنامج هو: زيارة جزيرة «سومطرة» لأول مرة، وهي الجزيرة الكبرى الثانية، بعد جاوة. وقد ذهبت إليها بالطائرة، ثم تنقّلنا بالسيارة بين مدنها، حتى وصلنا إلى أعلى الجزيرة، وقد حاضرت في جامعاتها ومعاهدها، ولقيت أهل العلم والدعوة والفكر فيها، وكانت رحلة خصبة مباركة.

تبخر أحلام الإرساليات التنصيرية

ولقد اطمأننت من خلال هذه الزيارة إلى أن أحلام الإرساليات الأوربية والأمريكية في تحويل إندونيسيا من الإسلام إلى النصرانية خلال خمسين عاما .. هذه الأحلام قد تبخرت. فقد نسي المخططون الحالمون: أن الإسلام أرسخ قدما، وأعمق جذورا، مما يظن الظانون: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٢، ٣٣).

شركة الراجحي المصيرفية والاستثمار

مسيرة البنوك الإسلامية

كانت شركة الراجحي من الشركات الكبرى في المملكة السعودية، وكانت تعمل في المجالات الاقتصادية والتجارية المختلفة، ومع البنوك التقليدية التي تقوم على الفوائد الربوية.

ولم يكن في المملكة بنك إسلامي يتعامل بغير الفوائد، ووفق أحكام الشريعة الإسلامية، برغم أن الذين قادوا مسيرة البنوك الإسلامية سعوديون، على رأسهم الأمير محمد الفيصل آل سعود، الذي أسَّس بنوك فيصل الإسلامية في مصر والسودان والبحرين، وأسَّس دار المال الإسلامي في جزر البهاما وإدارتها في جنيف في سويسرا. ولكنه لم ينشئ بنك فيصل الإسلامي السعودي. كما كان من الذين قادوا المسيرة أيضًا: الشيخ صالح كامل وما أسّس من بنوك البركة في أقطار شتّى.

ولقد قدّم الشيخ سليمان الراجحي وإخوانه طلبهم للسلطات المالية السعودية، للحصول على تصريح بإنشاء بنك إسلامي، وبعد سنين طويلة، وجهد جهيد، أذن له أن يحول شركته إلى شركة تتعامل بغير الفوائد، دون أن تسمّى «بنكًا إسلاميًّا». لأن هذا يحرج المملكة، فإذا كان هذا بنكًا إسلاميًّا، فماذا تسمّى البنوك الأخرى، والمفروض أن المملكة ملتزمة بتطبيق الشريعة الإسلامية في كل مجالات الحياة، كما هو صريح أمر القرآن: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة: ٤٩).

الهيئة الشرعية المشرفة على شركة الراجحي

المهم أن الشركة أذن لها في العمل المصرفي بغير فائدة، وغدا اسمها: شركة الراجحي للصيرفة والاستثمار، وقد عيّنت الشركة لها هيئة شرعية للإشراف عليها والتوجيه لها، وضمان سيرها على أحكام الشريعة. وكان رئيس الهيئة سماحة العالم الجليل الشيخ عبد الله بن عقيل، والد أخينا وصديقنا الإسلامي المتحرك عبد الرحمن بن عبد الله بن عقيل، وعين نائبًا له معالي الشيخ صالح الحصين، الرجل الذي جمع بين الفقه والقانون، كما جمع بين النظر والتطبيق، واختاروا لعضوية الهيئة العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، وسماحة الشيخ عبد الله البسام، والفقير إليه تعالى، ولأمانتها الشيخ عبد الرحمن بن عقيل.

اقتراحات الشيخ صالح الحصين على الهيئة الشرعية

وقد اقترح الشيخ الحصين على الهيئة جملة اقتراحات جوهرية ومتميّزة، وهي:

أولا: أن تعمل الهيئة احتسابًا، دون أن تتقاضى أي مكافأة. وقد وافق الجميع على ذلك. وذلك حتى تكون حرة تمامًا في الرقابة والتوجيه.

ثانيا: أن تكون مهمة الهيئة التوجيه الشرعي للشركة، والفتوى فيما يعرض عليها من عقود وتصرفات. أما الرقابة فستكون من سلطة المحاسب القانوني، الذي يجب عليه التدقيق في عمل الشركة وَفْق أحكام الشريعة، وعليه أن يكون ضمن جهازه شرعيون، يمكنهم القيام بهذا التدقيق.

ثالثا: أن تضع الشركة خطة للتخلص من التعامل من المرابحة خلال ثلاث سنوات.

غرق البنوك الإسلامية في عملية المرابحة

وكانت هذه الخطوة الأخيرة خطوة ثورية تقدمية. فقد غرقت البنوك الإسلامية في عملية المرابحة، وأعرضت عن كل المعاملات الأخرى من التجارات والمشاركات والمضاربات، التي هي البديل الحقيقي لمعاملات البنوك الربوية.

وقال الشيخ الحصين: إن المرابحة شديدة القرب من التعامل بالفائدة الذي تقوم به البنوك الرأسمالية التقليدية. فإذا انحصر عمل البنوك والشركات الإسلامية المصرفية في هذه المعاملة، فيا ضيعة الجهود المبذولة في إقامة البنوك الإسلامية، وما أجدرنا أن نتمثل بقول الشاعر حينئذ:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد لقيت، فقد ضيَّعت أيامي!

وقد اجتهدت الشركة أن تقلِّص من دور المرابحة، وأن تدخل في المقاولات والمعاملات المختلفة، وما أكثرها في المملكة، ولكنها لم تستطع أن تتخلص منها نهائيا، كما كان يريد أخونا الكبير الشيخ صالح حفظه الله.

لقد دخلت البنوك الإسلامية في «قمقم» المرابحة، ولم تستطع أن تخرج منه. وهو ما حذرت منه هذه البنوك في كتابي الذي ألفته دفاعا عن المرابحة، وسميته: بيع المرابحة للآمر بالشراء، كما تجريه المصارف الإسلامية. ومع هذا حذرت في نهايته أن تسجن المصارف الإسلامية نفسها في المرابحة، وتنصرف عن المعاملات الأخرى، وهو ما وقع بالفعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

استعفائي من عضوية هيئة الشركة

وبعد عدّة سنوات، تكاثرت عليّ الأعباء، فاستعفيت من عضوية هيئة الشركة، وقبلوا مني ذلك، وخصوصًا بعد أن فرَّغت الشركة العلامة الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا، لبحوث الهيئة، وتحرير معاملاتها، وتأصيل فتاواها، رحمه الله، وجزاه خيرًا.

زيارة ألمانيا صيف ١٩٨٧م بسعي د. زقزوق

دعوة موجّهة من د. عبد الجواد فلاتوري

في ربيع سنة ١٩٨٧م اتصل بي صديقنا الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وقد عمل معي عدّة سنوات في قطر وكيلًا لكلية الشريعة، وبيننا صلة مودة. وقد طلب مني د. زقزوق أن أستجيب لدعوة لزيارة ألمانيا موجّهة من الدكتور عبد الجواد فلاتوري، الذي يحمل الجنسية الألمانية، وهو إيراني الأصل، شيعي المذهب، ولكنه يعيش في ألمانيا بوجدان المسلم لا غير.

وقد حاولت أن أعتذر للدكتور زقزوق في أول الأمر، ولكنه ألحّ عليّ أن أتغلب على كل الظروف، وأن المدعوين فيهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي، وفضيلة الدكتور السعدي فرهود مدير جامعة الأزهر سابقا، والدكتور أبو حطب أستاذ اللغات في جامعة الأزهر، وما زال بي، حتى أخذ مني وعدًا بل موثقًا بأن أكون ضمن هذا الوفد.

وفي الوقت المحدد في عطلة الصيف، سافرنا نحن الخمسة من القاهرة إلى فرانكفورت، ومنها بالسيارات إلى مدينة «كولن» التي يقيم فيها الأستاذ الفلاتوري.

الأغلاط حول الإسلام في الكتب الدراسية

ونزلنا بأحد الفنادق هناك، وفي اليوم التالي، أرانا الفلاتوري نماذج من العمل الكبير الذي قام به، وهو عمل جدير بالتنويه والتقدير. فقد تتبّع الكتب الدراسية في ألمانيا، في مختلف المراحل الدراسية، وما تحمله من أغلاط حول الإسلام ورسالته ونبيه وقرآنه

وحضارته وتاريخه، ووجد في هذه الكتب المقررة على الطلاب: ألوف الأغلاط، التي تمتلئ بها هذه الكتب.

والمهم أنه عرض مشروعه على المسؤولين عن التعليم في ألمانيا، فرحَّبوا به كثيرًا، وأبدوا استعدادهم لتصحيح هذه الأخطاء، ووضع الصواب مكانها، وأن سبب هذه الأغلاط هو ضعف المعلومات لدى الكاتبين، وربما كانت مصادرهم نفسها غير مأمونة.

وقد عرفنا الفلاتوري: أنه ـ مع أعوانه ـ كتبوا مجلدات.

وأكثر من ذلك: أنه بعد نجاح مشروعه في ألمانيا، بدأ يتّجه إلى نفس العمل في بلاد أوربية أخرى، بدأها بالكتب الدراسية في بريطانيا.

والحقيقة: أن عمل الأستاذ الفلاتوري: نموذج يحتذى في خدمة الثقافة الإسلامية، والفكر الإسلامي. وبالتالي: خدمة الإسلام نفسه ورسالته. فهذا عمل علمي كبير، ويتم في صمت وهدوء، بعيدًا عن الأضواء والإعلان والضجيج، وهو عمل استغرق سنين وجهودًا كبيرة، بعد تخطيط وصبر طويل، فآتى أكله، وأعطى ثمراته.

فليتنا نتعلم من هذا الدرس النموذجي العملي، الذي يفترض أن تنتفع بثمراته أمة كبرى مثل الأمة الألمانية. وبهذا تخدم الرسالات والثقافات والحضارات.

لقاء مع المستشرقين ورجال الدين المسيحي

ومن ثمرات هذه الرحلة: هذا اللقاء الذي رتّبه الأستاذ فلاتوري مع عدد من المستشرقين ورجال الدين النصارى، حيث التقيناهم في يوم عمل مستمر، وتناولنا فيه الغداء معًا. وقد وجَّهوا إلينا عددًا من الأسئلة الشائكة حول موضوعات إسلامية مختلفة، منها: حول المرأة، وحول الحريات وعقوبة الردة ونحوها، وحول الاجتهاد والتجديد، وحول الأقليات الدينية، وفرض الجزية داخل الدولة الإسلامية، أو المجتمع الإسلامي، وحول الجهاد والسلام .. إلى غير ذلك من القضايا التي يحتدم فيها النزاع بين المسلمين وغيرهم، وتختلف فيها الأجوبة عند الإسلاميين أنفسهم.

وقد وجدوا عندنا أجوبة مقنعة ـ إلى حد كبير ـ حول هذه التساؤلات، وهي أجوبة تعتمد على الأصول الشرعية مع النظر إلى العصر وتياراته ومشكلاته من ناحية أخرى.

ولقد قرب هذا اللقاء بين الطرفين إلى حدّ كبير، وليس هناك أنفع من الحوار المباشر، الذي يلتقي الناس فيه وجهًا لوجه. وقد تمنى الجميع لو تكرر مثل هذا اللقاء في أوربا أو في البلاد العربية.

دعوة السفير المصري في ألمانيا

وقد دعانا السفير المصري في «بون» إلى منزله على عشاء، دعا فيه عددًا من الشخصيات المعنية بالشأن الإسلامي، وكانت ليلة طيبة بمن شارك فيها من الرجال، وبما جرى فيها من حوار، وبما سادها من تفاهم، برغم اشتداد الجدال في بعض القضايا.

أمران يتعلقان بي

ومما أذكره في هذه الليلة أمران يتعلّقان بي:

الأول: أننا تحدثنا حديثا طويلًا عن الأصولية والأصوليين، وتعرضت لشرح معنى الأصولية. وهي تعني: العودة إلى الأصول والجذور، ونحن عندنا أصول الدين، وأصول الفقه، وينسب إليهما فيقال: أصولي.

وقد قال السفير: إذن أنت تعتبر نفسك أصوليًّا؟

قلت: بل عريقًا في الأصولية. ومن حكمنا المأثورة: إنما يحرم الوصول، من ضيّع الأصول. وما دامت الأصولية هي التمسُّك بالجذور، فاللهم أحيني أصوليا، وأمتني أصوليا، واحشرني في زمرة الأصوليين!

الأمر الثاني: كلمة قالها شيخنا الغزالي أمام الإخوة والضيوف، فأحرجني بها. وذلك حين أجبت عن بعض الأسئلة المطروحة، مما سرَّ الشيخ وأثلج صدره. فقد قال في صراحة: كان يوسف فيما مضى تلميذًا لي، أما اليوم فأنا تلميذه!

قلت: يا مولانا، أنا لا أزال وسأظل تلميذك اليوم وغدًا.

وبعد سهرة طيبة، ودّعنا السفير، وشكرناه، جزاه الله خيرًا، واستعددنا للرحيل عائدين إلى القاهرة، داعين بدعاء السفر: اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد، آيبون تائبون عائدون، لربنا حامدون.

مع قضية فلسطين

أولى القضايا التي تشغل فكري وقلبي

كانت قضية فلسطين من قديم، أولى القضايا التي تشغل فكري وقلبي، ومنذ دخلت المعهد الديني في طنطا ١٩٤٠م، وجدت نفسي أسير مع الطلبة في ٢ نوفمبر من كل عام، احتجاجًا على وعد «بلفور»، وزير خارجية بريطانيا، الذي وعد اليهود في العالم بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين. هكذا فهّمنا طلبة القسم الثانوي في المعهد، الذين جاءوا إلينا، في المعهد الابتدائي، وأخرجونا لنشاركهم في مظاهرتهم المحتجة على تغلغل اليهود في فلسطين.

اهتمام طلبة الإخوان المسلمين بفلسطين

وقد عرفت فيما بعد أن الطلبة الذين كانوا يقودون هذه المسيرات ويلقون الخطب النارية، والقصائد الثورية، كانوا من طلبة الإخوان المسلمين، الذين كانوا أكثر المصريين اهتماما بفلسطين، وإدراك خطر المشروع الصهيوني عليها، وكان الأستاذ حسن البنا مرشد الجماعة أكثر الناس وعيًا بهذا الخطر، المؤيد من الغرب. وإن كان العرب للأسف في غفلة عما يجري من حولهم.

وعندما كنت في السنة الثالثة الابتدائية، بدأت أشارك بإلقاء الخطب، وإنشاد القصائد، والمشاركة في قيادة المظاهرات اللاهبة، والهتاف الصاخب بحياة فلسطين، وسقوط الصهيونية.

جمع التبرعات لخدمة قضية فلسطين

وبعد ذلك تطور عملنا لخدمة قضية فلسطين، بعد أن التحقت بالإخوان. وكان الإخوان يجمعون السلاح من كل حدب وصوب، لتسليح الفلسطينيين، وكان شراء هذه الأسلحة يحتاج إلى مال، فكنا نذهب إلى المدن والقرى في مصر لنجمع التبرعات لمعونة فلسطين.

وبعد ذلك فتح الإخوان باب التطوع لمن يريد الجهاد في فلسطين، واستجاب الألوف لهذا النداء، ولكن الإمام البنا، رفض قبول طلاب المراحل الثانوية في التطوع، ولم يستثن من ذلك إلا أحد إخوتنا الذي كان متيّماً بالجهاد في فلسطين، وهو الأخ الشهيد عبد الوهاب البتانوني رحمه الله ورضي عنه. وقد تحدثت عن ذلك في الجزء الأول.

إحكام خيوط المؤامرة وتنفيذها

وكانت هذه كلها محاولات للإنقاذ، ولكن المؤامرة قد أكملت وأحكمت خيوطها، وبدأت في التنفيذ، تحت سمع وبصر بريطانيا دولة الانتداب على فلسطين. وتمكّنت عصابات الإرهاب التي كانت تملك من الأسلحة ما تشاء ـ في حين يحرم على أيِّ فلسطيني تملك أي سلاح ـ من فرض سلطانها بالقوة وبالحديد والنار، والمجازر الرهيبة التي تقذف الرعب في قلوب الفلسطينيين. فخرجوا من ديارهم قسرًا وقهرًا، ليرثها الغرباء القادمون من خارج فلسطين.

ورأينا مدن فلسطين الكبرى تسقط مدينة مدينة، حيفا ويافا وعكا، وغيرها، ويرثيها أخونا الخطيب المؤثر زعيم الجامعة المصرية، مصطفى مؤمن بصوته الباكي في إذاعة مصر، ونحن نسمع ونبكي، ونغلي من داخلنا، ولا نملك غير الدموع.

قيام دولة «إسرائيل»

وما زلنا كذلك حتى انتهت الحرب العالمية الثانية، وقامت الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، ثم قامت دولة إسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م، واعترفت بها بعد

دقائق: أمريكا، كما اعترفت بريطانيا وروسيا وأوربا، وأعلن الجميع: أنها خلقت لتبقى!

ثم ساقونا إلى الاعتقال في جبل الطور، في عهد الملكية، وجاءوا بالمتطوِّعين الأبطال بلباس الميدان إلى ما وراء القضبان، جزاء لهم على ما أبدوه من بطولات شهد بها اليهود أنفسهم، وشهد بها القادة البريطانيون، كما شهدت بها الدماء الزكية التي أريقت على تراب فلسطين، وجثث الشهداء التي واراها ذلك الثرى الطاهر.

الدفاع عن قضية فلسطين فريضة

ولم نزل على وفائنا لقضية فلسطين، التي نراها قضيتنا، ونرى الدفاع عنها فريضة علينا، فإن الشريعة الإسلامية تفرض على المسلمين أن يجاهدوا لتحرير كل قطعة أرض يحتلها الأعداء، إذا لم يقدر أهل الأرض على مقاومتهم، وإخراجهم من أرضهم، فتنتقل الفريضة منهم إلى جيرانهم، الأقرب فالأقرب، حتى يشمل المسلمين كافة.

هذا هو الواجب مع كل جزء من أرض الإسلام، باعتبار المسلمين أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، كما أن الإسلام يعتبر بلاد المسلمين دارا واحدة، يسميها الفقهاء «دار الإسلام». وحمايتها وتحريرها مسئولية جميع أبنائها بالتضامن. فكيف إذا كان هذا الجزء هو أرض الإسراء والمعراج و أرض المسجد الأقصى؟!

هذه نظرتنا إلى قضية فلسطين: إنها قضيتنا، وليست قضية إخواننا ونحن نساعدهم! وهذه هي النظرة الإسلامية الصحيحة.

وكم حاول بعض الذين لا يعلمون: أن يثنوا أعناقنا عن هذا الموقف، ويقولون: إن أصحاب القضية لا يعتنون بها مثل عنايتكم، وأنا أقول لهم: إنكم غالطون، نحن أصحاب القضية، ولسنا غرباء عنها، أو دخلاء عليها.

إنشائي قصيدة «نشيد العودة»

وكنت في خطبي ومحاضراتي، أذكِّر أبدًا بقضية فلسطين، وفي شعري كذلك. وفيما أنشئه من أناشيد حماسية يتغنّى بها الشباب. مثل «نشيد العودة». الذي يقول:

أنـا عـائـد، أقسمت إني عائدُ والحـقُّ يشهد لي، ونِعْمَ الشاهدُ
ومعي القذيفة والكتاب الخالد ويـقـودني الإيـمان نعم القائد

* * *

لغة الدِّما لغتي، وليس سوى الدِّما أنا عن فنون القول أغلقت الفما
وتـركـت للرشاش لأن يتكلما ليحيل أوكـار الـعـدو جهنما

* * *

يـا أخـوتي هـبُّوا لـيـوم الموعد هذي يدي، فضعوا يديكم في يدي
لا تذكروا لي الأمس نحن مع الغد ولـنـا صـلاح قـدوة، فلنقتد

وحين أُخذت في صيف سنة ١٩٦٢م بعد عودتي من قطر للإجازة، وأُلقيت في سجن المخابرات المصرية حوالي سبعة أسابيع، أنشأت ثلاث قصائد، إحداها عن فلسطين، بعنوان «ثورة لاجئ».

كتابي «درس النكبة الثانية»

وحين وقعت هزيمة ١٩٦٧م، التي سموها «النكسة» أصدرت كتابًا بعنوان: «درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟» أقصد: أنها النكبة الثانية بعد النكبة الأولى سنة ١٩٤٨م. فقد اغتصبوا ما اغتصبوا من فلسطين بحرب ١٩٤٨م، وبهذه الحرب الخاطفة استولوا على ما بقي من فلسطين.

الدعوة إلى مؤتمر إسلامي عالمي

وظللت مع فلسطين بعقلي وقلبي، وجهدي وفكري، وشعوري وعزمي، وفي بعض الأوقات أصاب القضية ركود وفتور، ففكّر الإخوة الإسلاميون في فلسطين أن يحركوا القضية، وخصوصًا قضية القدس والأقصى. ويحركوا العالم الإسلامي لمناصرتها. وكان

من هذا التفكير: الدعوة إلى مؤتمر إسلامي عالمي، تدعو إليه شخصية إسلامية عالمية مقبولة من عامة المسلمين وخاصتهم، ووقع اختيارهم علي، لأقوم بهذه المهمة.

ترشيحي أبا الحسن الندوي لرئاسة المؤتمر والدعوة إليه

وفي رحلة من رحلاتي إلى عَمّان التقيتهم ليرتبوا معي هذا الأمر، وتعيين مكانه وزمانه والمدعوين إليه. ولكنني اقترحت عليهم شخصية أخرى غيري هي أحق وأولى، وإن كانوا في أول الأمر توقفوا واعترضوا، وقالوا: إننا استعرضنا الشخصيات الإسلامية بحياد وموضوعية، ورجحت كفتك. قلت لهم: أنتم حصرتم أنفسكم في الشخصيات العربية، ولكن عندي شخصية إسلامية عالمية غير عربية. قالوا: من؟ قلت: الشيخ العلامة أبو الحسن الندوي.

فهذا الشخص بعلمه وزهده ودينه وتاريخه وسنه موضع إجماع عند علماء المسلمين. ثم هو بوصفه غير عربيّ يعطي للقضية بُعدها الإسلامي العالمي. ثم هو غير منسوب إلى جماعة من الجماعات أو حركة من الحركات. وهذه ميزة أخرى. فعلى بركة الله تعالى نختاره ليكون هو رئيس المؤتمر وباسمه توجه الدعوات.

والحق أن اسم الشيخ لقي القبول من الجميع، ومثله لا يختلف عليه اثنان.

وبدأنا نفكر في المكان، فلم نجد مكانًا في العالم العربي يقبل استضافة مؤتمر كمؤتمرنا هذا. واقترح بعضنا اسم ماليزيا، ولكن وجدنا أن ماليزيا بعيدة عن المنطقة العربية، ومكلفة كثيرًا، وسيكون تأثيرها غير متكافئ مع التكاليف.

ثم اقترح اسم باكستان، ورئي أنها أنسب من غيرها، واتصل بعض الإخوة بالجماعة الإسلامية، ورحَّبوا بذلك، وكان ذلك في عهد نواز شريف، وهو أقرب إلى الإسلاميين.

وبدأنا نفكر في أيِّ مدينة في باكستان يعقد المؤتمر، فرشّحت إسلام آباد، وهي العاصمة، ولها مزايا بهذا الاعتبار، ولكن رأينا أن انتقال الناس من مطار إلى مطار، سيكون شاقًا على الناس، وقد لا يجدون أماكن، والانتقال بالسيارات متعب جدًا، ويحتاج إلى وقت طويل. ولهذا رأينا أن يكون في كراتشي، لأنها محطة الوصول للجميع.

لقائي لأول مرة بخالد مشعل (أبو الوليد)

وكان في هذه اللقاءات شاب التقيته لأول مرة، ولكنني وجدته نابهًا متميزًا، حاضر الذهن، وافر الوعي، كان إخوانه يكنونه: أبا الوليد. وقلت في نفسي: هذا الشاب جدير بأن يكون له مكان في القيادة! ثم عرفت بعد ذلك أن اسمه خالد مشعل!

ولقد اتصلت بالعلامة مولانا أبي الحسن الندوي، وأبلغته باختيار الإخوة له لرئاسة المؤتمر المنشود، فرحَّب بذلك، على أن أكون نائبًا ومساعدًا له، قلت: أنا في خدمتك وعونك دائمًا.

سبب تأجيل فكرة المؤتمر

وظل الإخوة يعدون العدّة، ويختارون الأسماء التي ستدعى، والشعارات التي سترفع، والأوراق التي ستقدم ...إلخ. ثم شاء القدر أن يحدث تغيير سياسي في باكستان، وأن تسقط حكومة نواز شريف، وتأتي حكومة بنظير بوتو.. وتغيَّر بعدها كل شيء، وأجلت فكرة المؤتمر، أو قل: ألغيت.

الانتفاضة الفلسطينية الأولى

كانت الانتفاضة الأولى للشعب الفلسطيني: ثورة تلقائية على المظالم المستمرة، التي ترتكبها الدولة الصهيونية الفاشية في حقه. وهو يصبر ويصابر، ويكظم غيظه، ويحاول أن يشتكي إلى مجلس الأمن أو الأمم المتحدة، أو للجامعة العربية، أو إلى من بيدهم الأمر، مثل الأمريكان والاتحاد السوفييتي، ولكن أحدًا لم يسمع لشكواه، ولم ينصت إلى صراخه، وما زال المرجل يغلي في صدره ويغلي، حتى تفجَّر المرجل، وكانت الانتفاضة أو الثورة، التي انطلقت من غزّة، ومن جامعتها وجوامعها، ولذا أطلقوا عليها في أول الأمر: أنها ثورة المساجد، فقد انطلقت أول ما انطلقت من المساجد، قامت بها الأيدي المتوضئة، والقلوب المؤمنة، وجعلت راياتها المصاحف، وهتافاتها: لا إله إلا الله، والله أكبر.

ثورة أطفال الحجارة

وهذه هي الثورة التي عرفت باسم «ثورة أطفال الحجارة» فقد انطلق الصبيان يقاومون التجبر الإسرائيلي، والحديد الإسرائيلي، بالحجارة الصغيرة والحصى، يقذفونه بأيديهم، أو بالمقاليع الصغيرة «النبلة» يرمون بها الدبابات والمجنزرات والمصفحات، لا يبالون بالموت الذي يواجههم بإطلاق الرصاص عليهم من قبل العدو المتوحش، الذي لا يرحم طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة مسنّة. وهو أينما توجه يقتل ويدمر، يَمْنة ويَسْرة، مشرقًا ومغربًا. فليس للروح ولا للحياة عنده قيمة ولا حرمة. ولا غرو، فقد علمته التوراة التي يقرؤها ويؤمن بها: أنه إذا حارب أهل هذه البلاد ـ فلسطين أو أرض كنعان ـ فالواجب عليه ألاّ يستبقي فيها نسمة حية، وأن يبيد سكانها على بكرة أبيهم!

وقوفي مع الانتفاضة

وكنت أرى من واجبي أن أقف بكل قوتي مع هذه الانتفاضة الشعبية العارمة، وأن أشد عضدها، وأقوي ظهرها، بلساني وقلمي، وحركتي واتصالاتي، وأن نجمع لها العون، من العرب والمسلمين حيثما كانوا.

وما كنت أحب أن أسمي هذا العون «تبرّعا» بل أراه فرضا على الأمة، وهو لون من الجهاد بالمال الذي أوجبه الله على الأمة: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٤١). وإذا كان الإخوة في فلسطين يبذلون ـ عن طواعية ـ أنفسهم ودماءهم، فلا أقل من أن نبذل نحن بعض أموالنا.

وكنت أقول: نستطيع أن نعطيهم من زكوات أموالنا، ومن زكاة فطرنا، ومن وصايا أمواتنا، ومن عوائد الأوقاف، ومن الحقوق الواجبة في المال بعد الزكاة، ومن الصدقات التطوعية، وغيرها.

بل هم أولى بالزكاة من غيرهم، لأن كثيرًا منهم أصبحوا فقراء ومساكين وغارمين وأبناء سبيل «مشردين» وبوصفهم أيضًا من مصرف «في سبيل الله».

بل إذا كان هناك مال مكتسب من شبهة أو حرام، مثل فوائد البنوك، فهم أولى بأن تصرف إليهم، بدل أن نتركها للبنوك، لأن المال مصرفه شرعا: الفقراء وجهات الخير، وهم في مقدمتها.

تأسيس حركة المقاومة الإسلامية (حماس)

وظلت هذه الانتفاضة صامدة، برغم التضحيات الكبيرة والمتتابعة، وعرف الإسرائيليون أنهم أمام شعب لا يركع ولا يهون أبدًا. وفي هذا الوقت في ١٥ ديسمبر ١٩٨٧م، أعلن عن تأسيس «حركة المقاومة الإسلامية» التي يرمز إليها بـ«حماس» باعتبارها حركة جهادية، تنهج خط المقاومة العسكرية، لتحرير فلسطين، كل فلسطين، وتعتبر الممثلة للجناح العسكري للإخوان المسلمين في فلسطين، الذين لا ينسى أحد جهادهم من أجل الأرض المقدّسة، أرض الإسراء والمعراج، وسيظل التاريخ يذكر شهداءهم الذين روّت دماؤهم ثرى فلسطين.

وبعد فترة أعلنت الحركة عن تأسيس جناحها أو ذراعها العسكري: كتائب عز الدين القسام. اختاروا أن تحمل اسم هذا العالم الديني السوري الذي استشهد من أجل فلسطين.

مكيدة مسيرة الحلول السلمية

وفي هذا الوقت الذي ظهرت فيه حماس على الساحة قوة فتية ضاربة، أثبتت وجودها بسرعة، وذكرت اليهود بما شاهدوه سنة ١٩٤٨م من متطوعي الإخوان، الذين كانوا يسرعون الخطى إلى الموت في سبيل الله، حتى قال بعض اليهود: نحن لا نخاف من أي جيش أو جماعة، إلا من جماعة «الله أكبر»!

في هذا الوقت بدأ المكر اليهودي، ومعه الكيد الأمريكي، يرسم إستراتيجية جديدة، من شأنها أن تشتِّت جهد المقاومة، وتمزِّق شملها المتلاحم، فرأوا أن يجربوا سلاحًا آخر مع الفلسطينيين، وهو ما سمّوه «الحل السلمي» أو «الحل السياسي» وأن يجروا أرجلهم

إلى هذا المنزلق أو هذا الفخ، الذي من دخله، فهيهات أن يخرج منه. ففتحوا لهم باب التفاوض في السر، وكان هناك من يسيل لعابه إلى هذا الحل، بل كان يتمناه، ويسعى إليه ركضا. وكان في البلاد العربية من يشجع هذا، ويحث عليه.

وبدأت المسيرة المزعومة للسلام مع الفلسطينيين، وهو سلام ملغوم، سلام كما تريده إسرائيل، وكما تملي صورته وشروطه، وهو في الواقع استسلام لما تريده إسرائيل.

وكانت مفاوضات مدريد، ولقاءات العرب والفلسطينيين مع الإسرائيليين ورئيس حكومتهم إسحاق شامير، الذي رفض أن يجتمع بهم يوم السبت؛ لأنه يوم عطلة لا عمل فيه عند اليهود. وقال له العرب: لقد كان أمس يوم جمعة عندنا، ولم تعطل المفاوضات فيه، قال: أما نحن فلا نجاوز التوراة.

قصيدة سراب السلام أو سلام السراب

وقد أنشأت قصيدة بهذه المناسبة سميتها: سراب السلام أو سلام السراب، وفيها قلت:

وقالوا أبشروا بالسلـ	ـم يا عرب امرئ القيس!
بدت في الأفق طلعة شمـ	ـسه صفراءَ كالورس!
تولى عهدُ شامير	شبيهِ الأسود العنسي!
وأقبل بعدُ رابينٌ	أخو عنترةَ العبسي!
ورابينٌ كشامير	فمن نحس، إلى نحس!
فلا أسوأ من هذا	سوى هذا، وبالعكس!
أفاعٍ كلها سمٌّ	وإن نَعمتْ لدى اللمس!
فيا عجبًا لمن يجري	وراء سرابه النفسي
يظن له به ريّا	ويرجع فارغَ الكأس

يُفرّطُ في دم الشهدا ... ء، يا لَلْعار والبؤس!

يبيعُ الأرض والتاريـ ... ـخ بالأرخص من فَلْسِ

بحكم في حمى صهيو ... نَ، يا للثّمن البَخْس!

فلا دولتُهُ قامت ... ولا أبقى على النفس

وضاع جهادُ أجيالٍ ... فقد دفنوه في الرَّمْسِ

جهود كلها ذهبت ... كأن لم تَغْنَ بالأمس

فما معنى فلسطين ... بلا أقصى ولا قدس؟

فلسطين بلا قدس ... كجثمان بلا رأس

* * *

تأسيس بنك التقوى

اتصال الأخ يوسف ندا وإعلامي بتأسيس بنك التقوى

اتصل بي الأخ الصديق المهندس يوسف ندا هاتفيًا من «لوجانو» في سويسرا، وقال: لعلك عرفت بعزمنا على تأسيس بنك إسلامي، اخترنا أن نسميه «بنك التقوى» وربما قرأت أسماء المكتتبين أو الراغبين في الاكتتاب والمشاركة فيه.

قلت: نعم قرأت ذلك، وتمنّيت لو استشرتني قبل ذلك، وأنت تعلم اهتمامي بشأن البنوك الإسلامية.

قال: نعم أعلم ذلك، وقد رشّحتك ـ مع من رشَّحوك ـ لمجلس إدارة بنك فيصل الإسلامي في القاهرة من زمن طويل. وبماذا كنت تشير علينا لو استشرناك، فما زال للشورى مكانها؟

رأيي في اختيار اسم البنك

قلت: لكلٍّ شيء أوانه، فإذا فات أوانه لم تعد تُجْدي المشورة. فقد كنت أود أن تختاروا اسمًا غير اسم «التقوى» مثل: بنك الخير، بنك الطيبات، بنك الاستقامة، أو نحو ذلك.

قال: وهل في تسمية «بنك التقوى» حرج؟

قلت: لا حرج، ولكن فيها شيء من تزكية النفس، وعلى كلٍّ حال، هذا أمر قد وقع، ونسأل الله أن يؤسَّس البنك على تقوى من الله ورضوان.

رأيي في إعلان أسماء المكتتبين في البنك

والأمر الآخر: كنت أود ألا تعلنوا على الناس هذه القائمة من الإسلاميين من أقطار شتى، فكأننا نزفّهم إلى رجال المباحث وأمن الدولة.

قال: أردنا أن نُعْلم جماهير الملتزمين بالإسلام: أن هذا البنك مؤيَّد ومشجَّع من كل شخص غيور على الإسلام، عامل لخدمته.

قلت: لا شك في أن هدفكم نبيل، وأن نيتكم كانت صالحة، ولكنها قدّمت خدمة للمتربصين بالدعوة الإسلامية، والحركة الإسلامية. ولعل الله تعالى يجزيكم بحسن نيتكم، ويعمي أعين الكائدين للإسلام وأمته عنكم.

رئاستي لهيئة الرقابة الشرعية في بنك التقوى

ثم قال المهندس يوسف ندا: لقد اتصلت بك لتضع يدك في أيدينا، لنقيم هذا البنك على أسس إسلامية واقتصادية سليمة، وأن ترأس هيئة الرقابة الشرعية في البنك، حين نتتهي من تأسيسه، وتختار لها من تحب من إخوانك العلماء الذين تثق بقوتهم وأمانتهم.

قلت: عزيز علي والله أن أعتذر عن عدم استجابتي لرغبتك، برغم معزّتك عندي، ولكن كثُرت الأعباء عليّ، وهي تعطلني عن عملي العلمي، الذي أرى فيه حياة روحي، وروح حياتي.

قال: يعني يا شيخ يوسف تتحمّل مسؤوليات بنوك شتّى هنا وهناك، وحين يلجأ إليك إخوانك الذين كلهم ثقة بك، تتخلّى عنهم؟!

قلت: والله ما أتخلّى عنهم، ولكن أخشى ألا أقوم بالأمر المنوط بي كما يجب، ولا سيما أن هذا العمل يتطلب أسفارًا إلى أوربا.

فقال: سنخفّف عنك ما استطعنا، وسنعفيك من الأسفار ما أمكننا، وسنعقد بعض الاجتماعات عندك في الدوحة.

قلت: إذن نستعين بالله، ونتوكل عليه، وندعوه أن يقوي ظهرنا.

وقلت للمهندس ندا: ليتك تبعث إليّ بنظام البنك لأنظر فيه مع بعض أقراني، وهل هو قابل للتعديل أو لا؟

قال: نعم، هو قابل للتعديل، ولكم أن تعدلوا فيه ما شئتم حتى يكون متوافقًا مع مبادئ الشريعة الإسلامية.

تعديلات جذرية في النظام الأساسي

وأرسل إليّ النظام الأساسي، واجتمعت أنا وبعض إخواني: الدكتور جمال الدين عطية الذي كان يعمل أستاذا بكلية الشريعة، والدكتور علي محيي الدين القرداغي، ونظرنا في هذا النظام، وعدّلنا فيه تعديلات جذرية. وأرسلناها إلى المهندس يوسف ندا وشريكه الأستاذ غالب همّت، ليأخذ طريقه القانوني في إقراره واعتماده من الجهات المسؤولة في «البهاما» التي سجّل فيها البنك. وقد أدخلنا على النظام تعديلات مهمة، ليصبح موافقًا للشريعة الإسلامية، ولعله أول بنك يتاح له مثل هذا، وقد وافق إخواننا المؤسّسون على كل ما طلبناه.

هيئة الفتوى والرقابة

ثم طلب إلي الأخ يوسف ندا أن أختار من يعملون معي في هيئة الفتوى والرقابة الشرعية، فاخترت الأخوين الكريمين: الدكتور علي محيي الدين القرداغي من قطر، والدكتور عبد الستار أبو غدة من سورية، وهو يعمل في جدة، مع الشيخ صالح كامل.

ومما نشهد الله عليه: أنّ إخواننا في إدارة بنك التقوى ندا وهمّت ومن يعاونهما، كانوا صادقين في التعاون معنا على أن تكون معاملات البنك شرعية خالصة، لا شائبة فيها، ولا دخل.

وكنا نطيل النقاش في فهم القضايا والإحاطة بها من جميع جوانبها، حتى يفصل فيها، دون محاولة من فريق الاحتيال على الآخر، وكما قال الأخ ندا: نحن نريد ربحًا حلالًا صرْفًا.

استقامة معاملات بنك التقوى

وكان بنك التقوى فيما شاهدت: أسلم البنوك الإسلامية من حيث استقامة المعاملات وبُعدها عن الصورية التي وقع فيه كثير من المصارف.

ومن هنا لم يدخل البنك في بيع المرابحة، لما فيه من قيل وقال، وقد رأينا أخانا الشيخ صالح الحصين يحاول تخليص شركة الراجحي من المرابحة، فما استطاع.

كما لم يدخل بنك التقوى في متاهات سوق السلع والمعادن الدولية، التي تحيط بها شبهات الشكلية والصورية من كل جانب، ولا يكاد المرء يرى فيها سلعًا تتحرك من منتج إلى مستهلك، إلا ما ندر. وإنما هي أوراق تُسوّد وتنقل الملكية من فلان إلى فلان، والسلعة في مكانها لم تغادره.

وظل البنك سنين يعطي من الأرباح للمساهمين والمضاربين أفضل مما يعطي غيره من البنوك.

كيد القوى المتربصة

ولكن أعين المراقبين من القوى المتربصة بالإسلام وأمته، الراصدة لكلِّ حركة في الأمة، وخصوصًا حركة المال والاقتصاد، بدأت تكيد للبنك وتشوّش عليه سمعته، وتزعم أنه يموّل جهات إرهابية، يقصدون حركة المقاومة الإسلامية (حماس).

بدأت ذلك بعض الصحف الإيطالية، وليس معها أي دليل تقدِّمه، إلا دعاوى عريضة ليس عليها أدنى بيّنة، ثم تلا ذلك فيلم في سويسرا، كل ذلك بقصد تعكير الأجواء، وتخويف الناس، ليسحبوا أموالهم من البنك فينهار، ولا ريب في أن أغلبية الناس لم يبالوا بهذه الدعايات المسمومة، ولكن أقلية من الناس تأثرت بها، فطلبت سحب رصيدها. ومجرّد طلب السحب يحدث هزة ليس في صالح البنك.

الزلزال المالي

ثم جاء الزلزال المالي والنقدي الذي حدث في جنوب شرقي آسيا، في ماليزيا

وإندونيسيا، وانخفاض قيمة العملات انخفاضًا هائلًا مرة واحدة، وأثّر ذلك في كثير من الشركات والمؤسّسات، وبعضها كانت لبنك التقوى معه معاملات كبيرة، وهو من أوليات الأمور التي يعيبها الاقتصاديون: أن تضع بيضك كله أو جله في سلة واحدة، فإذا سقطت السلة، وانكسر البيض، ضاع كل شيء.

ولكن هذا ما كان، مع ظروف أخرى، زادت الأمر تعقيدًا، ولم يكن في الإمكان تدارك الخسارة، ولم يكن لدى البنوك الإسلامية صندوق للتضامن يمكن منه جَبْر الكسر، حتى يصح ويقوى.

مصادرة البنك وتصفيته

وزادت الطين بلة أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، فشلَّت البنك تمامًا عن أيِّ حركة، بل صادرته وأدخلته تحت الحراسة، وفي هذا نفقات هائلة، كلها عبء على البنك، الذي يدفع ولا يكسب، بالإضافة إلى القضايا التي رفعها البنك في اتّجاهات شتّى، وكلها أعباء ونفقات ضخمة تؤخذ من لحم الحي، مما بقي من رأسمال البنك الذي أحاطت به المصائب من كل جانب، وما زال الإلحاح على إدارته من الجهات المسؤولة في البهاما، ليقوم بتصفية البنك نهائيًّا، وهو ما كان.

خسارتي بخسارة بنك التقوى

لقد كانت خسارتي أنا وأبنائي وبناتي كبيرة بخسارة بنك التقوى، فقد وضعنا فيه في النهاية جُل مدّخراتنا، وهي مبالغ كبيرة بالنسبة لنا، ولم يقدر لنا أن نصرف بعض الأرباح، كما فعل بعض المودعين، بل ما تحقّق لنا من أرباح وضعناه في مضاربات البنك. ولا يسعنا إلا أن نحتسب ما أصابنا عند الله سبحانه، وندعوه جل شأنه أن يعوّضنا عن كل خسارتنا، في الدنيا والآخرة.

حواراتي مع الصحف والمجلات

مع رجال الإعلام والصحافة

في هذه المرحلة لقيتُ كثيرين من رجال الإعلام والصحافة من عرب وغربيين، أوربيين وأمريكان، بعضهم جاء إلى الدوحة لمجرَّد لقائي وسؤالي، وخصوصًا عن الصحوة الإسلامية، وصعودها الذي لفت إليه الأنظار في العالم، حتى قال لي صحفي أمريكي باندهاش: إنَّ الشباب في العالم كله يبتعد عن الدين، وشباب العالم الإسلامي يلتفُّ حول الدين، ودعاة الدين، ما سر ذلك؟

ومعظم إجاباتي عن هذه الحوارات كانت مرتجلة، ولكنها كانت واضحة في ذهني تمامًا، وبعضها كتبتها.. وقد جمع بعضها ونشر في كتب.. وبعضها أوصيتُ بجمعه ونشره، وصدر منه: كتاب «قضايا معاصرة على بساط البحث»، وكتاب «حوارات ولقاءات حول الإسلام والعصر» في جزأين، وكتاب «نحن والغرب: أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة».

حوار الأستاذ عمر عبيد حسنة

ومن هذه الحوارات المهمة التي تستحق التسجيل في هذه المذكرات: حوار الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ عمر عبيد حسنة، مدير مجلة «الأمة» القطرية الشهيرة، الذي أجرى معي حوارا معمّقا ومطولا في رمضان ١٤٠٨هـ إبريل ١٩٨٨م، نشره في «كتاب الأمة» بعنوان «فقه الدعوة: ملامح وآفاق» الذي جمع فيه مجموعة حوارات «الأمة» مع

كبار العلماء والمفكرين المسلمين، وكان حواره معي حول: «الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية وحاجات العصر».

خلاصة آرائي في الإصلاح والتجديد

وقد قدّم الأستاذ عمر لهذا الحوار بتعريف مركّز، تضمن خلاصة آرائي في الإصلاح والتجديد الإسلامي. ومما جاء فيه:

ولعل نظرة سريعة على عناوين الكتب التي قدَّمها للمكتبة الإسلامية، تعطي صورة واضحة عن شمولية اهتماماته، والقدر الهام الذي ساهم به في تشكيل العقل الإسلامي المعاصر، وما منحه من الفقه الضروري للتعامل مع الحياة، وتصويب المسار للعمل الإسلامي، وترشيد الصحوة لتلتزم المنهج الصحيح، وتأمن منزلقات الطريق.

فهو يرى أن الحركة الإسلامية تعني مجموع العمل الإسلامي الجماعي الشعبي المحتسب المنبثق من ضمير الأمة، والمعبِّر بصدق عن شخصيتها وآلامها وآمالها وعقيدتها وأفكارها وقيمها الثابتة وطموحاتها المتجدِّدة وسعيها إلى الوحدة.

كما يرى أنه ليس من العدل تحميل الحركة الإسلامية مسئولية كل ما عليه مسلمو اليوم من ضياع وتمزُّق وتخلُّف، بل إن ذلك هو حصيلة عصور الجمود وعهود الاستعمار، وإن كان عليها بلا شك قدر من المسئولية يوازي ما لديها من أسباب وإمكانات مادية ومعنوية هيأها الله لها، استخدمت بعضها، وأهملت بعضا آخر، وأساءت استعمال بعض ثالث.

ويرى ضرورة أن تقف الحركة الإسلامية مع نفسها للتقويم والمراجعة، وأن تشجِّع أبناءها على تقديم النصح وإن كان مُرًّا، والنقد وإن كان موجعا. ولا يجوز الخلط بين الحركات الإسلامية والإسلام ذاته، فنقد الحركة لا يعني نقد الإسلام وأحكامه وشرائعه. ولقد عصم الله الأمة أن تجتمع على ضلالة، ولكنه لم يعصم أي جماعة، أن تخطئ أو تضل خصوصًا في القضايا الاجتهادية التي تتعدد فيها وجهات النظر.

ويقول: إن بعض المخلصين يخافون من فتح باب النقد أن يلجه من يحسنه ومن لا

يحسنه، وهذا هو العذر نفسه الذي جعل بعض العلماء يتواصون بسد باب الاجتهاد، والواجب أن يفتح الباب لأهله، ولا يبقى في النهاية إلا النافع، ولا يصح إلا الصحيح.

وهو لا ينكر تعدُّد الجماعات العاملة للإسلام، ولا يرى مانعًا من التعدد إذا كان تعدد تنوع وتخصُّص: فجماعة تختص بتحرير العقيدة من الخرافة والشرك، وأخرى تختص في تحرير العبادات وتطهيرها من البدع، وثالثة تُعنى بمشكلات الأسرة، ورابعة تعنى بالعمل التربوي. ويمكن أن تعمل بعض الجماعات مع الجماهير وبعضها الآخر مع المثقفين، على شرط أن يُحسن الجميع الظن بعضهم ببعض، وأن يتسامحوا في مواطن الخلاف، وأن يقفوا صفًّا واحدًا في القضايا الكبرى.

ويرى أنَّ على الحركة الإسلامية أن تنتقل من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل على مستوى الإسلام ومستوى العصر ـ ولا يعفيها من سؤال التاريخ أن تقول: إنها كانت ضحية لمخطّطات دبَّرتها قوى جهنمية معادية للإسلام من الخارج ـ وأن تعمل في إطار النخبة والجماهير معا. وسوف تنجح الحركة الإسلامية عندما تصبح حركة كل المسلمين لا حركة فئة من المسلمين.

ويأخذ على بعض العاملين للإسلام حرمان أنفسهم من العمل لخير الناس أو مساعدتهم حتى تقوم الدولة الإسلامية المرجوة. فهو يرى أن كل مهمة هؤلاء «الانتظار» فهم واقفون في طابور الانتظار دون عمل يذكر حتى يتحقق موعودهم.

ويرى ضرورة التخطيط القائم على الإحصاء ودراسة الواقع، وأن من آفات الحركة الإسلامية المعاصرة غلبة الناحية العاطفية على الاتجاه العقلي والعلمي، كما أن الاستعجال جعل الحركة الإسلامية تخوض معارك قبل أوانها، وأكبر من طاقتها.

ويأخذ على بعض العاملين للإسلام النفور من الأفكار الحرة والنزعات التجديدية التي تخالف المألوف والمستقر من الأفكار، وضيقهم بالمفكرين، وربما أصدروا بشأنهم قرارات أشبه بقرارات الحرمان.

ويقول: إن اتباع أهواء العامة أشدّ خطرًا من اتباع هوى السلطان، لأن الذين يتبعون هوى السلطان يكشفون ويرفضون.

ويرى أنَّ الاستبداد السياسي ليس مفسدًا للسياسة فحسب، بل هو مفسد للإدارة والاقتصاد والأخلاق والدين، فهو مفسد للحياة كلها.

ويرى أن الصحوة الإسلامية تمثِّل فصائل وتيارات متعدِّدة كلها تتفق في حبها للإسلام، واعتزازها برسالته، وإيمانها بضرورة الرجعة إليه، والدعوة إلى تحكيم شريعته، وتحرير أوطانه، وتوحيد أمته.

ويعتبر أهم تيارات الصحوة وأعظمها هو التيار الذي أسماه تيار «الوسطية الإسلامية» لأنه التيار الصحيح القادر على الاستمرار، ذلك أن الغلو دائما قصير العمر وفقًا لسنة الله.

ويرى أن أهم المحاور التي يقوم عليها هذا التيار، والمعالم التي تميزه:

- الجمع بين السلفية والتجديد.
- الموازنة بين الثوابت والمتغيرات.
- التحذير من التجميد والتجزئة والتمييع للإسلام.
- الفهم الشمولي للإسلام[1].

وينصح الحركة الإسلامية أن تعمل على ترشيد الصحوة، ولا تحاول احتواءها أو السيطرة عليها، فمن الخير أن تبقى الصحوة حرة غير منسوبة إلى جماعة أو هيئة أو حزب.

ويرى أنه ليس من العدل ولا من الأمانة أن نحمّل الشباب وحدهم مسؤولية ما تورطوا فيه، أو تورط فيه بعضهم من غلو في الفكر أو تطرف في السلوك.. والعجب أننا ننكر على الشباب التطرف ولا ننكر على أنفسنا التسيّب، ونطالب الشباب بالاعتدال والحكمة ولا نطالب الشيوخ والكبار أن يطهروا أنفسهم من النفاق.

ويرى أن الشباب ضاق ذرعًا بنفاقنا وتناقضنا فمضى وحده في الطريق إلى الإسلام دون عون ما.

---

(١) وقد بلغت ثلاثين معلمًا في كتابي «فقه الوسطية والتجديد في الإسلام» الذي يصدر قريبًا عن مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد في مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع.

ويرى أن المؤسسات الدينية الرسمية ـ على أهميتها وعراقتها ـ لم تعد قادرة على القيام بمهمة ترشيد الصحوة الشبابية، وعلاج ظاهرة الغلو، ما لم ترفع السلطات السياسية يديها عنها، وأن الذي يعيش مجرَّد متفرج على الصحوة الإسلامية، أو مجرَّد ناقد لها وهو بعيد عنها، لا يستطيع أن يقوم بدور إيجابي في تسديدها وترشيدها، فلا بدَّ لمن يتصدَّى لنُصح الشباب من أن يعايشهم ويشاركهم همومهم، ويتعرَّف على حقيقة حالهم.

ويرى أن أسباب الخلاف قائمة في طبيعة البشر، وطبيعة الحياة، وطبيعة اللغة، وطبيعة التكليف، فمن أراد أن يزيل الخلاف بالكلية فإنما يكلف الناس والحياة واللغة والشرائع ضد طبائعها، وأن الخلاف العلمي لا خطر فيه إذا اقترن بالتسامح وسعة الأفق، وتحرر من التعصب وضيق النظر.

ويرى أن الأمة المسلمة اليوم ابتدعت في دين الله، والابتداع في الدين ضلالة، وجمدت في شؤون الدنيا، والجمود في الدنيا جهالة، وكان الأجدر بها أن تعكس الوضع فتتبع في أمر الدين، وتبتدع في أمر الدنيا.

ويرى أن من العلماء من قصَّر في واجب البلاغ المبين، ومنهم من مشى في ركاب السلاطين، ومنهم من جعل من نفسه جهازًا لتفريخ الفتاوى حسب الطلب.

والحكام في الغالب أشبه بشعوبهم، وهم إفراز مجتمعهم.

ولاشك في أن الأخ الدكتور يوسف القرضاوي يعتبر من أبرز الفقهاء المعاصرين الذين يتمتعون بقدرة متميزة على النظر الدقيق من خلال كسبه المتعمق للعلوم الشرعية، وتجربته الميدانية في مجال العمل الإسلامي، كما يعتبر من المفكرين الذين يمتازون بالاعتدال، ويجمعون بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر، وتجمع مؤلفاته بين دقة العالم، وإشراقة الأديب، وحرارة الداعية[1].

---

(١) من كتاب «الأمة» التاسع عشر «فقه الدعوة: ملامح وآفاق» ص ١٤٨ ـ ١٥١.

لقائي د. أسامة الباز في قطر

وفي هذا العام (١٩٨٨)، التقيت لأول مرة الدكتور أسامة الباز، وهو رجلٌ له باعه في رسم السياسة المصرية لقربه من الرئيس مبارك، ولموقعه في وزارة الخارجية.

كان ذلك بمناسبة زيارته لدولة قطر ضيفًا على الشيخ محمد بن حمد آل ثاني شقيق الأمير الشيخ خليفة بن حمد، ووزير التربية والتعليم، وهو رجل له صلة طيبة بمصر، لما له فيها من مشروعات دينية وخيرية.

اتصل بي الشيخ محمد مساء خميس، وقال لي: أرجو أن تلبي دعوتي في صلاة الجمعة في مزرعتي في طريق الشمال، وستتعرَّف على شخصية مصرية لها منزلتها، وربما لم يتح لك أن تلقاها من قبل، قلت: من هو؟ قال: الدكتور أسامة الباز.

قلت: أنت تعلم أني مرتبط بصلاة الجمعة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، ويذيعها تلفزيون قطر، وأنا أقدِّر دعوتك، وأحب أن ألتقي د. أسامة الباز، ولكن يشقُّ عليّ ترك مسجدي.

قال: من أجل خاطري، اتركه هذه المرة.

ولم أملك إلا أن أستجيب لدعوة الرجل، ولا أدري هل كانت هذه مبادرة شخصية محضة من الشيخ محمد، أو باقتراح من د. الباز، فربما أراد أن يتعرف عليَّ لأسباب عنده؟

وفي ضحى الجمعة ذهبنا إلى المزرعة. د. أسامة وعدد من المدعوين .. وسعينا إلى المسجد الذي أقامه الشيخ محمد في مزرعته، وقد حضره عدد لا بأس به، وألقيت خطبة الجمعة. وبعد قضاء الصلاة، ذهبنا إلى مجلس الشيخ محمد، وجلس د. أسامة بجانبي،

وتبادلنا التعارف والحديث، وقد عرفني بأن والده كان من علماء الأزهر، وأنه يعتز بذلك وبالأزهر وعلمائه.

تذكيري له بوجوب العناية بالأزهر

وانتهزت هذه البادرة، وقلت: هذا يوجب عليك العناية بأمر الأزهر أكثر من غيرك، باعتبارك من المشاركين في صنع القرار، والمشيرين الأساسيين على الرئيس. فالأزهر مؤسسة عالمية كبرى، لها وجودٌ في كلِّ أنحاء العالم، بخريجيها وأبنائها، وبآثارهم في التعليم والدعوة والإفتاء والتنوير.

وذكرت له ما يقوم به المبشِّرون النصارى من محاولة نشر دينهم في أنحاء العالم، حتى إنهم اجتمعوا (البروتستانت الأمريكان منهم) في ولاية كلورادو سنة ١٩٧٨م لتنصير المسلمين في العالم، وأنشئوا لذلك معهدًا سموه معهد «زويمر» ـ أحد كبار المبشِّرين والذي كانت إقامته بالبحرين ـ ورصدوا لذلك ألف مليون دولار.

وإذا تركنا المسيحيين، ونظرنا إلى إخواننا الشيعة، وجدناهم على رغم اشتغالهم بحرب العراق، يقومون بنشر دعوتهم المذهبية على قدم وساق.

تقصير أهل السنة في نشر الدعوة

وأهل السنة وحدهم هم المقصِّرون في نشر الدعوة، والأزهر هو المسئول الأول عن هذا الأمر، ويجب أن يمكَّن من أداء هذه الرسالة في أنحاء العالم، وأنا أحملك في هذه القضية التبعة الأولى.

قال د. الباز: إني موافق على كلامك كله، ولكن مثلك لا يخفى عليه أن السياسة تدخلها المخاوف والتوازنات بين الأمور بعضها وبعض. ومن ذلك: أن الدولة تريد للأزهر أن يقوى، ولكن لا تريده قوة في مواجهة الدولة.

قلت: ولماذا لا تعتبره قوة للدولة نفسها؟ فهو رسولها إلى العالم الإسلامي، وهو القائم بحماية الإيمان والأخلاق في الداخل. وهذا كله يقوي الدولة ولا يضعفها.

قال: ليس كل الأزهريين مثلك، يستطيع أن يضبط كلامه، ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، كما علمت أنَّ لك مطلق الحرية هنا، ومع هذا تقدِّر هذه الحرية، وتضع الأمور في موضعها.

قلت: الناس لن يقدِّروا نعمة الحرية إلا إذا عاشوها ومارسوها، ومع هذا لا بد أن توجد أخطاء، وعلى الناس أن يصححوا أخطاءهم.

وهنا دعانا مُضَيِّفنا إلى مائدة الغداء، وقال الدكتور: إنَّ حديثنا لم ينته، لا بد لنا من أن نلتقي مرة أخرى، فالحديث عن الأزهر ورسالته في الداخل والخارج أمر يجب أن يأخذ حقّه، ولعلي أراك حين تنزل مصر في بعض الأوقات.

قلت: أنا أنزل كل سنة في الإجازة الصيفية.

قال: لنحرص على أن نلتقي لنكمل حديثنا.

قلت: أنا حاضر لكل ما فيه خدمة ديننا وأوطاننا وأمتنا ورسالتها الحضارية. أرجو ألا يكون المانع من قبلكم.

وبعد الغداء، ودعته وانصرفنا، على أمل اللقاء.

حديث لم يتم حتى اليوم

وبعد حوالي سنة التقيت بالمصادفة مع د. الباز في مطار القاهرة، فأسرع ليصافحني، وقال: بيننا حديث لم يتم.

قلت: لقد أبديت استعدادي للقاء في أيِّ وقت تحب، وقلت لك: أرجو ألا يكون المانع من جهتكم.

قال: أتمنى أن يتم ذلك عن قريب.

ولم يتم ذلك حتى اليوم، على رغم أننا التقينا بعد ذلك عدّة مرات، في لقاءات عابرة في مناسبات شتى، وفي أقطار شتى أيضا.

زيارة زكي بدر للدوحة

في شتاء ١٩٨٨م، زار الدوحة وزير الداخلية المصري الشهير ببذاءة لسانه، وقسوة قلبه، وتجاوزاته في تصرفاته: زكي بدر، الذي أصدر الأوامر إلى الجنود، في مكافحة المظاهرات ونحوها: أن يضربوا في «المليان»، كناية عن إطلاق الرصاص الحقيقي، وتصويبه إلى صدور الجماهير. وقد ذاع صيته، وحفل سجله بالوقائع المؤلمة، والغزوات المتتابعة للجماعات الإسلامية، من حارب منها ومن سالم. وكان كل عامل في الحقل السياسي يكرهه ويتقي شره، ولا سيما من كان في المعارضة من الأحزاب، وكل من عدا الحكومة وحزبها عنده: لا ينبغي أن يسمح له بالوجود، فضلًا عن التعبير عن ذاته وبرنامجه، بالاجتماع أو بالكلام.

دعوتي من السفارة المصرية

وفي يوم، فوجئت بدعوة من السفارة المصرية، تدعوني إلى أن أحضر حفلًا تقيمه السفارة على شرف الوزير زكي بدر. واتصلوا بي هاتفيا يلحّون على ضرورة حضوري، وأن الوزير يودّ أن يلقاك. وتردَّدت في أول الأمر، ثم قررت أن ألقاه فعلا.

وفي الميعاد المقرر ذهبت إلى السفارة، ووجدت الوزير الذي رحَّب بي كثيرًا، واستقبلني بودّ وبشاشة، فوجئت بهما. ونادى على زوجته لتسلّم علي، وقال: هاهي ذي زوجتي محجّبة كما ترى.

وحرص على أن يأخذ معي جملة من الصور، أرسلت إليّ السفارة نسخة منها بعد ذلك.

كلمة الوزير

وبعد الاحتفال، ألقى الوزير كلمة، ذكر فيها آية من القرآن: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ (قريش: ٤)، كما ذكر حديثًا نبويًا يشيد بالأمن وقيمته في الحياة.

وقال بعد الكلمة: أرأيت كيف أدخل في كلامي القرآن والحديث؟

ثم سألني: هل من شيءٍ تطلبه منا؟ أو تشكو من شيء في علاقتك بنا؟

طلبي تسهيلات إجراء دخولي إلى مصر

قلت: أشكركم على كل حال. لا شكوى عندي ولا طلب لي، إلا تسهيلات إجراء دخولي: ففي كل سفرة لي إلى مصر، يأخذون الجواز للمراجعة، ويبقى عندهم برهة من الزمن قد تقصر، وقد تطول، ولا أدري ماذا يصنعون بالجواز: إن كان المراد تصوير صفحاته لمعرفة تحركاتي والبلاد التي أزورها، فهذا يمكن عمله في ثوان. وعلى كلِّ حال يتعامل الضبّاط معي في غاية الأدب والاحترام.

وهناك قال الوزير: على فكرة أنا الذي أمرتهم أن يوقفوك، وأنا الذي أمرتهم أن يعاملوك في غاية الأدب. ويمكن أن تمر علينا في الوزارة لنحلّ لك هذه المشكلة. ثم نادى ضابطا من رفقائه، اسمه اللواء مصطفى عبد القادر (صار وزير الإدارة المحلية فيما بعد) وقال له: يا مصطفى، شوف طلبات الشيخ. فقال اللواء: لا نطلب منك شيخنا إلا أن تتفضّل عندنا وتشرب فنجان قهوة، ونحل لك بعدها كل المشكلات. خذ تليفوني عندك، بمجرّد وصولك اتّصل بي، ويمكننا أن نرسل إليك سيارة تأتي بك من البيت إلى مكتبنا إن شئت.

قلت: شكرًا لكم، وأمر المجيء سهل إن شاء الله.

مهاجمة زكي بدر لي بالباطل

هذا ما جرى بيني وبين زكي بدر في سفارة مصر بالدوحة، تودد وتلطف ومجاملة إلى

أبعد حد.. ومع هذا عرفت أنه اجتمع بالمصريين في الدوحة، وقال كلاما آخر، هاجمني بالباطل، وقال: إنه يأخذ من مصرف قطر الإسلامي في الشهر ثمانين ألفا، أجر الرقابة الشرعية! وهذا الكلام كله باطل. ونحن لا نأخذ على الرقابة الشرعية أجرًا بل مكافأة، وكانت في ذلك الوقت ٢٠ عشرين ألف ريال في السنة لرئيس الهيئة ولكل عضو فيها.

ثم عرفت أنه ذهب إلى الإمارات العربية المتحدة، وهاجمني هناك، كما هاجم عددًا من العلماء، بدون مبرر ولا ضرورة لذلك.

تصويب سهامه الجارحة وعباراته البذيئة

وأدهى من ذلك وأمر: موقفه بعد أن رجع إلى مصر، فما هي إلا مدة قليلة، حتى فتح النار علي وعلى كثيرين من العلماء والكتّاب والمفكرين والزعماء والصحفيين، ولم يدع أحدًا في البلد، إلا صوَّب إليه سهامه الجارحة، وعباراته البذيئة.

وكان ذلك في اجتماعه بالضباط في مدينة «بنها». وكان مما قاله عني: أني شكوت إليه إيقافي وتأخيري في المطار، وأن الضباط يعاملونني بكل أدب واحترام. وزعم أنه قال لي: أما إيقافهم لك، فأنا الذي أمرتهم بذلك، وأما معاملتهم لك بكل أدب، فسأحاسبهم على ذلك! وهو في الشقِّ الثاني كذاب بلا ريب، ولا يتصور من رجل ضيف على قطر ـ وأنا فيها من أنا ـ يجابهني بهذا القول، ويقول: سأحاسبهم على أنهم قابلوك بأدب، كيف لم يعاملوك بقلة الأدب؟!

في هذه الجلسة السرية تجاوز فيها كل الخطوط الحمر في التعبير والتعامل مع شخصيات كبيرة في البلد لها وزنها العلمي أو الفكري أو الديني أو السياسي أو الاجتماعي، أو هذا كله، وكيف أسفّ هذا الإنسان إلى هذا الحد؟!

تسرُّب أخبار الجلسة المغلقة

وكان يظن أن الجلسة مغلقة، ولن يتسرَّب خبرها إلى أحد، فهو يتكلم مع ضباطه يقول لهم ما يشاء أن يقوله، دون دين يردعه، أو حياء يمنعه، أو قانون يقمعه.. ولكن

شاء الله أن يهتك ستره، ويفضح أمره، فاستطاعت جريدة «الشعب» المصرية المعارضة، لسان حال حزب العمل: أن تحصل على نسخة من هذا الخطاب الذي بلغ الغاية في الإقذاع والإسفاف، وتحايلت الجريدة بحيل شتى، حتى استطاعت أن تصدر، وهي تحمل المفاجأة الكارثة، التي أصابت زكي بدر في مقتل، وهاجت عليه مصر كلها. واحتجّ بشدة كل من جاء ذكرهم بالسوء في هذا الخطاب وما أكثرهم!

كان صدور جريدة الشعب بمثابة حكم بالإعدام الأدبي والسياسي على زكي بدر، وقد ردّ كثيرون عليه ببرقيات ومقالات وشكاوى ورسائل.

وقد كتبت أنا شخصيا رسالة مفتوحة إلى الرئيس حسني مبارك أشكو إليه من حكم زكي بدر وطغيانه وافتراءاته على العلماء والدعاة والمفكرين. وقد نشرتها الصحف القطرية، وجريدة الشعب المصرية[1].

---

(١) (انظر الملحق رقم ٢).

ثورة الإنقاذ الإسلامي في السودان

في ٣٠ يونيو من سنة ١٩٨٩م، قامت ثورة الإنقاذ الإسلامي في السودان، بقيادة: عمر أحمد البشير، ومعه عدد من ضباط الجيش السوداني. وكانت الثورة بيضاء، لم ترق فيها دماء، بل استولى الانقلابيون على القوات المسلحة، ثم على زمام الأمور بسهولة.

واعتقلت عددًا من الزعماء السياسيين من شتّى الاتجاهات، ومنهم د. حسن الترابي زعيم الجبهة القومية الإسلامية، مع أنه هو صانع الثورة. ولكن تعمية على الآخرين حتى لا يعرفوا من أول الأمر: مَنْ وراء هذه الثورة؟

ثورة الترابي وجماعته

وقد عرفت من أول ما قامت الثورة أنها ثورة الترابي وجماعته، وقد قابلت بعضهم وصارحته برأيي الذي أعلنته قديماً في كتابي «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» وأني لا أوافق على الوصول إلى الحكم عن طريق «الانقلاب العسكري» ولو قام به إسلاميون؛ لأسباب ذكرتها هناك، لا تنفك عن طبيعة الحكم العسكري، والتربية العسكرية، والعقلية العسكرية، وإن كان الانقلابيون من خيار الناس.

ولكنهم قالوا لي: نحن نؤيد وجهتك، ولكن كنّا في حالة ضرورة. ولم يعد في إمكان الحكم المدني في السودان أن يستمر، بل كان لا بد أن تنهيه جماعة أو حزب من الجماعات القائمة، وربما كانوا الشيوعيين أو البعثيين أو غيرهم.

وفي هذه الحالة سيصبح الإسلام والدعوة الإسلامية في مأزق خطير، وستدخل

البلاد في صراع لا ينتهي. فرأينا نحن أن نأخذ بزمام المبادرة، ونفوت على الآخرين الفرصة.

قلت: إنما لكل امرئ ما نوى. والمحك هو العمل والتعامل مع الشعب، والموقف من الحرية وحقوق الإنسان.

وقد قبل الترابي أن يعتقل مع المعتقلين، ويعامل كما يعاملون، حتى لا يكشف وجه الثورة من أول يوم، وتوضع العوائق في طريقها، وتشن الحرب عليها من كل جانب.

وكان الترابي ـ كما علمت ـ ينفذ أوامره بورقة يكتبها إلى البشير، إما ابتداء منه، وإما بعد سؤال من القادة العسكريين.

خشيتي من صراع أحد الفريقين

وكنت في نفسي أخشى من هذا الوضع الذي يكون فيه رئيسان، أحدهما: خفي، وهو العنصر الفعّال، والآخر ظاهر، وليس له أهمية العنصر الأول، وهما بحكم الضرورة في بداية الأمر ينسجمان، ثم يبدأ الخلاف، فالصراع، وينتهي بغلبة أحد الفريقين.

وكان من أبرز الأمثلة على ذلك أمامي: مثل جمال عبد الناصر، ومحمد نجيب.

وقد انتهى بإخلاء الطريق لعبد الناصر، وطرد محمد نجيب من الساحة نهائيا.

فكرة المرشد الأعلى للجمهورية

وكنت أرى أن تستفيد ثورة السودان الإسلامية من ثورة إيران الإسلامية، وتأخذ من النموذج الإيراني فكرة المرشد الأعلى للثورة أو للجمهورية.

فهناك رئيس جمهورية بيده سلطان الرئاسة. ومن خلفه قائد أعلى، لا يتدخّل في الجزئيات والتفصيلات، ولكن في السياسات العليا، والمواقف الفاصلة، تكون كلمته هي العليا، وحكمه هو الفصل.

وقوع الخلاف والانقسام بين الترابي والبشير

قلت في نفسي: ليت حسن الترابي يأخذ درسًا من هذا، ويكون هو خميني الثورة السودانية! وأحسب أني أبلغته بذلك، ولكن لم ترق له الفكرة، ولا لإخوانه من حوله، وتركوا الأمر حتى وقع الخلاف، وظهر على السطح، وأدى في النهاية إلى الانقسام المعروف، ثم الانفصال التام بينهما، بل القطيعة والعداوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

محاولة التقريب والإصلاح

وقد تدخلت فيه مع عدد من إخواني، محاولين التقريب وإصلاح ذات البين، والصلح خير، ولكنا لم نفلح، فقد تغلغل الخلاف وتوسع وتعمق، بحيث لم تعد تجدي فيه تلك المحاولات، ولا بد من عودة إليه في الجزء التالي من هذه المذكرات إذا يسر الله.

ملتقى الفكر الإسلامي ١٩٨٨م في مدينة «بوحنيفية» عن الحياة الروحية في الإسلام

انعقد هذا المؤتمر في هذه المدينة «بوحنيفية» في ولاية «معسكر» وهي بلدة مشهورة بما فيها من حمامات معدنية، يأتي إليها الناس قاصدين من داخل الجزائر وخارجها.

وكان موضوع الملتقى من الموضوعات المهمة، والموضوعات الشائكة أيضًا، وهو ما يتصل بما يسمى «الحياة الروحية في الإسلام» أي: بالتصوف والسلوك، وهو موضوع مختلف فيه بين طرفين وواسطة.

منكرو التصوف كله

الطرف الأول: طرف الذين ينكرون التصوف كله، سنيه وبدعيه، العملي والفلسفي، المستقيم منه والمنحرف. ويرون أن التصوف نهج دخيل على الإسلام مقتبس من المانوية الفارسية، والبرهمية الهندية، والرواقية اليونانية، والرهبانية النصرانية، وما إلى ذلك من المذاهب التي تقوم على المبالغة في التقشف وتعذيب الجسد، في سبيل تصفية الروح.

ومن هؤلاء أكثر السلفية، الذين يزعمون أنهم على منهج شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، وهما على عكس ما يدعون. فلابن تيمية مجلدان من مجموع رسائله وفتاويه حول التصوف والسلوك، ولابن القيم مجموعة غير قليلة من المؤلفات حول التصوف، مثل: عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين، وطريق الهجرتين، وروضة المحبين وغيرها. ولعل أوسعها وأهمها: كتابه الشهير: «مدارج السالكين شرح منازل

السائرين إلى مقامات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾» وهو شرح موسع ومؤصل لرسالة «منازل السائرين» للعلامة أبي إسماعيل الهروي الأنصاري الحنبلي (ت٤٨١هـ).

الآخذون بالتصوف كله سنيه وبدعيه

والطرف الثاني: هم الذين يأخذون التصوف بكل ما فيه، بعجره وبجره، كما يقولون. على ما يحمل أحيانًا من شركيات في العقيدة (القبوريات وأمثالها)، وابتداعات في العبادة، في الصلوات والأذان والأذكار وغيرها، وسلبيات في التربية، مثل قولهم: من قال لشيخه: لَمَ؟ لا يفلح. من اعترض انطرد. ومن باح راح. والمريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل!!

وأخطر من ذلك التصوف الفلسفي، الذي يقول بأفكار غريبة عن عقائد الإسلام، مثل: الحلول والاتحاد «ما في الجبة غير الله»، أو وحدة الوجود، أنه لا ثنائية في الوجود، فلا يوجد خالق ومخلوق، ولا رب ومربوب، ولا آمر ومأمور. وقد نادى بذلك متصوفون معروفون مثل: الحلاج والسهروردي المقتول وابن سبعين وابن عربي، الذي حيّر الناس بكتاباته التي يعارض بعضها بعضًا.

وقد أصبحت هناك ثقافة صوفية مختلفة، يعبرون فيها عن وجهتهم، ولهم فيها مصطلحاتهم الخاصّة، وعباراتهم المؤثرة، التي تحمل من حرارة التعبير، وبراعة التصوير، وقوة التأثير، ما لا يوجد في عبارات غيرهم، التي تغلب عليها الصنعة، وتتسم كثيرا بالجمود والبرود والهمود.

ومن الأفكار الأساسية التي غلبت عليهم، وراجت عندهم:

١ ـ اعتبار القلب والوجدان والذوق مصدرًا من مصادر الحكم الشرعي، فيكتفي أحدهم إذا فعل شيئًا أو تركه، أو حثّ عليه، أو نفر منه، أن يقول: قلبي أمرني أو نهاني.

وهذا ما جعل بعضهم يحملون على العلم الشرعي وعلى أهله، ويعتبرون هذا العلم «حجابا» عن الوصول إلى الله عز وجل.

وكانوا يعيبون على علماء الحديث معاناتهم في طلبه بأسانيده: حدثنا فلان عن فلان عن فلان... حتى إن أحدهم قيل له: هل لك أن ترحل إلى صنعاء تطلب العلم عن عبد الرزاق؟

فقال لهم: ما يصنع بالأخذ عن عبد الرزاق مَن يأخذ علمه عن الخلاق؟!!

وعندما قيل لبعضهم: مَن حدثك هذا؟ قال: حدَّثني قلبي عن ربي!!

ليس كل الصوفية يقولون هذا، ولكن هذا شأن الغلاة منهم، وهم معظَّمون عادة عند سائر الصوفية، وإن لم يقولوا بقولهم.

٢ ـ تفرقتهم بين الشريعة والحقيقة، وأن هناك أناسًا لا يعرفون إلا «ظاهر الشريعة» وهذا مبلغ علمهم، وهناك آخرون جعلوا همهم في طلب «باطن الحقيقة» فغاصوا في الأعماق، ووصلوا إلى المقصود.

وعندهم: أن الشيء قد يكون مذمومًا أو منكرًا في الشريعة، ولكنه محمود أو معروف في الحقيقة. ويستدلون على ذلك بقصّة سيدنا موسى مع الخضر، وأن ما كان يعتبره موسى منكرًا، كخرقه السفينة، وقتل الغلام، كان من المعروف المشروع عند الخضر، كما بين له ذلك.

ومن أقوالهم المأثورة هنا: مَن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومَن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم!

لأن الذي ينظر إليهم بعين الحقيقة يراهم ـ وإن لم ينفذوا أمر الله ـ قد نفذوا إرادته في كونه، فهم أطاعوا الإرادة، وإن عصوا الأمر.

ومعنى هذا: أنه يجب أن نعذر فرعون وهامان وقارون، وكل الكفرة المفسدين في الأرض، والمستكبرين على خلق الله، بل يجب أن نعذر شر خلق الله إبليس، فهو ينفذ إرادة الله فيه!!

وعلى هذا، يقولون: إن الناس لم يعبدوا أحدًا غير الله، لأنهم مقهورون على تنفيذ إرادته، ولذا قال ابن عربي: أبى الله أن يعبد أحد سواه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣)، ويعني بالقضاء هنا: القضاء الكوني لا القضاء الأمري التشريعي. وهو ما تعنيه الآية الكريمة. ومن شعره:

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه!

ولذا ورد عن ابن عربي ما يذيب الفوارق بين الأديان، فليس فيها صحيح وفاسد، ولا منسوخ وناسخ، ولا حق وباطل، ومن أشهر ذلك قوله مما نسب إليه:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

وقد صار قلبي قابلًا كلَّ صورة فمرعى لغزلان، ودير لرهبان

وبيت لأوثان، وكعبة طائف وألواح توراة، ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أَنَّى توجَّهتْ ركائبُه، فالحبُّ ديني وإيماني!

المتوسطون بين الطرفين

وهناك فئة الوسط بين طرف الغلاة في النفي، وطرف الغلاة في الإثبات. وخير الأمور أوسطها.

هؤلاء يرون أن دعوى القائلين بأن التصوّف كله مستورد من خارج الدائرة الإسلامية، دعوى متطرفة مبالغ فيها. فممّا لا ريب فيه أن جذور التصوف إسلامية، ولذا اجتهد المتصوفة فيما بعد أن يستدلوا لمقاماتهم ومنازلهم بالقرآن أحيانًا، وبه وبالسنة أحيانًا أخرى. بالعبارة أحيانًا، وبالإشارة أخرى، كما فعل صاحب «منازل السائرين»، وكما حاول الإمام الغزالي في كل كتاب من كتبه الأربعين التي ضمّها كتابه الشهير «إحياء علوم الدين»: أن يستدل على كل موضوع يتحدَّث عنه بآيات القرآن وبالأحاديث النبوية، وبالآثار عن الصحابة والتابعين وسلف الأمة، حتى يثبت له المشروعية الإسلامية، وإن كان يورد أحيانا من الأحاديث ما لا يصلح للاستدلال به.

كما يرون أن المتصوفة كغيرهم من سائر الطوائف، مثل: الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين، يؤخذ منهم ويرد عليهم، فهم بشر غير معصومين. وأعدل ما قيل فيهم ما قاله الإمام ابن تيمية عنهم:

«تنازع الناس في طريقهم: فطائفة ذمّت «الصوفية والتصوف» وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة. ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم، وادَّعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء... وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

و الصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين. وفي كلٍّ من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم مَنْ هو ظالم لنفسه، عاص لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم: كالحلاج مثلا، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق. مثل: الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره[1]». أ هـ.

منهج الحياة الروحية في القرآن والسنة

لم يكن قد طلب مني موضوع أعده لهذا الملتقى، ولكن طلب مني الإخوة المسؤولون في وزارة الشؤون الدينية حين وصلت إلى الجزائر: أن أفتتح جلسات الملتقى العلمية بمحاضرة عن «منهج الحياة الروحية كما رسمه القرآن والسنة».

وبالطبع، لم يكن لديّ مراجع في الموضوع، ولا أستطيع أن أراجع فيه، لو وجدت المراجع. فتوكلت على الله، واعتمدت على المخزون عندي حول الموضوع، وهو ليس بالقليل، والحمد لله، وطفقت أحضر في ذهني محاور المحاضرة، وكانت واضحة لديَّ وضوح الشمس في ضحى النهار.

وتكلمت عن هذه المحاور واحدًا بعد الآخر، مستشهدا بالنصوص القرآنية والنبوية، وبآثار السلف، وبأقوال كبار الصوفية المتقدمين أمثال: أبي سليمان الداراني، والفضيل

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ١٨).

ابن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وشيخ المربين الجنيد، والقشيري، وغيرهم، والمتأخرين أمثال: الغزالي، وابن عطاء الله السكندري وحكمه الشهيرة، وكنت أحفظ كثيرًا منها.

وأنا لا أذكر ما قلته في ذلك الوقت بالضبط، لطول الزمن، ولعل الإخوة في الجزائر، يكونون قد سجّلوا هذا الحديث المرتجل، فليس له أي أصل عندي.

ولكني لم أحاول أن أرضي طرفًا من أطراف النزاع، من دعاة التصوف وأعدائه، وأمسكت بميزان الاعتدال، مستشهدًا بما أنزل الله من الكتاب والميزان.

وكان الحضور في الملتقى من كل الاتجاهات ـ من أنصار التصوف ومن خصومه ـ يُصْغون إليّ باهتمام شديد كأن على رؤوسهم الطير! وكان الإخوة المسئولون قد قالوا لي: خذ راحتك في بيان المنهج القرآني والنبوي وشرحه، فإننا نعول على هذه المحاضرة في بيان موقف إدارة الملتقى واتجاهها المتوازن بين المُفْرطين والمفرِّطين في هذا الجانب.

تعليق دعاة التصوف ومعارضيه على محاضرتي

وبعد محاضرتي، علَّق عليها كثيرون من دعاة التصوف ومن معارضيه، مثنين عليها وعلى توازنها، وعلّق صديقنا الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، فقال: لقد كشف لنا الدكتور القرضاوي أن بداخله صوفيا عميقا، يُخفيه عنا بأقواله حول السلف والسلفية، والعقل والعقلانية.

وقام شيخنا الشيخ الغزالي وعانقني، وقال لي: لقد كنت موفقًا غاية التوفيق في عرض الموضوع، وترتيب أفكاره، وشرحها والاستدلال عليها، وكنت أنظر إليك كأن ملكًا يسددك.

وقال الأخ عبد الوهاب حمودة: إنك لم تكن تتكلم، ولكن كنت تتدفق كالسحاب الماطر، أو تفيض كالبحر الزاخر.

وقال الشيخ عبد الرحمن شيبان، وغيرهم من الحاضرين ما قالوا، وأنا أقول للجميع ما قاله سيدنا شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

تعليق الشيخ «بو القايد» على محاضرتي

وكان من أهم التعليقات التي سمعتها في ذلك الملتقى: كلمة سمعتها ونحن على الغداء من الرجل الصوفي الأول في الجزائر، والذي يتبعه كثيرون من أبناء الجزائر، وكان الشيخ الروحي لشيخنا وأستاذنا المفسّر الكبير الشيخ محمد متولي الشعراوي، وقد أخذ عليه العهد عندما كان معارًا من الأزهر إلى الجزائر رئيسا لبعثتها، ذلكم هو الشيخ «بو القايد».. فقد جلسنا على مائدة واحدة عند الغداء، وجرى الحديث عن محاضرتي ومدى ما كان فيها من توفيق في حسن شرح المنهج الإسلامي حول الجانب الربّاني، الذي هو لباب الدين كله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢).

نعمة اللوعة

وهنا قال لي الشيخ بو القايد: اسمع يا شيخ يوسف، أقول لك: إن الله أعطاك نعمة خاصة، لا يعطيها إلا للقليلين من عباده، ولم أره أعطاها لأحد ممن سمعت.

قلت: حفظك الله، هل لي أن أعرف هذه النعمة؟

قال: ربي أعطاك «اللوْعة»، التي تجعل لكلامك مذاقًا غير مذاق الآخرين، ووقعًا في النفوس غير وقع الآخرين.. فاحمد الله على هذه النعمة، التي لست تتكلفها تكلفًا، بل هي منحة من الله، لو تكلفتها لفسدت.

قلت: أرجو أن يعينني الله على شكرها، وأن يجعلني أهلًا لها، وأن أكون عند حسن ظن إخواني المسلمين، وأن يغفر لي ما لا يعلمون.

عتْب تلاميذ مدرسة ابن باديس على الملتقى

وكأن محاضرتي أنعشت أهل التصوف ورجاله، فاشرأبت أعناقهم، وارتفعت رءوسهم، وأمست لهم صوْلة وجولة، وهذا ما جعل إخواننا من تلاميذ مدرسة ابن

باديس يتوجّسون خيفة، بل ربما ضاقوا ذرعًا بما يجري في ساحة الملتقى، وجاءني بعضهم يشكو ويصرخ، قائلا: لقد عاش الشيخ ابن باديس وإخوانه في جمعية العلماء: البشير الإبراهيمي، والعربي التّبسي، وغيرهم، يحملون على ما سموه «الطُّرُقية» التي نوَّمت الشعب الجزائري، ورضَّته بالواقع، الذي فرضه الاستعمار على البلاد، ولم تعلمه الثورة على الباطل، والتمرد على الاستعمار الكافر الفاجر، الذي أفسد البلاد وأذل العباد!

واليوم نفسح لهم المجال ليعودوا من جديد، ليقودوا الأمة إلى الوراء... إلى آخر ما قالوا.

منهجي في البناء والتقريب

قلت: يا إخواني، هوِّنوا على أنفسكم، نحن لا نريد أن ننصب معركة بين الصوفية وغيرهم. أنتم تعلمون أن من منهجي الأساسي، وهو كذلك من منهجكم: أن نبني ولا نهدم، ونجمع ولا نفرّق، وأن نحاول التقريب بين المتباعدين ما أمكننا لنقف عند منهج وسط، نتعاون فيه فيما اتفقنا عليه، ونتسامح فيما نختلف فيه.

وأحسب أن محاضرتي كانت كلها تصبُّ في هذا المجرى، وتخدم هذه الوجهة، وقد رضي عنها الطرفان.

قالوا: ولكنهم يريدون أن يستغلوا الموقف لما هو أبعد من ذلك.

قلت: إذا رأينا ذلك يقع بالفعل فلكل حادث حديث، وهناك نعالج الموضوع بالحكمة اللازمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:٢٦٩).

محاضرة الدكتور محمد كمال جعفر

وكان من الإخوة المشاركين معنا في هذا المؤتمر الأخ الأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر أستاذ العقيدة والفلسفة في كلية دار العلوم جامعة القاهرة، والمعار إلى كلية الشريعة في جامعة قطر، وقد كانت له دراسات حول التصوف ومصطلحاته. وقد ألقى محاضرة قيمة في هذا الملتقى حول «مصطلحات الصوفية».

لقاءات خاصة بالطلاب والطالبات

وعلى العادة المتبعة في كل الملتقيات، رتِّبَت لي لقاءات خاصة بالطلاب والطالبات في مواقعهم وجامعاتهم أو مدارسهم التي ينزلون، أو اللائي ينزلن بها. وأجبت عن تساؤلاتهم المتنوعة في أمور الدين والحياة، ولا سيما ما يتعلق بالعمل الإسلامي، والحركة الإسلامية.

والكلام في هذه الموضوعات يتطلب قدرًا من الوعي والحكمة ومعرفة الواقع، حتى لا يؤول كلامي على غير وجهه، ويُحَمّل ما لا أقبله لنفسي، فلا أحب أن أحسب على فئة بعينها، بل أحب أن أكون للمسلمين جميعًا.

لقاءات عامة بين العلماء والشباب

وفي الملتقى، كانت هناك اللقاءات العامة بين العلماء والشباب، الشباب يسألون، والعلماء يجيبون، في كل ما يخطر لهم من قضايا الإسلام، أو العصر والمجتمع والحياة، وكان الطلاب يوجهون بعض الأسئلة الخاصة إلى شيوخ معينين من الحضور، وكثيرًا ما يكون لي نصيب الأسد فيها، وكنت أجيب عنها بما يفتح الله عليّ، سائرا على نهجي الوسطي الذي آمنت به، ونذرت نفسي لإشاعته وتأصيله وتثبيته، ولله الحمد رب السماوات، ورب الأرض، رب العالمين.

تكاثر الواجبات

عشنا في رحاب هذا البلد المعروف بحماماته المعدنية، وعرض عليّ الإخوة أن أبقى بعد الملتقى أيامًا، أستفيد فيها من هذه الحمامات التي يقبل عليها الناس من كل حدب وصوب، وكنت في أشدّ الحاجة إلى ذلك. ولكن مشكلتي دائمًا هي الوقت الذي أراه يضيق يومًا بعد يوم عن واجباتي التي تتكاثر هي الأخرى يومًا بعد يوم.

ففضلًا عن التزاماتي الإدارية من عمادة كلية الشريعة بجامعة قطر، وإدارة مركز بحوث السنة والسيرة بها، وهذا عدا المحاضرات المنهجية التي ما زلت ملتزمًا بها لبعض

طلابي، كان عندي شيء عاجل لم أعد أذكر ما هو، لا بد أن أعجل سفري لإدراكه مع أنا كنا في الإجازة الصيفية، ولذلك لم أبق إلى آخر يوم في الملتقى لأعود بالطائرة الخاصة مع الوزير والمشاركين، بل استأذنت منهم، لأذهب بالسيارة إلى قسنطينة التي لم تكن تبعد كثيرًا عن مدينة الملتقى، ومن هناك نأخذ الطائرة إلى العاصمة.

من قسنطينة إلى الجزائر ثم القاهرة

وانتقلت بالسيارة إلى قسنطينة، وأذكر أنه كان معي من الإمارات العربية: الأخ الدكتور على العجلة، رئيس تحرير مجلة «منار الإسلام» في ذلك الوقت. وبعد وقت قصير قضيناه في قسنطينة توجّهنا إلى الجزائر العاصمة، وبتنا فيها ليلة، استقللت بعدها الطائرة الجزائرية التي نقلتني إلى القاهرة.

زيارة البرازيل

وفي صيف سنة ١٩٨٩م دعيت لزيارة البرازيل في أمريكا الجنوبية، والتقاء المجموعة الإسلامية فيها، وخصوصًا في مدينة «ساو برناردو» التي تتركز فيها الجماعة أو الأقلية الإسلامية، وخصوصًا من لبنان.

وكان الذي وجَّه الدعوة إلي هو الأخ الداعية الكريم الأستاذ أحمد الصيفي، الذي التقيته كثيرًا في عدد من المؤتمرات ممثلا لمسلمي البرازيل.

من لندن إلى البرازيل

وقد رتَّبت أموري على أن أذهب إلى البرازيل من لندن، بعد حضوري جلسة مجلس أمناء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية. ومنها أنطلق إلى مدينة سان باولو، ومنها إلى المدينة المنشودة.

وفي المطار وجدت الإخوة يستقبلونني، وقد حملوني إلى مدينتهم، وأسكنوني في أحد فنادقهم.

فصل الشتاء في وقت فصل الصيف

وهناك فوجئت بأنهم في فصل الشتاء لا في فصل الصيف، فنحن في شماليّ الكرة الأرضية وهم في جنوبيّها، فشتاؤهم صيفنا، وصيفهم شتاؤنا. ولهذا يستورد الناس من عندهم فاكهة الصيف في الشتاء عندنا، والعكس.

وهو نفس ما وجدته في أستراليا من قبل.

أقام الإخوة مؤتمرًا دُعي إليه عدد كبير من الجالية الإسلامية في المدينة التي تسكن فيها، وفي غيرها من المدن.

وتحدَّث فيه عدد من العلماء، أذكر منهم صديقنا الجليل الشيخ خليل الميس مفتي البقاع في لبنان، الذي كان له تأثير قوي في الحاضرين، ولا سيما من أهل لبنان.

وتحدّثت في المؤتمر، ولا أذكر الموضوع الذي تحدّثت فيه، كما خطبت الجمعة في بلدة أخرى يكثر فيها اللبنانيون. وأذكر أن مضمون الخطبة كان عن واجبات المسلم المغترب، وهي خمسة: نحو نفسه، ونحو أسرته، ونحو إخوانه وجماعته حيث يقيم، ونحو الآخرين من غير المسلمين، ونحو أمته الإسلامية في المشارق والمغارب.

كما نظّم الإخوة محاضرة لي في المدينة الكبرى «سان باولو» في الجامع الكبير فيها، وكان معي على ما أذكر الشيخ خليل الميس أيضا.

وحضرت عدّة مرات لقاءات خاصّة مع الشباب الذين يحملون لواء العمل الإسلامي، والدعوة الإسلامية، ومنهم مصريون وفلسطينيون وغيرهم.

زحمة الواجبات المتكاثرة

كان الأوْلى ـ وقد زرت هذه القارة الفسيحة ـ أن أتجول في بعض أقطارها، مثل الأرجنتين وغيرها. فليس من اليسير أن تتاح لي مثل هذه الزيارة إلا بعد زمن يعلمه الله. ولكن الزحمة التي أشكو منها أبدا، زحمة الواجبات المتكاثرة، التي تصطدم بالأوقات المحدودة، جعلتني أعتذر عن عدم تلبية الطلبات التي جاءتني من هنا وهناك. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ضياع الأجيال الأولى من المسلمين

لم يحدث في هذه الزيارة شيء ذو بال يستحق التسجيل والتنويه. ولكني أردت هنا أن أسجل ملاحظة مهمة بالنسبة للمسلمين في هذه القارة. فإن الجيل الأول، أو قل:

الأجيال الأولى من المسلمين، التي بدأت الهجرة إليها، ضاعت تمامًا، وذابت في أهل البلاد، فكثيرًا ما كانوا عزابًا، وتزوَّجوا غير مسلمات، فولد أبناؤهم في بيئة غير إسلامية، الدين غير الدين، واللغة غير اللغة، والتقاليد غير التقاليد، والرجال مشغولون، والمرأة هي التي تنشئ الأولاد على عقيدتها ولغتها ومفاهيمها وتقاليدها، مسنودة بأهلها ومجتمعها.

ولهذا وجدنا من المسلمين من تكثلك، وإن بقي في اسمه ولقبه ما يشير إلى أصله، مثل كارلوس منعم، الذي انتخب رئيسًا للجمهورية في الأرجنتين وأصله مسلم سوري.

ثم كان الجيل الثاني، أفضل حالًا مما قبله، فبقي متمسكًا بعقيدة الإسلام. وإن لم يكن دائمًا متمسكا بشعائره وبمثله وأخلاقياته وسلوكياته.

أثر الصحوة الإسلامية المعاصرة

ثم جاءت الصحوة الإسلامية المعاصرة، فـردَّت المسلمين في كل مكان إلى الاستمساك بدينهم، والاعتصام بحبل الله جميعا، والالتزام بالإسلام عقيدة وعملًا، وشعورًا وسلوكًا. وقد أصبح منهم وفيهم الدعاة المرشدون الذين يمسِّكونهم على الصراط المستقيم، ويجنِّبونهم الوقوع في المهالك، ويرشدونهم إلى التجمُّع على دينهم، كما أنشئوا المؤسسات الدينية والتربوية والاجتماعية، التي تحفظ عليهم هُويتهم، وتربطهم بجذورهم، وتصلهم بأمّتهم.

كما أنَّ العلماء والدعاة وأبناء الحركة الإسلامية في المشرق، لم ينسوهم، بل زاروهم، وأشعروهم بذاتيتهم، ونبَّهوهم من غفلتهم، ووصلوهم بإخوانهم في البلاد الإسلامية، فكان اتصالهم بالمسلمين، واتصال المسلمين بهم سببًا في صحوتهم ويقظة عقولهم وضمائرهم، وعودتهم إلى دينهم.

وفاة الشيخ عبد الله الأنصاري سنة ١٩٨٩م

في ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٤١٠هـ الموافق ١٥/ ١٠/ ١٩٨٩م وافانا بالدوحة نبأ ذرفت له الأعين، وحزنت له القلوب، ولم نملك إلا أن نقول ما علمناه القرآن في استقبال مصائب الدنيا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦).

إنه نبأ وفاة الأخ الحبيب، والصديق الكريم، العالم الجليل، والمربّي النبيل، والداعية الكبير، والمجاهد الغيور، الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الذي جاءه أجله، وهو يعالج في لندن، بعد أن اغتسل وتطهّر، وقال لمن حوله: مرحبًا بلقاء ربي! ونقل جثمانه إلى الدوحة، وصلّى عليه الألوف من أبناء قطر، وممن يقيمون على أرضها.. الذين ودَّعوه بقلوب مكلومة، وأعين دامعة، وألسنة تتضرع إلى الله بالدعاء له أن يغفر له ويرحمه، ويسكنه الفردوس الأعلى، ويتقبله في الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

تعرفي على الشيخ عبد الله الأنصاري

عرفت الشيخ عبد الله منذ أول يوم تسلّمت فيه عملي في وزارة معارف قطر مديرًا للمعهد الديني الثانوي في ٤ ربيع الآخر ١٤٨١هـ الموافق ١٥ سبتمبر ١٩٦١م، حيث كان الشيخ أول من زارني في مكتبي، وأنْعم وأكْرم به من زائر. لقد دخل عليّ، فوجدت رجلًا بشوش الوجه، باسم الثغر، عذْب الحديث، سمْح النفس، تستريح نفسك إذا نظرت إليه، وينشرح صدرك إذا تحدّثت إليه، وتحس بأنه رجل من أهل

الصدق والإخلاص.. هذا هو انطباعي عنه من أول لقاء. والكتابُ يقرأ من عنوانه كما يقولون.

لقد بادرني بالعناق، وقدّم إليَّ نفسه،وقال: أخوك عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، أحد طلبة العلم في قطر، ومدير مدرسة صلاح الدين الأيوبي. نحن هنا أهلك، وقطر بلدك، وكلنا في خدمتك، وقد أحببناك قبل أن نراك، وازددنا لك حبًّا بعد لقائك.

وقد رددت على تحية الشيخ بمثلها أو بأحسن منها، وبادلته عاطفة بعاطفة، وقلت له: أنا مستبشر بأنك أول زائر لي في مكتبي، وهذا يبشر بالخير .. ثم ودعت الشيخ مشكورًا، بعد أن دعاني إلى أن أزوره في منزله، وألاّ أتردد في طلب أيِّ شيء أحتاج إليه.

ومن ذلك اليوم بدأت علاقتي بالشيخ عبد الله واستمرت، ولم تزدها الأيام إلا قوة على قوة، فالشيخ كنز من الفضائل وخصال الخير، يكتشفها فيه كل من عرفه واقترب منه، وكلما زاد منه قربًا، ازداد له حبًّا، وهو ما لمسته بنفسي ولمسه غيري. وإني لأدعو الله تعالى أن يظلنا ببركة هذا الحب في الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

أول زيارة للشيخ الأنصاري في مجلسه

وما هي إلا أيام قليلة حتى زرت الشيخ عبد الله في بيته بين المغرب والعشاء، أعني بيته القديم الذي كان قريبًا من مسجد الشيخ غانم، وكان مجلسه مجلسًا عربيًّا، نجلس فيه على الأرض المفروشة متكئين على الوسائد، وكان مجلس الشيخ يتميز بأنه مجلس ومكتبة في الوقت ذاته، ففي جدرانه الأربعة حُفرت مكتبات في أصل البناية هُيئت تهيئة حسنة، ومُلئت رفوفها بالكتب المصنّفة على العلوم الشرعية، واللغوية، والأدبية، من التفسير، وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه على مختلف مذاهبه، والعقيدة، والتاريخ، والنحو، والصرف، والأدب، والبلاغة.

ومن حُسن الطالع أني حين زرت الشيخ وجدته يقرأ مع بعض جلسائه في بعض كتب الحديث، فطلب مني الشيخ أن أعلق على الحديث الذي قرئ، ففتح الله عليّ، وقلت كلامًا مرتجلًا بغير إعداد ولا ترتيب.. وكان الشيخ يهتزّ طربًا كلما سمعني أشرح

وأفصّل، فدلّني هذا على إخلاص الرجل وتجرُّده، فإن بعض ذوي النفوس المريضة لا يسره أن يظهر عالم غيره، بل ينغص ذلك عليه ويسوءه.. وجاءت صلاة العشاء، فأبى الشيخ إلا أن يقدمني للإمامة، فزاده ذلك عندي رفعة وعلوًا.

توثق العلاقات مع الشيخ الأنصاري

وتوثقت العلاقات بيني وبين الشيخ، وتعددت الزيارات واللقاءات والجلسات العلمية، والندوات القرآنية، التي كان الشيخ يعقدها مساء كل خميس في المسجد المجاور له، وكان يحرص على أن أختتمها بدرس أو خواطر قرآنية كلما حضرت، وكلما أقام ندوة أو احتفالا بمناسبة من المناسبات حرص على أن أكون في مقدمة المتحدثين.

سلفيّ سمح على منهاج النبوة

كان الشيخ الأنصاري شعلة من النشاط والحركة والغيرة الدينية، وكان رضِيًّا محبَّبًا إلى كل من عرفه من الناس. وكان سرُّ ذلك يرجع إلى سماحة نفسه، وسعة صدره، وحسن خلقه، ورقة طبعه، فهو رجل سهل سمح، موطأ الأكناف، كريم النفس، مبسوط اليد، يألف ويُؤْلف، يُحِبُّ ويُحَبُّ، يرحم الصغير، ويوقّر الكبير، ويقْري الضيف، ويبذل للمحتاج، ويعين على نوائب الدهر.. تقوم حياته على المياسرة لا المعاسرة، والتسهيل لا التعقيد، والتسامح لا التعصب، والمرونة لا الجمود.. ظهر هذا في علمه وفقهه، كما ظهر في تعامله وسلوكه. فهو يقتبس من المنهج النبوي: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفروا»،[1] كما اقتبس من الخلق النبوي: أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما[2].. ومن خلق السماحة لدى الشيخ أنه كان قريبًا من الذين يعملون معه، ما كانوا يشعرون بأنهم مع رئيس يستعلي عليهم، بل مع أب يحنو عليهم، ولا غرو أن استمر الذين عملوا معه سنين بل عقودا، لم يتغيّر عليهم، ولم يتغيّروا عليه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المنابر (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

دلائل السماحة والسهولة عند الشيخ

عرفته سلفيّ العقيدة ولكن لم يكن فيه خشونة السلفيين ولا حرفيتهم، ولا نظرتهم السوداء إلى غيرهم، ولا حملتهم الشعواء على من خالفهم.

لم يجد بأسًا في الاحتفال بمولد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالحديث عن السيرة النبوية، والرسالة المحمدية، وقد شاركته في ذلك بعض المرات، مبينًا في كلمتي مبررات مثل هذا الاحتفال بهذه الصورة، في عصر أصبح الناس يحتفلون فيه بميلاد زعمائهم وكبرائهم، وذكرت أن هذا في الحقيقة احتفال بمولد الرسالة لا بمولد الرسول. وأنّ الصحابة والتابعين لم يحتفلوا بمثل هذه المناسبات، لأنهم لم يكونوا في حاجة إليها، وقد كان الرسول حيا وحاضرا في وجدانهم وفي حياتهم.

مساجلة علمية بين الأنصاري وابن محمود

وقد اعترض العلامة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود قاضي قضاة قطر، على هذا الاحتفال، وكانت بينه وبين الشيخ الأنصاري مساجلة علمية رصينة، دلت على مبلغ علم الأنصاري وتمكّنه، وهي مساجلة قيمة ينبغي أن تُراجع.

احترامه المذاهب الفقهية

وعرفت الشيخ شافعيًّا، ولكنه لم يكن متعصِّبًا لمذهبه، ولا يكاد أحد يعرف له مذهبًا، فهو يحبّ الأئمة جميعًا، ويقدّرهم جميعًا، ويحترم المذاهب كلها، ويأخذ منها ما ترجّح دليله لديه، ولا يمنع العامّة من تقليد أيّ مذهب رضوه منها، ولا يطعن في أحد من العلماء الأموات أو الأحياء، بل كان عفّ اللسان، لا يحب أن يذكر أحدًا بسوء، وطريقته أن يضيء الشموع، لا أن يلعن الظلام.

وجدان روحي عميق

وعرفت الشيخ ذا وجدان روحيّ عميق، وحسّ إيماني رقيق، تغلب الدموع

عينيه، وتترقرق العَبرات على وجنتيه، عندما يعظ أو يخطب، فيأخذه الوجد، أو يغلي به الحماس، ولكنه لم يكن من الخرافيين الذين يتّبعون ترّهات بعض الطرق الصوفية، أو الذين يتقبلون البدع ويحاولون تبريرها، أو الذين يروّجون الشركيات في العقيدة بصورة من الصور.

إدارته شؤون القرى

كان مسؤولا في فترة طويلة في وزارة التربية والتعليم ـ في عهد الشيخ قاسم بن حمد ـ رحمه الله ـ عن «إدارة شؤون القرى» وهي إدارة لها مشكلاتها وعقدها وطبيعتها الخاصة، وكنت إذا زرته في مكتبه أجده مزدحما بأصحاب المطالب والحاجات من أهل القرى والبوادي، وكنت أعجب من صبره عليهم، وطول باله في الاستماع إلى شكاياتهم، والمحاورة معهم، والمصالحة بينهم، مع سهولة وطلاقة وجه، لا يُلقّاها إلا الذين صبروا، ولا يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم.

وَوُكِل إلى الشيخ إدارة الشؤون الدينية بالوزارة، وبوصفها إحدى الإدارات الأربع، في عهد إدراة د. كمال ناجي، وكنت بحكم إدارتي للمعهد الديني أتردّد عليه، وحدي حينًا، ومع فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار أحيانًا، وكان هو يتردد على المعهد، ولا أذكر أني اصطدمت به أو اصطدم بي يومًا من الأيام، وما ذاك إلا لخلقه السَّمْح، وصَدْره الرَّحْب، والحب الكبير المتبادل بيننا، والثقة التي يوليها كلٌّ منا لأخيه.

الرفيق الكريم في السفر

ولقد عرفت الشيخ معرفة أعمق عن طريق الأسفار التي جمعتنا أكثر من مرة.. وقد قيل: إنما سُمِّي السفر سفرا، لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال، ويكشف عن معادنهم.

فقد سافرنا معًا في رحلة طويلة إلى الشرق الأقصى بأمر من أمير البلاد السابق الشيخ خليفة بن حمد ـ حفظه الله ـ وذلك سنة ١٩٧٤م، وكان يرافقنا الأستاذ سيد أبو يوسف، المسؤول عن العلاقات الثقافية بوزارة التربية والتعليم لمعرفته الجيدة باللغة

الإنجليزية - التي لا يتقنها الشيخ ولا أنا - وهو رجل على دين وخلق، كان نعْم الرفيق المعين لنا، وكانت رحلة ممتعة على طولها ومشقتها، فقد زرنا فيها ماليزيا، وإندونسيا، وسنغافورة، وهونج كونج، والفلبين، وكوريا، واليابان.. وقد اهتمت حكومة الفلبين بزيارتنا، ووضعت تحت أيدينا طائرة خاصة نقلتنا إلى جنوب الفلبين، وكانت أيامنا في الفلبين ثرية وخصْبة، وخصوصًا في مدينة «مراوي»، وقد زرنا جامعة «ماندناو» الرسمية بها، ومعهد الملك فيصل للدراسات الإسلامية، والجامعة الإسلامية الأهلية التي أسسها المجاهد المعروف الدكتور «أحمد ألونتو» - رحمه الله - مؤسس جمعية أنصار الإسلام، وزرنا جمعية إقامة الإسلام التي أسسها الشيخ أحمد بشير - رحمه الله - ومعهدها العربي الإسلامي، وعددا من المدارس العربية الكثيرة المنتشرة في تلك البقعة، وتضم البنين والبنات وتعلمهم اللغة العربية والإسلام، والتي كانت زيارتنا لكل منها «عرسا» للمدرسة ومدرسيها وطلابها وطالباتها، وبخاصة أن الشيخ كان يحمل معه مبالغ من أمير قطر ومن أهل الخير، كان يعطي لكل مدرسة نصيبا منها.

وسافرت معه بعد ذلك إلى الرياض، وإلى باكستان والهند، وإلى القاهرة، وإلى الكويت، وإلى البحرين، وإلى مكة المكرمة، في الحج إلى بيت الله الحرام، وكان هو رئيسًا لبعثة الحج، فكان هو دائمًا النبع الثر، والمعين السخي، والمعدن الأصيل، الذي لا يضيق برفيق، ولا يتبرم بصديق، ولا تشعر معه بضيق، وإن طال بك الطريق.

السفر معه روح وريحان، والجلوس معه حب وإيمان، والحديث معه ذكر وقرآن، والعمل معه قربة وإحسان.

جهود الشيخ في المؤتمر العالمي الثالث للسنة والسيرة

وعندما تبنّت دولة قطر المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية - بعدما عقد المؤتمر الأول في باكستان والثاني في تركيا - وجعلته قطر مقدمة لاحتفال الأمة الإسلامية بالقرن الجديد، القرن الخامس عشر الهجري: تعاونَّا معًا في اللجنة التحضيرية - التي رأسها الشيخ - والتي أعدّت العدة لاستضافة هذا المؤتمر الكبير، واستجاب الشيخ لما اقترحناه: أن نجعله مؤتمرًا للسنة والسيرة معًا، كما استجاب لكل مَنْ اقترحناه عليه

من أسماء للاستعانة بهم في إنضاج الموضوع، وفي ترشيح الأسماء، سواء بالكتابة إليهم أم باستحضارهم إذا ساعدتهم ظروفهم، مثل الشيخ أبي الحسن الندوي، والدكتور عبد العزيز كامل، والدكتور عز الدين إبراهيم رحمهم الله. وبذل الشيخ جهودًا مضْنية، تُذكر فتُشكر، في الإعداد والترتيب، وتذليل الصعاب، وجاء المؤتمر بحمد الله، رافعًا للرأس، لائقًا بموضوعه وبالمناسبة التي عُقِدَ فيها.. وتُوِّج ذلك بإجماع الحاضرين من أقطار العالم الإسلامي، ومن الجاليات الإسلامية خارجه، على اختيار الشيخ الأنصاري رئيسًا للمؤتمر الذي أصدر توصيات طيبة، نُشرت في كتيب خاص، وصدرت بحوثه في سبعة مجلدات بإشراف الشيخ.

إدارة إحياء التراث الإسلامي

أُسند إلى الشيخ إدارة إحياء التراث الإسلامي، فيسَّر الله على يديه طباعة مجموعة كبيرة من كتب التراث في التفسير والحديث والفقه والأصول والعقيدة والتاريخ واللغة والأدب، والمتون التي يحفظها طلاب العلم وغيرها، تطبع محققة مفهرسة على ورق فاخر، وتوزع في البلاد الإسلامية المختلفة، يرسلها الشيخ إليها، فينتفع بها طلاب العلم، وخصوصًا الفقراء الذين لا يجدون أثمان الكتب الكبيرة، فنفع الله به الألوف من علماء المسلمين وطلاب العلم في أنحاء العالم.

موئل لأصحاب الحاجات

وكان الشيخ موئلًا لأصحاب الحاجات من الفقراء والغارمين، وطلبة العلم، ولاسيما من البلاد الإسلامية المختلفة. وكان يستقبل الجميع ويهشّ لهم، ويعمل على مساعدتهم، ولا يضيق صدرًا بهم. وكان أهل البر والخير من تجار قطر وأثريائها يثقون به، ويمدونه بما يعين به أهل العوز والفقر.

وقد عمل الشيخ على إنشاء مراكز تحفيظ القرآن، التي بدأت محدودة ثم توسّعت وانتشرت، وأصبحت تملأ الساحة، والحمد لله.

عضويته في الهيئات العربية والإسلامية

وكان الشيخ عضوًا في هيئات عربية وإسلامية كثيرة، مثل المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، والمجلس العالمي الأعلى للمساجد، والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت، والمركز الإسلامي الإفريقي، وجمعيات كثيرة، داخل بلاد الخليج وخارجها. وكان في جميعها عضوًا فعّالًا، شجاعًا في إبداء رأيه، وفي نقد ما يراه من خلل أو خطل..

وقد كانت هذه الشجاعة في الحق سمة ملازمة له، تلمسها في المؤتمرات التي يحضرها، فإذا مس أحد «الثوابت الإسلامية» ثار كالبركان، وقال كلمته في غاية الصراحة، لا تأخذه في الله لومة لائم.

اشترك في أحد ملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر، فقال وزير الشؤون الدينية والتعليم الأصلي في ذلك الوقت الأستاذ مولود قاسم: كلمة فيها مساس بعصمة الرسول الكريم، إذ قال: كل الناس يخطئون، حتى محمد أخطأ. فقام الشيخ وتكلم بكلام قوي لم يستطع الوزير بعده أن يعقّب عليه.

وفي ولاية كيرالا في الهند، حضر بعض الاحتفالات لبعض الجماعات الإسلامية المتشدّدة، التي شارك فيها ممثلون عن الهندوس، بينما رفضوا أن يشارك فيها أمير الجماعة الإسلامية بإلقاء كلمة، فما كان من الشيخ الأنصاري إلا أن غادر الحفل محتجًّا، كيف تقبل مشاركة الهندوس في حفل، ولا تقبل مشاركة علماء المسلمين ودعاتهم؟

إصداره التقويم القطري

وكان للشيخ مشاركة في «علم الفلك القديم» وعلى أساسه كان يصدر «التقويم القطري» المشهور، ويملؤه بالحكم البليغة، والأشعار والأمثال واللطائف والألغاز التي يطلب حلها، وما زال ابنه الأكبر أبو عمر مستمرًّا في إصدار هذا التقويم النافع، الذي ورثه عن أبيه. ومن شابه أباه فما ظلم.

رحم الله الشيخ عبد الله الأنصاري، وتقبّله في الصالحين المصلحين، وجزاه خير الجزاء عما قدم من جهد في سبيل الإسلام والمسلمين.

لقائي د. مصطفى الفقي بالدوحة
١٩٨٩/١١/٤م

دعوته من نادي «الجسرة» الثقافي

ومن الشخصيات المصرية التي لقيتها في قطر: د. مصطفى الفقي، الذي كان يعمل مستشارًا في مكتب رئيس الجمهورية «حسني مبارك». وقد دُعي إلى الدوحة لإلقاء محاضرة عامة في نادي «الجسرة» الثقافي الذي تعود أن يدعو الشخصيات العربية المرموقة من رجالات الأدب والعلم والفكر والسياسة، وإن عرف أنه لا يدعو أحدًا من ذوي الاتجاه الإسلامي المعروف. وإنما سمي النادي «نادي الجسرة» نسبة إلى المنطقة التي قام فيها من الدوحة، وهي منطقة الجسرة، وكانت دعوة د. الفقي في شتاء سنة ١٩٨٩ .

وقد دعا قبل ذلك: أحمد بهاء الدين، وغيره من رجالات مصر وغيرها من البلاد العربية.

احتفاؤه بزيارتي

وقد حرصت على أن أحضر المحاضرة، وأن ألتقي المحاضر بعد ذلك في حجرته أو جناحه في الفندق، مرحّبًا به في قطر، وقد احتفى بزيارتي له، وقال لي: لقد كان من أهداف زياتي لقطر أن أسعد بلقائك، وأتعرف عليك وجهًا لوجه، بعد أن عم صيتك الآفاق. وقال: وهذه زوجتي تشهد أن لقاءك هو من المقاصد الأساسية لزيارتي. وإننا في مصر نعتز بك ونعتبرك رمزًا للإسلام المعتدل المستنير، الذي ينظر إلى العالم من

أفق واسع هو أفق التعاون والتسامح.. وإنك بمفردك مؤسسة دينية تعادل المؤسسة الرسمية، وقد تتفوق عليها. وقد رزقك الله حب الناس في كل مكان.

ثم قال: وإن هذا ليس رأيي وحدي، ولكنه رأي جمهور المثقفين في مصر، بل أقول لك: إنه رأي الجهات الرسمية؛ فالجميع يقدرك، ويعدك فخرًا للأزهر ولمصر، ويعرف منزلتك في فقه الدين وحُسن عرضه، والدفاع عنه أمام من يعاديه.

شكواي من إيقافي في المطار

وهنا قلت له: فلماذا يوقفونني في المطار كلما دخلت إلى مصر، ويأخذون جوازي ولا يعيدونه إلي إلا بعد ساعة، أو تزيد؟

قال: من يقوم بذلك؟

قلت: يقوم به المسئولون عن الأمن: رجال زكي بدر (وزير الداخلية في ذلك الوقت) وأمثالهم في المطار، وإن كانوا ـ والحق يقال ـ يتعاملون معي في غاية الأدب والذوق.

قال: سأنقل هذا إلى الجهات العليا، وأعتقد أنهم لا يقبلون ذلك، ولا يرضيهم.

توتر العلاقة بين الحركة الإسلامية والحكومة

قلت له: أنا لا يهمُّني كثيرًا موقفي بوصفي فردًا، وإن كنت أحب أن أعامل كما يعامل المواطنون الشرفاء في الأوطان الحرة الكريمة، ولكن الذي يهمني أكثر هو العلاقة بين الحركة الإسلامية والحكومة، فليس من مصلحة أمتنا هذا التوتر أو الصدام الظاهر والخفي بين الطرفين. وكم أتمنى أن يكون لك دور في إصلاح ذات البين، والتقريب بين الطرفين.

قال: هذه أمنية نتمنّاها جميعًا، وندعو الله أن يكون لنا حظّ في تحقيقها، أو تقريبها.

وبعد ذلك تحدّثنا في القضايا العربية والإسلامية التي تشغل الساحة يومئذ، ومنها: العلاقة بين مصر وإيران، والموقف بين السنة والشيعة، وكانت آراؤنا متقاربة إلى حد كبير.

ثم ودّعته وانصرفت، متمنيًا له إقامة طيبة في الدوحة، وعودة بالسلامة إلى مصر.

استشهاد العالم المجاهد د. عبد الله عزام

تفرغه للقضية الأفغانية

وفي هذه الآونة وبالتحديد في ٢٥/ ٤/ ١٤١٠هـ الموافق ٢٤/ ١١/ ١٩٨٩م فُجعنا وفُجعت الأمة كلُّها، بما جاءنا من أفغانستان من نبأ استشهاد العالم الداعية البطل المجاهد الدكتور عبد الله عزام، الذي نذر نفسه وفكره وجهده للدفاع عن الإسلام، والجهاد في سبيل قضاياه، وبخاصَّة القضية الأفغانية التي تفرَّغ للعمل لها، والدعوة إليها، وإلى مساندة الجهاد فيها، وطاف العالم في سبيل ذلك، وهاجر هو وأسرته ليقيم في أرض الجهاد، في أفغانستان، ولبس لباسهم، وأكل طعامهم، وشارك بنفسه في جهادهم. ولقد التقينا في أمريكا أكثر من مرة من أجل مساندة القضية الأفغانية، التقينا في أكثر من مؤتمر من أجلها، حتى قدم رقبته في سبيلها.

لقد استشهد د. عزام هو وابناه محمد وإبراهيم، حيث فجَّر الأعداء سيارته وهو متَّجه إلى المسجد لإلقاء خطبة الجمعة، ودُفن يوم استشهاده، وشيَّعه الألوف من المجاهدين ومن المحبّين من الأفغان والعرب وسائر المسلمين الموجودين في بشاور، وذكر كثيرون ممَّن شيعوه أنهم شمُّوا رائحة المسك تنبعث من دمه المسفوح، كرامَةً من الله له، وليس ذلك على الله بعزيز، وما هو من الشهداء بغريب.

السعي للصلح بين فصائل المجاهدين

ولقد لقيته هناك عدّة مرات، عندما كنا نسعى للصلح بين فصائل الجهاد، وخصوصًا

الفضائل المحسوبة على الحركة الإسلامية، حكمتيار وربّاني وسيّاف ويونس خالص، وقد دعانا ـ ومن معي من الإخوة ـ إلى الغداء عنده أكثر من مرة، وصحبني لزيارة بعض القادة في منازلهم، مثل الشيخ صبغة الله المجددي، الذي تولى الرئاسة فترة من الزمن، وقد كان زميلا لي في كلية أصول الدين بالأزهر. كما صحبني لزيارة بعض المؤسسات التعليمية والإعلامية التي تخدم الجهاد، وأجرى معي حوارًا في مجلته الأسبوعية «رسالة الجهاد» التي أنشأها لخدمة الجهاد والتعريف بأنبائه، وتكتيل الأمة حوله.

نسيج وحده

وقد كان رحمه الله نسيج وحده، غيرةً وحماسًا، وتجرُّدًا وإخلاصًا، وبطولةً وفداء. تراه لأول وهلة فتحبه، وتقترب منه فتزداد له حبًّا. حيث ترى رجلًا نقيا كماء المزن، مشرقًا كنور الفجر، مريحًا كنسيم الأصيل، وفي الوقت نفسه مستقيمًا كشعاع الشمس، صارمًا كحدِّ السيف. وكان كله لله، عقله لله، وقلبه لله، وجسمه لله، ووقته لله، وجهده لله، شعاره قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ (الأنعام:١٦٢، ١٦٣). أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحدا.

ثناء إخوانه الفلسطينيين عليه

لقد سمعت به قبل أن أراه، من ثناء إخوانه الفلسطينيين عليه، وشهادتهم له بالعلم والعمل والإخلاص. وقد قيل: الناس هلكى إلا العالمين، والعالمون هلكى إلا العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلصين!

وشهادة العلماء والصالحين لها قيمتها عند الله، فقد قيل: ألسنة الخلق أقلام الحق. وفي الحديث النبوي المتفق عليه: «أنتم شهداء الله في الأرض»[1] بعد أن قال عن رجل: «هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة» وعن آخر: «أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار».

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) كلاهما في الجنائز، عن أنس.

صدّق الخُبْر الخَبر

والحق أني حين لقيته لأول مرة في أحد معسكرات الشباب بإحدى الجامعات في مصر، صدّق الخُبْر الخَبَر، وصدّقت العين الأذن، والأذن تعشق قبل العين أحيانًا.

ولما اقتربت منه وجدته رجلًا جديرًا أن يُحب، ورأيته يتمتَّع بحُسن الخلق، فهو يتميَّز بوجه سَمْح، وطلعة مُشْرقة، وفم يبتسم، يأسر جليسه بإيمانه وأخلاقه، قبل أن يأسره بأي شيء آخر. كما رأيته يتمتع بحسن الفقه، وحُسن الدعوة، وحُسن العمل، والشجاعة في الحق، وبصفاء قلبه من الغش، وقوله من اللغو، ولسانه من الكذب، وعينه من الخيانة، ويده من التلوُّث، وضميره من النفاق: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣).

داعية الجهاد

وثق به المجاهدون عربهم وأفغانهم، ووثق به المسلمون في أنحاء العالم، وأمدوه بما يحتاج إليه، وخصوصًا بعد أن أنشأ مكتب خدمات المجاهدين.

ولقد زارنا في قطر عدّة مرات، في سعيه لحشد الجهود والأموال من أجل قضية الأفغان التي عرّف بها أكثر من أهلها أنفسهم.

كما التقينا مرات عدّة في مناسبات شتّى بعضها في بلاد الخليج وبعضها في أمريكا، وبعضها في أوربا. وهو في جولاته كلها داعية الجهاد الذي لا يفْتر ولا يمل ومعبِّئ الأمة لهذا الجهاد، أو على الأقل مساندته بالمال وخبرات الرجال.

رأيه في فرضية الجهاد في أفغانستان

وكان يرى أن الجهاد في أفغانستان أصبح فرض عين على الأمة كلها في مشارق الأرض ومغاربها. وقد ناقشته مرة في توضيح هذا الكلام، فإنَّ أخذه على إطلاقه لا يُتصوَّر، إذ لا يمكن أن نحشدَ الأمة كلَّها في أرض أفغانستان! ولا يمكن أن تُعطَّل الحياة الإسلامية في الأقطار المختلفة من أجل الجهاد في أفغانستان.

ولكن يجب على الأمة كلها أن تساند الجهاد الأفغاني بالمال، وقد أمر الله بالجهاد

بالمال، كما أمر بالجهاد بالأنفس، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٤١).

ومن كان لديه خبرة عسكرية لا تتوافر عند الأفغانيين ومن معهم بدرجة كافية، ولا يسد غيره مسده، يجب أن يسلم نفسه إليهم.

ومن لا يستطع أن يقدم شيئًا، فعليه أن يدعو لهم بالنصر والتأييد.

نبأ وفاته ورثاؤه

كان نبأ استشهاد د. عزام فجيعة لكلٍّ من عرفه، وقد بكاه العاملون للإسلام في كل مكان، فمن الرجال من إذا مات ثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدُّها إلا خلف منه، ومن يخلف هؤلاء الأفذاذ قليلون، بل نادرون.

وقد كانوا إذا عدوا قليلاً فقد صاروا أقلَّ من القليل

ولقد تبارى الأدباء والشعراء في رثائه وتأبينه، وخصوصًا من أبناء فلسطين. ومما أذكره من ذلك قصيدة الشاعر الفلسطيني المطبوع عبد الرحمن بارود

التحامل على الشهيد عزام

ومن الناس من يتحامل على الشهيد عزام، ويحمِّله أوزار أمور كبيرة حدثت بعد ذلك. فمنهم من يحمِّله تبعات جماعات الجهاد التي ظهرت في عدد من البلاد العربية، مع أن بعضها موجود من قبل، ومنهم من يحمِّله وزر ظهور القاعدة وما جرّت على المسلمين من تبعات جسام، وأن له صلة وأثرًا قويًّا في تكوين جماعات العنف.

والحق أن الرجل كان داعية إلى جهاد الأعداء، وإعداد الأمة له، ودفعها إليه، أما الاقتتال الداخلي بين أبناء الأمة، فلا يوجد دليل على تحمُّله ذلك، والأصل البراءة، وحُسن الظن، والحمد لله أولًا وأخيرًا.

ندوة الزكاة في الرباط

وفي أواخر سنة ١٩٨٩م جاءتني دعوة من الأستاذ الفاضل محمد بلبشير الحسني بالرباط، للمشاركة في ندوة عن الزكاة، وكانت ندوة علمية مفيدة، لم أشارك فيها ببحث على ما أذكر، ولكني شاركت بالتعليق والمناقشة على كثير من الأبحاث. كما شاركت في صياغة التوصيات التي صدرت عن الندوة.

محاضرتي في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس

وفي هذه الرحلة دُعيت إلى محاضرة في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، وكانت المحاضرة في قاعة ابن خلدون، وهي قاعة كبيرة معدّة للمحاضرات العامة، وقد امتلأت القاعة على آخرها، ملأ الناس المقاعد، وبقي كثيرون وقوفًا داخل القاعة. وظلّ أضعاف من في القاعة، خارجها.

وقد ذكّرني الأخ الداعية المغربي المقرئ أبو زيد الإدريسي: أني حين رأيت هذه الجموع الحاشدة، قلت: من أراد أن يعرف حقيقة الشعب المغربي، أو أراد أن يستفتي على الإسلام في المغرب، فلينظر إلى هذه الجموع التي أقبلت من كل حدب وصوب، لتستمع إلى كلمة الإسلام.

وكان عنوان المحاضرة التي ألقيتها في الجامعة هو: الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير[1].

---

(١) وقد طبعت هذه المحاضرة، نشرتها مكتبة وهبة، بالقاهرة.

زيارة إلى الجزائر ومدينة مراكش

من قطر إلى الجزائر

في أواخر خريف أو أوائل شتاء سنة ١٩٨٩م جاءتني دعوة من الجزائر لإلقاء عدد من المحاضرات في عدد من جامعاتها، في الجزائر العاصمة وفي وهران بالغرب الجزائري. وكان الذي ينسّق هذه المحاضرات هو وزارة الشؤون الدينية في الجزائر.

كما جاءتني دعوة أخرى في نفس التوقيت من «جامعة القاضي عياض» بمدينة مراكش في المملكة المغربية.

ورتّبت سفري على أن يكون ذلك في رحلة واحدة، وهذا ما أحاول أن أفعله دائمًا اختصارًا للوقت.

وتمّ الترتيب على أن أبدأ بالجزائر لأبقى فيها يومًا واحدًا، ثم أترك فيها حقيبتي الكبيرة، وآخذ معي إلى مدينة مراكش حقيبة صغيرة، حيث إني لن أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام. ولكن إقامتي الأطول ستكون في الجزائر. وكان وصولي إلى الجزائر عن طريق القاهرة.

من الجزائر إلى الدار البيضاء

وحين وصلت إلى الجزائر، حططت فيها رحالي لليلة واحدة، ثم حملت حقيبتي الصغيرة في الصباح، وركبت الطائرة المتّجهة إلى الدار البيضاء، وكان اعتقادي: أني سأجد بعض الإخوة من جامعة القاضي عياض، ينتظرونني بالمطار، ثم يصطحبونني

إلى مراكش. وهو ما أرسلت به عدّة برقيات إليهم، وما طمأنتني سفارة المغرب في الدوحة: أن كل شيء على ما يرام.

في مطار الدار البيضاء

وصلت مطار الدار البيضاء، وخرجت منه لأبحث عمّن ينتظرني من إخواننا في مراكش، فلم أجد أحدًا.. تلفّت يمينًا وشمالًا، فلم أشعر بأن أحدًا في استقبالي، وأنا بهيئتي وزيي لا يخطئ مَن ينتظرني. قلت: لعلهم تأخروا في الوصول، فلأنتظر قليلًا، لنعطيهم فرصة في الوصول، ولو متأخرا، ولكن كان ذلك كله بدون جدوى.

التماس المعاذير

راودني خاطر أن أعود إلى الجزائر. فهؤلاء القوم الذين لم يهتموا باستقبالك، وأنت قادم من أقصى المشرق العربي، إلى أقصى المغرب العربي: لايستحقون أن تذهب إليهم! وسرعان ما انقشع هذا الخاطر، حين أرجع إلى نفسي، وأقول: لا يمكن أن يتعمّد القوم ذلك، والشاعر العربي يقول:

تـأنَّ ولا تعجل بلومك صاحبا ... لـعـلّ لـه عـــذرًا وأنـــت تلوم

والمؤمن دائمًا يلتمس المعاذير، والمنافق يتطلب العثرات. وأنا أحمد الله تعالى: أن من أخلاقي الثابتة: التماس الأعذار للآخرين.

قلت في نفسي: لا بد أن برقياتي لم تصل إليهم، ودائمًا الخدمات في المدن الإقليمية، غير العواصم، تكون رديئة وغير منتظمة، ولا سيّما في بلادنا العربية. ليس لنا إلا الرضا بما قدّر الله، فهو الذي يشفي صدورنا، ويريح ضمائرنا: أن نقول: قدّر الله وما شاء فعل.

ولكن ترى ماذا أفعل؟ وهذه مدينة لم أزرها من قبل، ولا أعرف عنها أي شيء، إلا أنها مدينة عريقة، وكانت عنوانًا من قبل على القطر المغربي كله، فكنا نقول دائما: قضايا تونس والجزائر ومرّاكُش.

وجامعة القاضي عياض لا أعرف عنها شيئًا غير اسمها، وهي تنتسب إلى إمام كبير، له قدره ودوره في خدمة الثقافة الإسلامية: في السيرة النبوية، وعلوم الحديث، والفقه وأصوله، ولكن ما بال الجامعة التي تنتسب إليه تضيع ضيوفها، وتتركهم مكشوفين في العراء؟

من الدار البيضاء إلى مراكش

كان لا بد لى من أن أفكر جديا: ماذا أعمل للوصول إلى مراكش، وقيل لي: ليس أمامك إلا أن تذهب إلى القطار، وهذا يحتاج منك إلى أن تعرف مواعيده. ونظن أنه في الصباح أو المساء، أو تأخذ سيارة «تاكسي» إلى مراكش.

قلت لهم: كم تأخذ المسافة من هنا إلى مراكش؟

قالوا: حوالي أربع ساعات.

وبحثت عن سيارة تاكسي لتوصيلي، فوجدت إحداها وإن لم تكن كما أحب، واتفقت مع سائقها على أن يوصلني إلى جامعة القاضي عياض بمراكش.

ومضت السيارة في طريقها، وكان الطريق ضيقًا، ومزدحمًا بالسيارات الذاهبة والآتية، وطالت الساعات الأربع، كأنها أيام، وزاد طولها ما أعانيه من كدر وقلق نفسي، لا يسلم منه البشر في مثل هذه الأحوال. ولم تكن جلستي في السيارة مريحة كما ينبغي، وقد جئت من سفر طويل من الدوحة إلى الجزائر عن طريق القاهرة، ثم من الجزائر إلى الدار البيضاء.

وبعد أربع ساعات، وربما أكثر قليلًا، وصلنا إلى مراكش، وبقي أن نصل إلى جامعة القاضي عياض، والسائق من الدار البيضاء، ولا يعرف شيئًا في مدينة مراكش، ولذا ظلَّ يدور بي ويدور، حتى إننا مررنا قرب الجامعة المنشودة ولم يشعر! قلت له: يا أخي اسأل، المثل عندنا يقول: الذي يسأل لا يتوه.

إلى جامعة القاضي عياض

وبالسؤال دلونا على طريق الوصول إلى الجامعة، وأخيرًا وصلنا إليها بعد لأى،

وكانت الشمس تقترب من الغروب. وكان بعض الطلاب لا يزالون بالجامعة، فأشار بعضهم إلى بعض: القرضاوي، القرضاوي. وأقبل عدد منهم يريدون مصافحتي ومعانقتي، فرجوتهم أن يدعوني الآن، فإني في غاية من المعاناة والتعب، وأن يدلوني على مكتب أي مسؤول في الجامعة، وخصوصًا الداعين إلى مؤتمر الغد.

في مكتب عميد كلية الآداب

وأوصلوني إلى مكتب عميد كلية الآداب، وهو في الدور الثالث من المبنى، وكنت أجر رجلي جرا، وقد بلغ بي الإعياء ما بلغ، حتى وصلت إلى مكتب العميد، ففوجئ بي، ومَن معه من الأساتذة، وقالوا: كيف وصلت؟ وأُسقط في أيديهم، ولم يدروا ماذا يقولون. قالوا: نأسف غاية الأسف، ونعتذر كل الاعتذار: أن تأتي إلى جامعتنا، ولا يستقبلك منا أحد، هذا عيب كبير في حقنا، وتقصير ليس بعده تقصير... وحلفوا بالأيمان المغلّظة: أنهم لا يعرفون عن وصولي شيئًا، ولقد استقبلنا من هو أقل منك شأنا، فكيف لا نستقبلك، والمغرب كله يحبك ويقدرك قدرك؟

قلت: ما عاد الاعتذار ولا التلاوم يُجْدي فتيلًا، وقد وقع ما وقع. والخير فيما اختاره الله، لعله دفع بذلك بلاء أكبر كان سيقع لنا، ونحتسبه عند الله.

وطلبوا لي فنجانًا من القهوة. قلت لهم: أرى الشمس تتهيأ للغروب، وأنا لم أصلِّ ظهرًا ولا عصرًا، دلوني على دورة المياه لأتوضأ وأصلي الظهر والعصر جمع تأخير، قبل أن ينتهي وقتها.

فذهبت إلى حمام قريب، وتهيّأت للوضوء، وصليت الفرضين الظهر والعصر، وأنا في غاية الإعياء، صلّيتهما جالسًا، ولا حرج في ذلك، فالله تعالى يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦)، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، ونحن نعلّم هذا للناس فلماذا لا نطبقه نحن؟

وعدتُ إلى الإخوة، وشربت القهوة، وقالوا: يجب أن نأخذك إلى الفندق لتستريح من وعثاء السفر، ومتاعب الطريق، وفي الصباح نأتي إليك لنرتب معك موضوع المؤتمر.

قلت: أحسنتم، وجزاكم الله خيرًا.

إصابة مفاجئة في رجلي اليسرى

ونزلنا من الدور الثالث، إلى حديقة الجامعة، لنصل إلى السيارة التي تقلني إلى الفندق، وفجأة شعرت برجلي اليسرى تتوقف، ولا أستطيع أن أحركها، وشعرت بألم شديد فيها.

نظر إليّ الإخوة المرافقون: عميد الكلية ومن معه، وقالوا: ألا تستطيع أن تمشي ولو ببطء إلى السيارة؟!

قلت لهم: لا أجد نفسي قادرًا على أن أخطو خطوة واحدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قالوا: نحملك، لنوصلك إلى السيارة، ومنها إلى الفندق!

قلت: وماذا أفعل في الفندق، وأنا لا أقدر أن أذهب إلى الحمام، أو أقضي أي شيء؟

قالوا: وما العمل؟ وما الحل؟

قلت: ليس هناك حل إلا أن تذهبوا بي فورًا إلى مستشفى خاص، ينظر في حالتي، ويصف لي العلاج السريع المناسب، الذي يخفّف ـ على الأقل ـ الألم عني، وأنا الذي سأدفع المصاريف.

وكان من فضل الله علي أني حملت معي قدرًا من الدولارات احتياطًا، على قلة ما أفعل ذلك، ولكن الله هداني في هذه المرة إلى هذا. وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله.

إلى مستشفى خاص للعلاج

وفعلًا أوصلوني إلى مستشفى خاص، وفحصني الطبيب المسؤول في الحال، وقال لهم: إنه يتطلب ألا يتحَرَّك من سريره لمدة أربع وعشرين ساعة على الأقل، وأن يعطى

إبرة مسكنة، وتجرى له بعض التدليكات الخفيفة، ويأخذ بعض الأدوية، حتى يمكن أن يقف على رجليه.

وودّعني الإخوة وتركوني ممددًا على سريري. قالوا: نأتي بعشاء خفيف تقيم به أودك، فلعلك منذ الصباح لم تتناول شيئا.

قلت لهم: شكر الله لكم، ليس عندي شهيّة لأيِّ طعام، ولا أشعر بالجوع، على رغم أن جوفي لم يدخله شيء منذ الصباح الباكر.

وكانت نيتي ألا آكل شيئًا، حتى لا أضطر إلى البراز، وأنا على السرير، وهو شيء يؤلم النفس، مع أنه ليس على المريض حرج.

وقضيتُ ليلتي نائمًا على ظهري، لا أجد سلوى إلا في الذكر والدعاء، وبخاصة دعاء سيدنا أيوب: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)، ودعاء سيدنا يعقوب حين قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦). ودعاء سيدنا يونس ذي النون، حين نادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧). وقد جاء في الحديث: «دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه»[1] فلعل الله الرحمن الرحيم يفرج عني بفضله ورحمته.

ما أصعب المرض في الغربة

لقد خلق الإنسان ضعيفًا، وأظهر ما يكون ضعفه حين يصيبه المرض، ولا سيما في حال الغربة، وقد قيل: الغربة كربة.

أن تمرض بين أهلك وعيالك شيء، وأن تمرض ولا أحد من أهلك حولك: شيء آخر.

وقد قدّر عليَّ أن أصاب بأمراضي الكبيرة وأنا في السفر، أُصبت في فقرات ظهري،

(١) رواه أحمد (١٤٦٢)، قال مخرجوه: إسناده حسن، عن سعد بن أبي وقاص.

وأنا في فندق في مطار كراتشي وأنا عائد من ماليزيا، وبعد أن ودعني الإخوة الذين استقبلوني، وتركوني وحدي.

واليوم أصاب برجلي اليسري، وأنا في هذه المدينة المغربية، بعيدًا عن وطني وأهلي. ولله في ذلك حكمة، عَلِمَها من عَلِمَها، وجَهِلَها من جهلها. فهو لا يخلق شيئًا باطلا، ولا يقضي أمرًا اعتباطًا ولا عبثًا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١). أدعو الله تعالى أن يجعل كل ما يصيبني في رحلاتي هذه كفارة لسيئاتي، وما أكثرها، وزيادة في حسناتي، وما أقلها!

بقيت إلى الصباح، وانقضى الليل الطويل، الذي ذكرني بليل امرئ القيس، وهو يقول له:

ألا أيها الليل الطويل ألا انْجَلِ بصبح، وما الإصباح منك بأمثلِ!

طلاب الجامعة يتساءلون عن غيابي

وابتدأ المؤتمر الذي دُعيت إليه بعقد جلسته الافتتاحية، ولم أحضرها، ولم يعرف أكثر الناس أني في مدينة مرّاكش، كل ما عرفوه أني دُعيت واعتذرت. ولكن بعض الطلاب الذين شاهدوني بالأمس، تهامسوا فيما بينهم: أين القرضاوي؟

والإخوة المسؤولون لا يريدون أن يعلنوا عن حضوري، وعمّا حدث لي، حتى لا يتكاثر الناس، ولا سيما الطلاب عليّ، ويزعجوني، وأنا في حاجة إلى الراحة.

وفي جلسة المساء، تلفّت الطلاب يَمْنة ويَسْرة، فلم يجدوني، وهم مستيقنون أني قد وصلت إلى البلدة، ورأوني بأعينهم، وسلّموا علي، فأين ذهبت أو ذُهِب بي؟!

لقد ظهرت إشاعة: أني وصلت إلى مراكش، وأن السلطات الأمنية حجزتني عن المشاركة! وإلا فأين أنا؟

وبدأ تهامس الطلاب وتخافتهم، يقوى شيئًا فشيئًا، حتى تحوّل إلى صيحات داخل القاعة! أين القرضاوي؟ أين القرضاوي؟

وأحسب أن المسؤولين اضطروا إلى أن يعرفوهم بما جرى لي من إصابة في رجلي

عطّلتني عن الحركة والمشي، واضطرتني إلى الدخول في مستشفى خاص للعلاج، وهذا قدر الله، ولا حيلة لنا فيه، ولا نملك إلا أن ندعو الله جميعًا له بالشفاء العاجل.

في منزل د. العبادي

وفي المساء وبعد أن أنهيت الأربع وعشرين ساعة، التي فرضها الطبيب علي ألا أتحرك فيها: جاءني بعض الإخوة الأحبة من أهل المدينة، وعلى رأسهم أخونا الحبيب العالم الداعية د. أحمد العبادي، وطلب إليّ أن أذهب معه إلى داره، ليكون هو وأهله وإخوانه في خدمتي، وأن النزول في الفندق لا يقوم بكل ما أحتاج إليه. فأنا ما زلت في حاجة إلى مساعدة ومساندة للوصول إلى دورة المياه، وعنده دور أرضي يعينني على ذلك. وقال: تبقى عندنا ليلتين حتى تستطيع النهوض بنفسك، وتعود إلى الجزائر، كما هو مقرّر في رحلتك.

وافقت على ذلك، وبقيت يومين في منزل الأخ الكريم، وفي رعاية بالغة منه ومن أهله، ومن بعض إخوانه، الذين كانوا يزورونني بين الحين والحين. وقد اجتمعت في مساء اليوم التالي بنخبة طيبة منهم، وسمعوا مني وسمعت منهم، وسألوني وأجبتهم.

وقد رتّبوا لي العودة إلى الدار البيضاء عن طريق القطار، ويستقبلني الإخوة هناك في محطة القطار، وأبيت عندهم ليلة، ومن هناك أستقل في الصباح الطائرة إلى الجزائر.

العودة إلى الدار البيضاء والمبيت فيها

وفعلا في الصباح الباكر، أخذني الإخوة بالسيارة إلى محطة القطار، ولم يكن في ذلك مشقة، ولكن المشقة كانت في السير على الرصيف، حتى أصل إلى العربة التي فيها مقعدي، وكل خطوة عندي لها حساب.

وركبت القطار بعد أن ودّعت الإخوة الأحبة، شاكرًا للأخ الدكتور العبادي ما قام به نحوي، مما لا أنساه، ولا يشكر الله من لا يشكر الناس، وفي الحديث: «من صنع

إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تقدروا، فقولوا: جزاك الله خيرا»[1]، وأنا أقول للدكتور العبادي وإخوانه: جزاكم الله خيرا، وأكرمكم كما أكرمتموني.

وصلت إلى محطة الدار البيضاء، ووجدت بعض الإخوة في انتظاري، وأخذوني إلى منزل أحدهم، وقالوا: وجدنا هذا أفضل من الفندق حتى نكون رهن إشارتك فيما تطلب من معونة.

ثم هي فرصة لندعو لك بعض الإخوة ليلتقوك ويستمعوا إليك، فهذه فرصة لا تعوض.

وبالفعل حضر عدد من الإخوة العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، وكان لقاء طيبًا من لقاءات الأُخوّة في الله، والحب في الله، الذي نرجو أن يظلّنا الله ببركته في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ومن الدار البيضاء إلى الجزائر

وفي الصباح استقلت الطائرة من مطار الدار البيضاء إلى الجزائر، ووجدت الإخوة في استقبالي بمطار هواري أبو مدين، وهو الاسم الرسمي لمطار الجزائر. وقد آلمهم كثيرًا ما رأوني أعانيه من ألم الإصابة برجلي، ودعوا الله لي بعاجل الشفاء، وتمام العافية.

وكنت وأنا في مدينة مراكش، اتصلت بالإخوة في الجزائر، وأبلغتهم بما حدث لي من إصابة في رجلي اليسرى، عاقتني وأقعدتني عن الحركة والنشاط، ورجوتهم أن يعفوني من المحاضرات والأنشطة التي رُتّبت من قبل، فما كنت أعرف ما يخبئه لي القدر، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ (لقمان: ٣٤)، وكما قيل: العبد يفكر، والرب يقدّر. ولا ريب أن تقدير الرب هو النافذ، وكما قال شوقي:

قـدّرت أشـيـاءً، وقـدّر غيرَها ... قـدرٌ يخـطُّ مـصـايـر الإنـسـان!

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥٣٦٥)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الزكاة (١٦٧٢) عن ابن عمر.

وقال لي الإخوة: إنَّ هذه الأنشطة والمحاضرات قد أُعلن عنها بكثافة في الصحف والإذاعة والتلفزيون، وغدا الناس يترقّبونها ويسألون عنها، ومن الصعب جدًّا إلغاؤها. كل ما نستطيع أن نعمله: أن نهيِّئ لك كل الوسائل التي تريحك، ونجند لك من الإخوة من يرافقك في هذه المحاضرات، ولا يحوجك إلى المشي الكثير، وحتى هم مستعدون أن يحملوك على أكتافهم إذا لزم الأمر. فنرجو ألا تخيب رجاء الناس فيك، وأهل الجزائر أمسوا يحبونك ويهرعون إليك، ويصغون لكل ما تقول، وهذه نعمة تستحق الشكر، ومن شكرها ألا تخذل المحبين لك.

قلت: والله ما طلبت هذا إلا من شدة ما أعاني، وخشيتي أن يتضاعف الألم عليَّ.

قالوا: توكّل على الله، والله يعينك. ونحن في انتظارك.

محاضرات في جامعات الجزائر ومعاهدها

وأنا رجل أضعف كثيرًا أمام الإلحاح، وإن كلفني ما كلفني، فلم أجد بدًّا من الاستجابة إلى ما طلبوا، وتوطين نفسي على أن أقوم بالمحاضرات المطلوبة. وكان عدد منها في جامعات العاصمة ومعاهدها. وقد نسيت أسماءها، ولكن الذي أذكره: أن بعضًا منها اضطرني إلى أن أصعد على رجلي ـ برغم وجعها ـ سلمًا من دورين. وكان هذا في غاية المشقة علي، ولكن المعين هو الله.

كانت عودتي بهذه الصورة، وأنا لا أقدر أن أحمل رجلي: مشهدًا مؤلما لأحبتي الذين ودّعتهم، وأنا في غاية النشاط، فإذا بهم يفاجئون بمنظري الذي لم يتوقعوه أبدا.

محاضرة في جامعة وهران

وكانت هناك محاضرة في جامعة وهران، وقد ذهبت إليها بالطائرة، واستقبلوني هناك استقبالًا حافلا، وقالوا: نشكرك مرتين: مرة على استجابتك، ومرة على استجابتك على رغم تعبك وألمك. ونحن سنساعدك بقدر ما نستطيع على توفير الراحة لك، وأجرك على الله.

ولكن هناك أشياء تفرض نفسها لا حيلة فيها: مثل الدّرَج في مدخل الجامعة، حين تصعد نحو عشر درجات أو أكثر، فهم لم يحسبوا حساب الضعفاء والمرضى.

وبقيت هناك يومين على ما أذكر ثم عدت إلى العاصمة، لأبقى بها يومًا أو يومين، ثم أسافر منها إلى القاهرة، ومنها إلى الدوحة.

وودّعت إخواني وأحبتي على الرغم مني، وهم يبكون وأنا أبكي، فقد كان المأمول أن أبقى مدة أطول، ولكن الظروف التي ألـمَّتْ بي تحتِّم عليَّ أن أسرع بالعودة، لاستكمال علاج ما أصابني من قَرْح.

درس وعبرة

سبحان الله: ما أعظم غرور الإنسان حين يعجب بقوته! وما أعجزه وأضعفه حين يفقدها، أو يفقد شيئًا منها! ثم ما أشد عجزه مرة أخرى حين لا يعرف متى يفقدها، فيفاجأ بفقدها أشد ما يكون حاجة إليها!

لقد كنت قبل هذه الحادثة مُعجبًا بما آتاني الله من قدرة على الحركة والنشاط، ومواصلة الأسفار في الشرق والغرب والشمال والجنوب، معتقدًا أن ما منحني الله من تكوين جسمي يساعدني على أداء مهمتي، فقد ساعدتني نشأتي الريفية البسيطة على تعوّد المشقات، فلم أولد وفي فمي ملعقة من ذهب ولا فضة، وربما ولا من حديد. ولكنا كنا نأكل الأكل الطبيعي الذي لم تمسسه الكيمياويات، ونشرب اللبن الطبيعي، ونأكل اللحم الطبيعي، والبيض الطبيعي. فكل شيء فيه بركة. لم أتعود الحركات الرياضية المنظمة، فلم يكن في قريتنا ناد رياضي، ولكن كنا نلعب لعب أبناء القرى من الركض والقفز والتسابق في مثل هذه الألعاب، وكنا نمشي المسافات الطويلة ولا نكل ولا نمل.

ونشأنا نشأة مستقيمة؛ فلم نعرف طريق المسكرات ولا المخدرات، وحتى التدخين، لم أدخن سيجارة في حياتي لا جادًّا ولا لاعبًا.

فحفظ الله شبابنا بالاستقامة والطهارة.. ولما انضممت إلى جماعة الإخوان المسلمين: علمتنا بعض السلوكيات الرياضية، وربّتنا على بعض الأعمال التي تزيدنا قوة على قوة.

وما شكوت في شبابي من أمراض خطيرة، إلا ما أصابني في الصبا من البلهارسيا والإنكلستوما، وهما من الأمراض المتوطّنة في مصر. وقد عولجت منهما في صباي، والحمد لله.

وكنت أحس أن تكويني العظمي قوي، وكنت قبل أن أصاب برجلي، أصعد السلّم وثبًا، وأنزله ركضًا، وكان خالي رحمه الله، ينظر إليّ وأنا أفعل ذلك في منزلنا بشبرا، ويقول: الحمد لله، الذي حفظ عليك صحتك!

ولكن كل بناية وإن شمخت، وكل ماكينة وإن أتقن صنعها، لها عمر افتراضي.. وكذلك الإنسان، وأحمد الله أننا أفضل كثيرًا من أبنائنا وأحفادنا، فإني أراهم يشكون صغارًا، مما نشكو منه كبارًا. يشكون من عظامهم وأسنانهم وأضراسهم، وأنا بفضل الله لم أخلع إلا ضرسين أو ثلاثة، ولا تزال أظافري قوية صلبة إلى اليوم، حتى إني لا أستطيع أن أقص أظافر رجليَّ، إلا بعد أن أنقعها في الماء مدّة من الزمن حتى تلين، ويسهل قصّها.

من الجزائر إلى القاهرة

سافرت من الجزائر عائدًا إلى مصر، وكنت مدعوًّا إلى محاضرة في جامعة القاهرة بدعوة من نائب رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور علي السلمي. ولكني قبل أن أذهب إلى الجامعة، طلبت من إخواني في القاهرة أن يرشحوا لي طبيبا مختصّا، يراني، ويصف لي بعض ما يخفف وجعي. فأرسلوا إلي الأخ الدكتور عزت كامل طبيب العظام، وزوج ابنة الدكتور أحمد الملط رحمه الله.

وجاء د. عزت حفظة الله وقال: هناك ماء يتجمع في الرجل، لا تستريح إلا بشفطه، وقد فعل ذلك، واسترحت إلى حين.

منعي من المحاضرة في جامعة القاهرة

وبعد ذلك ذهبت إلى جامعة القاهرة في الجيزة، لأقوم بأداء محاضرتي، فوجدت

الحرس الجامعي، يحيط بي من كل جانب، وقد منعوني من الدخول، فأطلعتهم على الدعوة التي وصلتني من نائب رئيس الجامعة، فجاء رئيس الحرس، وأذكر أن اسمه الدكتور محمد عبد اللطيف، وقال لي: يا دكتور قرضاوي: إن عندنا أمرًا مباشرًا من وزير الداخلية نفسه (زكي بدر) بمنعك من الدخول. قلت: وإن كانت معي دعوة رسمية من الجامعة؟ قال: هذه الدعوة لا تعترف بها الداخلية. وأنا والله من قرائك والمستفيدين من كتبك، والمحبين لك، ولكن لا أملك من الأمر شيئًا.

وكان الطلاب قد سمعوا بمجيئي عند باب الجامعة، فتجمهروا، وأرادوا أن يحدثوا ضجّة، فأشرت لهم: أن لا ضرورة لذلك، وإن مع اليوم غدا، وإن غدًا لناظره لقريب.

محاضرة في مسجد آل عزام بحلوان

وفي نفس الليلة، دعاني أخونا الكريم، المحامي الوطني الكبير الأستاذ محفوظ عزام: أن أذهب إلى مسجدهم في حلوان لإلقاء محاضرة هناك، وقال لي: هناك جمهور كبير يتشوّق إليك.

فقلت: على بركة الله، لعل هذا يكون تعويضا عن محاضرة جامعة القاهرة.

وتوكّلت على الله، وذهبت إلى مسجد آل عزام بحلوان، وألقيت محاضرتي التي شهدها جمٌّ غفير، وكانت المحاضرة عن الشورى والديمقراطية، وموقف الإسلام منها، وتحدثت عنها الصحف بعد ذلك، وبخاصة مجلة «منبر الإسلام» المصرية التي تصدرها وزارة الأوقاف المصرية، وقد نقلت معظم المحاضرة، ووضعت صورتي على غلاف المجلة.

من القاهرة إلى الدوحة

وفي اليوم التالي، امتطيت طائرة الخليج إلى الدوحة، ففوجئت أسرتي بما أصبت به في رجلي.. لقد خرجت من الدوحة سليمًا نشيطًا لا أشكو من شيء، واليوم أعود وإحدى رجلي كما يرونها! ماذا جرى؟

فقصصت عليهم القصة، فقالوا: هذه نتيجة الأسفار التي لا تنتهي: مرة تصاب في ظهرك، وأنت في المشرق ولا أحد معك، ومرة تصاب في رجلك، وأنت في المغرب، ولا أحد معك.

قلت: هذا ليكفِّر الله من سيئاتنا وما أكثرها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يصيبه نصب ولا وصب، ولا هم ولا غم، ولا أذى ولا حزن، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[1].. وأنا أرجو أن يكون كل ما يصيبني من أوجاع في سفري أو في حضري كفارة لخطاياي، حتى يقيلني الله منها، وينقيني من آثارها، كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدنس.

معالجة طبيب برازيلي

وبعد أيام قليلة ذهبت إلى قسم العظام بالمستشفى، وبعد الكشف المعتاد طلبوا الكشف بطريق الأشعة، وبعد ذلك قالوا لي: هنا طبيب برازيلي ممتاز، جيء به من أجل لاعبي الكرة، ومعالجتهم من إصاباتهم في الملاعب، ويمكنه أن يعمل لك عملية جراحية بالمنظار، تستريح بعدها كثيرا.

قلت: لا مانع، على بركة الله.

وفي الوقت الموعود، ذهبت إلى الطبيب المعهود، فرحّب بي، وقال: سنعمل لك العملية بالتخدير الموضعي، وستخرج بعدها تمشي بدون أي مساعدة.

وفعلا أجرى العملية، وأنا أراه في أثناء إجرائها على التلفزيون، حتى أتمها بنجاح، وبعدها بقيت دقائق، ثم خرجت من المستشفى، وعدت إلى البيت، وكانت من أسرع العمليات التي أجريتها في حياتي، وأحمدها أثرًا، ولله الحمد والمنّة.

---

(١) رواه البخاري في المرضى (٥٦٤١)، عن أبي هريرة.

معركة فوائد البنوك والرد
على الشيخ طنطاوي مفتي مصر

معرفتي القديمة بالشيخ طنطاوي

معرفتي قديمة بفضيلة الأخ الشيخ: محمد سيد طنطاوي، الإمام الأكبر، وشيخ الأزهر اليوم، وقبل ذلك مفتي جمهورية مصر العربية، وقبل ذلك أستاذ التفسير بجامعة الأزهر.

أعرفه منذ كان طالبًا مجتهدًا بكلية أصول الدين، ثم حين تخرج وعمل إمامًا وخطيبًا في أحد المساجد بحي شبرا بالقاهرة، وكان يتردّد على منزلي بحي شبرا للزيارة بعد زواجي، وكثيرًا ما كان يصحب زوجته رحمها الله، لتزور زوجتي وتتعرف عليها.

وظلت هذه المودة والصلة قائمة حتى بعد أن أعير إلى العراق، ليعمل واعظًا بمدينة البصرة، وفي ذلك الوقت كان مشغولًا بإعداد رسالته للدكتوراه، وموضوعها «بنو إسرائيل في الكتاب والسنة»، وكان يستشيرني في بعض الأمور العلمية أحيانًا فأشير عليه؛ بما يفتح الله به.

وبعد أن أعرت إلى قطر مديرًا لمعهدها الديني الثانوي، ثم عميدًا لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، حاولت أن آتي بالدكتور الطنطاوي إلى قطر ليكون أحد أساتذتها، ولكني وجدته قد ارتبط ببعض البلاد العربية، وهي ليبيا.

استقدامه أستاذًا زائرًا في كلية الشريعة بقطر

ومع هذا حرصت على أن أطلبه أستاذًا زائرًا للكلية، وتمَّ ذلك في سنة ١٩٨٩م،

حيث جاءنا زائرًا لمدة شهرين، أستاذًا للتفسير الذي تخصّص فيه، واشتهر به، وألّف فيه، وكان حريصًا على ألا يقحم نفسه في مجال الفتاوى الفقهية التي لم يشغل نفسه بها كثيرًا في حياته العلمية، وكلٌّ ميسَّر لما خلق له. وكان إذا سئل في هذا المجال، يقول: اسألوا فلانًا. يعنيني.

ترشيحي لصديقي طنطاوي في برنامج تفسير القرآن

وأذكر أني رشّحت الشيخ طنطاوي، ليحلَّ محلّي في تفسير القرآن الكريم الذي أعده المخرج المعروف محمد الطوخي رحمه الله، وقد شاركني فيه ستة من العلماء: الشيخ الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، ود. حسن عيسى عبد الظاهر، ود. الأحمدي أبو النور، ود. عبد الله شحاته، ود. محمد المهدي البدري، والفقير إليه تعالى. وكان يِسجل في إستوديوهات «عجمان» في دولة الإمارات العربية المتحدة.

وقد شاركت في ربع القرآن الأول، ثم اعترتني ظروف اعتذرت بسببها عن عدم تكميل النصف الأوسط من القرآن، وطلب مني أن أرشح بديلًا يخلفني، فرشحت لهم، صديقي الشيخ: الطنطاوي. إلى أن عدت في الربع الأخير من القرآن لأكمل شوْطي.

سرُّ الخلاف بيني وبين طنطاوي

فليس بيني وبين الشيخ طنطاوي من الناحية الشخصية إلا كل مودة وثقة، ولكن هذا شيء والخلاف العلمي شيء آخر، وليس في العلم ـ وخصوصًا العلم الديني الشرعي ـ مجاملة، فالحق أحق أن يتبع.. وليس في العلم كبير، وكل أحد يؤخذ منه ويرد عليه إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم.. فما سر الخلاف إذن بيني وبين الشيخ الطنطاوي؟

عدم اشتغاله بالفقه والقضاء

هنا أبدأ القصة من أولها: فقد عين صديقنا الشيخ: محمد سيد طنطاوي مفتيًا لمصر، وكان المفتون قبل ذلك من خريجي كلية الشريعة، ومن المشتغلين بالقضاء الشرعي، والشيخ خريج أصول الدين، ولم يشتغل بالقضاء، ولا بالفقه وأحكامه قبل ذلك، بل

كان انشغاله بالتدريس، وخصوصًا في علم التفسير، الذي صنّف فيه تفسيرًا كاملًا سماه: التفسير الوسيط للقرآن، وكان الشيخ في السنة الأولى من تعيينه مفتيًا، يعتمد في فتواه على العلماء الموجودين في الأمانة العامة لدار الإفتاء، ويكتفي بالتوقيع عليها.

ثم بدا له أن يكون له شخصيته المستقلة في الفتيا، وخصوصًا في بعض القضايا الشائكة، مثل: قضايا الفوائد وشهادات الاستثمار وما إليها..

نصيحة أستاذنا الغزالي للمفتي

وقبل أن أتحدث عن خلافي مع المفتي، أذكر أننا كنا مدعوين إلى ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر: الشيخ الغزالي وأنا والشيخ الطنطاوي مفتي مصر حينئذ.. وفي إحدى الجلسات الخاصة قال الشيخ طنطاوي: إنه كتب شيئًا يتعلق بالبنوك وشهادات الاستثمار يعده للنشر. قال الشيخ الغزالي: أرجو ألا تعجل بنشره قبل أن تعرضه على فلان، يعنيني، فقال له المفتي: أكيد هو يعرف منزلته عندي.

وعدت إلى القاهرة، ومنها إلى قطر ثم بعد مدة سافرت في إجازة الصيف إلى مصر، وكانت الأوساط المشغولة بأمر المال تقول: إنَّ الشيخ لديه شيء يهيئه للنشر في هذه القضية: قضية البنوك وما يتعلق بها.

وقد اتصل بي أخوان كريمان مهتمان بقضية البنوك والفوائد، أحدهما اقتصادي، وهو د. عبد الحميد الغزالي أستاذ الاقتصاد الإسلامي ومدير معهد البحوث في البنك الإسلامي للتنمية، والآخر شرعي، وهو الزميل الدكتور علي السالوس، وتحدّثنا في الأمر وما نشر عن الشيخ المفتي، وقلت لهم: أنا سأطلب مقابلة الشيخ المفتي لأتذاكر معه. فقالوا: نرجو أن نكون معك.

الاتصال بطنطاوي

وفعلًا اتصلت بفضيلة الشيخ طنطاوي، وقلت له: أتذكر ما قاله لك الشيخ الغزالي ونحن في الجزائر: ألا تنشر شيئًا إلا بعد أن تعرضه على فلان؟

قال: نعم أذكر، وأنا حريص على ذلك، ويسرُّني أن أسمع تعليقك.

قلت: بلغني أنك أعددت شيئًا لينشر.

قال: نعم.

قلت: إذن نلتقي قبل نشره ونتفاهم.

قال: لا مانع عندي.

قلت: إما أن تشرّفني في بيتي وإما أن نتشرّف في بيتك.

قال: بل يسعدني أن أزورك في بيتك، ولكن ليس اليوم، لأني مرتبط بموعد. ليكن في الغد بعد المغرب.

قلت: على الرحب والسعة، وسيكون معي أخوان تعرفهما، إن لم يكن عندك مانع، وهما الدكتور الغزالي، والدكتور السالوس.

قال: مرحبًا بهما.

حضور طنطاوي إلى منزلي

وفي الموعد المحدَّد جاء الشيخ إلى منزلي في مدينة نصر، وكان الضيفان الغزالي والسالوس قد حضرا، وصلينا المغرب، وبدأت الجلسة، وطلب الشيخ أن يعرض ما لديه.

وكان مع الشيخ المفتي جملة من الأوراق في ملف، منها: أسئلة يوجِّهها فضيلة المفتي إلى الأستاذ محمود عبد العزيز محافظ البنك الأهلي المصري، وكانت أسئلة غريبة علينا، فقد رأينا المفتي يسأل المحافظ عن أعمال البنك التي يجريها مع العملاء: هل تُعتبر من المضاربة الشرعية؟ فيردّ المحافظ: نعم هي من المضاربة الشرعية؛ لأن البنك يستثمرها لصاحبها مقابل ربح محدّد.

وقد قلت له: يا فضيلة الشيخ، لقد عكست الوضع، فمَن الذي يسأل الآخر؟ المفروض أن محافظ البنك هو الذي يسأل فضيلة المفتي عما يجريه البنك من المعاملات: هل يدخل في إطار المضاربة الشرعية التي ذكرها الفقهاء في كتبهم أوْ لا؟ والمطلوب من

المفتي أن يجيبه عن هذا السؤال بما يعرفه من أحكام المضاربة المقرّرة في الفقه الإسلامي، ويبيّن له أحكام الشريعة في هذا المجال. فكيف ينقلب الحال ويسأل المفتي من يجب أن يسأله هو؟

نقاش طويل مع الشيخ طنطاوي

وقد بقينا في نقاش طويل مع الشيخ، وظللنا ثلاثتنا نحاول أن نزحزحه عن مكانه، أو عن رأيه الذي التزمه، فلم نفلح، برغم ما قدمنا له من أدلة واعتبارات فقهية واقتصادية، وما نقلناه له عن الفقهاء، كأنما هو «مبرمج» بلغة الكمبيوتر.

وبعد ثلاث ساعات من الجدال والأخذ والرد، افترقنا دون أن نحصل على نتيجة، إذ كان الشيخ مُصمِّمًا على موقفه .

الرد على الشيخ طنطاوي

وبعد مدة لم تطل، أصدر الشيخ فتواه عن شهادات الاستثمار، وأنها كلها حلال، وعن فوائد البنوك، وأنها أيضًا حلال، وهو ما اضطرني إلى أن أرد عليه، برغم ما بيننا من مودة وصلة، وأن أكتب كتابي الموجز «فوائد البنوك هي الربا الحرام».

ومما قلته في بداية هذا الكتاب هذه الفقرة التي أسجلها هنا ليعرف قرائي: **لماذا غضبت على هذه الحملة الجديدة لتحليل الربا**. قلت:

شعرتُ بكثير من الأسى والأسف، للجدل الدائر في الصحف في هذه الفترة حول «فوائد البنوك»: أهي من الحلال الطيب أم من الحرام الخبيث؟

وسرُّ أسفي وأساي: أننا كنا فرغنا من هذا الأمر وتجاوزناه بمراحل، وبدأنا أولى الخطوات العملية في إقامة اقتصاد إسلامي، يحلُّ ما أحلَّ الله، ويحرِّم ما حرَّم الله، ويؤدِّي ما فرض الله. فإذا بنا نرتد القهقرى، ونعود ربع قرن إلى الوراء مرة واحدة، لنناقش ما حسمته المجامع والندوات والمؤتمرات العلمية الإسلامية المتخصِّصة، منذ ربع قرن وإلى اليوم، ولنعيد القضية جذعة، وقد انتهينا منها!!

فهل كُتب علينا أن نظل ندور حول أنفسنا، كالثور في الساقية! فلا نحسم معركة يومًا، ولا نغلق قضية بحال من الأحوال، لنفرغ لقضايا كبرى تنتظرنا، في طليعتها: أن نزرع ما يكفينا ونصنع ما يحمينا؟!

هل هناك مؤامرة علينا، تدبرها القوى الكائدة لنا، المتربّصة بنا، الخائفة منا، الطامعة فينا، الحاقدة علينا، والتي تملك من أدوات المكر، ووسائل الدفع والتأثير، ما تستطيع به أن تحرك نفرًا منا ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ فيرجعوا عقارب الساعة إلى الخلف، ويحيوا ما مات من أفكار، ويجدّدوا ما اندرس من قضايا عفَّى عليها الزمن، وجعلتها الصحوة الإسلامية في خبر كان؟ أو هي «الخيبة» التي لا نريد أن تفارقنا، كأنّ بيننا وبينها حلفًا مقدسًا، أو رحمًا موصولة، ولو أنها فارقتنا لأرسلنا إليها برقيات نستدعيها للحضور على عجل؟! وهذه «الخيبة بالويبة» ـ كما يقول المثل المصري ـ تجعلنا لا نبرم أمرا، ولا ننهي عملا، حتى ما نبرمه وننهيه نكر عليه لننقضه ونهدمه، مثل المرأة الحمقاء التي حدثنا عنها القرآن، والتي لا تغزل غزلا إلا عادت فتنقضه كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا ﴾ (النحل: ٩٢).

إنني في حيرة ـ أو قل إن شئت: في قلق وغم ـ من هذا الذي يحدث على الساحة الفكرية الإسلامية: لماذا يحدث؟ ولحساب من؟ ومن المستفيد من وراء إهدار الطاقات من غير طائل، وليّ زمام القافلة السائرة حتى لا تمضي قدمًا، ولا تصل إلى الغاية المنشودة؟

فلسفة الهزيمة الفكرية

إنني أعذر الذين حاولوا تسويغ الفوائد الربوية في أوائل القرن الماضي (العشرين الميلادي) وإلى النصف الأول منه، فقد كانت الحضارة الغربية في أَوْج مجدها وبريقها الذي يخطف الأبصار، وكان تراثنا مغمورا، وشعبنا مقهورا، وعقلنا بالجديد مبهورًا.. وكان النظام الرأسمالي ـ الذي يقوم على الربا ـ يسود العالم، ويحرك عجلاته كما يشاء. فلا غرو أن وُجد من أبناء المسلمين من حاول أن «يفلسف» هزيمتنا أمام الفكر الوافد بتخريجات يعزوها إلى الشرع، وتأويلات يثني بها عنان النصوص «المحكمات» ليجعلها

«متشابهات» توظف في «تبرير الواقع» الذي لم يصنعه المسلمون بإرادتهم، ولا بعقولهم ولا بأيديهم. إنما صنع لهم وفرض عليهم.

أصحاب المدرسة التبريرية

كان عمل هؤلاء المتأوِّلين من أصحاب «المدرسة التبريرية» أن يلبسوا بفتاويهم «الخواجة الأوربي» عمامة «شيخ مسلم»، حتى يقبله الناس، الذين يغرهم الظاهر ولا ينفذون إلى الباطن. وقد تعلق هؤلاء بخيوط واهنة من الشبهات تهاوت كلها واحدة تلو أخرى أمام حجج الراسخين في العلم.

من مرحلة التبرير إلى رحلة الدفاع

وانتقل الفكر الإسلامي من مرحلة «التبرير» إلى مرحلة «الدفاع» وكتبت بحوث ومقالات، وألفت كتب ورسائل للدفاع عن موقف الإسلام في تحريم الربا، وبيان ما وراء إباحته من أضرار ومفاسد اجتماعية واقتصادية وسياسية وأخلاقية، وبيان فضل الاقتصاد الإسلامي وما يتميز به من وسطية وواقعية مثالية، تجمع بين رعاية الواقع، وعدم إغفال العنصر الأخلاقي.

البدائل الشرعية للمعاملات المحرّمة

ثم قفز الفكر الإسلامي قفزة رائعة، حين طفق يفكر في «البدائل الشرعية» للمعاملات المحرمة. ويضع المواصفات اللازمة لها، والوسائل الاستثمارية التي يمكن أن تقوم عليها، ويستغني بها عن الوسائل المحظورة.

ثم وفق الله المخلصين من رجال العمل والتنفيذ بالتعاون مع رجال العلم والفكر، فقامت البنوك الإسلامية بديلا عن البنوك الربوية، وتزايد عددها، واتسع نطاقها يومًا بعد يوم.

لقد قيل لنا مدة من الزمن: لا تحلموا بقيام بنك إسلامي. بنك يقوم على غير الفائدة.

وبالتالي لا تحلموا باقتصاد إسلامي يوما. إن الاقتصاد عصب الحياة، والبنوك عصب الاقتصاد والفوائد عصب البنوك. فإذا نشدتم بنوكا بلا فائدة فقد نشدتم المستحيل!

وعشنا، والحمد لله، حتى رأينا البنوك الإسلامية حقيقة واقعة ورأينا المسلمين يقبلون عليها إقبالا منقطع النظير.

ونحن اليوم في مرحلة تحسين البدائل وتطويرها، أعني تطوير البنوك الإسلامية، وتحسين أدائها، وتخليصها من بعض الشوائب التي علقت بها، وتهيئة المناخ الصحي لنشاطها، وتهيئة الأطر البشرية التي تحتاج إليها ممن يجمع بين الالتزام الإسلامي فهما وسلوكًا والخبرة الفنية في مجال الاقتصاد والإدارة.

أفبعد أن اجتزنا هذه المراحل كلها، نعود من جديد إلى «مراحل التبرير»؟!

كتابي «فوائد البنوك هي الربا الحرام»

ومن هنا ألفت كتابي «فوائد البنوك هي الربا الحرام» لأضع النقاط على الحروف، كما يقولون، ولأبين أن الأمر قد حسم من قديم. وأن هذا الحسم، قد وثق بما قررته المجامع الفقهيه العلمية الإسلامية، ابتداء من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الذي أعلن في مؤتمره سنة ١٩٦٥م، بالإجماع ـ وقد حضره مندوبون من ٣٥ دولة: أن فوائد البنوك ربا محرم لا شك فيه.

وأكد ذلك مجلس المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وكذلك المجمع الفقهي الدولي المنبثق من منظمة المؤتمر الإسلامي. كما أكدته كل المؤتمرات الاقتصادية الإسلامية، ومؤتمرات المصارف الإسلامية في العالم الإسلامي.

كتابي «كيف نتعامل مع السنة النبوية؟»

نشاطات المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن

كان المعهد العالمي للفكر الإسلامي قد أسس في واشنطن، وطفق يمارس أنشطته المختلفة، وكلها تدور حول محور كبير، وهو «أسلمة» المعرفة، بمعنى جعل المعرفة إسلامية. ففعل «أسلم» هنا متعد لا لازم، كما هو الأصل فيه.

يقال: أسلم فلان، أي دخل في الإسلام. أما هنا، فحين يقال: أسلمه: أي جعله مسلما. ولم ترد في المعاجم بهذا المعنى. ولهذا استغنى إخواننا عن لفظ «الأسلمة» بلفظ «الإسلامية» فتحدثوا عن «إسلامية المعرفة».

ومن المعروف: أن معرفتنا في الجملة ـ للأسف الشديد ـ غربية الفلسفة والجذور، وكل علومنا الإنسانية والاجتماعية مترجمة أو مقتبسة من الغرب على اختلاف مدارسه.

حتى العلوم الطبيعية في فلسفتها وفي أسلوب عرضها، عليها طابع الغرب، فالطبيعة هي التي تخلق الأشياء، وتمد كل كائن حي بما يدافع به عن نفسه، وليس «الله». ولا تدخل قضية وجود الله تعالى في تفسير الوجود الكوني أو الظواهر الكونية.

لذا كانت العناية بأن تكون لنا معرفة إسلامية عميقة الجذور، بينة الفلسفة، واضحة الرؤية، مترابطة الحلقات، معروفة الغايات، هو: ما ركّز عليه المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الذي كان د. عبد الحميد أبو سليمان هو أول مدير له، ثم تسلمه منه د. طه جابر العلواني، وعمل معهم عدد من الإخوة الباحثين والمشغولين بقضية المعرفة، مثل د. هشام الطالب، وزوجته د. إلهام، ود. جمال برزنجي، ود. محيي الدين عطية، وأنشئوا

لهم فرعًا نشيطا في القاهرة، كان مسؤولا عنه أخونا العالم الباحث النشيط المنظم الدكتور جمال الدين عطية، ثم الدكتور علي جمعة بعد.

تأصيل مصادر المعرفة الإسلامية

وكان المعهد يعمل أيضًا على تأصيل مصادر المعرفة الإسلامية من القرآن الكريم المصدر الأول للإسلام، وهو مصدر المصادر وأصل الأصول، ومن السنة النبوية المصدر الثاني للإسلام: مصدر التشريع والتقنين، ومصدر الدعوة والتوجيه والتربية، ومصدر المعرفة والحضارة.

ونظرًا لأن القرآن لا ريب فيه ولا مراء، ولكن شبهات المشتبهين، وتخرصات المتخرصين، كلها تحوم حول السنة، حول ثبوتها، وحول حجيتها، وحول فهمها. فقد اتجهت نيات إخواننا للبدء بهذا الجانب، وإعطائه حقه، فنشروا كتاب الشيخ عبد الغني عبد الخالق رحمه الله عن «حجية السنة».

وطلبوا من شيخنا الشيخ محمد الغزالي، ومني الكتابة في كيفية التعامل مع السنة المشرفة.

كتاب «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» للغزالي

فكتب الشيخ الغزالي رحمه الله كتابه الشهير: «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» جمع فيه ما كتبه من قبل حول السنة النبوية. وما له في بعض الأحاديث من فهم خاص يخالف أفهام كثيرين من علمائنا القدامى، وتوقفه في بعض الأحاديث، ورده لبعض الأحاديث الثابتة في الصحيحين أو أحدهما.. وعلى الرغم من أن هذه الأفكار والآراء مبثوثة في كتب الشيخ من قبل، فإن تجميعها في كتاب واحد: أبرزها ولفت الأنظار إليها بقوة، ولا سيما بعد مقال الكاتب الكبير الأستاذ فهمي هويدي في الأهرام عن الكتاب، الذي سماه «بيروسترويكا[1] إسلامية».

وزاد من شهرة الكتاب وأهميته: ردود الإخوة السلفيين عليه، ومهاجمته بعنف، منها:

(١) لفظ أطلقه الرئيس الروسي جورباتشوف على منهج الإصلاح الجذري الذي اتبعه في تغيير سياسة روسيا والاتحاد السوفييتي، والذي يقوم على المصارحة والمكاشفة، وهو الذي هز العالم يومئذ.

رد أخينا الشيخ سلمان فهد العودة، وأخينا جمال سلطان، وآخرين حوالي عشرة ردود.

وقد كتب الشيخ هذا الكتاب ـ كما قال لي ـ في نحو ثلاثة أشهر، أو حوالي ذلك، ولم يستغرق معه كثيرًا من الوقت أو الجهد. وكان الشيخ يستغرب الاهتمام بهذا الكتاب الذي لم يتعب فيه كثيرا.. وكان قد أصدر في تلك الأيام كتابه «المحاور الخمسة في القرآن» فيقول: هذا الكتاب أهم عندي من كتاب «السنة».

وقد طبع الكتاب في «دار الشروق» بالقاهرة، وطُبِع منه في سنة واحدة تسع طبعات.

نشر كتابي «كيف نتعامل مع السنة النبوية»

وكنت في ذلك الوقت (أكتوبر ١٩٨٩م) قد أعددت كتابي «كيف نتعامل مع السنة النبوية» وسلّمته إلى إدارة معهد الفكر، الذي نشره بمعرفته، ولكنه لم يحدث ضجّة، مثل كتاب الشيخ الغزالي، وإن كان بعض السلفيين الواعين، قال: إن كتاب القرضاوي قد وصل إلى ما وصل إليه كتاب الغزالي، ولكن من دون ضجيج أو صراخ، وبطريقة أقرب إلى المنهجية العلمية والموضوعية، وأنا أراه أشد خطرا من كتاب الغزالي، وأنبه إخواننا إلى ذلك.

وقد كتب عنه الأستاذ فهمي هويدي أيضًا مقالة نشرت في «الأهرام» وفي غيرها من الصحف العربية، التي تنشر مقاله الأسبوعي، في الأردن، وفي الكويت، والبحرين وقطر والإمارات وغيرها.

عرض كتابي في دورة المجمع الملكي

وقد عرضت الكتاب في دورة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ أو مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي في عمان ـ حيث كانوا شاركوا المعهد في الطلب إلي أن أكتب في هذا الموضوع.

ونوقش الكتاب من الحضور، وهم نخبة من العلماء والمفكرين من أنحاء العالم العربي والإسلامي، وكثيرًا ما أستفيد من هذه النقاشات والمداخلات في التعديل والتحسين، فليس في العلم كبير، وفوق كل ذي علم عليم.

كتابي «فتاوى معاصرة»

مزايا فتاواي في نظر الأستاذ أبو شقة

في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، اتَّجه التفكير إلى تجميع ما تيسَّر من «فتاويَّ» المتناثرة، وقد طلب ذلك مني عدد من الأصدقاء والمحيطين بي. أهمهم الأخ الكريم الحبيب الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله، الذي ألحّ عليَّ بجمع مادة الكتاب، وخصوصًا ما أذاعه تلفزيون قطر في برنامجه الأسبوعي المسمّى «هَدْي االإسلام».

وقال: إنَّ فتاواك تتميز بعدة أمور:

منها: أنها مدلّلة، فكل حكم معه دليله.

ومنها:أنها لا تتعصّب لمذهب معين، ولا لمدرسة خاصة.

ومنها: أنها تعيش في واقع الناس وتتعامل مع مشكلاتهم وهمومهم، ولا تحلّق في الخيال.

ومنها: أنها تذكر الحكم مقرونًا بحكمته، ومقصده الشرعي.

ومنها: أنها تخاطب العقل المعاصر، وتتحدث بأسلوب العصر، فهي مفهومة للكل.

ومنها: أنها تتبنى التيسير لا التعسير، اتباعا للمنهج النبوي.

وقال الأستاذ عبد الحليم: لقد رحّب الناس بمنهجك الفقهي، وأسلوبك في كتابة الفقه، حين كتبت «الحلال والحرام في الإسلام». وهذه الفتاوَى تتمة لهذا الكتاب.

اختيار الأستاذ أبو شقة عنوان: فتاوى معاصرة

وكنت قد اخترت لها عنوان «من هدي الإسلام» مقتبسًا من اسم البرنامج الذي أقدمه في تلفزيون قطر منذ نشأته وإلى اليوم، ولكن الأخ عبد الحليم رأى أن يضيف إلى هذا العنوان عنوانًا آخر أدل على المضمون والمقصود، وهو: «فتاوى معاصرة». فقد كان حريصًا على إبراز هذه الصفة: أنها إجابات عن أسئلة الناس، وأن هذه الإجابات بنت عصرها وواقعها.

وهكذا ظهر الكتاب، وكان ناشره الأخ عبد الحليم نفسه، الذي طبع لي قبل ذلك كتاب: «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» مع نظرات في الاجتهاد المعاصر.

اشتغالي بالفتوى منذ زمن مبكر

وأودّ أن أذكر هنا أو أذكّر أني شُغلت بالفتوى منذ زمن مبكر في حياتي. فقد بدأت في ممارسة الدروس الرمضانية في مسجد المتولّي بالقرية، وأنا ابن السادسة عشرة. ومن جلس مجلس الدرس لا بدّ أن يسأله الناس، ولا بدّ له من أن يجيب عن أسئلتهم.

كما قمتُ بتدريس «الفقه» لأهل القرية، وأنا ابن الثامنة عشرة، حيث كنت في السنة الأولى الثانوية بالمعهد الديني في طنطا.

وكنت أستعين في إجاباتي بعد توفيق الله تعالى، بما درسته في الأزهر، وبقراءاتي الخاصّة، وبمخزوني مما سمعته من مشايخ القرية طوال فترة صباي. ولكني كثيرًا ما كنت أخرج عن المألوف من إجابات المشايخ المعتادة إلى إجابات كثيرًا ما كانت تحدث ضجة في المجتمع القروي.

وحينما أصبحت في كلية أصول الدين، وبات عمري أربعًا وعشرين أو خمسًا وعشرين سنة، وكنت أخطب في مسجد آل طه بالمحلة الكبرى، كثيرًا ما كنت أعقد جلسة للإجابة عن أسئلة الجمهور فيما يهمهم في أمور دينهم وإسلامهم.

وهذا ما سلكته حين عُيِّنت خطيبًا بمسجد الزمالك بالقاهرة، فكثيرًا ما كنت أعقد جلسة بعد الجمعة للرد على استفتاءات الناس.

برنامج «نور وهداية» و«هدي الإسلام»

واستمر هذا الاتجاه في قطر.. وعندما أنشئت إذاعة قطر، ابتدأت معها برنامج «نور وهداية» للإجابة عن أسئلة الناس ورسائلهم، وكان يقرؤها عليّ الإذاعي الشهير الأستاذ محمود الشاهد مراقب البرامج في إذاعة قطر.

وقد ظل هذا البرنامج في الإذاعة حوالي سبعة عشر عاما، ثم طلبت الإعفاء منه، إذ كنت مشغولا ببرنامج آخر مثله، ولكنه في التلفزيون، وهو برنامج «هَدْي الإسلام» الذي ما زال تلفزيون قطر يقدمه إلى اليوم، فاكتفيت بالبرنامج المرئي عن البرنامج المسموع، ولاسيما أن موضوعهما واحد.

برنامج «الشريعة والحياة»

ولما ظهرت قناة «الجزيرة» عرض علي الإخوة المسؤولون في الجزيرة: الشيخ حمد بن ثامر، والأستاذ محمود السهلاوي: أن أقدّم برنامجا دينيا يقوم على الحوار، ويتلقّى أسئلة الناس على الهواء، مرة كل أسبوع، فرحَّبت بذلك كل الترحيب، وقام برنامج «الشريعة والحياة»، الذي كان له صداه في أنحاء العالم، وخصوصًا لدى من يعرفون العربية، والذي استمر منذ بدء قناة الجزيرة إلى اليوم. وسنتحدث عن ذلك في الجزء القادم ولله الحمد والمنة.

ظهور الجزء الأول من «فتاوى معاصرة»

المهم أني استجبت لطلب الأستاذ «أبو شقة»، وجمعت مادة الجزء الأول من إجابات تلفزيون قطر، فُرّغت من الأشرطة على الورق، ولم أكد أعمل فيها قلمي إلا قليلًا.

وظهر الجزء الأول بهذه الصورة، تلمح فيها صورة الارتجال، وبعد ذلك أمسى جلّ اعتمادي على الكتابة: أن أعيد تحرير الإجابة وأسطرها بقلمي. فهذا أدق وأضبط وأقدر على الاستيفاء والاستيعاب.

ولقد صدر من فتاوى معاصرة: ثلاثة أجزاء، والجزء الرابع يوشك أن يتم ليذهب إلى المطبعة بتيسير الله[1].

استفتاءات تشمل كل جوانب الحياة

ومن الناس من يضيقون ذرعًا بالفتاوى إذا خرجت عن الإطار الديني المحض من الصلاة والصوم والزكاة والحج والرضاع والزواج والطلاق، لتسأل في أمور اقتصادية، أو أمور سياسية أو أمور طبية أو فلكية، مما للدين صلة به. ويقول هؤلاء، وهم عادة من أعداء الدين: ما لعلماء الدين يدسُّون أنوفهم في كل شيء، ويريدون أن يفتوا في كل أمر من أمور الحياة؟

ولا ذنب في الحقيقة لعلماء الدين، إنما الذنب للدين نفسه، الذي ألزم الفرد، وألزم الجماعة أن ينقادوا لحكم الدين، وأن يسألوا أهل الذكر فيما يجهلونه أو يشتبه عليهم من الأحكام.

وهؤلاء يريدون أن يسلخوا الإسلام من شموله وتكامله، فهو يوجه الحياة كلها فردية واجتماعية، وفق أمر الله ونهيه.. وهذه فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، وفتاوى العلامة رشيد رضا، وفتاوى الشيخ محمود شلتوت وغيرهم، وفتاوى المفتين الكبار، مثل الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ حسنين مخلوف، والشيخ حسن مأمون، والشيخ جاد الحق، وغيرهم، وهو ما نشرته وزارة الأوقاف فيما يقرب من عشرين مجلدا. نجدها قد شملت كل جوانب الحياة.

بل إنَّ كثيرًا من المصلحين يأخذون على علماء الدين استغراقهم في أحكام الحيض والنفاس والطهارة والنجاسة والرضاع وغيرها، مهملين الأحكام الخاصة بالمجتمع والأمة.

إنَّ الإسلام ينكر على المسلم ـ محكومًا كان أم حاكمًا ـ أن يقتحم الأشياء، ويخوض في الأمور، من دون أن يسأل نفسه: أهذا مشروع أم غير مشروع؟ وإذا كان هو لا يعرف الحكم فلم لا يسأل العالم الثقة: أهذا جائز أم غير جائز؟

---

(١) وقد صدر بفضل الله وعونه.

كما ينكر الإسلام عليه: أن يسأل غير الثقات من أهل الجهل أو أهل الهوى، فيضلّه على علم، كما جاء في الحديث المتفق عليه: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رءوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّو»[1].

السؤال عما يهم أمر الأمة

وفي مقابل هؤلاء العلمانيين والليبراليين، نجد من الإسلاميين: من يضيق ذرعًا بالفتاوى التي تقتصر على الفرعيات الجزئية أوالجزئيات الفرعية، ولا نسأل فيما يهم أمر الأمة.

لا نسأل عن تزوير الانتخابات: أهو حلال أم حرام؟

لا نسأل عن كبت الحريات: أهو معروف أم منكر؟

لا نسأل عن إهدار حقوق الإنسان: في أي خانة من الذنوب يوضع؟

لا نسأل عن تجار المخدرات: أيجوز انتخابهم للمجالس النيابية أم لا؟

لا نسأل عن مشروعية محاكمة المدنيين في محاكم عسكرية لا تتوافر فيها مقومات العدالة المحكمة التي تتوافر في المحكمة المدنية.

لا نسأل عن حكم تعذيب المتهمين ـ وخصوصا السياسين ـ لإكراههم على الاعتراف بما تريدة السلطة.

وغير ذلك من الأسئلة التي تحرج أصحاب السلطة التنفيذية.

إن الدين ينبغي تحكيمه في حياة الناس حتى تستقيم على الحق، وتمضي على الطهر، وتتحرى العدل والبر، وتبتعد عن الإثم والعدوان. وما حكم به الدين يجب أن يتبع وينفذ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٥١).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، كلاهما في العلم عن عبد الله ابن عمرو.

وفاة الشيخ صلاح أبو إسماعيل في مطار أبو ظبي

في شهر مايو سنة ١٩٩٠م فجعنا بنبأ وفاة أخينا وصديقنا الكريم، الداعية الكبير، والبرلماني المصري الشهير، الشيخ صلاح أبو إسماعيل، الذي سعدنا به منذ زمن قريب في قطر، وودَّعناه ذاهبًا إلى «أبو ظبي» لتسجيل حلقات مطلوبة منه في تفسير القرآن الكريم على ما أذكر.

وقد أطال الشيخ المقام في أبو ظبي.. كلما عزم على الرحيل، ألَحُّوا عليه ليتأخَّر لمزيد من التسجيل، والشيخ يُراعي خاطرهم، ويستجيب لهم، مع أنه كان مرهقًا، وفي حاجة إلى الاستجمام والراحة، ولاسيما في مثل سنه وحالته الصحية. وقديمًا قالوا: من الحب ما قتل! ومن الحب ما يمرض ويؤذي! أو كما قال أبو الطيب:

ومن الصداقة ما يضر ويؤلم!

وأخيرًا سُمح للشيخ أن يسافر ويعود إلى وطنه، وكان عادة يسافر وحده بلا رفيق، وفعلًا حزم أمتعته، وذهب إلى مطار أبو ظبي مرهقًا شديد الإرهاق. وفي مطار أبو ظبي، وهو ينتظر إقلاع الطائرة، مسترخيًا في صورة نائم، وافاه الأجل، ونفدت آخر قطرة في سراج العمر، وفوجئ الناس بالشيخ، وقد فاضت روحه إلى بارئها، راضية مرضية إن شاء الله ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون:١١).

كان الشيخ صلاح داعية مرموقًا، له شخصيته المتميِّزَة، وله أسلوبه الخاص، وله جمهوره المحبّ له، وكانت له عقلية علمية منفتحة على التراث وعلى العصر، ولسان فصيح، وحديث عَذْب، ونفسية مشغولة بهموم الناس، شغلها بنصرة الدين، وقلب

شجاع لا يخاف في الله لومة لائم، ووجه هادئ باسم، تحس أن وراءه نفسًا زكية، وسريرة طاهرة، إلى روح فكهة، تتذوق النكتة المصرية، وتساهم فيها.

قارئ مفسّر داعية

كان حافظًا متقنًا للقرآن الكريم، يُحسن تلاوته وترتيله بصوت جميل، كثيرًا ما كان يدعى في مآتم منطقته ليقرأ القرآن، ولكنه لم يكن يتقاضى عليه أجرًا، ثم تميَّز عن القراء الآخرين بأنه يقرأ الربع ثم يفسِّره للناس، وكان له فيه تذوُّق، وحُسْن فهم. فهو قارئ وداعية.

نجاحه الباهر في الانتخابات

وهذا هو الذي عرّف الناس به، وعرَّفه بهم، فلما رشّح نفسه لمجلس الشعب كان أهل منطقته جنودًا له، يفدونه بأنفسهم وما ملكت أيديهم، حتى إنهم كانوا يستميتون في حراسة صناديق الانتخاب، ويستقتلون في الدفاع عنها، حتى لا تُسرق وتبدَّل بصناديق أخرى. وهذا هو ما جعل الشيخ ينجح في مرات كثيرة رغم أنف الحكومة، ورغم التزوير المكشوف في أكثر الدوائر.

حيلة لطيفة لحفظ الصناديق من التبديل

وقد هداه ذكاؤه إلى حيلة لطيفة لحفظ الصناديق من التبديل، وهو أن يعطي كل مسؤول عن صندوق «قرش صاغ» يضعه في الصندوق، ويقول: هو مندوب عني، ثم بعد ذلك لا يقبل صندوقًا إلا إذا وجد فيه القرش! وإلا كان معناه أنه غيّر.

شعاره في الانتخابات

كان شعاره في الانتخابات: أعطني صوتك لنصلح الدنيا بالدين. وكان هتاف الناس له: «يحيا العلم، ويحيا الدين. وعاش الشيخ أبو إسماعين»، والعامة في مصر ينطقون لام إسماعيل نونا.

معرفتي بالشيخ صلاح أبو إسماعيل

عرفت الشيخ صلاح أبو إسماعيل أول ما عرفته، عند ما كنا طلابًا في الكليات، كنت في كلية أصول الدين، وكان هو في كلية اللغة العربية، وكان كلانا من طلاب الإخوان المسلمين. كنت مسؤولًا عن طلاب الإخوان في كليات الأزهر، ومعهد القاهرة، وكان هو مسؤولًا عن طلاب كلية اللغة العربية، وكنا نلتقي في اجتماعاتنا الدورية، وفي المركز العام، وفي رحلات إلى جبل المقطم، وفي مخيمات تربوية يقيمها الإخوان بين حين وآخر.

ثم تخرجنا، جاءت محن الإخوان، وفرّقت بيننا الأيام، وأعرت إلى قطر، وبقيت فيها، واستقر هو في مصر. ثم جمعنا العمل الدعوي العام في أقطار شتى، ومناسبات عدة، في ندوات ومؤتمرات ولقاءات: في مصر، وفي قطر، وفي الجزائر، وفي السودان، وفي المملكة العربية وفي الإمارات والكويت وغيرها من بلاد الإسلام، وخارج بلاد الإسلام.

وكان الشيخ صلاح رجلًا محبّبًا إلى كل من يعرفه، لذكاء عقله، وسعة علمه، ودماثة خلقه، ولطف معاشرته، وسماحة نفسه، وإشراقة وجهه، وابتسامة ثغره، وتوقُّد حماسه، وتواصل نشاطه، وصبره على العمل والتنقل والحركة، رغم ضخامة جسمه، وثقل وزنه، لكنه كان قوي العزيمة، عالي الهمة، عميق الإيمان، عظيم الأمل في انتصار الإسلام، شديد اليقين بنجاح دعوته، إذا وجدت الداعية المؤهَّل باليقين والأخلاق والعلم والحضور وحسن الطريقة.

الصوت الجهير في مجلس الشعب

كان صوته جهيرًا في مجلس الشعب المصري، الذي مثَّل دائرته فيه لعدة دورات. وكان مطالبًا بتحكيم الشريعة، داعيًا إلى الحريات، ولاسيما الحرية السياسية، منتقدًا للأوضاع العوج بصراحة وقوة، مستفيدا من حصانته البرلمانية. وقد ظل يسعى ويجتهد في المجلس حتى أصدر جملة من القوانين الموافقة للشريعة الإسلامية، ولكنها ظلت

حبيسة الأدراج، لم تخرج إلى النور، لأنه لم توجد «الإرادة السياسية» التي تتبناها وتحولها إلى واقع مشهود.

شهادته الصريحة في محكمة أمن الدولة

ولقد دعته محكمة أمن الدولة، التي كانت تحاكم «تنظيم الجهاد» ليدلي بشهادته باعتباره شاهد نفي، وبوصفه أحد علماء الأزهر، الذين اشتهروا بالدعوة إلى الإسلام في مصر وغيرها، وقد أدلى الشيخ في المحكمة بشهادته الخطيرة الصريحة التي هزت الدنيا، وزلزلت أركان الحكم في مصر! وقد نشرها في كتاب بعنوان (الشهادة).

دعوة جمع غفير من الدعاة إلى قريته

في إجازة من إجازات الصيف، دعا عددًا من شيوخ العلم والدعوة (أذكر منهم شيوخنا: الشيخ محمد الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، والفقير إليه تعالى، وجمًّا غفيرًا من الدعاة لم أعد أذكرهم) إلى قريته بهرمس، مركز إمبابة، في محافظة الجيزة، لنطلع على المؤسَّسات التي أنشأها من تعليمية وصحية واجتماعية، وأقام لنا وليمة كبرى في بيته، جمع فيها ما لذَّ وطاب، إكرامًا لإخوانه. وقد مازحته يومها فقلت له: يا شيخ صلاح، الصوفية يقولون: العادة تثبت بمرة واحدة! فقال: وأنا موافق، وليتكم في كل صيفية تكرمونني بهذه الزيارة، فأنا والله الفائز. وأحسب أننا زرناه مرة أخرى، ولكن كان العدد محدودًا، وليس كالمرة الأولى.

ندوة قضايا المستقبل الإسلامي بالجزائر

مركز دراسات المستقبل الإسلامي

في شهر مايو سنة ١٩٩٠م انعقدت بالجزائر ندوة حول «قضايا المستقبل الإسلامي» دعا إليها الكاتب الصحفي المعروف محمد الهاشمي الحامدي، الذي أسّس في لندن مع جماعة من المفكرين والمهتمين «مركز دراسات المستقبل الإسلامي» بالتعاون مع معهد الدراسات الإستراتيجية بالجزائر، الذي كان يديره الأستاذ محمد يزيد.

وكان الحامدي قد لقيني منذ أشهر في أمريكا في مدينة واشنطن، حيث نزلت ضيفًا على الإخوة في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بعد مشاركتي في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي السنوي. وقد أقمت أيامًا بينهم، اجتمعت فيها بقياداتهم وبأبرز العاملين في المعهد، على عادتي كلما مررت بواشنطن.

أخبرني الحامدي عن مركزه في لندن، وعن نيّته في عقْد الندوة، وقال: إني سأدعو إليها عددًا ممن تحبُّهم ويحبّونك من المفكرين الإسلاميين ـ وغير الإسلاميين أيضًا ـ من مصر والسودان وبلاد الشام والمغرب العربي. ولكي يغريني بالحضور، قال: إن الندوة ستقام بالبلد الذي تحبه ويحبك: الجزائر.

اهتمامي بترشيد الصحوة الإسلامية

وطلب الحامدي إلي أن يكون بحثي في هذه الندوة عن «أولويات الحركة الإسلامية في العقود الثلاثة القادمة» لما رآني شديد الاهتمام بما أسميته «فقه الأولويات» الذي ركّزت عليه، وكرّرت الحديث عنه في السنوات الأخيرة، ثم ألّفت فيه كتابا بعد ذلك.

وهو جزء من اهتمامي بترشيد الصحوة الإسلامية، وتسديد الحركة الإسلامية، فهذا همّي الأكبر، وما أعظمه وأثقله من همّ أدعو الله تعالى أن يوفقني ويعينني على القيام بحقه، فلا حول ولا قوة إلا به. وهو المستعان في كل عظيمة.

«أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة»

ولم يسعني إلا أن أستجيب لهذه الدعوة، وأعددت بحثي الذي جعلت عنوانه: «أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة». ولم أشأ أن أتقيد بـ«العقود الثلاثة» كما طلب مني: لأني لا أستريح لمثل هذا التحديد الصارم، في هذا الزمن السريع التغيّر، الحافل بالمفاجآت الكبيرة.

وما كتبته في هذا البحث ليس جديدًا كل الجدة، إنما هو امتداد وتكملة للاتجاه النقدي البنّاء، الذي بدأته من قبل، في «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟»، و«الحل الإسلامي فريضة وضرورة»، و«ظاهرة الغلو في التكفير»، و«أين الخلل؟»، و«الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف»، و«الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» وغيرها.

ولقد ألقيت خلاصة بحثي شفهيًّا على المشاركين، وقد وقع موقع القبول منهم. ولا سيما ما يتعلّق بنقد الحركة الإسلامية.. وكان ممن أثنى عليه شيخنا الغزالي الذي أمتعنا ببحثه قبل هذا، والدكتور توفيق الشاوي، وعدد من الأخوة المفكرين المشارقة. أما المفكر المغربي المعروف المهدي المنْجَرَة، فأطال الثناء على البحث؛ وقال: كنت أتعلم وأستمتع في الوقت نفسه كأني أستمع إلى سمفونية عالمية.

وكان مما أخذه الأستاذ المنجرة على هذه الندوة: أن المرأة غير ممثّلة فيها كما ينبغي، فلم يكن يمثل النساء غير الأخت أسماء بن قادة، ثم أضيفت إليها بعد ذلك الأخت هالة.

فكرة إنشاء اتحاد للكتّاب المسلمين

ومما أذكره في هذه الندوة: أني تقدّمت في خواتيم الندوة بمقترح مهم للمشاركين، وهو فكرة: إنشاء اتحاد للكتّاب أو المفكّرين المسلمين. فكما أن هناك اتحادات للكتاب

المحليين، واتحادًا للكتاب العرب، فينبغي أن يكون هناك اتحاد لأرباب القلم والفكر من المسلمين خارج المحيط العربي وداخله.

ولاقى هذا الاقتراح القَبول من الحضور بصفة عامة، وإن كان الأخ الدكتور محمد عمارة، أبدى ملاحظة قائلاً: إن بعضنا عضو في اتحاد الكتاب العرب، وإن مثل هذا الاتحاد قد يتعارض مع ذاك.

وقلت له: نحن نقول في تراثنا: لا تعارض بين الخاص والعام، فكما أن بعضنا عضو في اتحاد قُطْري في بلده، وهو كذلك عضو في اتّحاد عربي، ولم يجد غضاضة ولا تناقضًا في ذلك، كذلك لا تعارض بين اتحاد الكُتَّاب العرب، واتحاد على مستوى العالم الإسلامي، بل على مستوى المسلمين في العالم كله، والمعروف أن العرب يكوّنون حوَاليْ خمس المسلمين.

وقد تحدثت الصحف الجزائرية بصورة عامة عن الندوة، وعن محاضرتي، ثم عن هذا الاقتراح الأخير الذي أعطته اهتمامًا خاصًا. وقد أرسل إليّ الدكتور الهاشمي أخيرا ما نشرته مجلة «الوحدة الجزائرية» في عددها الصادر في ٢٤ مايو ١٩٩٠م تحت عنوان: اقتراح الدكتور القرضاوي إنشاء اتحاد المفكرين الإسلاميين.

وقد أوردت المجلة تعليق الدكتور «عزي عبد الرحمن» من معهد علوم الإعلام والاتصال على هذا الاقتراح، حيث قال: المبادرة التي قدمها الأستاذ يوسف القرضاوي مبادرة جيدة وإيجابية؛ لأننا حقيقة نلاحظ أن تطور الفكر الإسلامي قد ظهر بصفة متقطعة ومجزّأة، لم يحدث هناك تلاقح بين هذا الفكر، وأصبح كل فكر ينمو وفَقْ خصوصيات معينة، لم يحدث أن وقع انسجام خاص بتطور الفكر الإسلامي ونقل الخبرة الموجودة في كل المجتمعات الإسلامية.. يعني أنه لم تكن هناك بعض المحاولات مثل ما قام به مركز الدراسات الإسلامية بلندن، والمركز العالمي للكتاب الإسلامي، ومراكز أخرى في المشرق العربي.. وكلّما كانت هناك جهود نحو التوحيد (أي توحيد هذا التراكم) كلما استطعنا اكتساب الخبرة، وكلما كانت هذه الجهود مشتّتة ومبعثرة كلما أدّى ذلك إلى الإطالة أو إلى عدم توحيد هذه الجهود.

وقد أوردت المجلة أيضًاتعليق الدكتور «أبو عمران الشيخ»، حيث قال: أنا أرحّب بالفكرة حتى أميّز بين المسلم العالم والمسلم الأمي، والآن كل واحد يفتي ويقول ما يشاء. لماذا اتحاد للمفكرين أو العلماء الإسلاميين فقط؟ حتى نغربل المستويات العلمية ونميّز بين

العلوم .. ولا يدخل في الاتحاد إلا العلماء المسلمون، والمفكرون الذين اشتهروا بمؤلفاتهم وتدخلاتهم وآرائهم ومقالاتهم في الندوات العلمية وغيرها.

وأوردت المجلة أيضًا تعليقًا للأستاذ «عبد الرزاق قسّوم» من معهد الفلسفة، الذي دعا إلى التريث، حيث قال: ليس المشكل في إقامة أو عدم إقامة اتحاد أو تنظيم للمفكرين الإسلاميين. العالم الإسلامي يعج الآن، بل يبالغ في التنظيمات، وهي كلها قوالب جاهزة، لكن أفرغت من محتواها الحقيقي. أنا طبعًامع أي تنظيم كان للمثقفين، للكتاب، للمفكرين في الحقل الإسلامي، لكن شرط أن يصاحب هذا الجانب، الجانب التطبيقي، والوسائل التي تمكّن من العمل، والوعي بخطورة الواقع الذي نعيش فيه. أنا أخشى أن يكون ويبقى هذا على شكل محنّطات. ومع ذلك أدعو إليه مع التأمل والتريث في إعطاء المقومات الحقيقية للبقاء.

تحمُّس الشاوي والعوّا لفكرة الاتحاد

وكان من المتحمِّسين لفكرة هذا الاتحاد: شيخ القانونيين العرب والمسلمين أ.د. توفيق الشاوي، رحمه الله تعالى، ومعه أ.د. محمد سليم العوا، اللذان أخذا على عاتقهما، صياغة الفكرة صياغة قانونية. على أن يكون مقر هذا الاتحاد هو: الجزائر، التي رحّب المسئولون فيها بالفكرة، وباستضافة المؤسسة التي تنشأ لخدمتها.

وشاء الله تعالى أن تتغيّر الأمور في الجزائر بعد ذلك، وتدخل في دوامة من الصراع الدموي، الذي دميت له قلوبنا، قبل أن تدمع أعيننا. وظل ذلك إلى سنوات، لم نكن نملك أمامها إلا الحوقلة والاسترجاع.

واختفت فكرة الاتحاد، ولكنها لم تمت في نفسي، بل اختزنتها، حتى ظهرت فكرة أخرى، لتجميع العقول المسلمة في الأمة هي فكرة «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين» الذي ظللت عدّة سنوات، أدعو إليه من أعرف من علماء الأمة، حتى أمسى حقيقة واقعة، وهو ليس بديلًا عن فكرة اتّحاد كتّاب المسلمين، فلا يُغْني أحدهما عن الآخر، فليس كل كاتب عالمًا، ولا كل عالم كاتبًا، فبينهما ـ كما يقول علماء المنطق ـ عموم وخصوص من وجه.. حقَّق الله به ذلك الأمل المنشود، في شكل جديد، وتحت عنوان جديد.

أوجاع القدمين والسفر إلى بوسطن

المشاركة في الاجتماع السنوي لرابطة الشباب المسلم العربي

في شتاء ١٩٨٩م جاءتني دعوة للمشاركة في الاجتماع السنوي لرابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا، وعلى رغم ما أشكو من وجع الرجل، فإني عزمت على السفر لحضور هذا اللقاء، الذي يجمع في العادة صفوة من شباب المسلمين العرب الذين يدرسون في أمريكا، وأكثرهم يدرسون دراسات عليا، وبعضهم يدرس الدراسة الجامعية.

من أهداف زيارتي

وكان من أهداف زيارتي أيضًا: أن أعرض نفسي على أحد أطباء العظام المختصين في واشنطن. وقد اتفقت مع الإخوة في المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن ـ وقد اعتدت أن أمرّ عليهم في كل زيارة، وألتقي العاملين في المعهد، وألقي فيهم كلمة، وأتلقّى أسئلتهم ـ أن يحجزوا لي عند طبيب يعرفونه ويطمئنون إليه.

تعرفي على الأخ عبد الرحمن العمودي

وبعد الانتهاء من أعمال مؤتمر الرابطة، مررت بالإخوة في واشنطن، فرحّبوا بي، وأعدّوا العدة لما طلبته منهم. وقال الأخ الدكتور طه جابر العلواني مدير المعهد: إنه قد كلف أحد الإخوة بالمعهد ليصحبني، ويقوم بالترجمة بيني وبين الطبيب، وهو الأخ عبد الرحمن العمودي، الذي كان مسؤولًا عن العلاقات العامة بالمعهد يومئذ، وكان

نِعْم الرفيق، ونِعْم الترجمان، وهي أول مرة أتعرف عليه فيها، فك الله أسره.. وكان مما ذكره لي د. طه: أنه حجز لي عند طبيب معروف، يتردّد عليه هو شخصيا للعلاج، فهو مصاب بمثل ما أنا مصاب به.

في عيادة الطبيب

وفي الموعد المحدّد، صحبني عبد الرحمن إلى عيادة الطبيب الذي نسيت اسمه، وفحصني، وفحص قدمي بصفة خاصة، واطلع على كشف أشعة، أظنه كان معي، وسألني جملة أسئلة. ثم وصف لي تمرينات أقوم بها، في الصباح وفي المساء، وهي حركات للرجْل، مرات معدودة، ورأى أن هذا العلاج الطبيعي كافٍ، في هذه الفترة، مع الوصية بالرفق والاعتدال، وعدم إرهاق الجسم عامة، والرجلين خاصة.

لقائي بالصحفي التونسي الهاشمي الحامدي

وفي هذه المرحلة، التقيت ـ لأول مرة ـ الصحفي التونسي المعروف: الهاشمي الحامدي، الذي كان عضوًا نشيطا في «حزب النهضة» الذي يتبنّى الاتجاه الإسلامي، ويقف في وجه التيارات العلمانية «اللائكية» ليبرالية وماركسية، ويعبر عن حقيقة الإسلام المتكامل المتوازن، الذي يجمع بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، والذي يقوده بحكمة وشجاعة وبصيرة أخونا الداعية المفكر الملتزم: الشيخ راشد الغنوشي، والذي أثنى عليه الهاشمي الحامدي ثناءً عاطرًا، قبل أن ينقلب عليه فيما بعد.

ندوة عن المستقبل الإسلامي وقضاياه

وفي أثناء لقائي بالحامدي، حدثني عن نيته لإقامة ندوة فكرية إسلامية عالمية مهمة، تتحدث عن المستقبل الإسلامي وقضاياه. فرحّبت بالفكرة، وقلت له: هذا أمر في غاية الأهمية اليوم، لأن غالب الإسلاميين يعيشون في الماضي، وربما التفت بعضهم إلى الحاضر، ولكنهم في الجملة غائبون عن المستقبل. مع أن لدينا في القرآن والسنة مؤشرات

تقودنا إلى الانتباه للمستقبل، كما نجد في القرآن المكي حديثا عن المستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ (الروم: ٣) ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٥) ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣) إلخ.

قال: لقد سرّني تجاوبك مع الفكرة، وتشجيعك لها.

قلت: أنا أومن بأنه لا خلاص لأمتنا ما لم نخرج من التقوقع على الماضي، ونتعلم التفكير المستقبلي، القائم على العلم والدراسة والإحصاء لا على الأخيلة والأوهام. المهم أن تتكون عندنا عقلية استشراف المستقبل.

قال: لهذا تنعقد هذه الدورة، وستكون في البلد الذي تحبه ويحبك: الجزائر، وسندعو إليه كثيرًا من إخوانك وأصدقائك من المفكرين الذي تعرفهم: طارق البشري وعمارة وهويدي والعوا وعادل حسين، والترابي والغنوشي والدجاني ومنير شفيق، وغيرهم. وعلى رأس الجميع: الشيخ الغزالي.

وأنا أطلب منك أن تكتب في موضوع أنت مشغول به، ورأيته مبثوثا في محاضراتك، وفي كتبك الأخيرة، وهو الذي سميته «فقه الأولويات» فأريدك أن تتحدث عن «أولويات الحركة الإسلامية في العقود الثلاثة القادمة».

قلت: على بركة الله، وسأجتهد في كتابة هذا البحث، وبالله التوفيق.

وافترقنا، على أن نلتقي في الجزائر في الموعد المحدد للندوة.

وبقيت أيامًا في واشنطن، التقيتُ فيها الإخوة الكرام: العلواني، والبرازنجي، والطالب، ومحيي الدين عطية وغيرهم من المسؤولين عن معهد الفكر الإسلامي، ثم لقيت العاملين وتحدثت إليهم، كما تحدثوا إليّ، ثم ودعت الجميع عائدا إلى الدوحة.

العودة إلى الدوحة

وبعد عودتي إلى الدوحة، عملت بنصيحة الطبيب الأمريكي في المواظبة على التمرينات، وقد استرحت عليها فعلًا إلى حد كبير، ولكن الرفق الذي أوصى به الطبيب

رُوعي مدة من الزمن، ثم لم يلبث أن عاد الحال إلى ما كان عليه من النشاط والسفر، وهذا كله عبء على القدم الموجوعة.

وعندما أقبل رمضان، وجاءت صلاة التراويح: عزّ عليّ أن أتركها أو أصلي مأمومًا في تلك السنة، ولكني صلّيت على ما هو المعتاد، وكنت أعتمد على رجلي السليمة في صلاتي الطويلة. فما إن انقضى شهر رمضان المبارك، حتى ابتليت بوجع رجلي اليمنى. حتى ليبدو أن وجعها أشد من وجع اليسرى، التي باتت أحسن حالا، بعد التمرينات التي أوصاني بها الطبيب الأمريكي، وبعد عملية المنظار التي أجراها لي من قبل الطبيب البرازيلي في الدوحة.

ترددي على مستشفى حمد

وغدوت أتردد على قسم العظام بمستشفى حمد بالدوحة، الدكتور نبيل خليفة ورفاقه، وأعطوني بعض المسكنات من الأدوية، ووصفوا لي بعض التمرينات وبعض العلاج الطبيعي الذي يجب أن أجريه في المستشفى، لأنه يستلزم استخدام أدوات كهربائية وغيرها.

والحقيقة أني لم أستفد من هذه الأجهزة، ومن هذا العلاج الطبيعي شيئًا يذكر. ولم أزل أشعر بالألم يصاحبني ويقلقني. وأحيانًا أذهب إلى أطباء غير أطباء العظام، كأطباء الباطني، الذين يعالجون أمراض الروماتيزم، أشكو من شدة الألم، فيعطونني إبرة «كورتزون». وهو دواء مسكن. ولكنه لا يعالج الداء من أساسه، ويستأصله من جذوره. وأثر الكورتزون لا يدوم أبد الدهر، ولكن له مدة، ثم يزول ويعود الجسم إلى طبيعته، وتعود الشكوى من جديد.

نصيحة صديقي يوسف توبة

وما زلت أصبر وأصابر، رجاء أن تأتي إجازة الصيف، فأبحث عن طبيب يعالجني بعملية بالمنظار أو نحو ذلك. وكان في نفسي أن أذهب إلى الطبيب الذي فحصني في واشنطن، ولكن أحد أصدقائي وأحبائي نصحني بطبيب آخر. أجرى له عملية ناجحة، أمسى بعدها يمشي كما يمشي الأصحاء، ولا يشكو من أي شيء، وقال: إنه كان يشكو مما

أشكو منه، وأن هذا الطبيب في مدينة «بوسطن» بأمريكا، وهو هندي الأصل، ومشهور بهذا العمل عن طريق المنظار، وأنك لن تستغرق سوى دقائق ثم تخرج في عافية أو قريبًا من العافية، وبعد يوم أو يومين تمارس المشي بطريقة عادية.

كان هذا الصديق هو الأخ الكريم الأستاذ يوسف توبة، رجل الأعمال المعروف، وقد تعارفنا من قديم في السجن الحربي في محنة الإخوان (١٩٥٤م). وهو رجل صادق ومجرّب في نفسه، فلم يكن هناك بد من أن آخذ بنصيحته.

سفري إلى طبيب جراح في مدينة بوسطن بأمريكا

وراسلنا الطبيب الجراح من سفارة قطر في واشنطن، وحجزنا عنده في شهر يوليو (تموز)، وسافرت أنا وزوجتي وابني أسامة ـ الطالب بكلية الهندسة بجامعة قطر ـ من القاهرة إلى بوسطن، واستأجرنا فيها شقة مفروشة لمدة شهر، مستعينين ببعض إخواننا هناك. ثم ذهبنا إلى عيادة الدكتور الجراح، فقابلته، وفحصني، وقرر العملية في يوم محدد.

وفي الموعد ذهبنا لإجراء العملية، وكنت أظن أنها ستكون مثل العملية التي أجراها الجراح البرازيلي في الدوحة، حيث تمت بسهولة وسرعة، وخرجت بعدها أمشي على قدمي، بدون أي عائق.

عملية طويلة منهكة

ولكن هذه العملية طالت، وخرجت منها منهكًا مهدودَ القوة، وبقيت فترة لم تطل كثيرًا في العيادة، ثم انتقلت بمساعدة بعض الإخوة إلى الشقة التي نسكنها. وبعد أن زال أثر التخدير، بدأت أحس بالألم يزداد شيئًا فشيئًا، ولم تتحسن حركتي، بل بقيت عدّة أيام لا أتحرك إلا بصعوبة.

وبعد عدّة أيام كانت لي معه مراجعة، فذكرت له ما لا أزال أعانيه من الألم، فطمأنني بأنه سيزول بمضيّ الوقت، ونصحني بالمشي، ولكن كيف يمشي من يتألم؟

وقضينا بقية الشهر في بوسطن وزرنا معالمها، وهي تتميز بأن فيها أشهر جامعتين في أمريكا، وربما في العالم: جامعة هارفارد (Harvard University)، وجامعة إم آي تي (MIT).

محاضرة عامة في بوسطن

ورتّب الإخوة الإسلاميون لي محاضرة عامة، دعي إليها جم غفير من المسلمين العرب وغيرهم ممن يحسن فهم العربية.

وبعد انتهاء المدة التي قررناها لبقائنا في بوسطن، عزمنا على شدِّ الرحال للعودة إلى مصر، ثم إلى قطر، عن طريق لندن.

لكل شخص ظروفه الصحية

وقد تبيَّن لي أن نجاح طبيب في عملية مع شخص، لا يستلزم نجاحه مع كل إنسان. فقد نجح هذا الجراح مع أخي وصديقي يوسف توبة، ولكنه لم ينجح معي، لأن لكل شخص ظروفه الصحية والنفسية وغيرها.

وعلى كل حال، لم أشعر بأني وُفِّقت في هذه العملية، وفي هذه السفرة الطويلة، ولكني أديت ما علي، فعلى المريض أن يسعى، وعلى الطبيب أن يعالج، أما الشفاء فهو من الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ (الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠).

المرور بإلهام في لندن

وكان الذي رتَّبْناه: أن نمر بابنتي «إلهام» في لندن، أو على وجه الدقة في ضاحية «إجم» بالقرب من لندن، وقد اشترت بيتا تقيم فيه مع أطفالها، مدة دراستها للدكتوراه، ويزورهم زوجها بين الحين والحين.

وفي المطار، وجدنا «إلهام» تنتظرنا بسيارتها، وبعد السلام والعناق الحار، حملتنا ـ أنا ووالدتها وشقيقها أسامة ـ إلى منزلها، بتلك الضاحية الجميلة، التي فيها فرع جامعتها للعلوم، وهي لا تبعد كثيرًا عن المطار. وكنا في شهر أغسطس ولكن الجو كان لطيفًا.

حدث الأحداث: غزو الكويت

غزو صدام لدولة الكويت

أنست بنا ابنتنا إلهام في منزلها وأنسنا بها أيامًا عدة. ثم فوجئنا وفوجئ العالم كله، بنبأ يذيعه التلفزيون البريطاني، لم يكن يخطر بالبال. نبأ زلزل الدنيا وشغل الخلق، وتحرك له الناس في المشارق والمغارب، لا يكادون يصدقونه، ذلك النبأ هو : غزو صدام حسين لدولة الكويت، وذلك في أغسطس سنة ١٩٩٠ .

أهذا حلم أم حقيقة؟

صدام يغزو الكويت الجارة والشقيقة التي وقفت إلى جواره في حربه مع إيران، وأمدته بالمليارات، يهجم عليها بقوة ووحشية، اضطر أكثر أهلها أن يغادروها قهرا، حتى الأمير وولي العهد والوزراء وغيرهم، تركوا البلد، طالبين النجدة من الأشقاء والعالم.

وقف أحدهم يقاوم، فأطلقوا عليه الرصاص، فسقط قتيلا، وهو الشيخ فهد الأحمد.

ولم يقف الأمر عند الكويتيين وحدهم، بل كثير من العرب الذين كانوا يعملون في الكويت، مثل المصريين والسوريين وغيرهم، ركبوا سياراتهم مع أهليهم وأولادهم، تاركين كل شيء وراءهم، في سبيل النجاة بأنفسهم.

ذهب الكويتيون إلى البلاد العربية التي يرون أنها آمنة بالنسبة لهم مثل مصر، وبعض بلاد الخليج. وحمل بعضهم ما تيسّر له من الدنانير الكويتية التي باتت برخص التراب.

تعاطف الناس مع الكويتيين

وتعاطف الناس مع الكويتيين الذين أمسوا ما بين عشية وضحاها: فقراء بعد غنى، خائفين بعد أمن، سائحين في الأرض بعد عيشة السَّعة والرغد في القصور والفيلات. حتى كان سائق التاكسي المصري إذا ركب معه واحد من هؤلاء، رفض أن يقبض منه أجرًا. وقد حدث أن سافر قطري ووقع له ذلك، وأبى السائق بشمم أن يتناول منه شيئًا، وقال له: ألستم إخواننا؟ ألا نشارككم محنتكم؟ فقال له الراكب: أنا لست كويتيا، أنا قطري!

محنة قاسية

كانت محنة قاسية على أهل الكويت، وقد دخلت قوات صدام وجنوده، فنهبت وسلبت، وحملت سيارات كبيرة من قصور الكويتيين من الأثاث والأدوات والتحف: ما يقدر بالمليارات، بل نهبت المحلات التجارية، وفتحت مخازنها، ونُقِل ما فيها إلى بغداد وسائر مدن العراق.

لم يكن غزوًا نظيفًا، بل كان أشبه بعمل اللصوص وقطّاع الطريق. وكان الضباط والجنود يتصرّفون تصرف من لا يعلم أن أحدًا سيحاسبه يوما.

مؤتمرات صدام الإسلامية

كان صدام قد مهَّد لذلك بمحاولة كسب الرأي العام العربي إلى صفه، فبدأ يتظاهر بأنه مع الإسلام، وأنه لم يعد متمسكًا بأفكار البعث، وأضاف إلى عَلَم العراق: كلمة «الله أكبر».

ودعا أكثر من مرة إلى مؤتمرات عنده، حشد فيها من علماء الدين من استطاع حشده، من بلاد العرب والمسلمين، ليعلن أنه ليس ضد الدين.. بل هو ناصر الدين!

وفي آخر مؤتمر عقده، شارك فيه عدد كبير من علماء الأمة منهم شيخنا الشيخ الغزالي، والشيخ عبد الله الأنصاري من قطر، وغيرهما.

وقد حرص على أن يجتمع بالشيخ الغزالي قبل سفره اجتماعًا خاصًّا طال لمدة ساعتين، وتأخرت الطائرة التي تقلّه، حتى ينتهي الاجتماع. وقال الشيخ الغزالي: يبدو أن الرجل تغيَّر، وسبحان مقلب القلوب!

وعاد الشيخ الأنصاري يتحدث عنه، وكأنه أحد أبطال الإسلام!

وكان أخونا الشيخ أحمد البزيع ياسين في الكويت من أكبر الدعاة لصدام، وكنت أختلف معه بشدة حين نلتقي في اجتماعات مجلس إدارة الهيئة الخيرية الإسلامية، وهو أمين الصندوق فيها، وكان يقول لي بثقة واعتزاز: إنه فحل العرب!

أحسب أنه كان ـ بهذه الأمور كلها ـ يهيئ النفسية العربية، والذهنية العربية، لما يريد أن يفعله.

عدم استجابتي لحضور مؤتمرات صدام

وأحمد الله أني لم أشارك في شيء من هذا، وقد دُعيت أكثر من مرة لمؤتمرات صدام، وألحَّ عليَّ في الدعوة: السفير العراقي في قطر، ولكني اعتذرت، وأصررت على الاعتذار. وكانوا يقولون في العراق: هناك عالمان فقط لم يستجيبا لدعوة العراق أو دعوة صدام: أبو الحسن الندوي في الهند، ويوسف القرضاوي في قطر. وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس.

وقد جسَّ صدام نبض أمريكا، بحديثه مع السفيرة الأمريكية في بغداد.. ماذا يكون موقف أمريكا لو غزا العراق الكويت؟

وقالت السفيرة: سيادة الرئيس، ليس بيننا وبين الكويت معاهدة دفاع مشترك!!

فكأنّ هذا نوع من الإذن، أو التحريض على فكرة الغزو.

بقينا أيامًا في لندن أو ضاحيتها مع إلهام وأولادها، نراقب الأحداث، ونتابع التلفازات، ووكالات الأنباء، ولا نكاد نصدّق ما جرى ويجري، من هول الصدمة.

بعد أيام، كان لا بد لنا من أن نعود إلى القاهرة، لبقاء أيام قليلة، ثم نحزم أمتعتنا إلى الدوحة، فقد أوشك العام الدراسي أن يدخل.

الرجوع إلى الدوحة

رجعنا إلى الدوحة، لنستأنف العام الدراسي، ليذهب التلميذ إلى مدرسته، والطالب إلى جامعته، والموظف إلى عمله.

وكان محمد قد تخرج في كلية الهندسة، وعُيِّن معيدًا، وعبد الرحمن ينجح في كليته بامتياز، وأسامة قد دخل كلية الهندسة، وإلهام وسهام تعملان للحصول على الدكتوراه من إنجلترا: إلهام من جامعة لندن، وسهام من جامعة ريدنج. وأسماء حصلت على الماجستير من جامعة الخليج في البحرين. وتتهيأ للابتعاث للدكتوراه بتوفيق الله تعالى.

بداية العام الدراسي بالدوحة (١٩٩٠ـ١٩٩١) واحتلال الكويت هو القضية الأولى

عدنا إلى الدوحة، في بداية العام الدراسي. ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، أو قبله بقليل. والعالم كله يصبح ويمسي، وليس له حديث إلا غزو العراق للكويت، وما وقع لأهل الكويت من مآسي، وكيف تفرقوا في البلاد، بعد العز والرفاهية، ولا سيما أن الكويتيين معروفون بالعُجْب والزهو، فأمسى حالهم، كحال ابنة النعمان بن المنذر ملك الحيرة، بعد زوال ملك أبيها، وهي التي قالت:

فبينا نسوسُ الناس والأمر أمرنا   إذا نحن فيهم سوقة نتنصَّفُ

فـأف لدنيا لا يـدوم نعيمها   تقلَّب تـارات بنا وتـصـرَّفُ

والمفروض أني في هذه السنة معار إلى جمهورية الجزائر، وعلي أن أستعد لذلك، علي أن أباشر عملي هناك من أول شهر أكتوبر.

خطبة تاريخية في مسجد عمر بن الخطاب

وفي هذه الأثناء، خطبت خطبة تاريخية في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، حول العدوان على الكويت. دنت فيها هذا الغزو الآثم، الذي يتَّسم بالحماقة وعدم التدبر في العواقب، كما يتَّسم بالغدر بشقيق وقف معه في وقت الشدة، فهو يجزي الإحسان بالإساءة، وهو يقسم العرب في وقت يحتاجون فيه إلى التوحد والتلاحم، وهو يعيدنا إلى عهد الجاهلية حيث يغير الأخ على أخيه بأدنى سبب. كما قال قائلهم:

وأحـيـانًـا عـلى بـكـر أخينا إذا مـا لم نـجـد إلا أخـانـا

وقد حذرنا رسولنا من ذلك حين قال في حجة الوداع: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].. ثم هو يفتح الباب للتدخل الأجنبي، بعد أن تحررت المنطقة منه إلى حد كبير.

ولا أذكر بالضبط ما قلته في هذه الخطبة، وأعتقد أنها مسجلة، وقد أذاعتها إذاعة الكويت التي كانت تعمل من خارج الكويت، وظلّت تعيدها وتكررها عدّة مرات في كل يوم من أيامها الأولى[2].

مؤتمر العلماء بمكة المكرمة

ثم تداعى العلماء والدعاة وأهل الرأي إلى مؤتمر للعلماء بمكة المكرمة، للبحث في الغزو العراقي للكويت، وكيف ننقذ الكويت؟ وما الواجب على الأمة؟ وما الواجب على العلماء؟

وقد حضرت شخصيات كثيرة من أقطار شتى من بلاد العرب، وبلاد العجم، وتحدّثوا واقترحوا وناقشوا. وقد ألقيت كلمة قوية متوازنة حازت القبول لدى الحاضرين.

مدى مشروعية الاستعانة بالأمريكان

وكانت نقطة الخلاف الأساسية هي مدى مشروعية الاستعانة بالأجانب من غير المسلمين، كالأمريكان وحلفائهم.

وكنت ومعي جماعة من المشاركين نتخوَّف من هذا الأمر: أن يدخلوا ديارنا فلا يخرجوا منها، ويتشبّثوا بالبقاء في أرضنا، ولا نملك أن نحاربهم، وهم الذين أعانونا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥) عن جرير بن عبد الله البجلي.

(٢) انظر: خطب الشيخ القرضاوي (٣/ ١٤٢).

في حربنا، وهم الذين يملكون كل وسائل القوة وأدواتها. فالأولى أن يتعاون العرب والمسلمون بعضهم مع بعض، لمقاومة هذا العدوان وطرده، وتحرير الكويت من نيره.

وقال القائلون: إنَّ هذا إغراق في الخيال، فجيش صدام ـ من حيث عدده وعتاده وسلاحه وتدريبه ـ لا يمكن أن تحاربه جيوش عربية أو إسلامية. لا يستطيع محاربته إلا أمريكا. وقد اختلف الفقهاء في جواز الاستعانة بالكفار في الحروب، وأجاز أكثرهم الاستعانة بهم إذا كانوا مؤتمنين.

وكان الرد على ذلك بأن هذا في الاستعانة بالكافر على الكافر، لا في الاستعانة به على المسلم. ثم معنى الاستعانة بالكافر: أن تكون أنت صاحب السلطان والقوة والنفوذ، ويأتي هو عونًا لك. أما الواقع هنا فهو أن الأجنبي هو الذي بيده القوة والسلطان والأمر والنهي، وهو الذي بيده كل شيء، فالواقع أنه هو الأصل، ونحن الفرع، هو الذي يستعين بنا، ولسنا نحن الذين نستعين به!

الاستعانة بالكفار للضرورة

واستمر النقاش طويلًا في ذلك، ولكن الذي حسم النزاع هو قولهم: إننا أمام ضرورة، ليس لنا خيار غيرها. إما أن نقبل ما وقع، ونرضى بضياع الكويت دولة، وابتلاع صدام لها، وإما أن نقبل الاستعانة بقوة أمريكا وحلفائها، فهي وحدها القوة القادرة على الردع. وما دمنا أمام ضرورة، فالضرورات تبيح المحظورات.

وبهذا انتصر رأي القائلين بجواز الاستعانة بأمريكا، على أن تخرج فورًا من المنطقة بعد إنهاء احتلال الكويت، لأنه أمر محظور أبيح للضرورة، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

على أن تقرير هذا من الوجهة النظرية سهل، ولكن الصعب هو تنفيذه، فمن ذا الذي يستطيع أن يقول للقوة المقتدرة المنتصرة: ارحلي عنا، وارجعي من حيث جئت!

موقف بعض علماء السعودية المضادّ للاستعانة

وكانت هناك فئة من علماء السعودية قد اتخذت موقفًا مضادا لهذا الاتجاه، معارضة لمقررات هذا المؤتمر الذي كان على رأسه مفتي المملكة الشيخ عبد العزيز بن باز، وعلى رأس هؤلاء العلماء المعارضين الشيخ الدكتور سفر الحوالي، الذي أعدّ دراسة قيمة حول الموضوع، بيَّن فيها: أن أمريكا هي التي خطَّطت لهذا الأمر، وبيّتت له من قبل، وجهّزت «قوات الانتشار السريع»، وكان صدام أداتها في تنفيذ مخططها من حيث لا يدري، فقد درست نفسيته، واستغلت طموحاته في تحقيق أهدافها في السيطرة على المنطقة.

أهمية الجمع بين العلم الشرعي والفقه السياسي

وهذه نقطة مهمة تسجّل لإخواننا من شباب العلماء والدعاة في المملكة، الذين جمعوا إلى العلم الشرعي: الفقه السياسي، ووقفوا موقف المعارضة لسياسة الحكومة، وسياسة كبار المشايخ. فحيَّاهم الله وجزاهم خيرًا: الحوالي والعودة والقرني والعمر وإخوانهم، الذين وُضعوا في القائمة السوداء، وجرى لهم بعد ذلك ما جرى من محن، ندعو الله أن تكون في ميزانهم حسنات ودرجات.

موقف جماعة الإخوان المسلمين من الاستعانة بالأمريكان

وكانت جماعة الإخوان المسلمين منقسمة في هذا الأمر، فمنهم من حضر هذا المؤتمر، وإن كان له بعض التحفّظ على بعض قراراته، بينهم الشيخ مناع القطان، والشيخ عبد المجيد الزنداني، والدكتور الحبر نور الدايم، والشيخ عبد الله المطوع، والفقير إليه تعالى. كما أذكر من المشاركين الدكتور نجم الدين أربكان.

وأغلب الإخوان كانوا معارضين بشدة للاستعانة بالأمريكان، وأنَّ هذا شر على العرب والمسلمين، وإن كان الجميع يعارض غزو الكويت ويندد به، ويطالب صدام بالجلاء الفوري عن الكويت.

السفر معارًا من قطر إلى الجزائر
السنة الدراسية ١٩٩٠ - ١٩٩١م

عملي في الجزائر

كان لا بدّ لى من أن أسافر إلى الجزائر، بعد موافقة أمير قطر على إعارتي لها، لأبدأ مباشرة عملي هناك. وكان عملي يُمَثَّل في أمرين:

الأول: رئاسة المجلس العلمي بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في قسنطينة. وهذا لا يتطلَّب مني دواما كاملا هناك.

والثاني: أن أعمل مستشارًا لوزارة الشؤون الدينية في العاصمة، ووزيرها صديقنا الفاضل الدكتور سعيد شيبان، الذي طالما التقيناه في ملتقيات الفكر الإسلامي، وعرفناه طبيبًا مثقفًا، وداعيةً للإسلام، متعاونًا مع الدعاة والعاملين لنصرة الإسلام. وهو شقيق صديقنا الشيخ عبد الرحمن شيبان، وزير الشؤون الدينية الأسبق.

مقابلة رئيس الوزراء مولود حمروش

وقد استقبلني الدكتور شيبان، وصحبني لمقابلة رئيس الوزراء، السيد مولود حمروش، وقد لقيته مرارًا من قبل، وهو يعرفني جيدًا. وقد رحَّب بي الرجل، ونوّه بمنهجي في الدعوة إلى الإسلام، وجرى الحديث بيننا طيبًا، فقد قلت له: في مصر عندنا عائلة حمروش أيضًا. وحين كنت طالبًا بكلية أصول الدين كان شيخ الأزهر في ذلك الوقت هو: الشيخ إبراهيم حمروش. والذي ذكرته في قصيدتي في وداع كتيبة الأزهر،

التي كانت مسافرة إلى قناة السويس للمشاركة في مقاومة الإنجليز، مع شباب الجامعات المصرية. الذين قاموا بالعبء الأكبر في هذه المقاومة، وكانت إيران في ذلك الوقت ثائرة على الشاه وعلى الاستعمار البريطاني. وكان رائد الثورة ومشعلها في ذلك الوقت، هو آية الله الكاشاني. فكان مما قلته في قصيدتي:

يا أزهر الخير، قدها اليوم عاصفة ... فــإنــما أنــت مــن نــور ونــيران!

هــذا شبابك للميدان منطلق ... فهل نرى في الشيوخ اليوم كاشاني؟!

وكان في القصيدة بيت يقول:

متى نرى ألسن الدنيا تتحدث عن ... حمـروش مصر ككاشاني إيـران؟!

وقال رئيس الوزراء:

لقد لقيت منذ سنوات السيد أحمد حمروش، من كتاب ثورة يوليو ومن ذوي الاتجاه اليساري، وتحدثنا حول هذا الموضوع. وهل أصل «الحمارشة» مصر أو الجزائر؟

قلت: وإلام انتهيتم؟

قال: انتهينا إلى أنّ الغالب في الهجرة: أن تكون من المغرب إلى المشرق، وإن كان العكس قد يحدث.

قلت: هذا صحيح، وكثيرًا ما يظل بعضهم منتسبًا إلى بلده الأصلي: فيقال: الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ عبد القادر المغربي، وبيرم التونسي، وعمر التلمساني.. إلخ.

وكان لقاء الرجل معي في غاية الودّ واللطف، وقال: أي عقبة تصادفها، فليس بيني وبينك حجاب، ولك أن تتصل بي إما مباشرة، وإما عن طريق الدكتور شيبان إن شئت.

وأذكر أني طلبت منه شيئًا يتعلق بالجامعة، نسيته الآن، واستجاب له فورًا.

وودعنا مشكورًا، على أن نلتقي بين الحين والحين.

مناقشة رسالة ماجستير في علم التفسير

وكان من أوائل ما قمت به: أن طلبت مني جامعة الجزائر، قسم العلوم الإسلامية: أن أكون عضوًا في لجنة مناقشة لرسالة للماجستير، ستناقش قريبًا، في علم التفسير، وإن كان الوقت ضيقًا.. قالوا: ولكن مثلك لا يحتاج إلى وقت لقراءة الرسالة. فيكفي أن تنظر فيها وتتصفحها، لتحكم عليها. ورحَّبت بذلك، وبعد أيام قليلة، حضرت المناقشة، وشاركت فيها مشاركة إيجابية، فشهد الحاضرون بأنها كانت هي المناقشة العلمية والمنهجية المستوعبة التي استفاد الطالب المناقش منها، واستفاد منها كذلك جمهور الحاضرين. بل قال بعض إخواني من المناقشين، ولا أذكر أيًا منهم الآن: نحن شخصيًّا قد استمتعنا بحضورك ومناقشتك.

إلى قسنطينة

ثم سافرت إلى قسنطينة بالطائرة، ووجدتهم في استقبالي هناك، وقد التقيت مجلس الجامعة، والمجلس العلمي. وطلبت لقاء خاصًا بهيئة التدريس. عرضت عليهم فيه رؤيتي، لما يجب أن تكون عليه جامعة للعلوم الإسلامية، وما يجب أن يكون عليه أستاذ الجامعة الإسلامية.

واجب الطالب الجامعي

ثم هيئوا لي محاضرة عامة للطلاب، حضرها كل طلاب الجامعة والأساتذة أيضًا، بينت فيها: واجب الطالب الجامعي المسلم: من ناحية العلم وتحصيله والأفق الذي ينبغي أن يطمح إليه في ذلك، وأن العلم لا يعطيك بعضه حتى تؤتيه كلك، وأن طالب العلم لا يشبع منه أبدًا، شعاره دائمًا: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

ومن ناحية العمل: عليه أن يعمل بما يعلم، فالعلم إنما يراد للعمل به. والعلم بلا عمل كشجر بلا ثمر، أو كسحاب بلا مطر. وأسوأ مثل للناس: العالم الذي لا يعمل بعلمه، أو يكون عمله مناقضًا لعلمه.

ومن ناحية ثالثة: الدعوة إلى ما تعلّمه، وتعليمه للناس، فزكاة العلم: تعليمه

للآخرين، والنبيون بعثوا معلمين للخلق، والعلماء ورثة الأنبياء. عليهم أن يحملوا مصابيح الهداية للبشر، كما حملها الأنبياء.

مناقشة رسالة ماجستير في فقه الأسرة

ومما شاركت فيه في الفترة التي بقيتها في قسنطينة: أن ناقشت رسالة ماجستير في علم الفقه، وكانت في فقه الأسرة أو الأحوال الشخصية، وحول ضرب المرأة وآثاره، وأنه مما يستوجب التفريق بينها وبين زوجها إذا ضربها بغير مبرر، أو تجاوز الحد في ضربها، إلى غير ذلك من ألوان الإهانات للمرأة، ولو بالكلمة.

وكانت الرسالة موثقة بالنقل من كتب الفقه المتقدمة والمتأخرة. وقد سررت بالرسالة وأثنيت على الطالب، وأذكر أن الطالب كان اسمه عبد الباقي، وأحسبه قد استكمل الدكتوراه بعدها.

ثم عدت إلى الجزائر العاصمة، لأمارس بها نشاطا آخر.

درس التفسير في سورة يوسف

وقد رأى الإخوة المسئولون في وزارة الشؤون الدينية: أن أبدأ نشاطي العلمي بدرس أسبوعي في تفسير القرآن الكريم، ائتساءً بشيخ النهضة الجزائرية الشيخ ابن باديس، واختاروا مسجدًا هو أقدم المساجد في العاصمة، لما يرمز إليه من معنى.

وكنت أريد أن أبدأ من حيث انتهى العلامة رشيد رضا في تفسير المنار، أي من سورة الرعد، ولكن عددًا من الإخوة استحسنوا أن أبدأ بسورة يوسف، واستجبت لاقتراحهم. وحدّدت الليلة التي أبدأ فيها الدرس. ودُعي جمّ غفير من الناس، ومن كبار العلماء والوجهاء. وبدأت التفسير على بركة الله، مبتدئًا بمقدمة في التفسير. ثم دخلت في تفسير السورة. واستمرَّ هذا الدرس، حتى أتممت أكثر من نصف السورة.

وكانت مشكلتي في هذا الدرس: أني بعيد عن مكتبتي، وكنت أستعير ما تيسَّر من الكتب من الوزارة أوغيرها، وأعتمد على ما هو في الذاكرة، وعلى التأمل.

ولم يكن الدرس يتوقّف إلا إذا سافرت إلى قطر، التي كنت أذهب إليها كل فترة من الزمن، حيث تركت أسرتي هناك. أو إذا تأخَّرت في قسنطينة لسبب أو لآخر.

وكان هذا الدرس يسجل مسموعًا ومرئيًّا، وإن لم يكن عندي منه أي نسخة، وقد طلبت من أحد تلامذتي في الجزائر محمد صائب أن يبحث عن شريط مسجل لهذا التفسير، ويبعث به إليّ. ووعدني بذلك شكر الله له. وأرسله إليّ بالفعل، ولكن مما يؤسف له حقًّا: أنه ضاع مني، ولا أدري كيف؟ فمن كان لديه نسخة مسجلة من هذه الحلقات والدروس ـ ولو على كاسيت ـ فليتفضل بإرسالها إلي وجزاء الله خيرا.

الجزائر وغزو الكويت

عندما ذهبت إلى الجزائر، كانت قضية صدام وغزو الكويت، هي الشغل الشاغل للجزائريين كلهم، خاصتهم وعامتهم، مثقفيهم وأمييهم، وكان الوضع في الجزائر بالنسبة للقضية على عكس الوضع الذي تركته في الخليج وفي مصر حيث رأيتهم متعاطفين تمامًا مع أهل الكويت، معارضين كل المعارضة لصدام.

أما الجزائر، فعواطفهم مع صدام، لم يروا فيه الغازي للكويت، بل رأوا فيه المتحدّي للأمريكان! وكلما شاهدوا التلفزيون الفرنسي يهاجم صدامًا بعنف، ازدادوا هم قربًا من صدام وتحمُّسًا له، وكل من تعاديه فرنسا هو صديق لهم.

موقفي من غزو الكويت

وكانوا يسألونني عن موقفي، فأقول لهم: أنا من غير شك ضد الأمريكان وحلفائهم من الفرنسيين والبريطانيين والغربيين المعتدين بصفة عامة. ولكني أيضًا ضد غزو الكويت بغير حق، وإعطاء الغزاة حق سلبها ونهبها واستحلالها.

وأرى أن الواجب علينا جميعًا الآن: أن نضغط على صدام للانسحاب طوْعًا واختيارًا، قبل أن ينسحب قهرًا واضطرارًا. فمن خلال حرصي على العراق: شعبًا، والعراق وطنًا، والعراق جيشًا، أطالب صدامًا بالانسحاب، فلا يدع الفرصة لما يسمَّى

«قوات التحالف» لتستقر في المنطقة، وتتحكّم في مقدراتها. هذا هو ما يحكم به العقل والشرع ومصلحة الأمة. وما زالت أمامه مهلة أعطيت له لينسحب بإرادته.

وقد حاول كثيرون أن يثنوا صدامًا عن عزمه، وأن يقنعوه بالعدول عن رأيه، ومنهم الرئيس المصري حسني مبارك، الذي أرسل إليه رسائل عدة، فلم يبال بها؛ إذ لم يكن مبارك عنده بالثقة الذي ينصت لنصحه، ويطمئن إليه.

موقف صدام المتصلب

وأنا إلى اليوم لا أحسن فهم موقف صدام ولا تفسيره، ولا أدري: لماذا لم ينسحب وكان أمامه الفرصة؟ أكان يظن أنه سينتصر على أمريكا ومعها نحو ثلاثين دولة، وقد جمعوا له من العتاد ما يسد عين الشمس، وكانوا مجهزين بالأسلحة المتطوّرة التي لم تجرب قبل ذلك، وللأسف معهم جيوش من البلاد العربية وجنود من عدّة أقطار؟!

أم كان يعتقد أنهم سيضربونه لا محالة، وإن انسحب، وأنهم مصممون على ملاقاته؟

وأقول: حتى لو كانوا كذلك، فإن الحجة ستكون عليهم، وسيقـف الأكثرون من أنحاء العالم ضدهم، ولا يجدون ما يقولون في تبرير موقفهم؛ فهم الذين أعطَوا المهلة، وطلبوا الانسحاب، وكرّروا الطلب، وتوسط المتوسطون من العرب ومن روسيا، ومن غيرهم، فلا معنى للتصلب في هذا، والوقوف كجلمود صخر، لا يتحرك ولا يلين.

عودة إلى قطر

وبعد نحو شهرين على ما أذكر، عدت إلى قطر، لأطمئن على أحوال أسرتي، وهذا ما اتفقت مع الجزائريين عليه، وكذلك مع قطر. والحمد لله، وجدت الجميع بخير، ولم يحدث شيء في غيابي يلفت النظر إليه، وكل شيء يمضي على ما كان عليه، بشكل روتيني.

وقد لقيت ولي العهد وقتها الشيخ حمد بن خليفة حفظه الله، لأودّعه قبل أن أسافر، وسألني عن حالي في الجزائر، فقلت: على ما يرام، ولله الحمد.. ثم سألني: هل ينقصك

شيء؟ قلت: كل أموري طيبة، وكل ما أريده أن تصرف لي تذكرة ذهاب وعودة كلما جئت من الجزائر، فقد يصعب عليّ أن أطلب منهم ذلك، مع أنهم لا يتأخرون عن شيء أطلبه وأمر بذلك على الفور. وودّعته شاكرا.

إلى الخرطوم حتى قامت الحرب وأنا فيها

ثم ودّعت أهلي وأولادي، على أن أرجع إليهم بعد فترة وأخرى، مسافرًا إلى الخرطوم، حيث كنت مدعوًّا إلى ندوة عن «الزكاة»، ومنها إلى الجزائر. فوصلت إلى الخرطوم، وشاركت في الندوة، وحجزت بعدها على الطائرة المصرية المسافرة إلى القاهرة، لآخذ من هناك الطائرة الجزائرية الذاهبة إلى الجزائر.

وجاء اليوم المعلوم حيث تقوم الطائرة في الصباح الباكر، وقد اتفق معي الإخوة المسئولون: أن يأتوا قبلِ الطائرة ليأخذوا حقيبتي، وبعدها بساعة، يأتون ليصحبوني إلى الطائرة. ولكني انتظرت طويلًا وطال الانتظار ولم يأتني أحد، قلت: لعل الطائرة تأخرت، ولكن لماذا لم يعلموني بأن الطائرة تأخرت؟

وهكذا ظللت أسائل نفسي، ولا أجد جوابًا لسؤالي، حتى حضر إلي بعض الإخوة، فسألتهم: ما الخبر؟ هل تأخرت الطائرة؟ ولم تأخرت؟ فقالوا: ألم تعرف ماذا حدث؟ قلت: لا، ماذا حدث؟ قالوا: لقد قامت الحرب! وعُطِّل المطار، فلا طائرة تذهب ولا طائرة تجيء، حتى يقضيَ الله أمرًا كان مفعولا.

الانتظار والصبر

فقلت: سبحان الله: كل شيء بأجل مُسمّى، كنت مستعجلًا، لأذهب إلى الجزائر، فإذا هذه الحرب تدور رحاها فجأة، وإن كنا نتوقعها في كل وقت. وما عليّ إلا الانتظار والصبر. ولا أملك غير هذا، طال الزمن أم قَصُر. ومن لم يصبر فلْيشرب من البحر.

الصبر مفتاح ما يُرَجّى — وكل صعب به يهون

فاصبر وإن طالت الليالي — فربما أسلس الحرون

وربما نيل باصْطبار — ما قيل: هيهات لا يكون

عجزي عن متابعة أخبار الحرب في التليفزيون السوداني

والعجيب أني في فندق الهيلتون الذي أقيم فيه لا أستطيع أن أتابع أخبار الحرب، ولا يستطيع جهاز التلفزيون الذي في غرفتي أن يريني شيئًا غير ما يُبثُّ من الخرطوم.

وأستمع إلى التلفزيون، فأجده في صفٍّ صدام. ويذيع أنشودتين ليس عنده غيرهما، إحداهما تقول:

الشعب العربي وين — وين الملايين

الغضب العربي وين — الصوت العربي وين

الدم العربي وين — وين الملايين

وين الملايين

والأغنية الأخرى عراقية مؤثِّرة، لا أذكر منها إلا مقطعًا يقول:

وقبرك يا محمد — يحميه الأمريكان!

صعوبة الاتصال بخارج الخرطوم

وحتى الاتصال بخارج الخرطوم عن طريق الهاتف فيه صعوبة جدًّا، فلا أنا اتصلت بقطر، ولا أنا اتصلت بالجزائر، أعرفهم أين أنا الآن؟

فقد كانت «ثورة الإنقاذ» ما زالت في فترتها الأولى بعد، لم تستطع أن تخرج السودان من سجن التخلف الذي كان يرزح فيه، فكل الخدمات فيه رديئة، وكل ألوان الاتصال فيه واهية، وهو يحتاج إلى فترة من الزمن حتى تستطيع الثورة فيه التغيير، ولو جزئيا.

إلى القاهرة في أول طائرة

بقيت نحو خمسة أيام على ما أذكر، أنتظر فتح المطار، حتى إذا فُتح، كنت أول المسافرين في أول طائرة مصرية تنطلق منه. ونزلت في مطار القاهرة.

وكان مما آلمني كثيرًا وكدّرني: أني وجدت الإخوة السودانيين وقفوا في طوابير طويلة أمام نوافذ الجوازات، ولم يسمح لأحد منهم بالدخول إلى مصر، مع أنّ لهم عائلات وأقارب داخل مصر، ومنهم من يدرس في مصر، ومنهم من يعمل في مصر.. ولكن السلطات اتّخذت منهم موقفًا صارمًا بل قاسيًا: لا إذن لأحد بالدخول، ومعظمهم فقراء، ربما كلفتهم التذكرة كثيرًا حتى قطعوها، فكيف يرجعون بخفي حنين، أو بغير خف أصلا؟ وما ذنبهم إذا وقفت حكومتهم مع صدام؟ هل تعاقب الشعوب بذنب حكامها، إذا افترضنا أن هذا ذنب؟

لقد حزنت لهؤلاء المساكين، ولكن ماذا ينفعهم حزني، وعليهم أن يعودوا خائبين!

إلى الجزائر مرة أخرى

أحسب أني بقيت ليلة بالقاهرة، ثم امتطيت الطائرة الجزائرية، لأعود إلى الجزائر مرة أخرى، وأباشر دروسي في التفسير في الجامع الكبير القديم، وبدأت وزارة الشؤون الدينية تنظم لي محاضرات في ولايات مختلفة، وفي الجزائر ٤٨ ولاية، لو ذهبت في كل أسبوع إلى ولاية منها، لاحتاج الأمر مني إلى سنة كاملة، لو واظبت على ذلك، ولكن المثل يقول: مالا يدرك جلّه أيْ معظمه لا يترك قُلّه أي قليله.

وكانت ليالي حافلة يحتشد فيها جمهور كبير من أهل البلدة، وكنت على العادة أُلقي المحاضرة، ثم أردّ على أسئلة الجمهور. ونزور بعض الأماكن أو الشخصيات المهمة. وكثيرًا ما نزور والي الولاية.

ونبيت في الولاية غالبًا، ثم نعود إلى العاصمة في اليوم التالي.

ولاية البليدة والمدّية

لم أعد أذكر أسماء الولايات التي ذهبت إليها لطول المدة، ولكن هناك ولايات

أذكرها لأني ذهبت إليها أكثر من مرة، مثل البليدة، وهي مدينة أخينا الحبيب الشيخ محفوظ نحناح رحمه الله، ومثل المدية، وقد ذهبت إليها مرتين، إحداهما: كان بمناسبة احتفال بذكرى المولد النبوي، وكان من المتحدثين معي في هذه الليلة: أخونا الشيخ محفوظ نحناح، فشوّش عليه إخواننا من جماعة «جبهة الإنقاذ»، وأرادوا أن يسكتوه، واستخدموا أساليب لا تليق بأهل الدعوة، حتى إن بعضهم قذفه بالنّعل!

أدب التعامل مع العلماء والدعاة

ومثل هذه التصرُّفات الرديئة هي التي أضرّت بجبهة الإنقاذ.. ومهما يختلف رجال الدعوة، فلا يجوز أن ينزلوا إلى درك الإسفاف، وخُلُق أهل الجهل في معاملاتهم، وقد علّمنا القرآن أدب التعامل مع الناس كافّة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥). هذا ما ينبغي مع عامة الناس فكيف بالتعامل مع العلماء والدعاة والعاملين لنصرة دين الله؟

كذلك أذكر مدينة «بتنا» وقد زرتها أكثر من مرة أيضًا.

محاضرات ولقاءات

ومن الأنشطة التي قمت بها في تلك السنة: المحاضرات التي دعتني إليها الجامعات المختلفة في العاصمة، وفي قسنطينة، وربما في غيرها في بعض الأحيان.

وكذلك اللقاء للطلاب والطالبات في مساكنهم الجامعية، وخصوصًا الطالبات.

ومما أذكره: أني التقيت تجمّعًا حاشدا للطالبات في قسنطينة، تجمع فيه طالبات أكثر من جامعة، وقد ذكرني بلقاء مشابه كان معهن في العام السابق.

إجابتي عن حكم حضور الطالبات الحاسرات الرؤوس

وكان من الوقائع التي لا أنساها في المرة السابقة: أن سؤالًا قدِّم إلي من بعض

الطالبات الملتزمات: ما رأيك في الطالبات اللاتي يشهدن هذه المحاضرة الإسلامية، وهنَّ حاسرات الرؤوس، وربما كاشفات عن أجزاء أخرى من الجسد كالذراعين والساقين. وكأنَّ السائلة كانت تتوقَّع مني أن أقول: هؤلاء المتكشِّفات المتبرجات في جهنم، ولا يجوز لهنّ حضور هذه المحاضرة، والواجب عليكنّ، أن تمنعوهن!! إلى غير ذلك، مما قد يقوله بعض الدعاة. أما أنا فلا أقوله. ولهذا اتجهت بالجواب وجهة أخرى، وقلت: إنَّ حرص هؤلاء الطالبات على شهود هذه المحاضرة، والاستماع إليها: دليل على أن جذوة الإيمان في قلوبهن لم تنطفئ تمامًا، وأن الإيمان لا يزال له حضور عندهن. وما من واحدة فيكنّ إلا مرّت عليها فترة لم تكن فيها محجبة، ثم شرح الله صدرها للالتزام بالحجاب: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٩٤). وما يدريك ـ أيتها الأخت السائلة ـ لعل شهود هذه المحاضرة يحفز أختك هذه إلى التحجب، وعسى أن تريها في المرة القادمة مثلك وقد تسبقك، والهدى هدى الله.

حين أجبتُ بهذا الجواب: رأيت بعض الفتيات تغرورق أعينهن بالدموع. وهذا من دلائل الإيمان. هذا ما كان في المرة السابقة. أما في هذه المرة، فقد أقبل عليّ بعض الطالبات المحجّبات، وذكّرنني بما قلته في تلك الليلة، وأنّ هذه الكلمات هزتهنّ من الأعماق، وبعدها قرّرن الامتثال لما أمر الله، وارتداء الحجاب مختارات، وقد كنّ قبل غير ملتزمات.

خطب الجمعة في مسجد الأبيار

ومما لا أنساه من ألوان النشاط في تلك السنة: خطب الجمعة، فقد ألقيت عددًا من الخطب في عدد من المساجد، نسيت أسماءها، بعضها في قسنطينة، وبعضها في العاصمة. أذكر منها مسجد «الأبيار» وقد تجمّع فيه عشرات الآلاف . حتى حدثني سفير قطر في الجزائر السيد «أحمد العسيري»: أن ابنه ذهب في الساعة الحادية عشرة، أي قبل الصلاة بساعتين، ليجلس بجوار المنبر، ليكون أول من يصافح الشيخ يوسف بعد الصلاة، فهو يرى نفسه أحق بالشيخ من غيره. قال السفير: ولكنه حين ذهب وجد المسجد ممتلئًا على بكرة أبيه، وليس فيه موطئ لقدم، بحيث لم يجد سبيلًا للدخول فيه. وصلى في الساحة مع الألوف الأخرى من المصلين، الذين ضاقت بهم الميادين والشوارع.

مسجد الشيخ جراح

ومنها: مسجد الشيخ جراح، وأظن أنه من ثلاثة طوابق، امتلأت طوابق المسجد، وامتلأت ساحاته والميادين التي حوله، والطرق المؤدية إليه، وتعطّلت المواصلات، وقدَّر بعض الإخوة الحضور بأكثر من مائة وخمسين ألفا.. وتكرر هذا أكثر من مرة، وذكر بعض شهود العيان: أن الأعداد لا تقل عن مائتي ألف.

صحوة هائلة

لقد كانت الصحوة في الجزائر صحوة هائلة، لم أجد لها نظيرًا، حتى إنها فاقت الصحوة في مصر التي انطلقت منها الشرارة الأولى لهذه اليقظة.

وما زلت أذكر مشهدًا لم يبرح ذاكرتي، وهو مسجد صليت فيه المغرب مصادفة يومًا ما، أدركنا الوقت ونحن بقربه، فاقترح الأخ المرافق لي أن نعرج على هذا المسجد، لنصلي فيه. وكنت على وضوء، فنزلنا قبيل الأذان بقليل، وإذا بي أرى جموع الشباب، يتدفّق من كل جهة كالسيل العرم، على المسجد.. منظر يسر قلوب المؤمنين، ويغيظ الكفار والذين في قلوبهم مرض. وامتلأ المسجد وكأننا في صلاة جمعة!

وقد رآني المصلون، فطلبوا مني أن أقول فيهم كلمة، ولم أتأخر عن إجابتهم، وقد أثّر في المشهد غاية التأثير. إن هذه الأمة لا يزال فيها الخير، ولا يزال الإيمان هو المحرك الأول لها إذا وجدت من يحركها باسم الله.

مسجد الأرقم

وبعض المساجد لم يتح لي أن أخطب فيه، ولكن سعدت بإلقاء محاضرة فيه، مثل مسجد الأرقم الشهير، الذي كان إمامه وخطيبه الأخ الداعية الشيخ محمد سعيد الذي استشهد في أحداث فتنة الجزائر، وقد قدَّمني بكلمة طيبة. رحمه الله وغفر له.

توتُّر العلاقات بين الإسلاميين بعضهم وبعض

كان الجو في الجزائر متوترًا بين الإسلاميين بعضهم وبعض، وهذا مما يؤسف له، ولا

سيما بين الفصيلين الكبيرين: الجبهة الإسلامية للإنقاذ «الشيخ عباس مدني وجماعته»، وحركة المجتمع الإسلامي: حماس «الشيخ محفوظ نحناح وجماعته».

وقوفي على الحياد بين الجماعات

وقد التزمت أن أكون على الحياد بين الجماعات كلها، فلا أُحسب على واحدة منها، وإنما أكون للجميع، ومع الجميع، أنصح لهم، ولا أضنّ عليهم بمشورة، وأراهم جميعًا إخواني وأحبائي، وإن اختلفت مع بعضهم في الرأي الفقهي أو السياسي، فمن حق الناس أن يختلفوا في أمور الاجتهاد، ومن واجبهم أن يتسامحوا فيما يختلفون فيه، أو يتحاوروا حوله، وأن يتعاونوا في المجالات المتفق عليها، وما أكثرها.

دعاني الإخوة في حماس مرة إلى أن أشاركهم في تجمُّع ضخم دعوا إليه، وحضره عشرات الألوف، لألقي كلمة في الجماهير، فاعتذرت إليهم: بأن هذا التجمُّع له طابع سياسي وانتخابي، ولا ينبغي لمثلي أن يدخل في هذا المعترك بين الفئات المتنافسة بعضها وبعض. وأنا أوثر أن أكون للجزائريين جميعًا، لا لفصيل منهم دون فصيل.

أعتقد أنهم فهموا عني، وتقبلوا مني. ولا يسعني غير هذا.

وكان التنافس بين الفريقين قد وصل إلى مرحلة الصراع، مع أن الأهداف واحدة، ولكن الأساليب تختلف، والشخصيات أيضًا تختلف، وكل ميسر لما خلق له.

محاولات للتقريب والإصلاح بين جبهة الإنقاذ وجماعة حماس الجزائرية

حاولت جاهدًا أن أقرب بين الفريقين، ولا أقول: أوحّد بينهما، فالتوحيد غير ممكن في تلك الظروف، وأنا لا أرى مانعًا من تعدّد الجماعات الإسلامية، كما ذكرت ذلك في عدد من كتبي، ولا أوافق على فكرة: ضرورة توحيد الحركات الإسلامية، لتصبح حركة واحدة. لا مانع من التعدد والاختلاف إذا كان تعدد تخصّص، واختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد أو تناقض، أو صراع.

إن توحيد الجماعات والحركات يقتضي أن يتفقوا في الأهداف، وفي ترتيبها، وأن

يتفقوا في الوسائل والآليات والمناهج لتحقيقها. وأن يتفقوا على الأشخاص الذين يقودونهم. وهذا أمر يصعب تحقيقه.

لذا يكفينا التفاهم والتعاون والتنسيق بين بعض الحركات وبعض، وأن يقفوا في القضايا المصيرية صفًّا واحدًا، مهما يكن بينهم من خلاف في الجزئيات، كما أشار إلى ذلك القرآن بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤)، أي: عند المعركة ومواجهة العدو، يجب أن يتلاحم الجميع في جبهة واحدة، وصف متراص.

لهذا كانت محاولاتي مع إخواننا الإسلاميين في الجزائر تقوم على التقريب لا على التوحيد، على الأقل: أن يكفّ كل فريق لسانه عن الآخر، وأن يدع له المجال ليعمل على طريقته، فالميدان فسيح، ويتسع للجميع.

دعوة الأخوين: عباس ومحفوظ

وقد سعيت مرة إلى دعوة الأخوين الكريمين: الشيخ عباس والشيخ محفوظ، إلى فندق الأوراسي الذي أقيم فيه، رغبة في الإصلاح والتقريب، فاستجابا للدعوة، وحضرا عندي، وبحضور الأخ الكبير: الداعية والشاعر والدبلوماسي المعروف الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله.

وبدأت اللقاء بكلمة إيمانية، لترطيب القلوب بالمعاني الربانية، وتذكير الجميع بالدار الآخرة، وأن مقصدنا جميعًا هو رضا الله تعالى، لا مال ولا جاه ولا منصب، وأن أساس العلاقة بين الجميع يجب أن يكون هو الأخوة والحب في الله الذي يصحب أهله يوم القيامة: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧).

قال الشيخ عباس: نحن أصحاب الحق، ويجب أن يخلوا الطريق لنا، فنحن الذين أخذنا زمام المبادرة، وأسّسنا أول حزب إسلامي في الجزائر، فعليهم أن يفسحوا لنا الطريق، ولو كانوا هم الذين سبقوا وبادروا لفعلنا نحن ذلك.

قلت: يا شيخ عباس أنتم أخذتم زمام المبادرة، مشكورين ومأجورين إن شاء الله، ولكنهم موجودون على الساحة السياسية قبل إنشاء الحزب وبعده.

قال: موجودون، ولكن لا يعرفهم أحد.

وبدأ النقاش يحتد، والمنطق يغيب، وحاول الأستاذ الأميري بطريقته الدبلوماسية أن يُهدّئ الجو الذي اكفهر وتلبّد بالغيوم.

وقلت: يا أخوتنا إن التقارب والتفاهم لا يمكن أن يتمّ إذا ظلَّ كل فريق مصرّا على موقفه متشبثًا به، لا يتزحزح قيد أنمله عنه. إن الرسول الكريم علمنا في تسوية صفوف الجماعة: مبدأ مهمّا يتمثل في قوله صلى الله عليه وسلم: «لينوا بأيدي إخوانكم»[1].. فعند تسوية الصفوف لا بد أن يلين المصلي في الجماعة في يد إخوانه، بحيث يتقدّم هذا قليلًا ويتأخر هذا قليلًا، حسب الحاجة، حتى يستقيم الصف، أما إذا وقف كل مصلّ متخشّبا في موقعه، لا يريد أن يتحرك ولا أن يلين، فلا يمكن أن يستوي الصف أبدًا.

يا قومنا إن كنائس النصارى على اختلاف مذاهبهم التي يعتبر كل واحد منها أنه دين مستقل: يتقارب بعضهم مع بعض، بل إنّ النصارى حاولوا الاقتراب من اليهود ـ وهم أعداء تاريخيون لهم ـ فأصدروا وثيقة تبرئهم من دم المسيح عليه السلام. فلماذا نظل نحن المسلمين يصارع بعضنا بعضًا مع تحذير كتاب ربنا وسنة نبينا لنا من التفرق فيما بيننا؟!

وبعد قيل وقال: انصرف الجميع دون أيِّ حد أدنى من الاتفاق.

تشدُّد جماعة الإنقاذ

وكان الطرف المتشدّد منهم هم إخواننا في جبهة الإنقاذ.. كانوا يرون أنَّ الحقَّ لهم وحدهم، وأن الميدان يجب أن يفرغ لهم، وأنَّ على الجميع أن يتنحوا من طريقهم. وهذا منطق لا يقبل، لا في ميزان الشرع، ولا في ميزان السياسة.

---

(١) رواه أحمد (٥٧٢٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح عن عبد الله بن عمر.

قبول التعددية السياسية

والتعددية السياسية مقبولة شرعًا، وقد كتبت في ذلك بتوسّع وبرهنت عليه. وقلت: إن تعدد الأحزاب في السياسة يشبه تعدّد المذاهب في الفقه، فالأحزاب مذاهب في السياسة، والمذاهب أحزاب في الفقه.

وأشرت إلى أن سيدنا عليّا رضي الله عنه: أقرّ وجود حزب الخوارج في عهده، مع أنّ لهم مبادئ لا يقرهم عليها، وهي مناهضة له ولمفاهيمه ولسياسته، ومع هذا اعترف بوجودهم ومشاركتهم في الحياة الدينية والجهادية والسياسية، ما لم يبدءوا المسلمين بقتال.

غلبة النزعة الظاهرية على جبهة الإنقاذ

ولكن إخوتنا في الإنقاذ كانت لهم رؤى واجتهادات في السياسة الشرعية، لا يوافقهم عليها غيرهم، وهي مؤسَّسة أحيانًا على استدلالات خاطئة. وتغلب عليها النزعة «الظاهرية» التي تنظر إلى حرفية النصوص، لا إلى التعمُّق في مقاصدها.

وذلك أن «جبهة الإنقاذ» لم تكن جماعة واحدة، ولا تمثّل فكرًا واحدًا، فهي جبهة ضمّت عناصر مختلفة، بعضهم من السلفيين، وبعضهم من الجهاديين، وربما بعضهم من التكفيريين، وانضمّت إليها بعض النخب من تلاميذ مالك بن نبي (ممن يسمونهم دعاة الجزأرة) ومعهم أفراد من الإخوان، كما انضمت إليهم جماهير غفيرة لا انتماء لها، لكنها وجدت حزبًا رفع شعار الإسلام فدخلت فيه.

موقفهم من الديمقراطية

وكانت تصدر من بعض أعضاء جبهة الإنقاذ: تصريحات مثيرة تستفزّ الناس، مثل قول بعضهم عن الديمقراطية: إنها كفر! وهي مجازفة خطيرة، وقد سمعت هذا الكلام، وأنا في الجزائر، ورددت عليه في حينه، ثم رددت عليه في كتابي «فتاوى معاصرة»[1].

(١) انظر: فتاوى معاصرة (٢/ ٦٣٦ ـ ٦٥١) نشر دار القلم.

ومثل قول بعضهم: «لا تحالف في الإسلام» تعليقًا على ما نادى به الإخوة في «حماس» من ضرورة عمل «ميثاق وطني إسلامي» يتحالف عليه من شاء من الأحزاب. فردوا عليهم بحديث «لا حلف في الإسلام»[1] وهو حديث صحيح، لكنه وضع في غير موضعه، فقد تحالف الرسول مع خزاعة بعد صلح الحديبية[2]. وكان منهم مسلمون ومشركون.

وقد نسبوا إليهم أنهم قالوا: إذا وصلنا إلى الحكم، فلن نسلمه لغيرنا أبدًا. وإنما نتخذ الديمقراطية سُلَّما للوصول، فإذا وصلنا ألغينا الديمقراطية.. وقد سمعت بنفسي الشيخ عباس ينفي هذا في لقاء معه في تلفزيون الجزائر.

الشيخ علي بن الحاج

ولكن الشيخ عباس لم يكن هو وحده المتحدِّث باسم جبهة الإنقاذ، لعله هو المتحدِّث الرسمي، لكن هناك متحدثًا شعبيًّا، ربما كان أقوى منه صوتًا، وأوسع منه جمهورًا، ذلكم هو نائبه الشيخ علي بن الحاج، وهو يمثّل الاتجاه السلفي بمزاياه وعيوبه. وهو مُحبَّب عند الجماهير بلغته الهجومية على النظام الحاكم، والجماهير في بلادنا العربية تتعلق بكل من يهاجم الحكام، لأنه يشفي شيئًا من غليلهم، فيما يضمرونه من كراهية لهم وثورة عليهم.

لم أر الشيخ علي بن الحاج في الجزائر، ولكنّي رأيته مرة مصادفة في مطار جدة وصافحني بحرارة، ولكن لم يقدّر لي أن أقابله في الجزائر، إذ كان هو الذي يجب أن يسعى إليّ باعتباري ضيفًا عليه. ويبدو أن تتابع الأحداث وشدّتها وضغطها هو ما حال بينه وبين لقائي.

وفي اعتقادي أنه رجل مخلص، ولكن ينقصه ما ينقص كثيرًا من السلفيين من التعمُّق في فقه المقاصد، وفقه المآلات، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، وفقه الاختلافات،

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٠)، عن جبير بن مطعم.
(٢) وقد رددت على هذا الاستدلال في «فقه الجهاد» ص ٩٠٥، ٩٠٦.

وقبل ذلك كله: فقه الواقع والعصر الذي يعيش فيه، وهو الفقه الذي ركزنا على الدعوة إليه، وإلى تأصيله وتعميمه في حياتنا الآن، وخصوصًا بين أهل العلم فيها.

السفر إلى قطر لقضاء رمضان فيها

واقترب شهر رمضان، وكان لا بدَّ لي من أن أودِّع الجزائر مؤقتًا، لأذهب إلى قطر، لأقضي شهر رمضان في الدوحة بين أسرتي، وفي مسجدي ومع جمهوري الذي ينتظرني، فليس ممكنًا أن أقضي شهر رمضان في غير قطر، حدث ذلك مرة واحدة، حين أجريت عملية الانزلاق الغضروفي في ألمانيا في رمضان ١٤٠٥هـ يوليو ١٩٨٥م.

لذلك استأذنت الإخوة في الجزائر في السفر إلى الدوحة، وقالوا لي: كم كنا نتمنّى أن نصلي وراءك التراويح، ونستمتع بسماع القرآن منك، قلت: أنا أقرأ برواية حفص، وأنتم تقرءون برواية ورش، وكل مسجد له إمامه الذي اعتاد الناس أن يصلوا خلفه. ثم إني يشقّ عليّ أن أتخلف عن الجمهور الذي يصلّي معي منذ نحو ثلاثين عامًا، وقد ألفني وألفته، فأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، وإلى لقاء آخر بعد رمضان إن شاء الله.

رمضان في رحاب الدوحة

وقضينا رمضان في رحاب الدوحة، بما له من واجبات معهودة: درس العصر في مسجد الأمير الشيخ خليفة وبحضوره، وقد سألني عن حالي في الجزائر، فطمأنته عليه، وصلاة التراويح بجزء من القرآن، ودرس التراويح بعد الأربع ركعات الأولى، حيث نُصلِّي التراويح ثماني ركعات على ما اخترناه من قديم، ممَّا هو ثابت عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، مع الشفع والوتر، وإن كنت لا أنكر على من صلى عشرين. فلم يأت نصٌّ بتحديد العدد في صلوات التراويح، والعشرون مأثورة من عهد عمر رضي الله عنه. وقد سار عليها أئمة الحرمين الشريفين إلى اليوم.

ملتقى الفكر الإسلامي بالعاصمة عن الاقتصاد الإسلامي

وفي فترة وجودي في الجزائر، في شهر إبريل عُقد الملتقى الخامس والعشرون عن «الاقتصاد الإسلامي»، وكانت الملتقيات قبل ذلك تعقد في الإجازة الصيفية، ولكن قضية غزو الكويت، قد شغلت الأمة عن كل نشاط ثقافي أو فكري، وغرقت الأمة إلى أذقانها في متابعة الأحداث الدامية والمؤسفة.

لا أذكر ماذا حدث في هذا الملتقى مع أنه يتعلق بموضوع أنا من المتخصصين فيه ولي فيه جملة من الكتب.

كتابي «مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية»

ومن أهم ما صدر لي في تلك المرحلة (سبتمبر ١٩٩٠م) وما بعدها. كتاب «مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية» وهو أحد المداخل العلمية الضرورية لمن يريد أن يتخصَّص في دراسة الشريعة الإسلامية. وهو غير «المدخل لدراسة الفقه الإسلامي».. لأن الحديث عن الشريعة غير الحديث عن الفقه.

وفي هذا الكتاب عن الشريعة بدأت بفصل عن الشريعة وعلاقتها بالشرائع السابقة «اليهودية والنصرانية» وبالفقه والقانون. كما تحدثت عن مصادر الشريعة المعصومة، وهي تتحدّد في: القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم كلمة سريعة عن المصادر الأخرى، وكذلك تحدثت عن «المقاصد العامة للشريعة» من حيث تحقيقها لمصالح الخلق، ودرؤها المفاسد عنهم.

كما تحدّثت عن خصائص الشريعة، التي تجسّدت في: الربانية والأخلاقية والواقعية والإنسانية والتناسق والشمول.

وكذلك تحدثت عن عوامل السعة والمرونة في الشريعة، وهي خمسة عوامل: فصّلتها.

وأضفتُ فصلًا عن الشريعة في مجال التطبيق، وفصلًا آخر عن شروط النجاح لتطبيق الشريعة. ثم خاتمة في تقنين الشريعة الذي بدأ منذ ظهور «مجلة الأحكام» في أواخر العهد العثماني، ثم حدث فيه اختلاف، بين من يوجبه ومن يمنعه، وذكرت

مخاوف بعض العلماء من التقنين. ثم بيَّنت الاعتبارات التي تُرجِّح التقنين. ثم وضحت ملامح التقنين الشرعي الذي ننشده.

وهذا المدخل للشريعة، غير المدخل للفقه كما سبق، فهذا يعني أن نتحدّث عن معنى الفقه ونشأته ومذاهبه، ما بقي منها وما انقرض، والفقه غير المذهبي، وتاريخ الفقه وتطوره من عصر إلى عصر، بين الاجتهاد والتقليد، وقواعد هذا الفقه، وكتبه، ومحاولات تجديد الفقه في عصرنا، ومجامع الفقه الحالية ودورها.

وقد كتبت هذا الكتاب ليقدّم لطلاب كلية الشريعة في جامعة قطر، أولطلاب الدراسات الأدبية العامة. وكان تأليفه أو تمام تأليفه في الجزائر حين أعرت إليها من قطر في السنة الدراسية سنة ١٩٩٠ـ ١٩٩١م. ومن هناك أرسلته مع أحد الإخوة المسافرين ليسلِّمه إلى مكتبة وهبة، ولكن الأخ حدثت له ظروف أخرته عن إيصال الكتاب في موعده، حتى خشيت على الكتاب من الضياع. وربما لم يكن عندي صورة كاملة منه. وهذه مصيبة كبيرة لا يعرفها إلا من يعاني في تأليف الكتب حتى تكتمل وتتهيأ للطباعة والنشر.

والحمد لله، لقد طبع الكتاب ورأى النور، وقُرِّر في كلية الشريعة في قطر، كما قررته بعض الكليات في بلاد شتّى، منها: الكلية الأوربية الإسلامية وغيرها.

وهو كتاب صالح لأن يكون ضمن مكتبة المثقف المسلم العادي، فقد تجنّبت فيه وعورة المصطلحات، وغوامض المفاهيم، والعبارات القديمة التي لا يفهمها إلا المتخصّصون. وهو ما أحمد الله تعالى على أني أحسنته، واعتبرته من نعم الله تعالى وفضله عليّ. فله الحمد والمنة.

ندوة الإمام الشاطبي

التربية عند الشاطبي

كما عقدت في شهر مايو من تلك السنة (١٩٩١م) ندوة عن الإمام الشاطبي.

وقد كُلِّفت بأن أكتب بحثًا عن الإمام الشاطبي، فوعدتهم أن أكتب عن «التربية عند الشاطبي»؛ إذ الموضوعات الأصولية والفقهية سنجد كثيرين يكتبون عنها، ولكن ربما كان موضوع التربية يغفل عنه كثيرون.

وقد تنبّهت إلى هذا الموضوع حين كنا نقرأ «الموافقات» في السجن الحربي، وقد صحبته معي، وبدأت أقرأ فيه، فوجدت في المقدمات العلمية التي قدم بها لكتابه: نظرات تربوية أصيلة، تتفق مع أحدث نظريات التربية.

وزاد ذلك تأكيدًا عندي: أن المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن (مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي الآن): كان قد طلب إليّ منذ سنوات أن أكتب عن الشاطبي «مربيًا» ضمن عدد من رجال التربية في التراث الإسلامي، ولم تمكِّنّي الظروف والمشاغل المتكاثرة من أن أستجيب لطلب المجمع، فاعتذرت لهم آسفا، وبقي الموضوع في ذهني.

فلما كانت هذه الندوة، وجدتها فرصة لإحياء الفكرة القديمة، والبحث عنها في تراث الإمام الذي عرف بالأصول والمقاصد، ولم يعرف بالتربية.

اهتمام الشاطبي بأركان التربية في مقدّمات الموافقات

ورجعت إلى مقدِّمات الموافقات، فوجدته قد اهتم بكل أركان التربية: من المادة

العلمية، والأستاذ الذي يعلمها، والطريقة التي يوصل بها مادته، والطلاب الذين يتلقون هذه المادة، والكتاب الذي ينظر فيه هذه المادة.

وسطرت هذه المعاني في بحثي أو محاضرتي، التي ألقيتها في هذه الفترة، واستحسنها الحاضرون، وعقّب عليها المعقبون.

وقد علمت من تعقيباتهم: أن الغربيين قد اهتموا بهذا الجانب من جوانب الشخصية العلمية الشاطبية. ولم يغفلوا عنه، وإن ذكر بعض المعقبين أني قد استوعبت في بحثي نقاطًا لم يلتفتوا إليها.

وأنا في الحقيقة لم أقرأ ما كتبه الغربيون أو المستشرقون عن هذا الموضوع في حياة الشاطبي العلمية، ويبدو أنه لم يترجم إلى العربية، أو تُرجم ولم أطلع عليه. وكنت أحبُّ أن أطلع عليه، لأعرف فيم وافقتهم، وفيم خالفتهم. وأستفيد من نظراتهم وتحليلاتهم حول الموضوع، فالحكمة ضالة المؤمن، يلتمسها من أي وعاء خرجت.

سلسة «نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام»

هذه السلسلة تعنى بأمر كبير له خطره في الفكر الإسلامي، وأثره على الدعوة الإسلامية، وعلى العاملين والناشطين على الساحة الإسلامية. فهي تعمل على توحيد رؤاهم العقدية والفكرية، واتجاهاتهم الأصلية، ومواقفهم الأساسية، وإن اختلفوا في الأمور الفرعية والتفصيلية.

الأصول العشرون للإمام الشهيد حسن البنا

وتتخذ هذه السلسلة من «الأصول العشرين» للإمام حسن البنا: محورا تدور حوله، وتنطلق منه للشرح والتأصيل.

وأعني بهذه الأصول: المفاهيم الأصلية التي جعلها رحمه الله أساسا «لوحدة الفهم» عند الإخوان المسلمين، بل قدّمها لاتحاد الجمعيات الدينية في مصر، لتكون «أساسًا فكريًّا تجتمع عليه»، وتعمل تحت رايته. وكوّنت ركن «الفهم» في «رسالة التعاليم» التي كتبها حسن البنا لتوجيه الإخوان العاملين، وقال في مقدمة رسالته: «إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجِّه هذه الكلمات، وهي ليست «دروسًا تحفظ» لكنها «تعليمات تنفذ»! أما غير هؤلاء فلهم دروس ومحاضرات، وكتب ومقالات، ومظاهر وإداريات، ولكلٍّ وجهةٌ هو مولّيها، فاستبقوا الخيرات، وكلًّا وعد الله الحسنى.

ومن قرأ هذه الأصول وتدبّرها حقّ التدبر، وكان له اطلاع على مصادر المعرفة الإسلامية: أيقن أنها تمثل خلاصة مركزة، لقراءات طويلة، ودراسات عميقة، في أصول الدين، وأصول الفقه، وأصول التفسير، وأصول الحديث، وأصول السلوك، وقواعد

الفقه، مع عقلية هاضمة مستوعبة موصولة بالحياة والعصر، قادرة على التأصيل والترجيح.

وقد صاغ الأستاذ البنا هذه الأصول صياغة موجزة مركزة حكيمة معتدلة، حاول فيها أن يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق. ولهذا ترك بعض المسائل دون أن يرجح فيها رأيًا، مثل مسألة التوسل بالنبي والصالحين.

عنايتي بالأصول العشرين

وقد عُنيت بهذه الأصول وشرحتها منذ كنا معتقلين في السجن الحربي، ولاسيما في أواخر مدة الاعتقال أي في سنة ١٩٥٦م. وبدأت أشرحها لبعض الإخوان الذين استحسنوا شرحي، وحثّوني على أن أستمر في ذلك وأستكمله بعد خروجنا من السجن إن شاء الله.

وعندما زرت الأردن صيف سنة ١٩٦٦م مقيماً في مدينة الخليل العريقة: زرت مدينة إربد، والتقيت الإخوة هناك في المدرسة الإسلامية لمدة ثلاثة أيام مخيمين بها. وكان من برنامجي في هذه الأيام شرح هذه الأصول العشرين بطلب من الإخوة حفظهم الله. وقد سرّوا بشرحي لها، وطلبوا إليّ أن أعمل على كتابة شرح لها، فيستفيد منه الجميع.

شرحي المسجَّل للأصول العشرين

وفي قطر طلب مني عددٌ من الإخوة أن ألتقيهم، لأشرح هذه الأصول شرحًا شفهيًّا يسجّل على الأشرطة، ويعمَّم بعد ذلك على الإخوة في أقطارهم. وقد فعلت ذلك، وسجّلت في نحو عشرة أشرطة كاسيت، وُزِّعت بعد ذلك على نطاق واسع، واستقبلها الإخوة بحفاوة واهتمام. وطلب مني بعضهم أن أفرغها مكتوبة فرفضت؛ لأنَّ للكتابة لغة لا تتوافر في الشرح الشفهي المرتجل، وأني أنوي كتابة شرح خاص لها أفيض فيه وأؤصل وأفصّل إذا يسر الله.

كتابتي حول الأصول العشرين في مجلة الدعوة

وعندما بدأت مجلة الدعوة في الظهور مرة أخرى في عهد المرشد الثالث الأستاذ عمر

التلمساني رحمه الله، بدأت أكتب فيها بعض المقالات حول هذه الأصول، ثم توقفت.. إلى أن يسَّر الله لي العودة إلى الكتابة المنهجية المطولة حول هذه الأصول، فهي ليست مجرَّد شروح، بل هي بحوث أصيلة طويلة حول مفاهيم هذه الأصول ومعانيها. بحيث إنَّ بعض الأصول شرح الأصل الواحد فيها في كتاب كامل، كما في الأصل الأول، الذي يتحدَّث عن «شمولية الإسلام»، والأصل الثاني الذي يتحدَّث عن «المرجعية العليا للإسلام»، الممثَّلة في القرآن والسنة، والأصل الخامس الذي يتعلق بالسياسة الشرعية، أو برأي الإمام ونائبه، ومتى يعمل به.. إلخ.

شرحي ١٤ أصلًا في ستة أجزاء

هذا وقد صدرت من شرح هذه الأصول ستة أجزاء تضمَّنت أربعة عشر أصلاً، وبقي منها ستة أصول، أسأل الله أن يعين على إتمامها، وآخرها: الأصل الذي يتعلق بقضية «التكفير»، وقد كتبتُ منه فصولًا من قديم، وما زال في حاجة إلى التكميل، وما توفيقي إلا بالله.

شرح الأصول العشرين لشيخنا الغزالي

ولقد شرح أكثر من واحد من دعاة الإخوان هذه الأصول العشرين، وأعتقد أن أفضل من شرحها هو شيخنا محمد الغزالي وسمَّى شرحها «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين» وقد هاجم فيها دعاة التديّن المنقوص، أوالتدين المتنطع، بأسلوبه الساخر، وبعباراته البليغة، وتصويراته الأدبية، واقتباساته القرآنية والنبوية، كان الشيخ بها نسيج وحده بحق.

وهذا الكتاب للشيخ كان بداية لسلسلة من الكتب الناقدة للغلو في الدين، تتفق كلها في الموضوع وتختلف في الأساليب والدلائل، مثل: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية.. هموم داعية.. علل وأدوية.. الطريق من هنا.. الحق المر.. إلخ.

جائزة البنك الإسلامي للتنمية
في الاقتصاد الإسلامي لعام ١٤١١هـ

أبلغني معالي الأخ الفاضل الدكتور أحمد محمد علي رئيس البنك الإسلامي للتنمية برسالة منه: أن البنك قد اختارني لنيل جائزة البنك في الاقتصاد الإسلامي؛ لما بذلته من جهد في خدمة هذا الاقتصاد.

وسيعلن عن هذا في اجتماع محافظي البنوك الإسلامية في مدينة طرابلس عاصمة الجماهيرية الليبية فيُرجى حضوركم.

وكانت الجائزة مقدارها عشرون ألف دينار إسلامي، والدينار يقل قليلا عن الدولار. وقد أصبحت الآن ضعف ما كانت عليه.

تخوفي من الذهاب إلى ليبيا

وكنت متخوّفًا من الذهاب إلى ليبيا، ولم أذهب إليها منذ سنة ١٩٧٢م، حيث شاركت في ندوة التشريع الإسلامي، وقد شاركت فيها ببحثي الذي نشرته بعنوان: «شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان».

وأنا أعلم أن للدولة موقفًا من الإسلاميين، منذ سنين، ولم تنحل العقدة معهم بعد، وأن كتبي ممنوعة من الدخول.. إلخ، فكيف آمن أن أدخل ليبيا، وقد يحدث شيء ليس في الحسبان؟

سفري مع الشيخ صالح كامل في طائرته الخاصة

المهم أن الله يسَّر لي وسيلة لم تكن في حسابي، فصديقنا الشيخ صالح كامل مدعوٌّ إلى هذا المؤتمر بوصفه صاحب عدد من البنوك الإسلامية (بنوك البركة) وهو يذهب في طائرته الخاصّة، وقد دعاني إلى السفر معه، فقبلت ضيافته، واستجبت لدعوته.

وعند الدخول، لم يعترض أحد على اسمي، ولا ثار أي إشكال. ودخلنا طرابلس التي لم أرها من نحو عشرين سنة، وقد رأيتها لم تتغير كثيرًا.

وقد أعلن عن الجائزة في المؤتمر، وطلب مني أن أقول كلمة، فارتجلت كلمة مناسبة.

وبعد يومين أو ثلاثة، عُدت مع الشيخ صالح بطائرته إلى القاهرة، ونزل هو بالقاهرة، واستكملت بنا الطائرة الرحلة إلى جدة، ومن جدة أخذت طائرة الخليج إلى الدوحة.

احتفال بمقر البنك بجدة

وبعد شهرين أو أكثر، دعاني معالي الدكتور أحمد علي إلى حضور احتفال بمقر البنك يشرف عليه معهد التدريب والبحوث في جدة، وإعداد محاضرة بهذه المناسبة، وسيكون جمهوره من صفوة المثقفين والمهتمين.

محاضرتي عن شروط النجاح لمؤسسة الزكاة

وأعددت بالفعل محاضرتي عن الشروط المناسبة لنجاح مؤسسة الزكاة. وقد نشرت بعد ذلك، وكان من المدعوين لحضور هذا الحفل الفقيه الكبير العلامة الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله، وكان لديه عذر منعه من الحضور، ولكنه أرسل للأستاذ الدكتور عبد الحميد الغزالي مدير المعهد برسالة يشارك بها في هذا الاحتفال. وقد نُشرت في الكتاب التذكاري عن يوسف القرضاوي بمناسبة بلوغه السبعين. وهي رسالة أعتز بها من فقيه كبير، وعالم رباني له وزنه وقدره عربيا وإسلاميًّا وعالميًّا، وقد نشرناها في الـملاحق في هذا الكتاب[1].

---

(١) (انظر: الملحق رقم ٢).

مؤتمر مناصرة البوسنة والهرسك
في مدينة زغرب (عاصمة كرواتيا)

اشتداد وطأة الصرب على المسلمين

كانت حروب البوسنة والهرسك، قد بلغت أشدها، واشتدّت وطأة الصرب على المسلمين، الذين كان لهم وجودهم التاريخي في هذه البلاد من قرون، ولهم مواريثهم الدينية والثقافية والحضارية. لهم جوامعهم وجامعاتهم، ولهم أوقافهم ومكتباتهم، ولهم كتبهم ومؤلفاتهم. وهم من أهل البلاد الأصليين ورثوها أبا عن جد.

ولكن الصّرب نصارى أرثوذكس متعصّبون شديدو التعصب، وقد ورثوا جيش «يوغسلافيا» الذي كان يعدّ رابع جيش في أوربا. وقد أفرغوا حقدهم ونقمتهم على المسلمين، كأنما يريدون ألاَّ يبقوا لهم من باقية. والمسلمون لا يكادون يملكون بندقية عادية يدافعون بها عن أنفسهم.

وكانت وكالات الأنباء تذيع بعض ما يجري هناك، لا كل ما يجري، ولكن هذا البعض تشيب من هوله الولدان، لما فيه من قسوة ووحشية، قلما تحدث في التاريخ إلا نادرا، ولكن العالم يسمع ويرى، ولكنه لا يحرك ساكنا.

قتل وحوش الصرب ألوف المسلمين بوسائلهم الجهنمية، ودفنوهم في مقابر جماعية اكتشفت بعد، ولا تزال تكتشف إلى اليوم.

وقد كان وقع هذه الأنباء الأليمة على أبناء الأمة الإسلامية في كل مكان: وقع الصاعقة، وبدأ كثيرون من شباب الإسلام يبدون رغبتهم في نصرة إخوانهم المستضعفين

في الأرض، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ (النساء: ٧٥). وإن كان الوصول إلى البوسنة عسيرًا، والحصول على قطعة سلاح أعسر وأشد. ولكل مجتهد نصيب...

اغتصاب الصرب للنساء المسلمات

ولم يكن الصرب يكتفون بذبح الرجال فقط، بل ويغتصبون النساء اغتصابا، والاغتصاب بالنسبة للمرأة المسلمة جريمة وفضيحة ومذلة، وهي تفضّل الموت على أن يقع لها ذلك. ولكن هؤلاء الوحوش الآدميين اقترفوها بكل وقاحة، ولم تكد تسلم منهم صبية ولا عجوز. وتحكى في ذلك وقائع وفظائع لا يصدقها عقل.

اقتراح الأستاذ فهمي هويدي

وكان أخونا الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ فهمي هويدي مهمومًا بأمر البوسنة والهرسك، وينبه المسلمين في مقالاته التي تنشر في عدد من الصحف إلى ما يجري في البوسنة. حتى إنه اقترح أن يؤجل الناس الحج هذا العام، ويجعلوا نفقاته لإنقاذ البوسنة والهرسك.

دعوي الأستاذ محمد عمر الزبير لإقامة مؤتمر في زغرب

وكان أخونا الحبيب الذي يتوقَّد غيرة على قضايا الإسلام، ولا يكتفي بالتحرق، حتى يتبعه بالتحرك، وهو الأستاذ الدكتور محمد عمر الزبير، يسعى لعمل ما، لنصرة إخواننا الذين يصرخون ولا يجدون من يُصرخهم.

وكان من سعيه: أن اتصل بفضيلة شيخنا الغزالي، وبي، وبالأستاذ فهمي هويدي، وبعدد من الشخصيات الإسلامية المهتمة بأمر الأمة، وقضاياها، لإقامة مؤتمر في زغرب عاصمة كرواتيا، من أجل إخواننا البوسنيين، فكَّ الله أسرهم، وجَبَر كسرهم، وعجَّل نصرهم.

الاستجابة لدعوته الكريمة

ولم يسعنا إلا أن نستجيب لهذه الدعوة الكريمة. فذهبنا عن طريق «النمسا» ومنها إلى زغرب، والتقينا هناك في زغرب، وهي عاصمة الكروات، وفي البلد أقلية إسلامية، ويبدو أنها كان لها شأن في يوم من الأيام قبل عهد الشيوعية، حتى إنَّ من أكبر الميادين فيها ميدانًا يسمى «ميدان الجامع»، والجامع موجود فعلا، ولكنه حُول إلى متحف.

وهناك مركز إسلامي في المدينة أُسّس حديثًا صلينا فيه الجمعة، ثم انعقد المؤتمر هناك، وحضره مَن دعي من البلاد العربية والإسلامية، ومن انضم إلينا من الإخوة في البوسنة والهرسك.

زيارة المعسكرات

وكنا قبل ذلك، زرنا المعسكرات التي تؤوي الشيوخ والأطفال والنساء. أما الشباب، فهم إما استشهدوا وإما ذهبوا للقتال. وكانت حالة الناس في غاية البؤس، فهم يحتاجون إلى كل شيء، إلى الغذاء والكساء والغطاء والدواء والبندقية وغيرها. وكان معنا الأخت الشاعرة الداعية الأستاذة علية الجعَّار، وقد أحضرت معها بعض الحلوى لتوزعها على الأطفال، الذين كانوا يتكاثرون عليها، لينالوا حظّهم منها.

انعقاد المؤتمر

وانعقد المؤتمر، (١٩٩١م) وحضره مندوبو الحزب الذي يرأسه الدكتور المثقف المجاهد علي عزت بيجوفيتش، وحضر الشيخ الدكتور مصطفى سيرتش، الذي عرفناه لأول مرة، وهو حاصل على الدكتوراه من كلية اللغة العربية في الأزهر، وعلى دكتوراه أخرى من الغرب.

وتحدّث الإخوة الضيوف، وفي مقدِّمتهم الشيخ الغزالي، والأستاذ هويدي، والشاعرة علية الجعار، ود. الزبير، وتحدَّث الفقير إليه تعالى، وتحدث الإخوة البوسنيون، وأفاض الجميع فيما يجب على الأمة الإسلامية أن تقوم به لإنقاذ إخوانهم في البوسنة والهرسك،

وبخاصة: أن الإسلام يوجب على الأمة الإسلامية نصرة إخوانهم إذا غزوا في أرضهم، أو اعتدي على دمائهم وأعراضهم وحرماتهم، وإذا عجز القوم عن الدفاع عن أنفسهم، وجب الدفاع على مَن يليهم، ثم مَن يليهم، حتى يشمل المسلمين كافة، فالأمة مسؤولة مسؤولية تضامنية بمقتضى العقيدة المشتركة والأخوة المشتركة، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، «المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»[1].

إجابتي عن اقتراح الأستاذ فهمي هويدي

وقد سألني بعض الإخوة عما قاله الأستاذ فهمي هويدي: من أن إنقاذ البوسنة أهم من الحج هذا العام!

قلت لهم: إن فقهه مؤسَّس على اعتبار شرعي صحيح، وهو أن الفرائض إذا تزاحمت أو تعارضت، يجب أن يقدم أولاها، بالترجيح.. وفي الشرع: إذا تعارض الفرض المتعلق بحق الفرد، والفرض المتعلق بحق الجماعة أو الأمة، يقدم ما يتعلق بحق الأمة.

ولهذا أجمع الفقهاء على أن الجهاد إذا كان فرض كفاية، فلا بد فيه من استئذان الوالدين حسب نص الأحاديث الصحاح. ولكن إذا كان الجهاد فرض عين، كما إذا دخل العدو بلاد المسلمين، فهنا يسقط استئذان الوالدين: لأن بر الوالدين فرض، والدفاع عن أرض الإسلام فرض، ولكن بر الوالدين يتعلّق بحق فردي والدفاع عن أرض الإسلام يتعلّق بالجماعة أو الأمة، وما يتعلق بحق الجماعة يقدم على ما يتعلق بحقوق الأفراد.

ومع هذا نحن في غنى عن منع الناس من أداء الفريضة، فالواقع أن الموسم في بعض السنوات يضمُّ مليونين أو ثلاثة ملايين من المسلمين، والإحصاءات تؤكد أن أكثر من ٦٠٪ من الحجاج يحجُّون للمرة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو العشرين أو ما هو أكثر.

---

(١) رواه أحمد (٦٦٩٢) وقال مخرّجوه: صحيح وهذا إسناد حسن، وأبو داود (٢٧٥١)، عن عبد الله بن عمرو.

وهؤلاء هم الذين نطالبهم: بأن يتركوا الحج هذا العام، ويخصصوا نفقات حجّهم لنصرة إخوانهم في البوسنة.

سؤالي عن حكم إجهاض حمل المغتصبات من الصرب

وكان أخطر الأسئلة التي وجهت إلي في أثناء المؤتمر: سؤال من الأخوات المسلمات اللاتي اعتدي على أعراضهن قهرًا، واغتصبن اغتصابًا تحت إكراه السلاح، وكان الصربيون المتوحشون، يفعلون ذلك انتقامًا وإذلالًا للمسلمين والمسلمات، وقد حمل من هذا الاغتصاب عدد منهن، وهنَّ يكرهن هذا الحمل في بطونهن من أعدائهن وأعداء دينهن، ويردن التخلّص منه بالإجهاض، ولا يردن ولدا يحمل هذه الذكرى السيئة والمريرة.

وقد أجبتهم عن هذا السؤال في حينه، وسجَّلت الإجابة في كتابي فتاوى معاصرة، الجزء الثاني[1].

وكانت خلاصة الفتوى: أن هؤلاء الأخوات الممتحنات لا ذنب عليهن إطلاقًا في هذه البلوى، ولا يجوز لمسلم ولا لمواطن أن يوجِّه إليهن أي إساءة بالعبارة ولا بالإشارة، لأنهن فعلن ما فعلن تحت سيف الإكراه، والمكره معذور بالإجماع، وقد أجاز الإسلام للمكره أن ينطق بكلمة الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ (النحل: ١٠٦)، وقال تعالى عن المكرهات على البغاء: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٣٣).

وعلى الإخوة البوسنيين أن يتقدَّموا للزواج منهن، وعلى المجتمع أن يحتضن مواليدهن إذا ولدوا، ويربيهم على الإسلام، وقد ولدوا على الفطرة، ولا يحملون وِزْر آبائهم، ولعلَّ الله يخرج منهم ذرية صالحة تخدم الإسلام.

وأزيد هنا: أن من لم يبلغ حملها الأربعين يومًا، فيمكنها أن تجهضه، كما هو رأي

---

(١) انظر: الجزء الثاني من كتابي «فتاوى معاصرة» ص ٦٠٩.

جماعة من الفقهاء، بل أجاز بعضهم الإجهاض في مثل هذه الحالة إذا لم يبلغ الحمل مائة وعشرين يوما، وهي التي جاء فيها الحديث الصحيح: «أنه ينفخ فيه الروح».

تكوين لجنة لزيارة أمراء الخليج

وقد كان من قرارات المؤتمر: تكوين لجنة تمرُّ بأمراء دول الخليج العربية، وتحرضهم على مساعدة إخوانهم في البوسنة، وتأييدهم ماديًّا وأدبيًّا، في كل المجالات التي يحتاجون إليها.

وكانت اللجنة مكَوَّنة من الشيخ الغزالي ومني ومن الأستاذ فهمي هويدي، والدكتور الزبير، والدكتور مصطفى سيريتش، وبعض الأشخاص نسيتهم.

وقد قابلت اللجنة أمير دولة قطر السابق الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، وكان استقباله للجنة حفيًّا، ووعد خيرًا.

وطلبت اللجنة مقابلة الشيخ زايد آل نهيان، رئيس الإمارات العربية المتحدة، بواسطة مستشاره الثقافي الدكتور عز الدين إبراهيم، وقد رتّب للجنة لقاء معه في ضحى أحد الأيام، ولقيناه في الموعد المحدّد، وقد رحَّب بنا، وكانت زبدة كلامه معنا: إننا يجري علينا ما يجري على إخواننا، فما يتفقون عليه فنحن معه، فنحن لسنا الدولة الكبرى، في البلاد العربية، ولا الدولة الأغنى، ولا الدولة الأقوى.

وبعد ذلك ذهبت اللجنة إلى المملكة، واعتذرت عن عدم اللحاق بهم لواجبات أخرى، كنت مرتبطا بها.

أحداث الجزائر

متابعتي بعقلي وقلبي صحوة الجزائر الهائلة

كنت مع بعد جسمي عن الجزائر، أتابع ما يجري فيها بعقلي وقلبي، أفرح لما يفرحها، وأحزن لما يحزنها، فقد كنت أرى نفسي مِـمَّن شاركو مع شيخنا الغزالي، في صنع صحوتها الهائلة، التي هدمت ما بناه الاستعمار في قرن وثلث القرن من الزمان، وأنشأت جيلًا جديدًا من المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، رضي بالله ربّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا ورسولًا، وبالشريعة مرجعًا ومنهاجًا.. فكنت أخاف على هذه الصحوة أن تضيع ثمراتها بين غلو بعض الإسلاميين، وطغيان بعض العسكريين (جنرالات فرنسا كما يسمونهم)، وتسيُّب بعض الفرنكفونيين، وأطماع بعض الغربيين، الذين عزَّ عليهم أن تفلت الجزائر من قبضتهم، وتعود إلى أصالتها، وترجع إلى الإسلام بقوة.

متابعة أحداث الجزائر المؤلمة

كنت أتابع الجزائر وأحداثها، وأتألم لآلامها، وما يسفك فيها من دماء، وما يحدث فيها من فتن ومذابح، لا يدرى من المسؤول عن إشعال نارها: أهي السلطة ورجال الأمن والجيش؟ أم هي الجماعات المسلحة التي تنتمي إلى الإسلام؟ فقد اختلط الحابل بالنابل، ووقع من الفظائع ما تقشعر من هوله الأبدان، وما تشيب لشناعته الولدان، من قتل الأطفال والنساء والشيوخ ومن لا ناقة له ولا جمل في السياسة ولا في الجهاد.

وكان أشدّ ما آلمني واعتصر قلبي من الأسى والأسف: أن يقتل الإسلاميون بعضهم بعضًا، بمجرَّد الظنون والشبهات، مع أن الأصل في النفوس هو العصمة، والأصل في الدماء هو الحرمة، ولا يباح قتل امرئ مسلم إلا ببينة ظاهرة، تقطع الشك باليقين، فليست استباحة دماء الناس بالأمر الهين، وقد قرر القرآن مع كتب السماء: أنه ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢) وقال الرسول الكريم:«لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل امرئ مسلم بغير حق»[١].

تحسُّرِي وإنكاري على قتل الأخ محمد أبو سليماني

ولهذا ذهبت نفسي حسرات، وذرفت عيني عبرات، حين سمعت نبأ قتل الأخ الداعية الصالح، والمسلم الملتزم، ذي الخلق الكريم، والسلوك المستقيم: الشيخ محمد أبو سليماني نائب الشيخ محفوظ نحناح زعيم حركة المجتمع المسلم (حماس)، والذي يشهد له الإسلاميون جميعًا في الجزائر بحُسْن السيرة، وطهارة السريرة، واستقامة المسيرة.

ولقد عبَّرت عن فيض مشاعري برسالة تقطر أسى وحزنًا وإشفاقًا على الجزائر، أرسلتها إلى الإخوة هناك، ونشرتها الصحف المعنية، تتضمَّن مواساة وتعزية من ناحية، وتتضمن إنكارًا وغضبًا للحادثة من ناحية ثانية، كما تتضمن نصيحة وتوجيهًا وتحذيرًا من ناحية أخرى[٢].

وبعد مدة قليلة فاجأتنا الصحف وأجهزة الإعلام بنبأ اغتيال الأخ الكريم، والداعية الصالح، والصحفي الملتزم، الشيخ لحَسن بن سعد الله النائب الثاني لرئيس جمعية الإصلاح والإرشاد، الذي اغتيل أمام داره بست رصاصات قضت عليه في الحال.

---

(١) رواه الترمذي (١٣٩٥) مرفوعا وموقوفا وقال بعد سند الموقوف: هذا أصح من الحديث المرفوع، والنسائي (٣٩٨٧) عن عبد الله بن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٤٣٩).

(٢) انظر نص الرسالة: في الملحقين رقم ٤، ٥.

وقد أرسلت إلى الإخوة في الجزائر نداء بمناسبة هذه الفاجعة، أدعوهم إلى أن يتّقوا الله في أنفسهم وإخوانهم، وأن يكفّوا عن سفك دمائهم بعضهم بعضا، فهذا من عمل الجاهلية التي أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع ألاّ نعود إليها: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض».[1]

(١) سبق تخريجه، وانظر الملحق رقم٦.

التقائي لطفي الخولي
١٩٩١/١١/١٢م

من الشخصيات التي لقيتها في تلك الفترة ممن زاروا قطر: الكاتب اليساري المعروف، الأستاذ لطفي الخولي، الذي يكتب في الأهرام باستمرار.

ندوة في تليفزيون قطر

وقد أراد تلفزيون قطر: أن نلتقي أنا وهو في ندوة حول القضية الفلسطينية. وقد التقينا قبل الندوة وتعارفنا باعتبارنا «بلديات» كما يقول المصريون، فهو من قرية القرشية، وأنا من صفط تراب، وبينهما عدة كيلومترات. كما أنَّ بيننا صلة أخرى، وهي: أن أستاذنا البهي الخولي، يعتبر عم لطفي. وقد حدَّثني أنه التقى عمه عدة مرات، واستمع إليه، وأعجبته نظرته العميقة إلى الدين ودوره في الحياة، ولا سيما الجانب الروحي فيه، وأنه لا ينظر إلى الدين نظرة سطحية تهتمّ فيه بالشكل دون الجوهر، كما نرى للأسف عند كثير من علماء الدين.

قلت له: وله رؤية أخرى في النظر إلى الجانب الاقتصادي، وفيها: ألف كتبه: «الثروة في ظل الإسلام»، «الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية»، وكتابه «الاشتراكية بين النظرية والتطبيق».

الإيمان بالربوبية فطرة بشرية

وفي الندوة تعرّضنا للشيوعية وموقفها من قضية الألوهية، وأنها تقول: لا إله،

والحياة مادة. وقلت فيها: إن الإيمان بالألوهية فطرة بشرية. تشترك فيها كل الأمم، كما قال أحد المؤرخين: قد وُجدت في التاريخ مدن بلا قصور، ومدن بلا حصون، ومدن بلا مِدارس، ولكن لم توجد أبدًا مدن بلا معابد!

وذكرت له قصة أحد المصريين الذين تعلَّموا في أوربا، ثم عاد ليعلن على الناس: أنه ملحد، فقال له بعض الحضور: لا نصدقك، أنت تخدع نفسك. فقال لهم في حماسة: والله العظيم أنا ملحد!

وقد أُعجب الخولي بهذه الحكاية، فكان يردِّدها بعد ذلك في كل مناسبة.

أهمية الدين في المعركة بيننا وبين اليهود

وفي الندوة اختلفنا في قضية مهمة فيما يتعلق بفلسطين، وهي: مدى أهمية الدين في المعركة بيننا وبين اليهود. فكان هو يرى أن الأهمية للإعداد العلمي والتكنولوجي، ونقل العرب إلى التقدم.

وقلت له: أنا أول الداعين إلى ذلك كله، وأراه فريضة وضرورة، ولكن للدين في أمتنا أهمية كبرى، فهو الذي يعطي الفرد الحوافز، وهو الذي يحرِّضه على التضحية والبذل بلا تردّد ولا تخوف، وهو الذي يجمع القلوب على الهدف الكبير، ولا سيما في قضية فلسطين خاصّة، لأنها تتعلق بأرض لها حرمتها وقدسيتها عند المسلمين، أرض الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.. ثم إنّ عدونا هنا يستخدم الدين بقوة وبراعة في هذه القضية، وعلى أساس عقيدة التوراة، ومفاهيم التلمود، جمع اليهود من أنحاء العالم إلى «أرض الميعاد» وما زال إلى اليوم يذيع فيهم: أنّ الهجرة واجبة دينيا عليهم، وما زال للأحزاب الدينية سلطان فيهم، للحاخامات كلمة مسموعة. حتى العلمانيون منهم الذين لا يؤمنون بالدين، يؤمنون بضرورة توظيف الدين في المعركة مع العرب والمسلمين.

فلا يجوز أن يدخلوا المعركة معنا يهودا، ولا ندخلها نحن مسلمين، ولا يجوز أن يقولوا: التوراة، ولا نقول نحن: القرآن. ولا يجوز أن يقولوا: الهيكل، ولا نقول نحن: الأقصى.

وفاة الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري سنة ١٤١٢هـ

في ١٢ من شوال ١٤١٢ هـ الموافق ١٣ أبريل ١٩٩٢م أبلغني بعض الإخوة بنبأ وفاة الأخ الحبيب، والصديق الكريم، الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، الشاعر والداعية والسفير والمحاضر.

معرفتي به قبل أن يعرفني

وقد عرفت الأستاذ الأميري قبل أن يعرفني، حين قرأت في «سجل التعارف الإسلامي» في مجلة «الشهاب» (التي كان الإمام حسن البنا يصدرها) في عددها الثالث: صورة الأميري. وقد كُتب تحتها: سوري من صفوة أبناء حلب، وُلِد سنة ١٣٢٩هـ، وقضى بعض عمره المبارك في الدراسة بفرنسا، وتخرّج من «الحقوق السورية» سنة ١٩٤٠م، وكان نجاحه منقطع النظير، واشتغل بالمحاماة، مشترطًا على موكليه أن يتخلى عن دعاويهم، إذا ظهر وجه الحق في غير جانبها! واشتغل بالحركة الإسلامية منذ نعومة أظفاره، وأسَّس مركزًا للدعوة الإسلامية في باريس، وهو شاعر مطبوع، ومجاهد مؤمن.

مناجاة في الحب الإلهي

كما قرأت له أبياتا مشرقة بالمعاني الربانية نشرتها له «الشهاب» أيضًا تحت عنوان «خماسيات الأميري»: وهي مناجاة يحلق فيها بك في سماء الحب الإلهي، ويخاطب فيها ربه:

كلما أمعن الدُّجى وتحالك	شِمْت في غوره الرهيب جلالَك
وتراءت لعين قلبي برايا	من جمال آنست فيها جمالك
وتراءى لمسمع العقل همس	من شفاه النجوم يتلو الثنا لك
واعتراني تولّه وخشوع	واحتواني الشعور: أني حيالك
ما تمالكت أن يخرّ كياني	ساجدا عابدا، ومن يتمالك؟

لقائي الأول به

وكانت أول مرة ألتقي فيها الأميري وجهًا لوجه، حين كلفني الأستاذ الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر: أن أقدم محاضرة دُعي لإلقائها في الموسم الثقافي للأزهر، بقاعة الإمام محمد عبده، عن «العروبة والإسلام» وكان د. البهي مسافرًا، فأنابني عنه، وقدّمته بما يليق به، وعقبت عليه بعبارات أعجب بها المحاضر، ولم يكن تعرَّف عليَّ قبل ذلك، فعانقني بعد المحاضرة بحرارة، وانعقدت بيننا أخوة صادقة، ومودة عميقة.

وقد زادتها الأيام قوة على قوة، حين تلاقينا في بيروت في الفترة التي لم أكن أستطيع النزول فيها إلى القاهرة.

أستاذ زائر في كلية الشريعة بقطر

ثم بلغت ذروتها حين دعوته إلى قطر أستاذًا زائرًا لكلية الشريعة، ليدرس مقررًا عن «المجتمع المسلم» لطلاب الكلية وطالباتها، وذلك في أكثر من فصل دراسي. وذلك بموافقة مدير الجامعة أ.د. إبراهيم كاظم الذي كان حسن الصلة به كذلك.

ثم التقينا في الجزائر في ملتقيات الفكر الإسلامي، وفي السنة التي ذهبت فيها إلى الجزائر ١٩٩٠ـ١٩٩١م معارًا من دولة قطر، شارك معي في محاولة الصلح بين إخواننا في الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وإخواننا في حماس والنهضة، وإن لم نفلح في هذا التوفيق.

سفير الإسلام

عمل الأميري سفيرًا لبلاده سورية في باكستان والمملكة العربية، وكان في الحقيقة سفيرًا للإسلام، ولأمته، كما عمل محاضرا وأستاذ كرسي «الإسلام والتيارات المعاصرة» في دار الحديث الحسنية بالرباط، وقسم الدراسات الإسلامية العليا بجامعة القرويين، كما درّس الحضارة الإسلامية في كلية الآداب بجامعة محمد بن عبد الله في فاس.

الأميري الشاعر

ولكن مما لا ريب فيه ولا نزاع عليه: أن الذي غلب عليه وعرف به هو الشعر، فإذا ذكر الأميري ذكر الشاعر قبل أي وصف آخر. وهو شعر متميز باتجاهه الرباني والإنساني.

ولقد كنت كتبت كلمة ضافية عن الأميري نشرتها في كتابي: «وداع الأعلام» لا أستغني عن اقتباس فقرات منها هنا، وخصوصًا عن شعره.

قصيدة «أب»

فمن قصائده الجميلة والرائعة التي قرأتها له قبل أن ألقاه: قصيدة «أب» التي نشرتها له مجلة «المسلمون» الشهرية التي كان الأستاذ سعيد رمضان يصدرها، وتصدر من خارج مصر. وهي في الحقّ من روائع الشعر العربي الحديث، كتبها وهو في مصيف «قرنايل» بلبنان، وقد سعد بأسرته وأولاده خلال الصيف، ثم انتهت العطلة، ورحل الأولاد عنه، وعادوا إلى حلب، وبقي الشاعر وحده في البيت الذي أصبح اليوم مُوحشًا كالقبر، بعد أن كان بالأمس جنّة وارفة الظلال، بما فيه من حياة وحركة، وبركة وسعادة.

يقول الأميري في قصيدته:

أين الضجيجُ العذْبُ والشَّغَبُ؟ ... أيـن الـتَّـدارس شـابَـهُ اللعبُ؟

أيـــن الـطـفـولـة في تـوقُّـدهـا؟ ... أين الدُّمى، في الأرض، والكتب؟

أيـن التَّشَاكسُ دونـها غَـرَضٍ؟ أيـن الـتَّشـاكـي مـا لـه سبب؟
أيـن التَّباكي والـتَّـضـاحُـكُ، في وقـتٍ معًا، والحُــزْنُ والـطَّـربُ؟
أيـــن الــتَّــســابـق في مجــاورتي شَغَفًا، إذا أكلوا وإن شربـوا؟
يـــتــزاحمــون عــلى مُجــالــستي والــقُــرب مـنِّـى حيثما انقلبوا
فنشيدهم «بـابـا» إذا فرحوا ووعـيـدهـم «بـابـا» إذا غضبوا

ومنها، وهو يصف حاله وبكاءه حينما ودعهم وودعوه راجعين إلى حلب:

دمـعـي الـــذي كـتَّـمـتُـه جَـلـدًا لـــماَّ تـبـاكَـوْا عـنـدمـا ركـبـوا
حتى إذا ســاروا وقــد نزعوا مــنْ أضلعي قلبًا بهــمْ يَجِـبُ
ألـفـيـتُـي كـالـطـفـل عاطفة فــإذا بــه كـالـغـيـث ينسكبُ
قد يَعجبُ الـعُـذَّال من رَجُـلٍ يبكي، ولـو لم أبـكِ فالعَجَبُ
هيهات مـا كـلُّ الـبُـكـا خَـوَرٌ إنّي ـ وبي عـزم الـرِّجـال ـ أبُ

قصيدة فريدة

لقد هزّتني هذه القصيدة الفريدة، لما احتوته من قوة التصوير، وروعة التعبير، عن مشاعر الأبوة الحانية، وعواطف الطفولة اللاهية، ودقائق الخلجات النفسية، التي قد تراها متناقضة الظاهر، منسجمة الباطن، وما فيها من صور حية رسمها الحرف الناطق، والحسّ الصادق، والشعر الرائق، المعبِّر بسلاسة منقطعة النظير، عن أعمق أعماق المشاعر، وأحنى حنايا العواطف، في لغة جزلة، وجمل عذبة، وعبارات رشيقة، وأسلوب أخّاذ، متدفق كالعذب الزلال، والسحر الحلال.

وعرفت بعد ذلك أن الشاعر والأديب الكبير الأستاذ عباس العقاد، كان من أشدّ المعجبين بهذه القصيدة، حتى قال عنها في ندوة من ندواته المعروفة، التي كان يعقدها في

منزله بمصر الجديدة، في صباح كل جمعة، وكان ذلك في رمضان ١٣٨١هـ قال: لو كان للأدب العالمي ديوان من جزء واحد، لكانت هذه القصيدة في طليعته!

كما عرفت أنها تُرجمت إلى الفرنسية، وقُورنت بقصائد الشاعر الفرنسي الكبير «فيكتور هوجو» في الأطفال.

وقد نشرها الشاعر بعد ذلك في ديوانه «ألوان طيف» كما نشرها كذلك في ديوان «أب» مع تسع قصائد أخرى حول الأبوة والبنوة، وقد كتبه بخط يده، ونشر مصورًا كما هو بخطه الجميل، وقال في تقديمها: عشر قصائد من وحي الأبوة.. لوحات فيها مكابدة ومعاناة.. صور وجدانية.. متعدِّدة متحولة، يعيش ألوانها وأكوانها: كل إنسان أب، وكل أب إنسان!

ديوان «مع الله»

وقرأت للأستاذ الأميري ديوانه الرائع «مع الله» في طبعته الثانية، وقد تفضل بإهدائه إليّ[1].

كان ديوان «مع الله» صلوات وابتهالات، وترنيمات إلهية، كأنها من مزامير داود.. إنه شعر يحلِّق في آفاق السماء، ويغوص في أعماق النفس، ويسيح في جَنَبات الوجود، ويستحضر معيَّة الله عز وجل في كل مكان، وفي كل حين، وفي كل حال: في ابتسام السَّحر.. في التماع القمر.. في تموُّج الغيوم.. في احتباك النجوم.. في الربيع الطلق.. في الخريف الحزين.. هو «مع الله» في سجود.. في شرود.. في وضوح.. في غموض.. في نزوة.. في نشوة.. في حزن شديد.. في جو سعيد.. في الأفق المديد.. في الغور البعيد.. «مع الله».

وقد قدم الشاعر لديوانه بكلمات هي شعر منثور، أو نثر «مشعور»، أو قبسات من نور، تخاطب العقل والوجدان، وكل الكيان في الإنسان.

كما بدأ الديوان برائعته «مع الله»:

---

(١) انظر الملحق رقم ٧.

مع الله في مُضْمرات الكرى		مع الله عند امتداد السهر
مع الله والقلب في نشوة		مع الله والنفس تشكو الضجر
مع الله في أمسي المنقضي		مع الله في غدي المنتظر
مع الله في عنفوان الصِّبا		مع الله في الضعف عند الكبر
مع الله قبل حياتي، وفيها		وما بعدها عند سكنى الحفر

إلى آخر ما ذكره من ألوان ومجالات معيَّته في الله، وهي معيَّة ملأت المكان والزمان، والحسّ والفكر، والضمير والوجدان.

لا أستطيع أن أتخيَّر من هذا الديوان بعض قصائده، فكلها خيار من خيار، ولكني أنتقي «خماسية» كنت قد قرأتها في مجلة «المسلمون» التي كانت تنشر بين الحين والحين بعضًا مما تنتقيه من قصائد الشاعر، أو مما يرسل به إليها، فكان منه هذه القصيدة عن «الكعبة» يقول فيها:

الكعبة الشمّاء في مذهبي		قيمتها ليست بأحجارها
والقرب من خالقها ليس في		تشبث المرء بأستارها
قدسيَّة الكعبة في جمعها		أمتنا من كل أقطارها
وأنها محور أمجادها		وأنها مصدر أنوارها
وكعبة المؤمن في قلبه		يطوف أنى كان في دارها

الشعر الإنساني

وله ـ بجوار الشعر الرباني ـ سبحات ونفحات في الشعر الإنساني، الذي تتجلى فيه عواطف الإنسان من حيث هو إنسان، ومن حيث هو أب، كما في ديوان «أب» ومن حيث هو ابن، كما ديوان «أمي» ومن حيث هو إنسان ذو قلب، كما في ديوان «ألوان طيف». ومن جميل شعره في ديوان «أب»:

ما لك يا قلبي.. على الدروب..!!

تبحث.. عن كل حشا منكوب!!

تصنع من أناته وجيبي..!

هل أنت يا قلبي.. أبو القلوب؟!

ومن أبياته المؤثرة:

ويذود عن عيني الكرى   همّ.. وهم.. ذو رنين!

همّ الثمانية الصغار، وبعد.. تاسعهم جنين!

ومن المشاعر الإنسانية التي تحسها وتلمسها في شعر الأميري: الشعور بالغربة عن بلده وأهله وولده سنين طالت، فهو في الغرب، وهم في الشرق.

يقول في إحدى قصائده:

أنا في امتدادات الأذان   كان في نسبي رباح

أنا في الرباط وفي الرياض   وليس عن حلبي براح!

الشعر الجهادي

وبجوار الشعر الإيماني، والشعر الإنساني للأميري، نجد الشعر الجهادي، وكله أو جله يصبّ في قضية الأمة المركزية والمحورية، وهي قضية الأقصى، قضية أرض الإسراء والمعراج، قضية فلسطين، وقد أصدر عدّة دواوين في ذلك، مثل: ملحمة الجهاد، وملحمة النصر «شعر من وحي معركة العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ»، ومن وحي فلسطين «شعر وفكر»، و«حجارة من سجيل». وقد صدر بعد انتفاضة أطفال الحجارة، الانتفاضة الأولى، التي انطلقت أول ما انطلقت من مساجد غزّة، وأطلق عليها في أول الأمر: اسم «ثورة المساجد»!

وقفة مع شعر الأميري

وإذا كان بعض الشعراء يخلد إلى الأرض، وينزع إلى الطين والحمأ المسنون، فإنّ الأميري يُحلِّق بشعره على أجنحة ملائكية، إلى آفاق علوية.

وإذا كان منهم من استغرقه الحسّ، وسجنه الجسد في قفصه، فإن الأميري قد سما بشعره إلى فردوس الروح، وسماء الربانية، وتحرَّر من قبضة الجسد الحديدية، بفضل ما منحه الله تعالى من رحيق الإيمان، وفيض الروح المشرق بنور اليقين.

لقد جعل الأميري للعرب «إقبالاً» كما للهنود «إقبالهم»، وأحيا شعر «الحب الإلهي» في لغة جزلة عذبة معاصرة، تخاطب الكينونة الإنسانية كلها: عقلًا وروحًا، وعاطفة وضميرًا، ولا تخاطب «الإنسان الجسد» وحده، كما فعل بعض الشعراء المعاصرين، الذين اختصروا الإنسان في المرأة، واختصروا المرأة في الجسد، واختصروا الحياة في اقتناص اللذات، واتباع الشهوات.

لهذا كان أحب الأوصاف والألقاب إلى شاعرنا: لقب «شاعر الإنسانية المؤمنة»، فهو شاعر الإيمان، وشاعر الإنسان.

وللأميري نَثْر عَذْب جميل، أحيانًا يختلط بشعره، كمقدِّمات وتعليقات، وأحيانًا يستقل في كتب ورسائل، ولكن لكل نثره نغمة أدبية أو شعرية ظاهرة.

اهتمامه بالفقه الحضاري

وكان مشغولًا في سنيه الأخيرة بإصلاح الأمة وتحريرها من داخلها. مركزًا على ما أسماه في عدد من كتبه ومحاضراته: «الفقه الحضاري»، وهو فقه يعنى بالتركيز على الأسس الحضارية، والخصائص الحضارية، وأن على الأمة أن تبذل جهدًا فكريًّا وثقافيًّا حتى تؤصّله، ثم تفرّع عليه، وإن لم يبين لنا رحمه الله معالم هذا الفقه وملامحه.

وقد حاولت في كتابي «السنّه مصدرًا للمعرفة والحضارة» أن ألقي بعض الضوء على معالم «الفقه الحضاري» و«السلوك الحضاري» اقتباسًا من السنة النبوية وأحاديثها الصحاح.

اعتزازه بأصالته الإسلامية

وكان من مزايا الأميري أنه كان حريصًا على ألا يؤرخ لأيِّ كتاب يصنفه، أو أي رسالة يرسلها، أو أي عمل من الأعمال يريد أن يسجله، إلا بالتاريخ الهجري، والتاريخ الهجري وحده.

وفي القصائد التي ينشئها يضع تحت كل قصيدة تاريخها الهجري، ولا يلحق بها أي تاريخ آخر. وفي هذا اعتزاز بأصالتنا الإسلامية دون شعور بالحاجة إلى أي أمة أخرى.

رحم الله أبا البراء عمر الأميري، وغفر له، وأثابه شاعرًا وناثرًا، وداعية ومحاضرًا، وباحثًا ومؤلفًا، وغيورًا ومجاهدًا، وتقبله في الدعاة الربانيين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وما بدلوا تبديلا.

وفاة أ. د. إبراهيم كاظم سنة ١٩٩٢

كان أ. د. محمد إبراهيم كاظم أول عميد لكليتي التربية في قطر منذ سنة ١٩٧٣م، وحين أنشئت جامعة قطر سنة ١٩٧٧م كان أول مدير لها. حيث بدأت بكليات أربع، هي: التربية والعلوم والشريعة والإنسانيات (أي الآداب). وبعد ذلك أضيفت كلية الهندسة، وكلية الإدارة والاقتصاد، والكلية التكنولوجية.

والحقيقة: أن د. كاظم حشد للجامعة مجموعة مختارة من الأساتذة في جميع التخصصات، وكان رجلًا خبيرًا بالرجال، مُسْتغلًّا علاقاته الواسعة في اختيارهم واجتذابهم إلى قطر.

وكان رجلًا دمثًا حسن الخلق، عفيف اللسان، ما سمعته يتكلم عن أحد بسوء، حسن الصلة بزملائه ومن يعمل معه، حتى بالطلاب، وكان يحسن الكلام في المناسبات المختلفة، ويختار كلماته بعناية، ويضعها في موضعها.

علاقة ود وتعاون

وقد تحدثت عن العلاقة بيننا، وأنها كانت قائمة على ودّ وتعاون، منذ تعارفنا في إدارة جامعة الأزهر ١٩٧٣م حتى غادر قطر ١٩٨٦م. وقد كنا نلتقي باستمرار في مناسبات شتّى: في مجلس الجامعة، وفي المجلس الأعلى للتربية، الذي يجمع بين رجال الجامعة ورجال وزارة التربية، ويرأسه وزير التربية والتعليم، وفي مجلس إدارة مركز بحوث

السنة والسيرة، وفي غيرها من المناسبات. وبخاصة أن د. كاظم كانت روحه إسلامية، وكان ذا اهتمام بالشأن الإسلامي، ولا سيما ما يتعلق ببلاد الشرق الأقصى، التي عمل فيها فترة من الزمن، وتعرَّف على كثير من رجالات الإسلام بها. ولهذا سعى إلى تنظيم رحلة إلى الشرق الأقصى، كانت من أخصب الرحلات وأطيبها ثمرات.

وداع العمل الجامعي

بعد أربع سنوات عميدًا لكليتي التربية، وتسع سنوات مديرًا للجامعة: رأى د. كاظم ببعد نظره، ونور بصيرته: أن يودع قطر مختارًا، ولا سيما بعد أن وجد من أبناء قطر من يستطيع أن يحمل العبء، وقد كانت قطر تطلب التجديد له من مصر، فيصدر قرار من رئيس الجمهورية بتجديد إعارته.

الليالي الكاظمية

وودّعت جامعة قطر مديرها الأول د. كاظم وداعًا مفعمًا بالمودة والوفاء، كل كلية أقامت له احتفالاً خاصًا، وقدّمت له هدية، ونوّهت بدوره وفضله، ومنها كلية الشريعة، وذلك في ليال جميلة سماها بعض أخواتنا «الليالي الكاظمية»!

المدير الإقليمي لمنظمة اليونسكو

وانتقل د. كاظم إلى منصبه الجديد مديرا إقليميا لمنظمة اليونسكو، وكان مقره عمان، وإن كان دائم التنقل بين عمان وباريس وسائر العواصم العربية، حتى قدر الله له أن يصاب بذلك المرض العضال، الذي أثبت عجز الإنسان وضعفه أمام القدر المغيب عنه، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)، أصيب الرجل النشيط المتحرك المثابر بسرطان في المخ، وهو في عزّ عطائه، والأبصار ترنو إليه، والأعناق تشرئب نحوه، وترشحه لمناصب كبيرة في الداخل والخارج، ولكن قضاء الله لا يُرد.

لقد زرته في مرضه مرتين في منزله بمصر الجديدة بالقاهرة.. في أول مرة كان متماسكًا

حاضر الذهن، وفي المرة الثانية تغير حاله، وبدأت زهرته في الذبول، وودعته وعيني تملؤها دموع حبستها. ورثيت لحال أسرته، وهي تراه في هذه الحال، زميلتنا الدكتوره صفاء الأعسر، أستاذة علم النفس، التي تحمل بين جنبيها أسى عميقا، وأولاده، د. يسر، وشقيقها وشقيقتها، كان الله لهم.

الذكر الطيب والثناء الحسن

وبعد استكمال ثمانية عشر شهرا من بداية المرض رحل الرجل عن دنيانا في ١٢/ ٩/ ١٩٩٢م، تاركًا ذكرًا طيبًا، وسمعة حسنة، وثناء من كل من عرفه وخالطه. وقد قيل: ألسنة الخلق أقلام الحق. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أنتم شهداء الله في أرضه»[1].

رحم الله أخانا إبراهيم كاظم، وغفر له، وتقبَّله في الصَّالحين، وجزاه عن دينه وأمته، وعن العلم والتربية، خير ما يجزي به العلماء المربّين والمؤسسين المخلصين، وخلفه في أهله وذرِّيته بخير ما يخلف به المؤمنين الصادقين.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) كلاهما في الجنائز، عن أنس.

وفاة الأخ الشيخ عبد اللطيف زايد سنة ١٩٩٢م

في ١٤/ ١٢/ ١٩٩٢م ودعت وودع معي أهل العلم والدين في قطر: أخًا حبيبًا، وعالمًا عاملًا، وداعية مخلصًا، ومربيًا كريمًا، هو الشيخ عبد اللطيف زايد.

في معسكر التدريب

وقد عرفت الأخ الشيخ عبد اللطيف أول ما عرفته حين كان طالبًا في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وكان ذلك في معسكر التدريب، الذي أقمناه في رحاب كليات الأزهر بالدرَّاسة بجوار الجامع الأزهر العريق. وكان هذا المعسكر يستقبل الطلاب الراغبين في السفر إلى منطقة القناة، لمقاومة الاحتلال البريطاني. وهم في هذا المعسكر يتلقون التدريبات الأولية التي لا بدّ منها، ومعظمها نظري، لأننا نعيش في منطقة سكنية، لا تتحمّل تجربة إطلاق النار من بندقية أو رشاش، أو إلقاء قنبلة، أو تفجير ديناميت أو نحو ذلك.

الشباب المتعطّشون للجهاد

وفي هذا المعسكر بالدرّاسة، التقى عدد من الشباب المتعطشِّين إلى الجهاد في سبيل الله، وتحرير الأوطان من كل سلطان استعماري، وكان جل هؤلاء الطلاب من أبناء الكليات، وبعضهم من طلاب معهد القاهرة الثانوي. أذكر منهم الأخ الصالح الطاهر عبد الرحمن الديب ابن قرية «العمار» قليوبية. وكان معنا طلاب من كليات الأزهر الثلاث، ومنا طلاب فلسطينيون.

وكان الذي لفت نظري إلى عبد اللطيف زايد أحد رفاقه من بلدته «ويش الحَجَر» مركز المنصورة، وقد سألوني عنه، وأعينهم تذرف، فقلت لهم: إنه بخير، فقالوا لي: إنك لا تعرفه، إنه شهيد حي. فهو رجل نقي السريرة، طاهر السيرة، مستقيم السلوك، صوّام قوّام، غيور على الإسلام، مُحِبٌّ لله ورسوله، مُتَفَان في خدمة إخوانه... إلى آخر ما وصفوه لي، وقالوا: إن مثله أهل للشهادة، ولذا نريد أن نلقاه قبل سفره، فقد يكون هذا اللقاء الأخير!

هذه الكلمات من قوم عرفوا الرجل معرفة معايشة ومرافقة طويلة، حببَّت إلي الرجل، وجعلتني أقترب منه، وأجد في حب مثله شفاعة لي يوم القيامة. فأنا كما قال القائل: أحبُّ الصالحين ولست منهم!

ولما سافرت كتيبة الأزهر من القاهرة إلى القناة، أو إلى منطقة الشرقية،أخذنا نستكمل تدريبنا، ونتهيأ للذهاب إلى القناة للقيام بعمليات ضرب الإنكليز في معسكراتهم، وإصابتهم بما يمكن من الخسائر، أو على الأقل إدخال الرعب في قلوبهم. وفي هذه المنطقة الخلوية، التقينا شباب الأزهر وشباب الجامعات المصرية المختلفة.

وبعد مدة من الزمن لا أذكر كم استغرقت، وقد تحدّثت عنها في الجزء الأول، عدنا إلى دراستنا في كلياتنا. وعاد عبد اللطيف زايد الذي زاد حبي له.

وبعد ذلك تخرجت، وتخرج هو بعدي، وتفرّقت بنا الأيام، حتى شاء الله أن نلتقي مرة أخرى في قطر، فقد سافر إلى قطر قبلي متعاقدًا لتدريس العلوم الشرعية في مدارسها. وذهبت إلى قطر مُعارًا من الأزهر لأعمل مديرًا للمعهد الديني الثانوي.

تحويل الشيخ عبد اللطيف إلى التدريس بالمعهد الديني

وقد كان من أوائل ما طلبته من فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي المسئول الأول عن العلوم الشرعية وتدريسها ومدرسيها، هو تحويل الشيخ عبد اللطيف زايد إلى التدريس بالمعهد الديني. فقال: أنا لا أمانع في ذلك، ولكن هو يعمل في أم صلال علي، وأرى أن من المناسب أن تزور شيخ القرية الشيخ علي بن جاسم آل ثاني، وتستأذنه في نقل الشيخ

عبد اللطيف إلى المعهد، وأعتقد أنه سيلبّي طلبك. وهو ما حدث بالفعل. فقد زرت الشيخ عليّ في مجلسه واحتفى بي، وتحادثنا في شؤون العلم والأدب، وكان مهتمًّا بذلك، وكان مالكي المذهب، وكانت جلسة طيبة. ثم فاتحته في حاجتي إلى الشيخ عبد اللطيف ليعاونني في المعهد الديني. فوافق الرجل، ولم يتردَّد. رحمه الله وغفر له.

وقد كان الشيخ عبد اللطيف نِعْم العون لي، طوال فترة إدارتي للمعهد. وقد تحدثت عن ذلك في الجزء الثاني من هذه المذكرات.

وقد تولى إدارة المعهد فترة من الزمن، ثم عمل مفتشًا للعلوم الشرعية مع فضيلة شيخنا الشيخ عبد المعز عبد الستار.

وقد ظلت الصلة بيننا أبدًا طيبة وثيقة، لا تشوبها شائبة، لأنها بدأت لله، واستمرت لله، إلى أن اشتكى وجعًا باطنيًّا، دخل بعده المستشفى، ولم يكن يبدو أن ثمة شيئًا خطيرا يخاف منه، وإنما قالوا: هناك شيء قديم في القلب، يُرجى تداركه.

نبأ وفاة الأستاذ عبد اللطيف زايد

ولقد قُدِّر لي أن أسافر لحضور ندوة في البحرين لمدة يومين، وأعود، لأكون بجوار الأخ العزيز، سافرت صباحًا، وعدت مساء اليوم التالي، وقد استقبلني ابني أسامة واجمًا، وأحسست أنَّ وراءه شيئًا، ولكن خطر ببالي كل شيء إلا أن يكون أمرًا يتصل بالأخ عبد اللطيف.

فقلت: هل حدث شيء؟

قال: نعم.

قلت: وما هو؟

قال: توفي الشيخ عبد اللطيف اليوم، وهم الآن يذهبون إلى دفنه في المقبرة؟

قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ولماذا لم تتّصلوا بي؟

قال: فوجئ الجميع بالخبر، وارتبكوا، ولم تكن هناك طائرة يمكن أن تحضر فيها قبل هذه الطائرة.

قلت: فلنسرع إلى المقبرة، عسى أن ندرك الصلاة عليه. وأسرعنا ما أمكننا، ولكن وجدناهم يوارونه التراب. فصلَّيت عليه على قبره، مع من لم يُدرك الصلاة عليه.

يا عجبًا لما يصنع القدر! لقد عاش الرجل قريبًا مني، وأنا قريبٌ منه، ثم يأتي الموت بغتة فيختطفه اختطافًا، حتى يحرمني تشييعه والصلاة على جثمانه.

الرجال قليل والصادقون عملة نادرة

لقد كان عبد اللطيف رجلًا، والرجال قليل، أخًا صدوقًا، وقد قال الإمام علي رضي الله عنه:

فما أكثر الإخوان حين تعدهم ... ولكنهم في النائبات قليلُ!

صادق والصادقون في هذه الدنيا عُملة نادرة، إذا ظفرت بواحد منهم، فقد ظفرت بكنز عظيم. كما قال الشاعر لصديق له:

حسبي من الدنيا صديقٌ صادق ... فَرْدٌ، فكُنْه، ولا احتياج لثان!

رحم الله أخانا عبد اللطيف زايد، وغفر له، وأسكنه الفردوس الأعلى، وتقبله في عباده الصالحين، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي به العلماء العاملين والدعاة المخلصين.

عبرات في العين وزفرات في الصدر

لقد ترك فراق عبد اللطيف: عبرات في العين، وزفرات في الصدر، وأحزانا في القلب. وأحيانًا إذا فقد المرء حبيبًا، ذكّره بآخرين من الأحبة ماتوا قبله، فهو إذا بكى فإنما يبكي على الجميع، ولهذا بكيت بموت عبد اللطيف: موت أخي مصباح محمد عبده الذي وافاه المنون في قطر، ودُفن في قريته محلة أبو علي، وبكيت بموته موت أخي محمد الدمرداش مراد، وبكيت أحبّة شتّى.

غَلَبة عاطفة الحزن

ولا أكتم القارئ أني رجل تغلب عليه عاطفة الحزن، أكثر مما تغلب عليه عاطفة الفرح والسرور، ولذا تؤثّر في نفسي الحوادث المؤلمة، والمواقف المحزنة، تأثيرًا بليغًا، وتحفر في قلبي حفرة عميقة، بخلاف الحوادث السارة.

طبيعة الشعب المصري

ويبدو أن هذه طبيعة جمهور الشعب المصري، فهو ـ رغم ضحكه ومزاحه ـ نراه شعبًا يبكي طويلًا على موتاه، ويعصره الحزن عصرًا عند وقوع الآلام، وإذا جلس جماعة يومًا وضحكوا كثيرًا لسبب من الأسباب، قالوا: اللهم اجعله خيرًا. كأنما يتوقعون أن الضحك ليس أصلًا في حياتهم، فإذا حدث فهم يخشون أن يعقبه بكاء طويل.

وعندما ذهبنا إلى الخليج، وجدنا الناس هناك يستقبلون الموت بعفوية وسهولة، ولا يبالغون في الحزن كما يبالغ المصريون، ولقد رأيت أحد المصريين يبكي بكاء حارًّا على موت أحد القطريين، وهو والد صديق له، وابن المتوفَّى لم يندّ من عينه دمعة، وكأنه يعجب لهذا البكاء من هذا الصديق المصري.

بل أنا في الحقيقة رجل قريب الدموع، أبكي لأيِّ موقف إنساني يهزني، حتى لو كان في تمثيلية أو في فيلم في التلفزيون، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من أربع: من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عين لا تدمع، ومن نفس لا تشبع[1].

وأسأل الله أن يجعل عيني من الأعين الثلاثة التي لا تمسها النار: عين بكت من خشية الله، وعين غضّت عن محارم الله، وعين سهرت في طاعة الله.

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٢)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٥٨) عن زيد بن أرقم دون لفظة «ومن عين لا تدمع» فقال بدلها «ومن دعوة لا يستجاب لها». ولفظة «عين لا تدمع» ذكرها الحافظ في الفتح (١١/ ١٣٦) بعد أن ذكر عدة أحاديث وقال: كلها صحيحة.

كتابي «ملامح المجتمع المسلم»

وفي هذه الفترة «يونيو ١٩٩٣م» ظهر كتابي «ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده» في ٤٠٠ صفحة.

وهو يتكوَّن من أحد عشر فصلا، تشمل كل مكوِّنات هذا المجتمع بدءًا بـ«العقيدة والإيمان» التي هي أساس هذا المجتمع، ومرورًا بالعبادات والشعائر، ثم الأفكار والمفاهيم .. المشاعر والعواطف .. الأخلاق والفضائل .. الآداب والتقاليد، القيم الإنسانية .. ثم التشريع والقانون .. الاقتصاد والمال.. اللهو والفنون، وختامًا: المرأة في المجتمع المسلم.

الإنسان مدنيٌّ بطبعه

وقد بينت في مقدمة الكتاب: أن الإنسان كما قال القدماء: مدنيٌّ بطبعه، وكما قال المُحْدَثون: حيوان اجتماعي. أي: أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، بل لا بد أن يتعاون مع غيره، حتى تستقيم حياته، وتتحقق مطالبه، ويستمر نوعه. وقد قال الشاعر العربي:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض ـ وإن لم يشعروا ـ خدم!

والإسلام لا يصور الإنسان كائنًا يعيش وحده، إنما يصوِّره في مجتمع، ولهذا توجَّهت التكاليف إليه بصيغة الجماعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ولم يجئ في القرآن «يأيها المؤمن»؛ وذلك أن تكاليف الإسلام تحتاج إلى التكاتف والتضامن في حملها والقيام بأعبائها. يستوي في ذلك العبادات والمعاملات.

فإذا نظرنا إلى فريضة كالصلاة وجدنا أنها لا يمكن أن تقام كما يريد الإسلام، إلا بمسجد يتعاون المجتمع على بنائه، ومؤذن يعلن الناس بمواقيت الصلاة، وإمام يؤمهم، وخطيب يخطبهم، ومعلم يعلمهم، وهذا كله لا يقوم به الفرد، وإنما ينظمه المجتمع.

وقد جعل القرآن أول أعمال الدولة المسلمة إذا مُكِّن لها في الأرض: أن تقيم الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (الحج: ٤١).

ومثل ذلك يقال في فريضة الصوم، وضرورة ترتيب أمور الحياة في رمضان ترتيبا يعين على الصيام والقيام والسحور وغيرها.

ومن باب أوْلى: الزكاة، فالأصل فيها أنها تنظيم اجتماعيٌّ تشرف عليه الدولة، بواسطة ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الذين نصّ عليهم القرآن (التوبة: ٦٠). وكذلك كل شعائر الإسلام وأركانه.

أما الأخلاق والمعاملات فلا يتصور أن تقوم ـ كما ينشدها الإسلام ـ إلا في ظلال مجتمع ملتزم بالإسلام، يتعبد لله بإقامة حياته على أساس الإسلام.

وقد علّم الإسلام المسلم أن يقول إذا ناجى ربه في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥). فهو يتكلم بلسان الجماعة، وإن كان وحده، وكذلك إذا دعا ربه دعا بصيغة الجمع: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦).. فالجماعة حيّة في وجدانه، حاضرة على لسانه.

والمجتمع المسلم مجتمع متميِّز عن سائر المجتمعات بمكوناته وخصائصه، فهو مجتمع رباني، إنساني، أخلاقي، متوازن.

أهمية إقامة المجتمع المسلم

والمسلمون مطالبون بإقامة هذا المجتمع، حتى يمكَّنوا فيه لدينهم، ويجسِّدوا فيه شخصيتهم، ويحيوا في ظلِّه حياة إسلامية متكاملة: حياة توجِّهها العقيدة الإسلامية، وتزكِّيها العبادات الإسلامية، وتقودها المفاهيم الإسلامية، وتحرِّكُها المشاعر الإسلامية،

وتضبطها الأخلاق الإسلامية، وتجمِّلها الآداب الإسلامية، وتهيمن عليها القيم الإسلامية، وتحكمها التشريعات الإسلامية، وتُوجِّه اقتصادها وفنونها وسياستها: التعاليم الإسلامية.

تصوير خاطئ للمجتمع المسلم

فليس المجتمع المسلم، كما يتصوره أو يصوِّره كثيرون ـ هو فقط ـ الذي يطبق الشريعة الإسلامية في جانبها القانوني، وخصوصًا جانب الحدود والعقوبات، فهذا تصور وتصوير قاصر، بل ظالم لهذا المجتمع، واختصار لكلٍّ مقوماته المتعددة في مقوم واحد هو التشريع، وفي جانب واحد من التشريع هو التشريع الجزائي، أو الجنائي.

لهذا كان من المهم هنا: إلقاء الضوء على المكوِّنات أو الملامح الأساسية لهذا المجتمع الذي ننشده، والذي قامت حركات وجماعات إسلامية في شتى أنحاء العالم العربي والإسلامي تدعو إليه، ليحل محل المجتمعات الحاضرة، التي اختلط فيها الإسلام بالجاهلية، سواء أكانت جاهلية وافدة، مما غزانا به الاستعمار الغربي بشقيه: الرأسمالي والاشتراكي، أم جاهلية موروثة، من رواسب عصور التخلف، التي ساء فيها فهم المسلمين لدينهم، كما ساء تطبيقهم له، حكاما ومحكومين.

وقد صَدَر لي كتاب منذ سنين، هو: «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» وهو في الحقيقة جزء من هذا الكتاب. وقد تقدَّم الحديث عنه في هذه المذكرات.

رسائل ترشيد الصحوة

اقترح عليّ عدد من الإخوة القريبين مني، المعنين بإنتاجي الفكري، أذكر منهم الإخوة الكرام:عبد الحليم أبوشقة، وعبد العظيم الديب، وعصام البشير، أن أستل بعض الفصول في الموضوعات المهمّة من كتبي الكبيرة، لتصدر في صورة «رسائل صغيرة» يسهل شراؤها واقتناؤها، ويسهل قراءتها واستيعابها.

وكان كتابي «ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده» قد صدر حديثًا، وهو يشمل موضوعات على جانب من الأهمية للقارئ المسلم، مثل موضوع «الردّة» وموضوع «المرأة» وموضوع «الفنون»، ونحوها.

وهناك موضوعات في كتب الفتاوى، مثل موضوع النقاب وغيره تحتاج إلى أن تفرد في رسالة، ليقرأه عشرات الألوف من الناس الذين قد لا تتاح لهم قراءة الكتاب الكبير.

وقد اقتنعت بهذه الفكرة، وبدأت أنفذها بإصدار سلسلة عنوانها: «رسائل ترشيد الصحوة» بدأتها بفصل استللته من كتابي «بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين»، وهو فصل **«الدين في عصر العلم»**.

ثم جعلت الرسالة الثانية بعنوان: **«الإسلام والفن»**، وهي فصل انتزعته من كتابي «ملامح المجتمع المسلم» بعد أن نقحته وأضفت إليه.

وبعض هذه السلسلة: رسائل أو كتب جديدة ألفتها لها، مثل: «المبشِّرات بانتصار الإسلام»، «مستقبل الأصولية الإسلامية»، «القدس قضية كل مسلم»، «حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا»، «البابا والإسلام» وغيرها.

وقد وصلت حتى كتابة هذه المذكرات (فبراير ٢٠٠٨م) إلى ست عشرة رسالة.

تكريم شعبيّ في جدة
اثنينية الشيخ عبد المقصود خوجة

الصديق الوجيه عبد المقصود خوجة

من الشخصيات التي أعتز بصداقتها، الأديب والوجيه السعودي المعروف الشيخ عبد المقصود خوجة، الذي يسعى أبدًا إلى صداقة العلماء والدعاة والمفكرين والأدباء والشعراء من بلاد العرب والمسلمين، لا يبغي من وراء ذلك نفعًا ماديًّا، ولا مكسبًا أدبيًّا، إلا التعرُّف على هؤلاء الصفوة من رجال الأمة والتعريف بهم، والتنويه بشأنهم، وفاءً لهم بما ينبغي لهم من تكريم، وتنبيه الأجيال العربية والمسلمة على مكانهم ومكانتهم، ودورهم ورسالتهم، وأثرهم في أمتهم.

دعوته لي في أكثر من رمضان

عرفت الرجل منذ سنين، وسعدت بزيارته في منزله الجميل بجدّة، بدعوة منه لي في أكثر من رمضان، حيث كان يدعوني، ويدعو عددًا من رجالات جدة ومكة وأحيانًا المدينة والرياض، لنلتقي معًا على مدارسة القرآن، اقتداء بما كان يفعل أمين الأرض مع أمين السماء، أي كما كان يفعل الرسول البشري محمد، مع الرسول المَلَكي جبريل عليهما السلام. ونتشاكى هموم المسلمين، ونتباحث في مشكلاتهم الفكرية والدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها، محاولين أن نجد لها حلولا.

كنت عنده ألتقي بكثير من الأساتذة المخضرمين، د. أحمد زكي يماني، ود. محمد عبده يماني، والشيخ صالح كامل، والأستاذ عبد العزيز الرفاعي من الرياض.

والتقيت في منزله مرة مع شيخنا وصديقنا العلامة الشيخ أبي الحسن الندوي، من أجل نصرة بعض القضايا التي أسهم فيها الشيخ عبد المقصود بنصيب وافر.

ندوة الاثنينية

وقد اعتاد الشيخ عبد المقصود أن يعقد في بيته بجدة ندوة تجمع صفوة من المثقفين المستنيري الفكر، المتنوعي الثقافة، المشغولين بالإصلاح، ليتدارسوا موضوعًا من الموضوعات التي تشغل المجتمع، وذلك في مساء كل اثنين من الأسبوع، ولهذا عرفت باسم «الاثنينية». كما اعتاد الشيخ خوجة حفظه الله، أن يكَرّم في كل مدّة في إحدى «الاثنينيات» أحد العلماء أو المفكرين البارزين الذين لهم أثرهم في تنوير الأمة، وهدايتها إلى الحق والخير، ومقاومة الباطل والشر. وذلك بإقامة احتفال كبير، يُدعى إليه جمٌّ غفير من الرجال المرموقين في جدة ومكة، وتلقى فيه الكلمات من عدد من المدعوين، ثم تصدر بعد ذلك في كتاب. ويعطى لوحة تذكارية بهذه المناسبة.

تكريمه أعلام الأمة

وقد كرَّم عددًا من أعلام الأمة في الفقه أو الدعوة أو الفكر أو الأدب أو التربية أو غير ذلك من الميادين، أذكر منهم: الداعية الكبير شيخنا الشيخ محمد الغزالي، والفقيه الكبير شيخنا الأستاذ مصطفى الزرقا، والداعية الكبير العلامة الشيخ أبا الحسن الندوي، وصديقنا الداعية والشاعر الكبير الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، والمحدّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة..

تكريمي في حفل الاثنينية

وفي مساء يوم ٢٥ من شهر ربيع الآخر سنة ١٤١٤هـ أراد الأستاذ خوجة أن يلحقني بهؤلاء الكبار الأجلاء، فحشرني في زمرتهم، ودَعَا إلى حفل تكريمي حضره عدد كبير من أهل جدة، قيل لي: إنه لم يحضر مثله في مثل هذه المناسبة من قبل.

المتكلمون في هذه المناسبة

وتكلم في هذه المناسبة عدد من كبار العلماء والمفكرين والمربين، منهم سماحة الشيخ الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي الدولي، ومعالي الأستاذ الدكتور محمد عبده يماني، ومعالي الشيخ العلامة عبد الله بن بية، والأستاذ أحمد الشيباني.. وختم الكلمات الشيخ عبد المقصود. وكان المفروض أن يتكلم في هذا الاحتفال الأستاذ الدكتور معروف الدواليبي، ولكن طارئًا صحيًّا عرض له فاعتذر عن عدم الحضور، واتصل بي متأسفا رحمه الله.

وقد ألبسوني ثوبًا فضفاضًا بما قالوه عني، أسأل الله أن يجعلني عند حسن ظنهم، وأن يغفر لي ما لا يعلمون.

وقد نشرت هذه الكلمات في كتاب كما هي العادة، يوزع مجانا على المهتمين.

كلمة الشيخ بن بية

ومما جاء في كلمة العلامة الشيخ ابن بية حفظه الله:

ماذا عساي أن أقول بعدما قاله الأخوة، في حقِّ عالم جليل وإمام عظيم؟ لعلِّي أقول ما قال الآخر: «والصمتُ أبلغ حين يعيا المنطق»، ولكن مع ذلك سأتحدث؛ أولاً: ما ذكَّرنا به أخونا الشيخ عبد المقصود عن روَّاد كانوا إخوة لنا وزملاء على الدرب، درجوا ومضوا إلى الدار الآخرة، لا نقول إلاَّ ما يرضي الرب، إنا لله وإنا إليه راجعون، لله ما أخذ وله ما أبقى وكل شيء عنده بأجل مسمى، أستغفر الله لنا ولهم.

بالنسبة لأمسيتنا هذه، فنقول ـ أيها الجمع الكريم ـ إننا نهنئ أخانا الشيخ عبد المقصود خوجة بهذا الضيف الكريم.. إذا كان الشاعر قد قال:

إن الصنيعة لا تعد صنيعة   حتى تصيب بها طريق المصنع

فأنت في هذه الليلة أصبتَ طريقَ المصنع، وصادفت أهلًا للتكريم، وللتوقير؛ إنها سنة سننتها، فنسأل الله (سبحانه وتعالى) أن يرزقك أجرها، سنة تكريم العلماء وهم أحياء، بينما العرف والعادة أن يكرم الإنسان بعد موته، فلعلك نظرت إلى قول الشاعر:

لا ألفينّك بعد الموت تندبني　　وفي حياتي ما زوّدتني زاد

فلقد زوَّدتهم زادهم وعظَّمتهم، فجزاك الله على ذلك خيرًا.

المحتفى به الَّذي نكرمه الليلة ليس عالمًا فقط، وإنما هو إمام.. من هو الإمام؟ دعوني أحكي لكم حكاية ترجع إلى القرن السابع الهجري.. وفي الشام بالذات كان العلماء ـ في بعض الأحيان ـ تعروهم الحاجة، ولا يزالون، ويغشون من أجل الحاجة القصور.

الحافظ أبو شامة من هؤلاء، سمع أن الحاكم ـ في ذلك الزمان ـ طلب قارئًا، وهو ينظم مناورة لاختيار أفضل قارئ، فجاء الإمام أبو شامة مترشحًا ومعه أحد القراء اسمه: أبو الفتح، فكبير العلماء اختبرهما، وبعد الاختبار قدم التقويم التالي إلى الحاكم. قال له عن الشيخ أبي شامة: إمام من أئمة المسلمين، وقال عن أبي الفتح: هذا قارئ. وكان الحاكم له هوى مع أبي الفتح ولا يميل إلى الإمام أبي شامة، فقال: إنما نريد قارئًا. فوجد أبو شامة من ذلك في نفسه، وقال لشيخ العلماء: ماذا فعلت؟ قال له: ما كنت أظن أنهم يخفى عليهم كلامي، قلت لهم: هذا إمام من أئمة المسلمين..

معنى الإمامة

إذن أنا سأشرح الإمامة.. لعل أن يخفى عليكم كلامي، الإمام هو المتقدم على غيره، والإمام هو المقتدى به، والإمام هو مَنْ يؤمُّه الناس من كل صَوْب، ليجدوا عنده ما يحتاجون إليه.. بهذه الاعتبارات وبهذه المعايير نعتبر أخانا العلامة الإمام الشيخ: يوسف القرضاوي من أئمة المسلمين، لا نُزكِّيه على الله.. فهو قد تقدم على هذا الجيل في علمه، وفي فقهه، وفي ديانته ـ إن شاء الله ـ لا نزكِّيه على الله، فهو إمام يقتدى به، يرجع الناس إلى فتاواه ليسألوا عن الحلال والحرام.. هو إمام يؤمُّه الناس من كل صوب ليجدوا حلًّا لمشاكلهم؛ الشيخ القرضاوي هو فقيه ـ أيضًا ـ بما في هذه الكلمة من معنى، فقيه عالم بالأحكام، فقيه مستنبط للأحكام، فقيه نفسي، وفقيه واقعي، وفقيه عملي، كل كتبه تشهد على ذلك.

إشادة ابن بيّة بعنايتي بالجانب المالي

أعتقد أن من يحاول أن يخرج موضوعًا خاصًا يهتم به الشيخ الإمام يوسف، فسيجد موضوع المال؛ وأنا أعتقد أنه وجد المال من أكبر الفتن التي تواجه الأمة، وتواجه هذا العصر بالذات، فبحث عن كيفية اقتنائه، وكيفية إخراجه، فكتب في الحلال والحرام وأنواع المعاملات، ثم كتب في كيفية إخراجه في الزكوات والصدقات، لكنه لم يكتب فقط بل ساهم عمليًا في قيام مؤسسات تقوم على هذا الفكر، وهذا التجديد، فقامت بنوك إسلامية ومؤسسات كان رائد قيامها وكان موجهًا لها.. وقامت مؤسسات خيرية لجمع الزكوات والصدقات، وتوزيعها على الفقراء في أنحاء العالم.. كان مقترحًا، بل موجهًا، بل مؤسسًا لهذه الهيئات الخيرية، وأنا أتكلم عن علم بذلك.

ثناء ابن بيّة على منهجي العلمي

الشيخ يوسف يقول بعض النَاس عنه إنه يرخص ويوسِّع، وهذا دليل على فقهه، فهو إذا رخَّص ووسَّع يهيئ الضوابط، وإذا ضيَّق وشدَّد يُهيئ المخارج، كيف لا وقد جمع علمًا كثيرًا، جمع التفسير والحديث، والأصول إلى الفقه، واللغة وعلومها: النحو والصرف والبلاغة، فاقتطف من جنى هذه العلوم.. فتوسَّع وأوسع، فكأنَّ الشاعر عناه وهو شاعر من بلادي، عندما يقول في القرن الماضي:

فيه تجمع سيبويه ومالك والشافعي والأشعريّ وأشهب

(الأشعري هناك عندنا قدوة).

الجانب التربوي عند القرضاوي

فالشيخ يوسف جمع كل هذه الخصال، ولكن زيادة على ذلك هو مُرَبٍّ، وهذا جانب عظيم وأساسي في حياة هذا العلامة؛ هو مُرَبٍّ ربَّى الأجيال، ربَّى من شافهه وتعلَّم عليه، وربَّى من يبعد عنه في أمكنة شتّى من أنحاء العالم ـ وأنا أتكلم عن علم ـ عن شباب إفريقيا، حيث تصل فتاوى الشيخ وكتبه، وحيث تصل أناشيد الشيخ ـ أيضًا ـ

لمن لا يعرف أن له أناشيد، وحيث يتربّى الناس، تربّى هذه الأشياء؛ وهو من دعائم الصحوة الّذين حركوها ولا أريد أن أتهمه، ولكنه من الّذين رشدوها أيضًا، فهو إمام مُجدِّد في هذا العصر، نسأل الله (سبحانه وتعالى) أن يثيبه على ذلك، وأن ينفعه وينفع على يديه المسلمين، وأن تتخرج أجيال على منهجه من العلم، والسمت، والتقوى. إنني أفرح كثيرًا بفتاواه، قد يختلف المرء مع بعض ما يقول، ولكنه يقدِّر قوله، ويحترم هذا القائل، وهذا القول، لأنه لا يتكلم عن هوى، ولا يتكلم عن جهل، والفتوى إذا سلمت من هذين العيبين، فإنها فتوى مؤيدة وفتوى صالحة.

لا أستطيع أن أُعدِّد مناقب الإمام الفقيه الشيخ: يوسف، بل أكتفي بهذا القدر، وأعترف بالعجز. اهـ.

وبعد هذه الكلمات قدموني لألقي كلمتي، وأجبت عن أسئلة الحاضرين، وهي مسجلة في كتاب التكريم.

لا أستطيع إلا أن أقول: جزى الله الجميع عني خيرًا، فلا أستطيع إلا أن أشكرهم. وأشكر الصديق الكبير الشيخ عبد المقصود، وأقول: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

وفاة د. علي جمّاز سنة ١٩٩٣م

تعرفي على الأخ الشيخ علي جماز

عرفت أخانا الشيخ علي جمّاز في قطر، وكان من المجموعة التي سبقتنا متعاقدة مع وزارة التربية ـ أو وزارة المعارف ـ لتدريس العلوم الشرعية. وكان الشيخ عبد الله بن تركي مفتش العلوم الشرعية والمسؤول الأول عنها، حريصًا على استحضار علماء الأزهر لتدريس هذه العلوم، وكان يفخر بذلك. وكان لهذه العلوم أهميتها ويترتَّب عليها نجاح ورسوب. وكان من حُسن حظ الإخوان المسلمين الذين رفضت الحكومة تعيينهم في مدارسها: أن يجدوا باب قطر ودول الخليج مفتوحًا لهم، فولجوه بقوة مع من ولجه من أبناء الأزهر.

كان الشيخ علي عالمًا وداعية، يتميَّز بحضوره وحُسن فهمه، وحسن تلاوته للقرآن الكريم، ولذا كنت أقدِّمه أحيانًا ليصلي بالناس بعض صلاة التراويح نيابةً عني.

ترشيحي الجماز لإدارة المعهد الديني

وبعد انتقالي من المعهد الديني إلى الجامعة، ظللت سنة كاملة محتفظًا بإدارة المعهد، مع العمل في الجامعة، ثم استعفيت من المعهد لأتفرغ للجامعة، ورشحت الأخ الشيخ علي جمّاز، ليقوم بإدارة المعهد. وقد قام بها فأحسن القيام، كما قام بها من بعده الشيخ عبد اللطيف زايد.

والتحق الشيخ علي بتفتيش العلوم الشرعية بالوزارة، فعمل مع شيخنا الشيخ

عبد المعز عبد الستار، ثم سعى للحصول على الدكتوراه في الحديث من الأزهر، وحصل عليها، وعُيِّن معي بكلية الشريعة، مدرسًا للحديث، وبقي بها حتى وفاته رحمه الله.

ابتلاؤه بالفشل الكلوي

ابتلي الشيخ علي بالفشل الكلوي، أعاذنا الله وإياكم منه، فتكلَّف فترة عناء الغسيل في مستشفى حمد، الذي يأخذ ساعات كل مرة. وهو يحتاج مرتين أو ثلاثا في الأسبوع، حتى هيأ الله له السفر إلى أمريكا لزرع كلية هناك.

زراعة الكلية وفشلها

وزراعة الكُلى مشوارها طويل، فلا بدَّ من الانتظار حتى يأتيك الدور، ثم تختار لك الكلية المناسبة، ثم تجرى العملية، وبعدها تحتاج إلى فترة حتى تستقر، فالجسم بطبيعته يطردها، لأنها شيء غريب عنه، ومن هناك تكون الأدوية المضادة للطرد. ولا بدَّ من التحفُّظ من مخالطة الناس، لأنَّ أدنى عدوى قد تحبط العملية كلها، ويضيع تعب المرء بلا فائدة.

وقد أجرى أخونا علي هذه الأمور كلها، وعاد بحمد الله، واحتفلنا بعودته، ومارس عمله كالمعتاد، وما هي إلا مدة قليلة، حتى انعكس عليه الأمر، ورفض الجسم الكلية الغريبة، وعاد لما كان عليه من الغسل في المستشفى، على ما فيه من عنت وإرهاق.

سفره إلى أمريكا لزراعة الكلية مرة ثانية

ثم سافر الدكتور الجمَّاز إلى أمريكا مرة ثانية، ليبحث عن فرصة أخرى، لعلها تكون أفضل من الأولى، فما ينبغي لمؤمن أن يقنط من رحمة الله. فهو سبحانه يكشف الضر، ويجيب المضطر إذا دعاه، كما كشف الضر عن أيوب، وكما ردّ البصر على يعقوب..

وسافر هو وأهله إلى أمريكا، يرتقب الفرصة، وقد طالت هذه المرة، ولم يأت دوره لكثرة الطالبين من ناحية، ولتشديد أمريكا نفسها من ناحية أخرى.

السعي لمنحه مهلة مفتوحة للعلاج

ووفقًا للنظام، ليس الباب مفتوحًا على مصراعيه، بالنسبة لموظّفي الدولة، فله مدة معيَّنة، ثم يكون بقاؤه وعلاجه على حساب نفسه. وقد طلبت من الدكتور كاظم مدير الجامعة الكلام مع ولي العهد بشأن استثناء د. الجماز، من المدة المعتادة لضرورته إلى العلاج، فرجاني د. كاظم أن أصحبه في ذلك، وقال: إنهم يحترمونك ويستحيون منك، ولا يردون لك طلبًا، فتعال معي لتطلب أنت لصاحبك ما تريد.. وقد فعلت وبينت عجزه عن نفقاته. وكان ولي العهد هو الشيخ حمد بن خليفة ـ أمير قطر الآن ـ حفظه الله. فلم يُخيِّب الرجل رجاءنا. وأعطاه مهلة مفتوحة. جزاه الله خيرًا.

معاناته وعيادته

وطالت مدة وجود د. الجماز في أمريكا، وأنجب ابنته مريم هناك، وعاد بعد ذلك، يمارس نشاطه، مع غسل الكلى المعتاد، حتى اشتدَّ عليه المرض، ودخل المستشفى في مرضه الأخير، الذي عانى فيه معاناة أسأل الله تعالى أن يجعلها كفارة له، وأن يزيد بها من حسناته، ويرفع بها من درجاته.

لقد كنت أذهب لعيادته، فأسمع آهات من بعيد، فيتزلزل بها قلبي، وتذرف لها عيني، وأحيانًا لا أجد لي قدرة على أن أدخل عليه، فأعود من حيث جئت.

وفاته ودفنه

إلى أن أتاه أجله رحمه الله يوم الجمعة ٢٠/ ٨/ ١٩٩٣م، وللأسف لم أكن في الدوحة يومئذ، وصلى عليه وشيعه إخوانه وتلامذته ومحبوه إلى مثواه الأخير، حيث دفن في الدوحة، قريبًا من قبر أخيه الشيخ عبد اللطيف زايد. رحمهما الله.

دعوة العلامة الشيخ أبو غدة لمركز بحوث السنة

العالم المتمكّن

وفي هذه السنة الدراسية (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) دعوت صديقنا العلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، أستاذًا زائرًا لمركز بحوث السنة والسيرة، ليستفيد من علمه الباحثون والباحثات من القطريين والقطريات، فاستجاب رحمه الله، وسعدنا به فصلًا دراسيًّا.

والشيخ أبو غدة عالم متمكِّن من عدَّة علوم شرعيَّة ولغوية، من الحديث والتفسير والفقه الحنفي، واللغة والأدب. مع ظرف وخفّة روح، ودعابة محببة، على ما عرف لدى كثير من أهل العلم، إلى ورع واستقامة وتقوى لله تعالى، نحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا أزكِّيه على الله عز وجل.

وقد تعارفنا وتلاقينا مرّات ومرّات في ساحات العلم، وفي ساحات الدعوة والعمل الإسلامي، في بيروت، وفي عمان، وفي السعودية، وفي الجزائر، وفي قطر وبلاد الخليج وغيرها.

ترشيحي لفضيلته لجائزة سلطان بروناي

وقد كنت رشحته باسم المركز لجائزة سلطان بروناي، التي ينظمها مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية، وكانت الجائزة في خدمة السنة وعلومها، فنالها عن جدارة، بما قدّم من كتب ودراسات وتحقيقات حول السنة، حازت رضا المشتغلين بها وإعجابهم،

وكانت هي أول جائزة، أعطاها له سلطان بروناي، الذي جاء إلى لندن، وقدَّم الجائزة للشيخ في حفل بهيج شهدناه، وشهده جمّ غفير من رجالات المسلمين.

أثر زيارته لمركز بحوث السنة والسيرة

وقد كان لوجود الشيخ أثر في أبنائنا وبناتنا الموظفين والموظفات في المركز، فقد أعطاهم دروسًا منهجية في الحديث وعلومه، ولاسيما في تخريج الحديث، وفي اللغة والنحو، وقد أحبّه طلابه، وانتفعوا بعلمه الغزير، وبتجربته الثرية، وبأدبه الرفيع، ولاسيما أننا لم نوفَّق في توظيف أساتذة للمركز، كما طلبنا وتمنَّينا، ووقف الروتين عائقًا دون ذلك، وظلَّ أخونا العالم الأزهري الجليل الشيخ الدكتور موسى شاهين لاشين، هو الأستاذ والخبير الوحيد في المركز. لم يهيئ لنا الروتين الإداري الصارم أن نُعزِّزه بثان، فضلًا عن ثالث ورابع. ولم يستطع وحده أن يفعل شيئًا ذا بال. ومن هنا انتدب لتدريس الحديث في كلية الشريعة.

استجازتي من الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

وقد انتهزت وجود الشيخ أبو غدة في الدوحة، فطلبت منه أن يجيزني في علم الحديث، على طريقة أسلافنا في ذلك، وكنت قد أخذت إجازة قديمًا من المحدث المغربي المعروف الشيخ أحمد بن الصدِّيق الغُماري، حين زار مصر أيام عبد الناصر حوالي سنة ١٩٥٧م[١].

والحقيقة أني لم أُعْنَ من قبل بطلب الإجازات من العلماء، وإلا لكنت أخذت من عدد من المحدِّثين الكبار الذين لقيتهم، مثل الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا (الساعاتي)، والشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، وغيرهم.

---

(١) وقد أصدر لي تلميذي المحب المحدث المحقق محمد أكرم الندوي ثبتا سماه: «كفاية الراوي في إجازة الشيخ يوسف القرضاوي». وقد طلبت ـ لكثرة المستجيزين ـ من أنجب تلاميذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة العالم المحقق المحدث الشيخ محمد عوامة أن يجيزني، وألححت عليه في الطلب، فأجازني إجازة موسَّعة.

ولكنّي رأيت في إجازة الشيخ أبي غدة شرفًا وبركةً، لما أعتقده فيه من فضل وخير وصدق، وقد رفض أول الأمر، وقال: مثلك يُجيز ولا يُجاز، أنا الذي أطلب منك.. وهذا من تواضعه رحمه الله، ولكني أصررت على طلبي، وقلت: أنا أتبرَّك وأتشرَّف بهذه الإجازة، فلا تحرمني منها، فكتب لي هذه الإجازة بخطه، تقبَّله الله في العلماء الربانيين الصادقين[1]:

(١) انظر نصّ الإجازة بخطه في الملحق رقم (٨).

نص الإجازة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى تابعيهم بإحسان من العلماء العاملين، من الفقهاء والمحدثين، وسائر المتّقين.

أما بعد فيقول العبد الضعيف عبد الفتاح محمد أبو غدة الحلبي منشأ ودارًا، تاب الله عليه، وغفر له ولوالديه: قد طلب مني الإجازة في الحديث الشريف وعلومه أخي وصديقي العلامة الدرّاكة الداعية الجليل، والمحدِّث الفقيه الحاذق النبيل، الأستاذ المفضال الشيخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف عبد الله القَرَضاوي، الغني عن التعريف، حفظه الله تعالى ورعاه، ونفع به العباد والبلاد وأولاه، وهو صاحب التصانيف المفيدة الرائقة، والآثار النافعة الفائقة، الشاعر المفكر الإسلامي، الموهوب المحبوب. وهو غنيٌّ عما طلب، بما آتاه الله تعالى من العلوم الواسعة، والمواهب العالية الساطعة. فامتنعتُ أول الأمر من تلبيته، إجلالًا وتقديرًا لفضله ومنزلته؛ متى استقت البحار من الركايا؟! ولكنه أصرَّ واستمر، فأجبته إلى طلبته، فأقول:

أجزتُ أخي العلامة الجليل الشيخ يوسف القرضاوي بما أجازني به شيوخي الأجلة رحماتُ الله عليهم، في بلاد الشام ومصر والحرمين الشريفين والهند وباكستان والمغرب واليمن والعراق وغيرها من البلدان، ليكون ذلك اتصالًا منه بساداتنا المحدِّثين الكبار، وعلمائنا الأفاضل الأخيار. والإجازة لمستحقها وأهلها سنة أولئك الأئمة الأبرار.

فأجيزه بما أجازوني به، وبكل ما صحَّ لي وعني روايته وكتابته، ليتصل سنده بسندهم، ويكون في سلك قافلتهم، وتنالني دعواتهم الصالحة. وأوصيه ونفسي ـ كما أوصاني شيوخي وأساتذتي ـ بتقوى الله تعالى في السرِّ والعلن، والتوقير لأهل العلم

والدين، والسلف الصالحين، وأن يكون خير مُعلّم لمن يتعلَّم منه العلم والدين، رحمةً وشفقة وأمانَة وورعًا وإتقانًا في التوقيع عن ربِّ العالمين، والله وليُّ المتقين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الدوحة من قطر يوم الثلاثاء ٤ من ذي الحجة سنة ١٤١٣هـ

وكتبه

الفقير إلى الله تعالى

عبد الفتاح أبو غدة

زيارة إلى أوزبكستان والمشاركة في مؤتمر الإمام البخاري بسمرقند اكتوبر ١٩٩٣م

مشروع تجديد وتوسعة مسجد الإمام البخاري

كان مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية قد تبنَّى مشروعًا مهمًّا، ولكنه بعد أن مشى خطوات طيِّبة أصيب بما عطَّله عن النجاح، وهو مشروع «تجديد وتوسعة مسجد الإمام البخاري وبناء معهد علمي بجواره». وذلك بولاية سمرقند من جمهورية «أوزبكستان» التي كانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي، وقد استقلَّت حديثًا، وإن بقي حكامها الشيوعيون كما هم، على غير ما حدث في أوربا الشرقية، في رومانيا وبولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وغيرها، التي حرصت أمريكا وحلفاؤها على أن يغيِّروا أنظمة الحكم فيها، ويحوِّلوها إلى بلاد ديمقراطية، يختار الناس فيها حكامًا غير الحكام القدامي. ولكنهم لم يفعلوا ذلك في الجمهوريات الإسلامية، خشية من بروز تيار إسلامي، يكتسح هؤلاء الشيوعيين، ويرث الأرض من بعدهم، فآثروا أن يظل الشيوعيون على احتمال أن تجيء الديمقراطية بالإسلاميين.

تفاهم إدارة مركز أكسفورد مع رئيس جمهورية أوزبكستان

ومع هذا تفاهمت إدارة المركز مع رئيس الجمهورية «إسلام كريموف» على إقامة هذا المشروع، على اعتبار أنه يحسِّن صورتهم عند المسلمين، وهم لن يتكلَّفوا فيه شيئًا، بل على المركز أن يجمع التبرُّعات من بلاد الخليج ومن العالم الإسلامي كله، ولا سيما أنه

مرتبط باسم «الإمام البخاري» الذي له دَيْن على المسلمين جميعا بخدمته للسنة بكتابه «الجامع الصحيح»، الذي هو أصح كتاب في الإسلام بعد كتاب الله.

مؤتمر الإمام البخاري

وقد رأت إدارة المركز: أن تبدأ هذا المشروع بإقامة مؤتمر عن «الإمام البخاري» يتَّسع فيه المقام للحديث عما قدَّمه البخاري للأمة الإسلامية من كتب في الحديث وعلومه: أعظمها: الجامع الصحيح، وكتبه في تاريخ الرجال، ومنهجه الذي تميز به، وفقهه الذي وضعه في مصاف المجتهدين الكبار.

ودُعِي إلى ذلك عدد من كبار العلماء، ولا سيما المشتغلين بعلوم السنة، وعلى رأسهم رئيس مجلس أمناء المركز الشيخ أبو الحسن رحمه الله، ومنهم العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والأستاذ الدكتور محمد ناصر الدين الأسد، والفقير إليه تعالى.

إلى طشقند عاصمة أوزبكستان

وقد ذهبت إلى طشقند عاصمة أوزبكستان مع وفد من المملكة على رأسه نائب رئيس مجلس الأمناء الدكتور عبد الله نصيف، وعضو المجلس الأستاذ عبد الله علي رضا، الذي صحبناه في طائرته الخاصَّة، التي نقلتنا من جدة إلى طشقند.. وقد أكرموا وفادتنا، وأنزلونا في قصر الضيافة الخاص، وعاملونا معاملة طيبة. وهذه أول مرة أزور فيها جمهورية من الجمهوريات الإسلامية، التي كانت تعد جزءًا من الاتحاد السوفييتي، ويعتبرها كثير من المسلمين من «بلاد الأقليات الإسلامية»! وكنت أقول: يا إخواننا، هذه ليست بلاد أقليات، بل هذه بلاد إسلامية أصيلة، كل أهلها مسلمون، وقد دخلت الإسلام منذ القرن الأول، فاعتبارها بلاد أقليات: لون من التحريف والتزييف للواقع.

على كل حال بقينا يومين على ما أذكر في «طشقند»، وهي التي كانت تعرف بـ«شاش»، وينسب إليها الشاشيون الفقهاء وغيرهم.

وطشقند تنقسم إلى قسمين: جديد وقديم: فالجديد فيه مظاهر المدنية الحديثة، والشوارع والميادين والحدائق والمتاحف والتماثيل، وغير ذلك. وإليه كانوا يأخذوننا لنطلع على هذه الأشياء.

وهناك قسم قديم من المدينة، بقي على حاله، يمثل الفقر والتخلف وسوء الحال. فهذا القسم من المدينة لا ينتمي إلى هذا العصر ولا يعرفه، إنما هو من مخلفات الماضي.

أثر الشيوعية في أوزبكستان

هذا هو أثر الشيوعية التي حكمت هذه البلدان طوال عقود مضت. سبقت أمريكا في غزو الفضاء، وامتلكت ترسانة عسكرية هائلة، منها أسلحة الدمار الشامل، والأسلحة النووية، ولكنها لم توفر لشعوبها الرخاء الذي حصلت عليه شعوب أخرى.

لقد أنكرت الماركسية جنَّة الآخرة، التي وعدت بها أديان السماء، ووعدت أتباعها بجنة بديلة في هذه الدنيا، سيجدون فيها كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، حين تحكم الشيوعية، وتطبق منهجها الاقتصادي والاجتماعي، كما وعدت طبقة العمال (البروليتاريا) أن يكونوا هم ملوك الأرض، بدل الملوك والحكام السابقين.

ولكن الواقع الذي عاشته البلاد الشيوعية، وشاهدناه وشاهده الناس في العالم، لم يجدوا لجنة الماركسيين أثرًا في ديارهم، ولا حدث أن الطبقة العاملة سعدت من شقاء، وطعمت من جوع، وأمنت من خوف، بل وجدنا الطبقة العاملة في بلاد الرأسمالية أسعد حالًا، وأروح بالًا، وأكثر رفاهية منها في البلاد الشيوعية.

وهذه البلاد «أوزبكستان» نموذج حيّ، وشاهد ناطق، على أن الماركسية أو الشيوعية أخفقت تمام الإخفاق في الإيفاء بوعودها، وتحقيق أحلامها. بل كانت كما قال الشاعر كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

فلا يغرنك ما منت وما وعدت ... إن الأمانيَّ والأحلام تضليل

صلاة الجمعة في طشقند

وقد أدركتنا الجمعة، ونحن في طشقند، فاصطحبونا إلى مسجد، كان معظم المصلّين فيه من الشيوخ، وكان عنصر الشباب فيه قليلًا، على عكس ما هو واقع في العالم الإسلامي كله: أن الشباب هم الذين يعمرون المساجد، وهم العمود الفقري للصحوة الإسلامية. وكان الخطيب تقليديًّا، تُوحي خطبته بالموت أكثر مما تبعث الحياة.

وقد رآنا الناس فأقبلوا علينا يرحِّبون بنا، ولكني كنت أشعر بأنهم خائفون غير منطلقين، كأن هناك أغلالًا في أعناقهم، وقيودًا في أرجلهم.

إلى مدينة سمرقند وزيارة قبر البخاري

ثم أعدوا لنا طائرة خاصة نقلت المدعوين جميعا إلى مدينة «سمرقند» المدينة التاريخية المعروفة، وهي عاصمة المحافظة التي فيها قرية الإمام البخاري، واسمها «بخَرتَنك» وقد زرناها، وزرنا قبر الإمام، ودعونا بالدعاء المأثور في زيارة القبور، وصلينا في مسجده، وهو مسجد قديم بالفعل يحتاج إلى توسعة وتجديد.

آثار فخمة رائعة

وقد زرنا الآثار الإسلامية في مدينة سمرقند، وهي حقًّا آثار فخمة رائعة، من المساجد والقصور والقلاع والمدارس، وغيرها، بناها تيمورلنك وخلفاؤه، وهي لا تزال تنبئ عن المجد والعظمة والرفعة التي ارتفعت إليها أمتنا في المشرق والمغرب.

قبر قُثَم بن العباس

وأذكر من الآثار التي زرناها: قبر قُثَم بن العباس، ابن عم رسول الله، أحد الفاتحين الأوَّلين، الذين نشروا الإسلام في هذه البلاد منذ العهد الأموي، وقد قيل لأمه أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنها، وقد ذكر أن أحد أولادها دفن في المشرق والآخر دفن في المغرب، فسئلت عن ذلك، فقالت: باعدت بينهم الهمم!

قضينا يومًا في زيارة الإمام البخاري، ثم في التعرُّف على الآثار الإسلامية في المدينة.

افتتاح المؤتمر

وفي اليوم التالي: بدأ المؤتمر العلمي، الذي افتتحه الإمام أبو الحسن الندوي بكلمة قيمة، وقدَّمني لألقي كلمة بهذه المناسبة، وكان ذلك في شهر أكتوبر سنة ١٩٩٣م.

ثم قدم أصحاب البحوث بحوثهم أو مختصرات لها، جلَّوْا فيها ما قام به هذا الإمام الجليل من خدمة لعلوم السنة، وكيف أن الله قيَّض علماء العجم ليخدموا حديث نبيه. فأصحاب الكتب الستة كلهم أعاجم: محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، وأبو داود السجستاني، وأبو عيسى الترمذي، وأحمد بن شعيب النسائي، وابن ماجه القزويني.

حفل عشاء مصحوب بالموسيقى

وفي المساء أقام لنا محافظ سمرقند: حفل عشاء، تكريمًا للعلماء الذين قدموا من بلاد العرب والإسلام، ودعا إليه عددًا من الشخصيات العامة وذوي الوجاهة في المدينة. وقدموا لنا في هذا الحفل ما لذَّ وطاب من أطعمتهم وأشربتهم، التي عرفوا بها.

وكان مما قدموه لتكريمنا والاحتفاء بنا: فرقة من فرقهم من الرجال، تقدم بعض الألحان والأغاني المحلية، مصحوبة ببعض الموسيقى!

ثورة المشايخ على الموسيقى

وما إن سمع بعض المشايخ هذه الموسيقى، حتى ثارت ثائرتهم، وهاج هائجهم، وهمس بعضهم في أذن بعض، وسرعان ما تحوَّل الهمس إلى جهر: اللهم إن هذا منكر لا يرضيك، وأقبل بعضهم إليَّ يقول: كيف ترضى يا شيخ يوسف أن تجلس في حفل فيه منكر؟

قلت: يا جماعة، لا بدَّ أن يكون العالم حكيمًا، لا بد أن يراعي الظروف.. هذه البلاد

حكمتها الشيوعية الملحدة سبعين عاما، وهي لم تتحرَّر منها تمامًا، لا يزال حكامها القدامى يمسكون بزمامها.. وأنتم تعلمون أنه يجوز السكوت على المنكر مخافة منكر أكبر منه، وهذا منكر صغير، بل أمر الموسيقى مختلف فيه. والمختلف فيه يجوز السكوت عليه. بل الإجماع: ألا ينكر أمر مختلف فيه. وقد علمت أن هؤلاء يغنون بمدائح نبوية، قصدوا منها تكريمنا والاحتفاء بنا! لا بدَّ أن تصبروا وتسكتوا على هذا حتى لا يخفق مشروعنا. قلت هذا أو قريبًا منه بصوت خافت، وبدون أن تحدث ضجة. وكنت أجلس عن يمين الشيخ أبي الحسن الذي يجلس عن يمين المحافظ الداعي إلى العشاء. وأبلغت الشيخ أبا الحسن، فأبدى أسفه، وقال: لا حيلة أمامنا إلا السكوت.

إخراج الفرقة الموسيقية

ولكن إخواننا ـ سامحهم الله ـ لم يقْدُروا الأمر قدره، وأرادوا أن يعاملوا هذا البلد كأنه بلد إسلامي، يحاسب على الكبيرة والصغيرة والشبهة. وكان أشدهم في ذلك شيخنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والدكتور محمود الطحان العالم السوري وأستاذ الحديث بالكويت، وبعض من نسيت اسمه، ثم لم يكتفوا بالقول، فترك جماعة منهم مائدة العشاء، وخرجوا تباعًا، مما جعل المحافظ يسأل: ما الأمر؟ فأخبروه: أنَّ المشايخ يعترضون على وجود الفرقة الموسيقية! قال: إنما أردنا تكريمهم. ثم أمر بإخراج الفرقة من المكان.

عودة الشيوخ وهدوء ثائرتهم وغضب المحافظ

وهنا عاد الشيوخ الغاضبون، وهدأت ثائرتهم. ولكن الذي ثار باطنه على الجميع هو المحافظ الذي أنهى العشاء، وقد بدا عليه التأثّر والغضب، وإن لم يقل شيئًا، وصافحنا وانصرف.

وفي اليوم التالي، طلب من الجميع أن يعودوا إلى طشقند في المساء، بعد أن كان سمح لهم بالبقاء ثلاثة أيام في سمرقند، ومن أراد البقاء أكثر فلا حرج عليه.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل إن المشروع قد توقف بعد ذلك، ولم يسر إلى الأمام خطوة واحدة، وأظنه انتهى إلى الإخفاق.

وقفة نقد وتحليل

وهنا يقف المرء وقفة نقد وتحليل لما حدث. هل كان الأمر يستحقّ هذه الغضبة الـمُضَرِيَّة من المشايخ العلماء؟ ألم يكن هناك من الأعذار والمخفِّفات ما يستوجب موقفًا أخف وأيسر من موقف الإنكار الشديد؟

إنَّ الأمر الذي أنكره المشايخ ليس منكرًا مجمعًا عليه، بل هو منكر مختلف فيه قديمًا وحديثًا، وحسبنا أن رجلًا مثل ابن حزم يتمسك بظاهر النصوص وحرفيتها، لم يجد عنده نصًّا من قرآن ولا سنة يحرِّم الغناء والآلات «الموسيقية». ويكفي أن نقرأ كتابًا مثل «نيل الأوطار» لنرى الخلاف منتشرًا بين الأئمة والفقهاء في سائر العصور، في الغناء بآلة وبغير آلة.

ومن القواعد المتفق عليها: أن لا إنكار في المسائل المختلف فيها. وقد ألفت في الموضوع كتاب «فقه الغناء والموسيقى» رجَّحت فيه أنه لا يوجد نص صحيح الثبوت، صريح الدلالة، على حرمة الموسيقى. وقد الف عدد من العلماء المعاصرين انتهوا إلى ما انتهت إليه.

ومن ناحية أخرى: كان يمكن السكوت على هذا المنكر ـ لو سلمنا بمنكريته ـ لجملة أسباب، منها: ظروف البلد الذي يستضيفنا، وأنه خارج من شيوعية سافرة حكمته نحو سبعين عاما، وأننا ضيوف على هذا البلد، وأننا نحاول إقامة مشروع نرجو له النجاح، وأن الرفق في معالجة الموقف أولى من العنف، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه.

ثم هذا أمر عمَّت به البلوى في داخل بلاد المسلمين التي نعيش فيها، ولا نستطيع أن نمنعه، وعموم البلوى من أسباب التخفيف والتيسير فيه.

في فندق طشقند

على كل حال وقع ما وقع، وعدنا إلى طشقند جميعًا في طائرة واحدة، وأنزلونا في فندق من أكبر فنادق العاصمة، حتى نحن الذين كانوا أنزلونا في قصر الضيافة عند قدومنا، سحبوا منا هذه الميزة، ونزلنا مع المجموعة، ولعلّ هذا خير.

ولكن الفندق الضخم، فندق رديء في أثاثه وفي فراشه وفي خدماته، رديء في طعامه وشرابه، الخبز رديء، الطعام المطهو رديء، اللحم رديء، وقليل ما هو، سريره صغير جدًّا، ويوجد فيه تلفزيون صغير قديم، لا تجد فيه غير محطة طشقند نفسها. لا تجد فيه ثلاجة فيها قارورة ماء بارد. أهذا ما أنجزته الشيوعية طوال تلك العقود، وهي التي وعدت الناس أن تعوضهم عن جنة الآخرة التي تعدهم بها الأديان، بجنة في الدنيا تجري من تحتها الأنهار، ويقطفون فيها أطيب الثمار؟!

وأعجب من ذلك كله: أنك إذا خرجت من الحجرة لتنزل إلى المطعم، أو لأيِّ سبب، لا بد أن تسلم مفتاح الحجرة، إلى مكتب في كل طابق.

ولذا لم يفكر أحدنا أن يبحث عن أسواق في هذا البلد، أو ماذا يمكن أن يشتري منه، بل كان كل همنا هو سرعة الخروج منه. ونظرًا لأننا قدمنا في طائرة خاصة، وقد عاد بها صاحبها منذ أيام، فلا بد أن نبحث عن طائرة تقلّنَا.

عودة على طائرة الشارقة

والحمد لله وجدنا ضالتنا في «طائرة الشارقة» التي تنقل الركاب بين طشقند والشارقة، أكثر من مرة في الأسبوع، يذهب الناس من طشقند إلى الخليج، ليملئوا حقائبهم من أسواقه من كل ما يتوافر في الخليج من منتجات كهربائية وإلكترونية وغيرها، وهو ما لا يوجد في هذه البلاد التي بدت للعيان متأخرة عن هذا العصر، ليبيعوا هذه الأشياء في بلدهم، ويربحوا من ورُئها.

ووصلنا الشارقة بحمد الله، ومن الشارقة أخذنا الطائرة إلى الدوحة. والحمد لله رب العالمين.

تقديمي لكتاب تقرير «الأمة في عام»
ونقد الأستاذ سيد ياسين له وردي عليه

مبادرات الدكتور محمود عاكف التجديدية

أخونا وصديقنا د. محمود عاكف من الرجال أصحاب المبادرات، الذين يتحرَّكون باستمرار، مجتهدين في استحداث وسائل جديدة غير الوسائل التقليدية، التي يقف عندها الإسلاميون غالبًا، ولا يكادون يبتكرون أسلوبًا جديدًا، بل يكادون يعلنون سخطهم على كل مجدِّد. وكأنهم يؤمنون بقول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئًا!

إنشاء مركز الدراسات الحضارية

ولكن أخانا عاكفا يؤمن بالتجديد أبدًا، ويسعى إليه. ولهذا أنشأ «مركز الدراسات الحضارية» في سنة ١٩٩٣م، وجعل له فرعًا أو مكتبًا في القاهرة. وانظر إلى تسمية المركز، حيث لم يحمل عنوانًا إسلاميًا، وذلك ليسع الجميع، ولا يخيف غير المسلمين.

أنشطة المركز المتنوعة

وقد قام المركز بأنشطة متنوعة، منها ندوات كانت تبحث في موضوعات يبتعد عنها الإسلاميون، مثل التعددية والحريات، وشرعية تكوين الأحزاب في الدولة الإسلامية، والموقف من المرأة، وضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية. إلى آخره.

مشاركة عدد من المفكرين

وكان يشارك في هذه الحلقات عدد من المفكرين الإسلاميين الأحرار، مثل: المستشار طارق البشري، ود. محمد عمارة، والأستاذ فهمي هويدي، ود. أحمد كمال أبو المجد، ود. محمد سليم العوا، ود. أحمد كمال إمام، كما شارك فيها عدد من الإخوان الملتزمين بالتنظيم، مثل: د. عبد المنعم أبو الفتوح، ود. عصام العريان، حتى الأستاذ مصطفى مشهور نائب المرشد العام، ثم المرشد العام بعد ذلك شارك في بعض الندوات.

مشاركتي في بعض الندوات

وقد شاركت أيضًا في بعض الندوات حين أكون في القاهرة في إجازة الصيف، أو عند مروري بالقاهرة لسبب أو لآخر.

ومن الندوات التي أذكرها مما شاركت فيها: ندوة تكوين الأحزاب داخل الدولة الإسلامية، حيث قلت: إنَّ تعدد الأحزاب في السياسة أشبه بتعدد المذاهب في الفقه، ويمكننا أن نقول: إنَّ الأحزاب مذاهب في السياسة، والمذاهب أحزاب في الفقه، وقد نقلها الكاتب المعروف فهمي هويدي على لساني في مقالاته الأسبوعية الشهيرة في «الأهرام» وغيرها.

إصدار تقرير «الأمة في عام»

وكان من أعظم ما أنتجه هذا المركز: إصدار تقرير «الأمة في عام»، وهو تقرير إستراتيجي إسلامي، على غرار التقريرات السنوية التي تصدرها جهات مختلفة في مصر وخارجها، وأشهرها: تقرير مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام.

وهذا التقرير يعتبر عملًا علميًّا موضوعيًّا عصريًّا مهمًّا، يشرف عليه أساتذة في العلوم السياسية، مثل: أ. د. نادية مصطفى، وأ. د. سيف الدين عبد الفتاح، ود. هبة رؤوف، وعدد من الشباب الباحثين الواعدين.

وقد صدر عن المركز عدة تقريرات في عدة سنوات، وفي كل تقرير يكتب مقدمته أحد المفكرين المعروفين.

وفي سنة ١٩٩٤م طلب مني د. عاكف أن أكتب مقدمة التقرير لذلك العام، كما طلب من المستشار طارق البشري أيضًا، فحظي التقرير بمقدمتين.

وكتبت كلمة عن «الأمة» التي جعلها التقرير عنوانا له، ومحورًا يدور حوله، وما المقصود بهذه الأمة، وهي ـ بغير شك ـ الأمة الإسلامية، وهل توجد «أمة إسلامية» بالفعل أو هي أوهام في رؤوس الإسلاميين لا حقيقة لها في الخارج؟

الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم

وقد بيَّنت في مقدمتي: أن هذه الأمة حقيقة لا ريب فيها: هي حقيقة دينية، وحقيقة تاريخية، وحقيقة جغرافية، وحقيقة سياسية، وحقيقة ثقافية، وحقيقة بمنطق المصلحة المشتركة والمصير المشترك. بل هي حقيقة بمنطق الأعداء أنفسهم التي ينظرون إليها ككتلة واحدة من المحيط إلى المحيط.. ولذا يزعج إسرائيل كل الإزعاج أن تمتلك باكستان القنبلة النووية، وأن تسعى إيران إلى امتلاك الطاقة النووية.

وقد ذكرت أن هذه الأمة أمة واحدة بحكم وحدة العقيدة والشريعة والقبلة والمفاهيم والآداب المشتركة. وأن الإسلام حافظ على وحدتها بأن جسَّدها في عناصر ثلاثة هي:

١ ـ وحدة المرجعية العليا، التي تتمثَّل في الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة.

٢ ـ وحدة الدار، وأعني بها: دار الإسلام التي تجعل أوطان المسلمين وإن تباعدت وطنا واحدا، يجب على الجميع أن يدافعوا عنه، ويأثمون إذا فرطوا في ذلك.

٣ ـ وحدة القيادة التي تتمثَّل في الخلافة الإسلامية، التي ظلت تجمع الأمة تحت رايتها ثلاثة عشر قرنا. حتى ألغاها كمال أتاتورك في سنة ١٩٢٤م، حين هدم الخلافة العثمانية، التي كانت تمثل ـ على ما بها ـ آخر تجمع للمسلمين تحت راية العقيدة... إلى آخر ما قلت في هذه الكلمة.

وقد علق الكاتب المعروف الأستاذ سيد ياسين رئيس مركز الدراسات السياسية في الأهرام على مقالي، بأنه يمثل «حلم الفقيه» بإمبراطورية إسلامية، ولا يستند إلى رصيد من الواقع، على حين مدح مقال أخي المستشار البشري بأنه يمثل تحليل المؤرخ.

وقد رددت على كل ما أثاره الأستاذ ياسين في الأهرام في صفحته الثقافية التي يكتب فيها مقاله أسبوعيًّا، ثم ردَّ الأستاذ على مقالي في الأسبوع التالي، ورددت عليه أيضًا.

وأشهد أنه كان يكتب بأدب واحترام، دون إساءة أو إسفاف، وإن كانت زاوية الرؤية تختلف اختلافًا شاسعا بيني وبينه، فمنطلقاتنا متباعدة، وغاياتنا متفاوتة، ومصادرنا متباينة، فمن العسير أن نلتقي، كما قال الشاعر:

أيها المنكح الثريا سهيلا عَمْرَكَ اللهَ! كيف يلتقيان؟

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان!

ولا يتسع المقام هنا لإيراد هذه المساجلات، وقد تضمنها جميعا كتابي: «الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم»[1].

(١) نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة ببيروت.

جائزة الملك فيصل في الدراسات الإسلامية

ترشيحي لجائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام

رشّحتني جهات عدّة لجائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام، وأول من رشحني لها من قديم: جمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت. ثم رشّحتني عدة جامعات إسلامية ومدنية أكثر من مرة، حتى قال لي صديقنا العلامة الشيخ عبد الله بن بية: ظللنا في جامعة الملك عبد العزيز نرشحك لجائزة خدمة الإسلام لعدّة سنوات. ولا أدري من الذي يقف في سبيل هذا الترشيح، مع أن أهليَّتك للجائزة واضحة للعيان؟!

حجب الجائزة عني!!

وفي إحدى السنوات، رشَّحتني سبع جامعات لهذه الجائزة، منها: جامعة قطر، وجامعة أسيوط، وجامعة إسلام آباد، وجامعة الملك فهد للبترول، وجامعة الملك عبد العزيز، وغيرها، ولكن لاعتبارات عندهم لا أعلمها، حجبوها عني!

وفي هذه السنة (١٤١٤هـ) رشّحتني جامعة الأزهر لجائزة الدراسات الإسلامية في الفقه، كما رشح آخرون أخانا الكبير الشيخ سيد سابق رحمه الله، على كتابه النافع «فقه السنة».

اشتراكي مع الشيخ سيد سابق في الجائزة

وقد اشتركنا نحن الاثنين في هذه الجائزة. وفي الحقيقة لم أفرح بها كثيرًا، لأنها تحمل اسم رجل أحببناه في الله، لمواقفه الصادقة في صف القضايا الإسلامية، وتبنِّيه الدفاع عن الإسلام وحرماته ورجالاته في كل مكان.

وفي الموعد المحدَّد دُعيت إلى حضور الاحتفال ـ بمدينة الرياض ـ لتسلُّم الجائزة مع الفائزين الآخرين: أستاذنا الشيخ سيد سابق، والدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) والدكتورة وداد القاضي من أمريكا (لبنانية الأصل) كلتاهما في الأدب والنقد، وآخرين من الأوربيين والأمريكان في الطب والعلوم.

سفري إلى الرياض

وقد سافرت إلى الرياض ومعي اثنان من أبنائي، هما: محمد الابن الأكبر، الذي قدم من أمريكا حيث يدرس الدكتوراه هناك في الهندسة، مبتعثا من جامعة قطر. وابني الأصغر أسامة الذي كان بدوره في كلية الهندسة بجامعة قطر.

وكان الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني ووزير الدفاع والطيران، والمفتش العام، هو الذي يسلمنا الجائزة، بحضور الأمير خالد الفيصل الأمين العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية.

كلمتي بهذه المناسبة

وقد كتبت كلمة بهذه المناسبة ولم أرتجلها كعادتي، فهم لا يرضون بالارتجال، وألقيتها على جمهور المدعوين لهذا الحفل، وكلهم شخصيات مرموقة من المملكة ومن خارجها.

ومن فضل الله: أن لاقت كلمتي استحسانا ملحوظًا من الحضور، وصفق لها الجميع تصفيقًا طويلًا، وبعضهم كان من العلمانيين الأقحاح الذين كانوا يشاركون في مهرجان الجنادرية المعروف. وقال كثيرون لي: إن كلمتك لم تكن مجرد كلمة مدح أو شكر، بل كانت تعبيرًا عن منهج في الفقه الإسلامي، ما أشدّ حاجة المسلمين في عصرنا إليه.

وسأرود في الملاحق هنا نصّ الكلمة، وبخاصة أنها مركزة وقصيرة[1].

واقتسمت أنا والشيخ سيد سابق الجائزة المالية: وكانت كلها نحو ٧٥ خمسة وسبعين ألف دولار، على أن أهميتها ليست في قيمتها المادية، بل في قيمتها المعنوية.

---

(١) انظر الملحق رقم (٩).

تأسيس المؤتمر القومي الإسلامي

مواجهة دعاة التطبيع

في سنة ١٩٩٤م تنادى الإسلاميون والقوميون «العروبيون» إلى ضرورة التلاقي بينهما، لتأسيس كيان مشترك يجمع الفريقين في جبهة واحدة، لمواجهة دعاة «التطبيع» مع العدوّ الصهيوني، وتذويب الحواجز ـ ولا سيما الحواجز النفسية والثقافية ـ بينه وبين أمة العرب والإسلام.

وكان دعاة التطبيع، والاستسلام، كما يريده الصهاينة والأمريكان من ورائهم، قد علت أمواجهم، وارتفعت أصواتهم، وتبجَّحوا بدعاواهم في الوطن العربي كله، وفتحت لهم أجهزة الإعلام الرسمية الأبواب، وأتاحت لهم الفرص ليشوِّهوا ويشوِّشوا ويُضللوا في المجال الفكري والسياسي، ما شاءت لهم أهواؤهم، وما شاء لهم سادتهم، وقد وحَّدوا صفوفهم، وصوَّبوا سهامهم، وكأنما حسبوا أن الجو قد خلا لهم. كما قال الشاعر قديما:

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقِّري ما شئت أن تنقِّري

ضرورة التلاقي بين الإسلاميين والقوميين

وكانت القوى الوطنية والقومية والإسلامية مبعثرة موزَّعة الجهود، مختلفة المواقف والمناهج، ومتصارعة القيادات، وإن كان هدف الجميع واحدًا، بالنسبة لقضية الأمة الجوهرية، وهي قضية فلسطين، التي لا يختلف اثنان منهم في وجوب تحرير أرضها، وجوبًا دينيًّا، ووجوبًا قوميًّا، ووجوبًا إنسانيًّا.

لقد انقضى ذلك العهد الذي ظل فيه الفريقان يهاجم كلاهما الآخر، وبخاصة الغلاة من الطرفين.

فالإسلاميون يتَّهمون القوميين ـ وخصوصًا غلاتهم ـ بأنهم لا يؤمنون بالدين عامة، ولا بالإسلام خاصة، ويعتبرون القومية العربية كأنها هي نبوة جديدة، بديلة عن نبوة محمد، وأنهم يسوون بين أبي جهل وعمر بن الخطاب، وبين حمّالة الحطب وفاطمة بنت محمد، وبعضهم سمى ابنه «لهبا» لينادى: يا أبا لهب! إلخ ما قيل.

حتى قال أحد شعرائهم:

بلادك قدمها على كل ملة	ومن أجلها أفطر، ومن أجلها صم
هبوني دينا يمنح العرب وحدة	وسيروا بجثماني على دين برهم
سلام على كفر يوحِّد بيننا	وأهلا وسهلا بعده بجهنم

نشأة القومية العربية

ومن المعروف أن القومية وعاء يمكن أن يملأ بأي أيديولوجية، يمينية أو يسارية، أو إسلامية، ولكن القومية العربية نشأت نشأة علمانية مفرغة من الالتزام بالدين، أي دين. هكذا دعا إليها «أبو القومية» ساطع الحصري في كتبه ورسائله المختلفة، وهكذا دعا إليها حزب البعث منذ ميلاده في سوريا على يد ميشيل عفلق ورفاقه وأساتذته، وانتقل إلى العراق، متضمِّنا هذا الموقف المعادي من الدين، مع أن منظِّري القومية أقاموها على اللغة والتاريخ، لا على العرق ولا على الأرض. وهذان العنصران ـ بالنسبة للقومية العربية ـ يربطانها ربطًا متينًا بالإسلام، إذ لا معنى للغة العربية بغير القرآن الذي حفظها وخلدها ووحدها، ولا معنى لتاريخ العرب بغير الإسلام، فهو صانع مجْد العرب، وهو الذي جعل لهم رسالة في العالمين.

وقد كان عفلق يشيد بمحمد بن عبد الله باعتباره عبقرية عربية، لا باعتباره صاحب رسالة ربانية لهداية العالم وإخراجه من الظلمات إلى النور.

والقوميون يتهمون الإسلاميين: بأنهم لا يجعلون للعروبة مزية في فكرهم، ولا للعرب مكانة في برنامجهم، مع أن النبيَّ محمدًا منهم، والقرآن نزل بلغتهم، والكعبة

البيت الحرام في أرضهم، وكذلك المسجد النبوي والمسجد الأقصى... وكذلك حَمَلة رسالة الإسلام الأولون الذين نشروا الإسلام في العالم منهم.

وقد ظل هذا التباين بل التصارع نحو أربعة عقود، منذ الخمسينيات حتى أوائل التسعينيات.. وبعد تبني عبد الناصر للقومية العربية، ودخوله مع الإسلاميين في صراع سقط فيه شهداء: ازدادت الفجوة بين التيارين.

تداول الأيام

ولكن «تداول الأيام» سنة من سنن الله، التي قرَّرها القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠). والدنيا تتغيَّر، والأحوال تتغير، والنفوس تتغيَّر، والسياسات تتغيَّر، ولا ينبغي للناس أن يجمدوا على حالة واحدة، وإن تغير العالم من حولهم.

ولا غرو أن وقف ممثلو التيار الإسلامي وممثلو التيار القومي وقفة تتَّسم بالحكمة والعقلانية، وتبعد عن الانفعالية والعاطفة، وعن إفرازات المواقف التاريخية، وما تركته من مرارات في أنفس الجميع، ولا سيما التيار الإسلامي الذي يشعر بأنه كان هو المظلوم والمكلوم ومقدم الضحايا. ورأى الجميع أن الموقف اليوم يستوجب من كل عقلاء الأمة أن يتراصوا في جبهة واحدة، ليواجهوا بحقهم باطل الدعاة إلى الاستسلام والتطبيع أو التطويع أو التركيع لمخطط العدو الصهيوني.

التركيز على القواسم المشتركة

وبعد لقاءات ومشاورات من حكماء القيادتين: رئي أن تتكون من كل فريق لجنة تقدِّم ورقة تتضمَّن رؤيته في معالجة الموقف، متضمنة ضرورة التلاحم بين القيادتين، مركزة على القواسم المشتركة بينهما، مجتهدة في تعميقها، مجتثة مواضع الخلاف، ومثيرات النزاع، فعند الشدائد تذهب الأحقاد، والمصائبُ يجمعن المصابين، والمحن الكبار تجمع ولا تفرِّق، وأي محنة أكثر من محاولة الصهيونية أن تبتلع فلسطيننا، وأن تتحدّى أمتنا، وأن تنتصر على ثلاثمائة مليون من العرب، ووراءهم ألف مليون من المسلمين أو تزيد؟!

وتكوّنت اللجنة الإسلامية من نخبة من مفكريهم المرموقين: المستشار طارق

البشري، ود. محمد عمارة، ود. محمد سليم العوا، وأ. فهمي هويدي، والفقير إليه تعالى، وانضمّ إليهم د. أحمد صدقي الدجاني، الذي شارك أيضًا مع التيار القومي، فكان هو همزة الوصل بين الفريقين. كما تكوَّنت لجنة مماثلة من النخبة المعتدلة من مفكري القوميين المرموقين. وأعدوا ورقتهم، كما أعد الإسلاميون ورقتهم.

واتفق الفريقان على أن يلتقيا في صورة مؤتمر عام، يقدم فيه كل منهما ورقته، لتناقش بحرية وصراحة.. وبعد ما يقرر المؤتمر من الحذف أو التعديل أو التحسين، أو الإضافة، ينبثق من هذا اللقاء كيان عام يضم القوميين والإسلاميين معًا في هذه المرحلة العصيبة التي تمر بها أمتنا.

ولم توجد ـ للأسف ـ دولة عربية ترحِّب بالفريقين غير واحة العرب: لبنان، الذي وسعت أرضه، ووسع صدره هذا المؤتمر التاريخي.

وفي المؤتمر قدَّم الدكتور محمد سليم العوا ورقة الإسلاميين.

وقدَّم الدكتور أحمد صدقي الدجاني ورقة القوميين.

كلمتي في المؤتمر في شرعية هذا التلاحم

وتحدَّث عدد من الإسلاميين والقوميين، منهم يوسف القرضاوي، فقد ألقيت كلمة في تأصيل شرعية هذا التلاحم، وأنه فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، وإذا لم يتم هذا التلاقي ويتأسس هذا الكيان، فليس هناك غير الطوفان.

لقد انتهى عصر الصراع بين الفريقين، الذي كان يقوده الغلاة من الطرفين. وبدأ عصر جديد، عصر التقارب والتواصل والتضامن، التي يُوجبها علينا الإسلام والعروبة والمصلحة وطبيعة المرحلة. أي عصر أهل الحكمة والاعتدال.

وتحدث علامة الشيعة الشيخ محمد حسن فضل الله، وألقى كلمة حول هذا المعنى.

والحمد لله لقد انبثق عن هذا التجمع الكبير: تأسيس المؤتمر القومي الإسلامي، وأجمع المؤتمرون على اختيار الأخ الحبيب المفكر المناضل المعتدل الدكتور أحمد صدقي الدجاني ـ رحمه الله ـ منسقًا عاما للمؤتمر، وكان موضع ارتياح الجميع.

وكان من أعظم إنجازات هذا المؤتمر بعد فترة: **إنشاء مؤسسة القدس الدولية.**

دعوات مكثفة إلى مؤتمرات
ومحاضرات في أنحاء العالم

كثرة الدعوات من الجامعات والمؤسسات العلمية

كان عقدا الثمانينيات والتسعينيات من أخصب العقود في نشاطي العلمي والدعوي، فقد انهالت عليّ الدعوات من الشرق والغرب، والشمال والجنوب، لإلقاء محاضرات، أو المشاركة في مؤتمرات أو ندوات، عربية وإسلامية وعالمية.

كانت الدعوات تأتي من الجامعات والمراكز الثقافية، والمعاهد العلمية والفكرية، والمؤسسات العلمية والتربوية والأكاديمية، شعبية ورسمية.

وكنت أعتذر عن كثير منها، وأستجيب لبعضها حسب أهميتها من ناحية، وحسب ظروفي الخاصّة من ناحية أخرى.

وأحيانًا يكون في الموعد الواحد أكثر من ندوة أو مؤتمر! فلا بد للمرء من أن يرجِّح أحدهما أو أحدها على الآخر، وَفْق معايير عنده، وكثيرًا ما يعتب الإخوة الداعون، ويلومونني، وأنا والله لا حيلة لي، فوقتي وجهدي وقدرتي لا تتسع للجميع... وقديماً قالوا: رضا الناس غاية لا تدرك. وقال الشاعر:

ومن في الناس يرضي كلّ نفس   وبين هوى النفوس مدى بعيد؟!

وقد رأيت كل جماعة تطالبني بزيارة بلدها أو مركزها أو مؤسستها: ترى نفسها أولى الناس بي، وأن حقّهم مقدَّم على حقٍّ غيرهم، بل ينظرون، وكأنه لا يوجد أحد غيرهم، وما الذي يمنعني من الاستجابة لطلبهم؟

كثرة الواجبات وازدياد المطالب

ولقد كنا في مطلع شبابنا نحفظ الوصايا العشر للإمام حسن البنا عليه رحمة الله، وهي وصايا تربوية عملية، ومنها وصية تقول: الواجبات أكثر من الأوقات، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته، وإذا كانت لك حاجة، فأوجز في قضائها.

«الواجبات أكثر من الأوقات» كنا نحفظها قولًا، فأصبحنا نعيشها فعلا؛ فالأوقات محدودة جدًا، والواجبات المطلوبات من أمثالنا واسعة جدًّا، وكثيرة جدًّا، وهي دائما في ازدياد.

والعجيب أني كلما تقدَّمت في العمر اتَّسعت هذه الواجبات، وازدادت المطالب، بقدر ثقة الناس وحبهم ورجائهم في استجابتي لهم. فالقوة تضعف، والأعباء تتضاعف، بصورة عكسية.

فماذا يصنع العالم الداعية أمام هذه المطلوبات منه، إلا أن يأخذ بقول أحد الحكماء: لا تسأل الله أن يخفّف حملك، ولكن سله أن يقوِّي ظهرك! يبدو أنه يرى أن تخفيف الحمل غير وارد، فلم يبق إلا تقوية الظهر، وهو ما يرجوه من الله.

قال لي بعضهم: وزّع الحمل على الأيام، ما لا تفعله اليوم، افعله غدا، أو بعد غد!

قلت له ما قاله عمر بن عبد العزيز، وقد ناء ظهره بالعمل الدائب في أحد الأيام فقيل له: أخره إلى الغد. فقال: لقد أعجزني عمل يوم واحد، فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين معا؟!

أجل، إن كل يوم تشرق شمسه، يأتي بواجبات جديدة، تشغل كل دقيقة فيه، فكيف ننفقها في غيره؟ وما أبلغ ما قاله ابن عطاء الله في حكمه: حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد، إلا ولله عليك فيه حقّ جديد، وأمر أكيد، فكيف تقضي فيه حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه؟!

الشيخ الطائر

كنت في تلك السنين أقدم من سفر، لأستعد لسفر آخر، فلا أكاد يستقبلني أهلي حتى يودعوني. وكان بعض الإخوة يقولون عني: الشيخ الطائر.

وقد ذكرت من قبل ما قاله لي مرارًا شيخنا وأخونا الكبير الشيخ عبد المعز عبد الستار في قطر، وكان يشفق عليّ من كثرة الترحال ومتابعته، ويقول: ارفق بنفسك، وخذ من شبابك لهرمك، ومن صحتك لسقمك. ويحكي لي ما قاله بعض شيوخه له يومًا من حكمة بالغة: من جار على شبابه جارت عليه شيخوخته.

ونصحني بعضهم بما نصح به رسول الله صلى الله عليه وسلم: عبد الله بن عمرو بن العاص، حين بالغ في العبادة، فقال له: «إنَّ لبدنك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لزوْرك عليك حقًّا ....»[1] الحديث.

ولكن هذه النصائح على رغم صحتها وحسن نية قائليها، لم تجد لها ـ من الناحية العملية ـ مكانًا، فإن حاجة الناس، وحاجة الدعوة، والقضايا الساخنة في الأمة، ومعركة الإسلام وأمته مع أعدائها، وما يتطلبه ذلك من جهود لا تملك الأمة عشر معشارها: أوجب علينا أن نبذل ما نستطيع لتلبية بعض الحاجات.

الإشارة بإجمال إلى أهم الزيارات التي قمت بها

لا أستطيع أن أحصر ـ ولو بالتقريب ـ الجامعات والمراكز والمؤسسات والهيئات التي دعتني في تلك الفترة، والتي لبيت دعوتها بالفعل، ولكني أستطيع أن أشير إلى رؤوس أقلام أو عناوين لأهمها على الأقل.

لقد شاركت في ملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر كلها من سنة ١٩٨٢م إلى ١٩٩٠م إلا ملتقيين تخلّفت عنهما لأعذار ذكرتها في حينها.

وشاركت في عدد غير قليل من مؤتمر «اتحاد الطلاب المسلمين في الولايات المتحدة وكندا» ـ الذي يعبّرون عنه بـ (M S A) ـ ومؤتمرات رابطة الشباب المسلم العربي، الذي يطلقون عليها اسم «المايا».

وشاركت في مؤتمرات الطلبة المسلمين في بريطانيا «الفوسس» في لندن ومانشستر وغيرهما لعدد من السنوات.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو.

وشاركت في ندوات البركة الاقتصادية، التي تدعو إليها «دلة البركة» برئاسة الشيخ صالح كامل، وهي ندوات متخصّصة في قضايا الاقتصاد الإسلامي، والتي عقد أكثرها داخل المملكة: جدة ومكة والمدينة، وبعضها عقد في الجزائر.

وشاركت في مؤتمرات «قضايا الزكاة المعاصرة» التي عقدت في الكويت والقاهرة وعدد من بلدان الخليج.

وشاركت باستمرار في المؤسسات والمجامع التي اختارتني عضوًا فيها، مثل المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي بمكة، ومؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، أو «المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية» في عمان، ومركز «أوكسفورد» للدراسات الإسلامية في لندن، وقد اخترت عضوًا بمجلس أمنائه.

كما حضرت عددًا غير قليل من دورات «المجمع الفقهي الدولي»، المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، بوصفي أحد خبرائه، قبل أن يختاروني عضوًا فيه.

كما شاركت في مؤتمرات المصارف الإسلامية التي عُقدت في عدد من البلدان: دبي والكويت وإستانبول والقاهرة وغيرها.

وكذلك شاركت في الندوات والمؤتمرات التي دعت إليها المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في الكويت، والتي تجمع بين الفقهاء والأطباء.

محاضراتي في الجامعات

وحاضرت في عدد من الجامعات، بعضها أكثر من مرة، بعضها محاضرات للطلاب، وبعضها لأعضاء هيئة التدريس: في جامعة القاهرة، وجامعة عين شمس وجامعة الإسكندرية، وجامعة الأزهر، وجامعات المنصورة، وطنطا، وشبين الكوم، وأسيوط، والمنيا وغيرها من جامعات مصر.

وحاضرت كذلك في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وخصوصًا في مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي بها، وجامعة أم القرى، وجامعة المدينة المنورة، وقد كنت عضوًا بالمجلس الأعلى بها، وخصوصًا في عهد الأستاذ الدكتور عبد الله زايد.

والتقيت الأساتذة في كلية التربية بجامعة الرياض «الملك سعود» في عهد عميدها الدكتور أحمد التويجري، وكذلك في قسم الثقافة الإسلامية بنفس الجامعة، في عهد رئيسه الأخ الدكتور أحمد العسال.

وحاضرت أكثر من مرة في جامعة الظهران: «جامعة الملك فهد للبترول»، وأذكر أن الحضور في آخر مرة كان كثيفا جدًّا، حتى كان الذين خارج القاعة ـ وهي كبيرة ـ أضعاف الذين كانوا داخلها.

وحاضرت أكثر من مرة في جامعة الملك فيصل بالدمام والأحساء، ولي قصة معها حول محاضرة للطالبات حكيتها في مقام آخر.

وحاضرت في جامعات الجزائر: جامعة الجزائر، وجامعة باب الزوار، وجامعة العلوم والتكنولوجيا، وجامعة وهران، وجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، وجامعة قسنطينة... وغيرها.

وحاضرت في جامعات المغرب: جامعة محمد الخامس، وجامعة محمد بن عبد الله بفاس، وجامعة القاضي عياض وبعض كليات الآداب، وغيرها.

وحاضرت في الجامعة الأردنية، وجامعة اليرموك، من جامعات الأردن.

وحاضرت أكثر من مرة في جامعة الكويت، وجامعة الإمارات العربية المتحدة، وجامعة البحرين، وجامعة الخليج.

وحاضرت أكثر من مرة في جامعة الخرطوم، وجامعة أم درمان الإسلامية، وجامعة إفريقيا، وجامعة القرآن الكريم، وغيرها من جامعات السودان.

وحاضرت أكثر من مرة في جامعات ماليزيا الإسلامية والوطنية، وبخاصة الجامعة الإسلامية العالمية. وكذلك في الجامعات الكبرى في إندونيسيا. كما حاضرت في بعض جامعات اليابان، وكوريا الجنوبية.

كما حاضرت في جامعة «دار العلوم» التابعة لندوة العلماء بلكنهو، أكثر من مرة، بدعوة من الشيخ أبي الحسن الندوي، وفي المرة الأولى كان الشيخ غائبًا، والمرة الثانية كانت بحضوره وتشريفه، ومثل ذلك «جامعة الفلاح» في مدينة ببلرياكنج، وجامعة

«دار الهدى» في حيدر آباد، والجامعة الإسلامية في حيدر آباد، وجامعة عليكرة أكثر من مرة، والجامعة الملية في نيو دلهي.

كما حاضرت في بعض الجامعات الإسلامية في «بنجلاديش» مثل «جامعة فتيا» وجامعة الحضارة والجامعة العلمية الإسلامية في شتيا غونج.

وكذلك جامعة دار العلوم في كراتشي، وجامعة البنجاب في لاهور، ومعهد الإمام المودودي بالمنصورة في لاهور. وقبل ذلك في الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد، لمرات عدة، وقد كنت عضو مجلس أمنائها.

كما لبيت دعوة مركز أوكسفورد، والكلية الشرقية بلندن للمحاضرة فيها.

وكذلك دعوة من مُجَمّع البحوث الإسلامية، لمحاضرة عن القدس في لندن.

وحاضرت في عدد من كليات الإلهيات في تركيا.

وحاضرت في بعض الجامعات الإيرانية حين زرت إيران في عهد الرئيس السابق محمد خاتمي في طهران وقم ومشهد وأصفهان وغيرها.

واستجبت لدعوات وفيرة يصعب حصرها، من الأندية العلمية والأدبية والثقافية في بلاد الخليج والبحرين والإمارات وعمان والكويت.

وكذلك الجمعيات العلمية والإصلاحية والإسلامية في بلاد الخليج وغيرها.

وأسأله تعالى أن يجعل عملي في هذا كله، خالصا له، وابتغاء مرضاته، فربما فتح الله لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وقد مرض أحد العلماء الصالحين مرض موته، فزاره بعض تلاميذه، فوجدوه يبكي، فقالوا: مثلك يبكي، وأنت الذي فعلت كذا وكذا ـ يعددون حسناته وفضائله.. فقال لهم: وما يدريني أن شيئا من ذلك قد تقبل مني، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧).

محاضرات مكثفة في مدن المملكة العربية السعودية

وفي هذه الفترة ـ من أواسط العقد السابع إلى أواسط العقد التاسع من القرن العشرين ـ قمت بزيارات ومحاضرات مكثفة في مدن المملكة العربية السعودية المختلفة، بدعوات من جامعاتها، أو مراكزها وأنديتها الأدبية والثقافية، أو غيرها من المؤسسات.

دعوات من جامعات المملكة في أكثر من مدينة

دُعيتُ إلى جامعة الملك عبد العزيز بجدّة، وخصوصًا: مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي، الذي أُنشئ بتوصية من المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي، وكذلك الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهي التي كنت عضوًا في مجلسها الأعلى في إحدى دوراته. وقد ألقيت فيها بعض المحاضرات العامة، ولا سيما في عهد مديرها أ. د. عبد الله الزايد حفظه الله.

ودُعيت من جامعة الرياض أو الملك سعود، ولا سيما كلية التربية التي كان عميدها صديقنا الدكتور أحمد التويجري.

قصة طريفة

وأذكر في هذا اللقاء طرفة يحسن بي أن أحكيها، فقد التقيت أساتذة الكلية لقاء أحسب أنه كان مثمرًا، فناقشنا فيه أصول التربية، وحقيقة التربية الإسلامية، وأنها تشمل بضعة عشر نوعًا من التربية: العقلية والخلقية والبدنية واللسانية والعلمية

والمهنية، والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والجنسية والفنية (الجمالية) والدينية، فالتربية الدينية تمثل فرعًا من فروع التربية الإسلامية. وليست هي التربية الإسلامية، كما يتوهم البعض.

وهنا سرَّب إليَّ أحدهم ورقة يقول فيها: كلامك جميل يا أستاذ، فليت فعلك يكون مثل قولك. فإني أرى جبتك ليست إلى نصف الساق. كما جاء في الحديث!

والحديث ـ لو أخذنا بحرفيته ـ جاء في شأن الإزار، لا الجبة ولا البدلة ولا غيرها. والإزار له وضع خاصّ.

أما إذا نظرنا إلى مقصود النصوص فقد بيّنته الأحاديث الأخرى: أن علة النهي هي المخيلة، أي: الاختيال والتبختر، وهي من معاصي القلوب، وهذا واضح لمن يتأمل مجموع الأحاديث.

محاضرة الفقيه المسلم وتحديات العصر بالرياض

ومن الدعوات التي جاءتني من الرياض: دعوة من مؤسسة الملك فيصل الخيرية في أحد مواسمها الثقافية، وقد اقترحت عليّ محاضرة عنوانها: «الفقيه المسلم وتحديات العصر». وقد حضر عدد من رجال الشريعة ورجال الاقتصاد، ورجال الثقافة بصفة عامة.. وأذكر من الإخوة الذين أسعدوني بالحضور الأخوين الداعيين الشهيرين: الشيخ منَّاع القطان، والشيخ محمد الراوي، وقد لقياني قبل المحاضرة، وقالا لي: لماذا قبلت الحديث في هذا الموضوع الشائك؟ إنهم يريدون أن يورِّطوك، لتقول كلامًا يصطدم بفكر المشايخ هنا. قلت لهم: لا تراعوا، سأعالج الموضوع بطريقة علمية واقعية ليس فيها تحدّ لأحد، ولن يحدث شيء تخافانه إن شاء الله.

وهذا ما كان. وقال لي الأخوان الكريمان: لقد قلت ما يجب أن يقال دون أن يُحرَج أحد، وأكملت هذا باستشهادك بشيخي الجماعة: ابن تيمية وابن القيم. قلت: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

مهرجان الجنادرية

وفي الرياض أيضًا جاءني أكثر من مرة دعوة للمشاركة في مهرجان الجنادرية الشهير، الذي يحسب على الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد وقتئذ. وكان في أول أمره قد غلب عليه اللبراليون والعلمانيون واليساريون. ثم ما زالت العناصر الإسلامية الواعية تجهد جهدها، لتطعيم هذا المهرجان بمشاركات إسلامية من شخصيات لها وزنها، وخصوصًا من المجموعة التي تجمع بين السلفية الحقة والتجديد الأصيل.

ولهذا تردّدت في أول الأمر.. ثم لما عرفت هذا التوجه الجديد، سرعان ما استجبت، وقد ألقيت بعض المحاضرات، وشاركت في بعض الندوات. واحتفى بي الأمير عبد الله ابن عبد العزيز ولي العهد احتفاءً خاصًّا.

محاضراتي في نادي مكة وجدة الأدبيين

ومما شاركت به في مكة المكرمة: أني استجبت أكثر من مرة لدعوة النادي الأدبي فيها وإلقاء أكثر من محاضرة، أذكر أن إحداها كانت بعنوان: «الداعية المسلم وتحديات العصر». على غرار محاضرة الرياض:«الفقيه المسلم وتحديات العصر».

كما ألقيت محاضرة في النادي الأدبي بجدة.

جامعة الملك فهد للبترول

ودُعيت أكثر من مرة للمحاضرة في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن (جامعة الظهران). وفي إحدى المرات حاولت أن أعتذر، فقالوا: إن المحاضرات لا تقام إلا بموافقة ملكية سابقة، أو بتعبيرهم: موافقة المقام السامي، فلا تضيع علينا هذه الموافقة.

وقد علمت أنَّ كل المحاضرات لا بدّ أن توجد فيها هذه الموافقة، وقد أكَّد لي كل الذين دعوني: أن الموافقة عليّ من الجهات العليا تصدر بسهولة، فقد كان مرضيًّا عني في تلك الفترة.

ومما أذكره: آخر محاضرة لي في جامعة الملك فهد، فقد كان فيها حضور كثيف ملأ القاعة الكبيرة جلوسًا ووقوفًا، وخارج القاعة، مما قدَّره بعضهم بنحو خمسة آلاف، وهذا قلما يحدث.

جامعة الملك فيصل في الأحساء والدمام

ومن الجامعات التي دعيت إليها أكثر من مرة: جامعة الملك فيصل في الأحساء والدمام، بدعوة من مديرها الأستاذ الدكتور محمد سعيد القحطاني. حفظه الله.

لقاء للطالبات لم يتم

ومما لا أنساه في إحدى هذه الزيارات: أني حين وصلت بعد الظهر إلى الأحساء، قال لي الدكتور القحطاني: أعرف أنك تعبت من السفر، ولكن الطالبات رغبن أن يلتقينك في لقاء خاص. قلت: ولماذا لا يحضرن المحاضرة العامة في المساء؟

قال: الدعاة المشاهير يزدحم عليهم الجمهور ويكون الحضور كبيرًا، فلا يجدن لهنّ مكانًا، لهذا أردن هذا اللقاء، حتى يستطعن الحوار معك ويسألنك وتجيبهن.

قلت: على بركة الله، إنما جئت لأسمَع وأُسمِع.

وصحبني عميد كلية الآداب، وقال لي: إنَّ عدد الطالبات ربما يبلغ ألفا.

قلت: أليس هناك مكبّر صوت (ميكروفون)؟

قال: بلى. قلت: فليكن العدد ما يكون.

لا أستطيع أن أقف لأكلّم الكراسي!

وانتقلت مع عميد كلية الآداب إلى القاعة التي فيها اللقاء، ودخلنا بالفعل قاعة كبيرة، فيها ما يقرب من ألف مقعد أو كرسي، وقال العميد: تفضّل إلى المنصة، قلت: أي منصة؟

قال: منصّة القاعة.

قلت: ولكني لا أجد طالبات في القاعة!

قال: الطالبات في قاعة مجاورة، وهنّ يشاهدنك عن طريق جهاز تلفزيون.

قلت: ولكن لا يوجد هنا في القاعة من أخاطب، أأقف وحدي في القاعة لأكلم الكراسي؟!

قال: تكلم الطالبات، ولكن من وراء ستار.

قلت: وما المحظور في أن أكلمهنَّ مباشرة بلا ستار ولا حجاب؟ ألم يكن النساء يحضرن في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع الرجال، ويخاطب الجميع؟ وحتى حين طلبن يومًا لهن خاصة، كان يلقاهنّ وجهًا لوجه.

وفي المسجد يصلي الجميع خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وخلف كل إمام بعده الصفوف الأمامية للرجال، والصفوف الخلفية للنساء، وليس بينهما أي حاجز من بناء أو خشب أو قماش أو غير ذلك.

ولا يوجد في الإسلام مسجد خاص بالنساء. المسجد للرجال والنساء جميعًا، ثم ماذا يحدث إذا خاطبتهن وجهًا لوجه، وأنا رجل واحد، وهنّ ألف امرأة؟!

قال الدكتور: وما الحل؟

قلت: الحل عندكم. أنا شخصيًّا لا أستطيع أن أقف في قاعة ليس فيها أحد، وأكلم أناسًا لا أراهم.

قال: نستشير مدير الجامعة. واتصل العميد بالمدير، وأبلغه بموقفي. فقال: أعطني الشيخ، فكلمني، وقال: هذا أمر لا أملكه ولا أستطيع أن أتخذ فيه أمرا، هذه سياسة عليا.

قلت: وأنا لست ملزمًا بهذه السياسة.

قال: هذا من حقك، ونحن نعتذر للطالبات بعذر أو آخر. وهذا ما كان.

التعاون مع رابطة العالم الإسلامي

ومن المؤسسات التي كنت أتعاون معها في المملكة: رابطة العالم الإسلامي. وأول دعوة جاءتني منها: المشاركة في «مؤتمر رسالة المسجد»، وكان مؤتمرًا كبيرًا، حضره جمٌّ غفير من أهل العلم والدعوة من أنحاء العالم.

المجلس الأعلى العالمي للمساجد

وكان يشارك فيه شيخنا الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، وكان من الأفكار العملية التي طرحها شيخنا أن نخرج من هذا المؤتمر بشيء عملي ينفع الأمة الإسلامية، وهو تأسيس المجلس الأعلى العالمي للمساجد، ليكون في مقابلة «المجلس العالمي للكنائس في أمريكا».

واستجيب لدعوة الشيخ، واتُّخذ قرار بهذا الأمر.

مع الأمين المساعد للرابطة الأستاذ صفوت السقا

وكان الأمين المساعد للرابطة الأستاذ صفوت السقا أمين، وقد كلَّف لجنة من بعض الإسلاميين من السعوديين والخليجيين، لترشيح أعضاء المجلس المنشود، فكان حوالي ٨٠٪ من المختارين من الإخوان المسلمين في البلاد العربية والجماعة الإسلامية في باكستان والهند. فرفض الأمين المساعد هذا الاختيار، وحق له، فالتوازن مطلوب في هذه الأمور. وكنت ممن اختاروهم في اللجنة الأولى، فاختاروا قائمَة أخرى معظمها مغاير للقائمة الأولى.

وعرض عليَّ الأستاذ صفوت السقا: أن أتولَّى منصب الأمين العام للمجمع الفقهي للرابطة، وقلت له: أنا لا أستطيع أن أدع عملي العلميّ والفكري للاشتغال بأيِّ عمل إداري مهما تكن منزلته. وكلٌّ ميسَّر لما خلق له.

اختياري عضوًا بالمجمع الفقهي

وبعد ذلك، اختاروني عضوًا بالمجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، الذي يرأسه العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، ومعه الشيخ الندوي والزرقا وأبو سنة والصواف وابن جبرين، والفوزان والبسام، وغيرهم. وقد حرصت على حضور جلساته، وتقديم الأبحاث إليه ما استطعت، ولا أتخلف إلا لعذر.

الندوة العالمية للشباب المسلم

ومن المؤسَّسات السعودية التي تعاونت معها: الندوة العالمية للشباب المسلم، منذ بداية تأسيسها، وكان أمينها العام الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، والذي دعا في أحد اجتماعاته الأولى عددًا كبيرًا من رجال الفكر والعلم، ورجال المال والأعمال، لينشئ صندوقًا للإنفاق على أنشطة هذه المؤسسة.

وكان يرعى هذا الاجتماع العالم الفاضل، والوزير الصالح: معالي الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ رحمه الله تعالى.

وقد أوصى هذا الاجتماع بوصايا كان لها أثرها فيما بعد.

وقد تعاونت مع كل من تولوا الأمانة العامة لهذه الندوة، وخصوصًا الأخ الحبيب الداعية الواعي المخلص النشيط، د. مانع الجهني رحمه الله. وتقبَّله في الشهداء.

وحضرتُ معهم مخيَّمات للشباب، في بلاد شتّى، في أوربا، وفي الأردن، وفي ماليزيا، وفي غيرها.

محاضرات مكثفة في محافظات مصر

وفي هذه الفترة، وفّقني الله للقيام بنشاط مكثّف في مصر: في القاهرة والإسكندرية، وفي سائر محافظات مصر، بدعوة من الجامعات، أو من الأندية، أو من النقابات والجمعيات المختلفة.

محاضراتي في جامعة القاهرة

أكثر محاضراتي كانت في جامعة القاهرة، التي دُعيت إليها مرارًا وتكرارًا، أحيانًا بدعوة من رئيس الجامعة، وأحيانًا من وكيل الجامعة مثل: أ.د. علي السِّلْمي، أو أ.د. أحمد فتحي سرور، وأحيانًا بدعوة من عميد كلية، وكانت أكثر الكليات دعوة لي هي كلية الطب: وكانت تحضر جموع حاشدة تملأ القاعة، ويقف الأكثر داخل وخارج القاعة.

كما كنت أحضر معسكراتهم أو مخيّماتهم الصيفية التي يعقدونها داخل الجامعة، أحاضرهم وأحادثهم وأتلقى أسئلتهم في كل اتجاه وأجيب عنها.

وكثيرًا ما لا يكتفون بمثل هذا اللقاء فيزورونني في بيتي، ويستكملون النقاش في القضايا العلمية المختلف فيها بين السلفيين وغيرهم، والقضايا الفكرية المختلف فيها بين التحرريين وغيرهم، والقضايا العقدية المختلف فيها بين التكفيريين وغيرهم.

كما حاضرت في جامعة عين شمس، وجامعة الأزهر، وجامعة الإسكندرية، وجامعة طنطا، وجامعة المنصورة، وجامعة أسيوط، وجامعة المنيا، وغيرها.

كما دُعيت من جهات أهلية وثقافية وخيرية، للاحتفال بمناسبات إسلامية، كالمولد

والهجرة، أو لإلقاء محاضرات في قضايا إسلامية: فكرية وثقافية وتربوية وسياسية، وغيرها.

ولقد دعيت مرات ومرات من قبل نقابة الأطباء بدار الحكمة بالقاهرة، ومن قبل نقابة المهندسين، ومن جهة نقابة الصحفيين، ونقابة المحامين، وغيرهم. ودعيت من المحافظات والمدن المختلفة: طنطا وشبين الكوم والزقازيق ودمياط ورشيد وكفر الشيخ ودمنهور ومحافظات الصعيد.

كما دعاني إخواني في المحلة الكبرى بمناسبات شتّى، وكانت تحتشد لسماع المحاضرة جموع هائلة تأتي من كل البلاد المحيطة بالمحلة، لأن بيني وبينهم روابط روحية وفكرية وثيقة وقديمة.

خطبة العيد في الإسكندرية

وفي إستاد الإسكندرية خطبت العيد أكثر من مرة، ومنها مرة كان الذي رتَّب لي الذهاب إلى الإسكندرية، وقطع لي التذكرة: هم رجال أمن الدولة أنفسهم، وهم الذين حجزوا لي الفندق على كورنيش الإسكندرية، وأقاموا بالاشتراك مع وزارة الأوقاف حفل الإفطار يوم الوقفة ٩ من ذي الحجة.

وكانوا أرسلوا إليّ مندوبهم مع مندوب وزير الأوقاف «المحجوب» يرجوني أن أقبل الذهاب إلى صلاة العيد، وقالوا: إنَّ الجموع المحشودة للصلاة كبيرة، وإذا لم يكن الخطيب حكيماً ومأموناً، يخشى أن يفلت الزمام. ومثلك مَنْ يؤمن على ذلك.

وفي الصباح عند الذهاب إلى الإستاد، تنازع رجال الأمن والشباب المشرف على الصلاة: أيهما الذي يتولى نقلي إلى الصلاة؟ فقلت لرجال الأمن: دعوا الشباب يتولى هذا الأمر، فهذا أكرم لي من أن أذهب في صحبتكم!

العودة إلى القاهرة بالقطار

وبعد انتهاء الصلاة وخطبة العيد، أخرجني الشباب بأعجوبة، قبل أن يهجم عليَّ المصلّون، فلا أملك الفكاك منهم، وكنت قطعت تذكرة طائرة للعودة إلى القاهرة بصورة

أسرع، ولكن بعد ذهابنا إلى المطار، وجدنا المطار مغلقًا في انتظار إقلاع طائرة الرئيس حسني مبارك، الذي كان يصلي العيد في الإسكندرية، ولا يُدرى متى يفتتح المطار.

وهناك قال مسؤول الأمن الذي صحبني إلى المطار، وأمر أن تفتح لي قاعة التشريفات: إذن نقطع لك تذكرة على القطار، ونكلِّف من ينتظرك في محطة القاهرة، ليوصلك إلى البيت. وعبثًا حاولت أن أدفع لهم ثمن التذكرة فأبوا. وأظنها كانت في ذلك الوقت بخمسة جنيهات!

العقيد محمد رفعت

وفي المحطة وجدتُ أحد رجال أمن الدولة ينتظرني على الرصيف، وقد احتفى بي وقدّم نفسه لي، وقال: أنا العقيد محمد رفعت. قلت: سمعت باسمك من قبل، ولم أتشرّف باللقاء إلا اليوم.

قال: أنا في خدمتك إذا أحببت أن تذهب إلى أيِّ مكان فأنا حاضر.

قلت: جزاك الله خيرًا، إنما أريد أن أذهب إلى أولادي. وقد قام العقيد رفعت بالمهمة على ما يرام، وحاولت أن أدعوه لشرب فنجان شاي، فاعتذر، وقال: لعل ذلك يتم في مناسبة أخرى.

وكان وزير الأوقاف محمد المحجوب، قد قال لي: إذا أحببت أن تبقى أسبوعًا أو عشرة أيام أنت وأهلك في الفندق، هيّأنا لك ذلك بكل سرور.

قلت له: شكرًا يا سيادة الوزير، أنا أتيت لمهمة، فإذا أدَّيتها عدت من حيث أتيت. وأنا بحمد الله عندي شقة في الإسكندرية على الكورنيش، إذا احتجت إلى شاطئ الإسكندرية ذهبتُ إلى شقّتي.

المساهمة في المشروعات الاقتصادية الإسلامية

تفاوت حظوظ الناس في الرزق

أشرت في الجزء الأول إلى حظِّي في التجارة والمشروعات الاقتصادية أو الاستثمارية، وذكرت أن الناس متفاوتو الحظوظ في هذا، فمنهم من يضع يده في «الناشفة» فتصبح خضراء، ولو تاجر في التراب لربح منه، ومنهم من لا حظَّ له في ذلك، وذكرت أمثلة لذلك مما حدث لي في الصغر.

واليوم بعد أن صارت لي مدَّخرات مما جمعته من راتبي في قطر، ومن حقوق تأليف كتبي، وبعضها يطبع مرات ومرات، ومن مكافآت على أعمال مختلفة، أصبحت أشارك بنصيب في المشروعات الاقتصاديَّة الإسلامية التي يعرضها أصحابها على المسلمين، وخصوصًا من صغار المستثمرين.

إسهامي في بعض المشاريع الاقتصادية

وكنت لا أكاد أدع مشروعًا من هذه المشروعات إلا ساهمت فيه، تشجيعًا للاستثمار الإسلامي من ناحية، ولأني لا أستطيع أن أستثمر مالي بنفسي من ناحية أخرى، حيث لا خبرة لي، ولا وقت عندي.

خسارتي في جُلّ المساهمات المالية

ولكن ـ للأسف ـ جُلّ المشروعات التي ساهمت فيها خسرت، وبعضها حصلنا فيها

على قليل من رأس المال، وبعضها لم نحصل فيها على نقير ولا قطمير، بل ذهبت كلها هباء.

حدث هذا معي في البنك الإسلامي الأوربي.

وفي المصرف الإسلامي الدولي للاستثمار والتنمية في مصر.

وفي الشركة الإسلامية للصوتيات والمرئيات المتفرِّعة منه.

وفي الشركة الإسلامية للتنمية في الخرطوم.

وفي شركات توظيف الأموال التي اشتهرت في مصر، مثل شركة الريان، وشركة الشريف ومصانعه، وشركة الحجاز، التي لم نحصل من رصيدنا فيها على دينار ولا درهم ولا فلس. لا أنا ولا أولادي ولا أصهاري.

ومن المؤسف: أني ورّطت أولادي معي بعد أن عملوا وأمست لهم رواتبهم ومواردهم الخاصّة، فدخلوا فيما دخلت فيه، فأصابهم ما أصابني. وآخر هذه الكوارث: بنك التقوى، الذي ضاع كل ما أودعناه من أسهم ومن مضاربات، ومن أرباح، وهي خسارة كبيرة بالنسبة لنا.

نحن ـ المسلمين ـ عادة نركن ظهرنا إلى الأقدار وتقسيم الأرزاق، ونقول: قدّر الله وما شاء فعل، ونريح أنفسنا بهذا الرضا والتسليم، ولا نسأل عن الأسباب وفق نظام السنن التي أقام الله عليها هذا العالم.

لماذا تخسر المشروعات الاقتصادية الإسلامية؟

ولكن يجب أن نسأل أنفسنا: لماذا تخسر كل هذه المشروعات التي تنسب إلى الإسلام؟ ويزعم أصحابها: أنهم يطبقون المعاملات الإسلامية.

يمكننا أن نلجأ إلى التفسير التآمري، ونقول: هناك خطط جهنمية، وأيد خفية، ومكايد صهيونية وصليبية، تعمل في الخفاء وفي العلن، لتدمير هذه المشروعات، ووضع العقبات في طريقها، والحيلولة بينها وبين النماء الطبيعي. وهذا له وجه. وهو واقع.

ولكن إلقاء اللوم على الخارج دائمًا، يُبعدنا عن محاسبة أنفسنا، ومعرفة تقصيرنا، وأسباب إخفاقنا.. وقد علّمنا القرآن أن نلوم أنفسنا أولا، كما قال تعالى بعد غزوة أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

إن بعض المشاريع كانت ناجحة ومبنية على أسس متينة، فلما تدخلت فيها الحكومة خسرت وضاعت، مثل مصانع الشريف وشركاته حسبما شهدناها.

كما أنَّ كثيرًا من هذه المشروعات تقوم قبل أن تستكمل الدراسات اللازمة لإقامتها، المبنية على الأرقام والإحصاء والمعلومات الصحيحة، وإذا قدمت يومًا دراسات فيكتفى منها بما لا يشفي الغليل، وينير السبيل، وكثيرًا ما يتولاها غير المتخصِّصين، الذين ليس لهم في الاقتصاد النظري، ولا الاقتصاد العملي ناقة ولا جمل.

ولقد سألت بعض الإخوان المسلمين يومًا: لماذا اعتبرتم فلانًا من أهل الاقتصاد، وزكّيتموه ليأخذ عشرات الملايين ومئاتها من الناس، وليس هو من أهل الاقتصاد، لا دراسة، ولا ممارسة؟!

فقيل لي: إنه كان في السجن يدير فلوس الإخوان في شراء ما يحتاجون إليه، وتوزيعها عليهم، وتوفير ما يمكن توفيره منها، وكان ناجحًا في هذا العمل.

قلت: سبحان الله. تقيسون على هذا العمل الهيِّن اليسير، بهذه المبالغ القليلة المحدودة: عشرات الملايين ومئات الملايين من أموال الناس؟ والعمل داخل السجن لم يكن عملًا اقتصاديًا ولا استثماريًا، بل كان عملًا إنسانيًا تنظيميًا؟!

تجربة شركة الريّان

ولقد سمعت بنفسي من الأخ الأكبر في جماعة الريَّان، ونحن في اجتماع المصارف الإسلامية في إستانبول، كيف بدءوا مشوارهم، من مطعم صغير عندهم، ثم بتجارة البيض يجمعونه من القرى حولهم، ثم توسّعوا شيئًا فشيئًا، وفتحوا الباب لمن يشاركهم من أقاربهم وأصدقائهم وجيرانهم، حتى وصلوا إلى المليارات. ولم يكونوا مهيَّئين لذلك.

ولم يكن لهذه الشركات مجالس إدارة منتخبة منتظمة، من جمعيات عامة للمساهمين. ولا هيئات رقابة شرعية، ولا رقابة معروفة من جهات الحكومة، ولا حتى من الجمعية العمومية، كما في البنوك الإسلامية.

من أخطاء البنوك الإسلامية

وحتى البنوك الإسلامية، التي لها جمعيات عمومية، ومجالس إدراة، وهيئات رقابة، قد وقعت في خسائر هائلة، كما وقع بنك فيصل الإسلامي المصري، بسبب تورطه مع بنك الاعتماد والتجارة، وكما خسرت «دار المال الإسلامي» في سويسرا: خسارة هائلة، حين تعاملت بالذهب، بواسطة أحد موظفيها، الذي ضربها ضربة قاصمة، ظلت سنين عددًا، تحاول الإفاقة منها، وهي لا تقدر.

ثم إن الحكومة عالجت قضية شركات الأموال معالجة فجّة، غير علمية ولا مدروسة، ولا راعت حاجات الناس، مما سبَّب ضياع أكثر حقوق المودعين من أصحاب الأموال.

خسارتي في بنك التقوى

وكانت أكبر خسائري أنا وأولادي: خسارتنا في بنك التقوى الذي وضعنا فيه جُلَّ مدَّخراتنا، والذي تجمَّعت عليه عدة عوامل شتى، انتهت به إلى أن ضاع رأس ماله كله، على الرغم من براعة إدارته التنفيذية، وأمانتها وحرصها على نظافة التعامل مع الناحية الشرعية، ولهذا لم يدخل بيع المرابحة، التي غرقت فيه كل البنوك والمؤسسات الإسلامية، كما أنه لم يتورط بالدخول في سوق السلع والمعادن، لما يشوبه من شبهة الشكلية، قلما توجد سلع حقيقية. ولكن البنك خسر حينما ضربت العملات في ماليزيا وإندونيسيا، وأفلست بعض الشركات التي تعامل معها البنك، وربما كان من الخطأ تركيز العمل في بلد أو بلدين. ثم توالت عليه الابتلاءات من كل جانب، حتى هلك كله. والعوض عند الله[1].

---

(١) أشهد أن الله سبحانه قد عوضنا بعد ذلك، بما لم يكن في الحسبان، بفضله تعالى، ثم بفضل أولادي الذين=

تأييدي البنوك الإسلامية

ومما يتعلق بالناحية الاقتصادية: أني أيَّدت قيام البنوك الإسلامية حينما كانت فكرة في رؤوس بعض الاقتصاديين الإسلاميين، وحلمًا في نفوس بعض رجال الإسلاميين، وكانت هناك دراسات قليلة تنشر هنا وهناك عن إمكان قيام بنوك بلا فوائد، ثم عن ضرورة إنشاء هذه البنوك، على المستوى النظري. ثم هيأ الله رجالًا من أهل الفكر والنظر التقوا رجالا من أهل المال والعمل، وكان من ثمرات هذا اللقاء: تأسيس أول بنك تجاري إسلامي، وهو بنك دبي الإسلامي الذي تحمَّس له الرجل العملي المسلم الحاج سعيد لوتاه حفظه الله.

وقد دعاني إلى التعاون معه في أول الأمر، واعتبرني كأني مستشار للبنك تطوعًا. ثم عقد البنك مؤتمره الأول الذي كان بحق أول مؤتمر للبنوك الإسلامية، دعا فيه عددًا من العلماء المشغولين بفقه المعاملات وبالاقتصاد الإسلامي، وذلك في شهر مارس سنة ١٩٧٥.

ثم نشأ بعد ذلك بنك فيصل الإسلامي المصري، وبنك فيصل الإسلامي السوداني، وبنك التمويل الكويتي، والبنك الإسلامي الأردني، وبنك البحرين الإسلامي، وتلاحقت بعد ذلك البنوك الإسلامية، مثل مصرف قطر الإسلامي، والمصرف الإسلامي الدولي في مصر، وغيرها.

الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية

وكان الاتحاد الـدولي للبنوك الإسلامية ـ برئاسة الأمير محمد الفيصل، وأمانة د. أحمد عبد العزيز النجار[1] ـ يقوم بدور علمي ونظري في تسديد مسيرة البنوك الإسلامية،

=أحسنوا استثمار أموالنا، وبارك الله جهودهم، فعوضنا خيرا كثيرا. ومنها وقفت وقفًا كبيرا للدعوة والفكر وللخير. أرجو أن يكون ذخرًا لي يوم القيامة.

(١) هو أول من أسس بنكًا اجتماعيًا بلا فوائد في مصر وفي العالم العربي، في منطقة ميت غمْر، وقد كان الساعد الأيمن للأمير محمد فيصل آل سعود في تأسيس الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية وتقويته، وله عدة بحوث وكتب في مجال الاقتصاد الإسلامي.

وأصدر موسوعة البنوك الإسلامية. وهي تضم أبحاثا ومؤشرات حول المصارف الإسلامية، وإن كان بعضها لم ينضج بعد.

وحاول د. النجار أن ينشئ معهدًا لتخريج مصرفيين إسلاميين، أو تدريب العاملين في المصارف منهم، وتهيئة دراسات منهجية: شرعية واقتصادية ومحاسبية وإدارية وغيرها. وكان مقر هذا المعهد في قبرص. وقد استمرّ فترة من الزمن ثم توقّف، لأن تكلفته كثيرة، بسبب موقعه.

الهيئة العليا للفتوى والرقابة الشرعيَّة للبنوك

ولقد حاول الاتحاد أن يشدّ أزر البنوك الإسلامية، فأنشأ هيئة عليا للفتوى والرقابة الشرعية للبنوك، اختير الشيخ محمد خاطر مفتي مصر الأسبق ورئيس هيئة الرقابة الشرعية لبنك فيصل الإسلامي المصري: رئيسًا لها، واختاروني نائبًا له. واجتمعنا في إسلام آباد في ضيافة الرئيس ضياء الحق رحمه الله. كما اجتمعنا في القاهرة وغيرها، وقد استمرت هذه الهيئة عدة سنوات، ثم توقفت، لعدم تجاوب البنوك الإسلامية معها لأسباب عدة.

الهيئة العامة للمحاسبة للبنوك والمؤسسات المالية

ثم أنشئ مجلس للمعايير مهمته ترشيد المصارف والمؤسسات المالية الإسلامية، ثم تطور إلى الهيئة العامة للمحاسبة للبنوك والمؤسَّسات المالية الإسلامية، ويتبعها مجلس للمعايير. وقد اُخْترت في مجلس أمنائها لعدّة سنوات، وكان مقرها البحرين، كما كان رئيسها الأخ الصديق، الشيخ إبراهيم آل خليفة حفظه الله. ونائبه صديقنا الاقتصادي الكبير الأستاذ الدكتور عبد العزيز حجازي رئيس وزراء مصر الأسبق، ونائب رئيس مجلس إدارة بنك فيصل الإسلامي لعدة سنين.

المجلس الشرعي للهيئة العامة

ثم أنشئ في هذه الهيئة مجلس شرعي يضم عددًا لا بأس به من علماء الشريعة المهتمين

بفقه المصارف الإسلامية. وقد رُشِّحت لرئاسة هذا المجلس فاعتذرت ورشحت له أخي العلامة الهندي الشيخ محمد تقي العثماني. وهو فقيه يجمع بين الأصالة والمعاصرة. وما زال المجلس يعمل ويشرف على إصدار المعايير التي تصدر من الهيئة، وضبطها بضوابط الشرع. وقد صدر عنه عدد كبير من المعايير لها وزنها وقيمتها العلمية والعملية.

تكاثر البنوك الإسلامية

وقد تكاثرت البنوك الإسلامية، وأصبحت تُعدّ بالمئات، حتى أصبحت البنوك العالمية الأوربية والأمريكية، حريصة على أن تكون لها فروع إسلامية في البلاد العربية والإسلامية المختلفة، لما رأوا إقبال أبناء الشعوب الإسلامية على هذه البنوك، فلم يدعوا هذه السوق للمسلمين وحدهم، وقالوا: نضع لهم المعاملات التي يريدونها. وقد رأوها في واقع الأمر وفي بعض الأحيان، لا تختلف اختلافًا جوهريا عن معاملاتهم، وهو ما سهَّل الأمر عليهم.

دخول معاملات صورية تقرّب البنوك الإسلامية من البنوك الربوية

وقد دخلت على البنوك الإسلامية في السنين الأخيرة معاملات، جعلتها تتسم بالصورية والشكلية، وتقربها من البنوك الربوية، بحيث لا تكاد تجد فارقًا جوهريًا بينها وبين البنوك التي يفترض أنها كانت بديلا عنها، وخصوصًا بعد أن توسّع كثيرون في عملية المرابحة التي باتت هي أساس معاملات البنوك الإسلامية، ولم تعد تسمع عن المضاربات والمشاركات والبيوع والتجارات ونحوها، وليتهم يطبقون هذه المرابحة بشروطها وضوابطها كما تقرها الهيئات الشرعية. بل إن بعض الهيئات الشرعية أدخلوا فيها صورا غريبة يعجب المرء لها.

كما دخل التورُّق في معاملات كثير من المصارف، حتى سماه بعضهم «التورق المبارك» إلى غيرها من العقود والمعاملات.

وهذا مما جعلني أصرخ متخوفًا من مصير هذه البنوك إذا استمرَّ الحال على ما هو عليه، بل ربما تزداد تدهورًا. وهو ما دفع أخي العلاّمة الشيخ تقي العثماني إلى أن يستنجد بي لعمل شيء لوقف هذا التيار.

ومنذ سنوات دعا صديقنا الشيخ صالح كامل رئيس مجموعة بنوك البركة إلى ندوة في شهر رمضان المبارك، يستصرخ فيها الغيورين على المصارف والمؤسسات المالية الإسلامية، من معاملة «التورق» الذي غزا بعض البنوك الإسلامية، وكنت ممن استجاب له، ووقفت معه ضدّ هذا الغزو الخطير الذي يضرب البنوك الإسلامية من داخلها. وكان من أقوى الذين هاجموا هذا التوجه صديقنا العالم الفقيه الشيخ صالح الحصين حفظه الله.

تأسيس مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة

مساجد الدوحة

كان كثير من المساجد بالدوحة متروكًا للأهالي من أهل الخير والبر، من الشيوخ والتجار، ينشئون المساجد الصغيرة أو الجامعة بالقرب من منازلهم وقصورهم.

ولم يكن لدى الدولة ـ والشؤون الدينية خاصة ـ خطة لبناء المساجد، ولا سيما الجوامع الكبيرة، حسب تطور المباني واتساعها في قطر عامة، وفي العاصمة ـ الدوحة ـ خاصة.

جامع الشيوخ

لقد أنشأت قطر جامعها الكبير، الذي يسمَّى «جامع الشيوخ»، وكلمة «الشيوخ» هنا تعني الحاكم، وقد كان هذا الجامع بجوار ديوان الحاكم.

وكان أكبر مسجد في ذلك الوقت، وفي سقفه نجفة أو ثُريا كبيرة من أكبر الثريات في ذلك الوقت في المنطقة كلها.

زخرفة المساجد بين ابن محمود وقاسم درويش فخرو

وقد اعترض سماحة العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية، وخطيب الجامع الكبير في ذلك الوقت على هذه النجفة، وعلى ما يراه من بذخ في بناء الجامع، وقد جاء في الآثار كراهية زخرفة المساجد.

وكان الشيخ قاسم درويش فخرو الذي يشرف على بناء المسجد هو الذي تولى الإجابة عن اعتراض الشيخ ابن محمود، وقال له: إن الجامع هو جزء من المجتمع، ويجب أن يكون صورة من تقدّم المجتمع وتطوره، لا يجوز أن نبني مسجدًا جامعًا على الطراز القديم، وبيوتنا مبنية على أحدث طراز، فمسجدنا القديم كان صورة لمجتمعنا في تلك المرحلة، ومسجدنا هذا مرآة لتقدمنا في هذه المرحلة.

وأعتقد أن هذا كلام مقنع، ومن ينظر إلى المسجد بإنصاف لا يجد فيه زخرفة ولا تكلفًا، إنما يجد المتانة والفخامة والسعة والجمال، وهذا ما يجب أن تتسم به مساجدنا الجامعة.

خطابتي في جامع أبي بكر ثم عمر

ثم بدأت الشؤون الدينية تُخطِّط لبناء جوامع كبرى في مناطق الدوحة المختلفة، بدأتها ببناء جامع أبي بكر الصديق، وهو مُشيَّدٌ على مساحة واسعة، وله «بدروم» على نحو هذه المساحة، فهو يتّسع لأكثر من ألفين من المصلين، وقد طلب إلي أن أتولى خطبة الجمعة فيه، وظللت أقوم بذلك، حتى أنشئ جامع عمر بن الخطاب، وهو في منطقة أكثر حيوية وسكانًا من منطقة جامع أبي بكر. فانتقلت إليه، وأنا أخطب الجمعة فيه إلى اليوم، ما لم أكن مريضًا أو على سفر.

نقل خطبة الجمعة في التلفزيون القطري

وقد التزم تلفزيون قطر بنقل خطبة الجمعة منذ تأسيس المسجد، إلى اليوم. وبعد أن أضحت محطة قطر فضائية عالمية، أمسى العالم كله يشاهد هذه الخطبة ويتابعها.

وأود أن أؤدي هنا شهادة لله: إن أحدًا في قطر لم يقل لي كلمة واحدة في شأن خطبي في المسجد، أو دروسي في رمضان، أو برامجي في الإذاعة والتلفزيون، أو يضع أمامي خطوطًا حمراء لا أتجاوزها.. لم يحدث ذلك من أمير ولا من وزير، حتى إني في بعض الأحيان كنت أخطب خطبة نارية في موضوع من الموضوعات الحساسة، ثم أسافر لفترة

من الزمن، فأنقطع عن الخطبة جمعتين أو ثلاثًا، فيقول القائلون: منع الشيخ من الخطابة بعد تلك الخطبة! وتَسْري الإشاعة مسرى النار في الهشيم، ثم سرعان ما يراني الناس أعتلي المنبر بعد ذلك، وأعاود خطبي كما كنت من قبل، لم أتبدل ولم أتغير.

خطبي ودروسي في ثلاثة مساجد

أصبح جامع عمر بن الخطاب هو مسجدي لخطبة الجمعة، والجامع الكبير هو مسجدي لصلاة التراويح ودروس التفسير بينها، ومسجد الشيخ خليفة بن حمد أمير البلاد يومئذ هو مسجدي لدروس العصر في رمضان، الذي كان يحضره باستمرار، وقد ظللت أؤديه، وظل يداوم عليه ستة وثلاثين عامًا.

الاحتفال بفتح القسطنطينية

كان من السنة الحسنة التي سنّها الدكتور نجم الدين أربكان، لإحياء الروح الإسلامية في تركيا: الاحتفال بالذكرى السنوية لفتح «القسطنطينية» وقد فتحت في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م. وقد حاول الكماليون أن يهيلوا التراب على كل ما هو إسلامي، كان يحمل الأمجاد والمآثر لتركيا!

ملحمة تاريخية فريدة

وفتح القسطنطينية ملحمة تاريخية فريدة، جديرة بأن تعرف، ويذكّر بها الناس، لما فيها من دروس وعبر، كيف فكر الشابّ العثماني محمد بن مراد، وهو لم يتجاوز العشرين، ولم يزل ولي عهد والده، في فتح هذه المدينة الحصينة العريقة، ولم يزل يفكر ويدبر، حتى تولّى الحكم، ووضع خطة محكمة لفتحها، ولذا أطلق عليه اسم «محمد الفاتح».

يقيم أربكان هذا الاحتفال في أكبر ملاعب «إستادات» إستانبول، ويحضره مئات الألوف، ويعاد تمثيل قصة الفتح أمام الجمهور، حتى يدخل السلطان على فرسه إلى المدينة، وتتعالى صيحات التكبير فيرتج الإستاد.

مشاركتي في هذه المناسبة مرتين

ويدعو أربكان كلَّ عام عددًا من القادة والعلماء والدعاة الإسلاميين من أنحاء العالم

العربي والإسلامي، وقد سعدت بالمشاركة في هذه المناسبة مرتين، ألقيت في كلٍّ منهما كلمة مناسبة ترجمت للجماهير، التي قابلتها بالحماسة والهتاف: الله أكبر، الله أكبر.

رجب الطيب أردوغان

وفي إحدى المرتين قدم الشاب الناهض النابض، رجل الإصلاح والتجديد، رئيس بلدية إستانبول المنتخب: رجب الطيب أردوغان، فاستقبله الجمهور بالتصفيق الحاد، والهتاف المتعالي، دلالة على ما يكنه الشعب له من حب وتقدير. وكانت العلاقة بينه وبين أستاذه أربكان على أحسن ما يرام، ثم اختلف الاجتهاد، فاختلف الطريق.

أرجوزة «الأصوليون»

أنا والشعر

لقد بيّنت موقفي من الشعر في قصيدتي بعنوان: «أنا والشعر»، وهي قصيدة بائية من بحر الطويل، وفيها قلت:

أُريد له هجرا، فيغلبني حُبّي ... وأنوي، ولكن لا يطاوعني قلبي

وكيف أطيق الصبر عنه، وإنما ... أرى الشعر للوجدان كالماء للعشب؟

فكم شدَّ من عزم، وبصَّر من عَمَى ... وأيقظ من نوم، وذلَّل من صعب!

وفي هذه القصيدة أوضحتُ مواقف الشعراء وأصنافهم واتجاهاتهم. وفي نهايتها قلت:

وَقَفْتكَ يا شعري على الحقِّ وحده ... فإن لم أنل إلاّه، قلتُ لهم: حَسْبي

وإن قال غِرٌّ: ثروتي، قلت: دعوتي ... وإن قال لي: حزبي، أقول له: ربي

فعش كوكبًا يا شعر يهدي إلى العُلا ... وينقض رجمًا للشياطين كالشهب

وكم تمر عليّ فترات أنسى فيها الشعر، حين أغرق في بحار العلم والفكر، وأنسى بحور الشعر، وتأتي عليّ أحيان تستيقظ فيها القريحة، ويتدفق فيها الشعر، وأكثر ما يكون ذلك أيام المحن والمعتقلات.

قصيدة «يا نفس»

ومما أذكره في الفترة التي أتحدث عنها: جملة قصائد أنشأتها في مناسبات مختلفة، مثل قصيدة «يا نفس» بمناسبة بلوغي الستين، وفيها:

حـتـــامَ أنــــت لـعــوب وقــد تــدانــى الــغـــروبُ؟!

يــا نــفــس مــالــك ظـمـأى والـــورد مـنـك قــريـبُ؟!

يــا نــفــس مــا لــك غَـرْثــى والــكــون مـرعـى خـصـيـبُ؟!

كــفــاك مــا ضــاع قـبـلا والــغــصــن مـنـك رطـيـب

كــفــاك غــفــلــة دهــرٍ والــعــمــر ثــوبٌ قـشـيـبُ

أتــــاك مــنـــك نــذيــر نــعــمَ الــنــذيــر المشــيــبُ

ومنها «أنا بالله عزيز»:

هـــات مـــا عــنــدك هــات يـــا زمـــانَ الأزمـــاتِ!

أنـــا لا أخــشـــاكَ، فــانــثــرْ كـــل مـــا في الجَــعْــبــات!

وارم مـــن نَـبْـلِـك مـــا شئـ ــــتَ، فــلــن تــثــنــي قــنــاتي

القصيدة الضادية

ومنها بعض القصائد التي أناجي فيها ربي، وخصوصًا في فترة مرضي، حين أصبت بأوجاع الظهر، والعمود الفقري. مثل قصيدتي الضادية، التي قلت فيها:

يا جابر العثراتِ، كن لي جابرًا كم عاثر إن ترضَ عنه سينهضُ!

وارفع مكاني ـ رب ـ عندك بالتقى من ترفع اللهم مَن ذا يخفض؟!

وابسط على عطاء رب باسط برٍّ، فـإن تبسيط فمَن ذا يقبض؟!

أنا عائد لحماك فاقبلني على مابي وأنــت تقبل مـن ذا يـرفـض؟!

آتيتني الـقـرآن فانفعني به وأقــم بـه لي حجة لا تدحض

بـيـض بـه وجـهـي بـيـوم قـادم فيه الـوجـوه مـسـوَّد ومبيَّض

قصيدة ابتهال

وهناك قصيدة «ابتهال» وفيها:

يا من له تَعْنو الـوجـوه وتخشع ... ولأمـــره كـل الخـلائـق تخضع

أعـنُـو إلـيـك بجبهة لم أَحْنِها ... إلا لوجهك؛ سـاجـدا أتـضرع

وإليك أبسطُ كـفَّ ذلٍّ لم تكن ... يوما لغير سـؤالِ فضلكَ تُرفع

وفيها:

يــارب عبدك عند بابك واقف ... يدعوك دعـوة من يخاف ويطمع

فإذا خشيتُ فقد عصيتك جاهلا ... وإذا رجــوتُ فـإن عفوك أوسع

يـارب إنْ أكُ في الحقوق مفرِّطا ... فلأنـت أبصـرُ بالقلوب وأسمع

بين الجوانح خافق يهـوى التقى ... ويضيق كرها بالذنوب ويجزع

ويحب ذكرك والقلوب إذا خلت ... مـن ذكـر ربي فهي بُــورٌ بَلْقع

ولكم ذكرتك خاليا فوجدتُني ... والقلب في وجـل، وعيني تدمع

هـل لي رجـــاء: إنني ممـن دعَـوا ... يوما إليك وقال: توبوا وارجعوا؟!

وحملت مصباح الهـدايـة مرشدا ... أهـنـاك كـالـقـرآن نـور يسطع؟

ومشيت في ركب الهُداة، وإن أكن ... أبطأت في طلب الكمال وأسرعوا

حسبي أحِبُّهُمُ وأقفو خطوهم ... ولكم أرى حب الأكابر يشفع

يــاربِّ مـا لي غـير بابك مَـفْـزَعٌ ... آوي إلـيــه إذا يــعــزُّ المـفـزع

ما لي سـوى دمعي إليك وسيلة ... وضراعتي ولمن سواك سأضرع؟

إن لم أقـف بالباب راجـي رحمة ... فــلأيِّ بــاب غـير بابك أقــرع؟!

ومنها مجموعة من الأناشيد الإسلامية الثورية، التي تحرض الشباب على الاستمساك بالعروة الوثقى، وعلى معاني الإيمان والربانية، وعلى روح القوة والجهاد. وخصوصًا إذا أنشدها الشباب بصورة جماعية، وبألحان مؤثرة قوية. وقد أنشأت من قبل: نشيد «مسلمون» الذي تغنى به الشباب المسلم في أنحاء العالم.

من هذه الأناشيد: نشيد «فتى القرآن» أو (أنا مسلم):

أنا إن سألتَ القوم عني من أنا؟ — أنا مؤمن سأعيش دوما مؤمنا

فليعلم الفجار أني ههنا — لن أنحني، لن أنثني، لن أركنا

أنا مسلم هل تعرفون المسلما؟ — أنا نور هذا الكون إن هو أظلما

أنا في الخليقة رِيٌّ من يشكو الظما — وإذا دعا الداعي أنا حامي الحمى

أنا من جنود الله حزب محمد — وبغير هدي محمد لا أهتدي!

حاشاي أن أصغي لدعوة ملحد — وأنا فتى القرآن وابن المسجد؟!

ومنها: نشيد «الله أكبر»:

الله أكبر، الله أكبر — تسبيحة العابد المطهَّر

الله أكبر، الله أكبر — أنشودة الفاتح المظفر

الله أكبر.. الله أكبر

في مطلع الفجر، في المساء — في الظهر، في العصر، في العشاء

نقرب الأرض للسماء — مرددين أقوى نداء

الله أكبر.. الله أكبر

عـنـد الـتـنـادي إلى الجـهـاد يـوم الـتـلاقـي مـع الأعـادي

فـوق الـروابي، وفي الـوهـاد نـزلـزل الأرض إذ نـنـادي

الله أكـبـر.. الله أكـبـر

أرجوزة «الأصوليون»

ومن أهم ما أنشأت من الشعر في هذه المرحلة: أرجوزة «الأصوليون»، وهي قصيدة من بحر «الرجز» المعروف بسهولته واستجابته لكل الأغراض، ومن أجل ذلك كان هو معتمد الناظمين في العلوم المختلفة: في النحو والصرف والحديث والفقه والأصول والتوحيد والمنطق وغيرها.

وقد كنا نحفظ ألفية ابن مالك في النحو والصرف، وألفية العراقي والسيوطي في الحديث، ومراقي السعود في الأصول، والجوهرة في التوحيد، والسلم في المنطق .. إلخ. وأعرف أن أخواننا من علماء موريتانيا يحفظون ألوف الأبيات في العلوم الشرعية والعربية.

المهم أني أنشأت هذه الأرجوزة عن «الأصوليين» على لسان أهل الاستخبارات وأمثالهم ومن يناصرهم من العلمانيين. ولذا اعتمدت فيها أسلوب السخرية، كما اعتمدت السلاسة والسهولة في التعبير والتصوير، ولذا راجت هذه الأرجوزة بين الشباب في البلدان العربية كافة. وحفظها الألوف المؤلفة. وبعضهم أدخل فيها، وأضاف إليها من عنده!

مطلع الأرجوزة

أبلغْ رجالَ الأمن حتى يزحفوا فـهـهـنـا جمـاعـة تـطـرفـوا

مـن الأصوليين أعـداءِ الوطن أخـطـر مـن جميع عـباد الوثن

قـد نـأمـن الهـنـدوس والـيـهـودا وقـد نـقـيـم مـعـهـم الـعـهـودا

إلا أولاء، فأذاهم يُحْذرُ فهم علينا من يهودَ أخطرُ!

وقد طوفت الأرجوزة في جوانب الحياة المختلفة، وموقف الأصوليين منها، إلى أن قالت:

أولئكم هم الأصوليون قد خرَّبوا الدنيا وشانوا الدينا

فاستنفِروا لحربهم كل القوى فما لهم غير الفناء من دوا

فكلَّ يوم يكسبون أرضا تمتد طولًا بيننا وعرضا

حتى غزَوْا ساحة أهل الفنِّ وأفسدوا المخرج والمغنِّي

ومن غريب ما نرى ونسمعُ توبة أهل الفن، ذاك المفجعُ

ممثلاتٌ ترتدي الحجابا أليس ذلك العجبَ العجابا؟!

وراقصاتٌ يعتزلن الرقص كأن هذا الرقص كان نقصا!

من ذا يعيب الهز للبطون وذاك من روائع الفنون؟

أليس من ميراثنا الثقافي رياضة الخصور والأردافِ؟

وانتهت القصيدة إلى هذا المقطع المهم:

لا بد من حل ومن علاج من غير تطويل ولا لجاج

والحل أن يُحاربوا مثل الجربْ إن شئت سل بدرًا وسل شيخ العرب[1]

كلاهما أعلن في صراحة وفي صراحة الوزير راحة

ليس لهم عندي من خلاص إلا الكلامُ من فم الرصاص

لا رفْقَ لا سماحَ لا هوادةْ فحقهم منا هو الإبادةْ

(١) المراد هنا: زكي بدر، وعبد الحليم موسى الذي كانوا يلقبونه: شيخ العرب، وكلاهما كان وزيرا للداخلية في مصر.. ومن ألد أعداء الأصوليين.

أمـــا انــتــظــار مــوقــف القضاء فــشــأنُ أهــل العجز لا المضاء

نحن هنا الـقـانـونُ في القانون فتوى الإمــام حمـزة البسيوني(١)

ولـيـقـل الـقـضـاء مـا يـشـاء فـمـا قـضـيـنـاه هـو الـقـضـاء

واحــذر من التمييز والتصنيف مـا بـين داعــي الـرفـق والعنيف

فـكـل هــؤلاء في الهــوى سـوا مــن لم يــمارس عنفه فقد نوى

لكن أهل الاعتدال علينا أخطر لأنهـــم عـــلى الـطـريـق أصـبر

هــم يــربــحــون جـولـة وبـعـد ذاك يبلعون الـدولـة!!

قصيدة «أصولي أصولي»

وبعد أرجوزة «الأصوليون» الساخرة، أنشأت قصيدة أخرى جادة، تتحدث عن الأصولية بلسان الأصوليين، بعنوان: «أصوليّ أصوليّ»، ومطلعها:

أصـــــوليّ.. أصـــــوليّ أجـــل أنــــا لا وصـــــوليّ

أصـــــوليٌّ، ولي أصـــلي ولي نـــســبــي الحـنـيـفـيّ

وأصـــل أصـــولي الـقـرآ ن، دســـتــوري الإلهـــيّ

وســنــة أحمـــد المـخـتـا ر لي زاد ولي ريّ

وقـــانـــوني شرعُ الـلــ ــه لا الـــشرع الـفـرنـسيّ

فـــما يـقـضـيـه مَـقـضيّ ومـــا يـنـفـيـه مَـنـفـيّ

إلى آخر القصيدة وهي أكثر من أربعين بيتا.

كتابي «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي»

كتبي المهمة في الاقتصاد الإسلامي

من الكتب المهمة التي صدرت لي في تلك المرحلة(١٩٩٤م)، وأعتزّ بها: كتاب «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي»، وهو كتاب كبير في «٤٤٠» أربعمائة وأربعين صفحة. وهو أحد كتبي المهمة في الاقتصاد الإسلامي، وهي:

١ـ فقه الزكاة.

٢ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام.

٣ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء.

٤ـ فوائد البنوك هي الربا الحرام.

٥ـ الزكاة وأثرها في حل المشكلات الاقتصادية وشروط نجاحها[1].

والسبب في تأليفي هذا الكتاب: دعوة من مجموعة «دلة البركة» التي يرأسها الشيخ صالح كامل، للمشاركة ببحث حول هذا الموضوع يقدم إلى ندوتها التي عقدتها بالقاهرة في شهر أكتوبر عام ١٩٩٣ بالمشاركة مع بيت التمويل المصري السعودي، حول «تعريف الإعلاميين بالاقتصاد الإسلامي». فقدمت لها بحثًا. ثم أضفت إليه بحثًا آخر، قدمته لندوتها التي عقدت بعد ذلك في دبي، وبه اكتمل الكتاب.

(١) ثم صدر لي أخيرًا: مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال، والقواعد الحاكمة لفقه المعاملات. وأصول العمل الخيري، ونظام الوقف في الفقه الإسلامي.

وقد بينت في هذا الكتاب أهمية القيم والأخلاق ومدى تأثيرها في مجالات الاقتصاد المختلفة، من إنتاج واستهلاك، وتوزيع وتداول.

كما بيَّنت فيه أن أبرز ما يميز الاقتصاد الإسلامي عن غيره من مذاهب الاقتصاد الوضعي: أنه اقتصاد قِيَم وأخلاق.

وهو بحث موثّق بأدلته من القرآن والسنة، وهما المصدران المعصومان الهاديان، فمن اهتدى بهما فلن يضل، ومن اعتصم بحبلهما فلن يزل.

والاعتصام بهذين الأصلين الربانيين الخالدين لا يغنينا عن الرجوع إلى علماء الأمة وأئمتها الراسخين، للاستفادة من علومهم في الشرح والبيان والاستنباط، ولا يُتصور في أيِّ علم كان ـ ديني أو دنيوي ـ أن يبدأ عالم من الصفر، ويطرح التراث الهائل الذي تكوّن على مر الأجيال، وساهمت فيه عبقريات شتّى.

منهجي في الاستدلال بالأحاديث

وقد التزمت في هذا الكتاب ألا أستدل إلا بحديث صحيح أو حسن، إذ لا حجة في غيرهما، ولا أحتج بحديث ضعيف بيّن الضعف، وإذا ذكرت حديثًا ضعيفًا ـ على ندرة ـ فإنما يكون للاستئناس لا للاحتجاج.

وهذا اقتضاني أن أُبيِّن درجة الأحاديث، وأُسندها إلى مصادرها، وأذكر مَنْ صحَّحها أو حسّنها أو ـ على الأقل ـ وثّق رواتها. وهذا ما ألتزمه منذ زمن طويل،على ما فيه من جهد، ولكنه جهد غير ضائع.

لماذا اهتممت بالاقتصاد الإسلامي؟

ولقد بيَّنت في تقديمي لبعض كتبي: لماذا اهتممت بالاقتصاد الإسلامي؟ فهو جزء من النظام الإسلامي العام، ومن الشريعة الإسلامية، فهو داخل في نظرتنا الشمولية للإسلام.

وانظر إلى كتاب مثل كتابي: «فقه الزكاة» هل تعده من الفقه أو تعده في الاقتصاد؟ ربما تعده في كليهما.

على أنَّ الاقتصاد الإسلامي يتضمَّن أمورًا في صلب الدعوة، مثل التكافل والعدالة الاجتماعية، وعلاج مشكلة الفقر، وتقريب الفوارق بين الطبقات بعضها وبعض... إلى آخره.

عناية دعاة الإسلام بالاقتصاد

ولذا رأينا دعاة الإسلام على اختلاف أقطارهم واتجاهاتهم يعنون بالاقتصاد، كما رأينا في تراث المودودي، وسيد قطب، وحسن البنا، وعبد القادر عودة، ومحمد الغزالي، ومصطفى السباعي، رحمهم الله.

والحمد لله أن أصبح الاقتصاد الإسلامي حقيقة واقعة، معلومة للباحثين في شتى الاختصاصات، وقد كان من قبل مجهولًا كل الجهل.

وهذا ما لمسته بنفسي، عندما اتجهت نيّتي إلى الكتابة في الزكاة في أواخر الخمسينيات، وشرعتُ أبحث عن كتب الاقتصاد الوضعي لأقرأ فيها، وآخذ فكرة عن مضمونها، وعن موقفها من الإسلام وموقف الإسلام منها، وكذلك كتب المالية العامة.

وحاولت أن أجد في هذه الكتب شيئًا عن الإسلام، اعترافًا به أو تنويهًا بشأنه، ولو كناحية تاريخية، وكمذهب أو فكر ساد هذه الأقطار الإسلامية وحكمها ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، كان هو الذي يمثِّل المرجعية العليا لها في تشريعها وتوجيهها وتفكيرها الاقتصادي والسياسي والقانوني والسلوكي.

ولكن وجدت الكاتبين على اختلاف مدارسهم وتيّاراتهم، واختلاف بلدانهم وفلسفاتهم، يهملون أمر الإسلام إهمالًا تامًّا، ولا يذكرونه مدحًا ولا قدحًا.

وقد كان سبب ذلك هو جهل هؤلاء الأساتذة والباحثين بالإسلام كله: كتابه وسنّته، وفقهه وعقيدته، واقتصاده وسياسته، فما قرءوا شيئًا عن «الفقه» بصفة عامة، ولا عن فقه «السياسة الشرعية»، وفقه «الأموال» أو «الخراج» بصفة خاصة، ونسوا أن الركن العملي الثالث في الإسلام يتعلق بالاقتصاد، وهو «الزكاة». وأن إحدى الموبقات «الكبائر» السبع، تتعلق به، وهي «أكل الربا».

ولم يكن على الجانب الإسلامي إلا كتب قليلة كتبها بعض العلماء والدعاة، في طليعتها كتب الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، و«الإسلام والمناهج الاشتراكية»، و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين».. وكتاب الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «العدالة الاجتماعية في الإسلام». وبعض المحاضرات والمقالات في جوانب اقتصادية من وجهة النظر الإسلامية، مثل محاضرة الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله عن «الربا» التي ألقاها في مؤتمر باريس سنة ١٩٥١م، ومحاضرة المشايخ: أبي زهرة، والدكتور خلاف، والدكتور عبد الرحمن حسن في حلقة الدراسات الاجتماعية بدمشق عن الزكاة، والوقف، ونفقات الأقارب سنة ١٩٥٢م، ومقالات الأستاذ محمود أبو السعود عن «استغلال الأرض في الإسلام» في مجلة «المسلمون» في الخمسينيات أيضًا.

ولم أعرف رسالة أو أطروحة علمية قُدِّمت لجامعة من الجامعات في بلاد العرب عن الاقتصاد الإسلامي أو جانب منه إلا رسالة الأستاذ شوقي إسماعيل عن «نظام المحاسبة في الزكاة» قرأت عنها مقالًا، ولم تُنشر إلا أخيرًا، وقد قدّمها للحصول على الماجستير في المحاسبة.

هذا في الجانب العربي، وفي القارة الهندية كانت دراسات الأستاذ أبي الأعلى المودودي، وفي مقدمتها: دراسته عن «الربا»، وعن «أسس الاقتصاد في الإسلام مقارنة بالنظم المعاصرة»، وعن «مِلْكية الأرض في الإسلام»، وأخرى عن «معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام».

الاهتمام بالاقتصاد الإسلامي

ثم بدأ الاهتمام بالاقتصاد الإسلامي ينمو ويزدهر شيئًا فشيئًا، فظهر خلال السنوات العشر التي كنتُ أعد فيها رسالتي عن الزكاة عدد من الكتب في الاقتصاد الإسلامي، منها: كتاب الأستاذ محمود أبي السعود «خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي»، وكتاب الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله «اشتراكية الإسلام»، وكتب «المؤتمر الأول لمجمع

البحوث الإسلامية» بالأزهر، وفيه جملة بحوث أصيلة[1]، وكتاب الأستاذ مصطفى الزرقا عن «عقد التأمين»، وغيرها من كتب ودراسات.

وعندما عُقد المؤتمر الإسلامي العالَمي الأول للاقتصاد الإسلامي بمكة المكرَّمة، تحت رعاية جامعة المَلك عبد العزيز سنة ١٩٧٦م قدَّم الأستاذ الدكتور محمد نجاة الله الصديقي قائمة ببلوجرافية عما نُشر حول الاقتصاد الإسلامي بفروعه وجوانبه المختلفة من كتب وبحوث ومقالات، باللغات الثلاث: العربية والأردية والإنجليزية، فكانت بضع مئات.

وقد قدَّمت مجلة «المسلم المعاصر» قائمة بالكتب والدراسات التي نُشرت في الاقتصاد الإسلامي، في عددين ساهمتُ في أحدهما.

واتَّسع الاهتمام بالاقتصاد الإسلامي، وعُقدت له الندوات العامة والمتخصِّصة، وأنشأت بعض الجامعات أقسامًا علمية له، ونشأت كذلك مراكز لأبحاثه في أكثر من بلد، منها: المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، ومركز صالح كامل للدراسات التجارية الإسلامية بجامعة الأزهر.

وقُدِّمت عشرات ـ وربما مئات ـ من رسائل الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات في كليات الشريعة والحقوق والاقتصاد والتجارة وأقسام الدراسات الإسلامية حول عدد من موضوعات الاقتصاد الإسلامي.

مؤسَّسات وبيوت الزكاة

ومن الناحية العملية أُنشئت مؤسسات أو بيوت الزكاة في أكثر من بلد، بعضها عقد مؤتمرات، وأقام حلقات، منها مؤتمر الكويت «سنة ١٩٨٤م» الذي انبثق عنه توصيته بإقامة هيئة علمية عالمية لقضايا الزكاة المعاصرة، اختير أول رئيس لها صديقنا العلامة الشيخ محمد مختار السلامي مفتي تونس في وقتها، واختاروني نائبا للرئيس، مع أني كنت غائبًا. كما عُقدت مؤسسة الزكاة بالسودان ندوات ومؤتمرات عدة، آخرها المؤتمر الذي عُقد بالخرطوم في مايو سنة ١٩٩٤م، وقد شاركت فيه.

---

(١) من أهم ما جاء فيه: بحوث الدكتور محمد عبد الله العربي، والشيخ الخفيف، والشيخ السايس عن المِلْكية.

قيام المصارف والبنوك الإسلامية

كما أُقيمت مصارف وبنوك إسلامية تتعامل بغير الفوائد الربوية، التي أجمعت كل المجامع الفقهية والمؤتمرات الإسلامية على تحريمها، بدأت ببنك دبي الإسلامي، ثم بنوك فيصل الإسلامية، فبيت التمويل الكويتي، والبنك الإسلامي الأردني، وغيرها من البنوك التي انتشرت في العالم الإسلامي، والتي أبطلت مقولة: «لا اقتصاد بغير بنوك، ولا بنوك بغير ربا».

وقد عقدت هذه المصارف ـ أو البنوك ـ الإسلامية مؤتمرات عدة في دبي والكويت والقاهرة وإستانبول وغيرها، وصدرت عن هيئات الرقابة الشرعية لبعضها فتاوى ودراسات مفيدة.

وقد قدّر لي أن أترأس هيئة الرقابة الشرعية في عدد من المصارف الإسلامية، بلغت ثمانية، وربما أكثر، في بعض الأوقات[1].

إحياء فقه المعاملات

وقد أحيت البنوك الإسلامية «فقه المعاملات» المهجور، وأعادت إلى الناس الثقة بإمكان تطبيقها في عصرنا، وخطا بعض هذه البنوك خطوات جيدة إلى الأمام، وبعضها ما زال يشكو من ضعف القيادة أو سوء فقهها، ومن العنصر البشري الذي هو المحور الأساسي لكلِّ إصلاح أو تجديد، والذي دخل هذه البنوك دون فقه بمضمونها، ولا إيمان برسالتها.

---

(١) منها: مصرف قطر الإسلامي، والبنك الدولي الإسلامي في قطر، والوطني الإسلامي في قطر، ومصرف فيصل الإسلامي بالبحرين، وبنك التقوى بسويسرا، ومصرف أبو ظبي الإسلامي، والبنك الإسلامي الأول بالبحرين، والهيئة الموحدة لبنوك البركة في جدة.

المرأة ومؤتمر السكان في القاهرة ١٩٩٤م

خطورة أهداف المؤتمر وقراراته

وفي سبتمبر سنة ١٩٩٤م انعقد مؤتمر المرأة والسكان في القاهرة، الذي كان له صدًى كبير في منطقتنا العربية والإسلامية، ونظرًا لأهميته وخطورة أهدافه، فقد تحدّثت عنه في برامجي التلفزيونية، وفي خطبة الجمعة في مسجد عمر بن الخطاب، وفي تصريحاتي للصحف القطرية وغيرها.

فقد أرادت الأمم المتحدة أن تمرر ـ من خلال هذا المؤتمر ـ قرارات جد خطيرة، تتعلق بالمرأة والأطفال والأسرة والحياة الاجتماعية مغفلة خصوصيات الأمم، ضاربة عرض الحائط بعقائد الديانات التي تدين بها هذه الأمم، وتتغلغل في حياتها، وتسري في كيانها مسرى الدم في العروق.

كان اتجاه المؤتمر أن يحصل على قرار بإباحة الإجهاض بإطلاق، وأن يسحب من الوالدين حقّ التوجيه الأخلاقي لأولادهما، ولاسيما فيما يتعلق بالناحية الجنسية، وحرية المرأة أن تتزوّج من تشاء، فتتزوج المسلمة بالنصراني أو اليهودي أو الوثني، إلى غير ذلك من التوجهات.

وقد ذكرني بعض إخواني أني أصدرت بيانا إسلاميّا بهذه المناسبة، نشر في صحيفة الشعب المصرية وقعته، ووقعه معي د. محمد عمارة، وأ. عبد الحليم أبو شقة.

الاتفاق الإسلامي المسيحي في وجه التيارات الإباحية

ومن الإنجازات المهمة واللافتة للنظر في هذا المؤتمر: الاتفاق الإسلامي المسيحي

للوقوف في وجه التيارات الإباحية، فرأينا مشيخة الأزهر الشريف، ورابطة العالم الإسلامي، وجمهورية إيران الإسلامية، ومعهم الكنيسة الكاثوليكية ومندوب الفاتيكان والبابا في روما، يقفون جميعًا جنبًا إلى جنب لنصرة القيم الدينية والأخلاقية، ضد دعاة الإباحة والشذوذ والمثلية، واستطاع هذا التكتل أن يحبط تلك التوجهات.

وهذا يؤذن بأن هناك مجالات عملية للتفاهم بين الدينين، إذا صفت النيَّات، وصحَّت العزائم.

صدور كتابي «فقه الأولويات»

كان من أهم الكتب التي ظهرت في هذه المرحلة (سبتمبر ١٩٩٤م)، ولفتت الأنظار إليها: كتابي «فقه الأولويات». وقد كنتُ قبل صدوره، تحدَّثت عنه في محاضرات وندوات شتَّى، حتى إن ندوة «دراسات المستقبل الإسلامي» في الجزائر التي انعقدت سنة ١٩٩٠م حين دعاني إليها الأخ محمد الهاشمي الحامدي، قال لي: لقد اخترنا لك موضوعًا هو من صميم اهتمامك في الفترة الأخيرة، وهو ما سمَّيته «فقه الأولويات»، وقد رأينا أن تكتب في «أولويات الحركة الإسلامية في العقود الثلاثة القادمة». وقد كتبتُ في هذا كتابي «أولويات الحركة الإسلامية» غير مقيد بالعقود الثلاثة، لاعتقادي أن العالم يتغيَّر بسرعة، ولا تستطيع أن ترصده لعدَّة عقود ثلاثة، ونحن نرى أن الاتحاد السوفيتي قد سقط بسرعة وبدون مقدِّمات، وإن كان هناك تنبُّؤات بالسقوط، ولكن لم يكن متوقعًا أن يتهاوى بهذه السرعة الهائلة.

«فقه الأولويات»، هو واحد من «ألوان الفقه» التي أطالب بها في برنامجي التجديدي والإصلاحي للأمة، فهناك فقه السنن، وفقه المقاصد، وفقه المآلات، وفقه الموازنات، وفقه الاختلاف، وفقه الواقع، وفقه التغيير، وفقه الأولويات.

وقد سمَّيت فقه الأولويات قبل ذلك، في بعض كتبي: «فقه مراتب الأعمال»، وذلك في كتابي «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف»، ثم رأيت أن «فقه الأولويات» أوفق بما أريد من هذا المصطلح.

وقد علمتُ أن بعض الأخوة من الشباب الدعاة سارع فألَّف كتابًا أو كتيِّبًا سمَّاه «فقه

الأولويات»، حتى ظنَّ بعض الناس أني أنا الذي أخذت المصطلح منه! وهذا تكذِّبة كلُّ الوقائع والمعلومات، فقد حاضرت في هذا الموضوع، وكتبتُ فيه من عدَّة سنوات قبل نشر كتابي، وكان على الأخ الكريم الذي سمَّى كتابه «فقه الأولويات»: أن يبيِّن من أين أخذ التسمية، فهذا مقتضى الأمانة العلمية.

وكان مما قلته في مقدمة الكتاب: «فهذه الدراسة التي أقدِّمها اليوم تتحدَّث عن موضوع أعده غاية في الأهمية؛ لأنه يعالج قضية اختلال النِّسب واضطراب الموازين ـ من الوجهة الشرعية ـ في تقدير الأُمور والأفكار والأعمال، وتقديم بعضها على بعض، وأيُّها يجب أن يُقدّم، وأيُّها ينبغي أن يُؤخَّر، وأيُّها ترتيبه الأول، وأيُّها ترتيبه السبعون، في سُلَّم الأوامر الإلهية والتوجيهات النبوية. ولا سيما مع ظهور الخلل في ميزان الأولويات عند المسلمين في عصرنا.

وتحاول هذه الدراسة أن تلقي الضوء على مجموعة من الأولويات التي جاء بها الشرع وقامت عليها الأدلة، عسى أن تقوم بدورها في تقويم الفكر، وتسديد المنهجٍ، وتأصيل هذا النوع من الفقه. وحتى يهتدي بها العاملون في الساحة الإسلامية والمنظرون لهم، فيحرصوا على تمييز ما قدَّمه الشرع وما أخَّره، وما شدَّد فيه وما يسَّره، وما عظَّمه الدين وما هوَّن من أمره. لعل في هذا ما يحد من غلو الغالين، وما يقابله من تفريط المفرِّطين، وما يُقرِّب وجهات النظر بين العاملين المخلصين».

وقد لقي الكتاب بحمد الله قَبولا واهتماما من كثير من المثقفين والمفكِّرين، وترجم إلى عدد من اللغات.

التقائي أنيس منصور
١٩/١٢/١٩٩٤م

ممن لقيتهم بالدوحة في هذه الفترة: الكاتب الشهير أنيس منصور، وهو صاحب عمود يومي في الأهرام أيضًا، في مقابل عمود أحمد بهاء الدين، وعنوانه معروف لدى قراء الأهرام، وهو «مواقف». وهو رجل ذو ثقافة واسعة، وقراءات متنوعة: في الفلسفة، وهي تخصصه الأصلي، وفي الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع والدين والعلوم المختلفة. وله آراء حرة تحسب في ميزانه وآراء أخرى يرفضها كثيرون.

وعلى الرغم من أني أقدّر ثقافة أنيس الواسعة، وبدايته الفلسفية، ورشاقة قلمه، فإني لا أنهض إلى قراءة عموده، كما أنهض لقراءة عمود بهاء الدين. ولذا لم يكن لقائي أنيس منصور حين دُعي إلى محاضرة في الدوحة، مثل لقائي بأحمد بهاء الدين.

والحديث النبوي الذي رواه البخاري ومسلم، يقول: «الأرواح جنود مُجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

ومع هذا سَعيتُ لأشهد محاضرته، مجاملةً له، فأنا أعتبر هؤلاء المحاضرين الكبار ضيوفًا عليّ في قطر، ومن حقِّهم عليّ أن أُرحّب بهم، سواء وافقتهم أم خالفتهم. على أنّ حضوري للاستماع إلى هؤلاء المحاضرين، ورؤيتهم لي في القاعة، يُخفِّف من غلوائهم، ويجعلهم يتحفظون في كلامهم عن الدين وعن العلماء أو الإسلاميين، كما لاحظ ذلك كثير من الحضور.

وبعد المحاضرة، لقيتُ الأستاذ أنيسًا وسلمت عليه، وعرَّفته بنفسي، فقال: وهل

يخفى القمر؟ أنت القرضاوي الذي باسمه تُرتكب بلاوي، وتقع أحداث، كم باسمك يا شيخ قرضاوي يقترف ما يقترف؟

قلت له: أنت جعلتني مثل «الحرية» التي قال فيها من قال: كم باسمك أيتها الحرية يقتل من يقتل، ويظلم من يظلم؟

وضحك وضحكت، وانصرفنا.

بيني وبين المستشرق الألماني
«وندلين ونزل تيوبر»

من الأحداث التي ينبغي أن أذكرها في هذه الفترة: المراسلة التي تمَّت بيني وبين المستشرق الألماني «وندلين ونزل تيوبر»، بمبادرة منه. وهي تمثِّل تطورًا مهما في العلاقة بين المستشرقين الغربيين والعلماء والمفكرين المسلمين.

فقد كان المستشرقون يكتبون ـ في الغالب ـ لأنفسهم، فيقرأ بعضهم لبعض، ويؤيِّد بعضهم بعضًا، أو يردُّ ـ أحيانًا ـ بعضهم على بعض. ولا يكاد المسلمون يعرفون ما يكتب عنهم، ناهيك بأن يقرءوه أو يدرسوه، إلا بعد حين، قد يطول، حينما يترجمه بعض الدارسين والمهتمين إلى العربية.

ولكن في هذه المرة، رأينا هذا المستشرق أو الباحث ـ الذي نحسبه منصفًا وجادًّا ـ يبادر ليكاتب مَنْ يؤلف عنه، ويسأله في بعض ما يهمُّه أو يُشْكل عليه، وهذه ـ في نظري ـ خطوة إلى الأمام، يجب أن نرحِّب ونُنَوِّه بها، ونشكر صاحبها.

وهذا هو نصُّ رسالة المستشرق الإلماني:

Wendelin wenzel-teuber,M.A

Schwabacher str. 61

D-90763 Furth

Germany

27 April 1995

الشيخ المحترم: أ. د. يوسف القرضاوي

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة قطر

الدوحة ـ دولة قطر

السلام عليكم ورحمة الله ـ الذي نعبده كلنا على طريقتنا ـ وبركاته!

تحياتي الخالصة الطيبة، وبعد:

فلا شك في أنكم تعلمون كيف تدور مناقشات كثيرة في الغرب حول «الإسلام السياسي» أو «الإسلام المتطرف» أو «الأصوليون»، حتى «الخطر الإسلامي» وما أشبه ذلك من العبارات، على أنَّ هؤلاء الكاتبين يجهلون أو يتجاهلون تيار «الوسطية» الإسلامية الذي يتجسَّد في فكر فضيلتكم.

لهذا توجَّهت منذ سنتين إلى قراءة مؤلفاتكم، حتى قرأت أكثرية ما كتبتموه، وبدأت بكتابة دراسة بعنوان: «الإسلام والسياسة عند يوسف القرضاوي» ـ وإن لم أكن أرضى بلفظ العنوان على الإطلاق ـ في إطار معهد الدراسات العالية في الشرق الأوسط المعاصر (Graduiertenkolleg) المشجّع من الدولة الألمانية وولاياتها بجامعة إرلنجن (Erlangen) طالبًا للدكتوراه. أما موضوع الدراسة فليس مجرَّد البحث في آرائكم وعرضها، بل كذلك دراسة في نسبة النظريات الغربية الأوربية من جانبٍ إلى التراث الإسلامي من جانب آخر في تصور المجتمع الإسلامي كما تعرضونه. هذا لأنَّ كثيرًا من الأوربيين، بل من المستشرقين ما زالوا يرون الإسلام ممثلًا تقليد القديم والقدماء، حتى الجمود، فكل فكر معاصر أو حديث فهو أوربي الأصل، مأخوذ من الغرب ودخيل في الإسلام. بمعنى أن مفكري الإسلام منذ عهد مقابلتهم الأولى بالغرب الحديث يحاولون أن يبرّروا ويُرجعوا الثاني إلى الأول، وأن يَصِلُوا بين ما لا صلة له، وهذا من المستحيل كما يدّعون.

وأودُّ أن أؤكد هنا أن إعلان ما هو «أصيل» أم «دخيل» في الإسلام، أو تقرير ما هو منه وما ليس منه، ليس لي ولا لأحد مثلي، إنما هو شأن المسلمين المؤمنين برسالة

محمد، باجتهاداتهم ثم اختلافهم وإجماعهم .. ولكني أريد إثبات أن التفريق المذكور غير صحيح، وأنه يضل عن الطريق إلى فهم جيد؛ لأن الذي يعايش هذا العصر هو بهذا معاصر بحيث إن لقضايا العصر وظروفه أو أحواله وتحدياته، أثرًا كبيرًا في فكره، ولاسيما إن كان من الملتزمين بدينه فيسأل نفسه: ما المطلوب مني في قضية ما؟ وسيبحث عن تركيب حتى لا يتمزق بين واجبات دينه ومقتضيات واقعه، ولن يكتفي بمجرَّد التبرير. وإذا كان من أهل الفكر والتحقيق، بل الاجتهاد، فعليه أن يُرجِّح ويجمع بين التراث والتقاليد والمسائل العصرية في تفهّمه للنصوص من القرآن والسنة النبوية.

هذا ما فهمتُ من قراءة كتب فضيلتكم: أنكم تنشدون مجتمعًا أصيلًا عصريًّا، وأنكم تجددون مفاهيم التراث بحيث تفيد العصر الحديث، في حين أنكم تنسبون المفاهيم الحديثة إلى التراث، بل إلى الأصول نفسها، وتحورونها بحيث تصبح جزءًا لا يتجزأ منه، وإن كانت غربية الأصل؛ حتى بعض الثوابت، وإن بقيت على نفس المعنى، يمكن تجديد أشكالها لإحسان إقامتها. ومعنى هذا أن كلاً من مفاهيم التراث والفكر الغربي الحديث لم يعد تمامًا نفس الشيء. ولعل المثال الأوضح في ذلك ما قلتموه في «النظام الديمقراطي» و«تعدُّد الأحزاب» ونحوهما من أساليب الدولة الإسلامية المنشودة. وقد أعجبني قولكم بأن هذا هو منهج «السلفية»: أي تكييف تطبيق الأحكام للتوصل إلى الأهداف الكبرى باعتبار مستلزمات العصر ومكتسباته.

فانتهيت من تحليل المنهاج الفكري لفضيلتكم إلى أن المستحيل هنا ليس الجمع بين «العصري» و«التقليدي» أو «التراثي»، بل المستحيل هو تفريقهما، وإن افترضنا أن المجتمع «الصناعي» الحديث وتغير مؤسساته وفق تقدم الوسائل التكنولوجية ونحوه من مسلّمات العصر، حتى النظام الدولي، من ابتداعات الغرب.

وسؤالي الأول إليكم هنا: هل توافقون على ما أراه؟ وهل تفهّمي لفكركم صحيح أو غلط؟ وأين الخطأ إن كنت خاطئًا؟ أو بعبارة أخرى: كيف تتمنون أن أتناول هذه القضية، وفكركم بصفة عامة؟ بل لعلكم تعارضون منطلقي عموما؟؟

على أن هناك عدة أسئلة أخرى:

أولها يتعلق بالمستقبل: كيف تقدّرون الآمال لنجاح تيار الوسطية الإسلامية؟ ألا

ترون الخطر أن ينسحق بين استبداد الحكام الذين يأبون على القوى الإسلامية المعتدلة الوصول إلى السلطة ولو عن طريق الانتخابات، وبين رد فعل المتطرفين من الإسلاميين الذين يميلون إلى العنف، فتنشب حرب بين الطرفين لا مجال فيها لكلمة اعتدال؟ وبأي إستراتيجية توصون إذن؟

وهل العنف عندكم وسيلة مقبولة في حال من الأحوال؟

وثانيها يتعلق بالحاضر: كيف تحسبون نفوذ دعاة الوسطية عند الجماهير وعند الشباب الإسلامي في بلد كمصر، وبخاصة ـ وإن كان الجواب شائكا ـ نفوذ نفسكم؟

وثالثًا يتعلق بالماضي: هل ترون في تفكيركم ـ ما عدا الاعتقادات الأساسية ـ أيّ تطور ـ ولا أعني تناقضا ـ من أقوال الشاب الطالب إلى أقوال الشيخ الناضج، أو بين الأربعينيات والتسعينيات بما حدث في هذه المرحلة من تغيّرات الظروف السياسية والاجتماعية؟ وأين يظهر هذا التطور إن كان موجودا؟

كانت عندي أسئلة أخرى متنوعة لا أسألها هنا لكي لا آخذ من وقتكم الضيق أكثر مما ينبغي، وأنا عارف لكثرة مهمّاتكم الشتى. ولكنني اعتقدت أنكم قد تهتمّون بما يُكتب عنكم في الغرب، وينبغي أن يكون لكم الكلام فيه.

إن أكرمتموني بأن تعتبروني جديرا بالجواب أكون مسرورا جدا.

حفظكم الله ووهبكم التوفيق!

Wendelin wenzel-teuber

جوابي على رسالة المستشرق الألماني:

٦/ ١/ ١٤١٦هـ

٤/ ٥/ ١٩٩٥

أخي الكريم الأستاذ م. فاندلين فانزل تيوبر حفظه الله
(Wendelin wenzel-teuber,M.A)

ألمانيا ـ فروث ٩٠٧٦٣

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأنا أرد تحيتكم بأحسن منها، وفق ما وجهنا القرآن: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النساء:٨٦) وأنا أختار الأحسن، شأن المسلم الذي أرشده القرآن إلى ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (الزمر:١٨).

وأود أن أعتذر عن تأخري في الرد على رسالتك الكريمة، فقد وصلتني متأخرة، ثم سافرت بعدها في رحلة طويلة إلى الكويت، ثم موسكو ثم إستانبول.

كما أحب أن أعرب لك عن سروري برسالتك، فقد لمست فيها الإخلاص في طلب الحقيقة، والبحث الدؤوب عنها، كما لمست فيها روح الاعتدال والإنصاف، وهو ما نفتقده لدى كثيرين، ممن يبحثون من الغربيين في الشأن الإسلامي فيُحرِّفون الكلم عن مواضعه، متَّبعين هوى أنفسهم أو أهواء غيرهم، لذا أحيِّي فيك هذه الروح، وأدعو الله تعالى أن يسدِّد خطاك وأن يجزيك عني وعن العلم خيرًا.

اهتمامي بما يكتب عني في الغرب

واعتقادك أني قد أهتم بما يكتب عني في الغرب اعتقاد في محله، وإشراكي في ذلك عن طريق السؤال والحوار أمر يسعدني كثيرًا بلا ريب. وهذا التوجه يعتبر تطورًا له قيمته من قبل الاستشراق والفكر الغربي عمومًا، فقد كان المستشرقون قديماً يكتبون عن الإسلام والمسلمين، وينقل بعضهم عن بعض، ولا يكاد يرى المسلمون هذه الكتابات إلا في النادر. ثم تطور الأمر فغدا المسلمون يقرءون ما يكتبه المستشرقون ويناقشونهم فيه، فبدأ نوع من المشاركة والحوار. أما توجهك الآن فهو خطوة جديدة، لأنها تقوم على التعرف والاستشفاف قبل الكتابة. وخصوصًا ممَّن يُكتَب عنه. فهذا ممَّا يُحمد لك ويحسب في ميزانك.

وقد فهمت من رسالتك أنك تجيد العربية، وأنك قرأت كتبي بها، وهذا شيء رائع حقا، فقراءة النص بلغته الأصلية أدل عليه من قراءته مترجمًا. وإذا كانت رسالتك إليّ بلغتك وأسلوبك فهي لغة راقية حقًّا، وأهنئك عليها.

سعادتي باهتمام المستشرق بتيار الوسطية

ولقد سعدت كثيرًا باهتمامكم البالغ بـ«تيار الوسطية الإسلامية» الذي أتبنَّاه وأدعو إليه بقلمي ولساني وفكري وجهدي منذ سنين طويلة، والذي أعتبره هو المعبِّر الحقيقي عن روح الإسلام، ومنهج أمته التي سمَّاها القرآن ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣). وإن كان هناك أناس في الغرب قد طفقوا يحذِّرون من هذا التيار. ويقولون صراحة: احذروا الإسلام المعتدل، فهو أشد خطرًا وأطول عمرًا، وأوسع قاعدة. وهذا ما أعجب له يا أخي كل العجب، فإذ كان التطرف مرفوضًا، والاعتدال مخوفًا، فماذا يصنع المسلم الملتزم؟

إن الأمل قد أصبح معقودًا بالباحثين المنصفين ذوي الأفق الواسع، والنية الصادقة، من أمثالك، فهم الذين ينيرون الطريق - ببحوثهم الموضوعية، ونظراتهم العلمية - لأقوامهم، ويهدونهم سواء السبيل.

تأثر المجتهد بزمانه ومكانه

أما سؤالك الأساسي حول توجُّهك في الكتابة عن فكري في موضوع «الإسلام والسياسة» فأنا معك في أن المفكر - أو «المجتهد» بلغة الفقه الإسلامي - لا يستطيع أن ينفصل عن زمانه ومكانه، أو عن عصره وبيئته، وهذا ما جعل المحققين من فقهائنا يقولون من قديم: إن الفتوى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والعرف والحال.

والمجتهد المسلم الذي يعيش في القرن الخامس عشر الهجري، غير المجتهد الذي عاش في القرن العاشر، غير المجتهد الذي عاش في القرن الثاني أو الثالث، ومن هنا كان لا بد لنا أن نتأثر بعصرنا وتوجهاته الثقافية والحضارية، شئنا أم أبينا، إن كنا نعيش في هذا العصر حقا، ولم نفرض على أنفسنا عزلة مصنوعة.

كيفية قراءتي للتراث

وسيتجلَّى أثر هذا في قراءتنا للتراث، وفي فهمنا للنصوص، سنجد في التراث أقوالًا مهجورة، وآراء مطمورة، تتوافق مع العصر، تحتاج إلى أن تتبنى وتشهر، وسنجد

نصوصًا مهمة لم تأخذ حقها في الظهور يجب أن تظهر، ونجد نصوصا أخرى فهمت في ضوء زمن معيَّن ينبغي أن تعاد قراءتها.

كل ما في الأمر أن هناك قومًا يغلب عليهم العصر حتى يذوبوا فيه، وينسوا أصالتهم وهُويتهم، ويُبرِّروا ذلك بتأويل النصوص تأويلًا متعسِّفًا يقنعهم بسداد طريقهم.. وقومًا آخرين يأخذون من إيجابيات العصر ما يتلاءم مع أصالتهم، ويشد أزرها في الوقت نفسه، موازنين بين الثوابت والمتغيِّرات، مقتبسين من الأساليب، والآليات والضمانات ما يقوِّي الثوابت، مُحوّرين فيما نأخذه ونقتبسه، بحيث يصبح جزءًا منا، ويفقد جنسيته الأولى.

موقفي من الحضارة الغربية

ليس الغرب كله مرفوضًا، ولا الغرب كله مقبولاً. هناك قضايا مسلَّمة في الغرب، لا يقبلها منطق المفكر أو المجتهد المسلم الملتزم، مثل قضية الربا في المجال الاقتصادي، وقضية التبرج في المجال الاجتماعي، وقضية العلمانية في المجال السياسي، ومثل النزعة المادية في المجال الفكري، والنفعية «المطلقة» في المجال الأخلاقي، ونحو ذلك مما لا يسوغه الإسلام بحال في ضوء قرآنه وسنته.

وماعدا ذلك فهو مجال رَحْب للاقتباس، حتى ذكرت في بعض كتبي أننا وإن كنا نرفض الفلسفة الكلية لـ«ماركس» أو «فرويد» أو «دوركايم» أو «داروين»، فإن هذا لا يمنعنا أن نأخذ من نظرياتهم ما لا يخالفنا، فليس كل ما قالوه خطأ، بل فيه الصواب والخطأ، شأن البشر غير المعصومين.

وأعتقد أنكم وجدتم ـ وستجدون ـ في كتبي ما يلقي الضوء على هذه القضايا، وخصوصًا في كتبي«فتاوى معاصرة» الجزء الثاني، و«أولويات الحركة الإسلامية»، و«الإسلام والعلمانية وجها لوجه»، و«الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف»، و«الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي»، و«أين الخلل؟»، و«الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة»، وسلسلة «حتمية الحل الإسلامي»، و«الاجتهاد في الشريعة الإسلامية»، و«ملامح المجتمع المسلم»، و«فقه الأولويات» وغيرها.

أعود إلى أسئلتك الفرعية في رسالتك.

مستقبل تيار الوسطية الإسلامية

أما سؤالك الأول، المتعلق بالمستقبل: مستقبل «تيار الوسطية الإسلامية» فنحن المسلمين عادة نقول بمنطق الإيمان: المستقبل بيد الله وحده، ولا يمنعنا هذا أن نقول في ضوء المنظور من الأسباب: إن هذا التيار هو صاحب المستقبل، وهو الذي سيرجع إليه كثير من الغلاة بعد أن تبينوا أن التطرف لا يفيد، والعنف لا يجدي، كما سيحاول كثير من المقصِّرين أن يلحقوا به، واللحاق به مستطاع وميسور، فإنه لا يطلب من الناس ما يعنتهم في دينهم، أو يحرجهم في دنياهم.

وأملي أن الشعوب ستعي قيمة هذا التيار وتتبنّاه، حين تملك أمر نفسها حقيقة. أما الحكام فالغالب أنه لا أمل فيهم، فهم لا يعملون من أجل أمتهم، وتحقيق مشروعها الحضاري، بل يعملون لصالح أنفسهم، أو لصالح من يدينون له بالولاء.

ولا أرى العنف وسيلة مجدية بحال من الأحوال في التغيير والإصلاح، وهو محظور أبدًا، إلا في حالة الضرورات التي تبيح المحظورات، وللضرورات في الشريعة الإسلامية أحكامها. ولكن حتى هذه لها ضوابطها المعروفة في الشرع، إن ما أبيح للضرورة يقدَّر بقدرها، وبضوابطها، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ (البقرة:١٧٣)، كما قال القرآن.

والخلاصة: إن تيار الوسطية هو تيار المستقبل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ (صٓ:٨٨).

أثر الوسطية عند الجماهير المسلمة

وأما السؤال الثاني، المتعلق بالحاضر. ومدى نفوذ دعاة الوسطية عند الجماهير، وعند الشباب الإسلامي في بلد كمصر، ونفوذ فكري وتأثيري أنا خَّاصة، وإن كان شائكًا، فأقول بصراحة: إن هذا التيار هو أوسع التيارات نفوذًا، وأكثرها جمهورًا، وأعرضها قاعدة، يتبين ذلك عندما تتاح فرصة ليعبِّر هذا التيار عن نفسه بحرية، فيختار دعاته وممثلوه كما في أندية هيئات التدريس، واتحادات الطلاب بالجامعات، ونقابات الأطباء والصيادلة والمهندسين والمحامين وغيرهم من أصحاب المهن المختلفة، الذين يمثلون مثقفي الأمة.

وأنا وإن كانت إقامتي في قطر كما تعلم، ولا أذهب إلى مصر إلا في إجازة الصيف، فإنك تستطيع أن تحكم مدى نفوذ تيار الوسطية من خلال أمرين:

١ ـ انتشار كتبي بحمد الله انتشارًا لا نظير له، حتى إن عددًا منها طبع عشرات المرات.

٢ ـ الحضور المكثف لما أُدعى إليه من محاضرات، سواء في القاهرة أم في مدن الأقاليم.

ويوم كنت أخطب العيد في ميدان عابدين، كان يحضر مئات الآلاف. ومن المعلوم: أن الشباب الذين لا يدينون بفكري يحترمونه، لأنه مؤصَّل تأصيلًا شرعيًّا.

وهذا قد عايشته ولمسته في أقطار عربية وإسلامية كثيرة زرتها، ورأيت فيها هذا التجاوب الهائل، الذي يتمثَّل في الإقبال على محاضراتي، وفي اقتناء كتبي، ولله وحده الفضل والمنة.

وإن أنس لا أنسى تلك الجملة التي يبدأ بها كثير من الأوراق التي تردني بعد إلقاء المحاضرات، وهي تقول: نحبك في الله!

التطور في تفكيري بين الماضي والحاضر

وأما السؤال الثالث المتعلق بالماضي، وهو عن التطور في تفكيري بين الماضي والحاضر، بين الأربعينيات والتسعينيات، من أقوال الشاب الطالب إلى أقوال الشيخ الناضج، فلا شك في أن الإنسان الحي يتطور بتطوَّر ما حوله، ويتغيَّر بتغيُّر زمانه ومكانه، فليس الإنسان آلة صماء، بل هو فكر وشعور وإرادة. ولاسيما إذا لم يكن إنسانًا جامدًا ولا مقلدًا.

لقد كان يغلب عليّ في الأربعينيات حماس الشباب، وخيال الشاعر، وأسلوب الواعظ، ولكني ـ طوال حياتي ـ لم أكن جامدًا ولا مقلدًا تقليدًا مطلقًا، فكنت منذ المرحلة الابتدائية أناقش شيوخي، وأقبل منهم وأدع، وكنت وأنا في المرحلة الثانوية أدرّس الفقه في قريتي متخَيِّرًا من المذاهب، كما حكيت ذلك في مقدمة كتابي «فتاوى معاصرة». كما لم أجنح إلى الغلو ولا إلى التسيُّب في أيِّ فترة من عمري. كانت الوسطية كأنها هي جزء من كياني، فطرة فطرني الله عليها. يتبين ذلك في أول مؤلف حقيقي أدخل به ميدان التأليف، وهو كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» الذي كتبته في سنة ١٩٥٩ بناء على تكليف من مشيخة الأزهر، وفيه يتجلى منهج الاعتدال والتيسير، كما يتجلى

روح الاجتهاد والتجديد، في الفكرة والأسلوب. وقد كان الكتاب موضع اهتمام من الإخوة في جامعات باكستان، بوصفه نهجا جديدا في كتابة الفقه المعاصر. وقد وَصَل إليهم الكتاب مبكرًا «أوائل الستينيات»، فقدّمت فيه طالبة في جامعة البنجاب بحثًا حصلت به على درجة الماجستير، وآخر في جامعة كراتشي.

خطُّ الوسطية الإيجابية

خطِّي الأساسي ـ وهو خطُّ الوسطية الإيجابية ـ لم يتغيَّر، بل زادا تأكُّدًا وتعمقا ووضوحًا.. وربما حدث تغيُّر ما أو تطور ما، في بعض القضايا، وهو تغيُّر في الدرجة لا في النوع، مثل الموقف من القومية ومن الديمقراطية. فأنا الآن أكثر تسامحًا في هذه القضايا مني في عصر الشباب، كما أني الآن أكثر انفتاحًا، ومَيْلًا إلى الحوار مع المخالفين، وأحاول تأصيل هذه القضايا من الوجهة الشرعية، بعد أن اتسعت المعرفة، ونضج الفكر، وازدادت الخبرة بالدين وبالحياة معًا.

أخي، أرجو أن تكون هذه الإجابات السريعة كافية ومقنعة لك، كما أرجو ألا تتردَّد في طلب ما يعنُّ لك من أسئلة تراها لبحثك، وأن تطلب ما تحتاجه من كتبي، لأجتهد في إرساله إليك، وحبذا لو طلبت ذلك من مدير جامعة قطر «د.إبراهيم صالح النعيمي» ليتولى هو إرسال هذه الكتب إليك.

أخيرًا، أرجو أن تقبل خالص تحياتي، وأطيب تمنياتي، وأخلص دعائي لك بالتوفيق والسداد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير مركز بحوث السنة والسيرة

أ.د. يوسف القرضاوي

مؤتمر «موسكو» للأديان ١٩٩٥م

برنامج «التواصل مع أحفاد الإمام البخاري»

وفي شهر مايو ـ على ما أذكر ـ سنة ١٩٩٥م زرت مدينة موسكو عاصمة روسيا لأول مرة، لأحضر مؤتمرًا للأديان يعقد فيها، ويقام في إحدى جامعاتها.

وكان الذي دعاني للمشاركة في هذا المؤتمر، وألحّ عليّ هو لجنة مسلمي آسيا في الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت، والتي يشرف عليها الأخ الإعلامي الحركي النشيط د. عادل الفلاح، الذى تبنّى برنامجًا له إيحاؤه وإغراؤه تحت عنوان: «التواصل مع أحفاد الإمام البخارى».

ويقصد بأحفاد الإمام البخارى: مسلمي الجمهوريات الآسيوية التى كانت جزءًا من الاتحاد السوفييتي، وكانت ترزح وراء الستار الحديدي، وقد تنفست الصعداء أخيرًا حين تفكّك الاتحاد السوفييتي، وانتفضت بعض دول الاتحاد على حكامها الشيوعين مثل: رومانيا وبولندا من دول أوربا الشرقية، وغيرت أنظمتها الدكتاتورية المتسلطة إلى أنظمة ديمقراطية، تخضع للانتخابات، وما تقوله صناديق الانتخابات.

وفى هذا الإطار استجبت لدعوة الأخ: عادل الفلاح لحضور هذا المؤتمر الذى يتخذ صبغة عالمية، وقد وجدتها فرصة للتعرف على هذه البلاد التي كانت تنازع أمريكا السيادة على العالم، والتي كان اتحادها يضمُّ عددًا من الأقطار الإسلامية العريقة في الإسلام، والتي ساهمت فى بناء الحضارة الإسلامية، والثقافة الإسلامية.

وحتى روسيا الاتحادية نفسها، فيها أكثر من عشرين مليونا من المسلمين. (الآن ٢٦ مليونا).

بعض العلماء المشاركين في المؤتمر

وقد سافرت إلى روسيا، ووصلت إلى موسكو، ووجدت عددًا من علماء المسلمين المشاركين في هذا المؤتمر، منهم د. علي جمعة، الذي كان أستاذا في جامعة الأزهر، وجاء ممثلا لشيخ الأزهر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله. ومنهم: أخي وصديقي القديم، ورفيقي في السكن وفي معتقل سنة ١٩٤٩ د. عبد الودود شلبي. ومنهم: د. محمد أركون الذي التقيته من قبل الجزائر. وغيرهم ممن لم أعد أذكر أسماءهم.

كنا في أوائل الصيف، وكنت أخشى أن نجد بعض البرد في موسكو التي كثيرًا ما تكون عشرين درجة تحت الصفر. ولكن وجدت الجو حارًّا، وقد أنزلونا فندقا لا أذكر اسمه، يعدّ من أحسن الفنادق عندهم، ولكن للأسف وجدته دون المستوى في كل شيء، في تكييفه وأثاثه وطعامه وشرابه وإضاءاته وتجهيزاته! وهذا ما لمسته من قبل عندما زرت طشقند من بلاد الاتحاد السوفييتي، قبل ذلك، في مؤتمر الإمام البخاري الذي تحدثت عنه من قبل.

وكنت أحسب أن روسيا بوصفها العاصمة الكبرى للاتحاد السوفييتي، ستكون شيئًا آخر، ولكني لم أجد ما توقعته.

مفاجأة لم تكن بالحسبان

ومما أذكره ولا أنساه أبدًا: ما رأيته ولمسته في دورات مياه الجامعة التي أقيم بها المؤتمر، فقد فوجئت بما لم يكن في حسباني حين دخلت مرحاض الجامعة لأقضي حاجتي، وبعد أن انتهيت تلفت حولي لأبحث عن صنبور «حنفية» للمياه أو خرطوم، أو وسيلة مائية للاستنجاء، فلم أجد، فبحثت عن مكان للورق يمكن أن يستخدم، فلم أجد ورقا ولا مكانًا للورق! ولولا أني أحمل الأوراق التي يسمونها « الكلينيكس» في جيبي عادة، لحرت في أمري! ماذا أفعل لتنظيف نفسي، وتساءلت: ماذا يصنع هؤلاء الناس حين يقضون حاجاتهم كسائر البشر؟ ولا ماء عندهم ولا ورق لديهم؟!! هل يقومون ويخرجون على الناس حاملين أقذارهم ونجاساتهم كما نسميها نحن المسلمين؟

لو كان هناك «علاّقة» للأوراق، لقلت: إن الورق نفد، ولكن لا توجد علاقة، وقلت: لعل المرحاض الذي دخلت فيه غير المراحيض الأخرى، فسألت الإخوة معي، فكلهم شكوا مما شكوت.

وسألت بعض الطلاب الذين يدرسون في موسكو من العرب المسلمين، فأكدوا هذه الظاهرة، وقالوا: إننا نحتاط دائما بحمل قوارير «زجاجات» نملؤها بالماء حين نريد دخول هذه الحمامات.

وكان الطلبة الروس يعجبون منا، ويقولون: عجبًا لهؤلاء الطلبة العرب! لا يحلو لهم الشرب إلا عند دخول الحمامات!! يحسبون أننا نحمل هذه الزجاجات والأوعية للشرب، وليس للغسل والتطهير.

زيارات ولقاءات مع كبار المسؤولين

وقد رتب لنا لقاء نلتقي فيه كبار المسئولين في الحكومة، وفي البرلمان، وتحدثنا فيه بصراحة عن الإسلام والعلاقات الروسية، وحقوق المسلمين داخل روسيا، وقضية فلسطين، وعدد من القضايا لم أعد أذكرها، وكان لي كلمات قوية قلتها في هذا اللقاء نسيتها.

وقد زرنا بعض المناطق هناك، ومررنا بقصر الكرملين أكثر من مرة، وشاهدنا بعض الساحات التي كان يتجمّع فيها الجماهير. وشاهدنا برج موسكو وقيل إن طوله كذا وكذا. ولم يسعفنا الوقت لنقوم بصعوده، ورؤية موسكو من فوقه.

خطبة الجمعة في موسكو

وزرنا مسجد المسلمين الذي يصلي فيه المسلمون الجمعة، وتعرفنا على الشيخ «زين الدين» مفتي المسلمين في روسيا الاتحادية. وقد كنا تعرفنا عليه في المؤتمر. وقد خطبت الجمعة في مسجدها العريق، والتقيْتُ جمهور المسلمين بعد الصلاة.

وقد وجدتُ بعض الإخوة من شباب الصحوة يعملون هناك في نشر الدعوة والثقافة الإسلامية، بعد أن تنفس الناس أجواء الحرية، وقد ركزوا على نشر عدد من كتبي، ومنهم الأخ الطبيب عبد الله سَعْد، خريج جامعة الأزهر، الذي عرفني أنهم ترجموا كتابي «الحلال والحرام في الإسلام» وبعض الكتب الأخرى، وقد أوصيته وإخوانه أن يتعاونوا في عملهم مع د. عادل الفلاح ولجنة مسلمي آسيا في الكويت، حتى لا يتكرر العمل الواحد من أكثر من جهة، وقد وجدت فعلًا كتابي «الحلال والحرام» ترجمته أكثر من جهة، ولا أدري أي الجهات أقوم قيلًا وأهدى سبيلاً. وفي التعاون بركة، واختصار للوقت، وتعميم للنفع، ويد الله مع الجماعة.

لقاء مع ضابط من أمن الدولة في مصر

عودتي إلى مصر بعد انقطاع عن زيارتها

تحدَّثت من قبل عن انقطاعي عن زيارة مصر تسع سنوات (من سنة ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٧٣)، وفي شهر يونيو ١٩٧٣م عدت إلى مصر، ودخلتها، كما دخلها سيدنا يعقوب وأولاده إخوة يوسف، حين قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩).

ولم يسألني أحدٌ أي سؤال: لماذا غبت هذه المدة؟ أو نحو ذلك.

ولم يستدعني أحدٌ في الداخلية أو غيرها، ليوجِّه إليَّ سؤالًا، وإن كانوا سألوا بعض الناس عني. مثل الحاج عبده مصطفى، رجل الجمعية الشرعية المعروف، الذي رآني مرة أسير في شارع شريف، فأسرع ينادي عليّ، ويدعوني أن أشرب عنده فنجانًا من القهوة.

كما سألوا أخي وصديقي الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر (الدكتور بعد ذلك) لماذا ينقلني بسيارته ويهتم بشأني؟

أما أنا فلم أُسأل، وظللت هكذا، طوال عهد الرئيس أنور السادات رحمه الله، ولم أكن أوقف في المطار، ولا يعوقني عائق في السفر أو القدوم.

تغيُّر الأوضاع الأمنية

وبعد قتل الرئيس السادات، وتولِّي الرئيس حسني مبارك للحكم، بدأ الوضع يتغيَّر. ففي يوم من الأيام، قيل لي: إنَّ هناك ضابطًا من أمن الدولة يريد أن تتصل به، وترك لي رقم هاتفه.

وكنت على أهبة السفر، ولا أجد وقتًا للاتصال، فسافرت دون أن أتصل به.

وعندما قدمت لقضاء الإجازة الصيفية: وجدت الوضع في المطار قد تغيَّر، فأوقفت قليلًا، وأُخذ جوازي ليُعْرض على جهات الأمن في المطار. وقال لي الضابط الذي تسلّم مني الجواز: إنها فرصة لتشرب معنا القهوة، ونسألك بعض الأسئلة، التي قد لا نجد من يجيب عنها غيرك. وسألوني بعض الأسئلة وأجبتهم عنها بما وفقني الله إليه.

تعامل الأجهزة الأمنية معي بأدب واحترام

وبعد نصف ساعة أو أكثر جاءوني بالجواز، وكانوا غاية في الأدب والتقدير والاحترام.

وقال أحدهم: لقد تعلمنا منكم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقّر كبيرنا، ويعرف لعالمنا»[1] (أي حقه).

وكذلك تعاملوا مع بعض الإخوة المصريين في الخارج، الذين يحملون جوازات خليجية، مثل د. كمال ناجي، الذي يحمل جوازا قطريًّا، ود. عز الدين إبراهيم، الذي يحمل جوازا إماراتيًّا.

وقد قال لي بعضهم: يمكنك أن تطلب مقابلة الوزير، وتشرح له وضعيَّتك، وهو يعرفك ويسمع عنك، ويقدرك حقَّ قدرك، وهو الذي يستطيع أن يحذف اسمك من القائمة..

قلت لهم: إنَّ نفسي لا تنشرح لهذا، وَلْيَجْر عليَّ ما يجري على غيري. وأنا لا أحب الذهاب إلى الداخلية مختارًا.

سياسة الوزير أحمد رشدي

ولم يلبث أن تغيَّر وزير الداخلية، وجاء الوزير أحمد رشدي، وقد كانت له سياسة

(١) رواه أحمد بلفظ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا» (٦٧٣٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ورواه الترمذي بلفظ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا» (١٣٢٠).

مخالفة لمن كان قبله، فلم أوقف في عهده مرة واحدة بالمطار، وأظن ذلك كان معاملة عامة. وبعده عاد الأمر إلى ما كان عليه.

مع المقدّم محمد عبد الوهاب

وفي صيف سنة ١٩٩٥م، دق جرس الهاتف في منزلي بمدينة نصر، فرفعت السماعة، فقال المتصل: أنا المقدم محمد عبد الوهاب من مباحث أمن الدولة، وأرجو أن أتشرف بمقابلة فضيلتكم في بيتكم في الوقت المناسب لكم، وتحديده متروك لكم.

قلت له: مرحبًا بكم في أي وقت. ولكني مسافر غدًا إلى الإسكندرية، وسأبقى هناك نحو خمسة أيام أو ستة، ثم أعود، ويمكنكم أن تتَّصلوا بي بعد رجوعي لنحدِّد وقت اللقاء.

قال: أنا أترك لفضيلتكم رقم تليفوني، وبعد عودتك واطمئنانك، تستطيع الاتصال بي وقت ما تشاء، وتحدد موعد زيارتي وقت ما تشاء. وأعطاني رقم تليفونه.

وبعد عودتي في أوائل أغسطس على ما أذكر، اتصلت به، وقلت له: يمكنك أن تشرفني غدًا في الساعة الثامنة والنصف مساء، وأهلا بك وسهلا.

وفي الموعد المحدَّد، حضر الأخ المقدم محمد عبد الوهاب، وقدم لي نفسه، وقال: أنت رجل معروف في العالم الإسلامي كله، ونحن للأسف في بلدك، لا نعرفك حق المعرفة. وقد جئت أبلغك تحيات المسؤولين عني، وإعجابهم بك، وإكبارهم لك. وأريد أن أسألك: هل هناك أي متاعب تشكو منها، يمكن أن نساعد في حلها؟

قلت مبتسمًا: هل تريد الصراحة؟

قال: نعم، لا شك.

قلت: المتاعب تبدأ من عندكم!

قال: كيف؟

قلت: إن لي زيارات شتّى لبلاد كثيرة في أنحاء العالم الإسلامي وخارجه. وفي كثير

من البلاد يقابلني الوزراء، ومندوبو الرؤساء، إلا في بلدي؛ فأوقف فيه ويؤخذ جوازي، وأنتظر وقتا قد يقصر وقد يطول.

قال: أرجو أن تأخذ رقم هاتفي، وتتَّصل بي قبل حضورك، لأرتِّب لك الأمر، ولا تحدث متاعب إن شاء الله.

ولم أعلق على ذلك، لأن هذا الاتصال ثقيل على نفسي، ولا أحب أن أقيد نفسي اختيارا بإجراء روتيني، وليجر عليّ ما يجري على الناس، ثم طفق يلقي عليّ أسئلة أخرى، وكان في الحقيقة معي في غاية الأدب.

قال لي: هل عندك مانع أن أوجِّه إليك بعض الأسئلة لأسمع إجابتك عنها؟

قلت له: لا مانع قط، أنا رجل من أوائل مهمتي أن أتلقى أسئلة الناس وأجيب عنها.

رأيي في المحاكمات العسكرية

قال: ما رأيك في المحاكمات العسكرية؟ والأحكام التي صدرت فيها؟

قلت: هل تريد رأيي بصراحة؟

قال: نعم.

قلت: الأحكام العسكرية كانت قاسية، بل شديدة القسوة، على أناس لم يقترفوا جرما، ولم يمارسوا عنفا. فمن المعلوم لديكم أن الإخوان منذ خرجوا من سجون عبد الناصر إلى اليوم، لم يثبت في حقهم أنهم استخدموا العنف أو شاركوا فيه، ولا لمرة واحدة.

بل أنتم ـ ولا شك ـ تعلمون الصدامات التي وقعت بين شباب الإخوان في الصعيد وشباب جماعة الجهاد. حيث يتهمون الإخوان بالتخلي عن مبدأ «الجهاد»، والمهادنة للسلطة، والاستسلام للطواغيت.. إلخ.

قال: ولكن لا يزال في الإخوان جماعات تتدرب على السلاح؟

قلت: جماعة الإخوان جماعة كبيرة، وممتدة في شرائح متنوعة من الشعب، ولا يبعد

أن يوجد فيها عشرة أو عشرون يفكرون مثل هذا التفكير إن صح ذلك، وأنا أحكم على المجموع لا على الجميع، والمهم هو الاتجاه العام في الجماعة، الذي تقوم عليه التربية والثقافة والتوجيه العام. وقد كان الإخوان قديماً يحتاجون إلى هذا النوع من التدريب العسكري حين لم يكن هناك تجنيد إجباري، أما في عصر التجنيد الإجباري فكل المصريين يدخلون الجيش، فلا حاجة لمثل هذا التدريب.

ثم عاد الحديث إلى الأحكام العسكرية. وقلت له فيما قلت: ولماذا المحاكمات العسكرية لأناس مدنيين ليس فيهم عسكري واحد؟ ثم هم لم يمارسوا أي عمليات عسكرية؟ ولم يتَّجهوا إلى العنف أو يجربوه بوجه من الوجوه، فيما أعلم عنهم، أو عمن أعرفه منهم على الأقل.

أعرف من الدفعة الأولى الدكتور عصام العريان، أعرفه منذ كان طالبا في كلية الطب، وكان أميرا للجماعة الإسلامية، وقد كان حريصا على أن ينتقل بالطلاب من الغلو والتشدد إلى الوسطية، وكان يستعين بي وبشيخنا الغزالي على ذلك. وأعرفه بعد أن نضج وأصبح وجهًا إسلاميًّا مصريًّا مشرّفًا له حضور واضح في المؤتمرات والندوات التي تعقد داخل مصر وخارجها. ماذا ارتكب عصام العريان حتى يحكم عليه بخمس سنوات؟

وأعرف من الدفعة الثانية: الدكتور عبد الحميد الغزالي، وهو أستاذ متخصص في الاقتصاد الإسلامي، ومدير لمعهد البحوث والتدريب في البنك الإسلامي للتنمية، وقد جمعتني به حلقات وندوات ومؤتمرات خاصة بالاقتصاد الإسلامي، وهو يعيش بجدة منذ سنوات، وليس من نشطاء الإخوان.

قال: ولكنه صار من نشطاء الإخوان بعد أن توفيت زوجته.

قلت: هو لحق؟! إنه عاد من جدة منذ عدة أشهر فقط.

السماح بالوجود القانوني للإخوان

قال: ولكن الإخوان يقيمون تنظيمات مخالفة للقانون؟

قلت له: سأسلّم معك بما تقول. ولكن لماذا تُلجئون الإخوان لمخالفة القانون؟

أنتم تعلمون أن الإخوان جماعة موجودة بالفعل، وتنمو وتتكاثر ككل كائن حي، فلماذا لا تسمحون لها بالوجود القانوني؟ أنتم سمحتم بذلك للشيوعيين والناصريين والقوميين وسائر الفئات، إلا الإخوان، أليس الإخوان مصريين؟ أهم مستوردون من خارج تراب الوطن أم هم جزء منه؟

إنَّ الصواب في ذلك: أن يسمح للإخوان بالعمل علانية وفوق الأرض، وتحت سمع الدولة وبصرها، وبإذن من القانون، بدل أن نلجئهم إلى العمل تحت الأرض. فهذا من حقهم بوصفهم مصريين.. والتزامهم بالدين وبالإسلام لا يجوز أن يكون سببًا في حرمانهم من ممارسة حقوقهم المشروعة.

ثم قلت: وقد كان الإخوان موجودين بالفعل منذ عهد الرئيس الراحل السادات، وكان الأستاذ التلمساني رحمه الله، يدعى في الاجتماعات المختلفة باعتباره مرشدًا للإخوان!

قال: ولكن الأستاذ التلمساني، كان عنصرًا ملطفًا بطبيعته الهادئة، وشخصيته الطيبة، ثم لم يكن التنظيم مُحكمًا كما هو محكم اليوم.

قلت: الذي أراه مخلصًا: أن علاج هذا كله يكمن في الاعتراف بالإخوان جماعةً لها كيانها وأهدافها ونشاطها في حدود النظام العام والقانون.

ونحن أحوج ما نكون إلى تجميع كل القوى، وتوحيد صفوف الأمة للبناء، والتنمية والرقي بوطننا، بعيدا عن التوترات والصراعات.

أنا أقول هذا بوصفي مصريًّا مسلمًا، يحبُّ الخير لوطنه، والإعزاز لدينه، وقد علمتني رحلاتي المختلفة إلى أقطار العالم: أن مصر من أرجى بلاد الله لنصرة الإسلام، إن لم تكن أرجاها جميعا.

أنا أقول لك هذا بصراحة العالم، لا بمناورة السياسي، وأنا ليس لي أي وضع تنظيمي في الإخوان!

استعفائي من التنظيم العالمي للإخوان

قال: نحن نعلم أنه ليس لك أي وضع تنظيمي في الإخوان داخل مصر، ولكن في التنظيم العالمي ألا يوجد لك مشاركة فيه؟

قلت: كان لي مشاركة من قبل، ثم استعفيت منذ سنين، لأتفرغ لخدمة الإسلام بالعلم والفكر والدعوة، وأعتبر نفسي مِلْك المسلمين جميعا، لا ملك الإخوان وحدهم. وهذا لا يعني أني أتنكر لفكر الإخوان أو لدعوتهم، وهم قد يعتبرونني منظّرهم أو مفتيهم، كما أن كتبي تعدُّ من مراجعهم الأولية، وهم أول الناس قراءة لها.

وهناك أسئلة أخرى جرت في هذه المقابلة، لا تهمنا هنا، إنما الذي يهمنا هو التعليق على بعض الأمور، مثل الأحكام العسكرية.

وبعد أكثر من ساعة، انتهت المقابلة، وانصرف الضابط المسؤول مشكورا، ولم أعرف الهدف من وراء المقابلة، ولعله مجرد التعرف والاستكشاف أو التعارف، المهم أني قلت ما أعتقد أنه الحق، ليوصلة الرجل إلى من هم فوقه. وبالله التوفيق.

وفاة الدكتور سعيد رمضان

وفي هذا الصيف ٥ أغسطس ١٩٩٥م تُوفي الداعية الإسلامي الكبير، الدكتور سعيد رمضان عن عمر يناهز ٦٩ تسعة وستين عاما.

توفي في سويسرا، التي يعيش فيها منذ عقود من السنين، ثم نُقل جثمانه إلى القاهرة ليدفن بحوار شيخه وإمامه وحميه حسن البنا، كما أوصى بذلك.

وصول جثمانه إلى القاهرة

واتصل بي بعض الإخوة في القاهرة ليبلِّغني بوفاة سعيد ووصول جثمانه، وأنَّ الصلاة عليه ستكون في جامع رابعة العدوية في مدينة نصر، حيث أقيم، وقال لي: إن الإخوة يشدِّدون على حضورك، لتقوم بالصلاة عليه. قلت للأخ: الأمر لا يحتاج إلى تشديد، فلا يسع مثلي أن يتأخَّر عن شهود جنازة مثل جنازة سعيد رمضان.. والحمد لله، أني موجود في القاهرة، ومن حقِّ الأخ على أخيه أن يشهد جنازته، فكيف إذا كان مثل سعيد رمضان، بما له من ماض مشرق وحافل في خدمة الدعوة، وما له من صلة وقربى بإمامنا الشهيد، وما له من حقّ خاص علي، باعتباره ابن طنطا أو الغربية مثلي، وقد تتلمذ على أستاذنا البهي الخولي، كما تتلمذت عليه، وما لأبنائه الذين تعرَّفت عليهم في أوربا في مجال الدعوة، من حق عليّ، وخصوصًا طارقًا وهانيًا. كل هذا يحتِّم عليَّ أن أحضر ولا أغيب.

صلاتي على جنازته في مسجد رابعة العدوية

وفعلًا ذهبت إلى مسجد رابعة قبيل صلاة الظهر، وبعد دقائق جاء النعش، وقد حضر جمّ غفير من الإخوان، وقدَّموني للصلاة عليه، وجاء مع الجثمان ابنه هاني، فسألته: ألم يكن في استطاعة طارق أن يحضر معك؟ فقال: لم يكن ذلك في استطاعته. إن موقف السلطات المصرية منه سيئ، ولا يؤمن أن يأخذوه ويحقِّقوا معه، ولا يدري ماذا تكون النتائج. قلت له: البركة فيك، وكل الإخوان هنا إما أخ لسعيد وإما ابن له.

وبعد الصلاة حُملت الجنازة إلى مقابر الإمام الشافعي، التي أزورها لأول مرة.. وكان الجو حارًّا، والسائق الذي معي لا يعرف المكان، وقد تفرَّقت السيارات بعضها عن بعض. المهم أننا وصلنا إلى المقبرة التي دُفن فيها الإمام الشهيد، ودُفن سعيد بجوار أستاذه وصهره وحبيبه.

كلمتي في تأبينه

وبعد الدفن، ألقيت كلمة رثاء أودع بها أخانا الحبيب سعيدًا، لا أذكر الآن مضمونها، ولكن أذكر أني بكيت فيها سعيدًا، وبكيت معه شيخه وشيخنا الإمام البنا رحمهما الله. ومن طبيعة توديع الأحبة أن يذكِّر بعضهم ببعض، وأن الحزن الجديد يوقظ الحزن القديم، كما قال الشاعر:

وقالوا: أتبكي كل قبرٍ رأيتـهُ ... لقبْر ثوى بين اللّوى والدّكادِكِ

فقلت لهم: إنَّ الأسى يبعث الأسى ... دعــوني، فهذا كله قــبر مالك!

لقد مات سعيد رمضان، وكلُّ نفس ذائقة الموت، ولكن من الناس من إذا مات مات معه كل شيء، فلا يبقى له أثر ولا خبر ولا ذكر .. ومن الناس من يحيا بعد موته، أعمارًا بعد عمره، بما خلَّف مما ينفع الناس. وأحسب أن سعيدا من هؤلاء.

نبوغه المبكّر

لقد ولد سعيد في نفس السنة التي ولدت فيها، ولكنه حصل على الثانوية مبكرًا، في

نفس السنة التي دخلت فيها معهد طنطا، وهو تخرج في مدرسة طنطا الثانوية، ولكنه ظهر ونبغ وهو في المرحلة الثانوية، واشتغل بالدعوة مبكرًا، وذهب إلى عدد من القرى القريبة من طنطا، ومنها قريتنا «صفط تراب» التي زارها بُعيد حصوله على الثانوية، وألقى فيها خطبة الجمعة، التي لقيت استحسانا من الناس، ولم أكن موجودا في القرية في ذلك اليوم، لا أذكر السبب.

لقاءاتي به

انتقل سعيد من طنطا إلى القاهرة ليلتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة (أو جامعة فؤاد الأول) كما كانت تُسمَّى في ذلك الوقت. ولم يقدَّر لي أن ألقاه أو أستمع إليه إلا مرتين، المرة التي أذكرها جيدًا، حين كان مصاحبًا للإمام الشهيد في زيارة مدينة «دسوق». وقد ذهبنا إليها لنستمع إلى الإمام الشهيد، أنا والأخ أحمد العسال، والأخ محمد الدمرداش مراد. وذلك عن طريق قطار الدلتا. وكانت المناسبة مناسبة المولد النبوي، فألقى سعيد كلمة ضافية أخذت بمجامع القلوب، في هذه الذكرى العاطرة.

جواب مفحم

والمرة الأخرى أظنها كانت في المركز العام، وسمعت منه كلمة حكيمة وموفَّقة، لا أذكر في أيِّ المحاضرتين كانت؟ وهي أنه كان يخطب مرة، فأراد بعض المستمعين أن يحرجه، فسأله هذا السؤال: أنتم صار لكم عشرون سنة تتكلمون فماذا فعلتم؟

وكان جوابه: وأنتم أيضًا صار لكم عشرون سنة تسمعون، فماذا فعلتم؟!

فكان جوابًا مفحمًا ومقنعًا. فبعض الناس يجعل كل التبعة على المتكلم، ولا يحمّل المستمع شيئًا. والواقع أن على المتكلم أن يدعو ويشرح ويبيّن، وعلى المستمع أن يفهم ويعمل وينفذ، وقد سمعت كلمة سعيد رمضان في الحفل، ولكني لم ألتق به. ولم ألتقه مدة دراسته في الجامعة حتى تخرج.

ثقة الإمام الشهيد به

كان سعيد رمضان بموهبته وذكائه وحيويته وخبرته في الدعوة منذ باكورة شبابه، موضع ثقة الإمام الشهيد، فقد بعث به إلى الصعيد، وبعث به إلى بعض البلاد العربية.

مجلة الشهاب

وحين أصدر الإمام مجلته الشهرية العلمية الشهيرة التي سماها «الشهاب» على اسم مجلة المصلح الجزائري «عبد الحميد بن باديس» وكان يريد أن تخلف هذه المجلة مجلة «المنار» العلمية الإصلاحية الشهيرة، التي كان يصدرها الإمام المجدد السيد محمد رشيد رضا .. هنا عيَّن حسن البنا سعيد رمضان مديرًا لهذه المجلة.

وقد تزوَّج سعيد رمضان كبرى بنات الإمام الشهيد (وفاء حسن البنا) أم أيمن حفظها الله.

خروجه من مصر

وخلال هذه المدة لم يقدَّر لي أن ألتقي سعيد رمضان، حتى حُلَّت الجماعة، واعتقل الإخوان واعتُقلت مع بعض زملائي في معهد طنطا، وقُدِّر لي أن ألقى كثيرا من الإخوة من زملاء سعيد، مثل: مصطفى مؤمن، وحسان حتحوت، ومحمد عاكف، ومن هو أكبر منهم سنًا مثل: محمد الغزالي، وعبد العزيز كامل، وعبد المعز عبد الستار، وعبد الحكيم عابدين، وعبد البديع صقر، وغيرهم، ولكن لم يقدَّر لي أن ألقى سعيدا، فقد كان خارج مصر عند حلِّ الإخوان، وظل بعيدًا عن مصر، حتى انزاحت الغمَّة، وانفرجت الأزمة، وعادت الأمور إلى طبيعتها، فرجع إلى مصر سنة ١٩٥٠م.

نشاطه ومقابلاته

ولكننا كنا نتابع نشاط سعيد مما ينشر في الصحف من مقابلاته مع المراسلين الأجانب، ولباقته في الردِّ على أسئلتهم.

وقرأنا لقاءه بالملك عبد الله الذي رحب به، وقربه منه، وكان سعيد يثني عليه، ويقول: هو أذكى ملوك العرب، وأعلم ملوك العرب، وأتقى ملوك العرب. وقد عينه حاكمًا عسكريًّا لمدينة القدس.

مجلة «المسلمون»

وبعد عودته إلى مصر وانتخاب الأستاذ الهضيبي مرشدًا عامًّا للإخوان، كان قريبًا منه، وقد فكر في إنشاء مجلة تخلف مجلة «الشهاب» التي كان يديرها، فأسس مجلة «المسلمون» التي ظلت تصدر مدة من القاهرة، وكان يكتب فيها كبار العلماء والدعاة والمفكرين المسلمين. وقد كتبت فيها مرة أو مرتين.

في عنبر الإدارة

وبعد أن قامت الثورة، في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م كان له صلة ببعض ضباطها، وظلت علاقته بهم طيبة، فترة من الزمن، حتى اصطدمت الثورة بالإخوان، وكان الحل في الأول ١١ يناير ١٩٥٤م اعتقل سعيد مع المعتقلين، وهناك لقيته وجهًا لوجه لأول مرة، ولكن لم يقع بيننا حديث أو حوار. وقد قدَّمني الأستاذ المرشد لأصلِّي بالإخوان إمامًا، فكان يصلي ورائي مع سائر الإخوان، واستمرَّ ذلك عدة أيام، ثم نقل مع أعضاء مكتب الإرشاد وقادة الجماعة، في عنبر خاص يسمى «عنبر الإدارة» تمييزًا لهم. أو لتيسير الاتصال بهم.

الصراع مع عبد الناصر

وبعد ذلك خرج الإخوان من معتقلاتهم، وذهب عبد الناصر إلى منزل الأستاذ الهضيبي، واعتذر له عمَّا حدث، واتُّفِق على بدء صفحة جديدة بين الجماعة والثورة، ولكن سرعان ما قلبت الثورة ظهر المجنّ للإخوان، وظهر جوٌّ مشحون بالتوتر والصراع، وسافر الأستاذ الهضيبي إلى سورية، ثم عاد، والجو يزداد تلبدًا بالغيوم، وينذر برعد قاصف، وبرق خاطف، وسيل جارف.

تجريده مع جماعة من الإخوان من جنسيتهم المصرية

وفي هذا الوقت كان سعيد في الخارج مع جماعة من الإخوان، فاتهمهم رجال الثورة بأنهم يعملون ضد وطنهم، ويقومون بأعمال مضادّة للثورة، فجرَّدوا هؤلاء من جنسيتهم المصرية، وهم: عبد الحكيم عابدين، وسعيد رمضان وكامل الشريف وسعد الوليلي.

والعرب يقولون: ربَّ ضارة نافعة، والصوفية يقولون: كم من محنة في طيها منحة، والله تعالى يقول: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء:١٩).

فإنَّ هذا القرار الظالم قد أعفى هؤلاء الإخوة جميعًا من الدخول في محنة ١٩٥٤م الثانية والقاسية. واقتضى بقاءهم في الخارج نشيطين عاملين للإسلام.

وظلَّ سعيد في الخارج، كما ظل يصدر من سورية مجلته الشهرية «المسلمون» وقد جعل رئاسة تحريرها للدكتور مصطفى السباعي، ثم تولَّى هو رئاستها بعد ذلك، إلى أن توقَّفت.

إنشاء المركز الإسلامي بسويسرا

ثم أنشأ «المركز الإسلامي» في جنيف بسويسرا، بمعاونة من السعودية وغيرها.

وفي هذه الفترة اتُّهمت السلطات المصريّة سعيد رمضان ومعه مجموعة، بتهمة إعداد مؤامرة ضد مصر، وإعلان الانقلاب عليها. وكانت هذه التهمة الملفقة «حبل النجاة» من الاعتقال والتعذيب، ومعاناة محنة ١٩٥٤م.

وكان سعيد يطوف في هذه المرحلة بلاد العالم الإسلامي، يستنفر القاعدين، ويوقظ النائمين، ويحرِّك الساكنين، ويتعرَّف على رجالات الأمة الإسلامية في كل مكان.

وقد سعى مع بعض إخوانه سعيًا حثيثًا لدى الملك سعود، حتى أنشأ «رابطة العالم الإسلامي» لتكون منبرا شعبيا عالميا لنصرة الإسلام وقضاياه.

مزايا لسعيد رمضان

كان سعيد رمضان يتمتع بجملة مزايا قلَّما تتوافر لكثير من الدعاة، بعضها هبات

من الله تعالى يمنحها من شاء من عباده، وبعضها مكتسبة يحصّلها المرء بالسعي وجهاد النفس وبذل الجهد، ومن جد وجد، ومن زرع حصد.

من هذه المزايا:

أولاً: بشاشة وجهه، وابتسامته الدائمة، وشخصيته الجاذبة، بلا تكلف ولا افتعال. وهو ما جعله قريبًا محببا إلى الناس، ولاسيما الشباب.

ثانيًا: لباقته وحضور بديهته في الحوار والرد على الأسئلة المحرجة، والإجابة المقنعة أو حسن التخلص منها.

ثالثًا: فصاحة لسانه، وقوة تأثيره في خطابته، وشدُّ الجماهير إليه.

رابعًا: قوة عاطفته، وحيوية مشاعره، التي تنتقل منه إلى سامعيه، فتجعله يبكي ويبكي، ويتأثر ويؤثر.

خامسًا: قربه من الإمام الشهيد، وثقة الإمام به، حتى إنه كلفه بمهام كبيرة على صغر سنه.

سادسًا: اتصاله بالدعوة ورجالها، ونشاطه فيها منذ عهد مبكر من عمره.

سابعًا: رحلته إلى أقطار شتى، وتعرفه على كثير من رجالات العالم الإسلامي، وخصوصا العاملين للدعوة الإسلامية، والبعث الإسلامي.

ثامنًا: قدرته على الاتصال بالشخصيات الكبيرة، وتأثيره فيهم، واستفادته من ذلك لصالح الدعوة.

انكماشه في العقود الأخيرة من عمره

غير أن الذي يعجب له المراقب لحياة سعيد ومسيرته ـ ويأسف له أيضًا ـ أنَّ هذه الحيوية الهائلة لم تستمر في فَيْضها وعطائها بقوة كما كانت. فقد قلَّ نشاطه المعهود والمرتجى فيه، إلى حد كبير. لقد ظلت هذه الشخصية الثرية تدعو وتعطي، ولكن ليس

بالقدر الذي كان يتوقَّع منها، والذي يكافئ ما لديه من مواهب، ويتلاءم مع تاريخه الحافل والدافق بالخير والعطاء.

وربما كان لإقامته في أوربا أثرٌ في ذلك، ولكنْ هناك كثيرون أقاموا في أوربا، وفي أمريكا، ولم يمنعهم ذلك من مواصلة الفيض، واستمرار العطاء.

وقد فسَّر بعضنا بأنَّ الرجل قد تفرَّغ للتأمُّل والكتابة، فلم يعد يهمه الكلمة المرتجلة، بل همه الكلمة المكتوبة. وهذا يمكن أن يكون عذرًا مقبولا، لو أننا قرأنا للرجل كتبًا ذات بال، أصدرها خلال تلك المدة.

حتى قال بعض إخواننا: كأنَّ عينًا أصابت الرجل، فلم يعد تلك الشعلة المتوهّجة التي كانت تشع نورًا، وتقذف نارًا.

على كلٍّ حال، حَسْبُه ما قدَّمه في شبابه ممَّا يندر أن يقدمه مثله، وعسى أن يعوِّض أبناؤه في شبابهم فينهضوا بما لم ينهض به أبوهم في شيخوخته.

رحم الله سعيد رمضان، وغفر له، وتقبَّله في الصالحين، وجزاه عن دينه ودعوته وأمته، خير ما يجزي به الدعاة العاملين، والمجاهدين الصادقين.

وفاة الأستاذ عبد الحليم محمد أبو شقة

الوداع الأخير

في صباح يوم الاثنين ٢٣ من ربيع الآخر ١٤١٦ هـ ـ ١٨/ ٩/ ١٩٩٥م جاءني نبأ وفاة الأخ الحبيب، والصديق الوفّي، والرفيق الودود، الأستاذ عبد الحليم محمد أبو شقة، الذي كنتُ ودَّعته من قريب في القاهرة، وداع من يرجو العودة والتلاقي من جديد. ولكن القدر الذي يخط مصاير الإنسان أبى ألا تكون لنا عودة ولا لقاء بعد ذلك في هذه الدنيا. وكلٌّ شيء عند الله بأجل مسمّى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ (فاطر: ١١).

لا نملك عندما نفقد من نحب إلا أن نقول ما علَّمنا القرآن أن نقوله عندما تنزل بنا المصائب، ومنها مصيبة الموت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦].. ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ مِلْك له يتصرف فينا كما يشاء، ليس لنا من أمر الموت والحياة شيء، جئنا إلى الحياة بغير إرادتنا، ونخرج من الحياة بغير إرادتنا، بل بإرادة من يحيي ويميت، وبيده ملكوت كل شيء. ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ في دار الخلود، حيث يجد كل منا عند الله حصاد ما زرع، وجزاء ما عمل.

رثائي للأستاذ عبد الحليم أبو شقة

وقد كتبت في رثاء عبد الحليم كلمة يستحقُّ أكثر منها، نشرتها الصحف القطرية وغيرها، كما نُشرت في كتابي «في وداع الأعلام» الذي نشرته دار الفكر الدمشقية. ولا

أريد أن أعيد ما كتبته هنا. ولكني مضطر إلى أن أقتبس منها بعض الفقرات، مضيفًا إليها أشياء أخرى لم أذكرها في الكلمة.

لجنة الشباب المسلم

لقد عرفت عبد الحليم قديمًا على أنه من «لجنة الشباب المسلم» في الإخوان، وهي اللجنة التي أخذت على عاتقها الاهتمام بالجانب الفكري والثقافي والتربوي، في مقابل الجماعة التي جعلت جل اهتمامها بالجانب الجهادي، وهم جماعة «النظام الخاص» الذي أطلقت الحكومة عليه فيما بعد: «الجهاز السري».

والعجب أن جماعة الشباب المسلم كانوا أساسًا من النظام الخاص، وكانوا يسمّونهم «جماعة الأسس» أي الدعائم والركائز، ولكن الممارسة والتجربة علّمتهم أن هناك ما ينقصهم، وهوالتربية العقلية والعلمية المركزة.

فهؤلاء الشباب من أمثال عبد الحليم، ورشاد رفيق سالم، ويوسف عبد المعطي، وجمال عطية، وعز الدين إبراهيم، وغيرهم، لم يكونوا بعيدين عن الجهاد والتنظيم الخاص، بل اتهموا في قضايا التنظيم، ودخلوا السجون، وقُدّموا للمحاكمات، وبعضهم مثل عز الدين استطاع أن يهرب مع بعض إخوانه من مصر إلى ليبيا، ويلجأ إلى الملك السنوسي رحمه الله.

رسائل لجنة الشباب المسلم

ولكن هؤلاء الشباب رأوا أن هناك فراغًا علميًّا وفكريًّا يجب أن يملأ، وأن كثيرًا منهم يفتي في أمور كبيرة، وهو ليس لها أهلًا، أو يأخذ فتواه فيها ممن ليسوا لها أهلا.

ولذلك بدءوا يعملون على ملء هذا الفراغ، وسدّ هذه الثُّغرة، بعدة وسائل، منها:

١ـ قراءات جديدة في كتب غير كتب الإخوان ورسائلهم. ولا سيما أنها كانت محدودة في ذلك الوقت، تكاد تكون مقصورة على رسائل الإمام البنا، وبعض كتب اعتبرت من رسائل الجماعة، مثل كتاب «تذكرة الدعاة» للبهي الخولي.

وهذه القراءات لها مصادرها الرحبة. فمن القديم كتب الإمامين: ابن تيمية وابن القيم، ومن الحديث أمثال الشيخ محمد عبد الله دراز، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ خلاف والشيخ أبو زهرة.

٢ـ ترجمة كتب من اللغات الإسلامية الأخرى، وأهم ما اتجهت إليه: كتب العلامة أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان، وصاحب الرسائل الإسلامية التي تركز على الجانب الفكري، وتناقش القضايا من منطلق العقل الإسلامي المعاصر، الناقد للحضارة الغربية.

٣ـ التتلمذ على علماء من خارج الإخوان، بل ربما كان لهم موقف ناقد أو متحامل على الإخوان، مثل الأديب واللغوي والمحقق العلامة محمود محمد شاكر، الذي كان ينقد الإخوان ومرشدهم الأول حسن البنا بلسان حاد.

ولكن هؤلاء الشباب ومن تأثر بهم ذهبوا إلى محمود شاكر في بيته في مصر الجديدة، ليحضروا دروسه، ويستمعوا إلى توجيهاته، لا يمنعهم من ذلك انتقاداته العنيفة للإخوان، لثقتهم بإخلاص الرجل، وغزارة علمه.

تعرُّفي على عبد الحليم

وقد دعوني لأحضر معهم بعض هذه الدروس، واستجبت لهم، واستفدت منها، وهناك لقيت عبد الحليم، وتعرفت عليه لأول مرة تعرفًا سريعًا. حين التقينا، فرأيت وجهًا بشوشًا، وثغرًا باسمًا ونفسًا صافية، وشخصية ترتاح إليها بمجرد رؤيتها. وهذه هي المرحلة الأولى من تعارفنا.

في السجن الحربي بعد الحل الأول

ثم ازداد هذا التعارف أكثر حين ضمّنا السجن الحربي في عهد الثورة، في الاعتقال الأول يناير ١٩٥٤م، وخصوصًا في الفترة التي سمحوا لنا فيها بفتح الزنازين، والتلاقي فيما بيننا. وهناك تعرّفت أكثر على عبد الحليم، الذي عرفت منه أنه تخرج في قسم التاريخ من كلية الآداب بدرجة مقبول! وعرفت منه أنه ليس ممن يحسن الإجابات في

الامتحانات الرسمية، ولذا نجح بـ«مقبول» ولكنه يحسن البحث في المصادر، والمناقشة العلمية في قضايا الفكر المختلفة. وهذه هي المرحلة الثانية.

في قطر

أما المرحلة الثالثة، فهي التي بدأت بإعارتي إلى قطر، مديرًا للمعهد الديني الثانوي هناك، وكان عبد الحليم قد سبقني، وقد عمل من قبل نائبًا لمدير المدرسة الثانوية الوحيدة بالدوحة، ثم مديرًا لها، ثم ترك الإدارة واكتفى بالتدريس. وكان يدرس المواد الاجتماعية: الجغرافيا والتاريخ، وله طريقته المتميزة في التدريس وابتكاراته الخاصة، وكان هو المدرس الأول، فكان يتعامل مع زملائه بروح الأخوة المحببة، وكان كل زملائه يحبونه ويعتبرونه الأب الروحي لهم.

تقاربٌ عقليٌ وقلبيٌ وأسريّ

كان قريبًا إلى عقلي وقلبي، وكنت قريبًا إلى عقله وقلبه. وكانت أسرتي وأسرته تلتقيان وتتفاهمان ولا حاجز بينهما. وقد رزق بامرأة تعدّ قرة عين لصاحبها، يضرب بها المثل في الوفاء، ومكارم الأخلاق مع الزوج والأصدقاء. وقد انعقدت الصداقة بينها وبين زوجتي، كما انعقدت بين بناته وبناتي، ولا تزال إلى اليوم.

لقاءات خاصّة

وكان لنا في قطر لقاءات خاصة، شبه منتظمة، ونحن مجموعة تضم: عبد الحليم والعسال وحسن المعايرجي، وأنا، وكلنا مصريون، وتضم معنا الأخ العالم البحاثة محمد مصطفى الأعظمي، وهو هندي، ولكن مصَّره التعليم في مصر، ودخول السجن الحربي مع الإخوان.

ولما عاد الأخ الكريم د. عز الدين إبراهيم إلى قطر، بعد حصوله على الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة لندن، انضمّ إلى المجموعة، وكان يُسَمِّي هذه الجلسات:

جلسات «التسليك» شبهها بجلسات شيوخ الصوفية مع مريديهم الذين «يسلّكونهم» أي: يعلمونهم أدب السلوك.

وقد عين عبد الحليم مديرًا للمدرسة الثانوية، فقام بمهمته خير قيام، تربويًّا وإداريًّا. وكان معه أحد إخواننا الأزهريين الواعين، وقد سألته عنه مرة، فقال: هذا رجل بنّاء، لا يدع ناحية من النواحي إلا وضع فيها لبنة.

تحرُّره من قيود العمل الوظيفي

ومع أن عبد الحليم في قطر، كان ملء السمع والبصر، فوجئنا بأنه يفكر في الاستقالة من عمله، وترك قطر ووظيفته فيها، التي يتطلع إلى مثلها كثيرون، وكانت حجته أنه يريد أن يتحرَّر من قيود العمل الوظيفي، ليتفرغ للبحث العلمي، وقد أصبح لديه من مدخراته ما يكفي لإقامة مشروع تجاري يتعيش منه، وينطلق هو في مجاله. وحاول كثيرون أن يثنوه عن عزمه، واعتبره آخرون مجازفًا بمستقبله، ولكنه كان قد اختار طريقه، وصمَّم عليه: أن ينشئ دار نشر في الكويت، تدرُّ عليه دخلًا مناسبًا، ينفق منه، على نفسه وعلى مشروعاته العلمية، ويشتغل هو نفسه بالبحث، وعنده أدواته.

مشروعاته العلمية

وكانت لديه مشروعات علمية أو فكرية، يريد أن يبدأ بها، أهمها: موضوع المرأة في الإسلام، ورسالتها فيه، وموقفها من الرجل وموقف الرجل منها. وقد بدأ يجمع المادة في هذا الموضوع من مظانّها المختلفة. وكان يرى أن يكتفي من المصادر بالقرآن والصحيحين: البخاري ومسلم، وإن لم يمنعه ذلك من الاستفادة ـ في بعض الأحيان ـ من كتب السنن الأخرى، مثل موطأ مالك، ومسند أحمد، والسنن الأربعة وغيرها.

وقد ظل نحو عشرين سنة يعمل في إعداد الكتاب، وكلما فرغ من فصل منه عرضه على عدد من إخوانه الذين يثق برأيهم ونصحهم. وكنت من هؤلاء، بل في مقدمتهم، فقد كان شديد الحرص على أن يُطلعني على كلِّ ما يكتبه، ويسمع رأيي فيه، ويناقشني

وأناقشه، ولاسيما إذا اختلفت وجهة نظرنا، وذلك في أمور قليلة، فكان إما أن يقنعني فأتنازل، أو أقنعه فيتراجع، وهو صبور على المناقشة والمراجعة مرة بعد مرة.

وكنت أحيانًا أقول له: يكفي قراءة فلان وفلان لهذا الفصل، فيقول: لا يكفي، قراءتهم سنة، وقراءتك فرض.

موسوعة «تحرير المرأة في عصر الرسالة»

وما زال كذلك حتى فرغ من كتابه أو من موسوعته التي سماها: «تحرير المرأة في عصر الرسالة». يريد أن يقول لقاسم أمين وجماعته: إن المرأة قد تحرَّرت قبلك منذ ثلاثة عشر قرنًا، منذ أرسل الله محمدا بالهدى ودين الحق.

وقد شرفني بأن كتبت مقدمة ضافية، بجوار مقدمة شيخنا الشيخ محمد الغزالي، تحدثت فيها عن جهده الذي بذله، وبذلته معه زوجه أم عبد الرحمن، حتى ظهر هذا المولود إلى النور، كبيرًا، يملأ الآفاق، ويضيف إلى كتاب التجديد في الإسلام: صفحة مشرقة، في موضوع ضاعت فيه الحقيقة بين الغلو والتفريط.

واستقبلت كتابه كل الفئات المختلفة في مجتمعنا العربي والإسلامي بالترحاب والتأييد، إلا فئة واحدة، هم إخواننا «السلفيون» الذين رفضوا الكتاب، وأبوا أن يلتقوا مؤلفه، وقد دعاهم ليحاورهم ويحاوروه حول نقاط الخلاف، فقالوا: إن الكتاب مرفوض عندهم جملةً وتفصيلاً.

وقد علّق علامة الشام فقيه الأدباء، وأديب الفقهاء: الشيخ علي الطنطاوي على هذا الموقف، قائلا: إذن هم يرفضون القرآن، وصحيحي البخاري ومسلم! إذ لم يقم بنيان الكتاب إلا عليها!

وقد ترك عبد الحليم أوراقًا مكتوبة في موضوعات شتّى، بعضها شبه مكتمل، وبعضها يحتاج إلى شيء من الجهد حتى يصلح للنشر.

وقد نشر بعده كتابه الفريد «نقد العقل المسلم» الذي كتب مقدمته المفكر المسلم الكبير، الدكتور محمد عمارة، وأثنى عليه.

وترك عبد الحليم وصية بمبلغ من المال، رصده لخدمة الفكر الإسلامي، وأوصى لجماعة من إخوانه من العلماء والمفكرين والدعاة المسلمين أن يتولوا هذا الأمر من بعده، ويسدِّدوه، ويوجِّهوه إلى حيث كان يريد رحمه الله. وأنا واحد من هؤلاء، مع الإخوة: طارق البشري، ومحمد عمارة، وأحمد العسال، وفهمي هويدي، ومحمد العوا، وسيد دسوقي، وجمال عطية، وآخرين.

مجلة «المسلم المعاصر»

وكان عبد الحليم مشغول الفكر والقلب بالتجديد والإصلاح، وخصوصًا للحركة الإسلامية، والأمة الإسلامية.. ففي وقت من الأوقات شغل - وشَغَلَنا معه - بضرورة عمل إيجابي للتجديد والإصلاح، وانتهى إلى أن يكون في صورة مجلة ذات وزن علمي وفكري ثقيل، اجتمعنا من أجلها اجتماعات شتى، في بيروت، وفي الكويت، وفي غيرهما، تدعو إلى الاجتهاد والتجديد، وتمارس الاجتهاد والتجديد. وانتهينا إلى تسميتها «المسلم المعاصر» فهو صاحب الفكرة ومنفذها ومتابعها حتى خرجت.

وقد كتب في أعدادها الأولى مقالات فكرية نقدية، كان لها صداها ووقعها في المجال الإسلامي، والمجال الفكري، والمجال الإصلاحي، ولاسيما ما اشتملت عليه من نقد شجاع للحركة الإسلامية، والدعوة الإسلامية، ومن ذلك مقاله: « أزمة العقل المسلم»، ومقاله الآخر: «أزمة الخُلُق المسلم».

ثم اختلف مع صديقه رئيس التحرير د. جمال عطية، فترك له المجلة، لأنه لا يحب أن يعمل في جو الخلاف أو الصدام.

سعيه لإنشاء جمعية فكرية

وبعد ذلك عُنِي بأن ينشئ جمعية فكرية، تضمُّ جماعة من معتدلي أهل الفكر، من المهتمين بالتجديد والتَّسديد، وكان يودّ أن يُسجِّلها في مصر، ولما عجز عن ذلك، سجلها في باريز.

وأراد أن يكون لهذه الجمعية قبل ظهورها رسميًّا: بيان يعلن عن ميلاد هذا الاتجاه الجديد، فكتب مسودة هذا البيان وطفق يعرضه على أقرب الناس إليه ليحسن منه، ويعدِّل فيه، بالإضافة أو الحذف، أو التقديم أو التأخير، وكنت ممن أسهم معه في هذا الجانب، ثم سلّمه إلى الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد، ليصوغه الصياغة النهائية، ويخرج باسمه، معلنا عن هذا التيار الإسلامي الجديد.

حفاوته بالشخصيات الفكرية

وكان عبد الحليم حفيًّا بكل شخصية يمكن أن تنفع الإسلام ولا سيما في الجانب الفكري المشغول به، وكل شخصية كان لها ميول علمانية أو ماركسية أو ليبرالية، ثم بدأت تتّجه إلى الإسلام، يجتهد في الاقتراب منها، ودعوتها إلى منزله، ويحاول أن يعرّفها على أصدقائه من الإسلاميين.

وهكذا عن طريقه تعرفت على المستشار طارق البشري، وعلى الكاتب المعروف عادل حسين، وقد صحبهما لزيارتي في منزلي بمدينة نصر بالقاهرة، وانعقدت بيننا منذ تلك الزيارة مودة عميقة، ازدادت وتعمقت على مر الزمان.

وكان كلما سمع بشاب ذي مواهب، يُرجَّى لغد هذه الأمة، قرَّبه وشجَّعه، وأخذ بيده، ليمضي إلى الأمام. وربما ساعده ماديًّا عند اللزوم.

امتداد أعماله الخيرية

ولم يكن عمله مقصورًا على مصر، بل كان يمتد إلى بلاد شتى، وقد عرفت بعد موته: أنه أمدّ إحدى الجمعيات الإسلامية المغربية التي تعمل في لمجال العلمي بمبلغ جيد من ماله. وقد سألوني: ماذا نفعل بهذا المال بعد وفاة الرجل؟ فقلت لهم: أسأل لكم أهله وورثته. فلما سألتهم قالوا: نزيد من أمده ونبقيه كما أراد رحمه الله، ونطلب منهم أن يخبرونا بين الحين والحين عن أنشطتهم وإنجازاتهم.

حبه التجديد

لم يكن عبد الحليم تقليديًّا، بل كان يحب التجديد في كل شيء، حتى في علاقاتنا الأسرية، وهي علاقات لم يزدها مرور الأيام إلا قوة، فكنا إذا جئنا إلى القاهرة في الصيف، يحاول دائمًا أن يبتكر وسائل للقاء، وتجديد الحياة، فمرة يستأجر لنا سفينة شراعية نركبها في النيل، ونتعشي فيها، وتكون فرصة لفرحة الأولاد، وخروجهم من الروتين الممل.

ومرة نلتقي في رأس البر، ونسكن في بيتين قريبين، وكان معه سيارة صغيرة، فكان يركب فيها أولادنا وأولاده ـ وبخاصة البنات ـ يركبون داخلها وعلى جوانبها، وفوقها، وهم يضحكون ويلعبون.

ومرة أخرى يدعونا إلى الذهاب إلى الحقول في مزرعة له.

فلم يكن رجلًا متزمّتًا، ولا رجلًا مقطّب الجبين، بل يريد أن يستمتع بطيبات الحياة ويستمتع بها من حوله. مرددًا قول الشاعر:

أيها المشتكي وما بك داء كن جميلا تر الوجود جميلا

ثم فجأة، انطفأ ذلك السراج المنير، واختطفه منا الموت، الذي يختطف الأب من بنيه، والابن من أبيه، والأخ من أخيه، والصديق من صديقه. ولكن مما يخفّف من هوله: إيماننا بأن الموت ليس نهاية المطاف، إنما هو رحلة إلى الخلود، كما قال الشاعر الصالح:

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي!

رحم الله حبيبنا عبد الحليم، وتقبّله في الصالحين، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي به العلماء العاملين، والمعلّمين الربّانيين، وجمعنا به في الفردوس الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصّالحين، وحَسُن أولئك رفيقا.

الملاحق

ملحق رقم ١

رسالة مفتوحة إلى رئيس الجمهورية (الرئيس مبارك)[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الرئيس محمد حسني مبارك حفظه الله

رئيس الجمهورية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فهذه أول رسالة أخطُّها إليك، وكنت أريدها رسالة مغلقة تقرؤها وحدك، ولكن العارفين خوّفوني أنها قد تُحجب عنك، فلم أر بأسًا من نشرها، فليس فيها ما يجب إخفاؤه، وأرجو ألا يضيق وقتك عن قراءتها.

والواقع أن هذه الرسالة قد تأخّرت كثيرًا حتى طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى بما نشرته صحف القاهرة يومي الثلاثاء والأربعاء ٩ ـ ١٠/ ١/ ١٩٩٠م من تسجيل صوتيٍّ لخطاب وزير الداخلية في مؤتمرين عامين، تضمن تطاولًا بذيئًا على شخصي، كما تضمن سبًّا صريحًا، وقذفًا رخيصًا لعدد من علماء الأمة ومفكريها وكتّابها وزعمائها، وهيئاتها العلمية والنقابية والسياسية .. ولم يدع يمينًا ولا يسارًا ولا وسطًا حتى قذفه بحجارته. ولم يشبع نهمته من سبِّه من شرفاء الأحياء، حتى نبش المقابر ليوغل في سبِّ شرفاء الأموات، متجاوزًا كلّ الحدود والقيم التي توارثتها أمّتنا، وتعلّمتها من أديانها السماوية: أن الموتى لا يُذكرون إلا بخير، فإنهم أفضوا إلى ما قدّموا.

---

(١) تقدم ذكرها عند الحديث عن وزير الداخلية زكي بدر.

وقد أسفَّ إسفافًا يُستبشع صدوره من الغوغاء، فكيف برجل يحمل مسئولية وزارة من أخطر وزارات الدولة، وهو أمر لم تعرف مصرنا له نظيرًا في حاضرها أو ماضيها.

لقد أصبح الصمت بعد ذلك جريمة، وفي تراثنا: إن الساكت عن الحق كالناطق بالباطل، والساكت عن الحق شيطان أخرس، ولا أحب أن أكون من الشياطين خرسًا كانوا أو ناطقين.

ولا ريب يا سيادة الرئيس، أنّ ما صدر عن وزير الداخلية من تطاول وافتراء تنكره كل أديان السماء، وتعاقب عليه كل قوانين الأرض، ولكن الوزير مطمئن إلى أن يد القانون لن تناله، محتميًا بالحصانة البرلمانية التي أضفاها عليه تعيينكم له بمجلس الشورى، وبما يزعمه دائمًا من تأييدكم له في كل تصرّفاته المنكرة.

ومن هنا نحمّلكم أمام الله ثم أمام الأمّة مسئولية ما يمارسه هذا الوزير، ونطالبكم بمقتضى مسئوليتكم الدستورية والسياسية والأخلاقية باتّخاذ الموقف الحكيم والحاسم الذي يفرضه عليكم واجب الراعي المسلم نحو رعيته، التي هو مسئول بين يدي الله عنها، كما يُمليه عليكم تمثيلكم لشعب في عراقة الشعب المصري، الذي أولاكم ثقته، وحمّلكم أمانة قيادة مسيرته.

السيد الرئيس، ليست رسالتي هذه شكوى شخصية مما تناولني به الوزير المذكور، فقد سبق له مثل ذلك في داخل مصر وخارجها، دون رعاية لذوق أو أي اعتبار ديني أو أخلاقي أو سياسي، هذا مع أني ليس لي به احتكاك مباشر، فأنا ـ منذ تسع وعشرين سنة ـ أعيش في بلد عربي كريم أتمتع فيه بالحب والتقدير والتكريم من جميع أهله أميرًا وحكومة وشعبًا، فما له ولي؟! وسَلْ عنّي إن شئت الدكتورين: أسامة الباز، ومصطفى الفقي، وسَلْ سفراء مصر في قطر: الحالي والسابق والأسبق.

أؤكد لكم يا سيادة الرئيس أن ما قرأته وما سمعته من شتائم وافتراءات تتعلق بشخصي، لم يحرِّك شعرة مني، فهي دبر أذني، وتحت قدمي، وكلُّ إناء بالذي فيه ينضح، بل هي شهادة لي كما قال المتنبّي. وحسبي هنا ما أدّبنا به القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص: ٥٥).

كما لم أهتمّ بإيقافه لي في المطار كلّما دخلت، رغم أني أحمل جوازًا قطريًّا خاصًّا صادرًا من أمير قطر حفظه الله.

ولكن الذي أفزعني هو مصير مصر العزيزة على أنفسنا، ونفس كل عربي وكل مسلم.

مصر ـ يا سيادة الرئيس ـ مَهد الحضارة، وقلب العروبة، وقلعة الإسلام، بلد الأزهر، وقبلة العلم للمسلمين، وحارسة الثقافة الإسلامية واللغة العربية من ألف عام، كيف يُشتَم علماؤها، ويُسَبُّ أهل الرأي والفكر فيها، ويُهدَّد أبناؤها بقطع رقابهم ومواراة جثثهم كما يفعل قطّاع الطريق؟! كيف يحدث هذا، وأنتم صامتون؟!

لقد نسب الوزير إلى الإمام الشافعي، زورًا، أنه يجيز قتل الثلث لإحياء الثلثين، فلا مانع عنده من أن يقتل ثمانية عشر مليونًا من أبناء مصر! أو على الأقل ١٪ أي أكثر من نصف مليون بهذه الفتوى الجاهلة!

كيف والقرآن يقرر: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢).

والسنّة تقول: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم بغير حق»[1].

بل إن الإسلام يحترم حياة الحيوان الأعجم، فكيف بالإنسان المكرَّم؟ وأي مسلم لا يحفظ هذا الحديث المتفق عليه: «دخلت امرأة النار في هرة، حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[2] .. فكيف بمن يحبس البشر ويعذبهم بغير حكم قضائي؟!

السيد الرئيس، إن النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم من لباب الدين، والتواصي بالحق والصبر من فرائضه الأساسية، وليس في الأمة أحد أصغر من أن يَنصح، ولا أحد أكبر من أن يُنصح، ولقد قال الهدهد لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ (النمل:٢٢).

---

(١) رواه ابن ماجه في الديات (٢٦١٩)، عن البراء، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢١٢١).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٠٧١). ومسلم في السلام (٤١٦٠)، عن ابن عمر.

وكان الفاروق عمر يقول على المنبر: رحم الله امرءا أهدى إليَّ عيوب نفسي. وحين قال له رجل: اتق الله. شجّعه قائلا: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها!

وخير ما يقدّمه العالم لولي الأمر أن ينصحه ويذكّره، والذكرى تنفع المؤمنين.

وإني من موقع مسئوليتي باعتباري أحد علماء المسلمين الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن يبيِّنوا ولا يكتموا، ولا يشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً ـ والدنيا كلّها ثمن قليل ـ وأن يقولوا الحق لا تأخذهم في الله لومة لائم.

من هذا الموقع أنصح لكم: أن تتدارك الخطر قبل أن يستفحل، وتطفئ الشرارة قبل أن تتحول نارًا، حفاظًا على قيم مصر الدينية والخُلُقية، ومواريثها الثقافية، وحماية لشعبنا ووطننا من طوفان يخشى العقلاء انفجاره في أي لحظة، ولن تستطيع قوة منعه من الاندلاع ولا الانتشار، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

ويحضرني هنا ما قاله ذلك المشير الناصح لحكام بني أمية:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام!

إنها نصيحة خالصة لا أرجو بها إلا الله والدار الآخرة، ومصلحة الأمة، ولا أريد من أحد جزاء أو شكورًا، فقد أغناني الله عن دنياكم، ومناصبكم التي يتهافت عليها كثيرون.

السيد الرئيس: إن أمّتنا أحوج ما تكون إلى أمرين:

الأول: إيمان صادق بالله ورسالته، ولقائه وحسابه، تزكو به الأنفس، وتحيا الضمائر وتستقيم الأخلاق، إيمان يحفز على الخير، ويزع عن الشر، ويوقف المرء عند حدود الله في أمره ونهيه وحلاله وحرامه، ولا بدّ أن تتعاون كل الأجهزة والمؤسسات على غرس هذا الإيمان.

الثاني: مناخ حر، تتفتح فيه النوافذ، وتزول أحكام الطوارئ، ويُعبّر فيه الناس عن أنفسهم، وآرائهم، في ظل القانون، وحكم القضاء، دون خوف من اعتقال بلا محاكمة، أو تهديد بجلد الظهور أو قطع الرقاب!

إن أمتنا ليست قطيعًا يساق بالعصا، أو مجموعة من العبيد تقاد بالقهر، إنما هي أمّة عريقة تقاد بالعدل والتسامح والحب.. وسياسة العنف والبطش لا تحل مشكلة، بل تنشئ التطرف على كل صعيد، وتنمّيه، وتزرع الأحقاد والكراهية، وتنتهي بدمار الأمان والاستقرار.

إن العصا الغليظة قد تخيف العبيد، ولكنها تثير الأحرار.

إن العالم من حولنا يتغير، والشعوب المقهورة تنتصر على الجلادين، وعتاة الفراعنة يتساقطون، ولا مكان اليوم لطاغية كبير، فكيف بطاغية صغير؟ والسعيد من اتّعظ بغيره.

حفظ الله وطننا، وحمى شعبنا، ووفّق قيادته إلى الخير والسداد.

أ.د. يوسف القرضاوي

تأخرت هذه الرسالة قليلًا في وصولها إلى الصحف، ونُشرت مع إقالة الوزير زكي بدر في وقت واحد، حيث استجاب الرئيس مبارك لغضب الرأي العام المصري، الذي بلغ سيله الزبى، فاستغنى عن الوزير المتجبّر البذيء.

وقد قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩).

ملحق رقم ٢

نص بيان علماء المسلمين[1]

إنَّ الإصلاح الذي ينشده الإسلام للمجتمع في شؤونه كلها، يعتمد أول ما يعتمد على الإقناع والتربية والحوار العاقل ويرفض رفضًا حاسمًا اللجوء إلى العنف أوالإكراه أو استباحة حقوق الآخرين باسم الدين.

وقد وضعت الشريعة الغرّاء طرقًا واضحة لتغيير العوج والانحراف ليس منها الاتهام بالكفر أو الطفرة في بلوغ الهدف، وذلك ما عنته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

وقد تعدَّدت الأحاديث النبوية الشريفة التي تنهي عن تكفير المسلم، ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه»[2]. وأخرج البخاري ومسلم أيضًا، عن أبي ذر رضي الله عنه، أنه سمع

---

(١) تقدم الحديث عن محاولات د. محمد المحجوب وزير الأوقاف المصري، وطلبه حضوري إلى القاهرة، واجتماعه مع عدد من كبار العلماء لإصدار «بيان للناس» عُرف فيما بعد: أن يكون ضد تصريحات الشيخ صلاح أبو إسماعيل التي اتهم فيها الحكومة بالكفر والفسوق والظلم. وفي البيان صيغ متفق عليها، وأجزاء أخرى وقع فيها الخلاف. وقد ذكر اسمي مع الموقِّعين، وأنا كنت ـ كما سبق ـ مع الحاضرين والمناقشين، ولم أكن من الموقِّعين.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٤٠) ومسلم في الإيمان (٦٠)، عن ابن عمر.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله. وليس كذلك إلا حار عليه»[1] (أي رجع عليه).

ونحن نعتقد في إيمان المسؤولين بمصر بأنهم لا يردُّون على الله حكمًا ولا ينكرون للإسلام مبدأ، وأنهم يعملون على أن تبلغ الدعوة الإسلامية مداها تحقيقًا وتطبيقًا، ولكن انتظار الظروف المناسبة هو الذي يدعو إلى التريّث.

ولذلك نوجِّه إلى جمهور الشباب أن يكون وقّافًا عند حدود الله، وأن يبتعد عما يُسيء إلى الإسلام، وأن يدرك أن التغيير الذي طالبت به الشريعة يكون على مراحل رتيبة، فصّلها الحديث الصحيح الذي يقول: «من رأى منكم منكرًا فليُغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

وقد اتفق العلماء على أن تغيير المنكر باليد واجب على وليّ الأمر، وعلى كل إنسان في حدود ولايته، وأن تغيير المنكر إذا أدى إلى مفسدة أشد كان التوقف واجبًا، لأن إباحة تغيير المنكر بغير ضوابط يؤدي إلى شيوع الفوضى في المجتمع، ويضر بمصلحة الدين والوطن.

ولأنه من الثابت شرعًا أن تنفيذ الحدود إنما هو من حقِّ الحاكم أو من ينيبه، ولم يحدث ولا في العهد النبوي، ولا في عهود الصحابة، ولا من جاء بعدهم أن نصبت جماعة نفسها لتنفيذ الحدود والأحكام بدون إذن الحاكم الشرعي، بل الثابت في كل العصور أن الذي يقوم بتنفيذ الحدود وتغيير المنكر باليد، هم أولياء الأمور وحدهم.

ونحن على استعداد بوصفنا دعاة إلى الله أن نجلس مع كل من لديه شبهة أو فكر مخالف لكي نوضح له الحق ونرشده إلى الطريق القويم.

وثقتنا كبيرة في دولتنا أن تزداد حرصًا على إحقاق الحق وإبطال الباطل، وتدعيم الفضائل والقيم الدينية والخلقية، لأن ذلك يؤدي إلى سعادة الفرد والجماعة. ا.هـ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٤٥)، ومسلم في الإيمان (٦١)، عن أبي ذر.
(٢) رواه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأحمد في المسند (١١١٥٠)، عن أبي سعيد.

وقد ذكر اسمي ضمن الموقعين على هذا البيان، ولكني رددتُ على ذلك ببيان نشرته في صحيفة «الشعب» لسان حزب العمل. ولكني لم أوفق للحصول على نسخة منه، فمن عثر عليه فليتفضل بارساله إليَّ مشكورا، وجزاه الله خيرا.

ملحق رقم ٣

«القرضاوي حجة العصر وهو من نعم الله على المسلمين»

بقلم: الفقيه الكبير الأستاذ مصطفى الزرقا[1]

أخي العزيز الدكتور عبد الحميد الغزالي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

كنت وعدتُ حين جاءتني دعوتك لحضور هذا الاحتفال الميمون تكريمًا لأستاذ كريم هو الدكتور يوسف القرضاوي بأني سأحضر، ولو أني سأكون إذ ذاك مسافرًا لقضاء إجازتي في عمان، لأني أحببت الأستاذ الدكتور القرضاوي في الله لفضائله الجمة، ولأني - منذ عرفته قبل ثلاثين عامًا - رأيته في علماء الشريعة وقادة الفكر الإسلامي قمة. ومنذئذ رسخت محبته في قلبي، لأني ولوع بهذا النوع النادر من العلماء الذين فتح الله تعالى بصيرتهم، ونوَّر عقولهم، وفقّههم في دينه، وألبسهم لباس التقوى، إلى جانب ما وهبهم الله من العلم والعقل، حتى كانوا محل الثقة. وما أقل هذا الطراز النفيس بين علماء الشريعة وفقهائها أهل البصيرة في هذا العصر.

وقد أخبرتك أيها الأخ الكريم، بأني حريص أيضًا على أن أتكلم في هذه المناسبة عن مزايا هذا الأستاذ الكريم، وأحاول أن أبيّن بعض ما يستحقه من التقدير، ما لم تُعقني عوائق قاهرة عن تحقيق أمنيتي هذه بالحضور. وقد سافرت وأنا أحمل بين جنبي هذه النية والأمنية.

---

(١) تقدَّم في حديثي عن جائزة البنك الإسلامي للتنمية الإشارة إلى كلمة الفقيه الكبير العلامة الشيخ مصطفى الزرقا.

ولكن يبدو أن صحيفة القدر المغيب مرسوم فيها خلاف ما أتمنى.

فبعد وصولي إلى عمان بأيام قليلة عاودني ما طرقني في الرياض من المزعجات الصحيّة التي عُولجت منها هناك حتى زالت وسَمَح لي الطبيب بالسفر، فتجدّدت لدي المعاناة في عمان، ونصحني الطبيب بعدم السفر والإخلاد إلى الراحة التامة حتى نعالج أسباب هذه العوارض معالجة جذرية، فلم يكن لي بدّ من طاعة هذه النصيحة التي هي في عرف المرضى والأطباء كالأمر الإلزامي، ولا سيما لمن هم في الشيخوخة من أمثالي.

فأرجو أن تتقبّلوا عذري هذا في إخلاف وعدي بالحضور، ولكني في الوقت نفسه أريد ألاّ يفوتني التعبير عن مشاعري نحو هذا الاحتفال التكريمي، حتى إذا غاب شخصي عن هذه المشاركة أكون قد شاركتكم بروحي ووجداني وعواطفي.

إنّ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، وهو عندي نعمةٌ من الله تعالى أنعم بها على المسلمين في هذا العصر الذي كثُر فيه أشباه العلماء، وزاحموا في المظاهر العلماء الثقات، فاشتبه الأمر على المسلمين، وأصبح كثير منهم لا يعرف ممن يجب أن يأخذ دينه، ويلتزم بفتواه ورأيه دون غيره.

إنّ أربعة من أفاضل علماء الإسلام في هذا العصر ينطبق عليهم هذا الوصف، أنهم نعمة من الله تعالى على المسلمين في هذا العصر الذي ضاعت فيه الموازين والمقاييس، وانفصل فيه العلم عن التقوى، بعد أن كان العلم وتقوى الله متلازمين في الصدر الأول من الإسلام، فمن كان أكثر علماً كان أكثر تقوى وخشية من الله تعالى وموقفه بين يديه في الآخرة. والمسلمون محتاجون في كل عصر إلى من يثقون بعلمه وبصيرته في الأسس الثلاثة التالية:

١ـ عقيدة الإسلام الصحيحة.
٢ـ فقه الشريعة وأحكامها.
٣ـ الفكر الإسلامي العام الذي يحفظ حدود الإسلام من أن تضيع أو تختلط بها الأفكار المزيفة.

إن أولئك العلماء الأربعة المعاصرين الذين أراهم نعمة من الله على المسلمين في هذا العصر قد وزِّعت بينهم المعرفة والرسوخ والتعمُّق في بعضها دون بعض. فكل واحد

منهم هو اليوم منصرف إلى بعض هذه الأسس الثلاثة أكثر من الآخر، بحسب حاجة بيئته والتيارات المضللة التي تعبث بأفكار الناس، ولا سيما الناشئة المثقفة.

إني الآن أشعر بأن كل واحد من السادة والأساتذة الكرام المحتفلين بتكريم الدكتور القرضاوي قد أصبح متشوقًا إلى ذكر هؤلاء الأربعة الأعلام الذين قلت إنهم اليوم نعمة من الله تعالى على المسلمين.

إني سأذكرهم لكم الآن، وأبدأ بذكر الأسن فالأسن منهم.

(*) أحدهم فضيلة الأستاذ **الشيخ علي الطنطاوي** الذي نشأ مناضلًا عن حمى الإسلام بقلمه السحري ولسانه وعمله، في ظل الاستعمار الفرنسي في سورية ولبنان. وقد زاملته منذ تلك المرحلة، وكنت معجبًا بكل ما يقول ويكتب، ثم بعد ذلك بما يفتي.

(*) والآخر هو فضيلة الأستاذ الجليل **الشيخ أبي الحسن علي الندوي** الذي هو حجة الإسلام والمسلمين في بلاد الهند.

(*) والآخر هو فضيلة **الأستاذ الشيخ محمد الغزالي** الذي حفظ الله بعلمه وبصيرته الإسلامية وبقلمه السيّال حدود الإسلام الصحيح في وجه التيارات العاصفة المضللة التي تعبث بعقول الشباب المسلم، فقام بتمييز الحق من الباطل، وأدحض الشبهات، وشرح الإسلام خير شرح.

(*) ثم الأخير الذي أُتوِّجُ به هذه الكلمة هو الأخ المحتفى به الأستاذ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، الذي أخذ بحظ وفير من كل واحد من تلك الأسس الثلاثة، وتعمق في فقه الشريعة فكان بذلك حجّة العصر.

وقد تميَّز الأستاذ القرضاوي ـ بارك الله فيه ـ بإدراكه العميق لفقه الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، أو كما قال هو في بعض كتبه القيمة «فقه الأولويات» الذي به يستطيع العالم القائم بمهمة التوجيه والإفتاء أن يميز بين أصول الإسلام وفروعه، وبين الكلي والجزئي، والأهم والمهم.

والواقع أن فقه الأولويات هذا الذي أصبح من الضروريات التي تدعو إليها وتلحّ عليها دواعي العصر ومشكلاته، ينبغي أن يضاف إلى تلك الأسس الثلاثة، فتصير به أربعة.

أسأل الله تعالى أن يمدَّ في أعمار هؤلاء الأركان الأربعة العلماء الذين أنعم الله بهم على المسلمين اليوم، ويؤيِّدهم ومن هم على طريقتهم النَّيِّرة، ويرزقهم القوة على متابعة أداء رسالتهم، ويجعل فيما يقدِّمونه للأجيال الصاعدة من تبصير وتنوير، خير زاد يغذِّي تلك الأجيال بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة، ويشحذ هممها ويعلمها الإخلاص والتضحية في سبيل الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مصطفى أحمد الزرقا

ملحق رقم ٤
نصُّ الرسالة التي بعثتها
إلى جمعية الإرشاد والإصلاح أستنكر فيها
اختطاف الداعية محمد أبو سليماني[1]

الإخوة الأفاضل في جمعية الإرشاد والإصلاح

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد:

فقد أفزعنا نبأ اختطاف الأخ الداعية المجاهد، صاحب الأدب الجم، والخلق الرفيع الشيخ محمد أبو سليماني حفظه الله ورعاه.

وأعظم ما أفزعني: خشية أن يكون الذين اختطفوه من بين المحسوبين على الإسلاميين!! فهذا أسلوبٌ مرفوض من جميع المسلمين. ولا يجوز للمسلم أن يأسر أخاه المسلم أو يختطفه بحال من الأحوال. فكيف إذا كان هذا المسلم من حَمَلة الدعوة إلى الله، والعاملين لنصرة الإسلام، والواقفين في وجه التيارات المعادية لصحوته وأمته؟! إن هذا ـ والله ـ لمنكر يرفضه الدين، ويأباه العقل، وتنكره الأخلاق.

هذا وإن كنت أرجح أن ذلك من فعل جهة مشبوهة، تريد أن توقع الإسلاميين بعضهم ببعض.

---

(١) تقدم في ذكرياتي عن أحداث الجزائر المؤلمة، ما يتصل بخطف الداعية الصالح الشيخ محمد أبو سليماني وأحلت إلى هذين النصين في الملحقين ٤، ٥.

إننا نتابع ما يجري في الجزائر الحبيبة بقلوب مكلومة، وأكباد مقروحة، وتتقطع أفئدتنا لكل قطرة دم تراق بغير حق في جزائر البطولات، وأرض الشهداء.

وإننا ـ من منطلق الحب للجزائر والحرص عليها ـ لننادي الجميع حكامًا ومحكومين، عسكريين ومدنيين، إسلاميين ووطنيين: أن يتّقوا الله في وطنهم وشعبهم، وأن يسعوا جادّين إلى مصالحة وطنية جادة شاملة، تشارك فيها كل الأطراف، تعود بها البلاد إلى الحياة الطبيعية، ويتوقّف نزيف الدماء، ويغمد سيف القهر والتسلّط، ويرد الأمر إلى الشعب الحر ليختار لنفسه، في ظل حياة شورية ديمقراطية سليمة تُصان فيها الحرمات، وتُحترم فيها الحريات، وتُرعى الحقوق، في ضوء الضوابط المحكمة التي وضعتها شريعة الإسلام، وفي إطار الثوابت التي ارتضاها شعب الجزائر المجاهد، ولا يفرط فيها أبدا.

وإن أبناء الجزائرَ لأهل أن يستجيبوا لهذا النداء المخلص من كل من عرفوا الجزائر وأحبوها من علماء الإسلام ودعاته، ومن كلٍّ الأحرار الغيورين. فعلى الجميع أن يجعلوا المصلحة العليا للجزائر فوق مصالحهم الشخصية أو الحزبية، أو الطبقية، وأن ينتصروا على شهوات أنفسهم، حتى ينصرهم الله على عدوهم.

وإنا لهذا اليوم ـ الذي يسود فيه التفاهم والتصالح في الجزائر ـ لمنتظرون، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم

أ.د. يوسف القرضاوي

مدير مركز بحوث السنة والسيرة

بجامعة قطر

ملحق رقم ٥
نصُّ الرسالة التي بعثتها
إلى الجزائر أدين فيها قتل الداعية محمد أبو سليماني

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد:

لقد هزني هنا النبأ الجسيم: قتل الأخ الداعية المجاهد الشيخ محمد أبو سليماني، الذي لم نعرف فيه غير الصدق في القول، والإخلاص في الدعوة، والغيرة على الإسلام، والخلق الكريم، والسلوك المستقيم، ولا نزكّيه على الله تعالى وقد أفضى إلى ربه.. يرحمه الله.

ولست أبعث هذه الرسالة معزيًا في الأخ الكريم. فلو ساغ العزاء لكنا معزَّيْن فيه مثلكم، ولكن لا عزاء في الشهداء، فهم أحياء عند ربهم يرزقون.

إنما أبعث إليكم منكرًا على هذه الطغمة الضالة من الناس، الذين اختطفوا رجلًا شريفا أعزل، ووضعوه موضع الأسير، وهو مسلم لا يجوز أسره، ثم قتلوه وهو أسيرهم الذي يجب أن يحرسوه لا أن يسفكوا دمه.

هؤلاء الجبناء الأخسّاء، الذين يروغون روغان الثعالب، ويلدغون لدغ العقارب، ويغدرون غدر الذئاب، إن كانوا يدعون الوطنية فليسوا من الوطنية في شيء، وإن كانوا يدعون الإسلام، فقد وصفت الأحاديث النبوية أمثالهم بأنهم: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[١] وبينت سمتهم المميزة: أنهم «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان».

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٠٦٤)، عن أبي سعيد.

لقد كان أولى بهؤلاء أن يوجِّهوا سلاحهم إلى أعداء الإسلام، وأعداء الأمة، بدل أن يوجِّهوها إلى دعاة الإسلام وعلمائه، وأن يتحاوروا مع مخالفيهم بالرأي والكلمة، لا بالرصاص والقنبلة، وأن يعملوا في النور والعلانية، لا في السراديب المظلمة، وأن يتحمّلوا المسؤولية مثل الرجال، لا أن يقتلوا ويهربوا هروب الأنذال.

إنَّ الله ورسوله وصالحي المؤمنين بريئون من صنع هؤلاء الـذين لا أدري من هـم؟ ولا ما هم؟ ولا من وراءهم؟ هؤلاء الذين ماتت ضمائرهم، واختلفت عقـولهم، وضلَّ سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ولن يضيع دم الشهيد أبو سليماني هدرًا، فستلاحقهم لعنته، وستثأر له عدالة السماء إن أخفقت عدالة أهل الأرض، كما ثأرت من قبله لدم حسن البنا وعودة وقطب وغيرهم: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

رحم الله أخانا الحبيب أبا سليماني، وجزاه عن دعوته ووطنه وأمته خير ما يجزي به الدعاة الصادقين، وجعل منزله في الفردوس الأعلى مع من أحب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

إنَّ العين لتدمع، وإنَّ القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدوحة في: ١٨/ ٨/ ١٤١٤هـ

الموافق: ٣٠/ ١/ ١٩٩٤م

أخوكم

يوسف القرضاوي

ملحق رقم ٦
نداء إلى الإخوة في الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأحبة في الجزائر الحبيبة

يا أبناء المجاهدين والشهداء، ويا أحفاد الأئمة المصلحين والدعاة: الأمير عبد القادر والمقراني وعبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي والعربي التبسي والفضيل الورتلاني وغيرهم من أبطال الدعوة والجهاد.

أحمد الله تعالى، وأصلِّي وأسلم على رسوله وعلى آله وصحبه، وأحييكم جميعًا، على اختلاف نزعاتكم واتجاهاتكم بتحية الإسلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أبعث إليكم ـ أيها الإخوة الأعزاء ـ بهذه الرسالة الحزينة، بعد أن هزّني النبأ الفاجع بمقتل أخينا الفاضل النبيل لَحَسَن بن سعد الله النائب الثاني لرئيس جمعية الإصلاح والإرشاد، ورئيس تحرير مجلة الإرشاد أمام منزله، بستّ رصاصات قضت عليه في الحال، رحمه الله وتقبله في الشهداء المرضيين عند ربهم.

وقبل ذلك قتل إخوة له من الملتزمين بالإسلام، والدعاة إليه، ولا ذنب لهم نعلمه إلا أن يقولوا: ربنا الله، ورسالتنا هي الإسلام!

فهل يا تُرى رخصت الدماء في الجزائر الحبيبة إلى هذا الحد؟ وبأي كتاب أم بأي سنّة يُستباح الدم الذي حرّمه الله تعالى ورسوله؟ وقد عصم الإسلام الدماء والأموال بكلمة

الشهادة، فإذا قال الناس: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فقد عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله.

وقد روى ابن مسعود وغيره من الصحابة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

فهل قَتَل لحسن بن سعد الله نفسًا حتى يُقتصّ منه؟ أو اقترف جريمة الزنى وهو محصن، وشهد عليه أربعة شهداء؟ أو ارتدّ عن دينه وفارق جماعة المسلمين؟

كلاّ، والله، فما عرفته إلا مسلمًا مستمسكًا بعروة الإسلام الوثقى، ملتزمًا بالعمل بالإسلام، والدعوة إليه والغيرة على حرماته، والبغض للكفر والطاغوت، مع أدب جمّ، ولسان عفّ، وسلوك مهذب، وخلق كريم.

حتى تلك الجرائم التي ذكرها الحديث الشريف مبيحات للقتل، لم يدَعْها لتقدير الأفراد، بل للقضاء العادل يحكم فيها بعد أن يستوفي كل الشروط والإجراءات، ويدَعَ المتّهم يدافع عن نفسه، ويدعو المرتدّ الصريح إلى التوبة، ويزيح عنه الشّبهة، حتى لا يترك عقاب المجرمين لفرد متحمّس، مراهق في السن أو مراهق في الفكر، يعميه الغضب فلا يرى، أو تصمّه العجلة فلا يسمع، يجعل من نفسه مفتيًا وقاضيًا ومنفذًا، وبهذا يتعرض المجتمع كله للخطر.

أنا لا أبعث بهذه الرسالة معزيًا في رجل عرفته، فقد قتل مظلومًا، وهو شهيد عند ربه إن شاء الله، والشهداء لا يُعزّى فيهم، فهم أحياء عند ربهم يرزقون.

ثم من يُعزّي ومن يُعزَّى، وكلنا في الواقع مصابون.

فيأيها الإخوة الأحبة في الجزائر:

اتقوا الله في «إسلامكم» الذي تشوّهه فئة منكم اليوم بهذه الأعمال التي لا تميّز بين برّ وفاجر، ولا تفرّق بين بريء ومسيء، والتي عميت عن أوليات الإسلام في تحريم الدماء والأموال والأعراض، فهي لا تبالي بقتل الصالحين، وقتل النساء والأطفال، وقتل المعاهدين، وغير ذلك من التصرفات غير المسؤولة التي يطيّرها الإعلام العالمي في الآفاق، ويتخذ منها ذريعة لإبراز المسلمين في صورة الوحوش، بل إن الوحوش

لا يقتل بعضها بعضًا، ولكن الإسلاميين يستحلّ بعضهم دماء بعض؛ لمجرد اختلافهم في المواقف والاجتهادات. وهذا ينعكس بالسوء على إخوان وأخوات لكم يعيشون في أوربا وفي الغرب عامّة.

اتقوا الله أيها الإخوة في (شعبكم) الذي قدّم في حرب تحريره المليون ونصف المليون من الشهداء، وصبر على ظلم الحاكم، وحكم الظالم أكثر من ربع قرن، هذا الشعب الذي أولى ثقته وأعطى أصواته لمن ناداه باسم الإسلام.

اتقوا الله في «وطنكم» لا تعرّضوه للخراب والانهيار، بتحطيم مؤسساته وتهديم أبنيته ومقومات حياته، فإن الوطن إذا خرب وانهدم سينهدم على رؤوس الجميع، وأوّلهم أنتم، وإذا كنتم تريدون أن تحكموا هذا الوطن، فكيف تحكمون وطنا خرابًايبابًا؟!

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى أصحابه في حروبهم مع المشركين والكفار المحاربين: ألاّ يقطعوا شجرًا، ولا يهدموا بناء، فكيف يجوز لنا أن نحرق نحن أرضنا أو مدارسنا أو نخرّب بيوتنا بأيدينا؟

إن الجهاد في سبيل الله ـ بأهدافه الكبيرة وضوابطه الشرعية ـ مطلوب ومفروض، ولكن هناك فرقًا بين الجهاد المنضبط وبين العنف العشوائي الذي تمارسه فئة تسلّلت إلى صفوف الإسلاميين وليست منهم، فهي تخرّب مقومات البلد، وتسفك الدماء بالجملة، وفي النهاية لا يستفيد من هذا أحد، إلاّ أعداء الإسلام، وأعداء الأمة، وأعداؤكم أنفسكم.

اتقوا الله في «إخوانكم» فكل مسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله، والقرآن الكريم يقرّر: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢). ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء:٩٤).

والأحاديث النبوية الشريفة ترهب أبلغ ترهيب من سفك الدماء: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم بغير حق» و«لا يزال الرجل في فسحة من دينه ما لم يصب دمًاحرامًا» و«كل ذنب عسى أن يغفره الله إلا الرجل يموت مشركًا، أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا».

وإياكم أيها الإخوة الطيبون في أنفسكم المخلصون في نياتكم ـ أن تخدعوا أنفسكم أو

يخدعكم آخرون لم ترسخ أقدامهم في العلم، بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من الشرع برهان، فإن الأصل في نفوس المسلمين العِصمة، وفي دمائهم الحُرمة، بل صحّ الحديث: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة»، فكيف بقتل المسلم؟ وكيف إذا كان هذا المسلم داعية إلى الله وإلى دينه؟

فاتقوا الله في دماء المسلمين، وأعدّوا للسؤال جوابًا، حين يجيء المقتول يوم القيامة وتشخب أوداجه دمًا، يقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟

واحذروا أن تدعوا المحكمات إلى المتشابهات، وتتأوّلوا فيما لا يجوز التأويل فيه.

أيها الإخوة في الجزائر الحبيبة:

أنا أعلم مقدار ما وقع عليكم وعلى الشعب الجزائري كله من ظلم وبغي بغير الحق، فقد ألغت السلطة الظالمة نتائج انتخابات الشعب، وصادرت حقه في اختيار من يمثّله، وفرضت الوصاية عليه بالقوة الباطشة، وقطعت عليه طريق الشورى والديمقراطية التي كانوا يتغنون بها، وحاصرته بالأحكام الجائرة، فأخذت بالظنة، وأعدمت بالشبهة، وقتلت وعذبت، وشردت البرآء الذين لا جرم لهم، تحت عناوين شتى وبغير عناوين أيضًا.

ولكن لا ينبغي أيها الأحبة أن نعالج الخطأ بالخطأ، ونداوي الظلم بظلم آخر، فمن المقرّر شرعًا: أن الضرر لا يزال بضرر مثله، ناهيك بضرر أكبر منه.

أما أنتم أيها الإخوة المظلومون والمعتدى عليهم: أدعوكم إلى أن تعتصموا بالصبر والمصابرة، وأن تكظموا غيظكم في سبيل الله، ولا تفكّروا في القصاص والانتقام من ظالمكم، حتى لا نزيد النار اشتعالًا: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت:٣٥).

في الفتنة تكون النصيحة: «كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل»، و«كن كخير ابني آدم» وهو الذي قال له أخوه الجائر: لأقتلنك، فكان جواب المؤمن: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٨، ٢٩).

يا إخوة الجزائر:

لقد عشت بينكم وعرفتكم، وأحببتكم من كل قلبي، وأنا والله مشفق عليكم، وعلى مصير هذا البلد العزيز علينا، فخذوها مني نصيحة لوجه الله، لا أريد منكم جزاء ولا شكورًا، وانتفعوا بدروس التاريخ من قبلكم ومن حولكم.

وليس هناك من سبيل للخروج من المأزق الراهن، ومن المحنة القاسية التي تعانيها البلاد إلا بالحوار والتفاهم الذي يحترم الثوابت الشرعية والوطنية، ويصون الحريات، ويرعى الحقوق والحُرُمات لكل الناس، ويعمل بجد وإخلاص للعودة إلى الشورى والمسار الانتخابي، والرجوع إلى الشعب ليختار لنفسه في ظل الثوابت المقررة وتحت راية الإسلام.

وإنّ الشعب الجزائري اليوم ليرتقب ذكرى عزيزة عليه: ذكرى الأربعين لبدء ثورته المجيدة للتحرير في أول نوفمبر القادم، فاجعلوا من هذه المناسبة فرصة لمصالحة وطنية عامة، يعود فيها الجميع إلى رحاب الوطن، مكفرين عن الماضي، معنيين بالحاضر، مستشرفين للمستقبل.

فإذا لم نستجب لدعاء الدين، ونداء العقل، ونداء التاريخ، ونداء المصلحة، فلا يعلم إلا الله ماذا ستكون العواقب؟ وكم ستكون الخسائر والتضحيات؟ وسيندم الجميع حينذاك حيث لا ينفع الندم، ويرجون الخلاص، ولات حين مناص.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٤٤).

١٠ جمادى الأولى ١٤١٥هـ

الموافق ١٥ـ ١٠ـ ١٩٩٤م

أخوكم

يوسف القرضاوي

ملحق رقم ٧

صورة من خط الأستاذ الأميري

في إهدائه لديوانه «مع الله»[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أهديه إهداء صادراً في الله إلى الأستاذ

الكبير المؤمن الشيخ يوسف القرضاوي مع المودة

والتقدير، والدعاء إلى الله أن يجعلنا دائماً

معه وجميعنا على إعلاء كلمته

بيروت في غرة شعبان ١٣٩٤

عمر بهاء الأميري

---

(١) تقدم ذكر إهدائه في ديوانه «مع الله» في ذكرياتي عن الأستاذ الأميري.

ملحق رقم ٨

نص إجازة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى تابعيهم بإحسان من العلماء العاملين، من الفقهاء والمحدثين، وسائر أهل العلم المتقين.

أما بعد فيقول العبد الضعيف عبد الفتاح بن محمد أبو غدة الحلبي منشأً وداراً، تاب الله عليه، وغفر له ولوالديه: قد طلب مني الإجازة في الحديث الشريف وعلومه أخي وصديقي العلامة الدراكة الداعية الجليل، والمحدث الفقيه الحاذق النبيل، الأستاذ المفضال الشيخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الله القَرَضاوي، الغني عن التعريف، حفظه الله تعالى ورعاه، ونفع به العباد والبلاد وأولاه، وهو صاحب التصانيف المفيدة الرائقة، والآثار النافعة الفائقة، الشاعر المفكر الإسلامي، الموهوب المحبوب، وهو غني عما طلب، بما آتاه الله تعالى من العلوم الواسعة، والمواهب العالية الساطعة، فامتنعتُ أول الأمر من تلبيته، إجلالاً وتقديراً لفضله ومنزلته، متى استقت البحار من الركايا، ولكنه أصر واستمر، فأجبته إلى طَلِبته، فأقول:

أجزتُ أخي العلامة الجليل الشيخ يوسف القرضاوي بما أجازني به شيوخي الأجلة رحماتُ الله عليهم، في بلاد الشام ومصر والحرمين الشريفين والهند وباكستان والمغرب واليمن والعراق وغيرها من البلدان، ليكون ذلك اتصالاً منه بسادتنا المحدثين الكبار، وعلمائنا الأفاضل الأخيار، والإجازةُ لتحفظ أجلّ سنة أولئك الأئمة الأبرار.

فأجيزه بما أجازوني به، وبكل ما صح لي وعني روايته وكتابته، ليتصل سنده بسندهم، ويكون في سلك قافلتهم، وتنالني دعواته الصالحة، وأوصيه ونفسي -كما أوصاني به شيوخي وأساتذتي- بتقوى الله تعالى في السر والعلن، والتوقير لأهل العلم والدين، والسلف الصالحين، وأن يكون خير معلِّم لمن يتعلم منه العلم والدين، رحمةً وشفقةً وأمانة وورعاً وإتقاناً في التوقيع عن رب العالمين، والله ولي المتقين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وكتبه

الفقير إلى الله تعالى

عبد الفتاح أبو غدة

في الدوحة من قطر يوم الثلاثاء ٤ من ذي الحجة سنة ١٤١٣

---

(١) تقدم عند ذكر دعوة العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة لمركز بحوث السنة بقطر، طلب إجازتي واتصال سند الرواية عن طريقه، فكتب لي هذه الإجازة.

ملحق رقم ٩
كلمتي بمناسبة حصولي
على جائزة الملك فيصل[1]

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على هادي الناس إلى الحق، ومعلم الناس الخير، محمد بن عبد الله ورسوله، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز ـ النائب الثاني لرئيس الوزراء

أيها الحفل الكريم

خير ما أحييكم به تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أما بعد:

فهذا مقام الحمد والشكر لله جل ثناؤه، وتباركت أسماؤه، الذي وظفنا في خدمة دينه، وجعل عملنا الذود عن شريعته، وتبليغ رسالته، ونصرة دعوته، ثم أثابنا على ذلك في الدنيا قبل الآخرة تقديرًا وتكريمًا، فكنا أشبه بأم موسى التي ترضع ولدها وتأخذ عليه أجرًا.

فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ

---

(١) تقدم ذكرها في حديثي عن جائزة الملك فيصل.

نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. (النمل: ١٩).

وقد علمنا رسولنا الكريم أن شكر الله تعالى لا يتم إلا بشكر عباده، فقد روى أبو هريرة وغيره عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

وإني لأشكر الذين رشحوني، والذين اختاروني، والذين أنشئوا هذه الجائزة التي أعتبر مضمونها الأدبي والمعنوي أهم وأعلى بكثير من مضمونها المادي.

ولا غرو أن تصدر هذه الجائزة من بلد حوى أول بيت وضع للناس ـ بيت الله الحرام ـ الذي جعله مثابة للناس وأمنًا، وإليه تتجه وجوه المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كل يوم خمس مرات، ويفدون إليه كل عام حاجين، وكل حين معتمرين.

وهو البلد الفذ الذي تنكس أعلام الدنيا كلها ولا ينكس علمه، لأنه يحمل أصدق كلمة في الوجود: (كلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله).

وقد ضم إلى هذه الأمجاد مجدًا آخر، بهذه الجائزة العالمية التي ارتبطت باسم رجل عزيز على كل مسلم، أحبه المسلمون حيًّا، وترحموا عليه ميتًا، ذلكم هو الملك فيصل رحمه الله، الذي كان رمزًا للتضامن الإسلامي، والدعوة إلى تحرير المسجد الأقصى، والصمود في وجه العدوان الصهيوني.

والحق أني لا أعتبر هذه الجائزة مجرد تكريم شخصي، بل هي في الواقع تكريم لاتجاه، وتقدير لتيار، أومن به وأدعو إليه، وهو اتجاه الوسطية الإسلامي، الذي يجمع بين السلفية والتجديد، ويوازن بين ثوابت الإسلام ومتغيرات العصر.. يشدد في الأصول، وييسر في الفروع.. ينهل من الماضي، ولا يهمل الحاضر، ولا يغفل عن المستقبل.

اتجاه يرى أن الاجتهاد فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الشرع، وضرورة يحتمها الواقع، ويحترم نتائج الاجتهاد، وإن خالفت رأيه، مادام صادرًا من أهله في محله، ويتبنى ما قاله أمير المؤمنين في الحديث، وإمام الفقه الورع سفيان بن سعيد الثوري: إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشدد فيحسنه كل واحد. كما يتبنى قاعدة المنار الذهبية «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».

وإن أعظم نعم الله علينا هي نعمة الإسلام الذي أكرمنا الله به وارتضاه لنا شرعًا ومنهاجًا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾. (المائدة: ٣).

وإذا كان القرآن آخر كتب الله، ومحمد خاتم رسل الله، فإن شريعته هي خاتمة الشرائع الإلهية، لهذا أودعها الله الصلاحية لكل زمان ومكان، فهي شريعة عالمية خالدة.

وإني لموقن يقينا لا ريب فيه: أن الفقه الإسلامي المعبر عن هذه الشريعة ـ بمصادره الغنية، وأصوله المحكمة، وقواعده الضابطة، ومدارسه الاجتهادية، وثروته الفكرية ـ لجدير أن يمد الأمة بكل ما تحتاج إليه من فتاوى وأقضية وتشريعات، تحقق المصلحة، وتدرأ المفسدة، وتلائم الفطرة، وتقيم الموازين القسط بين الناس.

كل ما نفتقر إليه ليحيا هذا الفقه وينمو ويزدهر أمران:

الأول: اجتهاد معاصر قويم، ينظر إلى الإسلام وأصوله بعين، وينظر إلى العصر بعين أخرى، سواء كان اجتهادًا ترجيحيًّا يختار من أقوال الفقهاء ـ على تعدد مشاربهم ومذاهبهم منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم ـ ما كان أقوم قيلًا، وأرجح دليلًا، وأقرب إلى تحقيق أهداف الشرع ومصالح الخلق، ويرعى قاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال.

أم كان اجتهادًا إنشائيًّا، يفتي في القضايا الجديدة وما أكثرها في ضوء النصوص والمقاصد الشرعية، دون تعصب لرأي قديم، ولا عبودية لفكر جديد، مغلبين سعة النصوص علي ضيق الأقوال، وتيسير السَّلَف على تشديد الخَلَف، وفقه مدرسة المقاصد على حرفية مدرسة الظواهر، وتحرر المتقدمين على تعصب المتأخرين، وشجاعة أهل التجديد على تحرج أهل التقليد، مؤكدين ما قاله الإمام ابن القيم: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة

إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل»[1].

الثاني: أن يدخل الفقه ميدان التطبيق، ولا يظل حبيس الكتب، فإن أعظم ما يحيي الفقه العمل به، ووضعه موضع التنفيذ في الفتوى والقضاء والتشريع، وبهذا يمتزج الفقه بالحياة، وتمتزج به الحياة. كما ظل كذلك طوال ثلاثة عشر قرنًا لم تعرف الأمة لها فيها مرجعًا قانونيًّا ولا قضائيًّا، غير الشريعة وفقهها، وإن جار من جار في التطبيق.

وآخر ما أصاب الفقه في هذا العصر: عزله عن التقنين والحكم في مجالات الحياة المختلفة، فيما عدا مجال الأسرة والأحوال الشخصية، وإن كان بعض البلاد فرط فيها هي الأخرى.

وكان أهم ما وضعه الاستعمار عند احتلاله للديار الإسلامية هو: إبعاد الشريعة وفقهها عن توجيه الحياة بأحكام الله، ولم يكد يسلم من ذلك بلد في العالم الإسلامي كله إلا هذا البلد الذي نجاه الله من الاستعمار، ونجاه بالتالي من الدخول في قفص القوانين الوضعية المستوردة.

بهذين الأمرين تعود للفقه حيويته وخصوبته وازدهاره، ويغدو قادرًا على مواجهة التطور وتوجيهه، في إطار المشروع الحضاري الإسلامي الذي هو حلم أمتنا الكبرى.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفق أمتنا للعمل بشريعته، وأن يجمع كلمتها على الهدى، وقلوبها على التقى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفقير إلى عفو ربه
يوسف القرضاوي

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٣).

ابْن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة

هذا الجزء الرابع من ملامح سيرة ومسيرة «ابن القرية والكُتّاب» يشمل سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي، والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي:

على المستوى الشخصي، تخرج كل أبنائي، وتزوج كل بناتي، وأمسيت جدًّا لعدد من الأحفاد والحفيدات. عينت عميدًا لكلية الشريعة ومديرًا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجحت في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت. كما اخترت عضوًا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوًا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، وعضو مجلس أمناء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية. كما حصلت على بعض الجوائز العالمية.

على المستوى العربي والإسلامي، انتصرت ثورة الإمام الخميني في إيران، وقامت الحرب العراقية الإيرانية، وغزا صدام حسين الكويت، وانتصرت ثورة الإنقاذ في السودان، وقام أول حزب سياسي إسلامي في الجزائر. وبدأت مسيرة الدعوة إلى السلام أو الاستسلام مع إسرائيل، ابتداء بكامب ديڤيد وانتهاء بأوسلو. وانطلقت شرارة الانتفاضة الأولى في فلسطين، وتأسست حركة حماس وكتائب عز الدين القسام، وانتشرت دعوة الإخوان المسلمين في نحو سبعين قطرًا في العالم.

على المستوى العالمي، انتهزت أمريكا غزو الكويت لتقود تحالفًا دوليًا ضد العراق لتضرب أقوى جيش في المنطقة يهدد إسرائيل. وقام الاتحاد الأوربي، بينما تفرق والمسلمون شيعًا وأحزابًا؛ كل حزب بما لديهم فرحون.

ومن خلال هذه المذكرات، سيمر القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا والإسلامية؛ بحكم أنني أعيش في قلب هذه المنطقة وهذه الأحداث. وقد قدر لي المرحلة أن أتفاعل بها ومعها متأثرًا ومؤثرًا؛ ولذلك يصعب أن تفصل ما هو عما هو عام. فقد كنا نعيش هموم الأمة، وآلامها وآمالها؛ عليها نمسي ونصبح ونتحرك.

يوسف القرضاوي

Bibliotheca Alexandrina
1125154


ISBN 978-977-09-2885-1
9 789770 928851

دار الشروق
www.shorouk.com